الصحوة

«رحلتي الى الثقلين»

دراسة نقدية تحليلية لبعض محطّات التراث الإسلامي ومناقشة للقاضي ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم ولعدد آخر من المؤلفين القدامى والمعاصرين

تأليف

صباح علي البياتي

كلمة المجمع

إنّ من طبيعة الناس أن يختلفوا; ولكن الله يحبّ أن تبقى هذه الاختلافات المطلوبة داخل إطار التصور الإيماني الصحيح. ومن ثم لم يكن بدّ أن يكون هناك ميزان ثابت يفيء إليه المختلفون. وقد أنزل الله الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه(١).

وبغير هذا الحق الواحد الذي لا يتعدد; لا يستقيم أمر هذه الحياة . وهذا الذي يقرره القرآن يقوم على قاعدة التوحيد المطلق. ثم يقع الانحراف ، وتتراكم الخرافات والأساطير، حتى يبعد الناس نهائياً عن ذلك الأصل الكبير.

ومن هنا يتبيّن أنّ الناس ليسوا هم الحَكَم في الحق والباطل ما داموا عرضة للهوى والبغي والضلال .

ولقد جاء الكتاب.. ومع ذلك كان الهوى يغلب الناس من هنا وهناك; وكانت المطامع والرغائب والمخاوف والضلالات تبعد الناس عن قبول حكم الكتاب، والرجوع الى الحق الذي يردّهم إليه.

فالبغي ـ حسب النصّ القرآني(٢) ـ هو الذي قاد الناس الى المضيّ في الاختلاف وفي اللجاج والعناد.

والجهل عامل آخر للاختلاف والفرقة، غير أنّ الجاهل ينبغي أن يسأل العلماء ماجهل، كما قال تعالى: **(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)**(٣).

ومن هنا كان تجاوز الجاهل لهذا الأصل الذي يرتضيه العقل ويستسيغه العقلاء بغياً وتعدّياً لأوضح القواعد والطرق التي من شأنها أن تسدّ طريق الفرقة والاختلاف.

والإسلام دين الله الخالد الذي تمثّلت حقائقه في نصوص كتاب الله وسنّة رسوله الذي لا ينطق عن الهوى وإنّما هي وحي يوحى.

وقد علم الله ورسوله أنّ أُمّته ستختلف من بعده، كما اختلفت في حياته.

من هنا جعل القرآن للأمة نبراساً من بعد الرسول يحذو حذوه(صلى الله عليه وآله) ويقدّم للأمة ما تقصر عن فهمه وتفسيره، وهو أهل البيت(عليهم السلام) ، وهم المطهّرون من كل رجس ودنس والذين نزل القرآن على جدّهم المصطفى وتلقّوه منه فعقلوه عقل

(١) و (٢) راجع الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

(٣) الانبياء: ٧ و النحل: ٤٣ .

وعاية ورعاية، فآتاهم الله ما لم يؤت أحداً سواهم.. كما نصّ الرسول(صلى الله عليه وآله)على مرجعيتهم الشاملة في حديث الثقلين المشهور، فحرصوا على صيانة الشريعة الإسلامية والقرآن الكريم من الفهم الخاطئ والتفسير الباطل ودأبوا على تبيان مفاهيمه الرفيعة، فكانوا مرجعاً للأمة وملاذاً للمسلمين، يدفعون الشبهات ويستقبلون الاسئلة والإثارات بحلم وأناة. ويشهد تراثهم المعطاء على حُسن تعاملهم مع أصحاب السؤال والحوار، ويدلّ على طول باعهم وعمق إجابتهم التي تشهد لهم بمرجعيتهم العلمية في هذا المضمار.

والكتاب الذي بين يدي القرّاء الكرام هو رحلة أحد الاخوة الى مذهب أهل البيت(عليهم السلام) بعد دراسة عميقة وتحقيق في كتب التراث، توصل من خلالها الى انّ مذهب أهل البيت هو الحق الذي يجب اتّباعه والتمسّك به.

وقد بادر المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام) ـ منطلقاً من مسؤولياته التي أخذها على عاتقه للدفاع عن حريم الرسالة ومذهب أهل البيت(عليهم السلام) ـ الى طبع هذا الكتاب، راجين من الله تعالى أن يتقبّله من مؤلّفه الأستاذ صباح علي البياتي وغيره من الاخوة الذين ساهموا في اخراج الكتاب بما يليق به إنّه خير معين والحمد لله ربّ العالمين.

المجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)

قم المقدسة

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

بعث الله نبيه محمداً(صلى الله عليه وآله) بالهدى ودين الحق، فأخرج به البشرية من الظلمات الى النور، وأنزل عليه كتاباً محفوظاً لا يتغير على مرّ الأزمان، فيه الهدى والنور والعصمة من الضلال، ودعا فيه الأمة الى الاجتماع ونبذ الفرقة، فقال عزّ من قائل(**واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تَفرقوا**)(٤). وأخبرهم بأن الفرقة والتنازع يؤديان الى الضعف والفشل وذهاب القوة والمنعة، وتسلط أعداء الدين عليهم، فقال: (**ولا تنازعُوا فتفشَلوا وتذهبَ ريحكُم**)(٥).

لكن على الرغم من كل ذلك، فإن الخلاف قد ذرّ قرنه بين المسلمين، ولم تمض أيّام قليلة على فراق النبي(صلى الله عليه وآله) أُمته، حتى خرج المسلمون حاملين سيوفهم على عواتقهم، يضرب بعضهم وجوه بعض، ثم تطوّر الأمر أكثر فأكثر، فراحت تظهر فرق وطوائف تحمل أسماءً شتى، تتخذ من الجدل والسفسطة ديدناً، ويغلو بعضها فيحكم بايمانه وحده ويرمي جميع المسلمين ممن لا يؤمن بفكرته بالكفر، وتتطور الأمور إلى الاسوأ فالأسوأ، فتتجرد السيوف مرة أُخرى لتحزّ أعناق المخالفين، وإذا كان المسلمون في بداية أمرهم قد اقتتلوا وهم يظنون أنهم جميعاً على دين الإسلام، فإن ما حدث بعد ذلك، ان الفرق الإسلامية بدأت تتناحر فيما بينها مستحلّة دماءها وأموالها واعراضها، وكأن المخالف لها خارج عن الملّة حلال الدم والمال .

ومن المؤسف حقاً ان يستمر هذا الى يومنا الحاضر، وبعد مرور أربعة عشر قرناً من الزمان، فتجد تبادل التهم بالكفر والضلال سائراً بين عدد من فرق المسلمين، والدعوات تنبعث من جهات تدّعي حمل لواء الإسلام الى زيادة بذور الفرقة والتخاصم بين المسلمين، وصمّ الاسماع عن كل الدعوات للمّ الشمل وتوحيد المسلمين، وفتح القنوات للحوار الحرّ العلمي الموضوعي من أجل التوصل الى الحقيقة، وتشخيص موطن الداء، ومعرفة أماكن الخلل منذ بداية الأمر، وإعادة النظر

(٤) آل عمران : ٣ .
(٥) الأنفال : ٨ .

لتقييم التراث الديني من أجل التوصل الى الحقيقة حتى وإن كانت صعبة ومرّة، فإنها أفضل من دفن الرؤوس في الرمال، وبقاء المشكلة قائمة الى الأبد، وليس ثمة ما يخدم أعداء الإسلام أكثر من ذلك.

وهذا الكتاب ليس الاّ محاولة متواضعة لتشخيص مواطن الداء، وتعيين أنجح السبل لإيقافه، ليكون ذلك فاتحة لأصحاب النوايا الحسنة ممن يهمهم مصلحة الإسلام والمسلمين لإعادة النظر في كل ما سبق، من أجل بناء نظرية إسلامية متينة تستطيع الثبات بوجه الأعاصير العاتية التي تهب عليها من كل مكان.

ولست ادّعي أنني استوفيت كل ما يجب استيفاؤه في ذلك، ولا أُحطت علماً بكل ما ينبغي علمه، ولكن عذري للقارئ عن تقصيري أنني قد بذلت ما وسعني البحث، وليس بعد الجهد حيلة.

الفصل الأول: المنعطف

المنعطف

لم تكن هناك مشكلة في بداية الأمر، فيما يتعلق باتجاهي الفكري الديني، فلقد تعلمت الصلاة في سن مبكرة، وبدأت أواظب على قراءة القرآن عند أحد جيراننا، والذي كان إمام مسجد الحي، وكنت طيلة سنيّ شبابي الأولى، أتردد على المسجد القريب من البيت للمواظبة على الصلوات طلباً لثواب الجماعة.

كان إمام المسجد هو مرجعنا الديني، وقد بدأت علاقتي معه تتوثق مع مرور الأيام، فكنت آتي المسجد في وقت مبكر، حيث أجلس إليه، يشاركني في ذلك بعض الشبان المتدينين، وكانت الحلقة تضم كهولا من أبناء الحي أيضاً، فنجلس ونتداول بعض الأمور الدينية، ونتبادل الآراء حول بعض المسائل الفقهية المبتلى بها، وكثيراً ما كان الشيخ إمام المسجد يخصص بعض الجلسات ليحدثنا عن أئمة المذاهب الأربعة وعلمهم وتقواهم-وبخاصة الشافعي- حتى صار هؤلاء الأئمة الأعلام مثلا أعلى نسعى للاقتداء بهم.

مضت بضع سنوات على تلك الحال لم تصادفني فيها مشكلة في العقيدة، كانت الأمور تتلخص في المواظبة على العبادات، والإلتزام بحسن الخلق والاستقامة، وهذه الأمور تكفي لأن تجعل المرء مرضياً عند الخالق والمخلوقين، وتضمن له سعادة الدارين، كما كان يؤكد لنا إمام مسجدنا.

بقي الأمر على تلك الحال، حتى في أحد الأيام، ذهبت فيه الى المسجد لأداء فريضة العصر، وكعادتي في التبكير بالذهاب لكي تتاح لي فرصة مجالسة الإمام قبل أن يحين وقت الصلاة.

عندما دخلت حجرته، وجدته يحدّث رجلا كهلا يجلس بين يديه مستمعاً الى نصائح الشيخ الذي كان يحدّثه عما يجب فعله لأداء فريضة الحج، فجلست استمع للمحاورة، حتى أثار انتباهي ملاحظة أبداها الشيخ، وفيها يوصي الرجل بأن يتحول من المذهب الشافعي الى المذهب الحنفي قبل الانطلاق أثارت هذه الملاحظة دهشتي، إذ أنني لم أكن قد سمعت بمثلها من قبل، ولم أفهم السبب الموجب لتغيير المذهب، لذا فإنني انتظرت بفارغ الصبر انصراف الرجل لأبادر الشيخ إمام المسجد بالسؤال عن سبب ضرورة تغيير هذا الرجل مذهبه.

أجاب الشيخ مبتسماً : حتى يجوز له ملامسة النساء أثناء الطواف، لأن ذلك وفق مذهبنا ينقض الوضوء كما تعلم.

أطرقت مفكراً، فقد كانت المرة الاولى التي اتنبه فيها الى هذه المسألة. نعم، كنت أعرف أن اتباع المذاهب الأخرى - من غير الشافعية - لا يتوضؤون من الملامسة، ولكنني لم أكن قد أعرت الأمر شيئاً من الأهمية، ولكن في هذه المرة بدأت أفكر في الأمر بشكل جاد.

سألت الشيخ : إذا لامس الرجل الحنفي المذهب إمرأة من غير المحارم، ثم صلى دون أن يعيد الوضوء، فهل صلاته صحيحة؟

قال : نعم.

قلت : لكن الشافعي المذهب تكون صلاته باطلة، وعليه إعادة الوضوء والصلاة؟

قال : نعم.

قلت بدهشة : كنت أعتقد أن صلاة الأحناف وغيرهم غير صحيحة تبعاً لذلك

قال : ليس الأمر كذلك، الجميع صلاتهم صحيحة إذا اجتمعت شروطها الأخرى.

فكرت في الأمر ملياً، ثم سألت الشيخ قائلاً:

أي المذاهب الأربعة صحيح وجدير بالاتّباع أكثر من غيره؟

قال : كلها صحيحة وجديرة بالاتّباع

قلت متسائلا : كيف حكم الشافعي ببطلان الوضوء من الملامسة وخالفه الآخرون في ذلك؟

قال : تبعاً للاجتهادات، فالشافعي(رضي الله عنه) اجتهد في تأويل آية الملامسة بأنها تعني تلامس البشرة، وتأول غيره بأنها تعني الجماع، كل حسب اجتهاده.

قلت : فالإمام الشافعي قد انفرد بهذا التأويل، ألا يمكن أن يكون مخطئاً؟

قال الشيخ بغضب : كيف تجرؤ على تخطئة الإمام الشافعي، وماذا نكون نحن بالنسبة الى هذا الإمام المجتهد رضوان الله تعالى عليه، حتى نخطّئه!!

أُخذتُ بسورة الغضب، فأطرقت ساكتاً.

قال الشيخ متكلفاً الهدوء : يا بني، لا تردد مقالات أعداء الإسلام الذين يريدون التشكيك في معتقداتنا وفي أئمتنا رضوان الله عليهم.

قلت : إنني لم أُردد مقالة أحد.. لكنه كان سؤالا خطر ببالي.

قال الشيخ ملاطفاً : أعلم أن نيتك سليمة فلا تؤاخذني.. سل عما شئت.

قلت : أخشى أن يغضبك سؤالي.

قال : كلا، لن أغضب فسل عما شئت.

قلت : ما هو سبب الاختلاف بين المذاهب؟

قال : تبعاً لاجتهادات الأئمة، لقد بذل كل منهم جهده في استنباط الأحكام من الأدلة المتوفرة لديه، وكان لكل منهم رأيه الخاص في تلك الأدلة، ولكنهم جميعاً مجتهدون، وهم مأجورون حتى لو أخطأوا كما أخبر النبي(صلى الله عليه وآله) بذلك.

قلت : إذا كانت جميع المذاهب صحيحة، فهل يجوز الانتقاء، كتقليد أحد الأئمة في بعض المسائل، وتقليد غيره في مسائل اُخرى؟

قال بحزم : كلا، لا يجوز ذلك، إن ذلك تحايل على الشريعة.

قلت : لكننا نقلد الإمام أبا حنيفة أثناء الحج

قال : مؤقتاً، لضرورة تستدعي ذلك، وتنتفي بانتفائها.

قلت : لماذا لم يجتمع المسلمون على مذهب موحّد يجمع شملهم وينهي الاختلاف؟

قال : إن الاختلاف ضروري لتيسير الشريعة على المكلفين، وقد قال النبي(صلى الله عليه وآله): **«اختلاف أمتي رحمة»**.

حان وقت الصلاة فافترقنا، وبعد الانصراف ناداني الشيخ فرافقته الى حجرته حيث ناولني كتاباً وهو يقول: لا تنس أن الاختلاف رحمة.

قرأت على غلاف الكتاب : رحمة الأمة في اختلاف الأئمة.

بدأت بقراءة الكتاب في البيت، ورغم ذلك فإنني لم اقتنع، كانت القضية بالنسبة لي تتطلب جواباً على تساؤلات منها: إذا كان أحد الأئمة قد أخطأ في اجتهاده، وتبين للمكلف خطؤه، فلماذا لا يجوز مخالفته في تلك المسألة والأخذ برأي مجتهد آخر؟ وإذا كان الشافعي قد أخطأ في تأويل آية الملامسة، فما يدريني كم أخطأ هو وغيره في مسائل اُخرى؟

مع المذاهب

كانت أشهر الصيف بالنسبة لي فترة خصبة، كنت اتفرغ فيها للمطالعة، وها هي العطلة الصيفية توشك على البدء، فلأستغلها في البحث، وهذه المرة ليست كتب الأدب والروايات ـ التاريخية منها خاصة ـ بل كتب الفقه، وتذكرت أن صاحب كتاب «الميزان» ـ الذي بهامشه كتاب رحمة الأمة ـ قد ذكر أنه قد قرأ كثيراً من الكتب، وأورد قائمة طويلة بأسمائها قبل تصنيفه لكتابه هذا، فحاولت أن أتتبع بعض ما قرأ منها، ولكنني بقيت شهوراً أدور في حلقة مفرغة دون أن أصل الى شيء حاسم، لكن

كتب الطبقات التي وقعت في يدي أفادتني بعض الشيء في توضيح بعض الأمور التي كنت غافلا عنها، فقد كانت هذه الكتب ترفع من شأن أئمة المذاهب -كل يطري إمام مذهبه ويحيطه بهالة من القدسية- مما ذكّرني بما كان يحدثنا به إمام مسجدنا من مناقب اولئك الأئمة، والتي تبيّن لي أنها كلها كانت مفتعلة، وضعها المتعصبون لمذاهبهم، وظهرت لي الخلافات التي كانت بين أرباب المذاهب وتخطئة بعضهم البعض، بل وحتى تكفير بعضهم البعض أحياناً، ولاحت لي في سماء الفقه أسماء لم أكن قد سمعت بها من قبل، وتساءلت متعجباً: أين كان هذا الحشد من الفقهاء، ولماذا لم أسمع بهم؟! وقد أرشدني أمين المكتبة - وكان صديقاً لي- الى بعض الدراسات الحديثة في هذا الشأن، مما أتاح لي الفرصة للتعرف على الأدوار التي مرّت بها مسيرة الفقه الإسلامي وبداية نشأة المذاهب، ومن تلك الكتب : (تاريخ المذاهب الاسلامية) للشيخ محمد أبو زهرة، فتمكنت من متابعة مسيرة الفقه من بدايته وحتى العصر الحاضر، وخلاصة ذلك:

إن التشريع الإسلامي قد مرّ بأدوار متعددة: دور الرسالة النبوية، ودور عصر كبار الصحابة، ثم صغار الصحابة، ثم التابعين وتابعي التابعين... الخ. وفي عصر تابعي التابعين ظهر بعض أئمة الفقه كأبي حنيفة الذي أخذ عن ابراهيم النخعي والشعبي، وحماد بن سليمان، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم من التابعين.

وعلماء التابعين الذين أخذ عنهم أئمة المذاهب هم الفقهاء السبعة من أهل المدينة، وهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وأبو بكر بن عبيد بن الحارث، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد بن ثابت. وقد نقل علم هؤلاء السبعة ابن شهاب الزهري وربيعة الرأي، وهما ممن تتلمذ عليه الإمام مالك.

وحول الاختلاف بين المذاهب، يقول محمد أبو زهرة: «تكونت مذاهب الأمصار، وقد ابتدأ الاختلاف في المدائن بتكوين المدارس الفقهية، فكان بالعراق مدرسة فقهية لها منهاج، ثم بالحجاز، ثم بالشام، ثم كان الشيعة لهم مدرستهم، ثم صار بعد ذلك في كل مدرسة رجل بارز يلتف حوله تلاميذ يمدّهم بالرواية، والدراية الفقهية... فكان بالكوفة شيخ القياس أبو حنيفة، وكان بالمدينة شيخها مالك، وكان بالشام شيخها الأوزاعي، وكان بمصر الليث ابن سعد، ثم جاءت الطبقة الثانية، فكان الشافعي وأحمد وداود، وتتابع من بعدهم الاجتهاد، ثم الانحياز المذهبي، فأصبح المجتهد لا يجتهد اجتهاداً مطلقاً، بل يجتهد في دائرة مذهبه، ثم انتقل الاجتهاد في

دائرة أُصول المذهب الى التقيد بآراء الامام، مع الاجتهاد فيما لم يرو فيه نص في المذهب، ثم صار من بعد ذلك الى التقيد بآراء المجتهدين في المذهب والتخريج عليها، ثم الى الجمود والوقوف عندما انتهى إليه السابقون، إذ يقفون عندها لا يعدونها».

ومن الأمور المهمة التي أثارت انتباهي، هي أن الفقهاء الكبار لم يكونوا يرون لأقوالهم هذه القدسية التي نراها نحن لهم اليوم من اتباعهم، فأبو حنيفة يقول: «هذا أحسن ما وصلنا اليه، فمن رأى خيراً منه فليتبعه».

وقد سأله البعض : أهذا الذي انتهيت اليه هو الحق الذي لا شك فيه؟

فقال : لا أدري، لعله الباطل الذي لا شك فيه

والشافعي كان يحث أصحابه على مخالفة قوله إذا وجدوا حديثاً يخالفه ويقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وأن مالكاً كان ينهى أصحابه عن كتابة فتاويه، وعندما رأى أحد تلاميذه يدوّن أقواله قال له: ويحك يا يعقوب أتكتب كل ما أقول؟ إني قد أرى رأياً اليوم وأُخالفه غداً، وقد أرى الرأي غداً وأُخالفه بعد غد. وان الامام أحمد بن حنبل يقرر أن لكل انسان أن يجتهد[٦].

فهؤلاء الأئمة الكبار قد اجتهدوا على قدر طاقاتهم، ولم يلزموا أحداً بالجمود الى آرائهم، ولكن الناس جمدوا بعد ذلك على آرائهم، وهكذا أخذ الإتّباع يسود التفكير الفقهي. ومن وراء الاتّباع كان التقليد; فالتقليد سار من القرن الرابع الهجري ولكنه كان تقليداً جزئياً ابتداءاً، ثم أخذ نطاقه يتسع حتى صار تقليداً كلياً في آخر العصور، كما يقول الشيخ أبو زهرة.

ويلخص الشيخ أبو زهرة أسباب التقليد بعدة نقاط وهي :

١ ـ إتّباع التلاميذ لشيوخهم.

٢ ـ القضاء

٣ ـ وجود ثروة فقهية انتجتها القرون الثلاثة الأُولى، مما جعل أكثر المسائل توجد لها حلول فقهية.

٤ ـ التعصب المذهبي، وخاصة بين أتباع المذهب الحنفي وأتباع المذهب الشافعي.

(٦) انظر تاريخ المذاهب الاسلامية ، الكتاب الثاني : ٢٦٥ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ .

بعد أن توصلت الى هذه النتائج، وقفت حائراً فيما يجب عمله، فلم أجد أمامي سبيلا إلاّ أن أخلع ربقة المذاهب كلها من عنقي، وأن أنتقي ما أعتقد صوابه دون الالتزام بمذهب معين.

وكانت أُولى الأُمور التي فعلتها بهذا الشأن، أنني خالفت الامام الشافعي في الوضوء.

مع الصوفية

تعرفت في هذه الأثناء على صديق كان يميل الى التصوف، ومن ثم راح يحدثني عن الصوفية وكراماتهم، وعندما سألني عن رأيي في التصوف، قلت بغير اكتراث:

أعتقد أن التصوف بدعة.

صاح بشيء من التأثر : بدعة!!

قلت : عفواً .. أعني أن السلف الصالح ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ لم يعرفوا هذا الشيء الذي تتحدث عنه.

قال باشفاق : ما رأيك أن يكون أعظم صحابي رائداً للصوفية؟

قلت : أتعني أبا بكر الصديق(رضي الله عنه)؟

لم يتركني في حيرتي، بل أخرج قصاصة من صحيفة قديمة كانت ترجمة عربية لما جاء في احدى الصحف الغربية بُعيد القاء القنبلة الذرية على بعض المدن اليابانية، وكان فحوى المقال: «ان الخليفة المسلم الصوفي علي ابن أبي طالب كان أول من تحدث عن انشطار الذرة...الخ» أو ما أشبه ذلك.

أثارت المقالة دهشتي، وشعرت ببعض الزهو والفخر، عندها قال صاحبي: أليس من العجب أن يعرف الغربيون عن سلفنا الصالح ما نجهله نحن؟!

ثم راح يحدثني عن الصوفية وأصلها ونشأتها بشكل ملخص، والخرقة التي قد توارثوها عن علي بن أبي طالب(كرم الله وجهه)، وعلم الباطن، والفناء في ذات الله...الخ. لكن الشيء الذي استأثر باهتمامي من كلامه هو العلم الذي كان عند علي بن أبي طالب(رضي الله عنه)، وجاءت مسألة الذرة مصداقاً لذلك، فقد كان لعلي من المواهب ما لا يملكه غيره من الصحابة إذاً، وتذكرت أنني طالما قرأت كثيراً من اعترافات الصحابة(رضوان الله عليهم) بتقدم «علي» عليهم في سائر العلوم، ولطالما

قرأنا قول عمر بن الخطاب(رضي الله عنه): لولا علي لهلك عمر. إستغل صاحبي هذه المسألة، وراح يحاول اجتذابي الى الفكرة الجديدة، وأعطاني في أحد الأيام كتاب (إحياء علوم الدين) للامام الغزالي، وقد أعجبتني فكرة الزهد والرياضة الروحية التي يتحدث عنها الكتاب، وبدأت أحاول تطبيق ذلك على نفسي، لكنني لم أتمكن من الاندماج مع جماعة الصوفية تماماً، إلاّ أنني بقيت على علاقة طيبة مع بعضهم...

أفكار جديدة

تعرفت بعد سنوات على صديق جديد، التقينا في المسجد، وتحدثنا بعد خروجنا، عن الاسلام وهموم المسلمين ومسألة المذاهب والتقليد، وفوجئت بأن الفتى كان يحمل بعض الأفكار الغريبة والجريئة أيضاً، خصوصاً أنني وجدته متفقاً معي في نبذ تقليد المذاهب، وعندما سألته عن مصدر معلوماته تردد قليلا في البوح بها، ولكنني ألححت عليه، فاعترف بأنه يتلقى هذه المعلومات من شيخه.

أبديت له رغبتي في التعرف على الشيخ، فوعدني خيراً، وبعد أيام طلب مني التهيؤ للقاء الشيخ.

توجهنا الى منزل الشيخ الذي استقبلنا بالترحاب ثم راح يحدثنا في مواضيع مختلفة، وتطرق في حديثه الى موضوع المذاهب واختلاف المسلمين بسببها، وأنحى باللائمة على المسلمين الذين تعلقوا ببعض المعتقدات الفاسدة، وتطرق في حديثه الى الصوفية، فراح يتهكم عليهم

خمّنت أثناء الحديث أن يكون الشيخ وهابياً، ولم تكن معلوماتي عن الوهابية واضحة جداً، ولكنني كنت ألاحظ أن جماعة الصوفية كانوا يذمونهم كثيراً، وكذلك كان إمام مسجدنا من قبل يمقتهم ويحذرنا منهم ومن بدعهم وضلالاتهم... بقيت ساهراً تلك الليلة، فاللقاء مع الشيخ كان مثيراً الى حد ما، وقفزت الى ذهني تساؤلات كثيرة لم أجد لها جواباً، لذا بكرت بالذهاب الى منزل الشيخ على غير موعد.

استقبلني بحرارة، لكنني أخبرته بأني قد جئت للتحدث معه على انفراد، فأدخلني الى البيت، وعندما استقر بنا المقام، أقبل علي الشيخ بنظرات متسائلة.

قلت بعد تردد : هل أنتم وهابيون؟

قطب حاجبيه قليلا، ثم قال مبتسماً : ماذا تعرف عن الوهابية؟

قلت : ليس كثيراً، ولكن يبدو أن هنالك أوساطاً كثيرة لا ترتاح لسيرتهم.

قال : (**وأكثرُهم للحقِّ كارهون**)، ألا ترى أن أكثر الناس كانوا يحاربون الأنبياء؟

أطرقت ساكتاً : فابتدرني بالقول: نحن في الحقيقة سلفيّون، وإن عقيدتنا تقوم على التوحيد ونبذ الشرك ومحاربة البدعة، فهل ترى في ذلك بأساً؟

قلت : كلا، بل أن أساس الدين يقوم على هذه الدعائم.

قال بانشراح : فذلك ما نرمي إليه، أن نعيد الاسلام الى سيرة السلف الصالح، ونحرر المسلمين من الخرافات والبدع وننقذهم من الشرك.

ثم انبرى الشيخ للحديث بالتفصيل عن هذا الأمر مستكثراً من الشواهد القرآنية وداعماً كلامه ببعض الأحاديث النبوية الشريفة أحياناً والسيرة المثلى للصحابة الكرام. حتى خلص الى حقيقة مفادها: أن أكثر المسلمين قد انحرفوا عن الاسلام حين تركوا خط السلف.

قلت : ماذا عن الأمور المتعارف عليها بين المسلمين، والتي أصبحت في حكم المسلّمات.

قال بحدّة : كلها بدع لا أصل لها، وهي التي قادتهم الى الشرك.

قلت : فمعظم المسلمين اليوم هم في الحقيقة مشركون؟!

قال : نعم، بالتأكيد.

شعرت ببعض الأسى، إلاّ أن الشيخ كان قوي العارضة، وكان يدعم آراءه بالشواهد القرآنية المتتالية، حتى أحسست بالعجز أمام أدلته، ولم أجد بداً من الاستسلام للفكرة الجديدة والاعتراف بصوابها.

الدعوة

بدأت مرحلة جديدة من العمل، وبخاصة في أوساط الشباب، وكانت الفكرة التي ندعو إليها برّاقة جذابة، تتمثل في محاربة الشرك والبدعة، والدعوة الى التوحيد الخالص، وإعادة الاسلام والمسلمين الى الطريق الصحيح الذي انتهجه السلف الصالح.

تأقلمت مع الفكرة الجديدة بعد أن اقنعت نفسي بصوابها - رغم ما في النفس - واندفعت في العمل مع باقي أعضاء الجماعة، فكنا نلتقي بالشيخ أسبوعياً حيث نتدارس القرآن، وكان الشيخ يستمع الى آرائنا ويعطينا المزيد من المعلومات، ثم يقوم

بتوجيهنا، وزودنا ببعض مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب وابن تيمية وابن قيم الجوزية وغيرهم، كما لاحظت أن الشيخ كان يفسّر لنا الآيات معتمداً على تفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب.

حاولت في هذه الأثناء أن أجتذب أقربائي الى الفكرة الجديدة، الاّ أن معظمهم رفض الأفكار الجديدة، وعندما شكوت الى الشيخ ما اُلاقي منهم - وكنت أتوقع أن يواسيني ويسألني دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة - لكنه فاجأني بقوله متمثلا بالآية الكريمة : **(إنَّ الذينَ كَفروا سَواءٌ عليهم أأنذرتَهُم أم لَمْ تُنذِرهُم لا يُؤمنونَ)**[٧].

الانفصام

بدأت سحب الخلاف تظهر بيني وبين الشيخ عندما ناقشته حول بعض الأمور التي وردت في بعض الكتب التي كان يوصينا بقراءتها.

كان الأمر يتعلق بالدرجة الاولى ببعض المعلومات التاريخية التي وردت فيه، لكنني لاحظت أن الشيخ كان مقتنعاً تماماً بالأمور التي اعترضت عليها، والمتلخص بتمجيد بني اُمية الذي كان الشيخ متحمساً فيه، بل وكان يمجّد حتى ولاة بني اُمية كالحجاج بن يوسف الثقفي وغيره، حيث اعتبرهم الشيخ من المجاهدين المخلصين للاسلام، واعتبر خلفاء بني اُمية جميعاً اُمراء للمؤمنين بحق، حيث رفعوا راية الاسلام ونشروه في مختلف الأصقاع.

وعلى الرغم من أن تاريخ ابن كثير كان معتمدنا الأول في معلوماتنا التاريخية، الاّ أن الشيخ كان يعترض أحياناً على بعض آراء ابن كثير أيضاً، خصوصاً قوله بتفسيق بعض خلفاء الأمويين الذين اعتبرهم الشيخ كلهم اُمراء للمؤمنين لا ينبغي ذكرهم الاّ بعبارات الثناء لأنهم قد خدموا الاسلام، وأن كل ما يثار حولهم من شبهات، إنما هي من صنع أعداء الاسلام، وحتى قضية ثورة الحسين بن علي(رضي الله عنه) بدا الشيخ ميالا الى جانب يزيد وتصويب موقفه، وتخطئة موقف الحسين، وكذا حول وقعة (الحرّة)، وأن أهل المدينة قد أخطأوا بخروجهم على إمامهم يزيد بن معاوية، وأن يزيد ليس بمسؤول عما حدث.

(٧) البقرة : ٦ .

وعندما احتججت على الشيخ بخروج معاوية على الخليفة علي بن أبي طالب(رضي الله عنه)، أجابني الشيخ بأن الأمر هنالك مختلف، فمعاوية صحابي جليل، ولم يكن خروجه لغاية دنيوية ولا طلباً للملك، ولكنه كان يريد الاقتصاص من قتلة عثمان الذين كانوا في جيش علي بن أبي طالب الذي رفض تسليمهم لمعاوية.

قلت : هل تنكر أن معاوية وحزبه كانوا بغاة؟

قال : لا، ولكنهم مجتهدون مخطئون، وهم مأجورون على كل حال.

كانت قضية الاجتهاد والتأول في الفقه، الاّ أنها انسحبت على كل الأمور الأخرى على ما يبدو، حتى المتضمنة الخروج على طاعة الامام وقتل المسلمين. صار الاتفاق بيني وبين الشيخ أمراً عسيراً، وخفّت حماستي للعمل، فأدلة الشيخ هذه المرة لم تكن مقنعة تماماً، فبادرني بالقول:

يا أخي، إن التاريخ الاسلامي قد تعرض للتزييف والتشويه من قبل أعداء الاسلام، وبخاصة الروافض، فانهم لم يألوا الاسلام شراً، وإذا أردت التحقق من ذلك ومعرفة تاريخ الاسلام على وجهه الصحيح، فعليك بكتاب (العواصم من القواصم) لابن العربي، وسوف يثبت لك هذا الكتاب أن كل ما أثير حول الصحابة من شبهات لا أساس له من الصحة، ولو كان الكتاب في متناول يدي لأهديتك إياه، ولكنك تستطيع الحصول عليه من المكتبات.

العواصم من القواصم

بحثت عن الكتاب الذي أوصاني الشيخ به في المكتبات حتى عثرت عليه، وقال لي صاحب المكتبة وهو يناولني الكتاب: هذه نسخة جديدة منقحة ومحققة تحقيقاً علمياً بشكل ممتاز.

بدأت بقراءة الكتاب في البيت، وكان مؤلفاً من متن للقاضي ابن العربي(٨). وهوامش كثيرة للشيخ محب الدين الخطيب ومحمود مهدي الاستانبولي ودار النشر التي تولت طبع الكتاب.

(٨) قال الذهبي في تذكرة الحفاظ ٤ : ١٢٩٤ : ذكره أبو يحيى اليسع بن حزم وبالغ في تعظيمه وتقريظه وقال: فولي القضاء فمُحِن وجرى في اعراض الامارة فلحق وأصبح تتحرك بآثاره الالسنة، نصب الشيطان عليه شباكه وسكن الادبار حراكه، فأبداه للناس صورة تُذم وسوءة تبلى، لكونه تعلق بأذيال الملك، ولم يجر مجرى العلماء في مجاهرة السلاطين وحربهم، بل داهن، ثم انتقل الى قرطبة معظماً مكرما حتى حوّل الى العدوة فقضى نحبه... قال ابن بشكوال : توفي ابن العربي بالعدوة بفاس في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وفيها أرّخه الحافظ ابن المفضل والقاضي ابن خلكان، وفي تاريخ ابن النجار في نسخة نقلت منها: سنة ست وأربعين، والأول صحيح.

كان الكتاب عبارة عن محاولة من مؤلفه ومحققيه لاضفاء طابع الشرعية على كل المواقف التي اتخذها الصحابة في الفتنة التي وقعت في خلافة عثمان وما بعدها، والاعتذار لهم عن كل ما بدا منهم.

لكن الأمر الذي أثار استغرابي هو أن المؤلف يلقي آراءه من خلال الروايات التي يستشهد بها دون الاشارة الى مصادرها، ودون ذكر أسانيدها كما هو متعارف عليه عند المصنفين القدامى، وذلك ما حاول المحققون وبخاصة محب الدين الخطيب تلافيه بالارجاع الى المصادر والتعليق عليها وتفصيل ما ذكره ابن العربي مجملاً. الاّ أن القاضي ابن العربي يحاول فرض آرائه على القارئ ويطالبه بتصديقها دون مناقشة، وكأنه شاهد عيان يروي كل ما جرى على حقيقته، مع اعترافه بأن الفاصلة الزمنية بينه وبين تلك الحوادث هي خمسة قرون، وكما تبين في تاريخ وفاته من ترجمته.

كنت كلما استغرقت في قراءة الكتاب، تبين لي هفواته أكثر فأكثر، فهو يرفض جملة من الأخبار عن بعض الحوادث التاريخية التي هي في حكم المسلّمات عند جمهور المسلمين بكافة طوائفهم، مثل قضية الحوأب وغيرها.

وكانت الهفوة التي أسقطت اعتبار الكتاب في نظري، قول المؤلف:

«وأما معاوية : فعمر ولاّه، وجمع له الشامات كلها، وأمّره عثمان، بل إنما ولاّه أبو بكر الصديق(رضي الله عنه)، لأنه ولّى أخاه يزيد، واستخلفه يزيد، فأقره عمر لتعلقه بولاية أبي بكر لأجل استخلاف واليه له، فتعلق عثمان بعمر وأمّره; فانظروا الى هذه السلسلة ما أوثق عراها...»(٩).

ولكن فات ابن العربي انّ السلسلة قد انقطعت بتولي علي بن أبي طالب الخلافة، ولو كان معاوية كما يصفه ابن العربي حقيقة، فلماذا لم يقرّه علي أيضاً تعلقاً بأسلافه، ولماذا أراد إزاحته عن ولاية الشام؟ اليس معنى ذلك ان معاوية قد ارتكب في خلافة عثمان اُموراً استحق عليها العزل؟ نعم، ربما كان معاوية مستقيماً في عهد أبي بكر وعمر، وبخاصة وأن عمر كان شديد الوطأة على ولاته وعمّاله يحاسبهم حساباً عسيراً، فاضطر معاوية للاستقامة خوف العزل، ولكن يبدو أن تساهل عثمان معه قد أطمعه ودفعه الى ارتكاب اُمور غير مشروعة دون خوف من عقاب أو عزل، مما حدا بعلي بن أبي طالب أن يعيد النظر في أمره ويقرر عزله فوراً عن ولاية الشام،

(٩) العواصم من القواصم: ٩٥.

إلاّ إذا قلنا أن علياً كان ظالماً لمعاوية دونما سبب وأراد عزله دون وجه حق، ولا أظن أن أحداً يقبل بمثل هذا القول، ولا حتى ابن العربي نفسه.

إلاّ أن عبارة للشيخ محب الدين الخطيب اعجبتني كثيراً وأفادتني فيما بعد، وهي قوله:

ومعيار الأخبار في تاريخ كل أمة الوثوق من مصادرها، والنظر في ملائمتها لسجايا الأشخاص المنسوبة اليهم، وأخبار التاريخ الاسلامي نقلت عن شهود عيان ذكروها لمن جاءوا بعدهم، وهؤلاء رووها لمن بعدهم. وقد اندس في هؤلاء الرواة أناس من أصحاب الأغراض زوّروا أخباراً على لسان آخرين وروجوها في الكتب إما تقرباً لبعض أهل الدنيا، أو تعصباً لنزعة يحسبونها من الدين.

ومن مزايا التاريخ الاسلامي -تبعاً لما جرى عليه علماء الحديث- أنه قد تخصص فريق من العلماء في نقد الرواية والرواة، وتمييز الصادقين منهم عن الكذبة، حتى صار ذلك علماً محترماً له قواعد، وألفت فيه الكتب، ونظمت للرواة معاجم حافلة بالتراجم، فيها التنبيه على مبلغ كل راو من الصدق والتثبت والأمانة في النقل، وإذا كان لبعضهم نزعات حزبية أو مذهبية قد يجنح معها الى الهوى ذكروا ذلك في ترجمته ليكون دارس أخبارهم ملماً بنواحي القوة والضعف من هذه الأخبار. والذين يتهجمون على الكتابة في تاريخ الاسلام وتصنيف الكتب فيه قبل أن يستكملوا العدة لذلك - ولا سيما في نقد الرواة ومعرفة ما حققه العلماء في عدالتهم أو تجريحهم- يقعون في أخطاء كان في إمكانهم أن لا يقعوا فيها لو أنهم استكملوا وسائل العلم بهذه النواحي(١٠).

عبارة الشيخ الخطيب دفعتني الى التأمل والتساؤل: لماذا أظل معتمداً على آراء الآخرين وأنتظر منهم حلّ مشاكلي الفكرية؟ لماذا لا أبدأ العمل بنفسي وأحقق كتب التراث متبعاً الأسلوب العلمي في عصر كثرت فيه البحوث والدراسات؟ أن بامكاني حتماً أن استفيد من تجارب الآخرين وبحوثهم وأقارن بين وجهات النظر المختلفة، وبعد أن أستكمل الحد الأدنى المقبول من العدة التي أحتاجها، سوف أبدأ بخوض التجربة بالاتكال على الله بعد الأخذ بالأسباب، فمسيرة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة كما يقال.

(١٠) العواصم من القواصم : ٧٦ هامش : ٦٦ .

وبدأت فعلا عملية البحث التي قادتني في رحلة طويلة بين طيات كتب التراث، والتي سأحاول تلخيصها في هذا الكتاب والله ولي التوفيق.

الفصل الثاني: التاريخ الإسلامي

التاريـخ الإسلامـــي

من الأمور التي باتت تلفت الانتباه، هي النداءات الكثيرة التي تطالب بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي وتنقيته مما قد علق به، بهدف الخروج بتاريخ صحيح يحفظ للأمة الاسلامية تراثها العريق، ويقطع الطريق أمام محاولات الدس والتشويه فيه.

ولعل من حق الفرد المسلم أن يتساءل: أين يكمن الخلل في تاريخنا حتى بات من المحتّم إعادة كتابته من جديد؟!

لقد ظلت الأمة تتلقى تاريخها من المصادر المعروفة التي دُوّنت قبل أكثر من ألف عام، وبالتحديد عندما ظهرت المدوّنات التاريخية الكبرى، وبخاصة (تاريخ الأمم والملوك) للمؤرخ الكبير (محمد بن جرير الطبري) المتوفى سنة (٣١٠ هـ)، ومنذ ذلك اليوم أصبح هذا السِّفر الضخم، هو المصدر الرئيس الذي ينهل منه المؤرخون ويستقون معلوماتهم عن الفترة الأكثر أهمية وحساسية من تاريخ الأمة الإسلامية، ألا وهي الفترة الممتدة من مبعث الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله)، ومن ثم وفاته وبدء عصر الخلافة الراشدة، وما تبع وفاة النبي(صلى الله عليه وآله) من خلاف بين المسلمين، أدّى الى وقوع الفتنة الكبيرة في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، والتي آلت في نهاية الأمر الى مصرع الخليفة نفسه، ثم ما تبع ذلك من حروب دامية بين المسلمين أنفسهم وللمرة الاولى منذ بدء الرسالة النبوية الشريفة، ثم انتقال الخلافة الى بني اُمية بعد مصرع الخليفة الرابع علي بن أبي طالب وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وإلى نهاية حكم يزيد بن معاوية، أي على مدى نصف قرن تقريباً من بدء التاريخ الإسلامي.

لقد كانت الخطوط العريضة لهذه الحوادث واضحة يتناقلها المؤرخون الذين جاءوا من بعد الطبري جيلا إثر جيل، دون تغيير مهم، حتى جاءت الموجة الجديدة من الغرب بعد نهضته، يركبها بعض الباحثين المتخصصين الذين اُصطلح على تسميتهم بالمستشرقين، فراحوا يجوبون أقطار الأرض -ومنها البلاد الاسلامية-

ويستخرجون كنوزها الثقافية، منكبّين على دراستها وتمحيصها، متّبعين أساليب جديدة في البحث، أساسه النقد الموضوعي، ومن ثم تسطير آرائهم النقدية وتحليلاتهم هذه في كتب ألفوها وقاموا بنشرها على نطاق واسع مستفيدين من تطوّر الطباعة في سرعة الانجاز والنشر.

وكانت أهداف هؤلاء المستشرقين من هذا العمل تنصبّ في اتجاهين: أحدهما نزيه يستهدف خدمة العلم وإغناء الثقافة البشرية بما يهيؤه ذلك العمل من تمازج في التراث الانساني، والاتجاه الآخر خبيث مدفوع من أوساط معيّنة تهيء للاستعمار الغربي وسيلة فعّالة للغزو الثقافي الذي هو أخطر أنواع الغزو، من خلال تنشئة جيل جديد من المسلمين، مقطوع الصِّلة بتراثه الأصيل عن طريق زرع بذور الشك في نفوس الناشئة، تمهيداً لسلخهم من تراثهم الإسلامي الأصيل، ذلك لأن «معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين، أو من المتخرجين من كليات اللاهوت، وإنهم وان تطرقوا الى الموضوعات الحسّاسة من الاسلام، حاولوا جهد إمكانهم ردّها الى أصل نصراني، وطائفة من المستشرقين من يهود، خاصة بعد تأسيس إسرائيل وتحكّم الصهيونية في غالبيتهم»(١١).

وعلينا أن نعترف بأن أُولئك المستشرقين قد حققوا نجاحاً خطيراً في مسعاهم هذا، حيث إن البعثات العلمية التي خرجت من البلاد الإسلامية الى الغرب بهدف الدراسة في جامعاته، قد ضمّت عدداً غير قليل من الطلاب الذين وقعوا فريسة لهذا التغريب الثقافي الذي انعكس في مؤلفات العديد منهم، والتي كانت محض تعريب لأفكار وطروحات أُولئك المستشرقين الذين نجحوا في إيقاعهم في الشَّرَك.

أمام هذه الموجة الارتدادية الحضارية، بدأت تتعالى النداءات من قبل بعض الجهات في العالم الاسلامي ـ استجابة لنداءات المخلصين الذين راحوا يحذّرون من مكائد اولئك المستشرقين ويفضحون تخرصاتهم ـتطالب باعادة كتابة التاريخ الإسلامي والمحافظة على هذا التراث الخالد، حفظاً للأجيال القادمة من عبث أعداء الإسلام بهم.

أهمية علم التاريخ

قد يعتقد بعض السطحيين أن التاريخ ليس إلاّ سرداً لوقائع ماضية قد عفا عليها الزمان، فما الحاجة الى الاهتمام به الى هذا الحد، بدلا من الالتفات الى الانجازات

(١١) تاريخ الإسلام ، جواد علي : ١٠ .

العلمية، ومحاولة اللحاق بالركب العالمي بدلا من الانشغال بملاحقة أحداث وقعت منذ قرون، لا يجدي البحث فيها شيئاً ولا يغني الحضارة والتقدم العلمي الحديث.

لكن الحقيقة أن هذه النظرة الى التاريخ - وبخاصة التاريخ الاسلامي- قاصرة تماماً عن إستيعاب حركة الصراع الحضاري العالمي الذي يمثل التاريخ أحد أهم أوجهه، فالمسلمون ينظرون الى تاريخهم على أنه جزء لا يتجزأ من عقيدتهم الدينية نفسها، فأبطال هذا التاريخ ليسوا كأبطال التاريخ اليوناني والروماني وغيرهما من الأمم، لأن دور اولئك الأبطال كان محدوداً بتلك الحقب التي عاشوها أو التي امتدت بعدهم الى حين، أما شخصيات التاريخ الإسلامي، فتتمثل أهميتهم في ارساء قواعد عقيدية لها ارتباط تام بفلسفة الفرد المسلم ومجتمعه الذي تتحكم فيه العقيدة الإسلامية وما يترتب على ذلك من آثار تتعلق بكافة النواحي الحياتية للفرد والمجتمع، وبما يكفل للمسلم نفحات روحية تجعل لوجوده على هذا الكوكب معنىً أسمى من مجرد بناء هياكل عمرانية وأُسس حضارية خالية من القيم الروحية التي تشدّ أجزاء المجتمع الإسلامي بعرىً وثيقة لا تنفصم، تلك العرى التي تفتقر اليها معظم المجتمعات الغربية العلمانية المتحضرة، لأن تاريخها لا يمثل بالنسبة اليها جزءاً من عقيدتها الدينية.

أما بالنسبة للمسلمين، فإن لتاريخهم خصوصية خاصة بالنسبة لهم «لأن هذه الأمة ذات وضع معين في التاريخ... إنها ليست مجرد أمة من أمم الأرض، إنها أمة الرسالة الخالدة التي حملت رسالة الرسول الخاتم(صلى الله عليه وآله) الذي أرسل الى البشرية كافة، والى قيام الساعة»(١٢).

نظرتان مختلفتان للتاريخ

قلنا إن الأصوات بدأت تتعالى للبدء بكتابة التاريخ الإسلامي من جديد، إلاّ أن هذه النداءات كانت ذات اتجاهين مختلفين: أحدهما اتجاه محافظ يحاول التشبث بالتاريخ الموروث الى حدّ التطرف ورفض أي مناقشة أو تعديل فيه، وبشكل انسحب فعلا على أسلوب كتابات عدد من المؤلفين والباحثين الذين راحوا يرددون مقالات المؤلفين القدامى بعد صياغتها في قوالب جديدة من حيث الشكل، قديمة من حيث المحتوى، وتيار آخر يعتمد الاستفادة من مناهج البحث الحديثة في نقد التاريخ

(١٢) كيف نكتب التاريخ ، محمد قطب : ١٩ .

الإسلامي ومحاولة الكشف عن الحقائق التي يمكن استخراجها من خلال كمٍّ هائل من الروايات المتضاربة التي تميز التاريخ الإسلامي عن بقية الأمم.

وقد وجد كل من التيارين أنصاراً يدعمونه، إلاّ أن التيار المحافظ كان أكثر رجحاناً، لأن بعض المؤسسات الدينية ـ التي تستمد نفوذها غالباً من الرأي العام- قد دعمته بكل قوة، ذلك لأن هذه المؤسسات غالباً ما تميل الى تقديس تراث الأسلاف، وتعتبر المساس بهذا التراث زيغاً عن العقيدة الإسلامية، وانطلاقاً من هذه النظرة المحافظة، تحولت بعض هذه المؤسسات الى ما يشبه الكنيسة في العصور الوسطى في الغرب، والتي كانت تضطهد أصحاب الأفكار التقدمية الجديدة حتى لو كانت صحيحة، مما جعل الباحث المسلم مقيداً، فإما أن يختار الطريق الذي تتبناه هذه المؤسسات دونما اعتراض، ودون توجيه أي نقد لهذا التراث، وإما أن يتحمّل ما يترتب على تمرده من تبعات، أقلها مواجهة حملة من التشنيع، ولعل السبب في موقف هذه المؤسسات المتشدد يرجع الى أن بعض الباحثين قد أخطأوا الطريق حينما انجرفوا وراء أفكار وأساليب المستشرقين المغرضين، فحاولوا الطعن في التراث والتشكيك بالعقيدة الاسلامية، فأساءوا الى روح البحث العلمي البنّاء.

وقد أدى كل ذلك الى ظهور ما يمكن تسميته بحالة (تملّق الجماهير) في كتابات كثير من المؤلفين، وفيهم من ذوي الأسماء اللامعة والمكانة العلمية عدد غير قليل، فتجد أحدهم يحوم حول موضوع البحث الحسّاس، فإذا شعر بأنه قد اقترب من منطقة الخطر، راح يفتعل التبريرات لأخطاء الماضي بشكل تظهر عليه سمات المجاملة بوضوح، وبشكل خاص عندما يكون مدار البحث حول الخلافات السياسية ذات الطابع الديني، فتجد المؤلف ينتقد بعض شخصيات هذه الأحداث، لكنه سرعان ما يتراجع قليلا بافتعال التبريرات.

لا شك أن مهمة الباحث في نقد التاريخ ليست سهلة، لكن الاخلاص للحقيقة يهوّن المصاعب دون شك، «ومما يسهّل النقد علينا، أن كثيراً مما كتب للدعاية، وضع بأشكال أسطورية لا يقف أمام النقد، ولكن عقدة واحدة تقف أمامنا هنا، وهي اشتباك الدين بالسياسة، وإدخال أمور لها أهميتها في فهم التاريخ في مجال العقيدة، وهذا مما يجعل المؤرخ حذراً في معالجتها لئلا يصطدم بسلك كهربائي لا يدري ماذا سيثير»[١٣].

(١٣) مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، عبد العزيز الدوري: ١١ .

وليس الباحث المعاصر هو وحده الذي يشكو من هذه العقبة، بل إن كبار المؤلفين القدامى -أمثال الطبري وغيره- قد وجدوا «أن هناك سلطاناً آخر يخضع المؤرخ في كثير من الأحيان إليه، هو سلطان الرأي العام، فالمؤرخ مضطر بحكم مقامه بين مواطنيه أن يراعي شعورهم وإلاّ عرّض نفسه للمكروه من قول أو أذى، ولهذا يضطر أن يمرّ بالقضايا الحساسة مرّاً خفيفاً أو دون نقد ولا إبداء رأي»(١٤).

ويستطيع الباحث أن يلاحظ أثر الرأي العام هذا على المؤلفين القدامى، فالطبري - مثلا - قد بدأ كتابه بالاعتذار عن كل ما لا يوافق ميول الرأي العام، فأخرج الأمر من عهدته وألقاه على عاتق الرواة الذين نقل عنهم، فقال في مقدمة سفره التاريخي: فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارؤه. أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنىً في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤتَ من قِبلنا، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا(١٥).

ومما تجدر الاشارة إليه، ان الطبري رغم اعتذاره مقدماً، وتهيئته ذهن القارئ الى وجود أمور قد لا يرتضيها في هذا التاريخ، فإنه قد تنكّر أحياناً لمبدئه، ولم ينقل كثيراً من الروايات (لبشاعتها وشناعتها) على حد تعبيره، أو لأنه وكما يقول: (كرهت ذكرها)، أو (لأن العامة لا تحتمل سماعها) في أحيان أخرى.

وغير الطبري من المؤلفين قد خضعوا أيضاً لسلطان الرأي العام، فابن هشام - صاحب السيرة النبوية المعروفة- والتي رواها عن أستاذه ابن إسحاق، قد اعترف بأنه قد اختصر سيرة ابن إسحاق وحذف منها أموراً وصفها بأن (بعضها يشنع الحديث عنه) و (بعض يسوء بعض الناس ذكره) و (بعض لم يقرّ لنا البكائي بروايته)، وبهذا قدّم ابن هشام - المتوفّى سنة (٢١٠ هـ) - قبل الطبري بقرن من الزمان اعتذاره للقرّاء بأن سلطان الرأي العام يفرض عليه المجاملة. وبعد هذه القرون المتطاولة، نجد الكثير من المؤلفين المعاصرين يدخلون الحلبة وهم ممزّقون بين اتجاهين:

الأول يفرض عليه مراعاة الأمانة العلمية والتجرد للحقيقة بإماطة اللثام عنها.

والاتجاه الآخر يفرض عليه الانحناء لرغبات الرأي العام الذي يطالبه بنمط معيّن من البحث يتماشى مع ميوله.

(١٤) تاريخ العرب في الاسلام ، جواد علي : ١٠ .
(١٥) تاريخ الطبري ١ : ٨ .

مصاعب البحث

إن أعقد ما يواجه الباحث المسلم من مصاعب في بحث التاريخ الاسلامي، هو الاتجاه الفكري الذي قد تكوّن عنده منذ نعومة أظفاره، لارتباط التاريخ الإسلامي بالعقيدة الإسلامية، فهو يدخل في مجال البحث برؤىً وقناعات سابقة قد يجد صعوبة كبيرة في التحرر من ربقتها، وهذه القناعات هي الأخرى من افرازات الرأي العام الذي يفرض هذا القيد الثقيل على الباحث الذي يجد نفسه مضطراً في معظم الأحيان الى الاستسلام لهذه القيود الاجتماعية، فكيف السبيل للتوصل الى الحقيقة إذاً؟

نعود فنتساءل من جديد : هل نحتاج الى إعادة لكتابة تاريخنا من جديد؟

لقد قلنا فيما سبق إن النداءات قد تعالت مطالبة باعادة كتابة التاريخ الإسلامي، إلاّ ان الملاحظ ان هذه النداءات تنطلق في اتجاهين :

الأول ، يستهدف تمحيص الروايات التاريخية، ولكن ليس بأُسلوب نزيه يتوخى الحقيقة كما هي، بل هو يهدف الى حذف الروايات التي لا تتلاءم مع اتجاهات الرأي العام المتوارث، بغض النظر عن مدى صحة هذه الروايات ومطابقتها للحقيقة.

أما الأتجاه الثاني فهو يستهدف التوصل الى الحقيقة مهما كانت مرّة، لأن دفن الرؤوس في الرمال لا يجدي نفعاً، فلابد من الاستفادة من تجارب الماضي وأخطائه لتكون منطلقاً لتكوين رؤية صحيحة لتاريخنا على دعائم صحيحة وواعية، بعيداً عن المحاباة على حساب الحقائق، وعليه «فلابد أن نجعل أمام أعيننا أننا سندرس تاريخ أمم إن كانت أخطأت في بعض تصرفاتها فليس علينا من تبعة ذلك الخطأ شيء، وليس لنا إلاّ ان نعرفه ونستفيد منه، وإن كانت أصابت المحجة فإن ذلك لا ينفعنا إذا لم يكن لنا مثل أعمالهم، لذلك يحتاج دارس التاريخ إلى سعة صدر يحتمل كل ما يرد على تاريخ قومه من نقد حتى لا تبقى حقائق الأشياء محجوبة بسُحب عاطفتي الحب والبغض»[١٦].

فلابد إذاً من دراسة الروايات التي جاءت في مصادرنا التراثية دراسة علمية نزيهة بعيدة عن الميول والأهواء والقناعات السابقة، ذلك «أن تاريخ العرب[١٧] وإن يكن ما دوّن فيه كثير من التحري والتدقيق ومحاولة الضبط بشكل قد يفوق فيه ما دوّن عند الأمم الأخرى، إلاّ أنه يشكو من أدوار خطيرة بعضها قديم، وبعضها يتصل بطريقة كتابته الآن، فقد عبثت برواياته الاتجاهات الحزبية والدينية، وربما ورث هذا

(١٦) محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ، الخضري : ٣ .
(١٧) الأصح تاريخ المسلمين.

من نشأته، لأن تلك وثيقة الصلة بعلم الحديث والسياسة، وأحسب أن القارئ يعلم كثرة ما وضعته الأحزاب والفرق من أحاديث لتثبيت كيانها ومهاجمة خصومها»[١٨].

إن مهمة إعادة كتابة التاريخ يجب أن تتصدر الأولوية من جهد الباحثين المنصفين الذين يهمهم الكشف عن الحقيقة أمام المسلمين ليعرفوا حقيقة تاريخهم، فلا يكونوا عرضة لأهواء المغرضين الذين يهدفون الى طمس الحقائق وتشويهها بهدف تضليل المسلمين خدمة لأغراض دنيئة أو تعصباً لفكرة أو مذهب معين، لذا يكون لزاماً على الباحث أن يتجرد للحقيقة أولا، وأن يتسلح لأداء هذه المهمة.

«إن المؤرخ يجب أن يكون كرجل المختبر ذا استعداد عظيم في التحليل، وذا حظ عظيم من العلم في المواد التي يريد تحليلها، وذا ذكاء خارق يمكنه من الاستنباط والاستنساج، ومن اجراء المقابلات والمطابقات والمفارقات والمقارنات، لتكون أحكامه منطقية سليمة، وآراؤه معقولة مقبولة، وإلاّ صار قاصّاً من القصّاص، ومؤرخاً من هذا الطراز القديم الذي يرى أن التاريخ حفظ ورواية وتسجيل لما يرويه الناس»[١٩].

ورغم أن هذه الشروط يصعب توفرها في معظم المؤلفين الذين أعرض أكثرهم عنها، وذلك للأسباب التي ذكرناها سابقاً إضافة الى أسباب اُخرى سوف تتضح فيما بعد، إلاّ أنها بالغة الأهمية.

إن من أهم المشاكل التي تواجه الباحث وهو يستقرئ التاريخ الإسلامي هو ذلك الكم الهائل من الروايات المتعددة المصادر، والتي قد تصل أحياناً الى حد التناقض والتضارب، رغم كونها جميعاً تعرض لحادثة واحدة، مما قد يوقع بعض الباحثين في حيرة، فحاول بعضهم التخلص من هذه المشكلة بتحقيق أسانيد هذه الروايات، لأن معظم المؤرخين الذين نستقي منهم معلوماتنا التاريخية قد اسندوا رواياتهم، «فبسبب اشتغال كثير من المحدّثين في التاريخ، فإن قواعد النقد هذه استعملت ـ الى حد ما- في التاريخ أيضاً، وقد ساعد على ذلك أن الروايات التاريخية كانت تتصدرها الأسانيد -كما هو شأن الاحاديث- كما أن مقاييس المحدثين سرت الى علم التاريخ، فقد اشترطوا في المؤرخ ما اشترطوه في رواة الحديث من العدالة والضبط، وبذلك أمكن تطبيق قواعد نقد الحديث في نقد الروايات التاريخية أيضاً، ولكن ذلك لم يتم بنفس الدقة، بل حدث تساهل كبير في ميدان التاريخ، فالمؤرخون الأوائل مثل خليفة

(١٨) مقدمة في تاريخ الاسلام : ١٠ .
(١٩) مقدمة في تاريخ الإسلام: ١٠ .

بن خياط، والطبري، استقوا كثيراً من مادتهم التاريخية عن رواة ضعّفهم أهل الحديث، وبذلك لم يتشددوا في نقد رواة الأخبار كما فعلوا بالنسبة لرواة الحديث، لأن الحديث تترتب عليه الأحكام الشرعية، لذلك رفض العلماء الاحتجاج بالأحاديث ذات الاسانيد المنقطعة، في حين قبلوا ذلك في الروايات التاريخية، ولم يجدوا بأساً في استعمال صيغ التمريض في بيان طرق التحمل بالنسبة للروايات التاريخية، وهكذا ميّز العلماء منذ فترة مبكرة بين التاريخ والحديث، فلم يطبقوا قواعد نقد الحديث بدقة في نطاق التاريخ»[٢٠].

وهذه واحدة من المشاكل التي عانى منها تاريخنا، إضافة الى أن تطبيق منهج متابعة الأسانيد بشكل تفصيلي يبدو صعباً الى حد ما، لأسباب: منها إن آراء العلماء قد تختلف كثيراً وربما تتناقض أحياناً في أحوال الرواة، فبعضهم يوثّق أحد الرواة وغيرهم يطعن فيه، «إن ميلنا الى قبول الروايات المتواترة في البحث، أو تسليمنا بخبر إن تكرر وروده في عدة مصادر قد لا يفيدنا أحياناً، لأن هذه المصادر المتعددة قد تكون مستقاة من مصدر واحد متى عرفنا صاحبه وجدناه مدلساً أو ضعيفاً»[٢١].

وقد حاول بعض الباحثين استخراج الروايات التاريخية المؤيدة من كتب الحديث باعتبارها أوثق من كتب التاريخ، ولكن هذه الطريقة أيضاً قد لا تكون مجدية دائماً، لأن كتب الحديث أقل إحاطة بتفاصيل الأحداث مما عليه كتب التاريخ، فضلا عن أن كتب الحديث تحوي هي الأخرى روايات عن الضعفاء والمجهولين، ويحتاج الكثير منها الى عملية تمحيص أيضاً، فلابد إذاً من دراسة التاريخ الإسلامي من جميع جوانبه دراسة شاملة آخذة بنظر الاعتبار كافة الظروف السياسية والاجتماعية المحيطة بالراوي والمؤرخ، «كما أن استعمال قواعد المصطلح في نقد الروايات التاريخية ينبغي أن يشتد على قدر تعلق المادة بالأحداث الخطيرة التي تؤثر فيها الأهواء وتنشيط عندها الرواة، كأن تكون الروايات لها مساس بالعقائد كالفتن التي حدثت في جيل الصحابة، أو ذات صلة بالاحكام الشرعية كالسوابق الفقهية، فإن التشدد في قبولها يجعل استعمال قواعد النقد الحديث بدقة أمراً مقبولا»[٢٢].

مراحل التدوين

(٢٠) بحوث في تاريخ السنة المشرّفة : ٢١٠ .
(٢١) مقدمة في تاريخ صدر الاسلام : ٢٤ .
(٢٢) بحوث في تاريخ السنة المشرفة : ٢١٠ .

من التصورات الخاطئة عند معظم القرّاء، أن التدوين ـ سواء في مجال التاريخ أو الحديث- لم يبدأ إلاّ بظهور المدوّنات التاريخية والحديثية الكبرى، كتاريخ الطبري والبلاذري وغيرهما، أو الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها من كتب الحديث، أي بعد أكثر من قرنين من بدء الهجرة النبوية الشريفة، وأن الروايات قد ظلت تتناقلها أجيال الرواة مشافهة طيلة هذه المدة حتى وصلت الى الطبري أو البخاري وغيرهما، حيث قاموا بتدوينها بعد ذلك، ولعل منشأ هذا الاعتقاد يعود الى إستعمال المؤرخين والمحدثين بعض الألفاظ التي تسبق الرواية كقولهم: «حدثني أو حدثنا... الخ» مما يوحي للقارئ أن الحديث قد وصل الى هذا المحدّث أو المؤرّخ مشافهة عبر سلسلة الرواة الذين يذكر أسماءهم، وهذا وهم شائع، إذ أن التدوين أقدم من ذلك التاريخ، حيث يحدد البعض بدء التدوين بنهاية القرن الأول أو بداية القرن الثاني، وبالتحديد في زمن الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز المتوفى سنة ١٠١ هـ، وإن كان هناك ما يثبت أن التدوين كان أقدم من ذلك التاريخ أيضاً، وأن الصحابة كانوا يدوّنون الكثير من حديث النبي(صلى الله عليه وآله) وسيرته، وأن بعضهم كانت له صحف أو دفاتر يدوّن فيها ذلك، وأن أبناء أُولئك الصحابة وتلاميذهم قد توارثوا تلك الدفاتر جيلا بعد جيل، وأن معظم هذه الدفاتر قد أصبحت فيما بعد هي الروافد التي صبّت في نهاية الأمر في تلك المجاميع والمدونات الكبرى. «أن بداية التدوين والكتابة التاريخية إنما بدأت أشد بكوراً بحوالي القرن على الأقل مما كان يظن الباحثون، وأن قضية (العلم) العربي الذي ظل محفوظاً في الصدور والذاكرة حتى أواسط القرن الثاني إنّما هي محض خرافة»(٢٣).

ولأجل توضيح الصورة، فلابد لنا من الاشارة الى الطرق التي اتبعت في تلقي الرواية ونقلها، والتي سمّيت (طرق التحمل)، حيث كان التلميذ يتلقى من شيخه الرواية وينقلها بدوره الى الذين سيصبحون فيما بعد تلاميذه، وطرق التحمل هي:

١ ـ السّماع :

ويتضمن السماع من لفظ الشيخ املاءً من كتابه أو من حافظته، وفيه يقول السامع إذا روى: (حدثنا) و (أخبرنا) و (أنبأنا) و (قال لنا) و (ذكر فلان). قال الخطيب البغدادي : أرفع العبارات (سمعتُ) ثم (حدثنا) و(حدثني)(٢٤).

(٢٣) التاريخ العربي والمؤرخون ، شاكر مصطفى ١ : ٧٩ .
(٢٤) الباعث الحثيث : ١٠٤ ، تدريب الراوي ٢ : ٨ ، مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث : ٦٢ ، جامع الأصول ١:٧٠، قواعد التحديث : ٢٠٣ ، المنهل الروي : ٨٠ .

٢ - القراءة على الشيخ :

وأكثر المحدثين يسمونها عرضاً، من حيث إن القارئ يعرض على الشيخ ما يقرؤه كما يعرض القرآن على المقرئ[٢٥]، سواء كانت قراءة الطالب عليه من كتاب أو حفظ، وسواء حفظ الشيخ ما قرئ عليه أم لا، إذا أمسك أصله هو أوثقة غيره[٢٦]، ومن أمثلة ذلك قول عبدالله بن عمر: رأيت مالك بن أنس يقرأ على الزهري، قال: فحدثت بذلك سفيان بن عينية ففرح بذلك وجعل يقول : قرأ، قرأ[٢٧].

٣ - الاجازة :

وهي أنواع متعددة، أعلاها أن يجيز معيّن لمعيّن كقوله: أجزت لك الكتاب الفلاني، أو ما اشتملت عليه فهرستي هذه. وهذه الاجازة المجردة من المناولة، وقد قال بجوازها جماهير أهل العلم[٢٨].

٤ - المناولة :

مع الاجازة، كأن يدفع له الشيخ أصل سماعه، أو فرعاً مقابلا به ويقول له: أجزت لك روايته عني[٢٩]، وهي أعلى أنواع الاجازة على الإطلاق[٣٠]، أما المناولة من غير إجازة، بأن يناوله الكتاب مقتصراً على قوله: هذا سماعي، ولا يقول له: اروه عني، ولا أجزت لك روايته[٣١].

٥ - المكاتبة :

بأن يكتب إليه بشيء من حديثه، فإن أذن له في روايته عنه فهو كالمناولة المقرونة بالاجازة وإن لم تكن معها اجازة[٣٢]، وهو المشهور بين أهل الحديث، وكثير من مصنفاتهم : (كتب إليّ فلان، قال: حدثنا فلان). والمراد هذا، وهو عندهم معمول به معدود في الموصول. وقال السمعاني : هي أقوى من الاجازة، ويكفي معرفة خط الكاتب، وشرط بعضهم البيّنة، وهو ضعيف[٣٣].

(٢٥) مقدمة ابن الصلاح : ٦٤ .

(٢٦) قواعد التحديث : ٢٠٣ .

(٢٧) جامع بيان العلم ٢ : ٤١٤ .

(٢٨) مقدمة ابن الصلاح : ٢٧٢ ، المنهل الروي : ٨٤ ، الباعث الحثيث : ١١٤ ، جامع بيان العلم : ٤١٤ ، تدريب الراوي ٢ : ٢٩ ، قواعد التحديث : ٢٠٣ .

(٢٩) قواعد التحديث : ٢٠٣ .

(٣٠) مقدمة ابن الصلاح : ٧٩ ، تدريب الراوي ٢ : ٤٤ .

(٣١) قواعد التحديث : ٢٠٤ ، الكفاية : ٣٢٢ .

(٣٢) الباعث الحثيث : ١٢٠ ، تدريب الراوي ٢ : ٥٥ .

(٣٣) المنهل الروي : ٩٠ ، الكفاية : ٣٤٢ .

٦ ـ الإعلام :

وهو أن يُعلم الشيخ الطالب أن هذا الكتاب روايته أو سماعه مقتصراً على ذلك، فجوّز الرواية به كثير من أصحاب الحديث والفقه والأصول والظاهر(٣٤).

٧ ـ الوصية :

وهي أن يوصي الراوي عند موته أو سفره لشخص بكتاب يرويه(٣٥).

وقد ترخّص بعض السلف في رواية الموصي له بذلك الكتاب عن الموصى، وشبهوا ذلك بالمناولة والاعلام بالرواية(٣٦)، وقال السيوطي : وهو غلط، والصواب أنه لا يجوز(٣٧).

٨ ـ الوجادة :

وصورتها أن يجد حديثاً أو كتاباً بخط شخص باسناده، فله أن يرويه عنه على سبيل الحكاية(٣٨)، فله أن يقول: وجدت بخط فلان، أو قرأت أو ما أشبهه(٣٩)، ويسوق الاسناد والمتن، وهذا الذي استمر عليه العمل قديماً وحديثاً، وهو من باب المنقطع، وفيه شوب اتصال، وجازف بعضهم فأطلق فيها: حدثنا وأخبرنا، وأُنكر عليه(٤٠).

هذه طرق تحمل الرواية، ذكرتها بشيء من الاختصار، وهدفي من ذلك هو توضيح بعض الأمور التي قد تُشكل على القارئ، لأن بعض الباحثين يصورون له أن الروايات التاريخية قد كتبت في العصر العباسي، لذا نجد فيها تحاملا على الأمويين، ولإزالة ما قد يعلق بذهن القارئ من مقولات بعض الباحثين الذين صوروا له أن منشأ الزيف في التاريخ الإسلامي يعود الى أن هذا التاريخ قد كتب في عصور متأخرة مما يجعله مشحوناً بالتحامل على الفترات التي سبقت تدوينه، ومن هؤلاء الباحثين الذين يدعون مثل ذلك: الشيخ محب الدين الخطيب الذي يقول:

(٣٤) المنهل الروي : ٩٠ ، الباعث الحثيث : ١٢١ ، تدريب الرواي : ٥٨ ، الكفاية : ٣٥٣ .
(٣٥) المنهل الروي : ٩١ .
(٣٦) الباعث الحثيث : ١٢١ .
(٣٧) تدريب الراوي ٢ : ٦٠ ، قواعد التحديث : ٢٠٤ .
(٣٨) الباعث الحثيث : ١٢٢ .
(٣٩) المنهل الروي : ٩١ .
(٤٠) تدريب الراوي ٢ : ٦١ ، مقدمة ابن الصلاح : ٨٦ .

إن التاريخ الاسلامي لم يبدأ تدوينه إلاّ بعد زوال بني أمية وقيام دول لا يسرّ رجالها التحدث بمفاخر ذلك الماضي ومحاسن أهله، فتولى تدوين تاريخ الإسلام ثلاث طوائف: طائفة كانت ترى العيش والجدة من التقرب الى مبغضي بني اُمية بما تكتبه وتؤلفه، وطائفة ظنت ان التديّن لا يتم، ولا يكون التقرب الى الله إلاّ بتشويه سمعة أبي بكر وعمر وعثمان وبني عبد شمس جميعاً، وطائفة ثالثة من أهل الانصاف والدين -كالطبري وابن عساكر وابن كثير- رأت أن من الإنصاف أن تجمع أخبار الأخباريين من كل المذاهب والمشارب- كلوط بن يحيى الشيعي المحترق، وسيف بن عمر العراقي المعتدل- ولعل بعضهم اضطر الى ذلك إرضاء لجهات كان يشعر بقوتها ومكانتها، وقد أثبت أكثر هؤلاء أسماء رواة الأخبار التي أوردوها ليكون الباحث على بصيرة من كل خبر بالبحث عن حال راويه. وقد وصلت الينا هذه التركة، لا على أنها هي تاريخنا، بل على أنها مادة غزيرة للدرس والبحث يستخرج منها تاريخنا، وهذا ممكن وميسور إذا تولاّه من يلاحظ مواطن القوة والضعف في هذه المراجع، وله من الالمعية ما يستخلص به حقيقة ما وقع ويجردها عن الذي لم يقع، مكتفياً باُصول الأخبار الصحيحة من الزيادات الطارئة عليها...[٤١].

ولسوف يتبيّن للقارئ أن الشيخ محب الدين الخطيب لم يلتزم بهذه التوجيهات القيّمة التي أسداها للآخرين.

فأما إدعاؤه أن المؤرخين قد كتبوا ما كتبوه في العصر العباسي ذماً لبني اُمية، فليس صحيحاً تماماً لأسباب :

أولها : إننا حينما أوردنا طرق تحمل الرواية، كنا نستهدف لفت إنتباه القراء الى أن الروايات التي دونت في العصر العباسي، إنما جاءت من طريق الرواة الذين دونوها في العصر الأموي على أيدي كتاب السيرة والتاريخ - كالزهري وعروة بن الزبير وغيرهم- ثم انتقلت هذه الروايات بتلك الطرق الى المؤرخين الكبار كالطبري في العصر العباسي، حيث تم تجميعها في تلك المدونات الكبيرة.

يقول فؤاد سزگين : إذا أراد الباحث إذاً تقدير قيمة المواد المتعلقة بالقرنين الأول والثاني للهجرة في المصادر التي وصلت إلينا اعتماداً على الاسناد، فعليه أن يتحرر من الآراء القائلة بأن هذه الأخبار ظلت تتداول شفاهاً على مدى مائة وخمسين عاماً، أو أن المحدثين قد اخترعوا الاسناد في نهاية القرن الثاني للهجرة وأضافوه الى الأخبار فدونت به بعد ذلك، وعليه أن ينظر الى هذه المؤلفات باعتبارها كتباً

(٤١) العواصم من القواصم : ١٧٩ هامش : ٣٠٩ .

مجموعة من مصادر مدونة تعود بدورها الى مصادر مدونة أقدم، فالأسماء الواردة في الأسانيد تعطي -في مجموعها أو معظمها- أسماء المؤلفين، أو أسماء عدد من الرواة والمؤلف، وعلى كل حال فإننا نجد في كل خبر من الأخبار مصدراً مدوناً واحداً على الأقل. وهكذا فليست كل الأسماء الواردة في الاسناد التالي المذكور عن الطبري أسماء مؤلفين: «حدثنا حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، قال: حدثني الزهري ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير». فالنص الذي نقله الطبري بهذا الاسناد يرجع آخر الأمر الى كتاب المغازي لعروة، وهذا النص كان قد نقله الطبري عن الواقدي وابن هشام[٤٢].

فيتبين من هذا أن أصل رواية الطبري هذه قد جاءت عن عروة بن الزبير المتوفى سنة (٩٤ هـ)، أي أنه قد عاش الشطر الأكبر من عمره وكتب وتوفي في العصر الأُموي، وفيه دوّن هذه الرواية التي تناقلها عنه الرواة حتى وصلت الى الطبري في العصر العباسي.

ثانيها: أن الكثير من المؤرخين والكتّاب الذين عاشوا في العصر الأُموي قد أطّروا عصرهم هذا وذكروا لهم الفضائل الكثيرة، وبقيت كتبهم متداولة الى العصر العباسي دون اعتراض، فقد ذكر المسعودي -وهو من المؤرخين الذين عاشوا في العصر العباسي كما هو معلوم -أسماء بعض المؤرخين- في معرض تعداده لهم -فأثنى على أحدهم وذكر أنه كتب في «أخبار الأُمويين ومناقبهم وذكر فضائلهم وما أتوا به من غيرهم وما أحدثوه من السيرة في أيامهم، تأليف أبي عبدالرحمان خالد بن هشام الأُموي»[٤٣].

هذا فضلا عن أن كثيراً من المؤرخين في العصر العباسي قد أثنوا على الأُمويين في مؤلفاتهم، «ولقد ظن الكثيرون أن سبب طمس تاريخ بني أُمية وتشويه الكثير من آثارهم يعود الى الحزبية فما قولك بأنساب الأشراف الذي يعدّ من أدق ما عندنا عن بني أُمية، مع أن مؤلفه البلاذري عاش في العصر العباسي وبقرب خليفة متعصب هو المتوكل»[٤٤].

ثالثها : ان عمر بن عبدالعزيز هو أحد خلفاء بني أُمية من الفرع المرواني، وقد نال الحظ الأوفر من الثناء والمديح، حتى وصفوه بخامس الخلفاء الراشدين، ولم يختلف في مدحه والثناء عليه المؤالف والمخالف، فلو كان الموقف من الأُمويين على

(٤٢) تاريخ التراث العربي ٢ : ٨ .
(٤٣) مروج الذهب ١ : ١٥ .
(٤٤) مقدمة في تاريخ صدر الاسلام : ١٣ .

عمومه الذي ذكره الشيخ محب الدين الخطيب، لكان الموقف من عمر بن عبدالعزيز كالموقف من غيره من خلفاء بني أمية.

رابعها: أن بعض المؤرخين الذين ألفوا في العصر العباسي، كانوا على درجة من الشجاعة والجرأة، بحيث أنهم ذكروا بعض مثالب العباسيين بكل صراحة، وتحمل البعض منهم العقاب الأليم بسبب ذلك، فقد ذكر ابن النديم في ترجمة الجهمي (أحمد بن محمد بن حميد) أنه : «وقع بينه وبين قوم من العمريين والعثمانيين شر، فذكر سلفهم بأقبح ذكر، فقال له بعض الهاشميين في ذلك، فذكر العباس بأمر عظيم، فأُنهي خبره الى المتوكل، فأمر بضربه مائة سوط»(٤٥).

والحقيقة : فإن موقف العباسيين من الأمويين قد مرّ بأدوار متعددة، وذلك لأسباب سوف أذكرها في مباحث قادمة، ومع كل ذلك فإنه «لا ينكر أثر العباسيين، ولكن هؤلاء لم يقيدوا الكتابة أو يوجههوها كما يظن، بدليل أنهم أنفسهم رُسمت لهم صورة لا تقل عبوساً في كثير من نواحيها»(٤٦).

المواقف من المؤرخين

من المقولات الملفتة للإنتباه، فيما يتعلق بالمواقف من المؤرخين، مقولة القاضي أبو بكر ابن العربي في أُخريات كتابه (العواصم من القواصم)، بعد ايراده الاحداث التي مرت بها الأمة الاسلامية بعد وفاة النبي(صلى الله عليه وآله) والى ما بعد نصف قرن من ذلك التاريخ أو أكثر قليلا، نراه يوجّه نصيحته الى القرّاء في كيفية تناول الأحداث التاريخية لتلك الحقبة من الزمن، وتحديد الموقف من المؤرخين الذين تناولوا تلك الفترة فيقول:

إنما ذكرت لكم هذا لتحترزوا من الخلق، وخاصة من المفسرين والمؤرخين وأهل الأدب، فإنهم أهل جهالة بحرمات الدين، أو على بدعة مصرّين، فلا تبالوا بما رووا، ولا تقبلوا رواية إلاّ عن أئمة الحديث، ولا تسمعوا لمؤرخ كلاماً الاّ الطبري، وغير ذلك هو الموت الأحمر، والداء الأكبر، فإنهم ينشؤون أحاديث استحقار الصحابة والسلف، والاستخفاف بهم، واختراع الاسترسال في الأقوال والأفعال عنهم، وخروج مقاصدهم عن الدين الى الدنيا، وعن الحق الى الهوى، فإذا قاطعتم أهل الباطل، واقتصرتم على رواية العدول، سلمتم من هذه الحبائل، ولم تطووا كشحاً

(٤٥) الفهرست : ١٤١ .
(٤٦) مقدمة في تاريخ صدر الاسلام : ١٣ .

على هذه الغوائل، ومن أشد شيء على الناس، جاهل عاقل، أو مبتدع محتال، فأما الجاهل فهو ابن قتيبة، فلم يُبق ولم يذر للصحابة رسماً في كتاب (الإمامة والسياسة) إن صح عنه جميع ما فيه، وكالمبرّد في كتابه الأدبي، وأين عقله من عقل ثعلب الإمام المتقدم في أماليه، فإنه ساقها بطريقة أدبية سالمة من الطعن على أفاضل الأمة. وأما المبتدع المحتال، فالمسعودي، فإنه بها يأتي متاخمة الإلحاد فيما روى من ذلك، وأما البدعة فلا شك فيه، فإذا صنتم أسماعكم وأبصاركم عن مطالعة الباطل، ولم تسمعوا في خليفة ممن ينسب إليه ما لا يليق، ويذكر عنه ما لا يجوز نقله، كنتم على منهج السلف سائرين، وعن سبيل الباطل ناكبين(٤٧).

إن أهم ما يلفت الانتباه في مقولة ابن العربي هذه، هو توجيهه للقارئ إلى عدم الاعتماد على أحد من المؤرخين غير الطبري، والإعراض عن المفسرين والأدباء - مع العلم أنه واحد من المفسرين- ومستنده في ذلك أن غير الطبري من المؤرخين قد أوردوا الروايات التي تسيء الى الصحابة، ويخص بالذكر منهم ابن قتيبة، متهماً إياه بالجهل، مع أن ابن قتيبة من كبار العلماء، والمسعودي المؤرخ والذي يصفه بالمحتال المبتدع، وسوف يتبين للقارئ فيما بعد أن ابن العربي يعتمد اعتماداً شبه كلّي على روايات الطبري في أطروحاته التاريخية في كتابه الآنف الذكر، لكنه يعتمد كلياً على روايات معينة ينتقيها من هذا التاريخ، لأن الطبري - وإن كان يجامل الرأي العام كثيراً- إلاّ أننا سوف نتبين أنه قد أورد الكثير من الروايات التي أورد مثلها ابن قتيبة والمسعودي وغيرهما من المؤلفين، لكن ابن العربي تجنبها -كما فعل الكثيرون غيره من القدامى والمعاصرين- لأن تلك الروايات تمس كرامة السلف على حد تعبيرهم، وبذلك يكون ابن العربي من أوائل الذين دعوا الى تمحيص التاريخ الإسلامي وغربلته، ولكن بالاتجاه المحافظ الذي يرتئيه هو.

إن المشكلة التي تثار دائماً حول التاريخ الإسلامي تتركز في الغالب على النقطة الحساسة في هذا التاريخ، ألا وهو الجانب السياسي، والخلاف الذي وقع بين المسلمين في وقت مبكر، والذي أدى في النهاية الى الصدام الدموي بينهم في ذلك العهد الذي أُصطلح على تسميته بعصر صدر الإسلام، وأن اشتراك الصحابة في أجزاء من ذلك الصراع هو محور المشكلة، والدعوات ذات الطابع المحافظ لتصحيح التاريخ الإسلامي، إنما تدّعي الحرص على تبرئة الصحابة مما وقع من خلاف

(٤٧) العواصم من القواصم : ٢٦٠ .

سياسي انسحب أثره على مواقف ذلك السلف، لأن «التاريخ السياسي للمسلمين، هو أسوأ ما في تاريخهم كله»[٤٨].

إن الملاحظ على أصحاب هذا الاتجاه، أنهم يركزون دعوتهم على ضرورة الرجوع الى تاريخ الطبري - دون غيره- حين البحث عن تلك الحقبة التاريخية، وهذا الذي عمل به معظم المؤرخين الذين جاءوا بعد الطبري كابن الأثير وابن كثير وابن خلدون وغيرهم، ثم امتد ذلك الى مؤلفات معظم الكتّاب المعاصرين الذين تناولوا التاريخ الإسلامي بالبحث، حيث صار تاريخ الطبري هو المصدر الرئيس الذي يستقون منه معلوماتهم معترفين بذلك، بعد أن يكيلوا للطبري ما شاء الله لهم من عبارات الثناء والتقدير باعتباره الإمام الحجة في هذا الفن.

لقد سبق وأن ذكرنا أن كبار المؤرخين وكتاب السيرة والمغازي كالطبري وابن إسحاق والبلاذري وغيرهم، قد اعتمدوا على ما كتبه من سبقهم من رواة هذه الأخبار، فالمصادر تكاد تكون واحدة، «إن ابن إسحاق قد استخدم النص من كتاب يزيد بن رومان والزهري، وقد اعتمدا بدورهما على المغازي لعروة»[٤٩]، فما هو الفرق إذاً بين ما كتبه الطبري عن غيره من المؤرخين. طالما أن المصادر واحدة تقريباً؟

الحقيقة : أن من يراجع المصادر التي اعتمد عليها الطبري، ويقارنها مع المصادر التي اعتمدها غيره من المؤرخين من سابقيه أو معاصريه، سوف يلاحظ أن الطبري قد انفرد بذكر مصدر يكاد يكون المتغلب على الأجزاء التي تناولت أهم وأخطر فترة في تاريخنا الإسلامي كله، وهو العصر الذي يسمى بعصر صدر الإسلام، وبالتحديد الفترة الممتدة من وفاة النبي(صلى الله عليه وآله) وبدء أحداث السقيفة، وحتى أواخر الخلافة الراشدة، وتحديداً بانتهاء معركة الجمل، وهذا المصدر الذي يعتمده الطبري - دون سواه من المؤرخين- هو مجموعة مؤلفات لمؤلف كوفي - وهو الذي وصفه محب الدين الخطيب بالعراقي المعتدل- واسمه سيف بن عمر المتوفى ما بين سنة (١٧٠هـ) الى (١٨٠هـ) ، وهي : الفتوح الكبير، نقل عنه الطبري حوادث الفتوحات الإسلامية، والردة، ونقل عنه ما فيه من أخبار الردة ومحاربة أبي بكر للمرتدين وأخبارهم، وكتاب الجمل ومسير عائشة وعلي، وتناول فيه أخبار مسير عائشة من مكة الى البصرة وأحداث معركة الجمل التي وقعت بعد

(٤٨) كيف نكتب التاريخ . محمّد قطب : ١٦ .
(٤٩) سزگين : تاريخ التراث العربي .

ذلك، فهذه الفترة كما نرى هي أكثر الفترات حراجة في تاريخ الإسلام. وينقل الطبري عن سيف بواسطتين ، هما: السري عن شعيب، وينهي السلسلة الى بعض شيوخ سيف، مثل طلحة ومحمد وغيرهم، وهذه السلسلة تكاد تستأثر بمعظم الأجزاء التي تناولت تلك الفترة من تاريخ الطبري، حتى لتبدو الروايات الأُخرى التي أوردها الطبري بغير هذا الطريق باهتة لا تكاد تلفت انتباه القارئ، أما في الأجزاء الأُخرى التي لا تمت لتلك الحقبة بصلة، فقد ترك الطبري الاستشهاد بهذه السلسلة من الرواة تماماً.

وهذه السلسلة التي يربط حلقاتها سيف بن عمر، أصبحت فيما بعد هي العمود الفقري في كتابات معظم المؤلفين الذين جاوءا بعد الطبري وحتى العصر الراهن. والسؤال الذي قد يطرأ على ذهن القارئ هو: ما هي مواصفات هذه السلسلة، وبماذا تمتاز عن غيرها، حتى صارت العمدة في تاريخ الطبري ومن جاء بعده دون غيرها؟

وأجد أن من المناسب أن استعرض باختصار أسماء أهم المؤلفين الذين اعتمدهم الطبري في رواية هذه الأحداث، مع بيان بعض أحوالهم وأقوال العلماء فيهم، حتى يكون القارئ على بيّنة منهم، ويستطيع الحكم على الروايات التي أوردوها حينما نقوم بعملية مقارنة بين هذه الروايات ومحاولة تحليلها ونقدها بهدف استخراج حقائق تاريخنا جهد الامكان، ولا تفوتنا الاشارة الى أن معظم هؤلاء الرواة قد شكلوا السلاسل التي اعتمدها المحدّثون أيضاً، إلاّ أن المحدثين اجتهدوا في بيان أحوال هؤلاء الرواة في كتب التراجم التي صنفوها لهذا الغرض، فأصبح بامكان القارئ أن يحكم على الروايات من خلال رواتها بشكل يقرّبه من الحقيقة.

إن معرفة أحوال هؤلاء الرواة والمؤلفين في التاريخ والسيرة ضرورية جداً، بسبب الترابط الصميمي بين التاريخ الإسلامي والعقيدة الإسلامية، فمعرفة أحداث تلك الفترة على وجهها الصحيح من أكبر الضرورات، ولا يتم ذلك إلاّ بمعرفة مصادر تراثنا الإسلامي، بسبب الترابط بين علوم التاريخ وعلوم الحديث، وليس كما حاول البعض الفصل بينهما، لأن من علوم الحديث «معرفة مغازي رسول الله(صلى الله عليه وآله) وسراياه وبعوثه وكتبه الى ملوك المشركين، وما يصح من ذلك وما يشذّ، وما أبلى كل واحد من الصحابة في تلك الحروب بين يديه وثبت ومن هرب، ومن جبُن عن القتال ومن

كرّ، ومن تديّن بنصرته(صلى الله عليه وآله)ومن نافق، وكيف قسم رسول الله(صلى الله عليه وآله) الغنائم،
ومن زاد ومن نقص، وكيف جعل سلب القتيل بين الاثنين والثلاثة، وكيف أقام الحدود في الغلول، وهذه أنواع من العلوم التي لا يستغني عنها عالم»[٥٠].

روافد الطبري

تبين لنا مما سبق أن الطبري -كغيره من كبار المؤرخين في العصر العباسي- الذين اعتمدوا على كتب من سبقهم من المؤلفين الذين تناولوا حوادث عصر صدر الإسلام بشكل متفرق، فألفوا كتباً صغيرة تناول كل منها حادثة معينة أو فترة قصيرة من هذه الحقبة، حتى جاء كبار المؤرخين فجمعوا هذه الحوادث في أسفار كبيرة أصبحت فيما بعد تشكل مصادر التاريخ الإسلامي، خصوصاً بعد أن فُقدت معظم تلك الأصول التي نقلوا عنها، وبذلك حفظوا لنا هذا التراث من الضياع.

ولكن هذا التراث قد حوى الغث والسمين، فصار من أهم الضرورات تمحيصه بمقارنة الروايات التي جاءت فيه، بعد بيان أحوال اُولئك المؤلفين ومدى وثاقتهم أو عدمها، لأن ذلك يساعد كثيراً على الإقتراب من الحقيقة. فمن أشهر اُولئك المؤلفين الذين نقل عنهم الطبري:

١ ـ المدائني، علي بن محمد بن عبدالله المتوفّى سنة(٢٢٤ أو ٢٢٥ هـ) : الأخباري صاحب التصانيف الكثيرة، ككتاب مقتل عثمان، كتاب الجمل، كتاب الردة ... الخ

ينقل عنه الطبري بلا واسطة، ويقول عنه «كان عالماً بأيام الناس صدوقاً في ذلك»[٥١].

وقد أجمع العلماء على وثاقته وصدقه، وروى عنه الزبير بن بكار وأحمد ابن زهير والحارث بن أبي اُسامة.

قال أحمد بن أبي خيثمة : كان أبي وابن معين ومصعب الزبيري يجلسون على باب مصعب، فمرّ رجل على حمار فاره وبزة حسنة، فسلّم وخص بسلامه يحيى، فقال له: يا أبا الحسن، الى أين؟ قال: الى دار هذا الكريم الذي يملأ كمّي دنانير

(٥٠) الحاكم النيسابوري. كتاب معرفة علوم الحديث : ٢٣٨ .
(٥١) لسان الميزان ٤ : ٢٥٣ .

ودراهم: إسحاق الموصلي. فلمّا ولّى قال يحيى: ثقة ثقة ثقة. فسألت أبي: من هذا؟ فقال: هذا المدائني[٥٢].

٢ - زهير بن حرب، أبو خيثمة النسائي المتوفّى سنة (٢٣٤ هـ) يروي عنه الطبري بلا واسطة روايات مهمة في الفتنة وموقعة الجمل، وله تصانيف مهمة منها (كتاب التاريخ)

أجمع العلماء أيضاً على وثاقته وسعة علمه، قال معاوية بن صالح، عن يحيى بن معين: ثقة.

وقال أبو عبيد الآجري : قلت لأبي داود: أبو خيثمة حجة في الرجال؟ قال: ما كان أحسن علمه.

وقال النسائي: ثقة مأمون[٥٣].

وقال الحسين بن فهم : ثقة ثبت.

وقال أبو بكر الخطيب : كان ثقة ثبتاً حافظاً متقناً[٥٤].

وقال ابن سعد : ثقة ثبت[٥٥].

وقال عنه الذهبي : الحافظ الكبير محدّث بغداد، وثقه ابن معين وغيره[٥٦].

روى عنه مسلم أكثر من الف حديث[٥٧].

٣ - أحمد بن زهير بن حرب المتوفّى سنة (٢٧٩ هـ) :

قال عنه الذهبي : أبو بكر الحافظ النسائي ثم البغدادي، صاحب التاريخ الكبير، قال الدارقطني: ثقة مأمون[٥٨].

وقال الخطيب : كان ثقة عالماً متقناً حافظاً بصيراً بأيام الناس، راوية للأدب، أخذ علم الحديث عن يحيى بن معين وأحمد بن حنبل، وعلم النسب عن مصعب بن عبدالله الزبيري، وأيام الناس عن أبي الحسن المدائني، والأدب عن محمد بن سلام الجمحي. وله (كتاب التاريخ) الذي أحسن تصنيفه وأكثر فائدته.. ولا أعرف أغزر فوائد من كتاب التاريخ الذي صنفه ابن خيثمة، وكان لا يرويه إلاّ على الوجه، فسمعه الشيوخ الأكابر، كأبي القاسم البغوي ونحوه[٥٩].

(٥٢) ميزان الاعتدال ٣ : ١٥٣ .
(٥٣) تهذيب التهذيب ٣ : ٣٤٢ .
(٥٤) تاريخ بغداد ٨ : ٤٨٤ .
(٥٥) الطبقات الكبرى ٧ : ٢٥٣ .
(٥٦) تذكرة الحفاظ ٢ : ٧٣٤ .
(٥٧) تقريب التهذيب : ١٥٧
(٥٨) تذكرة الحفاظ ٢ : ٥٩٦ .
(٥٩) تاريخ بغداد ٤ : ٣٨٤ .

٤ - عمر بن شبة ، أبو زيد البصري المتوفّى سنة (٢٦٢ هـ) :
النحوي الأخباري، نزيل بغداد[٦٠].
له من الكتب : كتاب (مقتل عثمان)، كتاب (التاريخ) ...الخ[٦١].
يروي عنه الطبري بلا واسطة روايات مهمة جداً في الفتنة وحرب الجمل، وهو من الأئمة الثقات الذين أجمع العلماء على الثناء عليهم.
قال عبدالرحمان بن أبي حاتم : كتبت عنه مع أبي، وهو صدوق صاحب عربية وأدب[٦٢].
وقال الدارقطني : ثقة.
وقال أبو بكر بن الخطيب : كان ثقة عالماً بالسير وأيام الناس، وله تصانيف كثيرة[٦٣].
وذكره ابن حبان في الثقات وقال : مستقيم الحديث، وكان صاحب أدب وشعر وأخبار ومعرفة بأيام الناس[٦٤].
٥ - يعقوب بن ابراهيم بن سعد الزهري ، أبو يوسف المدني المتوفّى سنة (٢٠٨هـ):
يروي عنه الطبري بدون واسطة، وهو أيضاً من الرواة الذين أجمع العلماء على الثناء عليهم.
قال الدارمي : سألت يحيى بن معين عن يعقوب بن ابراهيم بن سعد، فقال: ثقة[٦٥].
وقال عباس الدوري ، عن يحيى بن معين : سمعت المغازي من يعقوب ابن ابراهيم بن سعد[٦٦].
وقال العجلي : ثقة[٦٧].
وقال أبو حاتم : صدوق[٦٨].
وذكره ابن حبان في الثقات[٦٩].

(٦٠) تهذيب الكمال ٢١ : ٣٨٦ .
(٦١) الفهرست : ١٤٢ .
(٦٢) الجرح والتعديل ٦ : ٦٢٤ .
(٦٣) تاريخ بغداد ١١ : ٢٠٨ .
(٦٤) الثقات ٨ : ٤٤٦ .
(٦٥) تاريخ الدارمي : رقم ٨٥٥ .
(٦٦) الجرح والتعديل : رقم ٨٤٣ .
(٦٧) الثقات : ٥٩ .
(٦٨) الجرح والتعديل : رقم ٨٤٣ .
(٦٩) الثقات لابن حبان ٩ : ٢٨٤ .

وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأموناً يقدّم على أخيه في الفضل والورع والحديث[٧٠].

٦ ـ محمد بن عمر الواقدي الأسلمي (مولاهم) ، أبو عبدالله المدني المتوفّى سنة (٢٠٧هـ) :

يروي عنه الطبري بلا واسطة روايات مهمة في الفتنة وله من الكتب (كتاب التاريخ، والمغازي، والمبعث) ، (كتاب الجمل)، (كتاب الردة) ، (والدار) ...الخ[٧١].

وقد تضاربت الأقوال فيه، فبعض العلماء طعنوا عليه، وأثنى عليه آخرون، ويبدو أنه لم يكن مرضياً في الحديث، ولكن في الأخبار كان يحتج به.

قال البخاري : الواقدي مديني سكن بغداد، متروك الحديث، تركه أحمد وابن نمير وابن المبارك واسماعيل بن زكريا[٧٢].

وقال في تاريخه الكبير: سكتوا عنه[٧٣].

وقال في تاريخه الصغير: تركوه[٧٤].

وقال في موضع آخر : كذّبه أحمد[٧٥].

وقال معاوية بن صالح، قال لي أحمد بن حنبل : هو كذّاب، وقال في موضع آخر: ليس بشيء[٧٦].

وقال في موضع آخر : قلت ليحيى: لمَ لمْ تُعلم عليه حيث كان الكتاب عنك؟ قال: أستحيي من ابنه، وهو لي صديق. قلت: فماذا نقول فيه؟ قال: كان يقلب حديث يونس ويجعله عن معمر، ليس بثقة[٧٧].

وقال عباس الدوري، عن يحيى بن معين: ليس بشيء[٧٨].

وقال عبد الوهاب بن الفرات الهذاني: سألت يحيى بن معين عن الواقدي فقال: ليس بثقة[٧٩].

وقال مسلم : متروك الحديث[٨٠].

(٧٠) الطبقات ٧ : ٣٤٣ .
(٧١) الفهرست : ١٢٨ .
(٧٢) ضعفاء العقيلي : ١٩٧ .
(٧٣) التاريخ الكبير رقم ٥٤٣ .
(٧٤) التاريخ الصغير ٢ : ١١ .
(٧٥) الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣ : ٨٥ .
(٧٦) المصدر السابق .
(٧٧) الضعفاء للعقيلي :١٩٧ .
(٧٨) تاريخ الدوري ٢ : ٥٣٢ .
(٧٩) الكامل لابن عدي ٣ :٨٥ .

وقال النسائي : ليس بثقة.

وفي مقابل ذلك، فقد وثقه عدد من العلماء والمحدّثين لا يقلون عن عشرة أشخاص، كما يقول الذهبي(٨١).

فقد قال عنه تلميذه ابن سعد : كان عالماً بالمغازي والسيرة والفتوح، وباختلاف الناس في الحديث والأحكام، واجتماعهم على ما اجتمعوا عليه. وقد فسر ذلك في كتب استخرجها ووضعها وحدّث بها(٨٢).

وقال الخطيب البغدادي : قدم الواقدي بغداد وولي قضاء الجانب الشرقي منها، وهو ممن طبق شرق الأرض وغربها ذكره، ولم يخفَ على أحد عرف أخبار الناس أمره، وسارت الركبان بكتبه في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات وأخبار النبي(صلى الله عليه وآله) والأحداث التي كانت في وقته وبعد وفاته(صلى الله عليه وآله)، وكتب الفقه واختلاف الناس في الحديث وغير ذلك، وكان جواداً كريماً مشهوراً بالسخاء.

ثم روى باسناده عن محمد بن سلام قال : محمد بن عمر الواقدي عالم دهره.

وعن ابراهيم الحربي قال : الواقدي أمين الناس على أهل الاسلام.

وعن ابراهيم بن سعيد الجوهري، قال : سمعت المأمون يقول: ما قدمت بغداد إلاّ لأكتب كتب الواقدي.

وعن ابراهيم الحربي قال: كان الواقدي أعلم الناس بأمر الاسلام، فأما الجاهلية فلم يعلم منها شيئاً.

وعن موسرة بن هارون ، قال: سمعت مصعباً الزبيري يذكر الواقدي، قال: والله ما رأيت مثله قط. قال: وسمعت مصعباً يقول: حدثني من سمع عبدالله، يعني ابن المبارك، يقول: كنت أقدم المدينة فما يفيدني ولا يدلني على الشيوخ إلاّ الواقدي.

وعن يقعوب مولى عبدالله، قال : سمعت الدراوردي، وذكر الواقدي فقال: ذاك أمير المؤمنين في الحديث.

وعن يعقوب بن شيبة، قال: حدثني بعض أصحابنا ثقة، قال: سمعت أبا عامر العقدي يُسأل عن الواقدي، فقال: نحن نُسأل عن الواقدي؟! إنما يُسأل الواقدي عنّا، وهل كان يفيدنا الشيوخ والأحاديث إلاّ الواقدي.

وقال يعقوب : حدثني مفضل، قال: قال الواقدي: لقد كانت ألواحي تضيع بالمدينة فأُوتى بها من شهرتها بالمدينة، يقال: هذه ألواح ابن واقد.

(٨٠) الكنى : ٦٤ .

(٨١) سير أعلام النبلاء ٩ : ٤٥٤ وما بعدها.

(٨٢) الطبقات الكبرى ٥ : ٤٢٥ .

وعن أحمد بن علي الأبار، قال: سألت مجاهداً يعني ابن موسى عن الواقدي، فقال: ما كتبت عن أحد أحفظ منه.

وقال ابراهيم بن جابر الفقيه : سمعت الصاغاني، وذكر الواقدي، فقال: والله لولا أنه عندي ثقة ما حدثت عنه، حدّث عنه أربعة أئمة: أبو بكر بن أبي شيبة، وأبو عبيد، وأحسبه ذكر أبا خيثمة ورجلا آخر.

وقال ابراهيم الحربي : سمعت مصعباً الزبيري، وسئل عن الواقدي، فقال: ثقة مأمون، وسئل المسيبي عنه فقال :ثقة مأمون، وسئل معن بن عيسى عنه فقال: أُسأل أنا عن الواقدي؟ يُسأل الواقدي عني، وسئل عنه أبو يحيى الأزهري فقال: ثقة مأمون...[٨٣].

وقال الذهبي في ترجمته : الحافظ البحر. لم أسق ترجمته هنا لإتفاقهم على ترك حديثه، وهو من أوعية العلم، ولكنه لا يتقن الحديث، وهو رأس في المغازي والسير، ويروي عن كل ضرب.

ولي قضاء بغداد، وكان له رئاسة وجلالة وصورة عظيمة[٨٤].

٧ - أبو مخنف ، لوط بن يحيى المتوفّى سنة (١٥٧ هـ) :

الكوفي، صاحب تصانيف وتواريخ.

قال يحيى بن معين : ليس بثقة، وقال أبو حاتم : متروك الحديث، وقال الدارقطني: أخباريّ ضعيف[٨٥].

له من الكتب : كتاب الردة ،كتاب فتوح الشام، كتاب فتوح العراق، كتاب الجمل، كتاب صفين، كتاب الشورى ومقتل عثمان، كتاب مقتل الحسين(عليه السلام)، حدّث بأخبار من تقدّم من السلف الصالحين، ولا يبعد منه أن يتناولهم.

وهو شيعي محترق، صاحب أخبارهم، وإنما وصفته لأنه لا يستغنى عن ذكر حديثه، فإني لا أعلم له من الأحاديث المسندة ما أذكره، وإنّما له من الأخبار المكروه الذي لا أستحب ذكره[٨٦].

قالت العلماء : أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بالحجاز والسيرة، وقد اشتركوا في فتوح الشام[٨٧].

(٨٣) تاريخ بغداد ٣ : ٢١٢ .
(٨٤) تذكرة الحفاظ ١ : ٣٤٨ .
(٨٥) سير اعلام النبلاء ٧ : ٣٠١ .
(٨٦) الضعفاء لابن عدي ٧ : ٢٤١ ، ميزان الاعتدال ٣ : ٤١٩ ، لسان الميزان ٥ : ٥٦٧ .
(٨٧) معجم الأدباء لياقوت الحموي ٥ : ٢٩ .

٨ ـ سيف بن عمر التميمي البرجمى المتوفّى ما بين (١٧٠ ـ ١٨٠ هـ) :

أحد أصحاب السير والأحداث، له كتاب (الفتوح) الكبير، والردة، كتاب الجمل، مسير عائشة وعلي...[٨٨]

فهو قد استوعب في كتبه الفترة الزمنية المهمة والخطيرة في تاريخ الاسلام.

ويروي عنه الطبري بواسطتين هما : السري عن شعيب.

وقد أجمع العلماء على توهينه والحط منه واتهموه في صدقه وحتى في دينه.

قال عباس الدوري ، عن يحيى بن معين : ضعيف[٨٩].

وقال أبو أحمد بن عدي : بعض أحاديثه مشهورة وعامتها منكرة لم يتابع عليها، وهو الى الضعف أقرب منه الى الصدق.

وقال أبو جعفر الحضرمي، عن يحيى بن معين: فلس خير منه[٩٠].

وقال أبو حاتم : متروك الحديث، يشبه حديثه حديث الواقدي[٩١].

وقال أبو داود : ليس بشيء[٩٢].

وقال النسائي : ضعيف[٩٣].

وقال أبو حاتم ابن حبان : يروي الموضوعات عن الاثبات. قال: وقالوا: إنه كان يضع الحديث، وكان قد اتّهم بالزندقة[٩٤].

وقال أبو نعيم : متهم في دينه مرمي بالزندقة ساقط الحديث، لا شيء[٩٥].

وقال الذهبي : وكان سيف يضع الحديث .. وقد اتُّهم بالزندقة[٩٦].

فتبين من ذلك أن العلماء قد أجمعوا على اتهام سيف بن عمر بالضعف ووضع الحديث، بل وبالزندقة أيضاً.

أما الراويتان اللذان يشكلان الواسطة بينه وبين الطبري، فهما كما قلنا:

أ ـ السري بن اسماعيل الهمداني الكوفي ابن عم الشعبي:

قال أبو واقد عن يحيى بن سعيد : استبان لي كذبه في مجلس.

(٨٨) الفهرست : ١٢٣ .
(٨٩) تاريخ الدوري ٢ : ٢٤٥.
(٩٠) الكامل في الضعفاء لابن عدي ٢ : ٦٢ .
(٩١) الجرح والتعديل : ٤ رقم ١١٩٨ .
(٩٢) سؤالات الآجري ٥ : ٤٣ .
(٩٣) الضعفاء والمتروكين : رقم ٢٨٣ .
(٩٤) المجروحين ١ : ٣٤٥ .
(٩٥) الضعفاء لابي نعيم : ٩١ .
(٩٦) ميزان الاعتدال ٢ : ٢٥٦ .

وقال عمرو بن علي : ما سمعت عبدالرحمان ذكره قط، وكان يحيى بن سعيد لا يحدث عنه.

وقال الحسن بن عيسى : سمعت ابن المبارك يقول: لا يكتب عن جرير ابن عبدالحميد حديث السري بن اسماعيل..

وقال صالح بن أحمد عن أبيه : ليس بالقوي، وهو أحب لي من عيسى الخياط.

وقال أبو طالب عن أحمد : ترك الناس حديثه.

وقال الدوري عن ابن معين : ليس بشيء.

وقال عبدالله بن شعيب عن ابن معين : يضعف.

وقال أبو حاتم : ذاهب ، دون مجالد.

وقال الجوزجاني : يضعف حديثه.

وقال الآجري عن أبي داود : ضعيف متروك الحديث، يجيء عن الشعبي بأوابد.

وقال النسائي : متروك الحديث ، وقال في موضع آخر : ليس بثقة.

وقال ابن عدي : وأحاديثه التي يرويها لا يتابعه عليها أحد، خاصة عن الشعبي، فإن أحاديثه عنه منكرات، وهو الى الضعف أقرب.

قلت (ابن حجر العسقلاني) : وقال في ترجمة سيف، بعد أن أورد له عن السري حديثاً : لعل البلاء من السري.

وقال ابراهيم الحربي : كان كاتب الشعبي لمّا كان قاضياً، وولي للقضاء بعده، وفيه ضعف.

وقال ابن سعد : كان قليل الحديث.

وقال البزار : ليس بالقوي .

وقال الساجي : ضعيف جداً.

وقال ابن حبان : كان يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل، وكان ابن معين شديد الحمل عليه(٩٧).

ب ـ شعيب بن ابراهيم الكوفي :

راوية كتب سيف عنه، فيه جهالة(٩٨).

(٩٧) تهذيب التهذيب ٣ : ٣٩٩ .

(٩٨) ميزان الاعتدال ٣ : ٢٧٥ .

وقال ابن عدي : وشعيب بن ابراهيم هذا له أحاديث وأخبار، وهو ليس بذلك المعروف، ومقدار ما يروي من الحديث والأخبار ليست بالكثيرة، وفيه بعض النكرة، لأن في أخباره وأحاديثه ما فيه تحامل على السلف(٩٩).

يتبين لنا مما سبق أن تاريخ الطبري لا يختلف كثيراً عن المصنفات التاريخية الأخرى، فهو ينقل مختلف الروايات عن عدد كبير من الرواة على اختلاف مشاربهم، ففيهم الأئمة الثقات العدول المأمونون، وفيهم الضعفاء والمتروكون والوضاعون وحتى المتهمون بالزندقة. فلماذا يستأثر تاريخ الطبري بهذه الثقة العالية ويعتمد عليه جل المؤرخين والباحثين الذين جاوءا بعده؟!

لكن مما يلفت الانتباه، أن الطبري قد روى كثيراً عن السلسلة الأخيرة التي ذكرناها وهي: عن السري عن شعيب عن سيف، وقد تبين لنا أن هذه السلسلة هي من أضعف سلاسل الرواة في تاريخ الطبري، بل هذا «من أضعف الأسانيد على وجه الأرض، لكنه للأسف من أكثر الأسانيد التي يأخذ بها المعاصرون ويحتجون بها ويثبتونها في كتاباتهم»(١٠٠).

وعند التفتيش عن السبب نجد بعض العلماء - كابن حجر العسقلاني - يحاول إعطاءنا الجواب على هذا التساؤل، بأن سيف بن عمر لا يمكن أن يكون زنديقاً لأنه يدافع عن الصحابة ويقول في ترجمته: «ضعيف في الحديث، عمدة في التاريخ»(١٠١).

مع العلم أنه ينقل عن ابن عدي - كما مر بنا - في ترجمة شعيب بن ابراهيم الكوفي قوله : بأن «في أخباره وأحاديثه ما فيه تحامل على السلف»

أما الحافظ ابن كثير فيقول - بعد أن ينقل بعض الأحداث المهمة المتعلقة بالفتنة التي وقعت زمن عثمان - «هذا ملخص ما ذكره أبو جعفر رحمه الله، عن أئمة هذا الشأن، سيف وشيوخه»(١٠٢).

ومن المؤلفين المعاصرين، الدكتور يوسف العش حيث يقول: ونجد سيف بن عمر ينتحي جانباً عن أبي مخنف والواقدي، فيعرض تسلسلا تاريخياً ليس فيه تهمة للصحابة، بل تبرئة لهم(١٠٣).

(٩٩) الكامل في ضعفاء الرجال ٥ : ٦ رقم ٥ / ٨٨٥ .
(١٠٠) بيعة علي بن أبي طالب : حسن بن فرحان المالكي : ١٣١ .
(١٠١) تقريب التهذيب ١ : ٣٤٤ .
(١٠٢) البداية والنهاية ٧ : ٢٤٧ .
(١٠٣) الدولة الأموية: ٣٥ .

وقال الخضري بك : ولكن حاصل التحقيق في سيف، أن إتهامه بالزندقة لا دليل عليه، ولم يتهمه أحد ممن عاصره، وإنما اتهمه المتأخرون كابن حبان والحاكم...[١٠٤].

أما الدكتور محمد أمحزون فيقول : ولسنا ندري كيف يصح اتهامه (سيف) بذلك.

وروايته في الفتنة وحديثه عما جرى بين الصحابة(رض) أبعد ما يكون عن أسلوب الزنادقة، وكيف يستقيم اتهامه بالزندقة وهو الذي فضح وهتك ستر الزنادقة أمثال ابن سبأ ويمكن القول أن رواية سيف بعيدة كل البعد أن تضعه موضع هذه التهمة، بل هي تستبعد ذلك، إذ أن موقفه فيها موقف رجال السلف في احترامه للصحابة وتنزيهه لهم عن فعل القبيح، فقد انتحى جانباً عن أبي مخنف والواقدي، فعرض تسلسلا تاريخياً ليس فيه تهمة للصحابة، بل يظهر منه حرصهم على الاصلاح وجمع الكلمة، وهو الحق الذي تطمئن إليه النفوس، ويسير في اتجاه الروايات الصحيحة عند المحدثين[١٠٥].

فالنقطة التي تبدو هي المحور في درء تهمة الزندقة عن سيف عند أُولئك المؤلفين، وجعل رواياته في محل الصدارة، هي أن سيف ينحو باتجاه تبرئة الصحابة والدفاع عن مواقفهم. ولا أدري كيف يتفق لراو كذاب يضع الحديث على رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يكون مدافعاً عن الصحابة!

وكأنّ هؤلاء المؤلفين والباحثين لم يدققوا جيداً في روايات سيف، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث فيها، لأنهم لو فعلوا ذلك لاكتشفوا أن سيف بن عمر يتظاهر بالدفاع عن مجموعة من الصحابة، ولكنه بالمقابل يوجه طعنات شديدة الى مجموعة أُخرى من كبار الصحابة وفيهم المهاجرون الأولون وخيار التابعين، بل ويصف بعضهم وصفاً شنيعاً، وسوف يتمكن القارئ من التحقق من ذلك بعد أن نستعرض روايات سيف، ونقارنها مع روايات المؤلفين والمؤرخين الثقات الذين تقدمت تراجمهم من تاريخ الطبري وغيره من التواريخ، عندما نتكلم عن الفترة العصيبة التي مرّ بها الاسلام - خصوصاً في الفتنة- لتتبين الحقيقة فيما جرى من أحداث من جهة، ولكي يتحقق القارئ أيضاً من صحة اتهام سيف بالزندقة أم لا، وعن الدوافع الحقيقية له في الدفاع عن بعض الصحابة.

(١٠٤) محاضرات في التاريخ الاسلامي : ٥٣ .
(١٠٥) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ١ : ٢٣٥ .

وفضلا عن موقف سيف من الصحابة، فإن رواياته في الطبري تكاد تخالف ما أجمع عليه المؤرخون فيما يتعلق بالسياق التاريخي والزمني لبعض الحوادث، خاصة فيما يتعلق بالفتوحات الإسلامية، وقيام سيف بحشو تاريخنا بخرافات وخزعبلات لا يصدقها عاقل، فضلا عما فيها من طعن على الاسلام، وقد أصبحت روايات سيف من الأمور التي يستشهد بها المستشرقون المعادون للاسلام على وحشية المسلمين وسفكهم للدماء.

وروايات سيف في معظمها أشبه ما تكون بحكايات القصّاص الذين يحاولون جذب المستمعين اليهم عن طريق المبالغات والتهويلات بما يلفقون لهم من حكايات خرافية، مما يدل على أن سيفاً كان ذا خيال واسع جداً، وإنه كان يحشو الحوادث التاريخية بحكايات يخترعها من عند نفسه، وسوف اتطرق الى بعض تلك الروايات والحكايات أثناء السرد.

يقول حسن فرحان: «وسيف أكثر مروياته انفرادات وغرائب يخالف فيها المحدثين والمؤرخين على حد سواء ...»[١٠٦].

ومن أجل الكشف عن الحقائق التي تعرضت للتشويه في تاريخنا، فسوف نبدأ بتناول أهم الأحداث التي تعرضت للتزييف، وأولها الفتنة الكبرى في زمن عثمان بن عفان، وبشكل موضوعي خال من وجهات النظر السابقة، معتمدين على روايات المؤرخين والمحدثين على حد سواء جهد الامكان، بهدف الخروج بنتائج أكثر قرباً من الواقع، ومن ثم نترك الحكم في ذلك للقارئ الكريم.

(١٠٦) بيعة علي : ٣٠٦ .

الفصل الثالث: الفتنة

الفتنــة

إن موضوع الفتنة التي نشبت في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، هي أحد أكثر الأمور حساسية في التاريخ الاسلامي دون شكّ، وذلك لما أورثته هذه الفتنة من مصائب ابتليت بها الأمة، وكانت فاتحة للحروب التي دارت بين أبناء الأمة الواحدة. فالفتنة هي التي أدت الى أن يتواجه المسلمون بسيوفهم في معارك طاحنة لأول مرة، مخلّفة آلاف الضحايا من المسلمين، ومن بينهم عدد من كبار الصحابة.

وقد كثر التأليف في موضوع الفتنة في عصرنا الحاضر، فلا تكاد تجد باحثاً يؤرخ لبعض قضايا الاسلام، إلاّ ويذكر في مقدمة أسباب الخلاف بين المسلمين - قديماً وحديثاً- موضوع الفتنة هذه التي فرقت شمل المسلمين.

إلاّ أن آراء الباحثين في الفتنة قد تشعبت بحسب الميول والاتجاهات، فاختار بعضهم الركون الى المصادر القديمة بشكل تقليدي محض، ودون أية محاولة للتمحيص أو تحليل للأحداث تحليلا نقدياً موضوعياً، مكتفين بالقاء تبعات الفتنة على أشخاص - وكما ورد في تاريخ الطبري- كأمثال عبدالله بن سبأ وأعوانه، معتبرين أن هؤلاء هم المسؤولون وحدهم عما جرى من أحداث أدت الى وقوع هذه الفتنة وما أنتجت بعد ذلك، وفي غمرة انسياق هؤلاء الباحثين وراء هذا الرأي الذي تولد من اعتمادهم على تاريخ الطبري - برواية سيف بن عمر- الذي تفرد بذكر هذا السبب، متناسين أن القول بذلك يجرّ الى الاعتراف بأن الأمة الإسلامية -ومن ضمنها بعض كبار الصحابة- قد بلغت بهم الغفلة والسذاجة درجة جعلتهم يصبحون أتباعاً لهذا اليهودي المنافق الذي دخل الاسلام كيداً بأهله، واستطاع بدهائه الخارق ومكره أن يستخف عقولهم ويجعلهم أداة طيعة في يده، يؤلبهم على بعضهم حتى نجح في دفعهم للانتقاض على خليفتهم وقتله في عقر داره على مرأى ومسمع من ألوف الصحابة الذين لم يحركوا ساكناً لدفع هذا المنكر. ولعل هذا الأمر قد أوقع القدماء أيضاً في حرج شديد، فلم يجدوا تبريراً لهذا الفعل المشين إلاّ الادعاء بأن عثمان قد استسلم لقتلته بوصيته من النبي(صلى الله عليه وآله) حقناً لدماء المسلمين -كما يدعون- ولسوف نناقش هذا الادعاء فيما بعد.

أما القسم الآخر من الباحثين ـ ممن أدرك عقم النظرية السابقة وتهافتها ـ فقد اتّجه الى إلقاء التبعة على الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وما حدث من تغيّر في تركيبة المجتمع الاسلامي ودور الأعراب والعصبية القبلية في تأجيج هذه الفتنة، ومعظم هذه الآراء متأثرة بالأبحاث الاجتماعية التي تتبناها بعض مدارس الغرب بعد عصر النهضة، ومع أهمية هذه الأمور فعلا ودورها في وقوع الفتنة، إلاّ أنها ليست كل الأسباب، بينما ألقى البعض اللوم على سياسات عثمان المالية والإدارية وتعيين الولاة غير الأكفاء من ذوي قرباه، مما أثار موجة السخط العام.

والحقيقة فإن بعض تلك العوامل مجتمعة. إضافة الى عوامل أُخرى، قد تضافرت لتؤدي في النهاية الى إشعال نيران هذه الفتنة التي هزت أركان المجتمع الإسلامي وأدت الى التخلي في النهاية عن مبدأ الشورى أو الاختيار، وتحوّل الخلافة الإسلامية الى ملك وراثي تتداوله قبائل معينة من قريش، أدت بدورها في نهاية المطاف الى حدوث تغييرات مهمة في المجتمع الإسلامي الذي بدأ يفقد تماسكه الروحي، وتحول الصراع على السلطة الى داء عضال، كان من نتائجه تطرّق الضعف الى المجتمع الإسلامي، وتحوّل خلفاء المسلمين ـ فيما بعد ـ الى اُلعوبة في أيدي المتسلطين من الغرباء، حتى جاءت الضربة القاضية بسقوط الخلافة وإلغائها بشكل نهائي.

مقدمات الفتنة

إن من الأمور المسلّم بها عقلا، أن الفتنة لا تتولد من الفراغ أو تقع دون أسباب ومقدمات تمهد لها، إلاّ أن بعض الباحثين والمؤلفين ـ قديماً وحديثاً ـ يحاولون إقناع القارئ بأن ذلك قد حدث فعلا، وأن الفتنة قد وقعت بدون أسباب، ومن الأمثلة على ذلك، قول القاضي ابن العربي:

«قالوا مبعدين، متعلقين برواية كذابين: جاء عثمان في ولايته بمظالم ومناكير (ثم يعددها) معلقاً عليها بقوله:

هذا كله باطل سنداً ومتناً، أما قولهم: جاء عثمان بمناكير، فباطل، وأما ضربه لعمار وابن مسعود ومنعه عطاءه فزور، وضربه لعمار إفك مثله، ولو فتق أمعاءه ما عاش أبداً. وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجه لا ينبغي أن نشتغل بها لأنها مبنية على الباطل، ولا يبنى حق على باطل، ولا تذهب الزمان في مماشاة الجهال، فإن ذلك لا آخر له»[١٠٧].

(١٠٧) العواصم من القواصم : ٧٦ .

ويستدرك محمود مهدي الاستانبولي معلقاً على كلام ابن العربي بقوله:

«وزاد عثمان في عطاء الناس مائة مائة ... بل روي ما يدل على ما كان من كثرة الخير في زمنه والتوسع في العطاء وتنويعه، حيث روي عن الحسن البصري من علماء التابعين، قال: شهدتُ منادي عثمان ينادي: أيها الناس، اغدوا على أرزاقكم، فيغدون ويأخذونها وافية، حتى والله سمعته أُذناي يقول: اغدوا على كسوتكم، فيأخذون الحلل، واغدوا على السمن والعسل. أرزاق دارّة وخير كثير وذات بين حسن، ما على الارض مؤمن يخاف مؤمناً إلاّ يرده وينصره ويألفه، فلو صبر الأنصار على الاثرة لوسعهم ما كانوا فيه العطاء والرزق...»[١٠٨].

إن التدقيق في مقولة القاضي ابن العربي يكشف عن الخلل الواضح فيها، فهو يورد نفيه للاتهامات الموجهة الى عثمان دون أن يقيم دليلا على قوله، ثم يطلب من القارئ التسليم بمقولته دون اعتراض، إلاّ أنه سرعان ما يعود فيناقض نفسه، حينما يعترف بأن العلماء قد اعتذروا لعثمان عن كل ذلك فلو لم يكن في الأمر ما يوحي بصحة هذه الاتهامات، فما حاجة العلماء للاعتذار عنها؟!

أما الرواية التي يوردها الاستانبولي فهي أكثر عجباً، إذ لو كانت الأمور كما تصف الرواية، فما المشكلة إذاً؟ أيعقل أن يخرج المئات من أمصارهم البعيدة ويتوجهوا الى عاصمة الاسلام ومدينة الرسول(صلى الله عليه وآله) ليقتلوا خليفة المسلمين على مرأى ومسمع من أهل المدينة دونما سبب؟ ثم ما معنى قول الحسن البصري «فلو أن الانصار صبروا على الأثرة ...؟» ألا يعني ذلك أن الأنصار قد عانوا من الأثرة، وأن ذلك الخير العميم قد شمل بعض الناس دونهم، فضلا عن أن هذا القول يثبت أن الأنصار - بسبب هذه الأثرة- كانوا في جملة الثائرين على الخليفة ومن مؤججي الفتنة، ومن هم الأنصار؟ أليسوا من الصحابة؟!

بل أن الأخبار تشير الى أن عمر بن الخطاب قد حبس عدداً من الصحابة القرشيين وليس الأنصار، خوفاً من تأجيجهم لنار الفتنة فللفتنة إذاً جذور عميقة وأسباب ممتدة، فقد «روي عن عامر الشعبي أنه قال: ما قُتل عمر بن الخطاب حتى ملّته قريش واستطالت خلافته، وقد كان يعلم فتنتهم، فحصرهم في المدينة وقال لهم: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم في البلاد. وأن كان الرجل ليستأذنه في الغزو، فيقول: إن لك في غزوك مع رسول الله(صلى الله عليه وآله)ما يكفيك، وهو خير لك

(١٠٨) المصدر السابق .

من غزوك الروم، وخير لك من الغزو ألاّ ترى الدنيا ولا تراك. فكان يفعل هذا بالمهاجرين من قريش، ولم يكن يفعله بغيرهم من أهل مكة.

فلما ولي عثمان الخلافة خلّى عنهم، فانتشروا في البلاد، وخالطهم الناس، وأفضى الأمر الى ما أفضى اليه، وكان عثمان أحب الى الرعية من عمر»[١٠٩].

فليس ابن سبأ، ولا الأسباب الاقتصادية والسياسية، ولا عثمان وولاته، ولا الأنصار هم السبب فقط في اشتعال الفتنة، بل أن للصحابة ـ القرشيين منهم خاصة- دورهم أيضاً في هذه الفتنة، وقد اعترف الخضري بك بذلك إذ قال:

« إذا انصدع شمل القلوب، وحلّت الكراهة محل المحبة، والتحاسد محل التناصر، انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب، وعلى هذا كان الحال في المدينة حاضرة الخلافة ومجمع رؤساء المسلمين، والمرشحين منهم لولاية الأمر، فإن من يتصفح أحوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة المؤلمة في حق عثمان، سواء في وجهه أو في غيبته، يحكم أن النفوس قد انطوت على مكروهه، حتى كانوا يلقبونه في بعض الأحيان نعثلا»[١١٠].

والسؤال الذي يطرح نفسه تعليقاً على كلام الشيخ الخضري هو: من الذي كان يبهت عثمان في وجهه أو في غيبته ويؤلمه بالكلام القارص ويسميه نعثلا، أهو ابن سبأ وأعوانه أم هم الصحابة أنفسهم؟!

إن هذا الاعتراف وأمثاله من عدد من المؤلفين ـ قديماً وحديثاً- ليؤكد أن إنكار ابن العربي وغيره بعدم وجود اُمور أثارت حفيظة الناس ـ ومنهم الصحابة- لا أساس له من الصحة. ولقد أكدت روايات المحدثين في أوثق المصادر الحديثية على هذه الحقيقة، ففي الصحيحين ـ واللفظ لمسلم- عن اُسامة بن زيد، قال: قيل له: ألا تدخل على عثمان فتكلمه. فقال: أترون أني لا أكلمه إلاّ اُسمعكم؟ والله لقد كلمته فيما بيني وبينه، ما دون أن أفتح أمراً لا اُحب أن أكون أول من فتحه، ولا أقول لأحد يكون عليّ أميراً إنه خير الناس، بعدما سمع رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى بالنار» فتندلق أقتاب بطنه فيدور فيها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان، مالك، ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه».

(١٠٩) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ١٥٩ .
(١١٠) الدولة الأموية : ٢٥٠ .

وأخرج البخاري الرواية في موضعين من صحيحه، ولكنه أبدل إسم عثمان بـ (فلاناً) مرة و (هذا) مرة أُخرى[١١١].

إن إضمار البخاري لاسم الخليفة عثمان، واستبداله بفلان أو هذا، إنما يدل على خطورة الموضوع، وتلك عادة بعض المحدثين والمؤرخين في إضمار الأسماء إذا كان الأمر يتعلق ببعض كبار الصحابة.

والرواية على اختصارها وغموضها تكشف عن أن بعض الصحابة قد كلفوا أُسامة بن زيد بنصح عثمان والإقلاع عن بعض الأُمور التي يكرهونها، وجواب أُسامة الذي يكشف عن إلحاح هؤلاء عليه أكثر من مرة، والذي نستشف منه أن عثمان كان لا يلتفت الى هذه النصائح رغم تكررها.

واعترف ابن تيمية أيضاً ببعض تلك الأُمور التي نقمت على عثمان، دون أن يجد لعثمان عذراً غير ضعفه واستئثار أقاربه بالأموال والولايات، في قوله: «وأما عثمان، فقد بنى على أمر قد استقر قبله بسكينة وحلم وهدي ورحمة وكرم، ولم يكن فيه قوة عمر ولا سياسته، ولا فيه كمال عدله وزهده، فطُمع فيه بعض الطمع، وتوسعوا في الدنيا، ودخل بسبب أقاربه في الولايات والأموال أُمور أنكرت عليه، فتولد من رغبة الناس في الدنيا وضعف خوفهم عن الله ومنه، ومن ضعفه هو، وما حصل من أقاربه في الولاية والمال ما أوجب الفتنة»[١١٢].

ويلاحظ على عبارة ابن تيمية في قوله «فتولد من رغبة الناس في الدنيا وضعف خوفهم من الله» ما يوحي بأن هؤلاء الذين يتهمهم ابن تيمية بحب الدنيا، إما أن يكونوا هم الأنصار -كما في الرواية المنسوبة الى الحسن البصري- أو من المهاجرين القرشيين الذين استغلوا إطلاق عثمان سراحهم، وهم كلهم من الصحابة أيضاً، فمن يكون السبب في إثارة الفتنة إذاً؟

إلاّ أن رواية سعيد بن المسيب توضح الأُمور أكثر، قال:

«لما ولي عثمان، كره ولايته نفر من الصحابة، لأن عثمان كان يحب قومه، فولي الناس اثنتي عشرة حجة، وكان كثيراً ما يولي بني أُمية ممن لم يكن له مع النبي(صلى الله عليه وآله) صحبة، فكان يجيء من أُمرائه ما ينكره أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)، وكان يُستعتب فيهم فلا يعزلهم، فلمّا كان في الستّ الأواخر، استأثر بني

(١١١) صحيح البخاري ٤ : ١٤٧ كتاب بدء الخلق، باب صفة النار ٩ : ٦٩ كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، صحيح مسلم ٤ : ٢٢٩ كتاب الزهد والرقاق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله.

(١١٢) منهاج السنّة النبوية ٤ : ١٢١ .

عمه فولاّهم، وولى عبدالله بن سعد بن أبي سرح مصر، فمكث عليها سنين; فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه، وقد كانت من عثمان قبل هناتٌ الى عبدالله بن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر، فكان في قلوب هذيل وبني زهرة وبني غفار وأحلافها من غضب لأبي ذر ما فيها، وحنقت بنو مخزوم لحال عمار بن ياسر; فلما جاء أهل مصر يشكون ابن أبي سرح، كتب إليه كتاباً يتهدده فيه، فأبى أن ينزع عما نهاه عثمان عنه، وضرب بعض من كان شكاه الى عثمان من أهل مصر حتى قتله; فخرج من أهل مصر سبعمائة الى المدينة فنزلوا المسجد، وشكوا ما صنع بهم ابن أبي سرح في مواقيت الصلاة الى أصحاب محمد، فقام طلحة الى عثمان فكلمه بكلام شديد، وأرسلت اليه عائشة(رض) تسأله أن ينصفهم من عامله، ودخل عليه علي بن أبي طالب - وكان متكلم القوم- فقال له: إنما يسأله القوم رجلا مكان رجل، وقد ادعوا قبله دماً، فأعزله عنهم واقض بينهم فإن وجب عليه حق فانصفهم منه.

فقال لهم : اختاروا رجلا أولّيه عليكم مكانه، فأشار الناس عليهم بمحمد ابن أبي بكر الصديق، فقالوا: استعمل علينا محمد بن أبي بكر.

فكتب عهده على مصر ووجه معهم عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بينهم وبين ابن أبي سرح»(١١٣).

ورغم أن هذه الرواية تبدو مبتورة، إذ أنها لا تبيّن عما حدث بعد ذلك، إلاّ أنها تلخص الأحداث التي سبقت اشتعال الفتنة. ومن هذه الأسباب الهنات التي ارتكبها عثمان قبل عمار وابن مسعود وأبي ذر -كما أسماها ابن المسيب- وهي الأمور التي أنكرها ابن العربي بشدة، فضلا عن مواقف كبار الصحابة من عثمان، فلا يبقى سوى تفصيل تلك الحوادث بمختلف الروايات واستخراج الحقائق منها.

عثمان وابن مسعود

أعرض الطبري عن ذكر قصة عبدالله بن مسعود، واكتفى - عند ذكره حوادث سنة ٣٢ هـ - بالقول: وفيها توفي عبدالله بن مسعود بالمدينة، فدفن بالبقيع رحمه الله، فقال قائل: صلى عليه عمار، وقال قائل: صلى عليه عثمان(١١٤).

أما ابن كثير فألمح الى طرف من القصة - بعد تعديلها- فقال في ترجمته لعبدالله بن مسعود: ... ثم قدم الى المدينة فمرض بها، فجاءه عثمان بن عفان عائداً، فيروى

(١١٣) أنساب الأشراف ٦ : ١٣٤ .
(١١٤) الطبري ٤ : ٣٠٨ .

أنه قال له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: ألا آمر لك بطبيب؟ فقال: الطبيب أمرضني. قال: ألا آمر لك بعطائك - وكان قد تركه سنتين- فقال: لا حاجة لي فيه. فقال: يكون لبناتك من بعدك. فقال: أتخشى على بناتي الفقر أني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: «**من قرأ الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً**».

وأوصى ابن مسعود الى الزبير بن العوام، فيقال إنه هو الذي صلى عليه ليلا، ثم عاتب عثمان الزبير على ذلك. وقيل بل صلى عليه عثمان، وقيل عمار فالله أعلم[١١٥].

يمكننا أن نلاحظ بكل وضوح لهجة الجفاء التي قابل بها ابن مسعود عثمان بن عفان - رغم محاولة ابن كثير تلطيفها وحذف أجزاء منها- كما أن ادعاء ابن كثير أن ابن مسعود قد ترك عطاءه سنتين أمر غير معقول، وليس له أساس من الصحة، وما الذي يدعوه الى هذا العمل

كما ويحاول ابن كثير الايحاء بأن ابن مسعود قد مرض بعد مجيئه الى المدينة بشكل طبيعي دون أن يشير الى السبب الحقيقي للمرض، إلاّ أنّ دفن ابن مسعود ليلا وعدم إخبار الخليفة بذلك، ومعاتبة الخليفة للزبير على عدم إخباره تدل على أن ابن مسعود قد رحل الى جوار ربه وهو واجد على عثمان، كما سوف يتضح.

أما البلاذري، فقد أورد تفاصيل القصة بشكل أكثر دقة، فروى عن عباس بن هشام:

«أن عبدالله بن مسعود حين ألقى مفاتيح بيت المال[١١٦] إلى الوليد بن عقبة، قال: من غيَّر، غيَّر الله ما به، ومن بدّل أسخط الله عليه، وما أرى صاحبكم إلاّ وقد غيّر وبدّل. أيعزل مثل سعد بن أبي وقاص ويولّي الوليد

وكان يتكلم بكلام لا يدعه، وهو: إن أصدق القول كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد(صلى الله عليه وآله)، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدث بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. فكتب الوليد الى عثمان بذلك وقال: إنه يعيبك ويطعن عليك. فكتب إليه عثمان يأمره بإشخاصه.

(١١٥) البداية والنهاية ٧ : ١٦٣ .
(١١٦) لأن عثمان عزله عن عمله كخازن لبيت المال في الكوفة.

وشيّعه أهل الكوفة; فأوصاهم بتقوى الله ولزوم القرآن; فقالوا له: جُزيت خيراً، فلقد علّمت جاهلنا وثبتّ عالمنا وأقرأتنا القرآن وفقّهتنا في الدين، فنعم أخو الاسلام أنت ونعم الخليل، ثم ودّعوه وانصرفوا.

وقدم ابن مسعود المدينة وعثمان يخطب على منبر رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فلما رآه قال: ألا أنه قدمت عليكم دُويبة سوء، من تمشِ على طعامه يقيء ويسلح.

فقال ابن مسعود : لستُ كذلك، ولكني صاحب رسول الله(صلى الله عليه وآله) يوم بدر ويوم بيعة الرضوان.

ونادت عائشة : أي عثمان، أتقول هذا لصاحب رسول الله(صلى الله عليه وآله) ثم أمر عثمان به فأُخرج من المسجد إخراجاً عنيفاً. وضرب به عبدالله بن زمعة بن الأسود بن المطلب الأرض. ويقال: بل احتمله يحموم غلام عثمان ورجلاه تختلفان على عنقه حتى ضرب به الأرض فدق ضلعه، فقال علي: يا عثمان، أتفعل هذا بصاحب رسول الله(صلى الله عليه وآله) بقول الوليد بن عقبة

فقال : ما بقول الوليد فعلتُ هذا، ولكن وجّهت زبيد بن الصلت الكندي الى الكوفة، فقال له ابن مسعود: إن دم عثمان حلال

فقال علي : أحلت من زبيد على غير ثقة...

وقام علي بأمر ابن مسعود حتى أتى به منزله، فأقام ابن مسعود بالمدينة لا يأذن له عثمان في الخروج منها الى ناحية من النواحي، وأراد حين برئ الغزو فمنعه من ذلك، وقال له مروان: إن ابن مسعود أفسد عليك العراق، أفتريد أن يفسد عليك الشام؟! فلم يبرح المدينة حتى توفي قبل مقتل عثمان بسنتين... ولما مرض ابن مسعود مرضه الذي مات فيه، أتاه عثمان عائداً فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي. قال: ألا أدعو لك طبيباً؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا آمر لك بعطائك؟ قال: منعتنيه وأنا محتاج اليه، وتعطنيه وأنا مستغن عنه قال: يكون لولدك. قال: رزقهم على الله. قال: استغفر لي يا أبا عبدالرحمان. قال: أسأل الله أن يأخذ لي منك بحقّي

وأوصى أن لا يصلي عليه عثمان، فدفن بالبقيع وعثمان لا يعلم، فلمّا علم غضب وقال: سبقتموني به. فقال له عمار بن ياسر: إنه أوصى أن لا تصلي عليه، وقال الزبير:

لأعرّفنك بعد الموت تندبني *** وفي حياتي ما زوّدتني زادي

وكان الزبير وصيّ ابن مسعود في ما له وولده، وهو كلّم عثمان في عطائه بعد وفاته حتى أخرجه لولده، وأوصى ابن مسعود أن يصلي عليه عمار بن ياسر، وقوم يزعمون أن عماراً كان وصيّه، ووصيّه الزبير أثبت»(١١٧).

وأورد المسعودي طرفاً من الحوار بين ابن مسعود وعثمان، وفيها قول ابن مسعود له: إنك أمرت بي فوطئ جوفي، فلم أعقل صلاة الظهر ولا العصر، ومنعتني عطائي، وقول عثمان له: فهذا عطاؤك فخذه، قال: منعتنيه وأنا محتاج إليه، وتعطينه وأنا غني عنه، لا حاجة لي به، فانصرف، فأقام ابن مسعود مغاضباً لعثمان حتى توفي، وصلى عليه عمار بن ياسر، وكان عثمان غائباً فستر أمره..»(١١٨).

فالروايات متظافرة على ضرب عثمان عبدالله بن مسعود ومنعه عطاءه رغم نفي ابن العربي لذلك، وتغيير ابن كثير لألفاظها.

عثمان وأبو ذر الغفاري

إنّ من الأمور التي أصبحت معروفة أن نجد بعض كبار المؤرخين والباحثين قديماً وحديثاً يتناولون الصحابي أبا ذر الغفاري بشكل يدعو الى النفور منه، وإظهاره كشخصية غريبة الأطوار لا يستطيع صاحبها أن ينصهر في بوتقة المجتمع الجديد كما يفعل كل إنسان سوي، بل يصورونه كشخص شاذ غريب عن عرف الناس والمجتمع، فهو شخصية منغلقة متطرفة لا تفهم شيئاً من متغيرات الحياة ولا تستطيع هذه الشخصية الانعزالية التعايش السلمي مع المجتمع، وهي تريد من الناس ـ كل الناس- أن يتخلوا عن جميع ثرواتهم وممتلكاتهم، وأن يعيشوا مثله حياة ملؤها الزهد والتقشف، حتى لقد حاول بعض الباحثين المعاصرين الادعاء بأنه الاشتراكي أو الشيوعي الأول في الإسلام وقد ظن بعض المؤلفين أن الصورة التي يقدمونها لأبي ذر تحفظ له بعض ماء وجهه لصحبته وسابقته في الاسلام، ومن هؤلاء القاضي ابن العربي الذي ذكر قصة أبا ذر قائلا: وأما نفيه (عثمان) أبا ذر الى الربذة، فلم يفعل.

كان أبو ذر زاهداً، وكان يقرّع عمال عثمان، ويتلو عليهم (**وَالذينَ يَكنزونَ الذّهبَ والفضة ولا يُنفقونَـها في سَبيلِ اللهِ فبشّرهم بعذاب أليم**)(١١٩).

(١١٧) أنساب الأشراف ٦ : ١٤٦ .
(١١٨) تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٧٠ .
(١١٩) سورة التوبة : ٣٤ .

ويراهم يتّسعون في المراكب والملابس حيث وجدوا، فينكر ذلك عليهم، ويريد تفريق ذلك من بين أيديهم، وهو غير لازم. قال ابن عمر وغيره من الصحابة -وهو الحق-: إن ما أدّيت زكاته فليس بكنز.

فوقع بين أبي ذر ومعاوية كلام بالشام، فخرج الى المدينة، فاجتمع إليه الناس، فجعل يسلك تلك الطرق، فقال له عثمان: لو اعتزلت.

معناه : إنّك على مذهب لا يصلح لمخالطة الناس، فإن للخلطة شروطاً وللعزلة مثلها، ومن كان على طريقة أبي ذر، فحاله يقتضي أن ينفرد بنفسه، أو يخالط ويسلّم لكل أحد حاله مما ليس بحرام في الشريعة. فخرج الى الربذة زاهداً فاضلا، وترك جلّة فضلاء، وكل على خير وبركة وفضل، وحال أبي ذر أفضل، ولا تمكن لجميع الخلق، فلو كانوا عليه لهلكوا، فسبحان مرتّب المنازل.

ووقع بين أبي ذر ومعاوية كلام، وكان أبو ذر يطلق من الكلام ما لم يكن يقوله في زمن عمر، فأعلم معاوية بذلك عثمان، وخشي من العامة أن تثور منهم فتنة، فإن أبا ذر كان يحملهم على التزهد وأُمور لا يحتملها الناس كلهم، وإنّما هي مخصوصة ببعضهم، فكتب اليه عثمان أن يقدم المدينة، فلما قدم اجتمع اليه الناس، فقال لعثمان: أُريد الربذة. فقال له: افعل، فاعتزل، ولم يكن يصلح له إلاّ ذلك لطريقته(١٢٠).

هذا هو أمثل ما ارتآه ابن العربي في قصة أبي ذر، ظناً منه أنه بذلك يوفّق بين الاتجاهات المتناقضة بما يحفظ كرامة كل من عثمان وأبي ذر، ولكنه نسي أن القصة كما يوردها تسيء الى أبي ذر أكثر مما تحسن اليه، فضلا أن روايته تحمل تناقضات عديدة.

فما هي الفتنة التي خافها معاوية من دعوة أبي ذر الناس الى الزهد، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن أبا ذر لم يكن يملك السلطة التي تتيح له أن يفرض شيئاً على أحد، وغاية ما في الأمر أنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والناس ليسوا ملزمين باتّباع طريقته في الزهد، فمن شاء فعل ومن شاء ترك، كما لا أعرف كيف يطلب أبو ذر أن ينفي نفسه بنفسه الى البادية مع نهي النبي(صلى الله عليه وآله)من التعرب بعد الهجرة، وكان باستطاعته أن يعتكف في بيته ويترك مخالطة الناس، فيما لو صح كلام ابن العربي وغيره ممن ينحو هذا المنحى.

وإذا كان ابن العربي قد حاول أن يخفف من لهجة الهجوم على أبي ذر، فإن هناك آخرين لم يرضوا إلاّ بالأخذ برواية الطبري عن سيف بن عمر، والتي جعلت من أبي

(١٢٠) العواصم من القواصم : ٨٥ .

ذر تابعاً ذليلا لعبد الله بن سبأ، ذلك اليهودي المنافق الذي يحمل كل أوزار الفتنة -كما تدعي تلك الرواية- فأصبح أبو ذر بالنتيجة شريكاً له في تلك المؤامرة.

ومن أعجب العجب، أن معظم المؤلفين الذين يوردون تلك القصة في مؤلفاتهم، هم أنفسهم الذين يحاولون تبرئة سيف بن عمر من تهمة الزندقة لدفاعه عن الصحابة -كما يزعمون- وهم التيار الذي يحمل لواء تنزيه الصحابة مما يشنّع عليهم!

إن من يطلع على مصدر الرواية -وهو تاريخ الطبري- يستطيع أن يلحظ بكل وضوح دور الرأي العام في تقييم الأحداث وصبغها بتلك الصبغة التي جعلت هذا الصحابي يدفع ثمن تمرده على السلطة، وذلك مما يمكن فهمه من قول الطبري الذي قدّم للقصة بقوله: فأما العاذرون لمعاوية في ذلك، فإنهم ذكروا في ذلك، كتب اليّ بها السري، يذكر أن شعيباً حدّثه عن سيف، عن عطية، عن يزيد الفقعسي، قال: لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال: يا أبا ذر، ألا تعجب الى معاوية، يقول: المال مال الله إلاّ أن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين.

فأتاه أبو ذر، فقال: ما يدعوك الى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟

قال : يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره؟ قال: فلا تفعله. قال: إني لا أقول إنه ليس لله، ولكن سأقول: مال المسلمين.

قال : وأتى ابن السوداء أبا الدرداء، فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهودياً.

فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به، فأتى به معاوية، فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر.

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء، بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس.

فكتب معاوية الى عثمان : إن أبا ذر قد أعضل بي. وقد كان من أمره كيت وكيت. فكتب اليه عثمان: إن الفتنة قد أخرجت خطمها وعينها، فلم يبق إلاّ أن تثب، فلا تنكأ الجروح، وجهّز لي أبا ذر، وابعث معه دليلا وزوّده، وارفق به، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت، فإنّما تمسك ما استمسكت.

فبعث بأبي ذر ومعه دليل، فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل سلع، قال: بشّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار.

ودخل على عثمان فقال: يا أبا ذر، ما لأهل الشام يشكون ذربك؟

فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال: مال الله، ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالا.

فقال : يا أبا ذر، عليّ أن أقضي ما عليّ، وآخذ ما على الرعية، ولا أجبرهم على الزهد، وأن أدعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد.

قال : فتأذن لي في الخروج، فإن المدينة ليست لي بدار؟

فقال : أو تستبدل بها إلاّ شراً منها

قال : أمرني رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعاً.

قال : فانفذ لما أمرك به.

قال : فخرج حتى نزل الربذة، فخط بها مسجداً، وأقطعه عثمان صرمة من الابل وأعطاه، مملوكين، وأرسل اليه: أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابياً، ففعل[١٢١].

إلاّ أن الذين أخذوا بهذه الرواية ـ بسندها المعروف- لم يذكروا سبب سكوت معاوية عن اليهودي عبدالله بن سبأ بعد أن فضحه عبادة بن الصامت وأبو الدرداء وأخبرا معاوية بأنه الرجل الذي بعث أبا ذر عليه واكتفى معاوية بالكتابة الى عثمان في شأن أبي ذر وحده، فترك رأس الفتنة وأخذ ذيلها.

وقد فطن بعض الباحثين الى تهافت الرواية، فتصدوا لدحضها، فقد قال الدكتور طه حسين: ومن أغرب ما يروى من أمر عبدالله بن سبأ، أنه هو الذي لقّن أبا ذر نقد معاوية... ومن هذا التلقين الى أن يقال: إنه هو الذي لقّن أبا ذر مذهبه كله في نقد الأمراء والأغنياء... وأبو ذر سبق الأنصار جميعاً وسبق كثيراً جداً من المهاجرين الى الاسلام، وهو قد صحب النبي فأطال صحبته، وحفظ القرآن فأحسن حفظه، وروى السنّة فأتقن روايتها، وشهد سيرة النبي وسيرة صاحبيه في الأموال والحقوق، وعرف من الحلال والحرام ما عرف غيره من أصحاب النبي الذين لزموه فأحسنوا لزومه.

فالذين يزعمون أن ابن سبأ قد اتصل بأبي ذر فألقى اليه بعض مقاله، يظلمون أنفسهم ويظلمون أبا ذر، ويرقون بابن السوداء هذا الى مكانة ما كان يطمع في أن يرقى إليها.

والرواة يقولون : إن أبا ذر قال ذات يوم لعثمان بعد رجوعه من الشام الى المدينة: لا ينبغي لمن أدى الزكاة أن يكتفي بذلك حتى يعطي السائل ويطعم الجائع وينفق من ماله في سبيل الله، وكان كعب الأحبار حاضراً هذا الحديث فقال: من أدى

(١٢١) الطبري ٤ : ٢٨٣ .

الفريضة فحسبه; فغضب أبو ذر وقال لكعب: يابن اليهودية ما أنت وهذا أتعلمنا ديننا ثم وجأه بمحجنه(١٢٢).

فأبو ذر ينكر على كعب الأحبار أن يعلمه دينه، بل أن يدخل في أُمور المسلمين حتى بإبداء الرأي، مع أن كعب الأحبار مسلماً أبعد عهداً بالاسلام من ابن سبأ، وكان مجاوراً في المدينة يصبح ويمسي بين أصحاب النبي، وكان معاشراً لعمر وعثمان، ثم لا يتحرج من أن يتلقى من عبدالله بن سبأ أصلا من أُصول الاسلام وحكماً من أحكام القرآن فأعجب لرجل من أصحاب النبي يُنكر على كعب أن يجادل في الدين، ثم يتلقى الدين نفسه من عبدالله بن سبأ(١٢٣).

أما ابن كثير ـ الذي بدا غير مقتنع هو الآخر برواية الطبري تلك ـ فيكتفي بذكر القصة باختصار حيث يقول عن أبي ذر: كان ينكر على من يقتني مالا من الأغنياء ويمنع أن يدخر فوق القوت، ويوجب أن يتصدق بالفضل، ويتأول قول الله سبحانه وتعالى: **(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم)** فينهاه معاوية عن اشاعة ذلك فلا يمتنع ...(١٢٤).

وقد ذكر المؤرخون الآخرون روايات مختلفة تماماً عن رواية الطبري التي تمثل وجهة نظر العاذرين لمعاوية ـ كما اعترف الطبري نفسه ـ، ويبدو أن سوء تصرف بعض ولاة عثمان، والسياسة المالية التي كان يتبعها عثمان، كانت هي السبب الرئيسي في انتفاضة أبي ذر ، وليس مجرد الدعوة الى الزهد والتقشف ـ كما يحاول البعض تصويرها تبعاً لرواية الطبري ـ وكما يبدو واضحاً أن ثورة أبي ذر كانت موجهة الى السلطة وليس الى الناس جميعاً.

ذكر البلاذري أنه «لما أعطى عثمان مروان بن الحكم ما أعطاه، وأعطى الحارث بن الحكم بن أبي العاص ثلاثمائة ألف درهم، وأعطى زيد بن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم، جعل أبو ذر يقول: بشّر الكافرين بعذاب أليم; ويتلو قول الله عزّوجل **(والذين يكنزون الذهب والفضة)**... الآية.

فرفع مروان بن الحكم الى عثمان، فأرسل الى أبي ذر ناتلا مولاه أن انتهِ عما يبلغني عنك، فقال: أينهاني عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله. فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان، أحب إليّ وخير لي من أن أسخط الله برضاه.

(١٢٢) مسند أحمد ١ : ٦٣ ، مجمع الزوائد ١٠ : ٢٣٩ ، السيرة الحلبية ١ : ١٦٠ ، حياة الصحابة ٢:١٥٧
(١٢٣) الفتنة الكبرى : ٣٢٧ ضمن المجموعة الكاملة .
(١٢٤) البداية والنهاية ٧ : ١٥٥ .

فأغضب عثمان ذلك وأحفظه. وقال عثمان يوماً : أيجوز للإمام أن يأخذ من المال، فإذا أيسر قضى؟

فقال كعب الأحبار : لا بأس بذلك. فقال ابو ذر: يابن اليهودية، أتعلمنا ديننا؟ فقال عثمان: ما أكثر أذاك لي وأولعك بأصحابي، الحق بمكتبك، وكان مكتبه بالشام إلاّ أنه كان يقدم حاجّاً ويسأل عثمان الإذن له في مجاورة قبر رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فيأذن له في ذلك، وإنما صار مكتبه بالشام، لأنه قال لعثمان حين رأى البناء قد بلغ سلعاً، فالهرب، فاذن لي آت الشام فاغزو هناك، فأذن له. وكان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء يفعلها، وبعث اليه معاوية بثلاثمائة دينار فقال: إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا قبلتها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها، وبعث إليه حبيب بن مسلمة الفهري بمائتي دينار، فقال: أما وجدت أهون عليك مني حين تبعث إليّ بمال؟ وردّها.

وبنى معاوية الخضراء بدمشق فقال: يا معاوية إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهذا الاسراف، فسكت معاوية.

وكان أبو ذر يقول : والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنّة نبيه، والله إني لأرى حقاً يطفأ وباطلا يحيا وصادقاً يُكذب واثرة بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه.

فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية : إن أبا ذر مفسد عليك الشام فتدارك أهله إن كانت لكم به حاجة.

فكتب معاوية الى عثمان فيه، فكتب عثمان الى معاوية:

أما بعد، فاحمل جندباً اليّ على أغلظ مركب وأوعره.

فوجّه معاوية من سار به الليل والنهار، فلما قدم أبو ذر المدينة جعل يقول: يستعمل الصبيان ويحمي الحمى ويقرّب أولاد الطلقاء.

فبعث اليه عثمان : إلحق بأي أرض شئت.

فقال : بمكة.

فقال : لا.

قال : فبيت المقدس

قال : لا.

قال : فبأحد المصرين.

قال : لا، ولكني مسيّرك الى الربذة، فسيره اليها فلم يزل بها حتى مات.

ورواية اليعقوبي قريبة من رواية البلاذري، وفيها نقاط ملفتة للنظر، قال: وبلغ عثمان أيضاً أن أبا ذر يقع فيه، ويذكر ما غيّر وبدّل من سنن رسول الله وسنن أبي بكر وعمر، فسيّره الى الشام الى معاوية، وكان يجلس في المسجد فيقول كما كان يقول: ويجتمع اليه الناس حتى كثر من يجتمع اليه ويسمع منه.

وكان يقف على باب دمشق إذا صلّى الصبح، فيقول : جاءت القطار تحمل النار. لعن الله الآمرين بالمعروف والتاركين له، ولعن الله الناهين عن المنكر والآتين له.

وكتب معاوية الى عثمان : إنك قد أفسدت على نفسك بأبي ذر، فكتب إليه : أن احمله على قتب بغير وطاء، فقدم به الى المدينة وقد ذهب لحم فخذيه، فلمّا دخل اليه وعنده جماعة قال:

بلغني أنك تقول : سمعت رسول الله يقول: «**إذا كملت بنو اُمية ثلاثين رجلا اتخذوا بلاد الله دولا، وعباد الله خولا، ودين الله دغلا**»(١٢٥).

فقال : نعم، سمعت رسول الله يقول ذلك(١٢٦).

فالملاحظ مما سبق تطابق أكثر الروايات التي جاءت عن المؤرخين، ومخالفتها لما جاء في الطبري بطريق سيف الذي تشذ رواياته عن روايات الجميع.

ولم تقتصر الجملة على أبي ذر بجعله تابعاً لابن سبأ، إذ أن أحد الباحثين المعاصرين قد تفتقت عبقريته بأبعد من ذلك، فجعله تابعاً لمزدك، عن طريق بعض الفرس الذين تأثر بهم أبو ذر - على حد زعمه- حيث يقول الدكتور أحمد أمين بعد ايراده رواية الطبري تلك :

فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن، واعتنقها أبو ذر حسن النية في اعتقادها، وصبغها بصبغة الزهد التي كانت تجنح إليها نفسه ...(١٢٧).

وقد نسي الدكتور أمين أن موطن الفرس وتعاليم مزدك كانت في بلاد فارس وأجزاء من العراق.

وقد أنصف الدكتور عمارة إذ أشار الى هذا الخطأ بقوله:

وليس من دليل يدعو الى أن نقبل ما ارتآه بعض الناس من أن أبا ذر(رضي الله عنه)اقتبس هذه الأفكار من الفرس الذي يتبعون رأي مزدك. أو أن الذي أوحى بها اليه

(١٢٥) الحديث في مسند أحمد ٣ : ٨٠ عن أبي سعيد قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «إذا بلغ بنو أبي فلان ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله دولا ودين الله دخلا وعباد الله خولا» .

(١٢٦) تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٧١ .

(١٢٧) فجر الاسلام : ١١١ .

هو عبدالله بن سبأ، فلا دليل على أنه كانت هناك أية صلة بينه وبين الفرس، أو أنه كان يعرف لغتهم، وربما لم يكن سمع بمزدك هذا أبداً.

وأما ابن سبأ - وإن كان هذا قد نقله المؤرخون عن الطبري- قد حمل أكثر مما يحتمل، ونسبت اليه أكثر الآراء التي لم يكن جمهور الأمة راضياً عنها، وجُعل على حد تعبير حديث (كبش الفداء) في كل هذه الفتن التي وقع فيها من الحوادث ما يثير مشاعر المسلمين. وما الذي - بعد هذا كله- يمنع صحابياً من القراء أي من العلماء، عابداً زاهداً أن يكوّن رأياً كهذا من تلقاء نفسه، وهذا هو استشهاده بالآيات واستدلاله بروح الإسلام(١٢٨).

لقد أعطى الطبري وجهة نظر العاذرين لمعاوية -كما أسماهم- وهو مؤيدو السلطة بشكل عام- تبعاً لرواية سيف- ولاحظنا أن وجهة نظر هؤلاء تحاول الحط من مقام صحابي كبير وتظهره بمظهر التابع لمؤجج الفتن ابن سبأ، ولابد من تسجيل هذه الملاحظة على اولئك الذين يدّعون ان سيف بن عمر كان يدافع عن الصحابة، لذا حاولوا تبرأته من تهمة الزندقة، ولكن قصة أبي ذر سجّلت النقطة الأولى على أولئك المؤيدين لمنهج سيف، وسوف تكشف الأحداث اللاحقة عن خطل رأي اولئك في سيف.

لقد كان جديراً بهؤلاء المؤرخين والباحثين أن ينظروا الى موقف أبي ذر من وجهة نظر الإسلام، لا من وجهة نظر الوضاعين أمثال سيف، وبين أيديهم كتب الحديث وفيها من الروايات الصحيحة في فضل أبي ذر والثناء عليه من الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) ما لا يحصى، ومما يجعل الجميع يفهمون حقيقة موقف أبي ذر.

لكن المشكلة -كما قلنا- تتلخص في موقف (الرأي العام) الذي يسير في ركاب السلطة عادة، والقناعات التي تراكمت على مر السنين، وهذا ما سوف نتطرق إليه بشكل أكثر تفصيلا في مبحث خاص، بما يجلو الغموض عن سرّ ذلك الموقف. لقد كان التناقض بين موقف أبي ذر وموقف السلطة واضحاً، وبشكل كان يؤدي الى التصادم بينها، ولم يكن أبو ذر وحده في هذا الميدان، وإلاّ لما ألقت السلطة إليه بالا، ولكن «لم يكن في أهل المدينة إلاّ من كان راضياً بقوله، عاتباً بمثل عتبه، إلاّ أنهم كانوا بين مجاهر بما في نفسه مخف ما عنده، وما في أهل المدينة الاّ من رثى لأبي

(١٢٨) النظريات السياسية في الإسلام : ٥٧ .

ذر مما حدث عليه ومن استفظعه، ومن رجع الى كتب السيرة عرف ما ذكرناه»[١٢٩].

لقد كان موقف أبي ذر - وكما في الروايات التي سقناها- يتلخص في الطلب من عثمان اتباع سنّة رسول الله(صلى الله عليه وآله) والشيخين أبي بكر وعمر، ولقد اعترف القاضي ابن العربي نفسه بأن أبا ذر لم يكن يقول ما يقول في زمن عمر، أفليس هذا دليلا على أن موقف أبي ذر كان موجهاً لحكومة عثمان وليس الى الناس جميعاً ودعوتهم الى ترك الدنيا، بل كان يدعوالى عدم الاساءة في التصرف بأموال المسلمين، وكان نقده موجهاً بالدرجة الاولى الى عثمان ومعاوية، حيث لم يذكر التاريخ أن مشادة وقعت بين أبي ذر وأحد من الناس لهذا السبب.

ولقد بذل أبو ذر النصح لعثمان، لكن عثمان كان يأبى الاستماع الى النصح، ويتخذ موقفاً متشدداً من أبي ذر، حتى يجابهه بقوله: «كذبت ولكنك تريد الفتنة وتحبها، وقد انغلت الشام علينا.

فيقابله أبو ذر بطلب بسيط : اتبع سنة صاحبيك، لا يكن لأحد عليك كلام»[١٣٠].

إن تكذيب عثمان لأبي ذر، هو في الحقيقة جرأة على النبي(صلى الله عليه وآله)، ولقد أشار أبو ذر إلى ذلك، فيما أخرج البلاذري عن قتادة، قال: تكلم أبو ذر بشيء كرهه عثمان، فكذبه، فقال: ما ظننت أن أحداً يكذبني بعد قول رسول الله(صلى الله عليه وآله): **«ما أقلّت الغبراء، ولا أطبقت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر».**

ثم سيّره الى الربذة، فكان أبو ذر يقول: ما ترك الحق لي صديقاً.

فلما سار الى الربذة، قال : ردّني عثمان بعد الهجرة اعرابياً[١٣١].

وقد حاول ابن كثير أن يرجّح كفّة عثمان على أبي ذر، إذ ادعى ضعف هذا الحديث، مع أن الحاكم قد أورده في مستدركه، بقول النبي(صلى الله عليه وآله): **«ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء، على رجل أصدق لهجة من أبي ذر».**

وفي رواية : **«ما تقل الغبراء، ولا تظل الخضراء من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر، شبيه عيسى بن مريم»**، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، فنعرف ذلك له؟ قال: **«نعم، فاعرفوه له»**[١٣٢].

(١٢٩) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ٣ : ٥٨ .
(١٣٠) شرح نهج البلاغة ٣ : ٥٦ .
(١٣١) أنساب الأشراف ٦ : ١٨٦ .
(١٣٢) المستدرك على الصحيحين ٣ : ٣٣٨ وصححه ولم يعترض الذهبي عليه. وأنظر سنن الترمذي ٥:٦٢٨ ح٣٨٠١ ، ٣٨٠٢ ، سنن ابن ماجة ١ : ٥٥ ح١٥٦، مسند أحمد ٢ : ١٦٣ ، ١٧٥، ٢٢٣، ح ١٩٧٥، ٦:٤٤٢، مصنف ابن أبي شيبة ١٢ :١٢٤، المعجم للطبراني ٢ : ١٤٩، مصابيح السنة ٤ : ٢٢٠ ، الطبقات الكبرى ٤ : ٢٢٨ ، الاستيعاب :

فيتبين من كل ذلك أن أبا ذر لم يكن مبتدعاً، ولا كان يريد حمل الناس على شريعة ومنهاج غريب عن روح الإسلام، -كما يحاول بعض المؤلفين الايحاء بذلك- ولا كانت دعوته بأن يتخلى الناس عن ثرواتهم كلّها ويعيشوا عيشة الزهد والتقشف التي الزم نفسه بها، فلقد «كان كثير من الصحابة كعبد الرحمان بن عوف وطلحة بن عبيدالله«رضي الله عنهم» يقتنون الأموال ويتصرفون فيها، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القُنية لأن الاعراض اختيار الأفضل»(١٣٣).

ولم يذكر التاريخ أن مشادة وقعت بين أبي ذر وأحد من اولئك الصحابة بسبب اقتنائهم الأموال، بل كان الصراع متركزاً بين أبي ذر والسلطة المتمثلة بعثمان بن عفان وبعض ولاته كمعاوية.

هذه هي حقيقة موقف أبي ذر، وليس كما يصورها بعض المؤلفين كابن العربي وغيره، ممن يميلون الى مناصرة موقف السلطة، مقتفين أثر سيف بن عمر الذي يبدو واضحاً أنه يقلب الحقائق رأساً على عقب، فانتصاره للصحابة لا يشمل جميعهم، بل بعضهم كما نلاحظ.

«لقد جاءت انتفاضة أبي ذر ضد طغيان الأقلية، أول مصادمة علنية بين الاتجاه الإسلامي، وبين الخلافة التي فقدت مع عثمان هالتها الكبيرة، بعد ما أصبحت مظلة لأصحاب الاتجاه القبلي(١٣٤).

عثمان وعمار بن ياسر

لقد كان عمار أحد أقطاب المعارضة في زمن عثمان، لذا فقد نال نصيبه الأوفى من التشنيع والحط من المكانة وذلك في الروايات التي أخرجها الطبري في تاريخه بطريق سيف، وتابعه على ذلك جمع من المؤلفين قديماً وحديثاً.

فتارة نجد عمار بن ياسر وقد أصبح هو الآخر ذيلا لعبد الله بن سبأ، يشاركه في حياكة المؤامرات للاطاحة بالخلافة الاسلامية المتمثلة بعثمان بن عفان، وليس من سبب وجيه تذكره هذه الروايات لتفسير انقلاب عمار بن ياسر على السلطة، سوى أن عثمان قد اقتصّ منه لسبب تافه أيضاً، وهو: أن عماراً قد عارك عتبة بن أبي لهب، مما دفع عثمان - وهو الخليفة- الى الاقتصاص منهما وتأديبهما بالضرب.

ترجمة أبي ذر، الجامع الصغير ٢ : ٤٨٥ ح٧٨٢٥، كنز العمال ١١ : ٦٦٦ - ٦٦٨ ح ٣٣٢٢١ - ٣٣٢٢٩ ، ١٣ : ٣١٦ ح ٣٦٨٨٨ .

(١٣٣) الكشاف للزمخشري ٢ : ٢٦٧ .

(١٣٤) من دولة عمر إلى دولة عبدالملك، إبراهيم بيضون: ١٠٧ .

هذه القصة المتهافتة التي تصوّر لنا عمار بن ياسر - وهو من السابقين الأولين الذين شهد لهم النبي(صلى الله عليه وآله) ولأمه وأبيه بالجنة كما هو معلوم -وبعد أن أربى على السبعين أو الثمانين من عمره، يعارك عتبة بن أبي لهب حتى يضطر الخليفة الى تأديبه كما يُفعل بالصبيان مع العلم أن الرواية لم تُشر الى سبب هذا العراك وهذا الصحابي الكبير الذي عاش في كنف العهد النبوي منذ بدايته، وعاصر أيام الخليفتين أبا بكر وعمر، لم يفهم بعد كل هذا الوقت أن إقامة الحد عليه إذا ارتكب جريمة، حق لا ينبغي أن يماري فيه، ولا أن يغضب منه، لأن هذا التصرف إنما يليق بأعرابي حديث الاسلام، وليس بصحابي كبير، فإذا بهذا الصحابي ينقلب الى رجل حاقد مبغض للخليفة بسبب ذلك، ثم لا يتورع عن الانضمام الى عصابة ذلك اليهودي المنافق الذي يستهدف الاطاحة بالسلطة الاسلامية المتمثلة بالخليفة، بعد بث الدعايات التي تشوه صورة هذا الخليفة الذي لم يكن له من ذنب تجاه عمار، سوى أنه أقام عليه حداً شرعياً من حدود الله ولا يستغرب القارئ مما نقول ويظن في ذلك مبالغة منا، لأننا - وكما وعدنا القارئ- سوف نستعرض هذه الأقوال وننسبها الى أصحابها حتى يتمكن القارئ الكريم من مقارنة الروايات واستنباط الحقائق منها.

تقول رواية الطبري عن السري عن شعيب عن سيف بن عمر عن شيوخه:

كان عبدالله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء، اُمّه سوداء، فأسلم زمان عثمان، ثم تنقل في بلدان المسلمين، يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة، ثم الشام، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام!! فأخرجوه حتى أتى مصر، فاعتمر فيهم، فقال لهم فيما يقول:

العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذّب بأن محمداً يرجع، وقد قال الله عزّوجل: (**إنَّ الذي فرضَ عليكَ القرآنَ لرادّكَ إلى معاد**)، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى.

قال : فقُبل ذلك عنه، ووضع لهم الرجعة، فتكلموا فيها.

ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد. ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء.

ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يُجز وصية رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ووثب على وصي رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وتناول أمر الأمة!

ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله(صلى الله عليه وآله)فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وابدؤا بالطعن على اُمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، تستميلوا الناس، وادعوهم الى هذا الأمر.

فبث دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون الى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه اُولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم، حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرّون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إنا لفي عافية مما فيه الناس.

قالوا : فأتوا عثمان، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أيأتيك عن الناس الذي يأتينا؟

قال : لا والله، ما جاءني إلاّ السلامة.

قالوا : فإنا قد أتانا... وأخبروه بالذي أسقطوا إليهم.

قال : فأنتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا عليَّ.

قالوا : نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم الى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم.

فدعا محمد بن مسلمة، فأرسله الى الكوفة، وأرسل اُسامة بن زيد الى البصرة، وأرسل عمار بن ياسر الى مصر، وأرسل عبدالله بن عمر الى الشام، وفرّق رجالا سواهم، فرجعوا جميعاً قبل عمار! فقالوا: أيها الناس، ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكره أعلام المسلمين، ألا إن اُمراءهم يقسطون بينهم، ويقومون عليهم.

واستبطأ الناس عماراً، حتى ظنوا أنه قد اُغتيل، فلم يفجأهم إلاّ كتاب من عبدالله بن سعد بن أبي سرح، يخبرهم أن عماراً قد استماله قوم بمصر، وقد انقطعوا إليه، منهم عبدالله بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران، وكنانة بن بشر[١٣٥].

هذه القصة أصبحت مستنداً لمعظم المؤرخين وحتى المؤلفين في الفرق والمذاهب أيضاً قديماً وحديثاً، واستغلها بعض المستشرقين الحاقدين على الاسلام للطعن عليه.

وما هو سرّ سكوت عبدالله بن سعد بن أبي سرح -والي عثمان على مصر- على ابن سبأ وعصابته وهو يرى ما يكيدون للاسلام وللخليفة، كما سكت معاوية قبله عندما قبض أبو الدرداء عليه وأخذه الى معاوية؟!

هذه بعض الأسئلة التي لن تجد عند اولئك المروجين لهذه القصة جواباً عليها، إلاّ أن يغالطوا أنفسهم ويُلغوا عقولهم وينفوا حقائق التاريخ.

(١٣٥) الطبري ٤ : ٣٤٠

وتابع محب الدين الخطيب الطبري في روايته للأحداث معلقاً عليها بقوله:

إن الطبري روى أنه كان بين عمار وعباس بن عتبة بن أبي لهب خلاف حمل عثمان على أن يؤدبهما عليه بالضرب (وبعد أن يستشهد برواية الطبري) يعلق قائلا:

ولما نظم السبئيون حركة الاشاعات، وصاروا يرسلون الكتب من كل مصر الى الأمصار الأخرى بالأخبار الكاذبة، فأشار الصحابة على عثمان بأن يبعث رجالا ممن يثق بهم الى الأمصار حتى يرجعوا إليه بحقيقة الحال، تناسى عثمان ما كان من عمار، وأرسله الى مصر ليكون موضع ثقته في كشف حاله، فأبطأ عمار في مصر، والتفت السبئيون ليستميلوه إليهم، فتدارك عثمان وعامله في مصر هذا الأمر، وجيء بعمار الى المدينة مكرماً. وعاتبه عثمان لما قدم عليه فقال له - على ما رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق-: يا أبا اليقظان، قذفت ابن أبي لهب أن قذفك... وغضبت على أن أخذت لك بحقك وله بحقه. اللهم قد وهبت ما بيني وبين أمتي من مظلمة، اللهمّ إني متقرب اليك بإقامة حدودك في كل أحد، ولا أبالي، أخرج عني يا عمار! فخرج، فكان إذا لقي العوام نضح عن نفسه وانتفى من ذلك، وإذا لقي من يأمنه أقرّ بذلك وأظهر الندم، فلامه الناس وهجروه وكرهوه...(١٣٦).

فالخطيب لم يكفه أن يكون عمار تابعاً لابن سبأ، بل هو يظهره هنا منافقاً ذا وجهين، يصرّح للعوام بما في نفسه - بشكل يوحي بأنه أحد أفراد التنظيم السبئي فعلا - محاولا استدراج أولئك السذج وجرّهم للإنخراط في ذلك التنظيم التخريبي، وبذلك يصبح عمار بن ياسر - في رأي القائلين بمثل هذه المقالات- أحد العناصر الفعالة في هذا التنظيم، ثم هو بعد هذا يقابل الصحابة بوجه آخر -كما هو شأن المنافقين- فيكذب عليهم بافتعال التظاهر بالتوبة والندم، فصار مثله كمثل الذين قال الله تعالى فيهم **(وإذا لقُوا الذينَ آمَنوا قالوا آمنّا وإذا خَلَوا الى شياطينهمْ قالوا إنّا مَعَكم إنّما نحنُ مُستهزئونَ)**(١٣٧).

والدكتور العش أيضاً يتابع المؤرخين، ويدلي في القضية بدلوه ويضيف الى المتآمرين عنصراً جديداً وهم اتباع عمرو بن العاص، فيقول:

اجتمع في مصر بعض الحانقين على عثمان من اتباع عمرو بن العاص الذي أقيل من ولاية مصر، واجتمع فيها اتباع محمد بن أبي حذيفة وعمار ابن ياسر وكثير من الاعراب، فجمعوا أمرهم وخرجوا من مصر يريدون أمراً في المدينة، وخرج

(١٣٦) العواصم من القواصم : ٨٧ الهامش

(١٣٧) البقرة : ١٠٤ .

من الحانقين والأعراب من الكوفة والبصرة جمع غفير أيضاً يريدون نفس الشيء، وابن سبأ يجمع بين الطرفين(١٣٨).

والحافظ شمس الذهبي ـ من القدماء- يورد في كتابه قصة أُخرى عن الطبري بطريق سيف، ولكن دون أن يشير الذهبي الى مدى صحة هذه الرواية من عدمها، كما هي عادته في معظم الروايات الأُخرى التي يوردها في تاريخه، يقول عن محمد بن سعد: قدم عمار بن ياسر من مصر، وأبي شاك، فبلغه فبعثني اليه أدعوه، فقام معي وعليه عمامة وسخة وجبة فراء، فلما دخل على سعد قال له: ويحك أبا اليقظان، إن كنت فينا لمن أهل الخير، فما الذي بلغني عنك من سعيك في فساد بين المسلمين والتأليب على أمير المؤمنين، أمعك عقلك أم لا؟

فأهوى عمار الى عمامته، وغضب فنزعها وقال: خلعت عثمان كما خلعت عمامتي هذه فقال سعد: (**إنّا لله وإنّا إليه راجعونَ**) ويحك حين كبرت سنك ورقّ عظمك ونفد عمرك، خلعت ربقة الاسلام من عنقك وخرجت من الدنيا عرياناً، فقال عمار مغاضباً مولياً وهو يقول: أعوذ بربّي من فتنة سعد.

فقال سعد : ألا في الفتنة سقطوا، اللهم زد عثمان بعفوه وحلمه عندك درجات منه، فإنه من الأمانة، وإني أكره أن يتعلق به الناس يتناولونه، وقد قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**الحق مع عمار مالم تغلب عليه دلهة الكبر**» فقد دله وخرف(١٣٩).

يورد الذهبي هذه الرواية دونما إشارة الى أن في إسنادها سيف بن عمر الوضاع، ومبشر بن المفضل الضعيف(١٤٠)، كما يفعل مع بعض الروايات الأُخرى، حيث يذكر مدى صحتها من عدمه، ولكنه هنا يسكت عن ذلك، في الوقت الذي نجده يورد ترجمة وافية لعمار بن ياسر في نفس ذلك الجزء من تاريخه الذي يحوي هذه الرواية -تستغرق أكثر من خمسة عشر صفحة- يورد فيها مجموعة كبيرة من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة في الثناء على عمار، أكتفي برواية واحدة منها، عن عائشة، قالت: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**عمار ما عُرض عليه أمران إلاّ اختار أرشدهما**»(١٤١).

فالنبي(صلى الله عليه وآله) يخبر أن عماراً لا يختار إلاّ الطريق الأرشد والأقوم، لكن سيف بن عمر ـ ومن تبعه من بعده- يجعله ضالا يختار طريق ابن اليهودية.

(١٣٨) الدولة الأموية : ٦٩
(١٣٩) تاريخ الاسلام ٣ : ٤٣٤
(١٤٠) الضعفاء الكبير للعقيلي ٤ : ٢٣٦
(١٤١) تاريخ الاسلام ٣ : ٥٦٩

فهذا هو الجزاء الأوفى لعمار من أولئك المؤلفين، بسبب تصديه للسلطة، ولم تشفع له صحبته وسابقته ولا أقوال النبي(صلى الله عليه وآله) فيه، وهذه نقطة أخرى نثبتها في سجل سيف بن عمر رداً على المدعين منافحته من الصحابة.

إننا إذا غضضنا الطرف عن سند رواية الطبري حول ابن سبأ وافترضنا أن الرواية قد جاءت بأسانيد مقبولة، فاننا حينما نحاكم متن الرواية ـ وهو الأمر الذي يغفله المؤرخون والباحثون غالباً ـ فسوف نجد أنفسنا أمام تساؤلات واستنتاجات غريبة جداً، إذا لماذا يختار عبدالله بن سبأ علي بن أبي طالب دون غيره من الصحابة ليقول فيه مقالته عن الوصية؟ أهي قرابته من النبي(صلى الله عليه وآله)؟ إن هناك أقرباء آخرين من عمومته وابنائهم، أم هي سابقته وفضله ـ مع أن هذه لا يمكن أن تكون مما يتوخاه ابن سبأ لتحقيق أهدافه ـ فان في الصحابة سابقون وأفاضل يقدّمهم الجمهور حتى على علي أو يساوونه بهم على الأقل، فلماذا علي إذاً؟

إن الاستنتاج الذي يُفترض الخروج به من ذلك، هو أن يكون ابن سبأ من أتباع علي بن أبي طالب، وربما يكون على هو الموجّه له في هذه المؤامرة وقد يكون هو الرأس المدبّر لها، وابن سبأ ينفذ تعليماته في هدم الإسلام.

وفي هذه الحالة يجب إعادة النظر في علي بن أبي طالب وفي كل ما يقال عنه وعن فضله وسابقته وإلاّ فلماذا يسكت على ابن سبأ وخبره قد ملأ الأمصار؟

أو أن يكون الاستنتاج الثاني الي يفترض أن يكون عبدالله بن سبأ على عكس الصورة التي تصورها الرواية، فهو رجل صالح قد اقتنع بشكل من الأشكال أن علياً مظلوم وأن هناك وصية حقيقية من النبي العلي وأنه كان يسعى لاعادة الحق لأصحابه. ولا اعتقد أن أيّاً من الرأيين يمكن أن يكون مقبولاً من أحد من المسلمين.

إذاً أين كان أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)، وكيف لم يواجه أحدهم ابن سبأ ويقول له من اين لك هذا الكلام وأنت لم تصحب النبي بينما نحن صحبناه وسمعناه فلم نسمع مثل ما سمعت ؟

أن قضية الخلاف بين عمار وبين ابن أبي لهب ليست مبرراً يستحق الثورة ضد عثمان، فماهي الأسباب والدوافع الحقيقية لذلك يا ترى؟

أورد البلاذري بعض هذه الأسباب في روايته عن عباس بن هشام، قال:

كان بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجوهر، فأخذ منه عثمان ما حلّى به بعض أهله، فأظهر الناس الطعن عليه في ذلك، وكلموه فيه بكلام شديد حتى أغضبوه، فخطب فقال:

لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت أنوف أقوام.

فقال له علي : إذاً تُمنع من ذلك ويحال بينك وبينه.

وقال عمار بن ياسر : أشهد الله أن أنفي أول راغم من ذلك.

فقال عثمان : أعليَّ يا بن المتكاء تجترئ؟ خذوه، فأخذوه، ودخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشي عليه، ثم أخرج فحمل فأتي به منزل أم سلمة زوج رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فلم يُصلّ الظهر والعصر والمغرب. فلما أفاق توضأ وصلى وقال: الحمد لله، ليس هذا أول يوم أوذينا فيه في الله.

وقام هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان عمار حليفاً لبني مخزوم فقال: يا عثمان، أما عليّ فاتقيته وبني أبيه، وأما نحن فاجترأت علينا وضربت أخانا حتى أشفيت به على التلف...

ويقال : إن المقداد بن عمرو وعمار بن ياسر وطلحة والزبير في عدّة من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) كتبوا كتاباً عددوا فيه أحداث عثمان وخوفوه ربه، وأعلموه أنهم مواثبوه إن لم يقلع.

فأخذ عمار الكتاب وأتاه به، فقرأ صدراً منه، فقال له عثمان:

أعليَّ تقدم من بينهم؟

فقال عمار : لأني أنصحهم لك.

فقال : كذبت يابن سمية!

فقال : أنا والله ابن سيمة وابن ياسر.

فأمر غلماناً له فمدوا بيديه ورجليه، ثم ضربه عثمان برجليه وهي في الخفّين على مناكيره، فأصابه الفتق، وكان ضعيفاً كبيراً فغشي عليه.

وقد قيل : إن عثمان مرّ بقبر جديد فسأل عنه، فقيل: قبر عبدالله بن مسعود، فغضب على عمار لكتمانه إياه موته، إذ كان المتولي للصلاة عليه والقيام بشأنه، فعندها وطئ عماراً حتى أصابه الفتق.

وقد روي أيضاً أنه لما بلغ عثمان موت أبي ذر بالربذة قال:

رحمه الله، فقال عمار بن ياسر: نعم، فرحمه الله من كلُ أنفسنا، فقال عثمان: أتراني ندمت على تسييره؟

وأمر فدفع في قفاه وقال: الحق بمكانه.

فلما تهيأ للخروج جاءت بنو مخزوم الى علي فسألوه أن يكلم عثمان فيه، فقال له علي: يا عثمان، اتق الله، فإنك سيّرت رجلا صالحاً من المسلمين فهلك في تسييرك، ثم أنت الآن تريد أن تنفي نظيره.

وجرى بينهما كلام حتى قال عثمان: أنت أحقّ بالنفي منه.

فقال علي : رُم ذلك إن شئت.

واجتمع المهاجرون فقالوا : إن كنت كلّما كلّمك رجل سيّرته ونفيته، فإن هذا شيء لا يسوغ. فكف عن عمار(١٤٢).

فالروايات مختلفة في سبب أو مناسبة ضرب عثمان لعمار، ولكنها متفقة تقريباً على قضية الضرب، وأعتقد أن اعتراضات عمار على عثمان قد تكررت، حتى غضب عثمان في إحدى المرات غضباً شديداً فأمر بضربه. إلاّ أن السؤال هو: بماذا استحق عمار أن يُضرب! هل ارتكب أمراً محرّماً أو جناية يستحق عليها العقاب؟ أم أن ذلك كان بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ونصحه لعثمان، وهو أمر كان ينبغي أن يشكره له عثمان لا أن يبادر الى ضربه عليه.

إن الروايات الأكثر وثاقة من رواية سيف غير المعقولة، تبدي لنا أن اعتراضه كان إما على تصرف عثمان بن عفان في بيت المال بغير حق، أو لأنه استاء من نفي أبي ذر الى الربذة، أو أنه أراد أن ينصح لعثمان وبالاتفاق مع عدد من الصحابة لصرفه عن بعض الأعمال التي كانت من أسباب النقمة عليه ولعله يجدر بنا بهذه المناسبة أن نُذكّر القارئ برواية الصحيحين المتفق عليها حول نصح اُسامة بن زيد لعثمان وللأسباب نفسها بتحريض ودفع من بعض الصحابة، إلاّ أن الفرق ان عماراً كان أكثر جرأة في إبداء رأيه والاعتراض على الخليفة من اُسامة، فكان جزاؤه على ذلك الضرب الموجع.

فمبقارنة هذه الروايات مع رواية سيف، وبالنظر الى مجمل الأحداث في عهد عثمان يمكننا أن نكتشف الخلل في رواية الطبري عن سيف، والتي يبدو واضحاً منها أن نفس تأييد السلطة كان غالباً عليها، فهي رواية العاذرين لعثمان، ولكن على حساب صحابي كبير من السابقين الأولين، فكان الدفاع عن بعض الصحابة يستلزم من سيف أن يحط من مكانة صحابة آخرين، فظهرت بذلك إزدواجية النظرة عند المؤلفين الذين تابعوا رواية الطبري مدّعين أنها تتضمن الدفاع عن الصحابة، وكأنهم ينسون أن عمار بن ياسر - مثل أبي ذر- صحابي كبير أيضاً!

(١٤٢) أنساب الأشراف ٦ : ١٦١ ، تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٧٣

عثمان وولاته وعمّاله

إن من جملة الأسباب التي أدت الى النقمة على عثمان هو الولايات، والولاة الذين كان يختارهم عثمان لإدارتها، وفي الحقيقة فإنّ هذا المطلب يرتبط بشكل من الأشكال بالمطالب السابقة. ألا وهو سوء الإدارة الذي أدى الى اعتراض عدد من كبار الصحابة كابن مسعود وأبي ذر وعمار وغيرهم. ذلك لأن أكثر الذين كانوا سبباً في الفساد المالي والإداري، هم ولاة عثمان أنفسهم، وقد رأينا كيف تصدى أبو ذر لمعاوية الذي جعله عثمان والياً على بلاد الشام كلها، كما وكان اعتراض ابن مسعود على تولية الوليد وتصرفه في بيت المال سبباً في اعتزال ابن مسعود العمل لعثمان، كما سوف نبيّن. لقد ولّى عثمان أقاربه على أهم الولايات وأكثرها غنىً في العالم الإسلامي، فمعاوية على الشام كلها ـ بعد أن كان على بعضها ـ ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ـأخا عثمان من الرضاعةـ على مصر، والوليد بن عقبة على الكوفة، كما اتخذ عثمان مروان بن الحكم بن أبي العاص وزيراً وأغدق عليه الأموال، الى غير ذلك من الأمور التي أثارت نقمة الناس، ولم يكن لعثمان ما يعتذر به عن ذلك، الاّ إدعاؤه محبته لأقاربه وأرحامه.

ولربما يكون هذا عذراً وجيهاً ومقبولا ويتماشى مع روح الإسلام، لو كان هؤلاء الأقارب ممن يستحقون هذا التكريم لسابقتهم أو فضلهم وتقواهم، أو على الأقل لم يكن هناك مطعن عليهم. لكن من المؤسف أنّنا نجد أن معظم هؤلاء الولاة لم يكونوا يحملون شيئاً من هذه المؤهلات، مما أثار حفيظة معظم الصحابة.

ولقد اتبع عثمان سياسة مغايرة لسياسة سلفيه أبا بكر وعمر اللذان لم يكونا يولّيان من أقاربهما إلاّ عدداً ضئيلا جداً، أو لم يكونا يوليان أحداً منهم بتاتاً، وذلك بالقياس الى العدد الكبير الذي استعمله عثمان من أقاربه وعشيرته، «فمن بين إحدى عشرة ولاية، لم يكن لأمية سوى ولاية واحدة، ولم يكن لقريش سوى ثلاث ولايات، ولم يكن لعدي ـ فرع عمرـ ولاية واحدة من هذه الولايات»[١٤٣].

إلاّ أن ذلك كلّه تغيّر بعد استلام عثمان مهام الخلافة بفترة قصيرة، فبدأ يعزل ولاة عمر ـ من غير الأمويينـ وكان فيهم بعض الصحابة، كسعد بن أبي وقاص الذي عزله عثمان عن ولاية الكوفة، وعمرو بن العاص الذي عزله عن ولاية مصر، فقد «كان هناك في عهد عثمان انعكاس تام للأوجه الأساسية في سياسة سلفه العظيم،

(١٤٣) الخلافة ونشأة الأحزاب السياسية، محمد عمارة : ٩٦ .

ذلك انه لم يكتف بعزل الأكفاء الذين ولاّهم عمر على الولايات فحسب، بل إنّه عهد الى تعيينات جديدة إرضاء لمطالب أقاربه»(١٤٤).

لقد كان عثمان يحب أفراد عشيرته حقاً، ولكن الحب قد يتحول الى ضعف يؤدّي بدوره الى عواقب وخيمة، وهذا ما حدث فعلا. فقد استسلم عثمان لرغبات أقاربه الذين كانوا يلحّون عليه -فيما يبدو- لتسليطهم على الولايات والأمصار المهمة، مما يتيح لهم التحكم في البلاد واكتساب النفوذ والمال والجاه، وإرضاء لشهوة السلطة عندهم.

وفي الحقيقة فإنّ انبعاث الروح القبلية قد بدأ يتجدد في تلك الفترة، وأصبح التنافس على المفاخر أمراً مألوفاً، خصوصاً عند بني اُمية - الذين تأخر إسلام أكثرهم الى ما بعد فتح مكة - فكان ذلك سبباً في الرغبة لدى هؤلاء لكبح جماح الصحابة الذين كانوا يُدلون بسابقتهم وفضلهم من القبائل الأُخرى ومن بعض المستضعفين والموالي، وكان بنو اُمية يرون اُولئك جميعاً دونهم في الفضل والسؤدد من وجهة النظر القبلية.

«إن بني اُمية وآل أبي مُعيط كانوا يتعجلون الولاية ويحتالون في الوصول إليها، ويلحون على عثمان في أن يمهد لهم إليها الطريقة، وآية ذلك أن عثمان حينما عزل سعداً لم يول على الكوفة أحداً من كبار أصحاب النبي، لا من المهاجرين ولا من الأنصار، لم يرسل إليها طلحة ولا الزبير ولا عبدالرحمان ولا محمد بن مسلمة ولا أبا طلحة، وإنما أرسل إليها الوليد بن عقبة بن أبي معيط»(١٤٥).

فمن هو الوليد بن عقبة، وما هي مكانته، وما مقدار كفاءته وورعه حتى يولّيه عثمان مكان سعد بن أبي وقاص؟

الوليد بن عقبة

لابد لنا أن نستعرض أوّلا آراء بعض المؤلفين من القدامى والمعاصرين في الوليد، لننقل مختلف وجهات النظر -كما هو منهجنا- ثم المقارنة بين هذه الآراء على ضوء الأدلة التي نضعها بين يدي القارئ، حتى يتمكن من استخلاص الحقائق منها، مع بيان بعض الدوافع الخاصة لاولئك المؤلفين، بغية الخروج بالحكم النهائي على الأحداث.

(١٤٤) مختصر تاريخ العرب : ٦٦
(١٤٥) الفتنة الكبرى : ٢٨٨ ضمن المجموعة .

قلنا فيما سبق إن المؤلفين الأوائل قد نقلوا إلينا أخباراً متضاربة فيما يتعلق بسير الأحداث التاريخية في تلك الفترة، وقد انقسم المؤلفون فيما بعد الى تيارين، أحدهما تيار محافظ يتشبث بروايات معينة لا يريد تجاوزها الى غيرها، بينما راح آخرون يستعرضون روايات أُخرى قد تختلف أو تتعارض مع روايات الاتجاه الأول.

فممن يمثل الاتجاه الأول المحافظ، القاضي ابن العربي الذي ينبري للدفاع عن الوليد بن عقبة، ويتهم كل من يخالف رأيه بأنّه فاسد النية، إذ يقول:

وأما تولية الوليد بن عقبة، فلأن الناس - على فساد النيّات- أسرعوا الى السيئات قبل الحسنات. فذكر الاسفرائيون أنه إنما ولاّه للمعنى الذي تكلم به.

قال عثمان : ما وليته لأنه أخي، وإنما وليته لأنه إبن أم حكيم البيضاء عمة رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وتوأمة أبيه...[١٤٦].

وقبل الاسترسال في عرض الآراء حول الوليد، فإنّه تستوقفنا بعض عبارات القاضي ابن العربي، فهو يتّهم الناس -لفساد نياتهم- بأنهم يسارعون الى ذكر السيئات قبل الحسنات، ويعبر عن هذه الآراء بعبارة- للمعنى الذي تكلم به- الغامضة.

ولم يذكر ابن العربي أسماء الناس من أصحاب النوايا الفاسدة، فهل هم أُناس عاديون، أم هم جملة من الائمة العلماء الذين ذكروا أخبار الوليد وأدلوا بآرائهم فيه - كما سوف يتبين فيما بعد- فهل كل هؤلاء من أصحاب النوايا الفاسدة؟!

وأما احتجاج ابن العربي، بأن عثمان قد ولّى الوليد لأنه ابن البيضاء عمة رسول الله(صلى الله عليه وآله)، -وهذا هو ما ادعاه عثمان- فهو احتجاج شديد التهافت، لأن في الصحابة من هو أكثر قرابة وأمس رحماً بالنبي من الوليد بن عقبة، ولو أننا أعرضنا عن أقارب النبي المقربين، كعلي بن أبي طالب أو ابن عباس أو غيرهما، فالزبير بن العوام كان ابن صفية، وهي عمة النبي(صلى الله عليه وآله) أيضاً، فضلا لما للزبير من فضل على الوليد في الصحبة والسابقة!

أما العذر الآخر الذي يحاول ابن العربي أن يلتمسه لعثمان في تولية الوليد، فهو:

« إن الولاية اجتهاد، وقد عزل عمر بن سعد بن أبي وقاص وقدّم أقل منه درجة »[١٤٧].

(١٤٦) العواصم من القواصم : ٩٨

(١٤٧) العواصم من القواصم : ١٠٠

ولكن عمر بن الخطاب لم يكن ليعزل والياً كسعد بن أبي وقاص، إلاّ أن اشتكى منه أهل الكوفة وطلبوا الى الخليفة عزله عنهم، وكان عمر يراعي مشاعر الناس، فلا يفرض عليهم والياً وهم له كارهون. «وكانت الأمصار في عهد عمر تسخط أحياناً على ولاتها، ولا سيما في العراق، غير أن حنكة عمر وسياسته الصائبة كانت لا تسمح للامتعاض أن يتحول الى فتنة وعصيان، حيث كان الخليفة عمر يسارع الى عزل غير المرغوب فيه من ولاته - الذين كانوا يرهبون جانبه، مهما كانت مكانتهم- بعد التأكد من عدم جدوى بقائهم، ولكن عثمان رغم علمه بسوء تصرف ولاته وموظفيه، أصرّ على بقائهم مما زاد في نقمة الساخطين عليه»(١٤٨).

لذا فإن عمر لم يواجه مشكلة كبيرة بهذا الصدد، فضلا عن أنه كان لا يختار أمثال الوليد بن عقبة لإدارة الولايات.

وعند استعراض آراء المؤلفين نجد بعضهم أو معظمهم يكيلون للوليد ابن عقبة من المدائح ما يفوق التصور، ويظهرونه في صورة البطل الأسطوري صاحب المآثر الخالدة، معتقدين بأن ذلك يمكن أن يكون عذراً وجيهاً يبين صحة موقف الخليفة من توليته للوليد بن عقبة، وإلقاء اللوم كله على الذين ثاروا على هذه التولية، وبالتالي يصبح المسؤول الأول عن سير الأحداث المأساوية التي أدت الى إشعال نار الفتنة، هم الرعية، ولا دخل للسلطة في وقوع شيء من ذلك، ومن الأمثلة على ذلك قول بعضهم: عثمان ما حاد عن الحق في سيرته، ولا فارق الجادة في خلافته، ولا خالف قواعد العدل في سياسته(١٤٩).

قلنا : أن الأعذار التي ساقها ابن العربي لتصحيح تولية الوليد بن عقبة، لم تكن مقنعة على الاطلاق، لذا انبرى الشيخ محب الدين الخطيب -كعادته- الى إعطاء تفصيلات أكثر عن الوليد بن عقبة بقوله:

قد يظن من لا يعرف صدر هذه الأمة، أن أمير المؤمنين عثمان جاء بالوليد بن عقبة من عرض الطريق فولاّه الكوفة. أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة الأنس بأحوال ذلك العصر وأهله، فيعلمون أن دولة الإسلام الأولى من خلافة أبي بكر، تلقفت هذا الشاب الماضي العزيمة! الرضي الخلق! الصادق الإيمان! فاستعملت مواهبه في سبيل الله، الى أن توفي أبو بكر.

(١٤٨) موجز تاريخ العرب والاسلام، د. حسين قاسم العزيز: ١٥٨ .
(١٤٩) تاريخ الدولة العربية . ثابت الراوي : ٢٤٢ .

وأول عمل له في خلافة أبي بكر، أنه كان موضع السر في الرسائل الحربية التي دارت بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد في وقعة (المذار) مع الفرس سنة (١٢ هـ)، ثم وجهه مدداً الى قائده عياض بن غنم الفهري.

وفي سنة (١٣ هـ) كان الوليد يلي لأبي بكر صدقات قضاعة.

ثم لما عزم الصديق على فتح الشام، كان الوليد عنده بمنزلة عمرو بن العاص في الحرمة والثقة والكرامة، فكتب الى عمرو بن العاص والى الوليد ابن عقبة يدعوهما لقيادة فيالق الجهاد، فسار ابن العاص بلواء الإسلام نحو فلسطين، وسار الوليد بن عقبة قائداً الى شرق الأردن.

ثم رأينا الوليد في سنة (١٥ هـ) أميراً على بلاد بني تغلب وعرب الجزيرة، يحمي ظهور المجاهدين في شمال الشام لئلا يؤتوا من خلفهم، فكانت تحت قيادته ربيعة وتنوخ، مسلمهم وكافرهم.

وانتهز الوليد بن عقبة فرصة ولايته وقيادته على هذه الجبهة التي كانت لا تزال مليئة بنصارى القبائل العربية ـ فكان مع جهاده الحربي وعمله الإداري- داعياً الى الله، يستعمل جميع أساليب الحكمة والموعظة الحسنة لحمل نصارى أياد وتغلب على أن يكونوا مسلمين كسائر العرب. وهربت منه أياد الى الأناضول وهو تحت حكم البيزنطين، فحمل الوليد خليفة عمر على كتابة كتاب تهديد الى قيصر القسطنطينية بأن يردهم الى حدود الدولة الإسلامية.

وحاولت تغلب أن تتمرد على الوليد في نشر الدعوة الإسلامية بين شبابها وأطفالها، فغضب غضبته المضرية المؤيدة بالإيمان الإسلامي، وقال فيهم كلمته المشهورة:

إذا ما عصبت الرأس مني بمشوذ *** فغيّك مني تغلب ابنة وائل

وبلغت هذه الكلمة عمر، فخاف أن يبطش قائده الشاب بنصارى تغلب، فيفلت من يده زمامهم، في الوقت الذي يحاربون فيه مع المسلمين حمّية للعروبة، فكف عنهم يد الوليد ونحاه عن منطقتهم.

وبهذا الماضي المجيد، جاء الوليد في خلافة عثمان فتولى الكوفة له، وكان من خير ولاتها عدلا ورفقاً وإحساناً، وكانت جيوشه مدة ولايته على الكوفة تسير في آفاق الشرق فاتحة ظافرة موفقة...[١٥٠].

(١٥٠) العواصم من القواصم : ٩٨ هامش : ١٠٨

على الرغم من أن المصدر الذي اعتمده الشيخ محب الدين الخطيب، هو تاريخ الطبري برواية سيف بن عمر، فإن الدور الذي قام به الوليد في المراسلات الحربية بين خالد بن الوليد وبين الخليفة أبي بكر ليس بمثل هذا التهويل الذي يوحي به الشيخ الخطيب، فعندما نراجع رواية الطبري - في ذكر حوادث سنة (١٢ هـ) - نجد ما يلي:

ولما انتهى الخبر الى خالد عن قارن، قسّم الفيء على من أفاءه الله عليه، ونفَّل من الخمس ما شاء الله، وبعث ببقيته وبالفتح الى أبي بكر، وبالخبر عن القوم وباجتماعهم الى الثني المغيث المغاث، مع الوليد بن عقبة...[١٥١].

وعلى الرغم من أن سيف بن عمر قد انفرد بذكر دور الوليد بن عقبة في هذه الواقعة - خلافاً لجميع المؤرخين- فإنّ الدور لو صحّ للوليد، لوجدناه دور مراسل حربي مكلف بإيصال رسالة من قائد عسكري الى الخليفة يخبره بسير المعركة ونتائجها، وهو دور قد قام به آلاف المسلمين على مرّ العصور، فلم يستحقوا عليه هذا التكريم الذي يخص به الشيخ الخطيب الوليد بن عقبة.

أما الاعمال الاسطورية التي يذكرها الخطيب للوليد، فهي أيضاً مما انفرد به سيف بن عمر، وخالفه فيها بقية المؤرخين.

وحتى الطبري نفسه، قد أخرج روايات بغير طريق سيف، ليس فيها ذكر للوليد بن عقبة ولا أثر، فقد أخرج عن أبي زيد[١٥٢]:

أن أبا بكر وجّه بعد خروج يزيد بن أبي سفيان موجهاً الى الشام بأيام، شرحبيل بن حسنة... فسار في سبعة آلاف. ثم أبا عبيدة بن الجراح في سبعة آلاف، فنزل يزيد البلقان. ونزل شرحبيل الاردن -ويقال بصرى- ونزل أبو عبيدة الجابية، ثم أمدهم بعمرو بن العاص، فنزل بغمر العربات.

ثم رغب الناس في الجهاد، فكانوا يأتون المدينة فيوجههم أبو بكر الى الشام، فمنهم من يصير مع أبي عبيدة، ومنهم من يصير مع يزيد، يصير كل قوم مع من أحبوا[١٥٣].

كما وروى الطبري عن ابن حميد بسنده :

لما قفل أبو بكر من الحج سنة اثنتي عشرة، جهّز الجيوش الى الشام، فبعث عمرو بن العاص قبل فلسطين، فأخذ طريق المعرقة على أيلة، وبعث يزيد بن أبي

(١٥١) تاريخ الطبري ٣ : ٣٥١

(١٥٢) هو عمر بن شبَه.

(١٥٣) تاريخ الطبري ٣ : ٤٠٦

سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة -وهو أحد الغوث- وأمرهم أن يسلكوا التبوكية على البلقاء من علياء الشام.

كما وروى عن عمر بن شبه أيضاً قال :

ثم وجه أبو بكر الجنود الى الشام أول سنة ثلاث عشرة، فأول لواء عقده لواء خالد بن سعيد بن العاص، ثم عزله قبل أن يسير، وولّى يزيد بن أبي سفيان، فكان أول الأمراء الذين خرجوا الى الشام، وخرجوا في سبعة آلاف(١٥٤).

وقال المسعودي :

ولما أنفذ أبو بكر الأمراء الى الشام، كان فيما أوصى به يزيد بن أبي سفيان وهو مشيّع له، فقال له: إذا قدمت على أهل عملك فعدهم الخير وما بعده...(١٥٥)

وقال اليعقوبي :

ثم نادى في الناس بالخروج، وأميرهم خالد بن سعيد ... فحلّ لواءه، ودعا يزيد بن أبي سفيان، وأبا عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، فعقد لهم وقال: إذا اجمعتم فأمير الناس أبو عبيدة(١٥٦).

وقال البلاذري : لما فرغ أبو بكر من أمر أهل الردّة، رأى توجيه الجيوش الى الشام، فكتب الى أهل مكة، والطائف، والعين، وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم.

فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل حدب، فعقد ثلاثة ألوية لثلاثة رجال: خالد بن سعيد بن العاصي بن اُمية، وشرحبيل ابن حسنة حليف بني جمح، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي(١٥٧).

فنلاحظ أن الروايات ـ حتى التي أوردها الطبري ولكن بغير طريق سيف ـ وكذلك في باقي المصادر التاريخية المهمة، لا تذكر الوليد بن عقبة هذا في جملة القادة الذين أرسلهم أبو بكر لفتح الشام أو غيرها، كما ولا نجد شيئاًمن تلك المآثر التي يوردها له الشيخ الخطيب في أية رواية اُخرى ولا في أي مصدر آخر، إلاّ اللهم استعماله على صدقات قضاعة، وهو عمل يمكن أن يقوم به أيٌّ شخص.

ولقد نبّه الطبري نفسه القارئ الى مخالفة روايات سيف لبقية الروايات في بعض المواضع -كما في حادثة فتح الأبلة ـ فبعد أن يذكر رواية سيف عنها، يقول: وهذه

(١٥٤) الطبري ٣ : ٣٨٧
(١٥٥) مروج الذهب ٣ : ٤٤
(١٥٦) تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٣٣
(١٥٧) فتوح البلدان : ١١٥

القصة في أمر الأبلة وفتحها خلاف ما يعرف أهل السير، وخلاف ما جاءت به الآثار الصحاح(١٥٨).

وهنا لابد وأن يقف الباحث مستغرباً هذا الدفاع المستميت عن الوليد من قبل بعض المؤلفين الذين يعرضون عن الروايات الأُخرى التي وردت عند الطبري وعند المؤرخين الآخرين، والتي تخالف رواية سيف، وما سرّ دفاع سيف عن الوليد بن عقبة، ومن هم أصحاب النوايا الفاسدة الذين يذكرون سيئات الوليد قبل حسناته الوهمية؟..

حقيقة الوليد بن عقبة

بعد أن أوردنا إجماع المؤرخين - عدا الطبري برواية سيف فقط- على نفي حسنات الوليد الاسطورية، حان الوقت لايراد جملة من الأخبار عن سيئاته التي يتصدى ابن العربي وغيره لنفيها، فلنبدأ بمقولة ابن العربي، حيث يقول:

وأما الوليد، فقد روى بعض المفسرين أن الله أسماه فاسقاً في قوله: (**إنْ جاءكُمْ فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا أنْ تُصيبوا قوماً بجهالة**)(١٥٩).

فإنّها -في قولهم- نزلت فيه. أرسله النبي(صلى الله عليه وآله) الى بني المصطلق، فأخبر عنهم أنهم ارتدوا، فأرسل رسول الله(صلى الله عليه وآله) إليهم خالد بن الوليد فتثبت في أمرهم، فبيّن بطلان قوله.

وقد اُختلف فيه، فقيل: نزلت في ذلك، وقيل: في عليّ والوليد في قصة اُخرى.

وقيل : إن الوليد سيق يوم الفتح في جملة الصبيان الى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فمسح رؤوسهم وتبرك عليهم، إلاّ هو، فقال: إنه كان على رأسي خلوق، فامتنع(صلى الله عليه وآله) من مسه.

فمن يكون في مثل هذه السن يُرسل مصدقاً!(١٦٠).

ثم يتصدى الشيخ محبّ الدين الخطيب معلقاً على قول ابن العربي:

كنت فيما مضى أعجب كيف تكون هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة، ويسميه الله فاسقاً، ثم تبقى له في نفس خليفتي رسول الله(صلى الله عليه وآله) أبي بكر وعمر المكانة

(١٥٨) الطبري ٣ : ٣٥
(١٥٩) سورة الحجرات : ٦
(١٦٠) العواصم من القواصم : ١٠٢

التي سجلها له التاريخ، وأوردنا الأمثلة عليها في هامش ص٩٨ عند استعراضنا ماضيه في بضعة عشر عاماً قبل أن يوليه عثمان الكوفة.

إن هذا التناقض - بين ثقة أبي بكر وعمر بالوليد بن عقبة، وبين ما كان ينبغي أن يعامل به لو أن الله سماه فاسقاً- حملني على الشك في أن تكون الآية نزلت فيه، لا استبعاداً لوقوع أمر من الوليد يعد به فاسقاً، ولكن استبعاداً لأن يكون الموصوم بالفسق في صريح القرآن محل الثقة من رجلين لا نعرف في أولياء الله عزّوجل بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله) من هو أقرب الى الله منهما...[١٦١].

هذا التناقض الذي صيّر الشيخ الخطيب، مرجعه إلى استناده إلى رواية سيف بن عمر حول استعمال أبي بكر وعمر للوليد بن عقبة، مع ان أي رواية اُخرى وفي أي مصدر تاريخي موثوق، لم تُشر الى هذا الاستعمال كما أسلفنا.

ولكي نزيل شكوك الخطيب ومن قبله ابن العربي في قضية نزول الآية في الوليد بن عقبة، فإننا نلفت انتباه القارئ أولا الى أن ابن العربي قد خلط بين قصتين في تفسير آيتين، ولا أدري أذاك عن جهل منه -وهو الإمام المفسر- أم تعمد. فالآية التي نزلت في الوليد وفسقه هي الآية السادسة من سورة الحجرات، والتي ذكر القاضي قصتها كما أوردها المفسرون.

أما قوله تعالى (**أفمَنْ كانَ مؤمناً كمنْ كانَ فاسقاً لا يَستَوونَ**)، فهي الآية الثامنة عشرة من سورة السجدة، وقصتها عن ابن عباس قال:

قال الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط لعلي بن أبي طالب(رضي الله عنه): أنا أحدُّ منك سناناً، وأبسط منك لساناً، وأملأ للكتيبة منك، فقال له علي: اسكت فإنما أنت فاسق. فنزل (**أفمن ...**) الآية. قال : يعني بالمؤمن علياً، وبالفاسق الوليد بن عقبة[١٦٢].

فالقرآن الكريم قد أخبر عن فسق الوليد، ثم أكد ذلك في آية اُخرى.

قال ابن عبد البر :

ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن - فيما علمت- أن قوله عزّوجل (**إنْ جاءَكُمْ فاسقٌ بنبإ**) نزلت في الوليد بن عقبة، -ومن حديث الحكم عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: نزلت في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة في قصة ذكرها (**أفمنْ كانَ مُؤمناً كمنْ كانَ فاسِقاً لا يَستوونَ**).

(١٦١) العواصم من القواصم ، هامش : ١١٥
(١٦٢) أسباب نزول القرآن للواحدي : ٣٦٢ ، وانظر ما قاله المفسرون في تفسير الآية .

ثم ولاّه عثمان الكوفة، وعزل عنها سعد بن أبي وقاص، فلمّا قدم الوليد على سعد، قال له سعد: والله ما أدري أكست بعدنا أم حمقنا بعدك!

فقال : لا تجزعن أبا إسحاق، فإنما هو الملك، يتغداه قوم ويتعشاه آخرون!

فقال سعد : أراكم والله ستجعلونها ملكاً.

وروى جعفر بن سليمان، عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، قال: لما قدم الوليد بن عقبة أميراً على الكوفة، أتاه ابن مسعود فقال له:

ما جاء بك؟

قال : جئت أميراً.

فقال ابن مسعود : ما أدري أصلحت بعدنا أم فسد الناس؟

وله أخبار فيها نكارة وشناعة تقطع على سوء حاله وقبح أفعاله..

وكان الأصمعي وأبو عبيدة وابن الكلبي وغيرهم يقولون:

كان الوليد بن عقبة فاسقاً شريب خمر... وخبر صلاته بهم وهو سكران، وقوله: أزيدكم - بعد أن صلى الصبح أربعاً- مشهور من رواية الثقات من نقل أهل الحديث وأهل الأخبار..

وقد روي - فيما ذكر الطبري- أنه تعصب عليه قوم من أهل الكوفة بغياً وحسداً، وشهدوا عليه زوراً أنه تقيأ الخمر، وذكر القصة وفيها: إن عثمان قال له: يا أخي إصبر، فإنّ الله يأجرك ويبوء القوم بإثمك.

وهذا الخبر من نقل أهل الأخبار(١٦٣)، ولا يصح عند أهل الحديث، ولا له عند أهل العلم أصل(١٦٤).

وقال ابن الأثير :

روى عمر بن شبة... قال : صلى الوليد بن عقبة بأهل الكوفة صلاة الصبح أربع ركعات ثم التفت اليهم فقال: أزيدكم؟

فقال عبدالله بن مسعود : ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم...(١٦٥)

وقال ابن حجر :

وقصة عزله بعد أن ثبت عليه شرب الخمر مشهورة أيضاً مخرجة في الصحيحين(١٦٦).

(١٦٣) الذي نقل هذا الخبر، هو سيف بن عمر.
(١٦٤) الاستيعاب في معرفة الاصحاب ٤ : ١٥٥٢
(١٦٥) أسد الغابة ٤ : ٦٧٥

وقال أيضاً :

والرجل فقد ثبتت صحبته، وله ذنوب أمرها إلى الله تعالى(١٦٧).

وقال ابن أبي الحديد المعتزلي :

كان الوليد زانياً يشرب الخمر، فشرب بالكوفة وقام يصلي بهم الصبح في المسجد الجامع، فصلى بهم أربع ركعات ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟ وتقيأ في المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوته في الصلاة:

علقَ القلبُ الربابا *** بعد ما شابت وشابا(١٦٨)

فهذه الطائفة من أقوال بعض الأئمة الأعلام، يثبتون فيها خبر نزول الآية في الوليد بن عقبة، ويؤكدون فساد حاله وشربه للخمر، فهل هؤلاء أيضاً من أصحاب النيات الفاسدة الذين يشير اليهم ابن العربي؟! وفيهم أمثال الشيخين البخاري ومسلم وابن حجر وابن الأثير وابن عبد البر وغيرهم.

التشبث بقشة الغريق

لم يكتف الشيخ الخطيب بهذا الدفاع المستميت عن الوليد بن عقبة، فعلق على قضية سن الوليد بن عقبة بقوله:

هذا الحديث عن سن الوليد بن عقبة يوم فتح مكة رواه الامام أحمد في مسنده... وعلى روايته وأمثالها اعتمد القاضي ابن العربي في الحكم على سن الوليد بن عقبة بأنه كان صبياً عند فتح مكة، وأن الذي نزلت فيه آية **(إن جاءكم فاسق بنبأ)** هو شخص آخر.

ومن عجيب أمر الذين كان لهم هوىً في تشويه سمعة هذا الصحابي الشاب المجاهد الطيب النفس الحسن السيرة في الناس! أنهم حاولوا إدحاض حجة صغر سنه في ذلك الوقت بخبر آخر روي عن قدومه مع أخيه عمارة الى المدينة في السنة السابعة للهجرة، ليطلبا من النبي(صلى الله عليه وآله) ردّ أُختهما أُم كلثوم الى مكة.

وأصل هذا الخبر - إن صح - مقدم فيه اسم عمارة على إسم الوليد، وهذا مما يستأنس به في أن عمارة هو الأصل في هذه الرحلة. وأن الوليد جاء في صحبته،

(١٦٦) الاصابة في تمييز الصحابة ٦ : ٣٢١
(١٦٧) تهذيب التهذيب ١١ : ١٢٥
(١٦٨) شرح نهج البلاغة ١٧ : ٢٣٠

وأي مانع يمنع قدوم الوليد صبياً بصحبة أخيه الكبير.. فإذا تقرر عندك أن جميع الأخبار الواردة بشأن الوليد بن عقبة في سبب نزول آية (**إن جاءكم فاسق بنبأ**) لا يجوز علمياً أن يبنى عليها حكم شرعي أو تاريخي.

وإذا أضفت إلى ذلك حديث مسند الإمام أحمد عن سن الوليد في سنة الفتح، يتبين لك بعد ذلك حكمة استعمال أبي بكر وعمر للوليد، وثقتهما به واعتمادهما عليه مع أنه كان لا يزال في صدر شبابه(١٦٩).

إن محب الدين الخطيب يظل متشبثاً بقشة الغريق، وكلما حاول إخراج نفسه من ورطة أوقعها في أدهى منها، فهل سأل نفسه إذا كان سن الوليد عند فتح مكة صغيراً -أي أنه كان طفلاً- لا يصلح لأن يرسله النبي(صلى الله عليه وآله)مصدقاً، فكم هي المدة بين فتح مكة وبين تولي أبي بكر الخلافة؟!

أفبهذه السرعة صار الوليد رجلا في خلافة أبي بكر -أي بعد ثلاث سنوات فقط- وظهرت مواهبه وعبقريته الفذّة فجأة، حتى صار موضع ثقة أبي بكر ومن بعده عمر، فراحا يوليانه هذه المناصب المهمة!!

وأما كون الوليد صبياً عند فتح مكة، فقد قال الحافظ ابن عبد البر في ذلك:

وهذا الحديث رواه جعفر بن برقان، عن ثابت بن الحجاج، عن أبي موسى الهمداني، ويقال الهمداني، كذلك ذكره البخاري على الشك عن الوليد ابن عقبة.

قالوا : وأبو موسى هذا مجهول، والحديث منكر مضطرب لا يصح، ولا يمكن أن يكون من بعث مصدقاً في زمن النبي(صلى الله عليه وآله) صبياً يوم الفتح، ويدل أيضاً على فساد ما رواه أبو موسى المجهول، أن الزبير وغيره من أهل العلم بالسير والخبر ذكروا أن الوليد وعمارة بن عقبة، خرجا ليروا اُختهما أُم مكتوم عن الهجرة، فكانت هجرتها في الهدنة بين النبي(صلى الله عليه وآله) وبين أهل مكة، ومن كان غلاماً مخلقاً يوم الفتح، ليس يجيء منه مثل هذا...(١٧٠).

وقد أخبر النبي(صلى الله عليه وآله) بأن الوليد من أهل النار -وهي من دلائل النبوة- وذلك فيما جاءت به الأخبار من أن النبي(صلى الله عليه وآله) كان قد توعّد عقبة بن أبي معيط بعد أن اشتد أذاه لرسول الله(صلى الله عليه وآله)، فلما أسره النبي(صلى الله عليه وآله) أخذه

(١٦٩) العواصم من القواصم : ١٠٣ هامش : ١١٧
(١٧٠) الاستيعاب ٤ : ١٥٥٢

«حتى إذا كان بعرف الظبية، قتل عقبة بن أبي معيط، فقال حين أمر به رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يُقتل: فمن للصبية يا محمد؟ قال: «النار»[١٧١].

مروان بن الحكم

لقد كان لمروان بن الحكم دور رئيس في مسيرة الأحداث الدامية دون شك. وقبل التطرق الى دور هذا الرجل في الفتنة، يجدر بي أن أستعرض أقوال بعض المؤلفين فيه ومواقفهم منه، وإصرار هؤلاء على إظهار مروان على غير صورته الحقيقية وتبرأته هو الآخر مما وقع من أحداث.

يقول القاضي ابن العربي فيه :

مروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين.

أما الصحابة فإنّ سهل بن سعد الساعدي روى عنه، وأما التابعون فأصحابه في السن، وإن كان جاوزهم باسم الصحبة في أحد القولين، وأما فقهاء الأمصار فكلهم على تعظيمه، واعتبار خلافه، والتلفت الى فتواه والانقياد الى روايته، وأما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم[١٧٢].

لو كان الأمر متوقفاً على المؤرخين والأدباء - حتى غير السفهاء- لهان الأمر، لكن صورة مروان بن الحكم التي ينقلها إلينا ثقاة العلماء والمحدثون، أكثر جهامة مما يقوله المؤرخون والأدباء.

فقد أخرج كبار المحدثين روايات تكشف عن البدع التي أحدثها مروان في الاسلام، فضلا عن جرائم قتل لبعض كبار الصحابة، وهي كلها مسجلة في كتب الحديث، والتي تكشف أيضاً عن سوء رأي بعض كبار الصحابة في مروان واتهامهم إياه.

ففي الصحيحين -واللفظ للبخاري- عن أبي سعيد الخدري قال:

كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) يخرج يوم الفطر والأضحى الى المصلى، فأول شيء يبدأ به: الصلاة، ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس والناس جلوس على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم. فإن كان يريد أن يقطع بعثاً قطعه، أو يأمر بشيء أمر به ثم ينصرف، فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلى إذا منبرٌ بناه كثير بن الصلت، فإذا مروان يريد أن

(١٧١) تاريخ الطبري ٢ : ٤٥٩ ذكر وقعة بدر الكبرى، الكامل في التاريخ ٢ : ٧٤ ذكر المستهزئين ومن كان اشد الأذى للنبي(ص)، تاريخ الاسلام للذهبي : المغازي : ص ٦٤ ـ ٦٥

(١٧٢) العواصم من القواصم : ١٠١

يرتقيه قبل أن يصلي، فجبذت بثوبه فجبذني، فارتفع فخطب قبل الصلاة; فقلت له: غيّرتم والله! فقال: يا أبا سعيد، قد ذهب ما تعلم، فقلت: ما أعلم والله خير مما لا أعلم; فقال: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة، فجعلتها قبل الصلاة!![(١٧٣)].

وفي لفظ الإمام أحمد، قال: فقام رجل فقال: يا مروان خالفت السنّة! أخرجت المنبر يوم عيد ولم يك يُخرج به في يوم عيد، وبدأت بالخطبة قبل الصلاة ولم يكن يُبدأ بها! قال: فقال أبو سعيد الخدري: من هذا؟ قالوا: فلان ابن فلان.

قال : فقال أبو سعيد : أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله)يقول: «**من رأى منكم منكراً فإن استطاع أن يغيّره بيده فليفعل**». وقال مرة: «**فليغيّره بيده فإن لم يستطع بيده فبلسانه فإن لم يستطع بلسانه فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[(١٧٤)].

هذه الرواية وأمثالها مما أخرجه كبار المحدثين -ويكفي اتفاق الشيخين عليها- تشير إلى اُمور منها :

إن مروان بن الحكم قد تعمد تغيير السنّة النبوية الشريفة في صلاة العيدين ومخالفة النبي(صلى الله عليه وآله) ومن جاء بعده بالصلاة قبل الخطبة، فجعل الخطبة قبل الصلاة، ولم يكن ذلك عن سهو أو خطأ منه -كما يدل لفظ الرواية- حيث إنه أصرّ على فعله بعد تنبيه أبي سعيد الخدري له، وقوله: قد ذهب ما تعلم، يدل على إصراره على تغيير السنّة النبوية، وكأن هذه السنّة قد صارت عفا عليه الزمن وينبغي تغييره.

كما وأن تبرير مروان عمله ذلك بأن الناس لم يكونوا يجلسون لسماع الخطبة بعد الصلاة، فإن هذا لهو أكبر دليل على أن أهل المدينة -وفيهم بقية الصحابة وخيار التابعين- لم يكونوا يعتقدون بصلاح مروان وعدالته ونصحه للاُمة حتى يستمعوا إليه.

كما وأن شهادة أبي سعيد الخدري للرجل الذي عارض مروان في إخراج المنبر بأنه قد أدى الذي عليه بالنهي عن المنكر، واستشهاده بقول النبي(صلى الله عليه وآله)لأكبر دليل على اعتقاد هذا الصحابي بأن مروان بن الحكم ممن يأتون المنكر الذي أمر النبي(صلى الله عليه وآله) بتغييره.

ولم يكن أبو سعيد الخدري الصحابي الوحيد الذي يعتقد بعدم صلاح مروان بن الحكم، بل كان ذلك رأي جلّ الصحابة، ويدل على ذلك ما أخرجه الامام أحمد أيضاً، عن داود بن أبي صالح قال :

(١٧٣) صحيح البخاري ٢ : ٢٢ باب الخروج الى المصلى بغير منبر، صحيح مسلم ٢ : ٦٠٥ كتاب صلاة العيدين .
(١٧٤) مسند أحمد ٣ : ١٠

أقبل مروان يوماً فوجد رجلا واضعاً وجهه على القبر; فقال: أتدري ما تصنع؟ فأقبل عليه، فإذا هو أبو أيوب; فقال: نعم، جئت رسول الله(صلى الله عليه وآله) ولم آتِ الحجر! سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: «**لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا عليه إذا وليه غير أهله**»(١٧٥).

فها هو الصحابي الكبير أبو أيوب الأنصاري يعرّض بمروان بن الحكم ويتّهمه بأنه ليس من أهل الدين.

وأما كتب التراجم، فهي طافحة بذكر نتف من أخباره بما لا يُسرّ ابن العربي وأضرابه، فقد قال ابن عبد البر في ترجمته :

ولد على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) سنة اثنتين من الهجرة... ولم يره لأنه خرج الى الطائف طفلا لا يعقل، وذلك أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) كان قد نفى أباه الحكم إليها، فلم يزل بها حتى ولي عثمان، وتوفي أبوه فاستكتبه عثمان، وكتب له، فاستولى عليه، الى أن قُتل عثمان، ونظر إليه عليٌّ يوماً، فقال له: ويلك، وويل اُمة محمد منك ومن بنيك إذا ساءت درعك.

وكان مروان يقال له (خيط باطل)، وضُرب به يوم الدار على قفاه، فجرى لقبه، فلما بويع له بالامارة، قال فيه أخوه عبدالرحمان بن الحكم ـ وكان ماجناً شاعراً محسناً- وكان لا يرى رأي مروان:

لحا الله قوماً أمَّروا خيط باطل *** على الناس يعطي ما يشاء ويمنع(١٧٦)

وقال ابن عبدالبر في شرحه لمعنى قول عبدالرحمان بن حسان بن ثابت في عبدالرحمان بن الحكم يهجوه :

إن اللّعين أبوك فارم عظامه *** إن تَرمِ ترمِ مخلّجاً مجنونا

يمسي خميص البطن من عمل التقى *** ويظل من عمل الخبيث بطينا

فأما قول عبد الرحمان بن حسان إن اللعين أبوك; فروي عن عائشة من طرق ذكرها ابن أبي خيثمة وغيره أنها قالت لمروان، إذ قال في أخيها عبدالرحمان ما قال: أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) لعن أباك وأنت في صلبه(١٧٧)..

(١٧٥) مسند أحمد ٥ : ٤٢٢ ، المستدرك ٤ : ٥١٢ ، مجمع الزوائد ٤ : ٢ ، وفاء الوفا ٤ : ١٣٥٩ ، شفاء الاسقام : ١٢٦ ، المنتقى لابن تيمية ٢ : ١٦١

(١٧٦) الاستيعاب ٣ : ٤٤٤

(١٧٧) الاستيعاب ١ : ٤١٥ ، أسد الغابة ترجمة مروان بن الحكم. وفي مستدرك الحاكم ٤ : ٤٨١ عن محمد بن زياد قال: لما بايع معاوية لابنه يزيد قال مروان : سنة أبي بكر وعمر، فقال عبدالرحمان بن أبي بكر، سنة هرقل وقيصر، فقال: أنزل الله فيك (**والذي قال لوالديه أف لكما**)، قال: فبلغ عائشة(رض) فقالت: كذب والله، ما هو به، ولكن رسول الله(ص)

وقال ابن الأثير :

وتزوج مروان أُم خالد بن يزيد ليضع من خالد.

وقال يوماً لخالد : يابن الرطبة الاست. فقال له خالد: أنت مؤتمن خائن. وشكى خالد ذلك يوماً إلى أُمه، فقالت: لا تُعلمه أنك ذكرته لي. فلما دخل إليها مروان، قامت إليه مع جواريها فغمّته حتى مات... وهو معدود فيمن قتله النساء.

كما روى عن جبير بن مطعم، قال: كنا مع النبي(صلى الله عليه وآله) فمرّ الحكم بن أبي العاص، فقال النبي(صلى الله عليه وآله): **«ويلٌ لأُمتي مما في صلب هذا»**(١٧٨).

مروان وطلحة

لم يقتصر مروان بن الحكم على مخالفة السنّة النبوية الشريفة فحسب، بل تعداه الى قتل الصحابة أيضاً، إلاّ أن من المستغرب أن يحاول بعض المؤلفين تبرأة مروان من هذا الفعل، فقد قال القاضي ابن العربي، في معرض حديثه عن أحداث معركة الجمل:

وقد روي أن مروان لما وقعت عينه في الاصطفاف على طلحة قال: لا أطلب أثراً بعد عين، ورماه بسهم فقتله. ومن يعلم هذا إلاّ علاّم الغيوب، ولم ينقله ثبت! وقد روي أنه أصابه سهم بأمر مروان، لا أنه رماه(١٧٩).

ويمكننا ملاحظة بعض الأُمور على مقولة ابن العربي، وهي ادعاؤه أولا أن هذا الخبر لم ينقله ثبت، وثانياً: محاولته تبرير عمل مروان بأنه لم يباشر قتل طلحة بنفسه، بل أمر من يرميه بسهم قاتل. ولا أدري ما الفرق بين أن يباشر المرء القتل بنفسه وبين أن يوكله الى من ينفذه نيابة عنه!

أما محب الدين الخطيب، فيعلق على الخبر بقوله:

آفة الآخبار رواتها، وفي العلوم الاسلامية علاج آفة الكذب الخبيثة، فإن كل راوي خبر يطالبه الاسلام بأن يعين مصدره على قاعدة من أين لك هذا؟

لعن أبا مروان ومروان في صلبه، فمروان فضض من لعنة الله عزّوجل. وانظر السنن الكبرى للنسائي ٦ : ٤٨٥ ح ١٨٤٩١ صحيح البخاري ٦ : ١٦٧ تفسير سورة الاحقاف، ارشاد الساري ١١ : ٦٩ ، الكشاف للزمخشري ٤ : ٣٠٤ ، الفائق في غريب الحديث ٤ : ١٠٢ ، التفسير الكبير للرازي ٢٨ : ٥٢٣ الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ١٦ : ١٣١ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ : ١٥٩ ، الدر المنثور ٦ : ٤١ ، فتح القدير ٥ : ٢١ تفسير الآلوسي ٢٦ : ٢٠ ، الاجابة للزركشي: ١٢٩ ، اسد الغابة ٢ : ٣٨ رقم ١٢١٧ السيرة الحلبية ١ : ٣٣٧ ، سيرة دحلان ١ : ١١٧ هامش الحلبية ، حياة الحيوان للدميري ٢ : ٣٩٩

(١٧٨) أسد الغابة ١ : ٥١٤

(١٧٩) العواصم من القواصم : ١٦٠

ولا تعرف اُمة مثل هذه الدقة في المطالبة بمصادر الأخبار كما عرفه المسلمون، ولا سيّما أهل السنّة منهم، وهذا الخبر من طلحة ومروان لقيط، لا يُعرف أبوه ولا صاحبه، وما دام لم ينقله ثبت بسند معروف عن رجال ثقات، فإن للقاضي ابن العربي أن يقول بملء فيه: ومن يعلم هذا إلاّ علام الغيوب(١٨٠).

إن من أشد الاُمور أسفاً وإيلاماً، هي أن يدّعي مؤلف أنه يدافع عن الاسلام ثم يسيء الى الاسلام إساءة عظيمة بمخادعة المسلمين واستغفالهم، لأن هذه الادعاءات إن كان مصدرها جهل الخطيب بالموضوع -ولا أظن ذلك- فليس له أن يخالف شرطه ويتصدى للكتابة قبل استكمال عدته، وأما إن كان عالماً بالموضوع -وهذا هو ظني- فهذا أكبر عيب عليه، لأن عمله هذا ليس إلاّ خداعاً مفضوحاً للمسلمين، فإن الادعاء بأن خبر قتل مروان لطلحة لم ينقله ثبت، لا أساس له من الصحة! فإن الخبر قد نقله الاثبات، وأخرجه المحدثون في كتبهم بروايات لا مغمز فيها، فقد أخرج الحاكم النيسابوري قال:

١ ـ أخبرني محمد بن يعقوب الحافظ، ثنا محمد بن إسحاق الثقفي، ثنا عباد بن الوليد العنزي، ثنا صبان، ثنا شريك بن الحباب، حدثني عقبة بن صعصعة بن الأحنف، عن عكراش، قال: كنا نقاتل علياً مع طلحة ومعنا مروان، قال: فانهزمنا، قال فقال مروان: لا أدرك بثأري بعد اليوم من طلحة. قال: فرماه بسهم فقتله.

٢ ـ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا العباس بن محمد الدوري، ثنا أشهل بن حاتم، عن ابن عون، قال: قال نافع: طلحة بن عبيدالله قتله مروان ابن الحكم.

٣ ـ حدثنا علي بن حماد العدل، ثنا محمد بن غالب، ثنا يحيى بن سليمان الجعفي، ثنا وكيع، عن اسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت مروان بن الحكم حين رمى طلحة بن عبيدالله يومئذ، فوقع في ركبته، فما زال يسبح الى أن مات.

٤ ـ حدثني محمد بن ظفر الحافظ، وأنا سألته، حدثني الحسين بن عياش القطان، ثنا الحسين، ثنا يحيى بن عياش القطان، ثنا الحسين بن يحيى المروزي، ثنا غالب بن جليس الكلبي أبو الهيثم، ثنا جويرية بن أسماء عن يحيى بن سعيد، ثنا عمي قال: لما كان يوم الجمل، نادى علي في الناس: لا ترموا أحداً بسهم، ولا تطعنوا برمح، ولا تضربوا بسيف، ولا تطلبوا القوم، فإنّ هذا مقام من أفلح فيه أفلح يوم القيامة. قال:

(١٨٠) العواصم من القواصم : ١٦٠ .

فتوافقنا، ثم إن القوم قالوا بأجمع :يا ثارات عثمان، قال: وابن الحنفية أمامنا بربوة معه اللواء، قال: فناداه علي، قال: فأقبل علينا يعرض وجهه فقال: يا أمير المؤمنين، يقولون يا ثارات عثمان، فمد علي يديه وقال: اللهم أكب قتلة عثمان اليوم بوجوههم. ثم إن الزبير قال للأساورة، كانوا معه، قال: ارموهم برشق، وكأنه أراد أن ينشب القتال، فلما نظر أصحابه الى الانتشاب لم ينتظروا، فحملوا فهزمهم الله، ورمى مروان بن الحكم طلحة بن عبيدالله بسهم فشك ساقه بجنب فرسه، فقبض به الفرس حتى لحقه فذبحه فالتفت مروان الى أبان بن عثمان وهو معه فقال: لقد كفيتك أحد قتلة أبيك(١٨١).

فهذه أربع روايات مسندة سكت الذهبي عن ثلاث منها واعترف بصحة واحدة، وكما أخرج عدد من الحفاظ روايات اُخرى مسندة تعترف بقتل مروان لطلحة، فقد روى عمر بن شبة، عن عبدالرحمان بن أبي ليلى، قال: قال لي عبدالملك بن مروان: أشهدت الدار؟ قلت: نعم، فليسل أمير المؤمنين عما أحب. قال: أين كان علي؟ قلت: في داره. قال: فأين كان الزبير؟ قلت: عند أحجار الزيت. قال: فأين طلحة؟ قلت: نظرت فإذا مثل الحرة السوداء، فقلت ما هذا؟ قالوا: طلحة واقف، فإن حال حائل دون عثمان قاتله. فقال: لولا أن أبي أخبرني يوم مرج راهط أنه قتل طلحة، ما تركت على وجه الأرض من بني تيم أحداً إلاّ قتلته(١٨٢).

فها هو ابن مروان يخبر بأن أباه قد اعترف بقتل طلحة يوم الجمل، والاعتراف سيد الأدلة كما يقال(١٨٣).

وقال ابن حجر : روى ابن عساكر من طرق متعددة أن مروان بن الحكم هو الذي رماه فقتله. منها: وأخرجه ابو القاسم البغوي بسند صحيح عن الجارود بن أبي سبرة، قال: لما كان يوم الجمل، نظر مروان الى طلحة فقال: لا أطلب ثاري بعد اليوم، فنزع له بسهم فقتله(١٨٤).

(١٨١) المستدرك على الصحيحين ٣ : ٣٧٠ ، وسكت الذهبي عن الروايات الاولى والثانية والرابعة، وقال عن الثالثة : صحيح.

(١٨٢) تاريخ المدينة ٢ : ١١٧٠

(١٨٣) وانظر أيضاً ، أنساب الاشراف ٣ : ٢٩ ، تاريخ الاسلام للذهبي ٣ : ٤٨٦ ، طبقات ابن سعد ٣ : ٢٢٣ ، تاريخ خليفة بن خياط : ١٣٥ ، ١٣٩ عن الجارود بن أبي سبرة وابن سيرين ويحيى بن سعيد عن عمه ، تهذيب التهذيب ٥ : ٢٢ العقد الفريد ٤ : ١٢٨ ، مروج الذهب ٢ : ٣٨٢ ، الكامل في التاريخ ٢ : ٣٣٨ ، دول الاسلام : ٢٣ ، صفة الصفوة ١ : ٣٤١ رقم ٦ ، تاريخ ابن شحنة ١ : ٢١٧ ، تذكرة الخواص : ٧٧ وكلها تدل على صحة الخبر .

(١٨٤) الاصابة ٢ : ٣٠ ، تاريخ دمشق ٢٥ : ١١٢ رقم ٨٩٨٣ ، مختصر تاريخ دمشق ١١ : ٢٠٧

وقال محدث الدين الطبري : المشهور أن مروان بن الحكم هو الذي قتله، رماه بسهم وقال: لا أطلب ثأري بعد اليوم، وذلك أن طلحة زعموا أنه كان ممن حاصر عثمان واشتد عليه[١٨٥].

وقال ابن عبدالبر : لا يختلف العلماء الثقات في أن مروان قتل طلحة يومئذ، وكان في حزبه[١٨٦].

وقال ابن حجر العسقلاني : وعاب الاسماعيلي على البخاري تخريج حديثه، وعدّ من موبقاته أنه رمى طلحة، أحد العشرة المبشرة يوم الجمل وهما جميعاً مع عائشة فقُتل، ثم وثب على الخلافة بالسيف[١٨٧].

سعد بن عبد الله بن أبي سرح

كان هذا الوالي لعثمان على مصر بعد عزل عمرو بن العاص، وهو أحد الذين أهدر النبي(صلى الله عليه وآله) دمهم وأمر بقتلهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة.

وسبب ذلك أن ابن أبي سرح أسلم، وكان يكتب بين يدي رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فيملي عليه (الكافرين) فيجعلها (الظالمين)، ويملي عليه (عزيز حكيم) فيجعلها (عليم حكيم)، وأشباه هذا; فقال: أنا أقول كما يقول محمد وآتي بمثل ما يأتي به محمد، فأنزل الله فيه **(وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ افترى على اللهِ كذِباً أو قالَ أُوحيَ إليَّ وَلَمْ يوحَ إليهِ شيٌ وَمَنْ قالَ سأُنزِلُ مثلَ ما أنزلَ اللهُ)**[١٨٨].

وهرب الى مكة مرتداً، فأمر رسول الله(صلى الله عليه وآله) بقتله، وكان أخا عثمان بن عفان من الرضاع.

فطُلب فيه أشد الطلب، حتى كف رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وقال: **«أما كان فيكم من يقوم الى هذا الكلب قبل أن أؤمنه فيقتله؟»**.

فقال عمر -ويقال أبو اليسر- لو أومأت إلينا قتلناه، فقال **«إني ما أقبل باشارة، لأن الأنبياء لا يكون لهم خائنة الأعين»**.

وكان يأتي النبي(صلى الله عليه وآله) فيسلم عليه.

(١٨٥) الرياض النضرة ٤ : ٢٣٠
(١٨٦) الاستيعاب رقم ١٢٨٠
(١٨٧) تهذيب التهذيب ١٠ : ٨٢
(١٨٨) الأنعام : ٩٣ .

وولاّه عثمان مصر، فابتنى بها داراً، ثم تحول الى فلسطين فمات بها[١٨٩].

وكان ابن أبي سرح مختبئاً عند عثمان بن عفان عندما طلبه المسلمون بعد فتح مكة، وجاء به عثمان الى النبي(صلى الله عليه وآله)، وطلب منه مبايعته، فتريّث النبي(صلى الله عليه وآله)رجاء أن يقوم أحد المسلمين فيقتله، فلما لم يقم أحد، وألح عثمان على مبايعته حتى كرر ذلك ثلاثاً، عند ذلك بايعه النبي(صلى الله عليه وآله) كارهاً، ووبخ المسلمين لعدم مبادرتهم الى قتله، كما مر في الرواية.

ولا شكّ ان هذا الرجل لم يكن محط احترام المسلمين بعد ذلك، فقد ارتد وافترى على الله الكذب، وكان يقول للمشركين - بعد ردته -: دينكم خير من دين محمد.

ولولا تدخل عثمان -تجاوزاً لأمر النبي- للقي حتفه، ولاشك أن تردد النبي(صلى الله عليه وآله) في مبايعته، ومن ثم وصفه بذلك النعت المشين، ليدل على مدى احتقار النبي له، وعدم تصديقه في عرض إسلامه وبيعته التي جاءت خوفاً من القتل.

لهذه الأسباب كانت تولية عثمان لهذا الرجل على مصر، وعدم محاسبته على ما ارتكبه في حق أهل مصر، من الأسباب التي عجلت في إثارة النقمة على عثمان.

هذا، إذا أضفنا الى كل ذلك تصرفات بعض الولاة الآخرين -وأهمهم جميعاً معاوية بن أبي سفيان- في ولاية الشام واحتجازه الأموال واضطهاده الصحابة المنكرين عليه، لوجدناها أهم العوامل في سرعة اشتعال الفتنة.

ولعل المنطق كان يفترض أن نقدم الكلام عن معاوية على غيره من الولاة، ولكنني قررت تأجيل الكلام عن معاوية الى محله، حيث سنقوم بتفصيل أحواله اعتماداً على الروايات الموثوقة التي جاءت عن الأئمة الأعلام.

يتبين مما سبق أن موقف عثمان من تولية الولاة، كان من الأسباب الرئيسية التي أدت الى توتر الوضع بشكل خطير جداً، وبالتالي تهيئة الأجواء المناسبة لنشوء الفتنة التي أطاحت رياحها العاتية بالخليفة فيما بعد، خصوصاً موقف أحد الولاة، وهو سعيد بن العاص من بعض أهل الكوفة، وتسيير الخليفة على أثر ذلك بعض أهل الكوفة والبصرة الى الشام، حتى انتهى الأمر بخروج جحافل المتمردين من الأمصار الثلاثة (الكوفة والبصرة ومصر) وتحركها الى عاصمة المسلمين وما جرى بعد ذلك من

(١٨٩) البداية والنهاية ٤ : ٣٤٠ ، أنساب الاشراف ١ : ٤٥٤ ، الكامل في التاريخ ١ : ٦١٦ ، دلائل النبوة للبيهقي ٥ : ٥٩ ، ترجمته من كتب تراجم الصحابة تفسير القرطبي ٧ : ٤٠ ، تفسير البيضاوي ١ : ٣٩١ ، الكشاف ١ : ٤٦١ ، تفسير الرازي ٤ : ٩٦ ، تفسير الخازن ٢ : ٣٧ ، تفسير النسفي هامش الخازن ٢ : ٣٧ ، فتح القدير للشوكاني ٢ : ١٣٣ ، جامع البيان مجلد ٥ ج٧:٢٧٤

أحداث تناولتها أقلام المؤلفين قديماً وحديثاً، مما يدعونا الى تخصيص فصول مهمة لاستعراض تلك الأحداث الخطيرة التي أدت الى النتائج المعروفة، والتي كانت في الحقيقة هي السبب المباشر التي أدت الى الأحداث المأساوية التي تلاحقت فيما بعد.

ومواقف المؤلفين من هذه الأحداث هو الذي يهمنا بالدرجة الاولى، بسبب حملة التزييف التي تعرضت لها تلك الأحداث، وهذا ما سوف نحاول كشف النقاب عنه بهدف إماطة اللثام عن حقيقة ما جرى، وكشف الدوافع الخفية لاولئك المؤلفين، بعد مقارنة الروايات وتحليلها ونقدها بعد ذكر بعض الحوادث الأخرى التي كانت عاملا مساعداً لتصاعد الأحداث والله المستعان.

حوادث أخرى

الى جانب موقف عثمان من بعض الصحابة وإيذائه لهم بالضرب أو النفي، وإضافة الى توليته لبعض أقاربه من غير ذوي الفضل والسابقة، وما أثار ذلك من موجات من السخط عليه، فإنّ هناك اُموراً اُخرى فعلها عثمان، أثارت حفيظة المسلمين، رغم أن هذه الأمور تعد من أضعف الأسباب التي أدت الى التمرد عليه في اعتقادي، إلاّ أنها كانت وقوداً اضافياً زاد من حدة اشتعال الغضب الذي بدأت علاماته تتضح أكثر فأكثر حتى انتهى الأمربالثورة على عثمان. فمن تلك الأمور:

ردّ الحَكم

الحكم بن أبي العاص بن اُمية، عثمان بن عفان بن أبي العاص بن اُمية.

كان جاراً لرسول الله(صلى الله عليه وآله) في الجاهلية، وكان أشد جيرانه أذىً له في الإسلام، وكان قدومه الى المدينة بعد فتح مكة، وكان مغموصاً عليه في دينه، فكان يمر خلف رسول الله(صلى الله عليه وآله) فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه، وإذا صلى قام خلفه فأشار بأصابعه; فبقي على تخليجه، وأصابته ضلة[١٩٠]، واطلع على رسول الله(صلى الله عليه وآله)ذات يوم وهو في بعض حجر نسائه، فعرفه وخرج إليه بعنزة وقال: «من عذيري من هذا الوزغة اللعين».

ثم قال : «لا يساكنني ولا ولده» فغرّ بهم جميعاً الى الطائف.

(١٩٠) قيل : لدعاء النبي(ص) عليه. المؤلف .

فلما قبض رسول الله(صلى الله عليه وآله)، كلّم عثمان أبا بكر فيهم وسأله ردّهم، فأبى ذلك وقال: ما كنت لآوي طرداء رسول الله(صلى الله عليه وآله).

ثم لما استخلف عمر، كلّمه فيهم، فقال مثل قول أبي بكر.

فلما استخلف عثمان أدخلهم المدينة وقال: قد كنت كلمت رسول الله فيهم وسألته ردهم فوعدني أن يأذن لهم، فقُبض قبل ذلك.

فأنكر المسلمون عليه إدخالهم إياهم المدينة..

ومات الحكم بن أبي العاص بالمدينة في خلافة عثمان، فصلى عليه وضرب على قبره فسطاطاً»[١٩١].

وقد أثار ردّ الحكم الى المدينة حفيظة بعض الصحابة الذين استنكروا ذلك، حتى روي عن سعيد بن المسيب أنه قال: خطب عثمان فأمر بذبح الحمام وقال: إن الحمام قد كثر في بيوتكم حتى كثر الرمي ونالنا بعضه. فقال الناس: يأمر بذبح الحمام وقد آوى طرداء رسول الله(صلى الله عليه وآله)![١٩٢].

ولم يكتف عثمان برد الحكم، بل أغدق عليه أموالا طائلة من بيت مال المسلمين، فقد روي عن ابن عباس أنه قال:

كان مما أنكروا على عثمان أنه ولى الحكم بن أبي العاص صدقات قضاعة، فبلغت ثلاثمائة ألف درهم، فوهبها له حين أتاه بها[١٩٣].

لكن بعض المؤلفين يحاولون أن يجدوا لعثمان مخرجاً، إما بنفي قصة رد الحكم من أساسها، أو بالبحث عن تأويلات للحادثة، فقد قال ابن العربي:

وأما ردّ الحكم، فلم يصح! وقال علماؤنا في جوابه: قد كان أذن له فيه رسول الله(صلى الله عليه وآله). وقال (أي عثمان) لأبي بكر وعمر، فقالا له: إن كان معك شهيد رددناه. فلما ولي، قضى بعلمه في رده.

وما كان عثمان ليصل مهجور رسول الله(صلى الله عليه وآله) ولو كان أبوه، ولا لينقض حكمه[١٩٤].

(١٩١) أنساب الاشراف ٦ : ١٣٧ ، أسد الغابة ١ : ٥١٤ وانظر المعارف لابن قتيبة : ١٩٤ ، العقد الفريد ٤ : ١٠٣ ، تاريخ الاسلام حوادث سنة ٣١ ص ٣٦٥ ، مرآة الجنان لليافعي ١ : ٨٥ ، محاضرات الراغب ج ٢ ج ٤ / ٤٧٦ ، السيرة الحلبية ٢ : ٧٦ ، وفي رواية أن كلا من أبي بكر وعمر قالا له لا أحل عقدة عقدها رسول الله(ص) ، الرياض النضرة ٢ : ١٤٣ ، أسد الغابة ٢ : ٥٣ رقم ١٢١٧ ، السيرة الحلبية ١ : ٣٣٧ ، الاصابة ١ : ٣٤٢ رقم ١٧٨١

(١٩٢) أنساب الأشراف ٦ : ١٣٧ ، والمصادر السابقة .

(١٩٣) المصدر السابق .

(١٩٤) العواصم من القواصم : ٨٩

إن عدم اقتناع الخليفتين أبي بكر وعمر بحجة عثمان ورفضهما ردّ الحكم بدون شاهد أو شهود يقرّون بصحة دعواه، يعني أن عثمان بعد توليه الحكم لم يكن يحق له أن يقضي في هذا الأمر، لذا فقد عرض نفسه للنقد من قبل المسلمين، لأن أحداً لم يشهد له بصحة دعواه، فكان عمله هذا مجازفة في غير محلها.

وسيرة عثمان في مخالفة أوامر النبي(صلى الله عليه وآله) تلقي ظلالا من الشكوك حول صحة مدّعاه، فهو قد آوى ابن أبي سرح، في حين كان الواجب يحتم عليه -تبعاً لأمر النبي- أن يبادر الى قتله حين لجأ إليه، لا أن يؤويه ويطلب له الأمان. ولو كانت هذه هي السابقة الوحيدة لعثمان في هذا الشأن، فلربما كان يمكن التماس بعض العذر له، ولكنها كانت تكراراً لحادثة مشابهة وقعت قبل عدة سنوات، بعد معركة اُحد مباشرة، حينما آوى معاوية بن المغيرة الذي قيل إنه هو الذي جدع أنف حمزة ومثّل به، ثم انهزم يوم اُحد فمضى على وجهه، فبات قريباً من المدينة، فلما أصبح دخل المدينة، فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبي العاص -وهو ابن عمه لحاً- فضرب بابه، فقالت اُم كلثوم زوجته -وهي ابنة رسول الله-(صلى الله عليه وآله) : ليس هو هنا. فقال: ابعثي إليه، فإن له عندي ثمن بعير ابتعته منه عام أول، وقد جئته به، فإن لم يجيء ذهبتُ.

فأرسلت إليه وهو عند رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فلما جاء قال لمعاوية:

أهلكتني وأهلكت نفسك، ما جاء بك؟!

قال : يابن عم، لم يكن لي أحد أقرب إليّ ولا أمسّ رحماً بي منك، فجئتك لتجيرني، فأدخله عثمان داره وصيّره في ناحية منها، ثم خرج الى النبي(صلى الله عليه وآله)ليأخذ له منه أماناً، فسمع رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول:

«إن معاوية في المدينة، وقد أصبح بها، فاطلبوه».

فقال بعضهم : ما كان ليعدو منزل عثمان، فاطلبوه به.

فدخلوا منزل عثمان، فأشارت اُم كلثوم الى الموضع الذي صيّره فيه، فاستخرجوه من تحت حمارة لهم.

فانطلقوا به الى النبي(صلى الله عليه وآله)، فقال عثمان حين رآه: والذي بعثك بالحق، ما جئت إلاّ لأطلب له الأمان، فهبه لي.

فوهبه له، وأجّله ثلاثاً، وأقسم لئن وجده بعدها يمشي في أرض المدينة وما حولها ليقتلنه.

وخرج عثمان، فجهزه واشترى له بعيراً، ثم قال: ارتحل.

وسار رسول الله(صلى الله عليه وآله) الى حمراء الأسد، وأقام معاوية الى اليوم الثالث ليعرف أخبار النبي(صلى الله عليه وآله)، ويأتي بها قريشاً.

فلما كان في اليوم الرابع، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): **«إن معاوية أصبح قريباً لم ينفذ فاطلبوه»**.

فأصابوه وقد أخطأ الطريق، فأدركوه.

وكان اللذان أسرعا في طلبه: زيد بن حارثة وعمار بن ياسر، فوجداه بالجماء، فضربه زيد بالسيف، وقال عمار: إن لي فيه حقاً، فرمياه بسهم فقتلاه. ثم انصرفا الى المدينة بخبره...[(١٩٥)].

ونعود الى أقوال المؤلفين في قضية ردّ الحكم، فابن العربي -كعادته- يقول الشيء ثم ينقضه بنفسه، فنجده أولا يدعي أن قضية رد الحكم لم تصح، ثم يعود فيقول بأن العلماء قد أجابوا عن هذه المسألة، أي ايجاد المبررات التي تصحح موقف عثمان.

أما ابن تيمية فيقول : لم تكن الطلقاء تسكن بالمدينة، فإن كان طرده فإنما طرده من مكة لا من المدينة، ولو طرده من المدينة لكان يرسله الى مكة.

وقد طعن كثير من أهل العلم في نفيه وقالوا ذهب باختياره!

وقصة نفي الحكم ليست في الصحاح!

وإذا كان النبي(صلى الله عليه وآله) قد عزّر رجلا بالنفي، لم يلزم أن يبقى منفياً طول الزمان، فإن هذا لا يعرف في شيء من الذنوب، ولم تأت الشريعة بذنب يبقي صاحبه منفياً دائماً...[(١٩٦)].

أما أن الطلقاء لم تكن تسكن المدينة، فنحن نعلم أن أبا سفيان وابنه معاوية كانا من الطلقاء، وقد قيل إن معاوية كان يكتب بين يدي النبي(صلى الله عليه وآله)، بل قيل إنه قد كتب له الوحي، وأن النبي(صلى الله عليه وآله) حين قبض كان أبو سفيان عامله على الصدقات، وقد عاد الى المدينة وقد بويع لأبي بكر، فنخلص من هذا أنه إما أن تكون هذه الأخبار غير صحيحة بتاتاً، وإما أن ابن تيمية لا يعلم هذا الأمر.

أما أن الحكم قد نفى نفسه باختياره، فهذا مثل خبر نفي أبي ذر نفسه باختياره ولا أفهم، ولا أظن أحداً يفهم كيف يختار الانسان النفي بارادته!

(١٩٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥ : ٤٦ ، مغازي الواقدي ١ : ٣٣٣ ، سيرة ابن هشام ٣ : ١١١ ، السيرة الحلبية ٢ : ٢٦١ ، الكامل في التاريخ ٢ : ١٦٥ ، البداية والنهاية ٤ : ٥٩ وغيرها .

(١٩٦) منهاج السنّة النبوية ٣ : ١٩٦

وأما أن قصة رد الحكم ليست في الصحاح، فقد قلنا إن الصحاح لم تشتمل على كثير من الأمور والحوادث، لكن العجب من ابن تيمية انه ينفي قصة الحكم لعدم اشتمال الصحاح عليها، ولكنه يثبت قصة عبدالله بن سبأ التي لم تشتمل عليها الصحاح ولا المسانيد ولا السنن ولا كتب التاريخ ولا غيرها، عدا تاريخ الطبري برواية سيف بن عمر الوضّاع المتهم بالزندقة، فأي تناقض هذا!

أما أن نفي النبي(صلى الله عليه وآله) للحكم لا يستلزم بقاءه منفياً أبد الدهر، فالعجب من الشيخين أبي بكر وعمر كيف لم يفطنا الى ما فطن اليه ابن تيمية حين رفضا ردّ الحكم الى المدينة!

الحمـى

ومن الأمور الأخرى التي أثارت الرأي العام على عثمان هو أمر الحمى.

وهذا الأمر أيضاً قد اختلفت فيه وجهات النظر، فأما ابن العربي فقال: أما أمر الحمى، فكان قديماً، فيقال: إن عثمان زاد فيه لما زادت الرعية.

وإذا جاز أصله للحاجة إليه، جاءت الزيادة لزيادة الحاجة[١٩٧].

أما محب الدين الخطيب، فيعلق على الأمر بذكر رواية عن ابن عمر:

أن النبي(صلى الله عليه وآله) ضمن النقيع للخيل..

قال حماد بن خالد راوي هذا الحديث عن عبدالله بن عمر العمري: يا أبا عبدالرحمان، خيله؟

قال : خيل المسلمين (أي المرصودة للجهاد، أو ما يملكه بيت المال).

والنقيع هذا في المدينة على عشرين فرسخاً منها، ومساحته ميل في ثمانية أميال، كما في موطأ مالك برواية ابن وهب.

ومعلوم أن الحال استمر في خلافة أبي بكر على ما كان عليه في زمن النبي(صلى الله عليه وآله)، لأن أبا بكر لم يخرج عن شيء كان عليه الحال في زمن النبي(صلى الله عليه وآله)، لا سيّما وأن حاجة الجهاد الى الخيل والابل زادت عن قبل.

وفي زمن عمر اتسع الحمى فشمل (سرف) و (الربذة)، وكان لعمر عامل على الحمى، هو مولىً له يدعى هنياً.

وفي كتاب الجهاد من صحيح البخاري من حديث زيد بن أسلم عن أبيه نص وصيته أمير المؤمنين عمر لعامله هذا على الحمى، بأن يمنع الأثرياء كعبدالرحمان

(١٩٧) العواصم من القواصم : ٨٤

بن عوف وعثمان بن عفان، وأن يتسامح مع رب الغنيمة ورب الصريمة لئلا تهلك ماشيتهما.

وكما اتسع عمر في الحمى عما كان عليه في زمن النبي(صلى الله عليه وآله) وأبي بكر لزيادة سوائم بيت المال في زمنه، اتسع عثمان بعد ذلك لاتساع الدولة وازدياد الفتوح، فالذي أجازه النبي(صلى الله عليه وآله) لسوائم بيت المال، ومضى على مثله أبو بكر وعمر، يجوز مثله لبيت المال في زمن عثمان، ويكون الاعتراض عليه اعتراضاً على أمر داخل في التشريع الاسلامي.

ولما أجاب عثمان على مسألة الحمى، عندما دافع عن نفسه على ملأ من الصحابة، أعلن أن الذين يلون له الحمى اقتصروا فيه على صدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين احد تنازع، وأنهم ما منعوا ولا نحوا منها أحداً، وذكر عن نفسه أنه قبل أن يلي الخلافة كان أكثر العرب بعيراً وشاةً، ثم أمسى وليس له غير بعيرين لحجه، وسأل من يوف ذلك من الصحابة: أكذلك؟ قالوا: اللهم نعم[١٩٨].

إن المتبادر الى الذهن من أقوال ابن العربي والخطيب ومن تابعهما، أن عثمان بن عفان قد سار بنفس سيرة النبي(صلى الله عليه وآله) والشيخين أبي بكر وعمر في مسألة الحمى، فإذا كان الأمر كذلك، فما سبب اعتراض الناس إذاً، أيعقل أن يعترضوا على تخصيص الحمى لرعي خيل الجهاد؟ ولماذا لم يعترضوا على عمر بن الخطاب عندما توسع في الحمى!

إن الرواية التي استشهد بها الخطيب، والتي تتضمن وصية عمر بن الخطاب بمنع سوائم كل من عبدالرحمان بن عوف وعثمان بن عفان من الحمى، تؤكد صدق حدس عمر بن الخطاب في عثمان وقلقه من أن يستغل عثمان هذا الحمى لماشيته وماشية أقربائه.

وأورد ابن أبي الحديد المعتزلي جملة من الأمور التي نقمها الناس على عثمان وكان منها: أنه «حمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم الاّ عن بني أمية»[١٩٩].

والحقيقة، فإن المعروف من سيرة عثمان تؤكد صحة هذه المقولة.

(١٩٨) العواصم من القواصم : ٨٥ هامش .
(١٩٩) شرح نهج البلاغة ١ : ١٩٩ ، ٣ : ٣٩ ، السيرة الحلبية ٢ : ٧٨

أما الرواية التي يستشهد بها الخطيب في احتجاج عثمان على ملأ من الصحابة حول موقفه من الحمى، وأنه لم يبق له من أمواله غير بعيرين لحجّه، فهي رواية سيف بن عمر في الطبري، والشواهد كلها تكذبها، فقد أخرج جمع من المؤرخين -واللفظ لابن سعد- عن عبدالله بن عتبة قال:

كان لعثمان بن عفان عند خازنه يوم قُتل ثلاثون ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وخمسون ومائة الف دينار انتهبت وذهبت، وترك ألف بعير بالربذة، وترك صدقات كان تصدق بها ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار(٢٠٠).

ومعلوم أن الربذة كانت من مواطن الحمى، وترك عثمان ألف بعير بها يدل على أنه كان يرعى ماشيته في حمى المسلمين.

حادثة الهرمزان

كانت حادثة مقتل الهرمزان أولى المشاكل التي اعترضت عهد عثمان وفي أول يوم من خلافته، ولعل هذه الحادثة لم تكن من الأمور المهمة جداً، أو من الأسباب الرئيسية التي أدت الى وقوع الفتنة، لأن الحادثة -كما قلنا- وقعت في بداية عهد عثمان، قبل أن تحدث التغيرات السياسية التي وقعت فيما بعد، الاّ أن هذه الحادثة قد كشفت عن جوانب الخلل الكبير في سياسة عثمان وإدارته للأمور.

وهذه الحادثة قد تعرضت هي الأخرى الى عملية تزييف وتشويه للحقائق لأغراض خاصة، لذا ارتأيت ايرادها ومناقشتها وبيان وجه الخلل في الأعذار التي افتعلت لعثمان في كيفية معالجته هذه القضية، فالحادثة وإن كانت ثانوية إلاّ أنها تتعلق بحد من حدود الله، فضلا عن مساسها بحياة المجتمع الاسلامي.

وخلاصة القصة -كما ذكرها المؤرخون - : أن عبيد الله بن عمر قتل جُفينة والهرمزان وبنت أبي لؤلؤة، وجعل عبيدالله يقول: والله لأقتلن رجالا ممن شرك في دم أبي -يعرّض بالمهاجرين والأنصار- فقام إليه سعد فنزع السيف من يده وجبذه بشعره حتى أضجعه وحبسه، فقال عثمان لجماعة من المهاجرين:

أشيروا عليَّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق.

فقال علي : أرى أن تقتله.

فقال بعضهم : قُتل أبوه بالأمس ويُقتل هو اليوم؟

(٢٠٠) الطبقات الكبرى : ترجمة عثمان بن عفان .

فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان، وإنما تم هذا ولا سلطان لك.

قال عثمان : أنا وليُّهم وقد جعلتها دية احتملتها من مالي[٢٠١].

وقد تباينت وجهات النظر حول الحادثة ونتائجها من تصرف عثمان في الأمر.

فأما القاضي ابن العربي، فقد حاول -كعادته- نسف القضية في البداية، ثم عاد فحاول أن يجد الأعذار لعثمان، اعتماداً على رواية في تاريخ الطبري، وقد تناقلها المؤرخون من بعده، فقال:

وأما امتناعه (عثمان) عن قتل عبيدالله بن عمر بن الخطاب بالهرمزان، فإن ذلك باطل.

وإن كان لم يفعل والصحابة متوفرون والأمر في أوله.

وقد قيل : إن الهرمزان سعى في قتل عمر، وحمل الخنجر وظهر تحت ثيابه.

وكان قتل عبيدالله له وعثمان لم يلِ بعد.

وأيضاً فإنّ أحداً لم يقم بطلبه.

فكيف يصح مع هذه الاحتمالات كلها أن ينظر في أمر لم يصح[٢٠٢].

أما موقف الصحابة، فقد أعلن عدد منهم عن رأيه، فأشار بعضهم على عثمان بقتل عبيدالله، فقد ذكر اليعقوبي أن الناس قد أكثروا في دم الهرمزان وإمساك عثمان عبيدالله بن عمر، فصعد عثمان المنبر فخطب الناس ثم قال: ألا إني وليّ دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمر وتركته لدم عمر.

فقام المقداد بن عمرو فقال : إن الهرمزان مولى لله ولرسوله، وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله، قال: فننظر وتنظرون.

ثم أخرج عثمان عبيدالله بن عمر من المدينة الى الكوفة، وأنزله داراً، فنسب الموضع إليه (كوفية ابن عمر)، فقال بعضهم:

أبا عمرو وعبيدالله رهن *** فلا تشكك بقتل الهرمزان[٢٠٣]

أما البلاذري فذكر أن عثمان صعد المنبر فقال:

أيها الناس، إنا لم نكن خطباء، وإن نعش تأتكم الخطبة على وجهها إن شاء الله. وقد كان من قضاء الله أن عبيدالله بن عمر أصاب الهرمزان، وكان الهرمزان من المسلمين ولا وارث له الاّ المسلمون عامة، وأنا إمامكم وقد عفوت، أفتعفون؟ قالوا:

(٢٠١) تاريخ الاسلام للذهبي ٣ : ٣٠٦ ، تاريخ الطبري ٤ : ٢٠٤ ، الكامل لابن الأثير ٣ : ٧٥ .
(٢٠٢) العواصم من القواصم : ١١٦
(٢٠٣) تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٦٣

نعم. فقال علي: أقِد الفاسق فإنه أتى عظيماً، قتل مسلماً بلا ذنب، وقال لعبيدالله : يا فاسق، لئن ظفرت بك يوماً لأقتلنك بالهرمزان(٢٠٤).

وعند ابن أبي الحديد أنه لما بلغ خبر عفو عثمان عن عبيدالله، علي بن أبي طالب، تضاحك وقال: سبحان الله، لقد بدأ بها عثمان، أيعفو عن حق امرئ ليس بوليه! تالله إن هذا لهو العجب.

قالوا : فكان ذلك أول ما بدأ من عثمان مما نُقم عليه(٢٠٥).

أما عمرو بن العاص فقد جعل عثمان في حل من أمر عبيدالله لأنه لم يكن قد ولي الخلافة بعد، وهو الرأي الذي مال اليه القاضي ابن العربي.

ولا أدري كيف يكون ابن العربي قاضياً، وأولى مهمات القضاء رد المظالم وإقامة الحدود على الجناة، ولكنا نجده هنا يتسامح مع عبيدالله بن عمر تجاوباً مع رأي ابن العاص، وتبريراً لموقف عثمان.

إن الأخذ برأي عمرو بن العاص يعني أن كل وال ليس مطالباً باقامة الحدود إذا وقعت الجرائم قبل توليه منصبه. فلو تأخر تنصيب الخلافة -تبعاً لهذا الرأي- بضعة أيام، واستغل بعض أصحاب النفوس المريضة الفرصة وارتكبوا جرائم قتل وانتهاك حرمات المسلمين، فالخليفة ينبغي أن لا يكون مسؤولا عن رد المظالم ومعاقبة الجناة وإقامة حدود الله لأنها وقعت قبل توليه الخلافة، فتذهب الدماء والحقوق هدراً.

إننا ونحن ننقل رأي عمرو بن العاص هذا، نذكر المتحمسين له، بأن قتل عثمان بن عفان قد وقع قبل تولي علي بن أبي طالب الخلافة، فلماذا لم يعتذر عمرو بن العاص بهذا العذر لعلي ويقنع معاوية بذلك، بدلا من أن ينظم الى فئته ويشن الحرب على علي ويريق دماء عشرات الألوف من المسلمين بدم عثمان.

ومثل هذا يقال أيضاً لأم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير، وهم الذين خرجوا يطالبون علياً بإقامة الحدّ على قتلة عثمان، ولم يعذروه بأن الحادثة وقعت قبل توليه مهام الخلافة!

بقي أن نناقش الرواية التي أورد ابن العربي طرفاً منها حول تآمر الهرمزان على قتل الخليفة عمر، وقضية الخنجر المزعوم الذي وجد تحت ثيابه... الخ، ومعرفة مصدرها، وكيف يتشبث البعض بها لتزييف الحقيقة، وهي الرواية التي أوقع واضعها نفسه في تناقضات مضحكة، وكذلك الذين جاءوا بعده وأخذوا بها.

(٢٠٤) أنساب الأشراف ٦ : ١٣٠
(٢٠٥) شرح نهج البلاغة ٩ : ٥٥ .

نقل محب الدين الخطيب رواية عن سعيد بن المسيب : أن عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق قال غداة طعن عمر : مررت على أبي لؤلؤة عشي أمس ومعه جفينة (وكان نصرانياً من أهل الحيرة ظئراً لسعد بن أبي وقاص)، والهرمزان وهم نُجّى، فلمّا رهقتهم ثاروا، وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه... فانظروا بأي شيء قتل؟ وخرج في طلبه رجل من بني تميم، فرجع اليهم التميمي، وكان قد ألظّ بأبي لؤلؤة منصرفه عن عمر حتى أخذه، وجاء بالخنجر الذي وصف عبدالرحمان بن أبي بكر، فسمع بذلك عبيدالله بن عمر، فأمسك حتى مات عمر، ثم اشتمل على السيف فأتى الهرمزان فقتله(٢٠٦).

هذه الرواية التي يذكرها الخطيب، سندها في الطبري: كتب الي السري، عن شهيب، عن سيف، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب!

ولا أجد حاجة لمناقشة هذا السند الذي أصبح يعرفه القارئ، وهي محاولة فاشلة من سيف لتبرأة عبيد الله ومن خلفه عثمان، وإلقاء اللوم على الهرمزان. وإضافة لما تقدم، فقد حاول البعض نفي اسلام الهرمزان مقدمة لاهدار دمه لأنه لا يقتل مسلم بكافر، كما أخبر النبي(صلى الله عليه وآله)، فقد قال الذهبي: ويروى أن الهرمزان لما عضّه السيف قال: لا إله الاّ الله(٢٠٧).

ولكن الذهبي كان قد قال في ترجمة الهرمزان -قبل ذلك بقليل-:

والهرمزان هو ملك تُستر، وقد تقدم إسلامه، قتله عبيدالله بن عمر لما اُصيب عمر، فجاء عمار بن ياسر فدخل على عمر فقال: حدث اليوم حدث في الاسلام.

قال : وما ذاك؟ قال: قتل عبيدالله الهرمزان. قال: (**إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجعون**)، عليَّ به، وسجنه(٢٠٨).

فهذا يثبت اسلام الهرمزان، خصوصاً إذا تذكرنا قول المقداد وعلي بن أبي طالب وردهما على عثمان فيما أوردنا عن البلاذري واليعقوبي.

كما وتثبت هذه الرواية عدم صحة إدعاء سيف بن عمر أن عبيدالله تريث الى أن توفي عمر ثم باشر قتل الهرمزان.

ولم يكتف الشيخ الخطيب بكل ما سبق، بل استشهد برواية غريبة عجيبة -كما أوردها الطبري عن سيف- وتخالف كل ما أخرج المؤرخون من روايات، قال سيف

(٢٠٦) هامش ١٣٩ من كتاب العواصم من القواصم .
(٢٠٧) تاريخ الاسلام ٣ : ٣٠٧
(٢٠٨) تاريخ الإسلام ٣ : ٣٠٦

فيها نقلا عن أحد شيوخه: سمعت القماذبان يحدّث عن قتل أبيه ... قال: فلما ولي عثمان دعاني فأمكنني منه (أي من عبيدالله بن عمر بن الخطاب)[٢٠٩].

ثم قال : يا بني، هذا قاتل أبيك، وأنت أولى به منا، فاذهب فاقتله.

فخرجت به وما في الأرض أحد الاّ معي، الاّ أنهم يطلبون إلي فيه; فقلت لهم: إليَّ قتله؟ قالوا: نعم. وسبّوا عبيدالله، فقلت: أفلكم أن تمنعوه؟ قالوا: لا، وسبّوه. فتركته لله ولهم، فاحتملوني، فوالله ما بلغت المنزل إلاّ على رؤوس الرجال وأكفّهم.

قال الخطيب : هذا كلام ابن الهرمزان، وان كل منصف يعتقد (ولعل ابن الهرمزان كان يعتقد) أن دم أمير المؤمنين عمر في عنق الهرمزان، وأن أبا لؤلؤة لم يكن إلاّ آلة في يد هذا الفارسي، وأن موقف عثمان واخوانه أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) من هذا الحادث لا نظير له في تاريخ العدالة الانسانية[٢١٠].

لا شك أن ذلك الموقف بالغ العظمة لو صدقت الرواية التي جاءت عن شيخ الوضاعين سيف، فضلا عن أن الخطيب نسي أنه ينقض أقوال استاذه ابن العربي الذي كان من جملة تبريراته لعمل عثمان، أن الهرمزان لم يكن له ولي يطلب بدمه ـ وكما أكد عثمان نفسه على المنبر ـ فمن أين جاء هذا القماذبان الذي لم تذكره رواية أُخرى، مما يثبت أن القماذبان ليس له وجود إلاّ في خيال سيف الواسع.

إن هذه الرواية التي يوردها سيف بن عمر، تؤكد أن سيف نفسه كان مقتنعاً بخطأ موقف عثمان، فحاول أن يصححه بوضع هذه الرواية، ولقد ذكر ابن الاثير هذه الرواية، وردّها، فقال بعد ايرادها:

والأول أصح، في اطلاق عبيدالله، لأن علياً لما ولي الخلافة أراد قتله، فهرب الى معاوية بالشام، ولو كان اطلاقه بأمر ولي الدم، لم يتعرض له علي[٢١١].

بقي لنا أن نناقش الحساب اولئك الذين أهدروا دم الهرمزان (لأنه ليس له ولي) ،أو كما قال ابن العربي: (أن أحداً لم يقم بطلب دمه)، والذي يعني أن كل ضعيف في المجتمع الإسلامي، ليس له ولي، فلا ينبغي النظر في مظلمته إذا تعرض للقتل، طالما أن ليس هناك من يطلب بدمه.

ولا أدري كيف يسمح القاضي ابن العربي لنفسه أن يصدر مثل هذا الحكم الذي يضع في أيدي أعداء الإسلام ومنتقديه سلاحاً ماضياً للطعن في قوانينه وشرائعه، والتي من أُولى مهامها ردّ المظالم، وهو الأمر الذي يشكل مصدر فخر للمسلمين، مع

(٢٠٩) هذا التعليق من الخطيب .

(٢١٠) العواصم من القواصم: الهامش ١٣٧

(٢١١) الكامل في التاريخ ٣ : ٧٦

العلم أن القانون الذي يطلب ابن العربي تطبيقه، تأنف منه حتى القوانين الوضعية التي لا يرتضيها الاسلام، فكيف يرضى بهذا القانون!

فعثمان بتعطيله إقامة الحد على عبيدالله، قد فتح الباب للمجترئين على الشريعة، ولم يكتف بذلك، بل قام بتهريب عبيدالله الى الكوفة وأنزله داراً فيها، حتى نسب الموضع إليه -كما ذكر اليعقوبي- .

«فعبيدالله لم يعاقب على شيء مما أتى، وإنما احتمل العقوبة عنه عثمان حين أدى الديّة من ماله هو، ولو قد عفا فحقن دم عبيدالله، ثم فرض عليه وعلى اُسرته ديّة القتلى، لأقام الحدّ في غير ريبة، ولما استطاع أحد أن ينكر من قضائه شيئاً.

ولو أنه إذ أدى الديّة من ماله رفقاً بآل الخطاب، أمسك عبيدالله في السجن تعزيراً له وتأديباً حتى يتوب الى الله من إثمه ويندم على إراقة الدم في غير حقه، وعلى الاستخفاف بالسلطان استجابة للحفيظة الجاهلية، لو قد فعل ذلك لكان له مخرج من هذا الحرج، ولأعلم فتيان قريش من أمثال عبيدالله أن دماء المسلمين والذميين أعظم حرمة عندالله وعند السلطان من أن تراق بغير الحق، ثم لا يعاقب من اراقها عقاباً يسيراً أو خطيراً(٢١٢).

وهذا الذي طالب الدكتور طه حسين، هو في الحقيقة أضعف الإيمان، ولكن عثمان لم يعمل به، على الأقل تثبيتاً لهيبة الخلافة في أول يوم من توليه ناصيتها، وهكذا ذهب دم الهرمزان -كما قال سعيد بن المسيب- هدراً(٢١٣).

إتمام الصلاة

من الأمور الثابتة، أن عثمان بن عفان كان أول من أتمّ الصلاة في السفر، خلافاً لما كان عليه في زمن رسول الله(صلى الله عليه وآله) وزمن الخليفتين أبي بكر وعمر.

فعن ابن عباس : إن أول ما تكلم الناس في عثمان ظاهراً، أنه صلّى بالناس بمنى في ولايته ركعتين، حتى إذا كانت السنة السادسة أتمّها. فعاب ذلك غير واحد من أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله) وتكلم في ذلك من يريد أن يكثر عليه، حتى جاءه عليٌّ فيمن جاءه فقال: والله ما حدث أمر ولا قدم عهد، ولقد عهدت نبيك(صلى الله عليه وآله) يصلي ركعتين، ثم أبا بكر، ثم عمر، وأنت صدراً من ولايتك، فما أدري ما ترجع إليه!

(٢١٢) الفتنة الكبرى : ٢٦٣ ضمن المجموعة .
(٢١٣) الاصابة ٣ : ٦١٩ ، طبقات ابن سعد ٥ : ١٠٨

فقال : رأي رأيته[٢١٤].

ولقد أورث عثمان الفقهاء مشكلة، وهم يحاولون أن يخرّجوا عمله الذي هو مخالفة صريحة للسنة النبوية المتواترة، ولا يمكن الادعاء أن عثمان قد اطّلع على ما لم يطّلع عليه غيره من سنة النبي(صلى الله عليه وآله)، لأن صلاة النبي في الموسم كانت مشهودة من عشرات الألوف من المسلمين، فضلا عن أن استمرار أبي بكر وعمر، بل وحتى عثمان نفسه شطراً من خلافته على قصر الصلاة يثبت ذلك.

وأمام هذه الحقيقة، لم يجد بعض العلماء من عذر لعثمان سوى دعوى الاجتهاد، ومن القائلين بذلك، أبو بكر بن العربي، إذ قال:

وأما ترك القصر، فاجتهاد، إذ سمع أن الناس افتتنوا بالقصر، وفعلوا ذلك في منازلهم، فرأى أن السنّة ربما أدت الى إسقاط الفريضة، فتركها مصلحة خوف الذريعة، مع أن جماعة من العلماء قالوا: إن المسافر مخيّر بين القصر والاتمام، واختلف في ذلك الصحابة[٢١٥].

لكن هذه الأعذار التي يسوقها ابن العربي لا تبرر عمل عثمان، وهي كلها من التأويلات التي استحدثت فيما بعد تصحيحاً لموقف عثمان، إذ ما وجه الاجتهاد أمام سنة نبوية لا تقبل شكاً ولا جدلا، وخوف عثمان من إفتتان الناس بالقصر - لو صح ذلك- لا يبرر تغيير هذه السنّة، بل كان في مقدوره أن يجمع الناس في الموسم ويلقي عليهم خطبة يبين فيها الوجه الصحيح، ويؤيده الصحابة في ذلك، وفيه الكفاية، وهذا هو في الحقيقة واجب الخليفة الذي قام مقام النبي(صلى الله عليه وآله).

وموقف الصحابة من عثمان يكفي لاثبات خطئه ،وإن كانت هذه المواقف قد تعرضت لبعض التزييف أيضاً، كما سوف يتبين بعد قليل.

لقد اعترض علي بن أبي طالب على عثمان الذي لم يجد تبريراً لعمله سوى أنه كما قال: رأي رأيته، وقد جابهه عبدالرحمان بن عوف أيضاً بما يدحض حججه، قائلا له:

ألم تصلِّ في هذا المكان مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) ركعتين؟ قال: بلى. قال: أفلم تصلِّ مع أبي بكر ركعتين؟ قال: بلى. قال: أفلم تصل مع عمر ركعتين؟ قال: بلى. قال: ألم تصلِّ صدراً من خلافتك ركعتين؟ قال: بلى.

(٢١٤) تاريخ الطبري : ٤ - ٢٦٧ .
(٢١٥) العواصم من القواصم : ٩٠

قال : فاسمع مني يا أبا محمد، اني أخبرت أن بعض من حج من أهل اليمن وحفاة الناس قد قالوا في عامنا الماضي: إن الصلاة للمقيم ركعتان، هذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين، وقد اتخذت بمكة أهلا، فرأيت أن أُصلي أربعاً لخوف ما أخاف على الناس. وأُخرى، قد اتخذتُ بها زوجة، ولي بالطائف مال، فربما اطلعته فأقمت فيه بعد الصدر.

فقال عبد الرحمان بن عوف : ما من هذا شي لك فيه عذر.

أما قولك : اتخذت أهلا، فزوجتك بالمدينة تخرج بها إذا شئت، وتقدم بها إذا شئت; إنما تسكن بسكناك.

وأما قولك : ولي بالطائف مال، فإن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال، وأنت لست من أهل الطائف.

وأما قولك : يرجع من حج من أهل اليمن وغيرهم فيقولون : هذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين وهو مقيم، فقد كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الإسلام فيهم قليل، ثم أبو بكر مثل ذلك، ثم عمر. فضرب الاسلام بجرانه، فصلى بهم عمر حتى مات ركعتين.

فقال عثمان : هذا رأي رأيته.

فخرج عبدالرحمان فلقي ابن مسعود، فقال: أبا محمد غير ما يعلم. قال: لا، قال: فما أصنع؟ قال: اعمل أنت بما تعلم.

فقال ابن مسعود : الخلاف شر، قد بلغني أنه صلى أربعاً فصليت بأصحابي أربعاً، فقال عبدالرحمان بن عوف: قد بلغني أنه صلى أربعاً، فصليت بأصحابي ركعتين. وأما الآن فسوف يكون الذي تقول -يعني نصلي معاً أربعاً[٢١٦].

يمكن أن نلاحظ مما سبق، أن عبدالرحمان بن عوف قد أسقط جميع الحجج التي تذرع بها عثمان لإتمام صلاته، الاّ أن الغريب في هذه الرواية، هو المقطع الأخير منها، والذي لاشك أنه قد زيد عليها، إذ ما معنى أن يصلي ابن مسعود بأصحابه، وعبدالرحمان بن عوف بأصحابه، فهل كان كل صحابي يصلي (في موسم الحج) بمجموعة من الناس كأنهم أتباع له؟

وماذا كان يفعل عثمان إذاً، وبمن كان يصلي؟!

إن من المعلوم لدى الجميع، أن المسلمين قديماً والى يومنا هذا يصلّون جميعاً خلف أمير الحج، الذي يكون إما الخليفة - من بعد النبي- أو من ينوب عنه بأمره،

(٢١٦) الطبري ٤ : ٢٦٧

حيث يأتم المسلمون جميعاً وبكافة طوائفهم ومذاهبهم - التي ظهرت فيما بعد- بأمير الحج هذا، ويصلون صلاة واحدة قصراً، كما كانت على عهد النبي(صلى الله عليه وآله)، ولم نعلم أن كل مجموعة من المسلمين تصلي بمفردها ويؤمّها شخص ما غير أمير الحج!

تصاعد الأحداث

تبين مما سبق أنه كانت هناك جملة من الأمور التي كانت أسباباً غير مباشرة في تسريع الأحداث باتجاه الثورة على عثمان، وإن كانت هذه الأمور متفاوتة من حيث أهميتها وتأثيرها في ذلك.

إلاّ أن من المؤكد أن تصرف ولاة عثمان وعماله تجاه الناس -وفيهم بعض كبار الصحابة- كانت أهم الأسباب التي أدت الى إحداث حالة من الغليان الشعبي، بعدما تبين للجميع أن عثمان بن عفان كان متقاعساً في الأخذ على أيدي هؤلاء الولاة، ومن ثم جاء حادثة تسيير أهل بعض الأمصار الى الشام لتكون القشة التي قصمت ظهر البعير.

إن عدم مباشرة عثمان الأمور بنفسه، وعدم تصديه لحلها، وإعراضه عن استشارة كبار الصحابة، بل والاعراض عن نصائحهم، واعتماده على ولاته في معاقبة المتذمرين - مع العلم ان اولئك الولاة كانوا على الأغلب، هم السبب في موجة التذمر السائدة- كانت كلها تزيد من تعقيد الوضع وتفاقم المشاكل- ففي الوقت الذي كان عثمان يبدي لولاته جانب اللين والتغاضي عن أعمالهم، وعدم الاهتمام بشكاوى الناس منهم، نجده يعالج مشكلة هؤلاء الناقمين بتسييرهم الى معاوية ليتولى تأديبهم بدلا من أن يباشر الخليفة معالجة الموقف بنفسه، بعد الاستماع الى شكاواهم مباشرة. ولقد كان تسيير أهل الأمصار الى الشام مع أفدح الأخطاء التي ارتكبها عثمان، وكان سبب المشكلة تافهاً وعلاجها بسيطاً، ولكن تصرف عثمان فيها جعلها تتضخم بشكل صارت معه خطراً حقيقياً على وحدة الصف الاسلامي.

وخلاصة هذه الحادثة - التي تعرضت هي الأخرى للتزييف ومزايدات المؤلفين- يعرضها لنا القاضي ابن العربي من وجهة نظره التي تمثل وجهة نظر تيار بأكمله، قائلا: وأمثل ما روي في قصته، أنه - بالقضاء السابق- تألّب عليه قوم لأحقاد اعتقدوها ممن طلب أمراً فلم يصل إليه، وحسد حساده أظهر داءها، وحمله على ذلك

قلة دين وضعف يقين، وإيثار العاجلة على الآجلة. وإذا نظرت اليهم، دلّك صريح ذكرهم على دناءة قدرهم وبطلان أمرهم.

كان الغافقي المصري أمير القوم، وكنانة بن بشر التجيبي، وسودان بن حمران، وعبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وحكيم بن جبلة من أهل البصرة، ومالك بن الحارث الأشتر في طائفة هؤلاء رؤوسهم، فناهيك بغيرهم.

وقد كانوا أثاروا فتنة، فأخرجهم عثمان بالاجتهاد! وصاروا في جماعتهم عند معاوية، فذكّرهم بالله وبالتقوى لفساد الحال وهتك حرمة الأمة، حتى قال له زيد بن صوحان يوماً - فيما يروى- كم تكثر علينا من الإمرة وبقريش، فما زالت العرب تأكل من قوائم سيوفها وقريش تجاهد. فقال له معاوية: لا أم لك، أذكّرك بالاسلام، وتذكرني بالجاهلية! قبّح الله من كثر على أمير المؤمنين بكم، فما أنتم ممن ينفع أو يضر، أخرجوا عني.

وأخبره ابن الكوا بأهل الفتنة في كل بلد ومؤامرتهم; فكتب الى عثمان يخبره بذلك، فأرسل إليه بإشخاصهم إليه، فأخرجهم معاوية; فمروا بعبدالرحمان بن خالد بن الوليد، فحبسهم ووبخهم وقال لهم: اذكروا لي ما كنتم تذكرون لمعاوية، وحصرهم وأمشاهم بين يديه أذلاء حتى تابوا بعد حول.

وكتب الى عثمان يخبرهم، فكتب اليه أن سرحهم اليّ، فلما مثلوا بين يديه جددوا التوبة، وحلفوا على صدقهم، وتبرأوا مما نسب إليهم، فخيّرهم حيث يسيرون، فاختار كل واحد ما أراد من البلاد: كوفة، وبصرة، ومصر.

فأخرجهم; فما استقروا في جنب ما ساروا حتى ثاروا وألبوا، حتى انضاف اليهم جمع...(٢١٧).

فسبب تسيير هؤلاء الكوفيين الى الشام -كما يعرضه ابن العربي- هو أنهم كانوا قوماً حاسدين حاقدين، وكانوا من شرار الناس الأدنياء، وانهم كانوا قد أثاروا فتنة - لم يذكرها ابن العربي- مما اضطر عثمان الى نفيهم من بلادهم الى الشام -كما كان يفعل بكل المنفيين- حيث استقبلهم معاوية ووعظهم ونصح لهم، ولكنهم صمّوا آذانهم، واستشهدوا على دعاواهم بأمور جاهلية تدل على ضعف يقينهم وقلة ورعهم، مما اضطر معاوية - الذي لم يحتمل منهم ذلك- الى إخراجهم الى الخليفة نفسه، فمروا في طريقهم على عبدالرحمان بن خالد الذي قمعهم وأذلهم حتى تابوا، فعفا عنهم عثمان

(٢١٧) العواصم من القواصم : ١٢١

وأرجعهم الى بلادهم، إلاّ أنهم بدلا من أن يرتدعوا ويرعوا، راحوا يؤلبون الناس ويسعّرون نار الفتنة!

هذه الأحداث التي يذكرها ابن العربي، ما هي الاّ ملخص لما جاء في تاريخ الطبري الذي بدأها بقوله:

اختلف أهل السير في ذلك، فأما سيف فإنه ذكر فيما كتب به الى السري عن شعيب ...الخ[٢١٨].

وقد تناقل معظم المؤرخين والمؤلفين الذين جاءوا بعد الطبري هذه الرواية عنه بدرجات متفاوتة.

وقد حاول ابن كثير التلفيق بين الروايات التي جاءت من طرق متعددة، ولكنه مال في النهاية الى تغليب رواية سيف من خلال الآراء والملاحظات التي أبداها أثناء نقله الروايات، حيث يقول ـ عند ذكره حوادث سنة ثلاث وثلاثين ـ :

وفيها سيّر أمير المؤمنين جماعة من قرّاء أهل الكوفة الى الشام. وكان سبب ذلك أنهم تكلّموا بكلام قبيح في مجلس سعيد بن عامر[٢١٩].

فكتب الى عثمان في أمرهم، فكتب إليه عثمان أن يجليهم عن بلده الى الشام، وكتب عثمان الى معاوية أمير الشام أنه قد خرج اليك قرّاء من أهل الكوفة فأنزلهم وأكرمهم وتألّفهم.

فلما قدموا أنزلهم معاوية وأكرمهم واجتمع بهم ووعظهم ونصحهم فيما يعتمدونه من اتّباع الجماعة وترك الانفراد والابتعاد، فأجابه متكلمهم والمترجم عنهم بكلام فيه بشاعة وشناعة، فاحتملهم معاوية لحلمه، وأخذ في مدح قريش ـ وكانوا قد نالوا منهم- وأخذ في المدح لرسول الله(صلى الله عليه وآله) والثناء عليه، والصلاة والتسليم، وافتخر معاوية بوالده وشرفه في قومه، وقال فيما قال: وأظن أبا سفيان لو ولد الناس كلهم لم يلد الاّ حازماً. فقال صعصعة بن صوحان: كذبت، قد ولد الناس كلهم لمن هو خير من أبي سفيان، من خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البر والفاجر، والأحمق والكيّس.

ثم بذل لهم النصح مرة اُخرى، فإذا هم يتمادون في غيهم، ويستمرون على جهالتهم وحماقتهم، فعند ذلك أخرجهم من بلده ونفاهم من الشام لئلا يشوشوا عقول

(٢١٨) تاريخ الطبري : ٤ ـ ٣١٧

(٢١٩) الصحيح سعيد بن العاص . المؤلف

الطغام، وذلك أنه كان يشتمل مطاوي كلامهم على القدح في قريش، كونهم فرّطوا وضيّعوا ما يجب عليهم من القيام به من نصرة الدين وقمع المفسدين.

وكانوا عشرة، وقيل تسعة، وهو الأشبه(٢٢٠).

وقد ناقض ابن كثير ابن العربي حين وصف اولئك المسيّرين بأنهم جماعة من قرّاء الكوفة، في الوقت الذي يوحي وصف ابن العربي لهم بما يدعو الى النفور منهم، الاّ أن ابن كثير سرعان ما يعود فيناقض نفسه، فيصفهم بأهل الجهالة.

وقد أوضح ابن كثير معنى قول ابن العربي (وقد كانوا أثاروا فتنة)، بأنهم قد تكلموا في حضرة واليهم سعيد بن العاص بكلام قبيح، دون أن يذكر ابن كثير شيئاً من ذلك الكلام حتى يمكن الحكم على مدى قبحه، الاّ أن ابن كثير قد بنى استنتاجه هذا على ما ورد عن الطبري برواية سيف الذي قال:

كان سعيد بن العاص لا يغشاه الاّ نازلة أهل الكوفة ووجوه أهل الأيام وأهل القادسية وقراء أهل البصرة والمتسمّتون. وكان هؤلاء دخلته إذا خلا، فأما إذا جلس للناس فإنه يدخل عليه كل أحد.

فجلس للناس يوماً; فدخلوا عليه، فبينا هم جلوس يتحدثون، قال خنيس ابن فلان: ما أجود طلحة بن عبيدالله.

فقال سعيد بن العاص : إن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً، والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً.

فقال عبدالرحمان بن خنيس - وهو حدث- والله لوددت أن هذا الملطاط لك -يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة-.

قالوا : فض الله فاك! والله لقد هممنا بك.

فقال خنيس : غلام فلا تجازوه.

فقالوا : يتمنى له سوادنا!

قال : ويتمنى لكم أضعافه.

قالوا : لا يتمنى لنا ولا له. قال: ما هذا بكم. قالوا: أنت والله أمرته بها، فثار اليه الأشتر وابن ذي الحبكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل بن زياد وعمير بن ضابي، فأخذوه، فذهب أبوه ليمنع منه، فضربوهما حتى غشي عليهما، وجعل سعيد يناشدهم ويأبون، حتى قضوا منهما وطراً.

(٢٢٠) البداية والنهاية ٧: ١٦٥

فسمعت بذلك بنو أسد، فجاءوا وفيهم طليحة! فأحاطوا بالقصر، وركبت القبائل فعاذوا بسعيد وقالوا: أفلتنا وخلصنا...[٢٢١].

فرواية الطبري عن سيف هذه، تظهر سعيد بن العاص - والي عثمان على الكوفة بعد الوليد بن عقبة- بمظهر الرجل الطيب الذي يختار جلساءه من القرّاء والصلحاء، لكن أولئك النفر الذين أثاروا تلك الفتنة لم يكونوا من أولئك، بل كانوا من العوام، بينما نجد ابن كثير يختار - رغم تعصبه لعثمان ومعاوية كما سوف يتبين أكثر فيما بعد- يصفهم بقراء أهل الكوفة، وهو الوصف الذي ورد عند البلاذري الذي يقول: فكان يجالس قراءها ووجوه أهلها ويسامرهم، فيجتمع عنده منهم : مالك بن الحارث الاشتر النخعي، وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديان، وحرقوص بن زهير السعدي، وجندب ابن زهير الأزدي وشريح بن أوفى، وكعب بن عبدة النهدي، وكان يقال لعبدة ابن سعد: ذو الحبكة، وكان كعب ناسكاً... وعدي بن حاتم الجواد[٢٢٢].

أما سبب خلافهم مع سعيد بن العاص، فهو كما رواه البلاذري وغيره، من أن هؤلاء الذين ذكرناهم، قد جلسوا عند سعيد كعادتهم «فإنهم لعنده وقد صلّوا العصر، إذ تذاكروا السواد والجبل، ففضلوا السواد وقالوا: هو ينبت ما ينبت الجبل، وله هذا النخل. وكان حسان بن محدوج الذهلي الذي ابتدأ الكلام في ذلك، فقال عبدالرحمان بن خنيس الاسدي صاحب شرطه: لوددت أنه للأمير وأن لكم أفضل منه، فقال له الأشتر: تمنَّ للأمير أفضل منه ولا تمنَّ له أموالنا.

فقال عبدالرحمان : ما يضرك من تمنّي حتى تزوي ما بين عينيك؟ فوالله لو شاء كان له.

فقال الأشتر : والله لو رام ذلك ما قدر عليه.

فغضب سعيد وقال : إنما السواد بستان لقريش!

فقال الأشتر : أتجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك! والله لو رامه أحد لقُرع قرعاً يتصأصأ منه.

ووثب بابن خنيس فأخذته الأيدي.

فكتب سعيد بن العاص بذلك الى عثمان وقال: إني لا أملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه الذين يدعون القراء - وهم السفهاء- شيئاً.

فكتب إليه أن سيّرهم الى الشام[٢٢٣].

(٢٢١) الطبري ٤ : ٣١٧

(٢٢٢) أنساب الأشراف ٦ : ١٥٢

(٢٢٣) أنساب الأشراف ٦ : ١٥٢ .

فسبب الخلاف هو سعيد بن العاص نفسه الذي استفزّ مشاعر القوم حينما ادعى أن أرض السواد ليست إلاّ بستاناً لقريش - يعني بذلك بني أمية- لأن سعيداً قد وجد أن معظم الولايات قد أصبحت في أيديهم، فكان لابد والحال هذه من أن تتطلع نفسه الى ماهو أبعد من ذلك.

وليس من شك في أن جميع ولاة عثمان الأمويين كانوا يحملون نفس التصور للأمر، ولقد مرّت بنا مقولة الوليد بن عقبة لسعد بن أبي وقاص حينما ولاّه عثمان الكوفة.

ومن أغرب الأكاذيب التي لفّقها سيف بن عمر في روايته هذه، أنه ذكر اسم طليحة الذي خرج على رأس بني أسد، مع العلم أن طليحة الأسدي هذا - وهو المتنبي- قد «قُتل في خلافة عمر بن الخطاب»[٢٢٤].

ويستكمل الطبري سرد حادثة تسيير أهل الكوفة كما جاءته عن سيف، قائلا: ولما انقطع رجاء أولئك النفر من ذلك، قعدوا في بيوتهم، وأقبلوا على الاذاعة حتى لامه أهل الكوفة في أمرهم، فقال: هذا أميركم وقد نهاني أن أحرك شيئاً، فمن أراد منكم أن يحرك شيئاً فليحركه.

فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم الى عثمان في إخراجهم، فكتب: إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فالحقوهم بمعاوية.

فأخرجوهم، فذلّوا وانقادوا حتى أتوه -وهم بضعة عشر- فكتبوا بذلك الى عثمان، وكتب عثمان الى معاوية: إن أهل الكوفة قد أخرجوا اليك نفراً خُلقوا للفتنة، فرعهم وقم عليهم، فإن آنست منهم رشداً فاقبل منهم، وإن أعيوك فأرددهم عليهم. فلما قدموا على معاوية، رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى مريم، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجري بالعراق، وجعل لا يزال يتغذى ويتعشى معهم، فقال لهم يوماً: إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالاسلام شرفاً وغلبتم الأمم وصوبتم مراتبهم ومواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً، وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم. إن أئمتكم لكم الى اليوم جُنّة[٢٢٥]، فلا تشذوا عن جُنّتكم، وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة، والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر، ثم تكونون شركاء لهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم.

(٢٢٤) بيعة علي : ٣٠٦
(٢٢٥) جُنّة : أي وقاية .

فقال رجل من القوم : أما ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوّفنا، وأما ما ذكرت من الجُنة فإن الجُنة إذا اخترقت خُلص إلينا.

فقال معاوية : عرفتكم الآن، علمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلا، أعظم عليك أمر الاسلام وأذكرك به، وتذكرني الجاهلية! وقد وعظتك، وتزعم لما يُجنّك أنه لا يُخترق، ولا يُنسب ما يخترق الى الجُنة... أخزى الله أقواماً اعظموا أمركم، ورفعوا الى خليفتكم. إفقهوا - ولا أظنكم تفقهون- إن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام الاّ بالله عزّوجل، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً وأمحضهم أنساباً، وأعظمهم أخطاراً، وأكملهم مروة، ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً الاّ بالله الذي لا يُستذل من أعز، ولا يوضع من رفع، فبوأهم حرماً آمناً يُتخطف الناس من حولهم. هل تعرفون عرباً أو عجماً أو سوداً أو حمراً الاّ قد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدولته، الاّ ما كان من قريش، فإنه لم يردهم أحد من الناس بكيد الاّ جعل الله خده الأسفل، حتى أراد الله أن يتنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً. ثم بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك الاّ عليهم، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله; افتراه لا يحوطهم وهم على دينه وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم، اُف لك ولأصحابك. ولو أن متكلماً غيرك تكلم; ولكنك ابتدأت، فأما أنت يا صعصعة، فإن قريتك شر قرى عربية، أنتنها نبتاً، وأعمقها وادياً، وأعرفها بالشر، وألأمها جيراناً. لم يسكنها شريف قط ولا وضيع الاّ سُبَّ فيها، وكانت عليه هجنة، ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً، وألأمه أصهاراً، نزاع الأمم، وأنتم جيران الحظ وفعلة فارس، حتى أصابتكم دعوة النبي(صلى الله عليه وآله)ونكبتك دعوته، وأنت نزيع شطير في عمان، لم تسكن البحرين فتشركهم في دعوة النبي(صلى الله عليه وآله)، فأنت شرّ قومك، حتى إذا أبرزك الاسلام، وخلعك بالناس، وحملك على الأمم التي كانت عليك، أقبلت تبغي دين الله عوجاً، وتنزع الى اللآمة والذلة، ولا يضع ذلك قريشاً ولن يضرهم، ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم. إن الشيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشر من بين اُمتكم، فأغرى بكم الناس، وهو صارعكم. لقد علم أنه لا يستطيع أن يرد بكم قضاء قضاه الله، ولا أمراً أراده الله، ولا تدركون بالشر أمراً أبداً، الاّ فتح الله عليكم شراً منه وأخزى.

ثم قام وتركهم، فتذامروا، فتقاصرت إليهم أنفسهم، فلما كان بعد ذلك أتاهم فقال: إني قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم، لا والله لا ينفع الله بكم أحداً ولا يضره، ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة، ولكنكم رجال نكير. وبعد، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكم، وليسعكم ما وسع الدهماء، ولا يبطرنكم الانعام، فإن البطر لا يعتري الخيار، إذهبوا حيث شئتم، فإني كاتب الى أمير المؤمنين فيكم. فلما خرجوا دعاهم فقال: إني معيد عليكم. إن رسول الله(صلى الله عليه وآله)كان معصوماً فولاّني. وأدخلني في أمره، ثم استخلف أبو بكر فولاّني، ثم استخلف عمر فولاّني، ثم استخلف عثمان فولاّني، فلم ألِ لأحد منهم ولم يولني الاّ وهو راض عني: وإنما طلب رسول الله(صلى الله عليه وآله) للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغَناء، ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها، وإن الله ذو سطوات ونقمات، يمكر بمن مكر به، فلا تعرضوا لأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظهرون، فإن الله غير تارككم حتى يختبركم ويبدي للناس سرائركم، وقد قال عزّوجل: (**آلم * أحسبَ النّاسُ أنْ يُتركوا أنْ يَقولوا آمنّا وهُمْ لا يُفتَنونَ**)(٢٢٦).

وكتب معاوية الى عثمان : إنه قدم عليَّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان، أثقلهم الاسلام، وأضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجة، إنّما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم، ثم فاضحهم ومخزيهم، وليسوا بالذين ينكون أحداً الاّ مع غيرهم، فآنْهَ سعيداً ومن قبله عنهم، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب أو نكير(٢٢٧).

فمعاوية كان يتحدث باسم قريش ويفاخر بها، في الوقت الذي يذم هؤلاء النفر ويصفهم بأقبح الأوصاف، بينما ادعى ابن كثير أنه كان ينصحهم ويتألفهم، وأنهم هم الذين كانوا يتكلمون بكلام فيه بشاعة، وذلك كله اتفاقاً مع وصف سعيد بن العاص لهم بالسفهاء، ووصف معاوية لهم بأنهم يتكلمون بألسنة الشياطين، في الوقت الذي نجد المؤرخين الآخرين يصفون هؤلاء النفر بغير هذه الأوصاف، وادعاء سيف ـ في رواية الطبري- أن أهل الكوفة هم الذين أرسلوا الى عثمان في إخراجهم لا أساس له من الصحة، إذ من الواضح أن سعيد بن العاص وبطانته هم الذين كان يهمهم إبعاد هؤلاء النفر، بينما نجد خيار أهل الكوفة يعارضون إخراجهم من بلدهم.

(٢٢٦) العنكبوت : ١ و ٢ .
(٢٢٧) الطبري ٤ : ٣١٧

أورد البلاذري خبر إرسال بعض قرّاء أهل الكوفة الى عثمان يطلبون منه ردّ هؤلاء النفر الى بلادهم كتاباً قالوا فيه: أن سعيداً أكثر على قوم من أهل الورع والفضل والعفاف، فحملك في أمرهم على مالا يحل في دين، ولا يحسن في سماع.

وإنّا نذكرك الله في اُمّة محمّد، فقد خفنا أن يكون فساد أمرهم على يديك، لأنك قد حملت بني أبيك على رقابهم، واعلم أن لك ناصراً ظالماً، وناقماً عليك مظلوماً، فمتى نصرك الظالم ونقم عليك الناقم، تباين الفريقان واختلفت الكلمة، ونحن نُشهد عليك الله وكفى به شهيداً، فإنك أميرنا ما أطعت الله واستقمت، ولن تجد دون الله ملتحداً ولا عنه منتقداً.

ولم يُسمِّ أحد منهم نفسه في الكتاب، وبعثوا به مع رجل من عنزة يكنى أبا ربيعة، وكتب كعب بن عبدة كتاباً من نفسه تسمى فيه ودفعه الى أبي ربيعة.

فلما قدم أبو ربيعة على عثمان، سأله عن أسماء القوم الذين كتبوا الكتاب، فلم يخبره، فأراد ضربه وحبسه، فمنعه علي من ذلك وقال: إنما هو رسول ادّى ما حمل.

وكتب عثمان الى سعيد أن يضرب كعب بن عبدة عشرين سوطاً، ويحوّل ديوانه الى الري ففعل(٢٢٨).

فعثمان بن عفان لم يكن يكتفي باطلاق أيدي عماله في الولايات بالمظالم، بل كان يقرّهم على أفعالهم، ويشجعهم على التمادي بانزال العقوبة بمخالفيهم، بدلا من محاسبة هؤلاء العمال والولاة، ورد المظالم الى أهلها، فكانت تلك من أقوى مظاهر ضعف سياسة عثمان وتخبطه في الادارة، مما كان له الأثر الكبير في تعجيل النقمة والانتقاض عليه.

أما ما يمكن استخلاصه من رواية سيف ـ التي تبناها معظم المؤلفين- فهو ظهور معاوية بن أبي سفيان بمظهر الرجل الذي تحركه روح الإسلام وتعاليمه، في الوقت الذي نجد هؤلاء النفر من أهل الكوفة يظهرون بمظهر أهل جاهلية ضعاف الأحلام، إلا أن الرواية الأُخرى التي أوردها الطبري بغير طريق سيف ـ والتي نقل ابن كثير طرفاً منها- تظهر لنا معاوية على حقيقته، فنجده يفخر بمآثر آبائه الذين أفنوا أعمارهم في الشرك، فيمجد أباه الذي كان رأس المشركين وقائدهم في مناصبة المسلمين الحرب بكل أشكالها، ولم يسلم الاّ عام الفتح، فلم تكن له قدم في الاسلام ولا سابقة، بل هو من الطلقاء الذين منَّ عليهم رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ولا أدري هل

(٢٢٨) أنساب الاشراف ٦ : ١٥٣

كان معاوية حاضراً يوم فتح مكة، وهل سمع النبي(صلى الله عليه وآله) وهو يقول: «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظّمها بالآباء»(٢٢٩).

الاّ أن معاوية قد تعظّم بأبيه -كما يفعل الجاهليون- بينما نجد صعصعة بن صوحان يرد عليه رداً يتفق مع روح الاسلام حين يخبره أن آدم(عليه السلام) قد ولد الناس جميعاً - برهم وفاجرهم- وهو قطعاً أفضل من أبي سفيان!

وصعصعة هذا كان متكلم القوم والناطق باسمهم، ورواية الطبري عن سيف تظهره بأقبح صورة على لسان معاوية، بينما نجد أخباره - بغير طريق سيف- تؤكد عكس ذلك، كما تبين في أقوال العلماء الذين ترجموا له، فقد قال ابن عبدالبر: كان مسلماً على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، لم يلقه ولم يره، صغر عن ذلك، وكان سيداً من سادات عبدالقيس، وكان فصيحاً خطيباً عاقلا لَسِناً ديّناً، فاضلا بليغاً، يُعد في أصحاب علي(رضي الله عنه).

وصعصعة هذا هو القائل لعمر بن الخطاب حين قسم المال الذي بعث به إليه أبو موسى... وكان ألف ألف درهم... وفضلت منه فضلة، فاختلفوا عليه حيث يضعها، فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس، قد بقيت لكم فضلة بعد حقوق الناس، فما تقولون فيها؟

فقام صعصعة بن صوحان -وهو غلام شاب- فقال: يا أمير المؤمنين، إنما تشاور الناس فيما لم ينزل الله فيه قرآناً، أما ما أنزل الله به القرآن ووضعه مواضعه، فضعه في مواضعه التي وضع الله تعالى فيها.

فقال : صدقت، أنت مني وأنا منك، فقسمه بين المسلمين(٢٣٠).

فهذه الحادثة تؤكد وفور عقل صعصعة وصواب رأيه الذي أخذ به الخليفة عمر بن الخطاب ومدحه عليه.

أما أخوه زيد بن صوحان -وهو أيضاً من الذين سيّرهم عثمان الى معاوية- فهو: «ممن أدرك النبي(صلى الله عليه وآله)» بسنّه مسلماً، وكان فاضلا ديّناً سيداً في قومه، هو وإخوته.

وروي من وجوه أن النبي(صلى الله عليه وآله) كان ميسرة له، فبينما هو يسير، إذ هوَّم فجعل يقول: «زيد وما زيد! جندب وما جندب!». فسئل عن ذلك فقال:

(٢٢٩) سنن أبي داود : ح ٥١١٦
(٢٣٠) الاستيعاب ٢ : ٧١٧

«رجلان من اُمتي، أما أحدهما فتسبقه يده، أو قال: بعض جسده الى الجنة، ثم يتبعه سائر جسده. وأما الآخر فيضرب ضربة يفرق بها بين الحق والباطل». قال أبو عمرو: اُصيبت يد زيد يوم جلولاء، ثم قتل يوم الجمل مع علي...»[٢٣١].

وأما جندب الذي أخبر عنه النبي(صلى الله عليه وآله)، فهو:

جندب بن زهير، ويسمى (جندب الخير) الأزدي العامري، قاتل الساحر، يكنى أبا عبدالله، له صحبة. روى عن النبي(صلى الله عليه وآله): **«حد الساحر ضربة بالسيف»**. كان على رجالة علي بصفين...

وقال البخاري وابن منده : جندب بن كعب قاتل الساحر[٢٣٢].

كان جندب بن زهير إذا صلّى أو صام تصدّق، فذكر بخير ارتاح له، فزاد في ذلك القالة من الناس، فأنزل الله تعالى في ذلك (**فمنْ كانَ يَرجُو لِقاءَ ربّهِ فليَعملْ عملا صالحاً وَلا يُشركْ بعبادَةِ ربّهِ أحداً**).

وكان فيمن سيّره عثمان من الكوفة الى الشام... وقُتل مع علي بصفين[٢٣٣].

فمما سبق نستطيع الخروج بنتيجة أولية مفادها: أن سيف بن عمر يتحامل بشدة على عدد غير قليل من خيار الصحابة والتابعين ويصفهم بأقبح الأوصاف - وسيأتي المزيد من ذلك- بينما نجده يرفع من شأن عدد آخر ممن لم يُعرفوا بسابقة أو فضل، بل ويبدو جلياً أنه يمتدح مجموعة عُرفوا بقلة الدين، وبالفسق أيضاً، وقد سار على نهجه عدد كبير من المؤلفين، فراحوا يرددون آراء سيف في اولئك الصحابة والتابعين -تلميحاً أو تصريحاً- كما فعل ابن العربي وابن تيمية وابن كثير وابن خلدون وابن حزم ومحب الدين الخطيب وغيرهم.

ولم يكتف سيف بذلك، بل انه اخترع أحداثاً وشخصيات وهمية لا حقيقية لها، ومع ذلك فقد صدّقه اُولئك المؤلفون، أو تظاهروا بتصديقه لغاية في النفس قضيت، فقد مرّ بنا فيما سبق، أن ابن العربي عدّ من بين الشخصيات التي خرجت على عثمان (الغافقي المصري) مدعياً أنه كان أمير الخارجين على عثمان، وتابعه محب الدين الخطيب الذي ذكر مقطعاً من رواية الطبري بطريق سيف، مصوراً الغافقي هذا كشخصية حقيقية من أتباع عبد الله بن سبأ، وأن الغافقي هذا كان يصلي بالناس في فترة حصار عثمان في داره! حتى أن محمود مهدي الاستانبولي لم يجد مناصاً من الاعتراف بأن هذا الخبر، وخبر استمالة السبائيين لعمار بن ياسر، ماهو الاّ خبر

(٢٣١) أسد الغابة ٣ : ٧١٤

(٢٣٢) تهذيب التهذيب ٨ : ٤٠٢

(٢٣٣) اسد الغابة ١ : ٢٦١

غريب موحش، وأن في سنده سيف بن عمر المتهم بالزندقة، ثم يعترف الاستانبولي بأن قسماً كبيراً من تاريخنا هو من وضع الزنادقة!

ومن الشخصيات الأخرى التي ذكرها المؤرخون في جملة الثائرين على عثمان. عبدالرحمان بن عديس البلوي، وعبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وهم الذين يصفهم ابن العربي برؤوس القوم، ولا أدري هل أن ابن العربي ومن تابعه، كانوا يعلمون أن هذين الرجلين صحابيان أيضاً، وأن أحدهما ممن بايع النبي(صلى الله عليه وآله) تحت الشجرة، وهي بيعة الرضوان، كما أكد ذلك من ترجم لهما.

فعبد الرحمان بن عديس البلوي، «مصري شهد الحديبية».

عن يزيد بن حبيب، قال: كان عبدالرحمان بن عديس البلوي ممن بايع تحت الشجرة رسول الله(صلى الله عليه وآله).

«قال أبو عمرو : هو كان الأمير على الجيش القادمين من مصر الى المدينة، الذين حصروا عثمان وقتلوه»(٢٣٤).

وعبد الله بن بديل بن ورقاء، «أسلم مع أبيه قبل الفتح، وشهد حنيناً والطائف، وكان سيد خزاعة، وخزاعة عيبة رسول الله(صلى الله عليه وآله)»..

وكان له قدر وجلالة.

قُتل هو وأخوه عبدالرحمان بصفين، وكان يومئذ على رجالة علي(رضي الله عنه).

كان من وجوه الصحابة!(٢٣٥).

ومن التابعين الذين ورد ذكرهم من بين المسيّرين من أهل الكوفة: مالك ابن الحارث الاشتر، الذي يظهر في رواية سيف بمظهر صاحب الفتنة ورئيسها، وتابعه على ذلك المؤلفون، حيث يقول محب الدين الخطيب عنه: بطل شجاع من أبطال العرب، كان أول مشاهده الحربية في اليرموك، وفيها فقد احدى عينيه، ثم شاء أن يكون سيفه مسلولا على إخوانه المسلمين في مواقف الفتنة، ولو أنه لم يكن ممن ألب على أمير المؤمنين عثمان، وكتب الله أن تكون وقائعه الحربية في نشر دعوة الاسلام وتوسيع الفتوح، لكان له في التاريخ شأن آخر، والذي دفعه في هذا الطريق: غلوّه في الدين وحبه للرئاسة والجاه، ولست أدري كيف اجتمعا فيه(٢٣٦).

لا شك أن الخطيب محق في تعجبه، إذ كيف يجتمع الغلو في الدين -كما يسميه- مع حب الرئاسة والجاه!

(٢٣٤) الاستيعاب ٢ : ٨٤٠ ، أسد الغابة ٣ : ٣٧٠
(٢٣٥) الاستيعاب ٣ : ٨٧٢
(٢٣٦) العواصم من القواصم : ١٢٥.

إن منشأ ذلك العجب هو إعتماد الخطيب على روايات سيف بن عمر الذي «ما اعتمد مؤرخ على رواياته الاّ افتضح»[٢٣٧].

أما فيما يتعلق بمالك الأشتر : فقد «ذكره ابن سعد في الطبقة الاولى من تابعي الكوفة. قال: وكان من أصحاب علي، وشهد معه الجمل وصفين ومشاهده كلها.

ولاّه علي على مصر بعد قيس بن سعد بن عبادة، فسار حتى بلغ القلزم فمات بها، يقال مسموماً..

روي أن علياً نعاه الى قومه وأثنى عليه ثناءً حسناً[٢٣٨].

أما حكيم بن جبلة فسوف تأتي ترجمته في حينها.

ولعل القارئ الكريم قد لاحظ من كل ما سبق، أن اولئك الذين يمتدحهم سيف بن عمر ومن تابعه، هم فئة معينة يجمعها قاسم مشترك، هو أنهم من بني اُمية وأشياعهم، وأن الذين يذمهم سيف، هم أيضاً فئة معينة يجمعها قاسم مشترك هو أنهم من أتباع علي بن أبي طالب! وسوف اُؤجل مناقشة هذا الأمر الى ما بعد استكمال فصول أحداث الفتنة، بهدف الكشف عن نواحي التزييف الذي تعرض له تاريخنا الاسلامي، مع بيان أسبابه ودوافعه ونتائجه.

ونعود فنستكمل بقية أحداث القصة -كما يرويها الطبري بطريق سيف- عن توجه اولئك النفر الى حمص، واستقبال عبدالرحمان بن خالد بن الوليد لهم، وما واجههم به من بذيء الكلام، وكيف قمعهم وأذلّهم، قال:

وخرج القوم من دمشق فقالوا : لا ترجعوا الى الكوفة فإنهم يشمتون بكم، وميلوا بنا الى الجزيرة، ودعوا العراق والشام، فأووا الى الجزيرة.

وسمع بهم عبدالرحمان بن خالد بن الوليد -وكان معاوية ولاّه حمص وولي عامل الجزيرة حرّان والرقة فدعا بهم، فقال: يا آلة الشيطان، لا مرحباً بكم ولا أهلا، قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعد نشاط. حسّر الله عبدالرحمان إن لم يؤدبكم حتى يحسركم. يا معشر من لا أدري أعرب أم عجم، لم لا تقولون لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية؟ أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقئ الردة. والله لئن بلغني يا صعصعة بن ذُل أن أحداً ممن معي دق أنفك ثم أمصّك، لأطيرن بك طيرة بعيدة الهوى.

(٢٣٧) بيعة علي : ٣٠٦

(٢٣٨) تهذيب التهذيب ١٠ : ١٠

فأقامهم أشهراً كلما ركب أمشاهم، فإذا مرّ به صعصعة قال: يابن الحطيئة، أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر؟ مالك لا تقول كما كان يبلغني أنك تقول لسعيد ومعاوية! فيقولون : نتوب الى الله، أقِلنا أقالك الله. فما زالوا به حتى قال: تاب الله عليكم.

وسرّح الأشتر الى عثمان وقال لهم : ماشئتم، إن شئتم فاخرجوا، وإن شئتم فأقيموا.

وخرج الأشتر، فأتى عثمان بالتوبة والندم والنزوع عنه وعن أصحابه، فقال: سلّمكم الله.

وقدم سعيد بن العاص، فقال عثمان للأشتر : احلل حيث شئت! فقال: مع عبدالرحمان بن خالد!! وذكر فضله، فقال: ذاك اليكم. فرجع الى عبدالرحمان(٢٣٩).

لعل التهافت الواضح في هذه الرواية يكشفه طلب الأشتر وجماعته العودة الى كنف عبدالرحمان بن خالد بعد أن أذلهم وأخزاهم وواجههم بأقذع السباب، ومع ذلك فإنهم يرغبون في التعايش معه ويذكرون من فضله ما ذكروا.

وكيف يسمح لهم وجودهم عند عبد الرحمان بالاستمرار في إشعال الفتنة التي يسعون إليها، حيث إن الجزء الأخير من الرواية الذي أورده ابن العربي في ملخصه لها، يكشف عن أنهم لم يتوبوا حقيقة، وأنهم استمروا في التأليب على عثمان، فكيف أتيح لهم ذلك مع وجود - ذلك الشبل المخزومي- كما يصفه محب الدين الخطيب. ولكن، ورغم هذا التهافت الواضح في الرواية، فإن جمهور المؤلفين قد اعتمدوها وراحوا يروجونها في كتبهم!

لكن الروايات التي جاءت عن غير طريق سيف، لا تشير الى شيء من تلك المبالغات والتهويلات، فقد روى الطبري خبر عودة القوم من عند معاوية الى الكوفة فقال :

وكتب سعيد الى عثمان يضج منهم، فكتب عثمان الى سعيد أن سيّرهم الى عبدالرحمان بن خالد بن الوليد، وكان أميراً على حمص، وكتب الى الأشتر وأصحابه، أما بعد فإني قد سيّرتكم الى حمص، فإذا أتاكم كتابي هذا فاخرجوا إليها فإنكم لستم تألون الإسلام وأهله شراً، والسلام.

فلما قرأ الأشتر الكتاب، قال: اللهم أسوأنا نظراً للرعية، وأعملنا فيهم بالمعصية، فعجّل له النقمة.

(٢٣٩) الطبري ٤ : ٣١٧

فكتب بذلك سعيد الى عثمان، وسار الأشتر وأصحابه الى حمص، فأنزلهم عبدالرحمان بن خالد الساحل، وأجرى عليهم رزقاً[٢٤٠].

أما القصة عند البلاذري فهي :

لما خرج المسيّرون من قرّاء أهل الكوفة فاجتمعوا بدمشق، نزلوا مع عمرو بن زرارة فبرّهم معاوية وأكرمهم، ثم إنه جرى بينه وبين الأشتر قول حتى تغالظا، فحبسه معاوية، فقام عمرو بن زرارة فقال: لئن حبسته لتجدن من يمنعه، فأمر بحبس عمر، فتكلم سائر القوم وقالوا: أحسن جوارنا يامعاوية، ثم سكتوا.

فقال معاوية : مالكم لا تتكلمون؟

فقال زيد بن صوحان : وما نصنع بالكلام، لئن كنا ظالمين فنحن نتوب الى الله، وإن كنا مظلومين فإنا نسأل الله العافية.

فقال معاوية : يا أبا عائشة، أنت رجل صدق.

وأذن له في اللحاق بالكوفة; وكتب الى سعيد بن العاص: أما بعد، فإني قد أذنت لزيد بن صوحان في المسير الى منزله بالكوفة لما رأيت من فضله وقصده وحسن هديه، فأحسن جواره وكفّ الأذى عنه وأقبل إليه بوجهك وودّك فإنه قد أعطاني موثقاً أن لا ترى منه مكروهاً.

فشكر زيد معاوية وسأله عند وداعه إخراج من حبس ففعل.

وبلغ معاوية أن قوماً من أهل دمشق يجالسون الأشتر وأصحابه، فكتب الى عثمان: إنك بعثت إلي قوماً أفسدوا مصرهم وانغلوه، ولا آمن أن يفسدوا طاعة من قبلي ويعلموهم مالا يحسنونه حتى تعود سلامتهم غائلة واستقامتهم اعوجاجاً، فكتب الى معاوية يأمره أن يسيرهم الى حمص ففعل، وكان واليها عبدالرحمان بن خالد بن الوليد بن المغيرة.

ويقال : ان عثمان كتب في ردّهم الى الكوفة، فضجّ منهم سعيد ثانية، فكتب في تسييرهم الى حمص، فنزلوا الساحل[٢٤١].

يوم الجرعة

كان من مضاعفات تلك الأحداث، ما عُرف بيوم الجرعة، وقد تضاربت الأخبار فيها أيضاً. فالشيخ محب الدين الخطيب يلخص لنا رواية الطبري- بطريق سيف- قائلا: في الوقت الذي كان فيه الأشتر يعرض على عثمان توبته وتوبة زملائه، وذلك

(٢٤٠) الطبري ٤ : ٣٢٢
(٢٤١) أنساب الاشراف ٦ : ١٥٥

سنة (٣٤)، كان السبائيون في مصر يكاتبون أشياعهم في الكوفة والبصرة بأن يثوروا على أُمرائهم، واتّعدوا يوماً، فلم يستقم ذلك لجماعة الكوفة، فثار بهم يزيد بن قيس الأرحبي، ولما وصل الأشتر من المدينة الى إخوانه الذين عند عبد الرحمان بن خالد بن الوليد: وجد بين أيديهم كتاباً من يزيد بن قيس الأرحبي يقول لهم فيه: لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا، فتشاموا من هذه الدعوة وآثروا البقاء، وخالفهم الأشتر فرجع عاصياً بعد توبته، والتحق بثوار الكوفة وقد نزلوا في الجرعة ـ مكان مشرف على القادسية- وهناك تلقوا سعيد بن العاص أمير الكوفة وهو عائد من المدينة فردّوه. ولقي الأشتر مولىً لسعيد بن العاص فضرب الأشتر عنقه.

وبلغ عثمان أنهم يريدون إقالة سعيد بأبي موسى الأشعري فأجابهم الى ما طلبوا[٢٤٢].

لكن الطبري أورد رواية أُخرى مخالفة لرواية سيف، ولكنها تتفق الى حد كبير مع ما جاء في المصادر الأخرى، فروى عن جعفر بن عبدالله المحمدي[٢٤٣] بسنده قال: اجتمع ناس من المسلمين، فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلا يكلمه ويخبره باحداثه، فأرسلوا اليه عامر بن عبدالله التميمي ثم العنبري ـ وهو الذي يدعى عامر بن عبد قيس- فأتاه، فدخل عليه فقال له: إن أُناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبت أُموراً عظاماً، فاتق الله عزّوجل وتب إليه، وانزع عنها.

قال له عثمان : انظر الى هذا، فان الناس يزعمون أنه قارئ، ثم هو يجيء فيكلمني في المحقرات، فوالله ما يدري أين الله!

قال عامر : أنا لا أدري أين الله؟!

قال : نعم، والله ما تدري أين الله.

قال عامر : بلى والله إني لأدري أن الله بالمرصاد لك![٢٤٤].

أما رواية البلاذري، فهي أكثر تفصيلا واستيعاباً للأحداث ومقدّماتها، وهي تتضمن خبر الاجتماع الطارئ الذي دعا عثمان عمّاله إليه لمناقشة الأوضاع الراهنة، حيث قال:

(٢٤٢) العواصم من القواصم : ١٢٦ الهامش عن الطبري ٤ : ٣٣٠ ، الكامل في التاريخ ٣ : ١٤٨
(٢٤٣) لم أعثر له على ترجمة.
(٢٤٤) الطبري ٤ : ٣٣٣ ، الكامل ٢ : ١٥٠

وكتب عثمان(رضي الله عنه) الى اُمرائه في القدوم عليه للذي رأى من ضجيج الناس وشكيتهم، فقدم عليه معاوية من الشام، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح من المغرب، وعبدالله بن عامر بن كريز من البصرة، وسعيد بن العاص من الكوفة.

فأما معاوية فقال له : أعدني وعمالك الى أعمالنا وخذنا بما تحت أيدينا. وأشار عليه أيضاً بالمسير الى الشام، فأبى وقال: لا أخرج من مهاجر رسول الله وجوار قبره ومسكن أزواجه; فعرض عليه أن يوجه إليه جيشاً يقيم معه فيمنع منه، فقال: لا أكون أول من وطئ أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأنصاره بجيش.

وأما سعيد بن العاص، فقال له: إنما دعا الناس الى الشكية وسوء القول، الفراغ، فاشغلهم بالغزو.

وأما ابن عامر فقال : إن الناس نقموا عليك في المال فأعطهم إياه، فردهم الى أعمالهم.

وقال علي : يا عثمان ، ان الحق ثقيل مريء، وإن الباطل خفيف وبيء، وإنك إن تُصدق تَسخط، ومتى تُكذب ترضَ.

وقال طلحة : إنك قد أحدثت أحداثاً لم يكن الناس يعهدونها.

فقال عثمان : ما أحدثت حدثاً، ولكنكم أظناء تفسدون علي الناس وتؤلبونهم. وكان علياء بن الهيثم السدوسي قد شخص مع سعيد بن العاص الى المدينة ليقرّظه ويثني عليه، لأنه سأله ذلك، وأحبَّ علياء أيضاً أن يلقى علياً ويعلم حال عثمان وما يكون منه، فلما رأى أن عثمان قد عزم على ردّ عماله، تعجّل الى الكوفة على ناقة له، فلما قدمها قال: يا أهل الكوفة، هذا أميركم الذي يزعم أن السواد بستان له قد أقبل، واغتنم أهل الكوفة غيبة معاوية عن الشام، فكتبوا إلى إخوانهم الذين بحمص مع هانئ بن خطاب الأرحبي يدعونهم الى القدوم ويشجعونهم عليه، ويعلمونهم أنه لا طاعة لعثمان مع إقامته على ما يُنكر منه.

فسار إليهم هانئ بن خطاب مغذاً للسير راكباً للفلاة. فلما قرأوا كتاب أصحابهم أقبل الأشتر والقوم المسيّرون حتى قدموا الكوفة، فأعطاه القرّاء والوجوه جميعاً مواثيقهم وعهودهم أن لا يدعوا سعيد بن العاص يدخل الكوفة والياً أبداً.

وكان الذين كتبوا مع هانئ بن خطاب: مالك بن كعب بن عبدالله الهمداني، وعبدالله بن شجرة السلمي، وجمرة بن سنان الأسدي، وحرقوص بن زهير السعدي، وزياد بن خصفة التيمي، وعبدالله بن قفل البكري ثم التيمي، وزياد ابن نضر

الحارثي، وعمرو بن شرحبيل أبو ميسرة الهمداني، وعلقمة بن قيس النخعي، في رجال أشباههم.

وقام مالك بن الحارث الأشتر يوماً فقال: إن عثمان قد غيّر وبدّل، وحضّ الناس الى منع سعيد من دخول الكوفة، فقال له قبيصة بن جابر بن وهب الأسدي، من ولد عميرة بن جدار: يا أشتر، دام شترك، وعفا أثرك، أطلت الغيبة، وجئت بالخيبة، أتأمرنا بالفرقة والفتنة ونكث البيعة وخلع الخليفة؟! فقال الأشتر : يا قبيصة بن جابر، ما أنت وهذا! فوالله ما أسلم قومك الاّ كرهاً، ولا هاجروا إلاّ فقراً.

ثم وثب الناس على قبيصة فضربوه وجرحوه فوق حاجبه، وجعل الأشتر يقول: لا حُرّ بوادي عوف، ومن لا يذد عن حوضه يُهدّم.

ثم صلّى بالناس الجمعة، وقال لزياد بن النضر: صلِّ بالناس سائر صلواتهم والزم القصر. وأمر كُميل بن زياد فأخرج ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري من القصر، وكان سعيد بن العاص خلّفه على الكوفة حين شخص الى عثمان.

وعسكر الأشتر بين الكوفة والحيرة، وبعث عائذ بن حملة في خمسمائة الى أسفل كسكر، مسلحة بينه وبين البصرة، وبعث حجرة بن سنان الأسدي في خمسمائة الى عين التمر، ليكون مسلحة بينه وبين الشام، وبعث هانئ بن أبي حية بن علقمة الهمداني ثم الوادِعي الى حلوان في ألف فارس ليحفظ الطريق بالجبل، فلقي الأكراد بناصية الدينور وقد أفسدوا، فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وبعث الأشتر أيضاً يزيد بن حجية التيمي الى المدائن، وتقدم الى عماله أن لا يجبوا درهماً، وأن يسكّنوا الناس وأن يضبطوا النواحي، وبعث مالك بن كعب الأرحبي في خمسمائة فارس ومعه عبدالله بن كباثة، أحد بني عائذ الله بن سعد العشيرة بن مالك بن أُدد بن زيد الى العذيب ليلقى سعيد بن العاص ويرده، فلقي مالك بن كعب الأرحبي سعيداً فردّه وقال: لا والله، لا تشرب من ماء الفرات قطرة، فرجع الى المدينة، فقال له عثمان: ما وراءك؟ قال: الشر. فقال عثمان: هذا كله عمل هؤلاء، يعني علياً وطلحة والزبير!

وأنهب الأشتر دار الوليد بن عقبة، وكان فيها مال سعيد ومتاعه حتى قلعت أبوابها، ودخل الأشتر الكوفة فقال لأبي موسى: تولَّ الصلاة بأهل الكوفة، وليتول حذيفة السواد والخراج.

وكتب عثمان الى الأشتر وأصحابه مع عبدالرحمان بن أبي بكر، والمسور بن مخرمة، يدعوهم الى الطاعة، ويعلمهم أنهم أوّل من سنَّ الفرقة، ويأمرهم بتقوى الله ومراجعة الحق، والكتاب اليه بالذي يحبون.

فكتب إليه الأشتر : من مالك بن الحارث الى الخليفة المبتلى الخاطئ الحائد عن سنّة نبيه، النابذ لحكم القرآن وراء ظهره! أما بعد، فقد قرأنا كتابك، فانْهَ نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين، نسمح لك بطاعتنا. وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا، وذلك ظنّك الذي أرداك فأراكَ الجور عدلا والباطل حقاً، وأما محبتنا، فإن تنزع وتتوب وتستغفر الله من تجنّيك على خيارنا وتسييرك صلحاءنا وإخراجك إيانا من ديارنا وتوليتك الأحداث علينا، وأن تولي مصرنا عبدالله بن قيس أبا موسى الأشعري وحذيفة، فقد رضيناهما، واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله والسلام.

وخرج بكتابهم يزيد بن قيس الأرحبي ومسروق بن الأجدع الهمداني وعبدالله بن أبي سبرة الجعفي، واسم أبي سبرة يزيد، وعلقمة بن قيس أبو شبل النخعي، وخارجة بن الصلت البرجُمي من بني تميم وآخرين.

فلما قرأ عثمان الكتاب قال: اللهم إني تائب.

وكتب الى أبي موسى وحذيفة : أنتما لأهل الكوفة رضىً ولنا ثقة، فتوليا أمرهم وقوما به بالحق، غفر الله لنا ولكما.

فتولى أبو موسى وحذيفة الأمر، وسكّن إبو موسى الناس(٢٤٥).

نلاحظ ممّا سبق، أن عثمان بن عفان كان يتدارك الأخطاء بالأخطاء، فقد أعاد عماله الى ولاياتهم رغم حالة الغليان الشعبي الذي شهدته بعض الأمصار، ولولا اضطراره الى تغيير والي الكوفة سعيد بن العاص أمام موجة الهيجان الشعبي، لما فكّر في ذلك، ولو أنه اتخذ نفس الخطوات تجاه الولايات الأخرى، فاستبدل ولاته وعماله ببعض الصحابة والولاة العادلين. فلربما تغيّر وجه التاريخ، ولم تسر الأحداث الى تلك النهايات المؤلمة، وكان خيراً لعثمان أن يجتمع بكبار الصحابة ويستشيرهم ويستمع لنصحائهم، بدلا من أن يستشير ولاته وعماله الذين كانوا السبب في موجة السخط التي عمت الولايات الاسلامية الكبرى، لأن عمّال عثمان لم يكونوا ينصحون له، بل على العكس من ذلك كانوا يحرضونه على التمادي في سياسته، كما ظهر لنا في الرواية التي نقلناها عن البلاذري، وكما أجمعت عليه باقي الروايات عند الطبري وغيره، ماعدا رواية سيف، فإن خبر هذا الإجتماع لم ينج هو الآخر من التزييف سواء من سيف أو من بعض المؤرخين الآخرين، ولا بأس من استعراض بعض تلك الروايات بهدف الكشف عن جوانب التزييف في تاريخنا.

(٢٤٥) أنساب الأشراف ٦ : ١٥٦

أورد الطبري خبر الاجتماع عن سيف بقوله :

وبعث الى عمال الأمصار فقدموا عليه: عبدالله بن عامر، ومعاوية، وعبدالله بن سعد، وأدخل معهم في المشورة سعيداً وعمراً، فقال: ويحكم ما هذه الشكاية! وما هذه الاذاعة؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، وما يعصب الاّ بي.

فقالوا له : ألم تبعث ؟ ألم نرجع إليك الخبر عن القوم؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء؟ والله ما صدقوا ولا برّوا، ولا نعلم لهذا الأمر أصلا، وما كنت لتأخذ به أحداً فيقيمك على شيء، وما هي الاّ إذاعة لا يحل الأخذ بها ،ولا الانتهاء إليها.

قال : فأشيروا علي.

فقال سعيد بن العاص : هذا أمر مصنوع يصنع في السر، فيلقى به غير ذي المعرفة فيخبر به، فيُتحدث به في مجالسهم.

قال : فما دواء ذلك؟

قال : طلب هؤلاء القوم، ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم.

وقال عبدالله بن سعد : خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم، فإنه خير من أن تدعهم.

قال معاوية : قد وليتني فوليتُ قوماً لا يأتيك عنهم إلاّ الخير، والرجلان أعلم بناحيتهما.

قال : فما الرأي؟

قال : حسن الأدب.

قال : فما ترى يا عمرو؟

قال : أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر، فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك، فتشتد في موضع الشدة، وتلين في موضع اللين، إن الشدة تنبغي لمن لا يألوا الناس شراً، واللين لمن يخلف الناس بالنصح، وقد فرشتهما جميعاً اللّين...[٢٤٦].

فسيف يبرئ عثمان أولا من التسبب في تلك الأحداث، ومن ثم ولاته وعلى رأسهم معاوية الذي لا يأتي منه الاّ الخير -كما يزعم- ولكن المصادر الأخرى سواء ما جاء من الروايات عند الطبري أو عند غيره -كما في رواية البلاذري- تقول غير ما تدعيه رواية سيف.

(٢٤٦) الطبري ٤ : ٣٤٢

فقد روى الطبري عن جعفر بن عبدالله المحمدي روايتين متشابهتين، أنقل منها هذه الرواية باسناده عن عبدالملك بن عمير الزهري، قال:

جمع عثمان اُمراء الأجناد: معاوية بن أبي سفيان، وسعيد بن العاص، وعبدالله بن عامر، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، وعمرو بن العاص، فقال: أشيروا علي، فإن الناس قد تنمّروا لي.

فقال له معاوية : أشير عليك أن تأمر اُمراء أجنادك فيكفيك كل رجل منهم ما قبله، وأكفيك أنا أهل الشام.

فقال له عبدالله بن عامر : أرى لك أن تجمّرهم في هذه البعوث حتى يهمّ كل رجل منهم دبر دابته، وتشغلهم عن الإرجاف بك.

فقال عبدالله بن سعد : اُشير عليك أن تنظر ما أسخطهم فترضيهم، ثم تخرج لهم هذا المال فيقسم بينهم.

ثم قام عمرو بن العاص فقال : يا عثمان ، إنك قد ركبت الناس بمثل بني اُمية، فقلت وقالوا، وزغت وزاغوا، فاعتدل أو اعتزل، فإن أبيتَ فاعتزم عزماً وامض قدماً، فقال له عثمان: مالك قمل فروك، أهذا الجدّ منك!

فأسكت عمرو حتى إذا تفرقوا قال: لا والله يا أمير المؤمنين، لأنت أكرم عليَّ من ذلك، ولكني قد علمت أن بالباب قوماً قد علموا أنك جمعتنا لنُشير عليك، فأحببت أن يبلغهم قولي، فأقود لك خيراً، أو أدفع عنك شراً.

فردّ عثمان عمّاله على أعمالهم، وأمرهم بالتضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير الناس في البعوث، وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه...[٢٤٧].

إنَّ من الملفت للنظر هو الموقف الانتهازي لعمرو بن العاص، ويبدو أن الخليفة قد استشاره على أمل أن يحصل على دعمه وتأييده -كما حدث من قبل في قضية الهرمزان- إلاّ أن الأغرب من كل ذلك، هو موقف ابن كثير الدمشقي، فهو بعد أن ينقل الرواية كما جاءت عن الطبري، يعود فيزيّف ذيلها بقوله: فعند ذلك قرّر عثمان عماله على ما كانوا عليه، وتألّف قلوب اولئك بالمال، وأمر بأن يُبعثوا الى الغزو الى الثغور، فجمع بين المصالح كلها!![٢٤٨].

(٢٤٧) الطبري ٤ : ٣٣٤
(٢٤٨) البداية والنهاية ٧ : ١٦٧

المسير الى المدينة

من المفترض - طبقاً لادعاء ابن كثير - أن تكون المشكلة قد انتهت بعد ما جمع عثمان المصالح كلها، ولم يبق ثمة سبب يدعو الى التمرد والعصيان، إلاّ أن ما حدث هو العكس تماماً، فقد طفحت كتب التاريخ التي أرخت لأحداث سنة (٣٥ هـ) بأخبار خروج أهل مصر والكوفة والبصرة، ومسيرهم الى المدينة ومحاصرتهم مقر الخلافة الاسلامية فيها أياماً طويلة حتى انتهى الأمر بمصرع الخليفة عثمان بن عفان. فما هي حقيقة الأحداث في تلك الفترة العصيبة، وما هي الروايات التي اعتمدها جمهور المؤلفين ممن جاء بعد الطبري، ولماذا؟

لنبدأ أولا باستعراض رواية القاضي ابن العربي للأحداث، حيث قال:

وساروا إليه، على أهل مصر عبدالرحمان بن عديس البلوي، وعلى أهل البصرة حكيم بن جبلة، وعلى أهل الكوفة الأشتر مالك بن الحارث النخعي; فدخلوا المدينة هلال ذي القعدة سنة خمس وثلاثين، فاستقبلهم عثمان، فقالوا: إقرأ، فقرأ حتى انتهى الى قوله (**ءَاللهُ أذِنَ لكُم أمْ على اللهِ تَفتَرون**َ). قالوا له: قف، أرأيت ما حميت من الحمى، أذن الله لك أم على الله افتريت؟ قال: امضه، إنما نزلت في كذا، وقد حمى عمر، وزادت الابل فزدتُ.

فجعلوا يتبعونه هكذا، وهو ظاهر عليهم، حتى قال لهم: ماذا تريدون؟

فأخذوا ميثاقه، وكتبوا عليه ستاً أو خمساً: إن المنفيّ يقلب، والمحروم يعطى، ويوفّر الفيء، ويعدل في القسم، ويستعمل ذو الأمانة والقوة.

فكتبوا ذلك في كتاب، وأخذ عليهم أن لا يشقوا عصا، ولا يفرقوا جماعة. ثم رجعوا راضين، فبينما هم كذلك، إذا راكب يتعرض لهم ثم يفارقهم مراراً.

قالوا: مالك! قال: أنا رسول أمير المؤمنين الى عامله بمصر، ففتشوه، فاذا هم بالكتاب على لسان عثمان، عليه خاتمه إلى عامل مصر أن يصلبهم ويقطع أيديهم وأرجلهم.

فأقبلوا حتى قدموا المدينة، فأتوا علياً فقالوا له: ألم تر الى عدو الله كتب فينا بكذا! وقد أحلّ الله دمه، فقم معنا إليه.

قال : والله لا أقوم معكم.

قالوا : فلم كتبت إلينا؟!

قال : والله ما كتبت إليكم.

فنظر بعضهم الى بعض، وخرج علي الى المدينة...[٢٤٩].

هذه الرواية ينقلها ابن العربي عن الطبري عن يعقوب بن ابراهيم، إلاّ أن القاضي ابن العربي لم يدع لمسها بريشته حتى تغيّر فحوى الرواية مما أوقعه في نهاية الأمر في التناقض، فهو يقول : فجعلوا يتبعونه هكذا وهو ظاهر عليهم، بينما الرواية الأصلية تقول : ثم أخذوه بأشياء لم يكن عنده منها مخرج!

ويلوح التناقض على كلام ابن العربي حين يعترف في نهاية الأمر بخضوع عثمان لهم وأخذ ميثاقه على تنفيذ الأمور الستة أو الخمسة التي أقرّ على نفسه بها، ومن البديهي أن اقرار عثمان بها ما هو إلاّ اعتراف بحقيقتها، وقول ابن العربي (ثم رجعوا راضين)، يدل على أنهم لم يكن لهم هدف غير تنفيذ هذه المطالب.

أما الرواية المعتمدة عند الجمهور، فهي رواية الطبري عن سيف عن شيوخه، قال: لما كان في شوال سنة خمس وثلاثين، خرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء، المقلل يقول ستمائة، والمكثر يقول الف، على الرفاق عبدالرحمان بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر التميمي، وعروة بن شييم الليثي، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وسواد بن رومان الأصبحي، وزرع بن يشكر اليافعي، وسودان بن حمران السكوني، وقتيرة بن فلان السكوني، وعلى القوم جميعاً الغافقي بن حرب العكي. ولم يجترئوا أن يُعلموا الناس بخروجهم الى الحرب، وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء.

وخرج أهل الكوفة في أربع رفاق، وعلى الرفاق زيد بن صوحان العبدي، والأشتر النخعي، وزيد بن النضر الحارثي، وعبدالله بن الأصم، أحد بني عامر بن صعصعة، وعددهم كعدد أهل مصر، وعليهم جميعاً عمرو بن الأصم.

وخرج أهل البصرة في أربع رفاق، وعلى الرفاق حكيم بن جبلة العبدي، وذريح بن عباد العبدي، وبشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي، وابن المحرش ابن عبد بن عمرو الحنفي، وعددهم كعدد أهل مصر، وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدي، سوى من تلاحق بهم من الناس، فأما أهل مصر، فإنهم كانوا يشتهون علياً، وأما أهل البصرة، فإنهم كانوا يشتهون طلحة، وأما أهل الكوفة فإنهم كانوا يشتهون الزبير. فخرجوا وهم على الخروج جميع، وفي الناس شتى، لا تشك كل فرقة الاّ أن الفلج معها، وأن أمرها سيتم دون الأخريين; فخرجوا حتى إذا كانوا من المدينة على ثلاث، تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب، وناس من أهل الكوفة فنزلوا

(٢٤٩) العواصم من القواصم : ١٣١

الأعوص، وجاءهم ناس من أهل مصر، وتركوا عامتهم بذي المروة. ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبدالله بن الأصم، وقالا: لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد، فإنه بلغنا أنهم قد عسكروا لنا، فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونا واستحلوا قتالنا ولم يعلموا علمنا، فهم إذا علموا علمنا أشد، وإن أمرنا هذا لباطل، وإن لم يستحلوا قتالنا ووجدنا الذي بلغنا باطلا لنرجعن اليكم بالخير. قالوا: اذهبا، فدخل الرجلان فلقيا أزواج النبي(صلى الله عليه وآله) وعلياً وطلحة والزبير، وقالا: إنما نأتم هذا البيت، ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا، ما جئنا الاّ لذلك، واستأذناهم للناس بالدخول، فكلهم أبى ونهى وقال: بيض ما يفرخن; فرجعا اليهم فاجتمع من أهل مصر نفرٌ فأتوا علياً، ومن أهل البصرة نفر فأتوا طلحة، ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير، وقال كل فريق منهم: إن بايعوا صاحبنا وإلاّ كدناهم وفرقنا جماعتهم، ثم كررنا حتى نبغتهم.

فأتى المصريون علياً وهو في عسكر عند أحجار الزيت، عليه حلّة أفواف، معتم بشقيقة حمراء يمانية، متقلد السيف، ليس عليه قميص، وقد سرح الحسن الى عثمان فيمن اجتمع إليه، فالحسن جالس عند عثمان، وعلي عند أحجار الزيت، فسلم عليه المصريون وعرّضوا له، فصاح بهم وطردهم وقال: لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمد(صلى الله عليه وآله) فارجعوا لا صحبكم الله. قالوا: نعم، فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى البصريون طلحة وهو في جماعة أخرى الى جنب علي، وقد أرسل ابنيه على عثمان، فسلم البصريون عليه وعرضوا له، فصاح بهم واطردهم وقال: لقد علم المؤمنون أن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد(صلى الله عليه وآله).

وأتى الكوفيون الزبير وهو في جماعة أخرى، وقد سرّح ابنه عبدالله الى عثمان، فسلموا عليه وعرضوا له، فصاح بهم واطردهم وقال: لقد علم المسلمون أن جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد(صلى الله عليه وآله)(٢٥٠)، فخرج القوم وأروهم أنهم يرجعون، فانفشوا عن ذي خشب والأعوص، حتى انتهوا إلى عساكرهم وهي ثلاث مراحل، كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين، فافترق أهل المدينة لخروجهم.

(٢٥٠) هذا الحديث المزعوم لم أجده في أي مصدر معتمد، فهو من وضع سيف المشهور بالوضع .

فلما بلغ القوم عساكرهم كرّوا بهم فبغتوهم، فلم يفجأ أهل المدينة إلاّ والتكبير في نواحي المدينة، فنزلوا في مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا: من كف يده فهو آمن.

وصلّى عثمان بالناس أياماً، ولزم الناس بيوتهم، ولم يمنعوا أحداً من كلام، فأتاهم الناس فكلموهم وفيهم علي فقال: ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم؟ قالوا : اخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا.

وأتاهم طلحة فقال البصريون مثل ذلك.

وأتاهم الزبير فقال الكوفيون مثل ذلك، وقال الكوفيون والبصريون: فنحن ننصر إخواننا ونمنعهم جميعاً. كأنما كانوا على ميعاد.

فقال لهم علي : كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا! هذا والله أمر اُبرم بالمدينة. قالوا: فضعوه على ما شئتم، لا حاجة لنا في هذا الرجل، ليعتزلنا وهو في ذلك يصلي بهم وهم يصلون خلفه، ويغشى من شاء عثمان وهم في عينه أدق من التراب، وكانوا لا يمنعون أحداً من الكلام، وكانوا زمراً بالمدينة يمنعون الناس من الاجتماع(٢٥١).

هذه هي رواية الطبري بطريق سيف عن قصة الحصار الأول الذي ضربه الثوار على عثمان، وهو يبين أن هؤلاء الثوار كانوا يعلمون بأنهم على باطل، وأنهم يريدون أمراً لا يرضاه الصحابة وأهل المدينة، فهم -كما عبر عنهم القاضي ابن العربي- أهل حسادة وضغينة، وليس لديهم هدف نبيل من المجيء الاّ الرغبة في العصيان وشق عصا المسلمين.

كما وتظهر الرواية أن الثوار لم يكن لهم مطلب سوى تغيير بعض عمّال عثمان على الولايات، ولا أدري هل يعقل خروج هؤلاء وتعريض أنفسهم لهذه المخاطر يمكن أن يتم دون سبب يستحق ذلك، ولماذا يصرون أنهم لا هدف لهم غير تبديل عمال عثمان، أوليس هذا مضافاً الى كل ما سبق يدل على سوء سيرة اولئك العمال؟ أو لم يقرّ ابن العربي - حسب الرواية التي أوردها- بالمظالم التي رفعها الثوار الى عثمان، وكان من بينها (استعمال ذوي القوة والأمانة عليهم).

أما ابن كثير فيورد رواية مطولة حول (مجيء الأحزاب الى عثمان المرة الثانية من مصر وغيرها) لفّق فيها بين عدة روايات - جلها عن الطبري برواية سيف- سوف اقتطع منها بعض أجزائها لطولها، حيث قال:

(٢٥١) الطبري ٤ : ٣٤٨ .

وذلك أن أهل الأمصار لما بلغهم خبر مروان، وغضب علي على عثمان بسببه، ووجدوا الأمر على ما كان عليه لم يتغير، تكاتب أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة وتراسلوا، وزوّرت كتب على لسان الصحابة الذين بالمدينة، وعلى لسان علي وطلحة والزبير يدعون الى قتال عثمان ونصر الدين، وأنه أكبر الجهاد اليوم.

وذكر سيف بن عمر التميمي عن طلحة ومحمد وأبي حارثة وأبي عثمان، وقاله غيرهم أيضاً...(٢٥٢).

إن ابن كثير لايتنبه الى أنه - مثل القاضي ابن العربي- يناقض نفسه دائماً، فهو يعترف أن سبب مجيء الثوار- أو الأحزاب كما يسميهم- كان بسبب مروان، وأن علي بن أبي طالب قد غضب على عثمان بسببه، ثم يدعي أن سبب مجيئهم الى المدينة كان بسبب الكتب التي تم تزويرها على لسان الصحابة! وسنحاول أن نتحقق من قضية الكتاب هذه، والكتب التي أرسلها الصحابة الى أهل الأمصار، وبيان دور مروان بن الحكم في عودة الثوار الى المدينة.

كُتب أهل المدينة الى الامصار

أخرج الطبري عن الواقدي بسنده قال :

لما كانت سنة أربع وثلاثين، كتب أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) بعضهم الى بعض: أن أقدموا، فإن كنتم تريدون الجهاد، فعندنا الجهاد!

وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد، وأصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) يرون ويسمعون، ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب الاّ نُفير منهم: زيد بن ثابت، وأبو اُسيد الساعدي، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت.

فاجتمع الناس وكلموا علي بن أبي طالب; فدخل على عثمان فقال له: الناس ورائي وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه، إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وما خُصصنا بأمر دونك، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله(صلى الله عليه وآله)ونلت صهره، وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك، وإنك أقرب الى رسول الله(صلى الله عليه وآله) رحماً، ولقد نلت من صهر رسول الله(صلى الله عليه وآله) ما لم ينالا، ولا سبقاك الى شيء، فالله الله في نفسك، فإنك والله ما تبصّر من عمى، ولا تعلّم من جهل، وإن الطريق

(٢٥٢) البداية والنهاية ٧ : ١٧٠

لواضح بيّن، وأن اعلام الدين لقائمة، تعلّم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُديَ وهَدى، فأقام سنّة معلومة، وأمات بدعة متروكة، فوالله إن كلاً لبيّن، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لها أعلام، وإن شرّ الناس عند الله إمام جائر، ضَلَّ وضُلَّ به، فأمات سنّة معلومة، وأحيا بدعة متروكة، وإني سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: «يُوتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر، فيلقى في جهنم، فيدور في جهنم كما تدور الرحا، ثم يرتطم في غمرة جهنم»، وإني اُحذرك الله، واُحذرك سطوته ونقمته، فإن عذابه شديد أليم، واُحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه يقال: يُقتل في هذه الأمة إمام، فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة، وتُلبّس عليها اُمورها، ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلو الباطل، يموجون فيها موجاً، ويمرجون فيها مرجاً.

فقال عثمان : قد والله علمتُ ليقولن الذي قلت، أما والله لو كنت مكاني ما عنّفتك ولا أسلحتك ولا عبت عليك، ولا جئتُ منكراً أن وصلت رحماً وسددت خلة وآويت ضائعاً، ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولّي، أنشدك الله يا علي، هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم، قال: فتعلم أن عمر ولاّه؟ قال: نعم. قال: فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟ قال علي: سأُخبرك. إن عمر بن الخطاب كان كل من ولّى فإنما يطأ على صماخه، إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية، وأنت لا تفعل، ضعفت ورفقت على أقربائك، قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً، فقال علي: لعمري أن رحمهم مني لقريبة، ولكن الفضل في غيرهم. قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولّى معاوية خلافته كلها، فقد وليته. فقال علي: أنشدك الله، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه؟! قال: نعم. قال علي: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها، فيقول للناس: هذا أمر عثمان، فيبلغك ولا تغيّر على معاوية. ثم خرج علي من عنده، وخرج عثمان على أثره، فجلس على المنبر فقال: أما بعد، فإن لكل شي آفة، ولكل امري عاهة، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة، عيّابون طعّانون، يُرونكم ما تحبون ويُسرّون ما تكرهون، يقولون لكم وتقولون، أمثال النعام يتبعون أول ناعق، أحب مواردها إليها البعيد، لا يشربون الاّ نغصاً ولا يردون الاّ عكراً، لا يقوم لهم رائد، وقد أعيتهم الأمور وتعذّرت عليهم المكاسب. ألا فقد والله عبتم عليّ بما أقررتم لابن الخطاب بمثله، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم، ولنتُ لكم وأوطأت لكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم علي. أما والله لأنا أعز نفراً،

وأقرب ناصراً، وأكثر عدداً، وأقمن إن قلتُ هلم أتي إليَّ، ولقد أعددت لكم أقرانكم، وأفضلت عليكم فضولا، وكشرت لكم عن نابي، وأخرجتم مني خُلقاً لم أكن اُحسنه، ومنطقاً لم أنطق به; فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم ولاتكم، فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا. ألا فما تفقدون من حقكم؟ والله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي، ومن لم تكونوا تختلفون عليه. فَضَلَ فضلٌ من مال، فمالي لا أصنع في الفضل ما اُريد! فلم كنت إماماً! فقام مروان بن الحكم، فقال: إن شئتم حكّمنا والله بيننا وبينكم السيف، نحن والله وأنتم كما قال الشاعر:

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم *** معارسكم تبنون في دمن الثرى

فقال عثمان : اسكت لاسكت، دعني وأصحابي، ما منطقك هذا! ألم أتقدم اليك ألا تنطق؟

فسكت مروان، ونزل عثمان(٢٥٣).

يلاحظ من رواية الواقدي أن عثمان - قبل مجيء الثوار- كان يتكلم من موقف القوة ويلجأ الى التهديد والوعيد، أو كما قال ابن كثير: فوعظ وحذّر وأنذر، وتهدد وتوعد، وأبرق وأرعد(٢٥٤)، رغم أن علي بن أبي طالب قد أرشده الى التصرف السديد الذي يمكنه اتباعه، ونصحه ووعظه بطلب من الصحابة -كما طلبوا ذلك من اُسامة بن زيد فيما مر سابقاً - إلاّ أن عثمان كان يصم اُذنيه عن هذه النصائح، ويختلق تبريرات غير منطقية محتجاً بمواقف عمر بن الخطاب، رغم البون الشاسع بين مواقفه ومواقف عمر بن الخطاب الذي كان يشتد على ولاته ويلين مع العامة، إلا أن مواقف عثمان كانت على العكس، فهو يشتد على العامة ويلين مع الولاة، وقد برز دور مروان بن الحكم الذي كان يؤجج الموقف أكثر، حتى بلغت به الأمور أن يتهدد الناس- وفيهم الصحابة- بوضع السيف فيهم.

هذا، ولم ينفرد الواقدي بذكر الكتاب الذي كتبه أهل المدينة الى الآفاق، فقد أخرج الطبري عن جعفر بن عبدالله المحمدي بسنده، قال:

لما رأى الناس ما صنع عثمان، كتب من بالمدينة من أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)الى من بالآفاق منهم - وكانوا قد تفرقوا في الثغور- إنكم إنما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عزّوجل، تطلبون دين محمد(صلى الله عليه وآله)، فإن دين محمد قد اُفسد من

(٢٥٣) الطبري ٤ : ٣٣٦ .
(٢٥٤) البداية والنهاية ٧ : ١٦٩

خلفكم وتُرك، فهلموا فأقيموا دين محمد(صلى الله عليه وآله)، فاقبلوا من كل اُفق حتى قتلوه[٢٥٥].

فالكتب التي بعثها الصحابة الى أهل الأمصار والآفاق حقيقة واقعة، وليست كتباً مزوّرة على لسان الصحابة كما يدعي ابن كثير وغيره، وسوف تتبين مواقف الصحابة من عثمان بشكل أكثر وضوحاً فيما بعد.

دور مروان

من الواضح أن كتب الصحابة الى الأمصار ودعوتهم للتغيير، كانت من الأسباب الرئيسة في خروج هؤلاء وقصدهم المدينة، إذ يبدو واضحاً لمن يحلل المواقف أنه لم يكن من المعقول أبداً أن يجازف بضع مئات من الناس بالخروج الى عاصمة الخلافة لو لم يكن لهؤلاء سند فيها، ولولا تحقق الخارجين من دعم معظم الصحابة لمواقفهم وتأييدهم، بل ودعوتهم للمجيء الى المدينة بغية تغيير الأوضاع الشاذة التي جدّت على الساحة. فكان ذلك حافزاً لهم للخروج وقصد المدينة، ومن الضروري تناول الأحداث الخطيرة التي نتجت عن ذلك، ومعرفة نوايا الخارجين الحقيقية في الخروج، ومن ثم الكشف عن الأسباب التي أدت الى النهاية المعروفة، ومعرفة دور ولاة عثمان ومواقفهم من المشكلة، وبالخصوص دور وزيره مروان بن الحكم في تلك النهاية المأساوية التي انتهى إليها عثمان.

ويبدو لمن تصفح تاريخ الطبري، أنه قد أعرض عن الكثير من الروايات المهمة التي صورت الأحداث على حقيقتها، أو ذكرت الأسباب التي أدت الى مجيء الثوار الى المدينة، واعترف الطبري بذلك بقوله: وأما الواقدي، فإنه ذكر في سبب مسير المصريين الى عثمان ونزولهم ذا خشب اُموراً كثيرة، منها ما تقدم ذكريه، ومنها ما أعرضت عن ذكره كراهة مني لبشاعته[٢٥٦].

وعلى أي حال، فإن المشكلة كانت على وشك أن تُحل بتدخل بعض الصحابة في الأمر، وبعد أن تعهد عثمان بالاقلاع عن الاُمور التي نقموها عليه، إلاّ أن تدخل مروان في الأمر قد أفشل جميع المساعي التي بُذلت لتحقيق الصلح، مما أدى في النهاية الى أن يفقد الثوار صبرهم، مضافاً الى تصرفات اُخرى من قبل عثمان

(٢٥٥) الطبري ٤ : ٣٦٧ .
(٢٥٦) الطبري ٤ : ٣٥٦ .

وبعض أعوانه، مما عجّل في سير الأحداث الى النهاية المأساوية، فقد أخرج الطبري عن الواقدي بسنده قال:

لما نزلوا ذا خشب، كلّم عثمان علياً وأصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يردّهم عنه، فركب علي وركب معه نفر من المهاجرين، فيهم سعيد بن زيد، وأبو جهم العدوي، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، ومروان بن الحكم، وسعيد ابن العاص، وعبدالرحمان بن عتاب بن أُسيد.

وخرج من الأنصار : أبو أُسيد الساعدي، وأبو حميد الساعدي، وزيد بن ثابت، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومعهم من العرب: نيار بن مكرم، وغيرهم ثلاثون رجلا، وكلّمهم علي ومحمد بن مسلمة -وهما اللذان قدما- فسمعوا مقالتهما ورجعوا.

قال محمود : فأخبرني محمد بن مسلمة، قال: ما برحنا من ذي خشب حتى رحلوا راجعين الى مصر، وجعلوا يسلمون علي، فما أنسى قول عبدالرحمان بن عُديس:

أتوصينا يا أبا عبدالرحمان بحاجة؟ قال: قلت: تتقي الله وحده لا شريك له، وتردّ من قبلك عن إمامه، فإنه قد وعدنا أن يرجع وينزع. قال ابن عديس: أفعل إن شاء الله. قال: فرجع القوم الى المدينة(٢٥٧).

عند هذه النقطة، سارت الأمور على خير ما يرام، فان الثوار استجابوا لمساعي الصحابة الذين تدخلوا لإنهاء الأزمة، ومن الواضح أن الصحابة الذين كتب بعضهم الى اولئك الثوار يستقدمونهم، إنما كانوا يريدون حمل عثمان على النزوع عما كرهوه، فلما ظنوا أنه قد فعل، وأن بوادر الخير قد بدأت تلوح باعلان عثمان التوبة عن تلك الأُمور، ظنوا أن المشكلة قد حُلّت، فتدخلوا لاقناع الثوار بالرجوع الى بلادهم بعد انتفاء الحاجة الى وجودهم في المدينة.

ويروي الطبري عن الواقدي تتمة القصة، والملابسات التي اكتنفتها، وكيف تغيّرت الأُمور من جديد، وسارت باتجاه الأزمة مرة أُخرى، فيقول:

ثم إن علياً جاء عثمان بعد انصراف المصريين، فقال له: تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ويشهدون عليه، ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة، فان البلاد قد تمخضت عليك، فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة، فتقول: يا علي، اركب إليهم، ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً. ويقدم ركب آخرون من البصرة فتقول: يا علي اركب إليهم، فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك، واستخففت بحقك.

(٢٥٧) الطبري ٤ : ٣٥٩ .

فخرج عثمان فخطب الخطبة التي نزع فيها، وأعطى الناس من نفسه التوبة، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله، وما جئت شيئاً الاّ وأنا أعرفه، ولكني منّتني نفسي وكذبتني، وضلّ عني رشدي، ولقد سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله)يقول: «**من زلّ فليتب، ومن أخطأ فليتب ولا يتماد في الهلكة، إن من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق**» فأنا أول من اتّعظ، استغفر الله مما فعلت وأتوب اليه، فمثلي نزع وتاب، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم، فوالله لئن ردني الحق عبداً لأستنّ بسنّة العبد، ولأذلن ذل العبد، ولأكونن كالمرقوق، إن ملك صبر، وإن عُتق شكر، وما عن الله من مذهب الا إليه، فلا يعجزن منكم خياركم أن يدنوا لي، لئن أبت يميني لتتابعني شمالي.

فرقّ الناس له يومئذ، وبكى من بكى منهم، وقام اليه سعيد بن زيد فقال: يا أمير المؤمنين، ليس بواصل لك من ليس معك، الله الله في نفسك، فأتمم على ما قلت. فلما نزل عثمان وجد في منزله مروان وسعيداً ونفراً من بني اُمية، ولم يكونوا شهدوا الخطبة، فلما جلس قال مروان: يا أمير المؤمنين، أتكلم أم أصمت؟ فقالت نائلة بنت الفرافصة، امرأة عثمان الكلبية: لا، بل اصمت، فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه، إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها.

فأقبل مروان عليها فقال: ما أنت وذاك، فوالله لقد مات أبوك وما يحسن يتوضأ، فقالت له: مهلا يا مروان عن ذكر الآباء، تخبر عن أبي وهو غائب تكذب عليه! وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عنه، أما والله لولا أنه عمه وأنه يناله غمّه، أخبرتك عنه ما لم أكذب عليه.

فأعرض عنها مروان ثم قال : يا أمير المؤمنين، أتكلم أم أصمت؟

قال : بل تكلم.

فقال مروان : بأبي أنت واُمي، والله لقد وددت أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع، فكنت أول من رضي بها وأعان عليها، ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطُّبيين وخلف السيل الزُبى، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل، والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها، وإنك إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقرر بالخطيئة، وقد اجتمع اليك على الباب مثل الجبال من الناس.

فقال عثمان : فاخرج اليهم فكلمهم فإني أستحيي أن اُكلمهم.

فخرج مروان الى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً، فقال: ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب! شاهت الوجوه، كل إنسان آخذ بأُذن صاحبه الاّ من

أريد، جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! اخرجوا عنا، أما والله لئن رمتمونا ليمرّن عليكم منا أمر لايسركم ولا تحمدوا غبّ رأيكم، ارجعوا الى منازلكم فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا!

فرجع الناس وخرج بعضهم حتى أتى علياً فأخبره الخبر، فجاء علي(عليه السلام)مغضباً حتى دخل على عثمان فقال : أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلاّ بتحرفك عن دينك وعن عقلك، مثل جمل الظعينة يقاد حين يسار به! والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه، وأيم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك، أذهبتَ شرفك وغُلبت على أمرك!

فلما خرج علي، دخلت عليه نائلة ابنة الفرافصة امرأته فقالت: أتكلم أو أسكت؟ فقال: تكلمي. فقالت: قد سمعت قول علي لك وأنه ليس يعاودك، وقد أطعت مروان يقودك حيث شاء.

قال : فما أصنع؟

قالت : تتقي الله وحده لا شريك له، وتتبع سنّة صاحبيك من قبلك، فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة، وإنما تركك الناس لمكان مروان، فأرسل الى علي فاستصلحه، فإن له قرابة منك وهو لا يعصى. فأرسل عثمان الى علي فأبى أن يأتيه وقال: قد أعلمته أني لست بعائد(٢٥٨).

وبذلك بدأ مروان يلعب الدور الخطير في زيادة حدة الأزمة مستغلا ضعف عثمان وانقياده حتى أزاله عن رأيه وجعله يتراجع عن توبته على رؤوس الأشهاد وبكائه من ندمه، الأمر الذي جعل الناس يرقون له ويتعاطفون معه، وكادت الأزمة أن تنجلي تماماً لولا تدخل مروان، حتى قال عبدالرحمان ابن الاسود بن عبديغوث - فيما أخرج الطبري عن الواقدي-: قبّح الله مروان، خرج عثمان الى الناس فأعطاهم الرضا وبكى على المنبر وبكى الناس، حتى نظرت الى لحية عثمان مخضلّة بالدموع وهو يقول: اللهم إني أتوب اليك، اللهم إني أتوب اليك، اللهم إني أتوب اليك، والله لئن ردني الحق الى أن أكون عبداً قِنّاً لأرضين به، إذا دخلت منزلي فادخلوا علي، فوالله لا احتجب منكم، ولأعطينكم الرضا، ولازيدنكم على الرضا، ولانحيّن مروان وذويه.

فلما دخل أمر بالباب ففتح، ودخل بيته ودخل عليه مروان، فلم يزل يفتله في الذروة والغارب حتى فتله عن رأيه وأزاله عما كان يريد، فلقد مكث عثمان ثلاثة أيام

(٢٥٨) الطبري ٤ : ٣٦٠

ما خرج استحياء من الناس، وخرج مروان الى الناس فقال: شاهت الوجوه... الخ(٢٥٩).

ولو أن الأمر اقتصر على ذلك لهان الأمر، فلربما كان ثمة فرصة للعلاج أيضاً، ولكن دور مروان لم يقتصر على ذلك، بل تعداه الى ماهو أخطر من ذلك بكثير...

الكتاب المشؤوم

علمنا ممّا سبق أن الثوار قد غادروا المدينة بعدما أخذوا العهود والمواثيق من الخليفة عثمان بن عفان بأن ينزع عن أعماله التي أقرّ لهم بها، وكان يمكن لهؤلاء أن يستمروا في مسيرهم الى بلادهم بعد ذلك، وكان من الممكن أيضاً تدارك ما حدث في المدينة، حيث كان باستطاعة عثمان أن يبعد مروان بن الحكم أو أن يمتنع من مجالسته واستشارته، ومن ثم يعتذر لأهل المدينة عما قاله مروان لهم، ويتعهد بعدم تكرار ما حدث، وبالالتزام بعهوده ومواثيقه.

كل هذا كان ممكناً وفي متناول يد عثمان، لولا أن مروان بن الحكم لم يكتف بما فعل، بل قام بعمل سرّي دون أن يُعلم الخليفة به، فكانت تلك بداية العاصفة التي اقتلعت كل شي فيما بعد.

وخلاصة ذلك، كما أخرج الطبري عن جعفر بسنده، قال:

إنما ردّ أهل مصر الى عثمان بعد انصرافهم عنه أنه أدركهم غلام لعثمان على جمل له بصحيفة الى أمير مصر أن يقتل بعضهم وأن يصلب بعضهم.

فلما أتوا عثمان قالوا: هذا غلامك! قال: غلامي انطلق بغير علمي.

قالوا : جملك! قال: أخذه من الدار بغير أمري. قالوا: خاتمك! قال: نقش عليه...(٢٦٠).

وقد مرّ بنا في الفصل الأول الإشارة الى قصة الكتاب هذه كما أوردها البلاذري عن سعيد بن المسيب.

والمصادر التي ذكرت قصة الكتاب كثيرة، إلاّ أن ما يهمنا من الأمر هو ابراز دور مروان بن الحكم في هذه القضية من ناحية، وابراز آراء المؤلفين ومواقفهم من هذه القضية، وانعكاس ذلك على آرائهم في الثوار من ناحية أُخرى.

يتطرق ابن كثير الى موضوع الكتاب هذا مبدياً رأيه في الموضوع بقوله:

(٢٥٩) الطبري ٤ : ٣٦٣

(٢٦٠) الطبري ٤ : ٣٦٨

وقد ذكر ابن جرير في تاريخه بأسانيده، أن المصريين لما وجدوا ذلك الكتاب مع البريد الى أمير مصر، فيه الأمر بقتل بعضهم وصلب بعضهم، وبقطع أيدي بعضهم وأرجلهم، وكان قد كتبه مروان بن الحكم على لسان عثمان متأولا قوله تعالى: **(إنّماجزاءُ الذينَ يُحاربونَ اللهَ وَرسولهُ وَيسعونَ في الأرضِ فساداً أنْ يُقتّلوا أو يُصلّبوا أو تُقطّعَ أيديهِمْ وأرجُلهم مِن خِلافٍ أو يُنفَوا من الأرضِ ذلكَ لهُم خِزيٌ في الدنيا ولَهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ).**

وعنده أن هؤلاء الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان(رضي الله عنه) من جملة المفسدين في الأرض، ولا شك أنهم كذلك...

فلما قيل لعثمان(رضي الله عنه) في أمر هذا الكتاب... حلف بالله العظيم -وهو الصادق البار الراشد- أنه لم يكتب هذا الكتاب ولا أملاه على من كتبه، ولا علم به...

فقالوا له بعد كل مقالة: إن كنت كتبته فقد خنت، وإن لم تكن كتبته، بل كُتب على لسانك وأنت لا تعلم فقد عجزت، ومثلك لا يصلح للخلافة، إما لخيانتك وإما لعجزك.

وهذا الذي قالوا باطل على كل تقدير، فانه لو فرض أنه كتب الكتاب- وهو لم يكتبه في نفس الأمر- لا يضره ذلك، لأنه قد يكون رأى ذلك مصلحة للأمة في إزالة شوكة هؤلاء البغاة الخارجين على الإمام... وإنما هؤلاء الجهلة البغاة متعنّتون خونة ظلمة مفترون...[٢٦١].

يقول ابن كثير هذا ويصف الخارجين على عثمان بهذه الأوصاف، وكأنه يعطي مروان بن الحكم الحق فيما فعل، ولا يصفه بمثل هذه الصفات القبيحة، مع أن عمل مروان اجتراء كبير على منصب الخلافة، فضلا عما في عمله هذا من مفسدة عظيمة كانت هي السبب المباشر فيما حدث فيما بعد.

وليس ابن كثير أول من يصف هؤلاء القوم بهذه الأوصاف، بل سبقه القاضي ابن العربي - كما ذكرنا فيما سبق- ومن قبل ابن العربي قالها ابن حزم الأندلسي، حيث وصفهم بقوله: وعمّار(رضي الله عنه) قتله أبو العادية يسار بن سبع السلمي، شهد بيعة الرضوان، فهو من شهداء الله بأنه علم ما في قلبه وأنزل السكينة عليه ورضي عنه، فأبو العادية(رضي الله عنه) متأول مجتهد مخطئ فيه، باغ عليه مأجور أجراً واحداً، وليس هذا كقتلة عثمان(رضي الله عنه)، لأنهم لا مجال للاجتهاد في قتله... بل هم فسّاق محاربون سافكون دماً حراماً عمداً بلا تأويل، على سبيل الظلم والعدوان، فهم فسّاق ملعونون[٢٦٢].

فقاتل عمار بن ياسر - وهو الصحابي أبو العادية من الذين شهدوا بيعة الرضوان- فهو مغفور له لذلك، ويُحمل عمله على التأول والاجتهاد، أما عبدالرحمان

(٢٦١) البداية والنهاية ٧ : ١٨٦
(٢٦٢) الفصل في الملل والاهواء والنحل ٤ : ١٦١

بن عديس البلوي - الذي تقدم في ترجمته أنه ممن شهد بيعة الرضوان- فهو في رأي ابن حزم ليس كذلك، فلا مجال للتأول والاجتهاد في عمله، بل يحكم عليه ابن حزم بأنه واحد من الفسّاق الملعونين لمشاركته في الثورة على عثمان وقتله.

فكيف انقلب هؤلاء الصحابة إلى فسّاق وقتلة ومجرمين، مع الإدعاء بعدالة الصحابة أجمعين؟! - حتى الذين تلبّسوا بالفتن كما يقولون - ومن الذي أظهرهم بهذا المظهر؟ ولماذا يكون قاتل عمار بن ياسر بريئاً من جريمته، بينما يكون قاتل عثمان مجرماً؟! مع تأكيد النبي(صلى الله عليه وآله) بأن قاتل عمار وسالبه في النار، إذ نقل ابن كثير عن ابن ديزيل باسناده الى يعقوب بن راقط قال: اختصم رجلان في سلب عمار وفي قتله، فأتيا عبدالله بن عمرو بن العاص ليتحاكما إليه فقال لهما: ويحكما، اخرجا عني فإن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال - ولعبت قريش بعمار- «**مالهم ولعمار؟ عمار يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار، قاتله وسالبه في النار**»[٢٦٣].

فاذا كان النبي(صلى الله عليه وآله) قد أخبر بأن قاتل عمار في النار، فكيف صار في نظر ابن حزم متأولا، بل مجتهداً، بل مأجوراً على عمله ذاك!!

إن هذا التناقض في المواقف من الصحابة ليبعث على الدهشة حقاً، ولكن هذه الدهشة سرعان ما تتبدد عندما نعود الى الوراء قليلا ونذكر ما قلناه فيما سبق، من أن هذا الموقف العدائي يشمل فقط الصحابة الذين كانوا من أتباع علي بن أبي طالب، بينما يصبح أتباع معاوية وبني اُمية متأولين مجتهدين مأجورين - مثل معاوية- وهذا هو بالضبط ما كان يهدف اليه سيف ابن عمر في رواياته، ومن ثم انساق جمهور المؤلفين وراء هذاالهدف ذاته، وهذا ما سوف ينجلي بشكل أكثر وضوحاً فيما بعد.

ولم ينج الكثيرون من الوقوع في التناقض بتباين مواقفهم من الصحابة، فقد روى عمر بن شبة عن ابراهيم بن المنذر بسنده، قال: قدمت على عثمان ابن عفان(رضي الله عنه) فقلت: أرى وفد مصر قد رجعوا خمسين عليهم ابن عديس. قال: وكيف رأيتهم؟ قلت: رأيت قوماً في وجوههم الشر.

قال : فطلع ابن عديس منبر رسول الله(صلى الله عليه وآله) فخطب الناس وصلى لأهل المدينة الجمعة، وقال في خطبته: ألا إن ابن مسعود حدثني أنه سمع رسول الله(صلى الله عليه وآله)يقول: «**إن عثمان بن عفان كذا وكذا**»! وتكلم بكلمة أكره ذكرها[٢٦٤].

لقد خضع عمر بن شبة لسلطان الرأي العام -كما فعل غيره- فلم يذكر نص قول النبي(صلى الله عليه وآله) في عثمان. إلاّ أن تتمة الرواية -كما ذكرها غيره- أن النبي(صلى

(٢٦٣) البداية والنهاية ٧ : ٢٦٧ ، الطبقات الكبرى ٣ : ٢٦٠ ، مسند أحمد ٤ : ١٩٨ ، المستدرك ٣ : ٣٨٧ ، سلسلة الاحاديث الصحيحة للالباني ٥ : ١٨ وقال : وهذا الاسناد صحيح رجاله ثقات من رجال مسلم .
(٢٦٤) تاريخ المدينة : ١١٥٦

الله عليه وآله)قال: «ألا إن عثمان أضل من عبيدة على بعلها!!» فأخبرت عثمان فقال: كذب والله ابن عديس، ما سمعها من ابن مسعود، ولا سمعها ابن مسعود من رسول الله(صلى الله عليه وآله)قط.

قال ابن الجوزي : هذا حديث لا نشك في أنه كذب، ولسنا نحتاج الى الطعن في الرواة، وإنما هو من تخرص ابن عديس!(٢٦٥).

وقال ابن عراق الكناني : قال الذهبي في تلخيص الموضوعات: لا يدرى ممن أخذه ابن أبي الدنيا، وابن لهيعة على ضعفه قوي التشيع، أو قد افتراه ابن عديس(٢٦٦).

فابن الجوزي والذهبي وغيرهما يحكمان على ابن عديس بالكذب حتى أنه لا حاجة للنظر في إسناد الرواية لتيقن كذب ابن عديس، وقد تناسى هذان وغيرهما أيضاً أن ابن عديس صحابي رضواني، والمفترض في الصحابة العدالة والتنزه عن الكذب!

موقف عثمان من الخلافة

لقد كانت الأحداث تتسارع الى نهايتها المحتومة بقتل الخليفة في عقر داره وعلى مرآى ومسمع من اُلوف الصحابة الذين تخلوا عنه، بل أن أكثرهم صار يمالئ عليه ويحرّض على قتله، كما سوف نثبت فيما بعد.

لقد كانت الفرصة بيد عثمان لاصلاح الأوضاع، ولكنه لم يلتفت إليها، وانساق وراء مروان وبني اُمية الذين لم يخلصوا له النصيحة، وكانوا ينظرون الى مصالحهم الذاتية ويقدّمونها على مصلحة الأمة، فأوردوه موارد الهلكة، بعد أن صمّ عثمان سمعه عن نصح الصحابة الذين حاولوا انقاذ الموقف قبل فوات الأوان.

لقد كان موضوع الكتاب ـ الذي من المؤكد أن مروان بن الحكم قد افتعله في غفلة من الخليفة ـ هو السبب الأخير الذي اشعل فتيل الأزمة وفجّر الوضع.

وقد دأب المؤلفون على تحميل الثوار مسؤولية ما حدث، والادعاء بأن كانت هناك أيد تعمل في الخفاء للإطاحة بعثمان، وانساق أكثرهم وراء أكاذيب سيف بن عمر الذي حاول أن يجسّد الفتنة كلها في شخص عبدالله ابن سبأ المزعوم.

لكننا عندما نبحث مواقف الثوار، نجدها إيجابية الى أبعد الحدود، فقد كانت مطالبهم عادلة، وهم لم يتعجلوا الإغارة على عثمان، بل إنهم تراجعوا الى بلدانهم بعد أن أخذوا من عثمان الوعود بتغيير سياساته الخاطئة، ولكنهم عادوا الى المدينة ثانية

(٢٦٥) كتاب الموضوعات ١ : ٢٥٠

(٢٦٦) تنزيه السنّة والشريعة ١ : ٣٥٠

بعد اكتشافهم كتاب مروان المزوّر على لسان عثمان، وهنا لابد من الاشارة الى مسألة طالما تشبث بها بعض المؤلفين الذين انساقوا وراء رواية سيف الذي يروي محاججة علي بن أبي طالب للثوار من أهل الكوفة بكيفية وصول خبر الكتاب الذي وجده المصريون مع رسول عثمان اليهم، متهماً إياهم بأن في الأمر اتفاقاً سرياً بينهم دُبّر بالمدينة، لكننا عندما نتصفح الروايات نجد معظمها يؤكد على عودة المصريين أولا ومحاججتهم عثمان، مما يدل على أن الوفد المصري الذي وجد الكتاب قد عاد أولا الى المدينة، ثم أرسلوا الى اخوانهم من أهل الكوفة والبصرة الذين جاءوا على إثرهم واتحدوا معاً في محاصرة عثمان.

وعلى أية حال، فإن الثوار ورغم كل ذلك لم يتعجلوا أمرهم، وأعطوا عثمان فرصة جديدة بتخييره بين عدة أُمور، لكنه رفضها جميعاً وفوّت الفرصة، وكانت البداية أنهم بعثوا بكتاب الى عثمان، فيما أخرج الطبري عن جعفر باسناده قال:

كتب أهل مصر بالسقيا - أو بذي خشب- الى عثمان بكتاب، فجاء به رجل منهم حتى دخل به عليه، فلم يردّ عليه شيئاً; فأمر فأُخرج من الدار.

وكان أهل مصر الذين ساروا الى عثمان ستمائة رجل على أربعة ألوية لها رؤوس أربعة، مع كل رجل منهم لواء، وكان جماع أمرهم جميعاً الى عمرو بن بُديل بن ورقاء الخزاعي -وكان من أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)- والى عبدالرحمان بن عديس التجيبي، فكان فيما كتبوا إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فاعلم أن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فالله الله، ثم الله الله، فإنك على دنيا، فاستقم إليها مع آخرة، ولا تلبس نصيبك من الآخرة، فلا تسوغ لك الدنيا، واعلم أنا والله لله نغضب، وفي الله نرضى، وإنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرّحة، أو ضلالة مجلّحة مبلجة، فهذه مقالتنا لك، وقضيتنا إليك، والله عذيرنا منك، والسلام.

وكتب أهل المدينة الى عثمان يدعونه الى التوبة، ويحتجّون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه، أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله(٢٦٧).

وقد مرّ فيما سبق أن بعض الصحابة كعلي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وغيرهما قد تدخلوا حتى أرجعوا القوم وأقنعوهم بأن عثمان راجع عما يكرهون، وضمنوا لهم ذلك، ولكن كتاب مروان بن الحكم قلب الأوضاع من جديد، وجعلهم يرجعون الى المدينة ليفرضوا على عثمان شروطاً جديدة، فيما أخرج الطبري عن جعفر باسناده، من أن الثوار واجهوه بقولهم:

(٢٦٧) الطبري ٤ : ٣٦٩

ألم نفارقك على أنك زعمت أنك تائب من إحداثك وراجع عما كرهنا منك واعطينا عهد الله وميثاقه؟! قال: بلى، أنا على ذلك. قالوا: فما هذا الكتاب الذي وجدنا مع رسولك، وكتبت به الى عاملك؟ قال: ما فعلت ولا علم لي بما تقولون. قالوا: بريدك على جملك، وكتاب كاتبك عليه خاتمك. قال: أما الجمل فمسروق، وقد يشبه الخط الخط، وأما الخاتم فانتُقش عليه، قالوا: فإنا لا نعجل عليك، وإن كنّا قد اتهمناك; اعزل عنا عمالك الفساق، واستعمل علينا من لا يُتهم على دمائنا وأموالنا، واردد علينا مظالمنا.

قال عثمان : ما أراني إذاً في شي إن كنت استعمل من هويتم واعزل من كرهتم، الأمر إذاً أمركم!

قالوا : والله لتفعلن أو لتُقتلن، فانظر لنفسك أو دَع.

فأبى عليهم وقال : لم أكن لأخلع سربالا سربلنيه الله.

فحصروه أربعين ليلة وطلحة يصلي بالناس(٢٦٨).

من الانصاف القول بأن الثوار لم يكونوا يقصدون قتل عثمان بدءاً، بدليل أنهم حصروه مدة تقرب من أربعين يوماً، وكان في مقدورهم اقتحام بيته وقتله بسهولة، ولكنهم مع ذلك أعطوه فرصة كافية للتراجع عن موقفه، ولكنه أبى.

وقد جرت بين الطرفين في هذه الفترة مناظرات عديدة، وكل طرف يدلي بحجته، فقد أخرج الطبري عن الواقدي بسنده، قال:

أشرف عثمان عليهم وهو محصور وقد أحاطوا بالدار من كل ناحية فقال: أنشدكم بالله عزّوجل، هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) أن يخير لكم، وأن يجمعكم على خيركم، فما ظنكم بالله! أتقولونه: لم يستجب لكم، وهُنتم على الله سبحانه، وأنتم يومئذ أهل حقّه من خلقه، وجميع أُموركم لم تتفرق! أم تقولون: هان على الله دينه فلم يبال من ولاّه، والدين يومئذ يُعبد به الله ولم يتفرق أهله، فتوكلوا أو تخذلوا أو تُعاقبوا! أم تقولون: لم يكن أخذ عن مشورة، وإنما كابرتم مكابرة، فوكل الله الأمة إذا عصته لم تشاوروا في الإمام، ولم تجتهدوا في موضع كراهته! أم تقولون: لم يدرِ الله عاقبة أمري، فكنتُ في بعض أمري محسناً ولأهل الدين رضاً، فما اُحدثت بعد في أمري ما يسخط الله، وتسخطون مما لم يعلم الله سبحانه يوم اختارني وسربلني سربال كرامته!

وأُنشدكم بالله، هل تعلمون لي من سابقة خير وسلف خير قدّمه الله لي، واشهدنيه من حقه وجهاد عدوه حق على كل من جاء بعدي أن يعرفوا لي فضلها، فمهلا لا تقتلوني، فإنه لا يحل إلاّ قتل ثلاثة: رجل زنا بعد إحصانه، أو كفر بعد إسلامه، أو

(٢٦٨) الطبري ٤ : ٣٧١

قتل نفساً بغير نفس فيُقتل بها، فإنكم إن قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم، ثم لم يرفعه الله عزّوجل عنكم الى يوم القيامة، ولا تقتلوني فإنكم إن قتلتموني لم تصلوا من بعدي جميعاً أبداً، ولم تقتسموا بعدي فيئاً جميعاً أبداً، ولن يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً.

قالوا له : أما ما ذكرت من استخارة الله عزّوجل الناس بعد عمر(رضي الله عنه) فيمن يولّون عليهم، ثم ولّوك بعد استخارة الله، فان كل ما صنع الله الخيرة، ولكن الله سبحانه جعل أمرك بلية ابتلى بها عباده، وأما ما ذكرت من قدمك وسبقك مع رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فانك كنت ذا قدم وسلف، وكنت أهلا للولاية، ولكنك بدّلت بعد ذلك وأحدثت ما قد علمت، وأما ما ذكرت مما يصيبنا إن نحن قتلناك من البلاء، فانه لا ينبغي ترك إقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاماً قابلا.

وأما قولك إنه لا يحل الاّ قتل ثلاثة، فانا نجد في كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سمّيت: قتل من سعى في الأرض فساداً، وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه، وقتل من حال دون شي من الحق ومنعه ثم قاتل دونه وكابر عليه. وقد بغيت ومنعت الحق وحُلت دونه وكابرت عليه، تأبى ان تقيد من نفسك من ظلمت عمداً، وتمسكت بالامارة علينا وقد جُرت في حكمك وقسمك، فان زعمت أنك لم تكابرنا عليه، وأن الذين قاموا دونك ومنعوك منا إنما يقاتلون بغير أمرك، فانما يقاتلون لتمسكك بالامارة، فلو أنك خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال دونك(٢٦٩).

يتبين من هذه المناظرة بين عثمان والثوار، أن حجج عثمان لا تنهض أمام حجج الثوار الذين نقضوا كل ما استدل به على صحة موقفه، ومشكلة عثمان الكبرى كانت تتلخص في تمسكه بمنصبه رغم السخط الشعبي الذي يواجهه، والحقيقة فان قراءة التاريخ تثبت أن عثمان ومن ورائه بنو اُمية جميعاً كانوا ينظرون الى الخلافة نظرة المُلك، ويعتبرونها هبة من الله لا ينبغي التخلي عنها مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك. وقد تبين مما سبق هذا المعنى في كلام مروان بن الحكم حينما خرج الى الناس من دار عثمان واتهمهم بأنهم يريدون نزع ملكهم من أيديهم، وأنهم وبنو اُمية مستعدون لأن يقاتلوا دون هذا الملك بالسيف.

وقد سبق لأبي سفيان ـعميد البيت الأموي- أن صرّح بهذا القول دونما تحرج حين قال لعثمان في بداية توليه الخلافة، فيما أخرج ابن عبدالبر عن الحسن:

قد صارت اليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني اُمية، فانما هو المُلك، ولا أدري ما جنّة ولا نار!(٢٧٠).

(٢٦٩) الطبري ٤ : ٣٩٥

(٢٧٠) الاستيعاب ٤ : ترجمة أبي سفيان ، وانظر النزاع والتخاصم للمقريزي : ٢٠ ، تهذيب تاريخ دمشق ٦ : ٤٠٩

ونظرة أبي سفيان إلى الملك أبعد من ذلك التاريخ، فانه بعد أن أمنه رسول الله(صلى الله عليه وآله) قُبيل فتح مكة، أمر عمه العباس أن يحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمرّ عليه جنود الله، فلما رأى أبو سفيان كتائب المسلمين تترى أمام عينيه وفي آخرها كتيبة رسول الله(صلى الله عليه وآله) الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد لا يُرى منهم إلاّ الحدق قال للعباس: «لقد أصبح ملك ابن اخيك عظيماً! فقال له العباس: ويحك، إنها النبوة. فقال: نعم إذاً...»(٢٧١).

فأبو سفيان لم يكن يصدّق أن النبوة ليست الاّ ملكاً، فكيف بالخلافة! والوليد بن عقبة حينما ولاه عثمان الكوفة قال لسعد المعزول عنها: إنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون. فقال له سعد: أراكم ستجعلونها مُلكاً.

ويبدو أن عثمان بن عفان وبنو اُمية جميعاً قد عملوا بنصيحة أبي سفيان فعلا، فتمسكوا بالخلافة على أنها مُلك شرعي لهم فيما يشبه ما اصطلح عليه الغربيون بنظرية (الحق الإلهي)، حتى دفع عثمان حياته ثمناً لها، ثم جاء معاوية وبنو اُمية فثبتّوا الخلافة على أساس الملك حتى النهاية.

بداية النهاية

فشلت المفاوضات بين عثمان والثوار أيام الحصار، ولم يتمكن الثوار من إقناع عثمان بالتزحزح عن موقفه، ومن ثم حدثت اُمور اُخرى عجّلت في دفع الاُمور الى النهاية، مما دفع الثوار الى تغيير موقفهم من الاكتفاء بمحاصرة عثمان الى إرادة قتله، فقد روى الطبري عن جعفر بن محمد باسناده، قال:

لما مضت أيام التشريق، أطافوا بدار عثمان(رضي الله عنه) وأبى إلاّ الاقامة على أمره، وأرسل الى حشمه وخاصته فجمعهم، فقام رجل من أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)يقال له نيار بن عياض - وكان شيخاً كبيراً- فنادى: يا عثمان، فأشرف عليه من أعلى داره، فناشده الله وذكّره لما اعتزلهم. فبينا هو يراجعه الكلام، إذ رماه رجل من أصحاب عثمان فقتله بسهم، وزعموا أن الذي رماه كثير بن الصلت الكندي، فقالوا لعثمان عند ذلك: إدفع إلينا قاتل نيار بن عياض فلنقتله به، فقال: لم أكن لأقتل رجلا نصرني وأنتم تريدون قتلي.

فلما رأوا ذلك ثاروا الى بابه فأحرقوه، وخرج عليهم مروان بن الحكم من دار عثمان في عصابة، وخرج سعيد بن العاص في عصابة، وخرج المغيرة ابن الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة في عصابة فاقتتلوا قتالا شديداً.

(٢٧١) تاريخ الطبري ٣ : ٥٤ ، الكامل لابن الاثير ٢ : ٢٤٥ .

وكان الذي حداهم على القتال أنه بلغهم أن مدداً من أهل البصرة قد نزلوا صراراً -وهي من المدينة على ليلة- وأن أهل الشام قد توجهوا مقبلين، فقاتلوهم قتالا شديداً على باب الدار، فحمل المغيرة بن الأخنس الثقفي على القوم وهو يقول مرتجزاً:

قد علمت جارية عطبول *** لها وشاح ولها حجولُ

أني بنصل السيف خنشليلُ

فحمل عليه عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي وهو يقول:

إن تكُ بالسيف كما تقولُ *** فاثبت لقرن ماجد يصولُ

بمشرفي حدّه مصقولُ

فضربه عبدالله فقتله، وحمل رفاعة بن رافع الأنصاري ثم الزرقي على مروان بن الحكم فضربه فصرعه، فنزل عنه وهو يرى أنه قتله، وجرح عبدالله ابن الزبير جراحات، وانهزم القوم حتى لجأوا الى القصر فاعتصموا ببابه، فاقتتلوا عليه قتالا شديداً، فقتل في المعركة على الباب زياد بن نعيم الفهري في ناس من أصحاب عثمان، فلم يزل الناس يقتتلون حتى فتح عمرو بن حزم الأنصاري باب داره وهو الى جنب دار عثمان بن عفان، ثم نادى الناس فأقبلوا عليه من داره، فقاتلوهم في جوف الدار حتى انهزموا، وخُلّي لهم عن باب الدار، فخرجوا هراباً في طرق المدينة، وبقي عثمان في أناس من أهل بيته وأصحابه فقتلوا معه، وقتل عثمان(رضي الله عنه)(٢٧٢).

فالأمر الذي عجل بالنهاية وجعل الثوار يقررون قتل عثمان هو -كما ورد فيما سبق- مجيء قوات عسكرية كان قد استنفرها عثمان من عمّاله على الأمصار للدفاع عنه أيام الحصار، فقد ذكر الطبري عن جعفر بسنده قال:

لما رأى عثمان ما قد نزل به وما انبعث عليه من الناس، كتب الى معاوية ابن أبي سفيان وهو بالشام: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة، فابعث الي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول.

فلمّا جاء معاوية الكتاب تربّص به، وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وقد علم اجتماعهم; فلما أبطأ أمره على عثمان، كتب الى يزيد بن أسد بن كرز، والى أهل الشام يستنفرهم ويعظّم حقه عليهم، ويذكر الخلفاء وما أمر الله عزّوجل به من طاعتهم ومناصحتهم، ووعدهم أن ينجدهم جند أو بطانة دون الناس، وذكّرهم بلاءه عندهم وصنيعه إليهم، فإن كان عندكم غياث فالعجل العجل فإن القوم معاجلي.

(٢٧٢) الطبري ٤ : ٣٨١

فلما قرئ كتابه عليهم قام يزيد بن أسد بن كرز البجلي ثم القسري، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر عثمان فعظّم حقه، وحثّهم على نصره، وأمرهم بالمسير إليه، فتابعه ناس كثير، وساروا معه حتى إذا كانوا بوادي القرى، بلغهم قتل عثمان(رضي الله عنه)، فرجعوا.

وكتب عثمان الى عبدالله بن عامر: أن اندب إلي أهل البصرة، نسخة كتابه الى أهل الشام.

فجمع عبدالله بن عامر الناس; فقرأ كتابه عليهم، فقامت خطباء من أهل البصرة يحضونه على نصر عثمان والمسير إليه، فيهم مجاشع بن مسعود السلمي، وكان أول من تكلم وهو يومئذ سيد قيس بالبصرة، وقام أيضاً قيس ابن الهيثم السلمي فخطب وحض الناس على نصر عثمان، فسارع الناس الى ذلك; فاستعمل عليهم عبدالله بن عامر بن مجاشع بن مسعود فسار بهم، حتى إذا نزل الناس بالربذة ونزلت مقدمته عند صرار - ناحية من المدينة- أتاهم قتل عثمان(٢٧٣).

كما روى البلاذري عن المدائني بسنده الى الشعبي قال: كتب عثمان الى معاوية أن أمدني، فأمده بأربعة آلاف مع يزيد بن أسد بن كرز البجلي، فتلقاه الناس بمقتل عثمان، فرجع من الطريق وقال: لو دخلت المدينة وعثمان حي، ما تركت بها محتلماً الاّ قتلته، لأن الخاذل والقاتل سواء(٢٧٤).

فوصول الامدادات العسكرية من قبل ولاة عثمان كانت السبب المباشر في التعجيل بقتله، وكما روى الطبري عن الواقدي بسنده قال: ما زال المصريون كاقّين عن دمه وعن القتال، حتى قدمت امداد العراق من البصرة ومن الكوفة ومن الشام، فلما جاءوا شجعوا القوم، وبلغهم أن البعوث قد فصلت من العراق ومن مصر من عند ابن سعد، ولم يكن ابن سعد بمصر قبل ذلك، كان هارباً قد خرج الى الشام، فقالوا: نعاجله قبل أن تقدم الامداد(٢٧٥).

ولا شك أن تصرف عثمان بطلب الامداد من عماله كان خاطئاً، ولم ينقذه ولا أنقذ الموقف المتأزم، بل على العكس من ذلك، فإنه كان الضربة القاضية لكل الجهود التي بذلت لحل الأزمة، وكان على عثمان بدلا من المراهنة على عماله حتى آخر لحظة، أن يراهن على مساعي الصحابة الأخيار الذين لم يألوا جهداً لحل الأزمة، لولا أن عثمان أعرض عن كل ذلك، وظل متمسكاً بمواقفه التي كانت هي السبب في اشتعال الأزمة منذ البداية.

(٢٧٣) الطبري ٤ : ٣٦٨ .
(٢٧٤) أنساب الأشراف ٦ : ١٨٩ .
(٢٧٥) الطبري ٤ : ٣٩٤ - ٣٩٥

وعلى الرغم من تظافر الروايات على محاولة عثمان حسم الموقف عسكرياً، فإن بعض المؤلفين يصرون على التعامي عن ذلك، إذ قال ابن العربي عن عثمان: ما نصب حرباً ولا جيّش عسكراً..![٢٧٦].

تزييف الوقائع

لا شك أن هذه الفترة العصيبة - الحصار ثم قتل عثمان- قد تعرضت هي الأخرى الى الكثير من محاولات التشويه والتزييف، وكانت حصة الثوار الذين أطاحوا بعثمان هي الأكبر فيما ناله التشويه، فقد قام بعض المؤلفين- وبخاصة سيف بن عمر- بتشويه صور اولئك الثوار ونال منهم أقبح نيل، لذا نجد الاتجاه العام عند جمهور المسلمين هو توجيه الطعن الى اولئك الثوار، وقد تعودنا منذ الصغر على كراهية اولئك (البغاة الخارجين على الإمام) كما كان يقال لنا دائماً ونقرأ في الكتب التي ألفها البعض حول موضوع الفتنة، ومردّ ذلك كله الى الانطباع السيء الذي تركته روايات سيف بن عمر التي وردت عند الطبري، والتي تظهر هؤلاء الثوار دائماً بمظهر الوحوش الكاسرة المجردة من كل القيم والأخلاق الانسانية، لذا أجد من المناسب أن أستعرض بعض الحوادث في هذه الفترة والكشف عن الزيف الذي تعرضت له تلك الحوادث وانسحاب كل ذلك على النظرة التي ينظر بها الجمهور الى اولئك الثوار.

روى ابن كثير - في معرض حديثه عن تلك الوقائع التي اعقبت محاصرة عثمان - نقلا عن الطبري برواية سيف، قال:

وجاءت أم حبيبة راكبة بغلة وحولها حشمها وخدمها، فقالوا: ما جاء بك؟ فقالت: إن عنده وصايا بني اُمية لأيتام وأرامل، فأحببت أن أذكره بها. فكذبوها في ذلك، ونالها منهم شدة عظيمة، وقطعوا حزام البغلة وندّت بها وكادت أو سقطت عنها، وكادت تُقتل لولا تلاحق بها الناس فأمسكوا بدابتها، ووقع أمر كبير جداً، ولم يبق يحصل لعثمان وأهله من الماء إلاّ ما يوصله اليهم آل عمرو بن حزم في الخفية ليلا، فإنّا لله وإنا إليه راجعون. ولما وقع هذا أعظمه الناس جداً ولزم أكثر الناس بيوتهم، وجاء وقت الحج، فخرجت أم المؤمنين عائشة في هذه السنة الى الحج، فقيل لها: إنك لو أقمت كان أصلح لعل هؤلاء القوم يهابونك، فقالت: إني أخشى أن أشير عليهم برأي فينالني منهم من الأذية ما نال أم حبيبة، فعزمت على الخروج...[٢٧٧].

لكن البلاذري أورد القصة وليس فيها ذلك التهويل الذي يخلقه ابن كثير عن موقف الثوار من أم حبيبة واجترائهم عليها بذلك الشكل المشين الذي لا يتناسب مع

(٢٧٦) العواصم من القواصم : ٧٢

(٢٧٧) البداية والنهاية ٧ : ١٨٧ .

أبسط قواعد الإسلام، ولا يفعله حتى المنافق مع زوج رسول الله(صلى الله عليه وآله)، حيث ينقل عن أبي مخنف والواقدي، أن أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي(صلى الله عليه وآله)، أتت عثمان بأداوة وقد اشتد عليه الحصار، فمنعوها من الدخول فقالت: إنه كان المتولي لوصايانا وأمر أيتامنا، وأنا أريد مناظرته في ذلك، فأذنوا لها، فأعطته الأداوة(٢٧٨).

كما أن ادعاء ابن كثير أن عمرو بن حزم كان يأتي عثمان بالماء -وهو ما تدعيه رواية سيف- فلا أساس له من الصحة، فقد مرّ بنا في الرواية التي ينقلها الطبري عن جعفر بن محمد أن عمرو بن حزم الأنصاري هو الذي فتح باب داره الملاصق لبيت عثمان ليدخل الثوار منه على عثمان!!

أما موقف أم المؤمنين عائشة من عثمان في تلك الأزمة وذهابها الى الحج وعدم محاولتها الذب عن عثمان بحجة الخوف من أن ينالها ما نال أم حبيبة، فهو غير صحيح أيضاً، ولكني سأؤجل الحديث عن موقف أم المؤمنين عائشة الى فرصة أخرى.

الموقف من قتلة عثمان

إن الباحث وهو يتصفح كتب التاريخ من أجل الوصول الى هوية قتلة عثمان الحقيقيين سرعان ما يجد نفسه في حيرة من أمره، فالأخبار فيها متضاربة جداً، وقائمة أسماء المتهمين بقتل عثمان طويلة أيضاً، وسبب ذلك يعود الى أن سيف بن عمر قد تلاعب بتاريخ هذه الفترة من أجل صرف انتباه القارئ عن الحقيقة، فهو يخترع أسماءً وشخصيات ما أنزل الله بها من سلطان، وينسب إليهم تصرفات عجيبة تدل على سقوطهم الخلقي من أجل تنفير الناس عنهم وصرف أذهانهم عن القتلة الحقيقيين لعثمان بن عفان.

أورد الطبري -كعادته- روايات مطولة بطريق سيف عن هذه الحادثة المؤلمة، تبيّن موقف عثمان المسالم الذي يضاده من الجانب الآخر قسوة الذين ثاروا عليه وقتلوه ونواياهم الشريرة، وتصرفاتهم تجاه زوجة عثمان وأهل بيته وخدمه بما يدل على مدى سقوطهم الخلقي والأدبي، قال:

وأحرقوا الباب وعثمان في الصلاة، وقد افتتح (**طه * ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لِتَشقى**)، وكان سريع القراءة، فما كرثه ما سمع، وما يخطئ وما يتعتع حتى أتى عليها قبل أن

(٢٧٨) أنساب الأشراف ٦ : ١٩٥ .

يصلوا إليه، ثم عاد فجلس الى عند المصحف وقرأ: (**الذينَ قالَ لهم الناسُ إنَّ الناسَ قدْ جَمَعوا لكُمْ فاخشَوهُم فزادَهُم إيماناً وَقالوا حَسبنا اللهُ ونعمَ الوكيل**).

وارتجز المغيرة بن الأخنس وهو دون الدار في أصحابه: قد علمت ذات القرون الميل...

وأقبل أبو هريرة والناس محجمون عن الدار إلاّ أُولئك العصبة، فدسروا فاستقتلوا فقام معهم وقال: أنا إسوتكم، وقال: هذا يوم طاب امضرب -يعني أنه حلّ القتال وطاب، وهذه لغة حِمْيَر- ونادى : يا قوم مالي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار!

وبادر مروان يومئذ فنادى : رجل رجل، فبرز له رجل من بني ليث يدعى النباع، فاختلفا، فضربه مروان أسفل رجليه، وضربه الآخر على أصل العنق فقلبه، فانكب مروان واستلقى، فاجتّر هذا أصحابه، فقال المصريون: أما والله لولا أن تكونوا حجة علينا في الأمة لقد قتلناكم بعد تحذير، فقال المغيرة: من يبارز؟ فبرز له رجل فاجتلد وهو يقول:

أضربهم باليابسِ *** ضرب غلام بائسِ

من الحياة آيسِ

فأجابه صاحبه، وقال الناس: قُتل المغيرة بن الأخنس، فقال الذي قتله: إنا لله! فقال له عبدالرحمان بن عديس: مالك؟ قال: إني أتيت فيما يرى النائم فقيل لي: بشّر قاتل المغيرة بن الأخنس بالنار! فابتليت به.

وقتل قباث الكناني نيار بن عبدالله الأسلمي، واقتحم الناس الدار من الدور التي حولها حتى ملؤوها ولا يشعر الذين بالباب، وأقبلت القبائل على أبنائهم، فذهبوا بهم إذ غُلبوا على أمرهم، وندبوا رجلا لقتله، فانتدب له رجل، فدخل عليه البيت، فقال: اخلعها وندعك، فقال: ويحك، والله ما كشفتُ امرأة في جاهلية ولا إسلام، ولا تغنيت ولا تحنّيت، ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله عزّوجل، وأنا على مكاني حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاء.

فخرج، وقالوا: ما صنعت؟ فقال: علقنا والله، والله ما ينجينا من الناس الاّ قتله، وما يحل لنا قتله.

فأدخلوا عليه رجلا من بني ليث، فقال: ممن الرجل؟ فقال: ليثي، فقال: لست بصاحبي، قال: وكيف؟ فقال: ألست الذي دعا لك النبي(صلى الله عليه وآله) في نفر أن تُحفظوا يوم كذا وكذا؟ قال: بلى، قال: فلن تضيع.

فرجع وفارق القوم، فأدخلوا عليه رجلا من قريش، فقال: يا عثمان إني قاتلك! قال: كلا يا فلان لا تقتلني، قال: وكيف؟ قال: إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) استغفر لك يوم كذا وكذا فلن تقارف دماً حراماً. فاستغفر ورجع وفارق أصحابه.

فأقبل عبدالله بن سلام حتى قام على الباب ينهاهم عن قتله وقال: يا قوم لا تسلّوا سيف الله عليكم، فوالله إن سللتموه لا تغمدوه! ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدّرة، فإن قتلتموه لا يقوم الاّ بالسيف، ويلكم! إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله، والله لئن قتلتموه لتتركنّها، فقالوا: يابن اليهودية، وما أنت وهذا، فرجع عنهم.

قالوا : وكان آخر من دخل عليه ممن رجع الى القوم، محمد بن أبي بكر. فقال له عثمان: ويلك! أعلى الله تغضب! هل لي اليك جرم الاّ حقه أخذته منك؟ فنكل ورجع، قالوا: فلما خرج محمد بن أبي بكر وعرفوا انكساره، ثار قُتيرة وسودان بن حمران السكونيان والغافقي، فضربه الغافقي بحديدة معه، وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف، فاستقر بين يديه وسالت عليه الدماء، وجاء سودان بن حمران ليضربه، فانكبت عليه نائلة ابنة الفرافصة واتقت السيف بيدها، فتعمدها ونفح أصابعها، فأطنَّ أصابع يدها وولّت، فغمز أوراكها وقال: إنها لكبيرة العجيزة! وضرب عثمان فقتله، ودخل غلمة لعثمان مع القوم لينصروه -وقد كان عثمان اعتق من كفّ منهم- فلما رأوا سودان قد ضربه، أهوى له بعضهم فضرب عنقه فقتله، ووثب قتيرة على الغلام فقتله، وانتهبوا ما في البيت وأخرجوا من فيه ثم اغلقوه على ثلاثة قتلى.

فلما خرجوا الى الدار، وثب غلام لعثمان آخر على قتيرة فقتله، ودار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى تناولوا ما على النساء، وأخذ رجل ملاءة نائلة -والرجل يدعى كلثوم بن تُجيب- فتنحّت نائلة، فقال: ويح اُمك من عجيزة ما أتمّك! وبصر به غلام لعثمان فقتله وقُتل، وتنادى القوم: أبصر رجل من صاحبه، وتنادوا في الدار: أدركوا بيت المال لا تُسبقوا إليه، وسمع أصحاب بيت المال أصواتهم، وليس فيه الاّ غرارتان، فقالوا: النّجاء، فإن القوم إنما يحاولون الدنيا، فهربوا وأتوا بيت المال فانتهبوه، وماج الناس فيه، فالنائي يسترجع ويبكي، والطارئ يفرح.

وندم القوم، وكان الزبير قد خرج من المدينة فأقام على طريق مكة لئلا يشهد مقتله، فلما أتاه الخبر بمقتل عثمان وهو بحيث هو، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون،

رحم الله عثمان! وانتصر له، وقيل: إن القوم نادمون! فقال: دبّروا دبَّروا، (**وَحِيلَ بَينهُم وَبينَ ما يَشتهونَ**)[٢٧٩].

واتى الخبر طلحة فقال: رحم الله عثمان! وانتصر له وللاسلام. وقيل له: إن القوم نادمون! فقال: تباً لهم، وقرأ (**فلا يَستطيعونَ تَوصيةً وَلا الى أهلهِمْ يَرجِعونَ**).

وأتي عليٌّ فقيل : قُتل عثمان، فقال: رحم الله عثمان وخلف علينا بخير، فقيل: ندم القوم! فقرأ (**كَمثلِ الشيطانِ إذْ قال للإنسانِ اكفُرْ**)[٢٨٠].

وطلب سعد، فإذا هو في حائطه وقد قال: لا أشهد قتله، فلما جاءه قتله قال: فررنا الى المدينة فدنيتا، وقرأ (**الذينَ ضلَّ سَعيهُم في الحياةِ الدُّنيا وَهُم يَحسبونَ أنَّهُم يُحسنونَ صُنعاً**). اللهم اندمهم ثم خذهم![٢٨١].

لعل أهم ما يلاحظ على رواية سيف هذه، هي الأمور الخرافية التي يحشو بها التاريخ الإسلامي إمعاناً في السخرية بالمسلمين، كأضغاث الأحلام التي رآها قاتل المغيرة بن الأخنس، ولا أدري ما مقام المغيرة هذا وكرامته على الله حتى يرى قاتله فيما يرى النائم البشارة له بالنار على قتله المغيرة!

كما أننا لم نستطع أن نعرف هوية اللّيثي ولا القريشي اللذان دخلا على عثمان فردعهما ما سمعا منه من ثناء النبي(صلى الله عليه وآله) بقوله: كذا وكذا في يوم كذا وكذا! ولا أدري هل أن كذا وكذا أسماء لأمكنة وأزمنة وحوادث حقيقية، أم هي من جملة مهازل سيف بن عمر.

والمتصفح لتراث الاسلام يستطيع أن يلاحظ أن هذه هي الحيلة التي يلجأ إليها الرواة عادة للتغطية على أكاذيبهم، والتهويل على السامعين بالايحاء بوقوع أُمور مهمة وخطيرة.

وما سرّ الاتفاق الغريب بين استشهادات كل من علي وطلحة والزبير عند سماعهم بقتل عثمان واعلان قتلته الندم على قتله، ولا كيف يفرّ هؤلاء الصحابة من المواجهة ويتركوا خليفة المسلمين يذبح بأيدي اولئك القتلة دون أن يحركوا ساكناً ويرغبون بأنفسهم عن مشاهدة منظر القتل فقط!!

كما ولا ندري سرّ ندم هؤلاء القتلة بعد أن ظلوا يحاصرون عثمان أربعين ليلة أو أكثر، وما كان قتلهم لعثمان إلاّ عن قناعة تامة وسبق إصرار بعد فشل كل الجهود التي بُذلت لتغيير سياسة عثمان وعزمه، ولماذا يندمون بعد قتله مباشرة! فإن كانوا

(٢٧٩) سبأ : ٥٤ .
(٢٨٠) ياسين : ٥٠ .
(٢٨١) الطبري ٤ : ٣٨٩ .

أهل أغراض سوء ونوايا سوداء -كما تصفهم روايات سيف ومن سار في ركابه- فلا مبرر لندمهم فهم أشرار عازمون على قتل الخليفة ونواياهم أبعد شأواً من مجرد الرغبة في قتله، لأنها تستهدف القضاء على الاسلام عملا بوصايا ابن سبأ عدو الاسلام، أما إذا كانوا ندموا لأنهم اكتشفوا أنهم كانوا مبطلين، فروايات سيف تشير الى أنهم كانوا يعلمون ذلك مسبقاً، أما إذا لم يكونوا مبطلين، وكانوا يعتقدون بعدالة مطالبهم وصحة عملهم، فلا مبرر لندمهم ولمّا يظهر بعد في الأفق ما يستدعي القلق إن كان الخوف من العقاب سبب ندمهم!!

ومن الأمور التي تبعث على السخرية أيضاً، هي إظهار أبي هريرة بصورة البطل الذي يعَوّل عليه في الدفاع عن الخليفة المحاصر أمام هذه الجموع المتكاثرة، مع أننا وخلال تتبعنا لسيرة أبي هريرة، لم نجد له موقفاً بطولياً واحداً، فلا هو قاد سرّية من السرايا، ولا فتح حصناً، ولا بارز أحد الأبطال أو حتى غير الأبطال وقتله أو خدشه، بل على العكس من كل ذلك، فالوقائع تثبت أن أبا هريرة كان يُطلق ساقيه للريح عند احتدام المعارك، وقد اعترف أبو هريرة نفسه - فيما أخرج الحاكم النيسابوري عنه - أنه قال:

لقد كان بيني وبين ابن عم لي كلام، فقال: إلاّ فرارك يوم مؤتة! فما دريت أي شي أقول له(٢٨٢).

كما وأن روايات سيف تظهر اولئك الثوار - بغمز بعضهم زوجة عثمان وقوله فيها، أو انتهابهم بيت المال أو رفسهم المصحف الشريف- بصورة مجرمين لا يمتون الى الاسلام وقيمه بصلة، بينما أثبتت الروايات من المصادر الموثوقة عكس ذلك - كما تبين في تراجم الكثير منهم- لكن بعض المؤلفين كابن حزم وابن عربي وابن تيمية وابن كثير وجلة المعاصرين ينساقون وراء روايات سيف، ثم يصفون اولئك الثوار بتلك النعوت القبيحة.

وقد وجدنا في روايات سيف أسماء عجيبة وغريبة، بدعوى أن اولئك هم قتلة عثمان، وكل ذلك للتمويه على القارئ بأن قتلة عثمان لم يكونوا إلاّ أناساً نكرات، لذا نجد المؤلفين يتخبطون في هذا الأمر، فابن عربي يقول: بأنه ما قتل عثمان إلاّ أعلاج من مصر(٢٨٣)، وتارة أخرى يقول بأنه قتله رجل يدعى (الموت الأسود)، ولا أدري إن كان العرب يطلقون مثل هذه الأسماء على أبنائهم أم لا! وتجد بعض الروايات

(٢٨٢) المستدرك ٣ : ٤٢ .
(٢٨٣) العواصم من القواصم: ١٤٢ .

تدعي أن قاتل عثمان رجل يدعى (جبلة بن الأيهم) - حسب ما تدعيه بعض روايات سيف- والذي اعرفه أن جبلة بن الأيهم هو آخر ملوك العرب الغساسنة في الشام، وعلى عهده فتح المسلمون بلاد الشام فهرب الى قيصر الروم ومات هناك، فهل كان جبلة هذا من قتلة عثمان أم هو جبلة آخر، وما سرّ هذا الاتفاق في اسميهما مع العلم أن جبلة المزعوم في روايات سيف ليس له ذكر في أي مكان غير رواية سيف.

إن هذه الجلبة التي يثيرها سيف ومن تابعه حول قتلة عثمان كان سببه أن قتلة عثمان الحقيقيين إنما كانوا من الصحابة، ومن خيارهم، وكما تثبت ذلك الروايات التي جاءت في تاريخ الطبري - بغير طريق سيف- وكذلك المصادر الأُخرى، فقد أخرج الطبري عن الواقدي بسنده: أن محمد بن أبي بكر، تسوّر على عثمان من دار عمرو بن حزم ومعه كنانة بن بشر بن عتّاب وسودان بن حمران، وعمرو بن الحمق، فوجدوا عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ في المصحف في سورة البقرة، فتقدمهم محمد بن أبي بكر فأخذ بلحية عثمان فقال: قد أخزاك الله يا نعثل! فقال عثمان: لستُ بنعثل، ولكني عبدالله وأمير المؤمنين.

قال محمد : ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان. فقال عثمان: يابن أخي، دع عنك لحيتي فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه. فقال محمد: لو رآك أبي تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك، وما أُريد بك أشدّ من قبضي على لحيتك! قال عثمان: استنصر الله عليك وأستعين به.

ثم طعن جبينه بمشقص في يده، ورفع كنانة بن بشر مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أُذن عثمان، فمضت حتى دخلت في حلقه، ثم علاه بالسيف حتى قتله.

فقال عبدالرحمان : سمعت أبا عون يقول: ضرب كنانة بن بشر جبينه ومقدّم رأسه بعمود حديد فخرّ لجبينه، فضربه سودان بن حمران المرادي بعدما خرّ لجبينه فقتله.

أما البلاذري فلفظه : تناول عثمان المصحف ووضعه في حجره وقال: عباد الله، لكم ما فيه والعتبى مما تكرهون، اللهم اشهد.

فقال محمد بن أبي بكر : الآن وقد عصيتَ قبل وكنت من المفسدين.

ثم رفع جماعة قداح كانت في يده فوجأ بها في خُششائه حتى وقعت في أوداجه فمرّت ولم تقطع، فقال: عبادالله، لا تقتلوني فتندموا وتختلفوا.

كما أخرج البلاذري باسناده عن الحسن قال:

فدخل محمد بن أبي بكر حتى جثا على ركبتيه، وكان عثمان حسن اللحية، فجعل يهزّها حتى سُمع نقيض أضراسه ثم قال: ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك ابن عامر، فقال: يابن أخي، مهلا فوالله ما كان أبوك ليجلس في هذا المجلس.

قال : فاشعره وتعاونوا عليه فقتلوه(٢٨٤).

وروى ابن عساكر أن محمد بن أبي بكر قال لعثمان: على أي دين أنت يا نعثل!؟ قال: على دين الاسلام، ولستُ بنعثل ولكني أمير المؤمنين.

قال : غيّرت كتاب الله!

فقال : كتاب الله بيني وبينكم.

فتقدم إليه وأخذ بلحيته وقال: إنّا لا يُقبل منّا يوم القيامة أن نقول: ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل.

وشحطه بيده من البيت الى باب الدار وهو يقول: يابن أخي، ما كان أبوك ليأخذ بلحيتي(٢٨٥).

كما روى الطبري عن الواقدي بسنده، قال:

الذي قتله كنانة بن بشر بن عتاب التجيبي، وكانت امرأة منظور بن سيار الفزاري تقول: خرجنا الى الحج وما علمنا لعثمان بقتل، حتى إذا كنا بالعرج، سمعنا رجلا يتغنى تحت الليل:

ألا إن خير الناس بعد ثلاثة *** قتيلُ التجيبي الذي جاء من مصر

قال : وأما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان، فجلس على صدره وبه رمق، فطعنه تسع طعنات.

قال عمرو : فأمّا الثلاث منهن فإني طعنتهن إياه لله، وأما ستّ فإني طعنتهن إياه لما كان في صدري عليه(٢٨٦).

فتبين من هذه الروايات أن ما ذكره الطبري عن سيف هو في أغلبه عار عن الصحة، كما وتبين أن الذين قتلوا عثمان وباشروا الأمر بأنفسهم كانوا أشخاصاً معروفين ولم يكونوا نكرات، وهم: محمد بن أبي بكر وهو صحابي، وعمرو بن الحمق وهو صحابي أيضاً، وكنانة بن بشر التجيبي وسودان بن حمران، وأعانهم قوم آخرون.

(٢٨٤) أنساب الاشراف : ٦ : ٢١٣ .
(٢٨٥) تاريخ دمشق ٤ : ٣٧٢ .
(٢٨٦) الطبري ٤ : ٣٩٤ .

والملاحظ أيضاً أن كلام محمد بن أبي بكر مع عثمان، يكشف أن سبب قتله كان للأمور التي سبق وأن ذكرناها، وفي مقدمتها تصرفات عمال عثمان، وبخاصة معاوية بن أبي سفيان.

دفن عثمان

وصلت تلك الأحداث الى نهايتها المأساوية بقتل الخليفة في عقر داره وعاصمة خلافته، وعلى مرأى ومسمع من اُلوف الصحابة الذين تخلوا عنه، بل أن بعضهم كان يمالئ عليه ويحرض على قتله -كما سوف نثبت ذلك فيما بعد- وإن الموقف من مسألة دفن عثمان بعد قتله تكشف عن موقف الصحابة الحقيقي من عثمان، وهذه المسألة لم تنج هي الأخرى من محاولة التزييف والمغالطة من قبل المؤلفين. فأما سيف بن عمر، فقال فيما أخرج الطبري عنه:

إن عثمان لما قُتل، أرسلت نائلة الى عبدالرحمان بن عديس فقالت: إنك أمسّ القوم بنا رحماً وأولاهم بأن تقوم بأمري. أغرب عني هؤلاء الأموات. قال: فشتمها وزجرها، حتى إذا كان في جوف الليل، خرج مروان حتى أتى دار عثمان، فأتاه زيد بن ثابت وطلحة بن عبيدالله وعليّ والحسن وكعب بن مالك وعامّة من ثم من أصحابه، فتوافى الى موضع الجنائز صبيان ونساء; فأخرجوا عثمان فصلى عليه مروان، ثم خرجوا به حتى انتهوا الى البقيع فدفنوه فيه مما يلي حش كوكب، حتى إذا أصبحوا أتوا أعبُد عثمان الذين قتلوا معه فأخرجوهم فرأوهم فمنعوهم من أن يُدفنوا، فأدخلوهم حش كوكب، فلما أمسوا خرجوا بعبدين منهم فدفنوهما الى جنب عثمان، ومع كل واحد منهما خمسة نفر وامرأة: فاطمة اُم ابراهيم بن عدي.

ثم رجعوا فاتوا كنانة بن بشر فقالوا: إنك أمسّ القوم بنا رحماً فأمُر بهاتين الجيفتين اللتين في الدار أن تخرجا. فكلمهم في ذلك فأبوا، فقال: أنا جارٌ لآل عثمان من أهل مصر ومن لفّ لفّهم، فاخرجوهما فارموا بهما، فجُرّا بأرجلهما فرُمي بهما على البلاط، فأكلتهما الكلاب. وكان العبدان اللذان قُتلا يوم الدار يقال لهما: نُجيح وصُبيح، فكان إسماهما الغالب على الرقيق لفضلهما وبلائهما، ولم يحفظ الناس إسم الثالث!

ولم يغسل عثمان، وكفّن في ثيابه ودمائه ولا غسل غلاماه[٢٨٧].

(٢٨٧) الطبري ٤ : ٤١٤ .

أما الروايات الأخرى - سواء منها روايات الطبري بغير طريق سيف أو الروايات التي في المصادر الأخرى غير الطبري - فهي تختلف عن رواية سيف، فقد أخرج الطبري عن جعفر بن عبدالله المحمدي بسنده، قال:

نُبذ عثمان(رضي الله عنه) ثلاثة أيام لا يدفن، ثم إن حكيم بن حزام القرشي، ثم أحد بني أسد بن عبدالعزى، وجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، كلّما علياً في دفنه وطلبا إليه ان يأذن لأهله في ذلك ففعل، وأذن لهم علي.

فلما سُمع بذلك، قعدوا له في الطريق بالحجارة، وخرج به ناس يسير من أهله وهم يريدون به حائطاً بالمدينة يقال له: حش كوكب، كانت اليهود تدفن فيه موتاهم.

فلما خرج به على الناس، رجموا سريره وهمّوا بطرحه، فبلغ ذلك علياً فأرسل إليهم يعزم عليهم ليكفّن عنه ففعلوا، فانطلق حتى دفن(رضي الله عنه) في حش كوكب، فلما ظهر معاوية بن أبي سفيان على الناس، أمر بهدم ذلك الحائط حتى أفضى به الى البقيع، فأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره حتى اتصل ذلك بمقابر المسلمين.

وأخرج الطبري أيضاً عن جعفر بسنده الى أبي كرب الذي كان عاملا على بيت مال عثمان، قال:

دفن عثمان(رضي الله عنه) بين المغرب والعتمة، ولم يشهد جنازته الاّ مروان بن الحكم وثلاثة من مواليه وإبنته الخامسة; فناحت ابنته ورفعت صوتها تندبه، وأخذ الناس الحجارة وقالوا: نعثل نعثل! وكادت تُرجم، فقالوا: الحائط الحائط، فدفن في حائط خارجاً.

وكما أخرج عن الواقدي بسنده قال:

لما قُتل عثمان(رضي الله عنه) قال رجل: يدفن بدير سلع مقبرة اليهود; فقال حكيم ابن حزام: لا والله لا يكون هذا أبداً وأحدٌ من ولد قصي حي، حتى كاد الشر يلتحم، فقال ابن عديس البلوي: أيها الشيخ، وما يضرك أين يدفن! فقال حكيم ابن حزام: لا يدفن إلاّ ببقيع الغرقد حيث دُفن سلفه وفرطه، فخرج به حكيم بن حزام في اثني عشر رجلا وفيهم الزبير، فصلى عليه حكيم بن حزام.

قال الواقدي : الثبت عندنا أنه صلى عليه جبير بن مطعم.

وهذه الرواية الأخيرة تعاني من إشكالات تضعفها، لأن سلف عثمان وفرطه هو عمر بن الخطاب وهو لم يُدفن في بقيع الغرقد كما هو معلوم، بل هو مدفون الى جنب النبي(صلى الله عليه وآله) وأبي بكر، كما أن وجود الزبير بين المشيعين لعثمان يبدو غير صحيح أيضاً، خصوصاً إذا تعرفنا على مواقف الزبير من عثمان فيما سيأتي من

فصول، ولعله عبدالله بن الزبير وقد أخطأ الراوي فيه، كما سوف يتبين من الرواية الأخيرة التي سوف نوردها بعد قليل.

كما وأخرج الطبري أيضاً عن الواقدي بسند آخر قال :

لبث عثمان بعدما قُتل ليلتين لا يستطيعون دفنه، ثم حملهُ أربعة: حكيم ابن حزام، وجبير بن مطعم، ونيار بن مكرم، وأبو جهم بن حذيفة.

فلما وضع ليصلى عليه، جاء نفر من الأنصار يمنعونهم الصلاة عليه، فيهم أسلم بن أوس بن جبرة الساعدي، وأبو حية المازني في عدّة، ومنعوهم أن يدفن بالبقيع، فقال ابو جهم: ادفنوه فقد صلى الله عليه وملائكته، فقالوا: لا والله لا يدفن في مقابر المسلمين أبداً، فدفنوه في حش كوكب. فلما ملكت بنو اُمية أدخلوا ذلك الحش في البقيع، فهو اليوم مقبرة بني اُمية.

كما روى الطبري عن الواقدي، أن عبدالله بن موسى المخزومي حدثه، قال: لما قُتل عثمان(رضي الله عنه) أرادوا حزّ رأسه، فوقعت عليه نائلة وأم البنين، فمنعنهم وصحن وضربن الوجوه وخرقن ثيابهن، فقال ابن عديس: اتركوه، فأخرج عثمان ولم يغسل الى البقيع، وأرادوا أن يصلّوا عليه في موضع الجنائز، فأبت الأنصار. وأقبل عمير بن ضابئ وعثمان موضوع على باب، فنزا عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال: سجنت ضابئاً حتى مات في السجن.

كما وأخرج الطبري عن الحارث باسناده الى مالك بن أبي عامر، قال: كنتُ أحد حملة عثمان(رضي الله عنه) حين قُتل. حملناه على باب، وإن رأسه لتقرع الباب لإسراعنا به، وإن بنا من الخوف لأمراً عظيماً حتى واريناه في قبره في حش كوكب.

وفي رواية ابن عبدالبر عن مالك، قال: لما قُتل عثمان(رضي الله عنه) اُلقي على المزبلة ثلاثة أيام، فلما كان من الليل أتاه إثنا عشر رجلا، فيهم حويطب بن عبدالعزى، وحكيم بن حزام، وعبدالله بن الزبير، وجدّي فاحتملوه، فلما صاروا به الى المقبرة ليدفنوه، ناداهم قوم من بني مازن: والله لئن دفنتموه هنا لنخبرن الناس غداً، فاحتملوه، وكان على باب، وإن رأسه على الباب ليقول: طق طق، حتى صاروا به الى حش كوكب فاحتفروا له[٢٨٨].

نجد أن معظم المصادر قد اتفقت على هذه النهاية المأساوية بترك جثة الخليفة عثمان بن عفان ملقاة على المزبلة أو على قارعة الطريق، وهذا إن دلّ على شي فإنه

(٢٨٨) الاستيعاب ٣ : ١٠٤٧ ، الاصابة ٢ : ٤٦٣ ، اسد الغابة ٣ : ٤٦١ ، تاريخ الطبري ٤ : ٤١٢ ، طبقات ابن سعد ٣ : ٥٥ ، تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٥٣ ، الكامل لابن الاثير ٣ : ٥٧٦ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ١٦٨ ،السيرة الحلبية ٢ : ٨٥ ، تاريخ الخميس ٢ : ٢٦٥ ، وغيرها من المصادر .

ليدل على أن معظم أهل المدينة -وفيهم كبار الصحابة- لم يكونوا يقيمون لعثمان بن عفان أي اعتبار، وأن أكثرهم كانوا من الناقمين عليه.

إلاّ أن من أغرب التبريرات التي قد تمرّ على المتصفح للتاريخ حول ترك جثمان عثمان ثلاثة أيام بلا دفن، هو قول ابن كثير:

وقد ذكر ابن جرير أن عثمان(رضي الله عنه) بقي بعد أن قتل ثلاثة أيام لا يدفن.

قلت : وكأنه اشتغل الصحابة عنه بمبايعة علي(رضي الله عنه) حتى تمّت!![٢٨٩].

فيا للعجب، أتستغرق بيعة علي من كل فرد من الصحابة ثلاثة أيام بأكملها، ويصل الأمر بكل فرد منهم أن ينشغل عن كل شي، وأن يدع الناس حتى موتاهم بلا دفن؟ ومن هو الشخص المقتول الذي لم يدفن؟ إنه خليفة المسلمين!

(٢٨٩) البداية والنهاية ٧ : ١٨٤ .

أصحاب الجمل

هدأت العاصفة قليلا بعد مقتل عثمان وانتخاب علي بن أبي طالب خليفة من بعده ومبايعة المهاجرين والأنصار له أو ممن عُرفوا بأهل الحل والعقد، عدا نفر قليل حسبما تذكر بعض الروايات، وتختلف في تشخيص أعيان البعض منهم، وفي سبب امتناعهم عن البيعة إلاّ أن هذه الهدنة لم تدم طويلا، إذ هاجت رياح الفتنة مجدداً بخروج طلحة والزبير تتقدمهم أم المؤمنين عائشة إلى البصرة، فعاد الجو إلى التوتر من جديد، ولاحت نذر الحرب من بعيد.

وقد طغى التزييف على حوادث هذه الفترة أيضاً وملابساتها وإرهاصاتها، كغيرها من حوادث الفترة التي تناولناها بالبحث والتحقيق فيما تقدم، وتضاربت فيها أقوال المؤلفين، وإن كان معظمها متفقاً مع ما جاء في تاريخ الطبري برواية سيف بن عمر طبعاً. إلاّ أن القاضي ابن العربي خرج من هذه القضية بآراء غاية في الغرابة، أثارت إنتباه الكثير من المؤلفين والمحققين الذين أنكروا عليه بعض الأمور، حتى من المؤيدين لوجهة نظره بالنسبة لخط سير الأحداث العام، فبعد أن ينقل القاضي ابن العربي بعض الروايات الشائعة، تحت عنوان (قاصمة)، يعود فيبدي رأيه فيما جرى، بالتمهيد للأحداث، فتحت عنوان (عاصمة)، يقول ابن العربي:

أما خروجهم الى البصرة، فصحيح لا إشكال فيه. ولكن لأي شيء خرجوا؟ لم يصح فيه نقل! ولا يوثق فيه بأحد! لأن الثقة لم ينقله!! وكلام المتعصب غير مقبول، وقد دخل مع المتعصب من يريد الطعن في الاسلام واستنقاص الصحابة. فيحتمل أنهم خرجوا خلعاً لعلي لأمر ظهر لهم، وهو أنهم بايعوا لتسكين الثائرة، وقاموا يطلبون الحق!

ويحتمل أنهم خرجوا ليتمكنوا من قتلة عثمان!

ويمكن أنهم خرجوا لينظروا في جمع طوائف المسلمين، وضم تشردهم، وردّهم الى قانون واحد حتى لا يضطربوا فيقتتلوا، وهذا هو الصحيح، لا شي سواه، بذلك وردت صحاح الأخبار!!

فأما الأقسام الأول، فكلها باطلة وضيعفة!

أما بيعتهم كرهاً، فباطل، وأما خلعهم فباطل، لأن الخلع لا يكون إلاّ بنظر من الجميع، فيمكن أن يولي واحد أو إثنان، ولا يكون الخلع الاّ بعد الاثبات. وأما خروجهم في أمر قتلة عثمان فيضعف، لأن الأصل قبله تأليف الكلمة، ويمكن أن يجتمع الأمران[٢٩٠].

إن آراء ابن العربي تبدو متناقضة تماماً، فهو يدعي أولا أن سبب خروج أصحاب الجمل لا يمكن معرفته لأنه لم يصح فيه نقل، ولا يوثق فيه بأحد، لأن الثقة لم ينقله، لكنه يعود فيدعي أن السبب في خروجهم هو محاولة لمّ الشعث ورد المسلمين جميعاً الى القانون حتى لا يقتتلوا، مدعياً بأن صحاح الأخبار قد وردت بذلك!! وسوف نستعرض صحاح الأخبار التي اعتمدها ابن العربي لنعرف أي مصدر موثوق هذا الذي اعتمده بهذه الصحاح كما يجزم، من أجل الكشف عن ملابسات هذه القضية الملتبسة التي أبدى ابن العربي حيرته أمامها في البداية. إلاّ أنني أجد من الضروري أن نناقش أولا الفقرة التي اعتبرها القاضي ابن العربي السبب الحقيقي لخروج أصحاب الجمل لصحة الأخبار عنها، وهي ادعاؤه بأنهم خرجوا بهدف الاصلاح بين المسلمين لكيلا تقع الحرب بينهم!

إن كلام ابن العربي يمكن أن يكون مقبولا لو كان هنالك أمر يستدعي الخروج للاصلاح، إذ لم يصل إلينا خبر أو أثر - حتى لو كان ضعيفاً- عن وجود أمر أو حادثة شغب وقعت في البصرة في الفترة بين مقتل عثمان ومجيء أصحاب الجمل، وهي لا تقل عن أربعة أشهر كما تذكر الروايات، فلقد تمت البيعة لعلي بن أبي طالب، وبدأ الخليفة الجديد يمارس مهامه، وقام بتفريق عمّاله على الولايات، فكانت البصرة من نصيب عثمان ابن حنيف الذي باشر اُمور ولايته بشكل طبيعي، ولم يترك لنا التأريخ وثيقة تقول بأن عثمان بن حنيف قد بعث كتاباً الى الخليفة يخبره بوجود اضطراب أو شغب يستدعي تدخل أحد لفضه! بل إن الأمور قد سارت على عكس ما يدعيه القاضي ابن العربي، فإن مجيء أصحاب الجمل الى البصرة، كان مقدمة لفتنة جديدة استتبعها وقوع حرب طاحنة راح ضحيتها اُلوف المسلمين من بينهم عدد من كبار الصحابة وعلى رأسهم الصحابيان اللذان قادا معركة الجمل (طلحة والزبير)، وجُرحت اُم المؤمنين عائشة، وكادت تُقتل، فكانت تلك أول حرب تدور رحاها بين المسلمين أنفسهم. وفوق هذا وذاك، فإن ابن العربي ينقض الأخبار التي تصافقت على أن الهدف المعلن لخروج أصحاب الجمل كان المطالبة بدم

(٢٩٠) العواصم من القواصم : ١٥٥ .

عثمان، كما تثبت ذلك جميع المصادر، وكما سوف يتبين لنا من اعترافات أصحاب الجمل أنفسهم، وهي الحجة ذاتها التي تذرع بها معاوية بن أبي سفيان وأنصاره فيما بعد.

حوادث ما قبل الخروج

من أجل الإلمام بأطراف القضية، فان علينا أن لا نستبق الأحداث، فنعود قليلا الى الوراء مرة أُخرى، لنمسك بأطراف خيوط القضية، وتبيّن حقيقة النوايا التي أدت الى تلك الأحداث الدامية.

لا أُريد أولا الاسترسال في الكلام حول بيعة علي بن أبي طالب بعد مقتل عثمان - فهي تكاد تكون معروفة رغم اضطراب بعض الأخبار حولها- لكن المهم إنها تمت على كل حال، والذي جرى بعد ذلك بقليل كان له الأثر الكبير على مجريات الأحداث فيما بعد، وذلك حينما كشف الخليفة الجديد عن نواياه في الإدارة، مما شكل مفاجأة لبعض الصحابة الذين لم يرقهم اسلوب علي وكيفية تسييره للأُمور.

لقد كشف الخليفة الجديد النقاب عن نواياه، في أول خطبة خطبها بعد توليه الخلافة ومن على المنبر، ليبين برنامج الحكم الذي ينوي تطبيقه، فكان من جملة ما قال: ألا لا يقولن رجال منكم غداً، قد غمرتهم الدنيا، فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا منعتُهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتُهم الى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا، ألا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله)، يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته، فإن الفضل النيّر غداً عند الله، وثوابه وأجره على الله، وأيما رجل استجاب لله وللرسول، فصدّق ملّتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله، يقسَّم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب.

لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً، وما عند الله خير للأبرار، وإذا كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا، فإن عندنا مالا نقسمه فيكم، ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا عجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إلاّ حضر إذا كان مسلماً حراً..

قال ابن أبي الحديد المعتزلي - بعد ايراده هذا- قال شيخنا أبو جعفر:

فكان هذا أول ما أنكروه من كلامه(عليه السلام)، وأورثهم الضغن عليه، وكرهوا إعطاءه وقسمه بالسوية، فلما كان الغد، غدا وغدا الناس لقبض المال، فقال لعبيدالله بن أبي رافع كاتبه: ابدأ بالمهاجرين فنادهم، واعط كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير، ثم ثنّ بالانصار فافعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من الناس كلهم، الأحمر والأسود، فاصنع به مثل ذلك...[٢٩١].

بدء النقمة

لقد أوضح الخليفة الجديد منهجه في الحكم، وبخاصة فيما يتعلق بالعطاء والأمور المالية، فأفهم الجميع أن العطاء في العهد الجديد يتضمن القسمة بالسوية دون تفاضل بينهم، كما وكبح جماح كبار الصحابة حين أفهمهم أن التفاضل في الصحبة يكون عند الله وليس عند الخليفة، وأن الصحابة وباقي الناس شرع سواء، ولا شك أن مثل هذه الاجراءات كان ولابد لها من أن تخلّف آثاراً غير محمودة في نفوس الكثيرين، فإن الاجراءات التي اتخذها عمر بن الخطاب في الغاء مبدأ المساواة في العطاء، وتفضيل أهل السابقة على غيرهم، وتغيير الأمر عما كان عليه في عهد النبي(صلى الله عليه وآله) وخليفته أبي بكر، ومن ثم استمرار الوضع على ذلك طيلة خلافة عثمان كانت قد تركت أثراً في نفوس اولئك الصحابة من أهل السابقة وجعلتهم يعتقدون بأن لهم مكانة خاصة في المجتمع ينبغي مراعاتها، لذا فإنهم ثاروا على عثمان عندما أراد أن يفضل أقرباءه من غير ذوي السابقة عليهم وإيثاره إياهم بالأموال والمناصب، حتى قال طلحة بن عبيدالله، فيما أخرج عمر بن شبة عن حكيم بن جابر في إسناده قال:

كلّم عليّ طلحة -وعثمان محصور في الدار- فقال: إنهم قد حيل بينهم وبين الماء.

فقال طلحة : أما حتى تعطي بنو اُمية الحق من أنفسها، فلا[٢٩٢].

أما العهد الجديد، فإنه لم يبدُ عليه أنه يريد إعادة الأمور الى ما كانت عليه في زمن عمر بن الخطاب، بل هو يريد إعادة الأمور الى ما كانت عليه أيام رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأبي بكر، فبدأ التململ منذ اليوم تجاه هذه السياسة الجديدة بالظهور على اولئك الصحابة، يضاف إليهم اولئك المنتفعين من بطانة عثمان ابن عفان الذين كانوا قد حصلوا على تلك الأموال من غير استحقاق، فأصبح النظام الجديد يتهدد مصالحهم ويلوّح بتجريدهم مما في أيديهم، فانضم هؤلاء الى اولئك، وانقلبت الأمور

(٢٩١) شرح نهج البلاغة ٧ :٣٧.

(٢٩٢) تاريخ المدينة : ١١٦٩

إلى حالة عجيبة من ظهور التحالف بين الساخطين على عثمان والموالين له من أجل الوقوف أمام السياسة الجديدة التي تهدد مصالحهم المشتركة من الآن فصاعداً.

لقد بدأ سياق الأحداث يجري مجرىً جديداً، ويمكن تبيّن ذلك في تكملة أحداث الرواية السابقة التي ينقلها ابن أبي الحديد عن الاسكافي، قال:

فبينا الناس في المسجد بعد الصبح، إذ طلع الزبير وطلحة فجلسا ناحية عن علي(عليه السلام)، ثم طلع مروان وسعيد وعبدالله بن الزبير فجلسوا إليها، ثم جاء قوم من قريش فانضموا إليهم، فتحدثوا نجيّاً ساعة، ثم قام الوليدبن عقبة بن أبي معيط، فجاء الى علي(عليه السلام) فقال: يا أبا الحسن، إنك قد وترتنا جميعاً، أما أنا فقتلت أبي يوم بدر صبراً، وخذلت أخي يوم الدار بالأمس، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر في الحرب -وكان ثور قريش- وأما مروان، فسخّفت أباه عند عثمان إذ ضمّه إليه، ونحن إخوتك ونظراؤك من بني عبدمناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنّا ما أصبناه من المال في أيام عثمان، وأن تقتل قتلته، وإنا إن خفناك تركناك فالتحقنا بالشام. فقال: أما ما ذكرتم من وتري إياكم، فالحق وتركم، وأما وضعي ما أصبتم فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن غيركم، وأما قتلي قتلة عثمان، فلو لزمني قتلهم اليوم لقتلتهم أمس، ولكن لكم عليَّ إن خفتموني أن أؤمنكم، وإن خفتكم أن أسيّركم.

فقام الوليد الى أصحابه فحدّثهم، وافترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف، فلما ظهر ذلك من أمرهم، قال عمار بن ياسر لأصحابه: قوموا بنا الى هؤلاء النفر من إخوانكم فإنه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من الخلاف والطعن على إمامهم، وقد دخل أهل الجفاء بينهم وبين الزبير والأعسر العاق -يعني طلحة- فقام أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم فدخلوا على علي(عليه السلام) فقالوا: يا أمير المؤمنين انظر في أمرك وعاتب قومك، هذا الحي من قريش، فإنهم قد نقضوا عهدك واخلفوا وعدك، وقد دعونا في السّر الى رفضك، هداك الله لرشدك، وذاك أنهم كرهوا الأسوة وفقدوا الاثرة، ولمّا آسيت بينهم وبين الاعاجم أنكروا واستشاروا عدوّك وعظموه، وأظهروا الطلب بدم عثمان، فرقة للجماعة وتألفاً لأهل الضلالة، فرأيك![٢٩٣].

وهكذا بدأ التحالف القرشي الجديد يظهر على السطح، وكان هذا التحالف بحاجة الى غطاء يبرّر التمرد على السلطة الجديدة، وبما أن المطالب التي طرحها الحلف على الخليفة لم تكن تمتلك المسوّغ القانوني الذي يبيح لها ذلك، فقد قرر المتحالفون

(٢٩٣) شرح نهج البلاغة ٧ : ٣٨

تبنّي نظرية تبدو أكثر قبولا عند الناس- وبخاصة الذين كانوا بعيدين عن الأحداث- فكان الطلب بدم الخليفة المقتول هو أفضل وسيلة لتحقيق ذلك، ومن العجب أن من بين أُولئك الذين طلبوا القصاص من قتلة عثمان، عدد كبير من الخاذلين لعثمان، بل ومن المحرّضين عليه! ولقد اعترف بعض زعماء الحلف الجديد بذلك، فقد روي أن الزبير قال في ملأ من الناس: هذا جزاؤنا من علي! قمنا له في أمر عثمان حتى قُتل، فلما بلغ بنا ما أراد، جعل فوقنا من كنّا فوقه!

وقال طلحة : ما اللوم علينا، كنا معه أهل الشورى ثلاثة، فكرهه أحدنا- يعني سعداً- وبايعناه، فأعطيناه ما في ايدينا، ومنعنا ما في يده، فأصبحنا وقد أخطأنا اليوم ما رجوناه أمس، ولا نرجو غداً ما أخطأنا اليوم(٢٩٤).

بدء التمرد

بعد أن تحقق زعماء التحالف الجديد من نوايا الخليفة، وأدركوا أنهم لا يستطيعون أن يثنوه عن السياسة التي يريد اتباعها، بدأوا تحركهم بشكل عملي، وكان الأمر يتطلب تنفيذ خطة العصيان خارج المدينة المنورة، لأن جمع الأعوان وتعبئتهم لا يمكن أن يتحقق إلاّ بجهد، ويستحيل تحقيق ذلك في عاصمة الخلافة، فكان الرأي بعد المشورة هو البدء من مكان آخر خارج العاصمة، ولم يكن هناك ما يبرر الخروج من المدينة لاستكمال تهيئة مستلزمات الثورة إلاّ بانتحال عذر مقبول، «فدخل الزبير وطلحة على علي(عليه السلام)فاستأذناه في العمرة، فقال: ما العمرة تريدان. فحلفا له بالله أنهما ما يريدان غير العمرة، فقال لهما: ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة ونكث البيعة، فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث البيعة يريدان، وما رأيهما غير العمرة. قال لهما: فأعيدا البيعة لي ثانية; فأعاداها بأشد ما يكون من الأيمان والمواثيق، فأذن لهما، فلما خرجا من عنده قال لمن كان حاضراً: والله لا ترونهما الاّ في فتنة يقتتلان فيها.

قالوا : يا أمير المؤمنين، فمر بردّهما عليك. قال: ليقضي الله أمراً كان مفعولا...

وكان التنصل من البيعة ونكثها أول خطوة لبدء التمرد، إذ أن طلحة والزبير ما كادا يخرجان من المدينة الى مكة، حتى «لم يلقيا أحداً إلاّ وقالا له: ليس لعلي في أعناقنا بيعة، وإنما بايعناه مكرهين.

فبلغ علي(عليه السلام) قولهما، فقال: أبعدهما الله وأغرب دارهما! أما والله لقد علمت أنهما سيقتلان أنفسهما أخبث مقتل، ويأتيان من وردا عليه بأشأم يوم، والله ما العمرة

(٢٩٤) شرح نهج البلاغة ٧ : ٤٢ .

يريدان، ولقد أتياني بوجهَي فاجرين، ورجعا بوجهي غادرين ناكثين، والله لا يلقيانني بعد اليوم إلاّ في كتيبة خشناء يقتلان فيها أنفسهما، فبعداً لهما وسحقاً(٢٩٥).

عائشة والتحالف

كان التحالف الجديد بحاجة الى عناصر أُخرى مؤثرة في الرأي العام الاسلامي يعطي لحركته غطاء مقبولا عند الناس، وكانت أم المؤمنين عائشة خير عنصر يحتاجه هذا التحالف، فقد كانت اُم المؤمنين عائشة قد بدأت تتصدى للأحداث السياسية المهمة في خلافة عثمان، وكانت مؤهلة لذلك، لمنزلتها -كونها زوج النبي- ولما كانت تمتلك من مواهب اُخرى، كقوة الشخصية وفصاحة المنطق. وكانت عند مقتل عثمان في مكة، فقد مرّ بنا سابقاً أن الطبري قد روى عن سيف بأن بعض المسلمين قد جاءوا الى عائشة ورجوها أن تلغي زيارتها للبيت الحرام وتتولى مدافعة الناس وردهم عن عثمان، وأنها اعتذرت خوفاً من أن يصيبها ما أصاب اُم حبيبة!

لكن المؤرخين -ومن بينهم الطبري- قد أوردوا رواية معاكسة لرواية سيف عن موقف عائشة من عثمان، فقد قالوا -واللفظ للبلاذري-:

لما اشتد الأمر على عثمان أمر مروان بن الحكم وعبدالرحمان بن عتاب ابن اُسيد; فأتيا عائشة وهي تريد الحج، فقالا لها: لو أقمت، فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل. فقالت: قد قرّبت ركابي وأوجبت الحج على نفسي; و والله لا أفعل، فنهض مروان وصاحبه ومروان يقول:

وحرّق قيس عليَّ البلاد *** حتى إذا اضطرمت أجذما

فقالت عائشة : يا مروان! وددت والله أنه في غرارة من غرائري هذه، وإني طوّقت حمله حتى اُلقيه في البحر.

ومرّ عبدالله بن عباس بعائشة وقد ولاّه عثمان الموسم، وهي بمنزل من منازل طريقها فقالت: ياابن عباس، إن الله قد آتاك عقلا وفهماً وبياناً، فإيّاك أن تردّ الناس عن هذا الطاغية(٢٩٦).

وقال ابن أبي الحديد المعتزلي :

(٢٩٥) شرح نهج البلاغة ١ : ٢٣٢ ، أنساب الاشراف ٣ : ٢٢

(٢٩٦) أنساب الأشراف ٦ : ١٩٥ ، تاريخ الطبري ٤ : ، الطبقات الكبرى ٥ : ٣٦ ،العقد الفريد ٤ : ٢٢٩ ، تاريخ المدينة ٤ : ١١٧٢ .

قال كل من صنّف في السير والأخبار، إن عائشة كانت من أشدّ الناس على عثمان، حتى إنها أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله(صلى الله عليه وآله) فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين عليها: هذا ثوب رسول الله(صلى الله عليه وآله) لم يَبلَ، وعثمان قد أبلى سنّته!

قالوا : أول من سمى عثمان نعثلا عائشة; والنعثل الكثير شعر اللحية والجسد، وكانت تقول: اقتلوا نعثلا، قتل الله نعثلا(٢٩٧).

وروى المدائني في كتاب (الجمل) قال :

لما قُتل عثمان كانت عائشة بمكة، وبلغ قتله إليها وهي بشَراف، فلم تشُك في أن طلحة هو صاحب الأمر، وقالت: بُعداً لنعثل وسحقاً! إيه ذا الاصبع! إيه أبا شبل! إيه يابن عم، لكأني أنظر الى إصبعه وهو يبايع له، حثّوا الابل ودعدعوها(٢٩٨).

كما روى الطبري عن عمر بن شبة بسنده قال: خرجت عائشة(رض) وعثمان محصور، فقدم عليها مكة رجل يقال له أخضر، فقالت: ما صنع الناس؟ فقال: قتل عثمانُ المصريّين! قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، أيقتل قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم! والله لا نرضى بهذا(٢٩٩).

كما روى البلاذري بسنده الى الزهري قال: وقد كانت عائشة وأُم سلمة حجّتا ذلك العام، وكانت عائشة تؤلب على عثمان، فلما بلغها أمره وهي بمكة، أمرت بقبّتها فضُربت في المسجد الحرام، وقالت: إني أرى عثمان سيشأم قومه كما شأم أبو سفيان قومه يوم بدر!(٣٠٠).

ونقل ابن أبي الحديد عن أبي مخنف قوله: وقد روي من طرق مختلفة أن عائشة لما بلغها قتل عثمان بمكة، قالت: أبعده الله، ذلك بما قدَّمت يداه وما الله بظلام للعبيد.

فيرشح مما سبق أن عائشة كانت من أشد المحرضين على عثمان(٣٠١). والداعين الى قتله، وكانت ترجو انتقال الخلافة الى ابن عمها طلحة، إلاّ أن الأمور قد سارت بغير الاتجاه الذي تمنته، ونال الخلافة علي بن أبي طالب، فانقلبت عائشة من محرّض على دم عثمان الى

(٢٩٧) قال ابن منظور : ونعثل رجل يهودي كان بالمدينة، قيل شُبّه به عثمان(رض) ... وشاتمو عثمان يسمونه نعثلا ... وفي حديث عائشة : اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا، تعني عثمان. لسان العرب ١٤:١٩٨ .

(٢٩٨) شرح نهج البلاغة ٦ : ٢١٥ .

(٢٩٩) تاريخ الطبري ٤ : ٤٤٩ .

(٣٠٠) أنساب الأشراف ٦ : ٢١٢ .

(٣٠١) شرح نهج البلاغة ٦ : ٢١٦ .

مطالب به، وانضمت الى التحالف الجديد، بعد أن كتب إليها طلحة والزبير: أن خذّلي الناس عن بيعة علي، وأظهري الطلب بدم عثمان، وحمّلا الكتاب مع ابن أُختها عبدالله بن الزبير. فلما قرأت الكتاب كاشفت وأظهرت الطلب بدم عثمان(٣٠٢).

المسير الى البصرة

لخّص القاضي ابن العربي دوافع خروج المتحالفين الى البصرة بقوله:

ويروى أن تغيّبهم قطعاً للشغب بين الناس، فخرج طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين(رضي الله عنهم) رجاء أن يرجع الناس الى أُمّهم، فيرعوا حرمة نبيهم، واحتجوا عليها بقوله تعالى **(لا خَيرَ في كثير مِنْ نَجواهُم إلاّ مَنْ أمرَ بصدقة أو مَعروف أو إصلاح بينَ الناسِ).**

وقد خرج النبي(صلى الله عليه وآله) في الصلح وأرسل فيه، فرجت المثوبة، واغتنمت الفرصة، وخرجت حتى بلغت الأقضية مقاديرها(٣٠٣).

أما البلاذري فروى قصة خروج المتحالفين الى البصرة بسنده الى الزهري قال: صار طلحة والزبير الى مكة، وابن عامر بها يجرّ الدنيا، قد قدم من البصرة، وبها يعلى بن أُميّة - وهي أُمه وأبوه أُمية تميمي- ومعه مال كثير قدم به من اليمن، وزيادة على أربعمائة بعير.

فاحتجوا عند عائشة فأداروا الرأي فقالوا: نسير الى المدينة فنقاتل علياً.

فقال بعضهم : ليست لكم بأهل المدينة طاقة.

قالوا : فنسير الى الشام فيه الرجال والأموال، وأهل الشام شيعة لعثمان، فنطلب بدمه ونجد على ذلك أعواناً وأنصاراً ومشايعين! فقال قائل منهم: هناك معاوية، وهو والي الشام والمطاع به، ولن تنالوا ما تريدون، وهو أولى منكم بما تحاولون لأنه ابن عم الرجل. فقال بعضهم: نسير الى العراق; فلطلحة بالكوفة شيعته، وللزبير بالبصرة من يهواه ويميل إليه.

(٣٠٢) شرح نهج البلاغة ٦ : ٢١٦ .
(٣٠٣) العواصم من القواصم : ١٥٥ .

فاجتمعوا على المسير الى البصرة، وأشار عبدالله بن عامر عليهم بذلك وأعطاهم مالا كثيراً قوّاهم به، وأعطاهم يعلى بن اُمية التميمي مالا كثيراً وإبلا.

فخرجوا في تسعمائة رجل من أهل المدينة ومكة، ولحقهم الناس حتى كانوا ثلاثة آلاف رجل.

فبلغ علياً مسيرهم، ويقال: إن اُم الفضل بنت الحارث بن حزن كتبت به الى علي، فأمر علي سهل بن حنيف الأنصاري، وشخص حتى نزل ذا قار.

وقال البلاذري أيضاً :

وكان بمكة سعيد بن العاص بن اُمية، ومروان بن الحكم بن أبي العاص ابن اُمية، وعبدالرحمان بن عتاب بن اُسيد بن أبي العاص بن اُمية، والمغيرة بان شعبة الثقفي، قد شخصوا من المدينة; فأجمعوا على فراق علي والطلب بدم عثمان، والمغيرة يحرّض الناس ويدعوهم الى الطلب بدمه، ثم صار الى الطائف معتزلا للفريقين معاً. فجعلت عائشة تقول: إن عثمان قتل مظلوماً، وأنا أدعوكم الى الطلب بدمه وإعادة الأمر شورى.

وكانت اُم سلمة بنت أبي اُمية بمكة، فكانت تقول: أيها الناس، آمركم بتقوى الله، وإن كنتم تابعتم علياً فارضوا به، فوالله ما أعرف في زمانكم خيراً منه[٣٠٤].

وهكذا بدأ التحالف الذي صار يضم خصوم الأمس مسيره الى البصرة للانتقاض على الحكم الجديد بدعوى تأليف الكلمة والقضاء على الشغب والمطالبة بدم عثمان!

ولقد كان في أفراد التحالف من يعرف أن قتلة عثمان الحقيقيين هم الذين كانوا يحرضون على قتله، لذا قال سعيد بن العاص لمروان بن الحكم عندما لقيه بذات عرق وهم في طريقهم الى البصرة: أين تذهبون وثأركم على أعجاز الابل؟! اقتلوهم ثم ارجعوا الى منازلكم لا تقتلوا أنفسكم.

قالوا : بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً; فخلا سعيد بطلحة والزبير، فقال: إن ظفرتما، لمن تجعلان الأمر؟ اصدقاني. قالا: لأحدنا، أيّنا اختاره الناس. قال: بل اجعلوه لولد عثمان فانكم خرجتم تطلبون بدمه. قالا: ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم! قال: أفلا أراني أسعى لاخراجها من بني عبدمناف[٣٠٥].

(٣٠٤) أنساب الأشراف ٣ : ٢١ ، ٢٣ ، وانظر الطبري ٤ : ٤٥٢ عن أحمد بن زهير ، تاريخ اليعقوبي٢:١٧٩ ، مروج الذهب للمسعودي ٣ : ١٨٢ .

(٣٠٥) الطبري ٤ : ٤٥٣ عن عمر بن شبة .

وهكذا بدأت تتكشف الأهداف الحقيقية لبعض أعضاء هذا التحالف، وإن ما فعله مروان بن الحكم أثناء معركة الجمل، حينما رمى طلحة بسهم قاتل وقال: لا أطلب بثأري بعد اليوم، لأصدق دليل على حقيقة تلك النوايا.

الحوأب

من الأمور التي تبعث على الاستغراب حقاً، أن ينبري القاضي ابن العربي لينسف قضية الحوأب جملة وتفصيلا، بقوله:

فإن قيل : لم خرجت عائشة(رض) وقد قال(صلى الله عليه وآله) لهم في حجة الوداع: «**هذه، ثم ظهور الحصر**». قلنا: حدث حديثين امرأة، فإن أبت فأربعة، يا عقول النسوان، ألم أعهد إليكم ألا ترووا أحاديث البهتان، وقدمنا لكم على صحة خروج عائشة البرهان; فلم تقولون ما لا تعلمون، وتكررون ما وقع الانفصال عنه كأنكم لا تفهمون؟ (**إنَّ شرَّ الدوابّ عندَ اللهِ الصُّم البكم الذينَ لا يعقلونَ**).

وأما الذي ذكرتم من الشهادة على ماء الحوأب، فقد بؤتم في ذكرها بأعظم حوب! ما كان شيء قط مما ذكرتم! ولا قال النبي(صلى الله عليه وآله) ذلك الحديث! ولا جرى ذلك الكلام! ولا شهد أحد بشهادتهم! وقد كتبت شهادتكم بهذا الباطل وسوف تُسألون(٣٠٦).

فابن العربي يتهم كل المحدثين والمؤرخين الذين أخرجوا حديث الحوأب ويصفهم بقلة العقول، ويحمّلهم أوزار ذلك!

لكن الذين أثبتوا قضية الحوأب أكثر من أن يُحصوا، وقد أخرجوا هذا الحديث وأرسلوه إرسال المسلمات، بل إنه يكاد يكون من المسائل المتواترة تماماً. ذكر ابن أبي الحديد أن أبا مخنف قال:

حدثنا إسماعيل بن خالد، عن قيس بن حازم، وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وروى جرير بن يزيد عن عامر الشعبي، وروى محمد ابن إسحاق عن حبيب بن عمير، قالوا جميعاً:

لما خرجت عائشة وطلحة والزبير من مكة الى البصرة، طرقت ماء الحوأب - وهو ماء لبني عامر بن صعصعة- فنبحتهم الكلاب، فنفرت صعاب إبلهم، فقال قائل منهم: لعن الله الحوأب فما أكثر كلابها!

(٣٠٦) العواصم من القواصم : ١٥٩ .

فلما سمعت عائشة ذكر الحوأب، قالت : أهذا ماء الحوأب؟ قالوا: نعم. فقالت: ردّوني ردّوني.

فسألوها ما شأنها، ما بدا لها! فقالت: إني سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: «**كأنّي بكلاب ماء يدعى الحوأب قد نبحت بعض نسائي**»، ثم قال لي: «**إياك يا حميراء أن تكونيها**».

فقال الزبير : مهلا يرحمك الله، فإنا قد جُزنا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة، فقالت: أعندك من يشهد بأن هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب؟

فلقّق لها الزبير وطلحة خمسين أعرابياً جعلا لهم جعلاً، فحلفوا لها وشهدوا أن هذا الماء ليس بماء الحوأب. فكانت هذه أول شهادة زور في الإسلام، فسارت عائشة لوجهها![٣٠٧].

قال القرطبي تعليقاً على كلام ابن العربي حول قضية الحوأب :

والعجب من القاضي أبي بكر بن العربي كيف أنكر هذا الحديث في كتبه، منها في كتاب العواصم من القواصم، وذكر أنه لا يوجد أصلا، وأظهر العلماء المحدّثين بانكاره غباوة وجهلا. وشهرة هذا الحديث أوضح من فلق الصبح![٣٠٨].

يوم الجمل الأصغر

كانت حرب الجمل التي استتبعت خروج المتحالفين الى البصرة على يومين، أُولاهما المعركة التي دارت بين المتحالفين من جهة وبين والي البصرة عثمان بن حنيف من جهة أُخرى قبل مجيء علي بن أبي طالب الى البصرة، وقد سميت بيوم الجمل الأصغر. ومعركة أُخرى فاصلة دارت بين المتحالفين من جهة وبين علي بن أبي طالب من جهة أُخرى، وتدعى بيوم الجمل الأكبر. وقد تعرضت الأحداث التي سبقت كلتا المعركتين وتخللتهما الى عملية تزييف يجدر بنا الكشف عنها، وإظهار الحقيقة فيما جرى، مع ما يتخلل ذلك من إظهار لحقيقة النوايا التي قادت الى هذه الحرب الضروس.

إن جمهور المؤلفين مالوا الى اعتماد رواية الطبري المطوّلة بطريق سيف بن عمر للأحداث، مع العلم بأن الطبري قد أورد روايات أُخرى مختصرة عن تلك الأحداث بغير طريق سيف، وهي تتفق الى حد بعيد جداً مع الروايات التي جاءت في

(٣٠٧) شرح نهج البلاغة ٩ : ٣١٠ ، الطبري ٤ : ٤٦٩ عن احمد بن زهير، انساب الأشراف ٣ : ٢٤ وفيه أن الذي جاء بالشهود هو عبدالله بن الزبير .

(٣٠٨) التذكرة في احوال الموتى : ٦٢١ .

المصادر التاريخية الأُخرى، إلاّ أنها لاقت الإعراض من قبل معظم المؤلفين قديماً وحديثاً، ومنهم القاضي ابن العربي الذي لخص لنا أحداث معركة الجمل الأصغر بقوله:

واحتل بهم أهل البصرة، فحرّض من كان بها من المتألبين على عثمان الناس، وقالوا: اخرجوا إليهم حتى تروا ما جاءوا إليه; فبعث عثمان بن حنيف حكيم بن جبلة، فلقي طلحة والزبير بالزابوقة، فقُتل حكيم، ولو خرج مسلماً مستسلماً لا مدافعاً، لما أصابه شيء، وأي خير كان له في المدافعة، وعن أي شيء كان يدافع وهم ما جاءوا مقاتلين ولا ولاة! وإنما ساعين في الصلح، راغبين في تأليف الكلمة، فمن خرج إليهم ودافعهم وقاتلهم، دافعوا عن مقصدهم، كما يُفعل في سائر الأسفار والمقاصد.

فلما وصلوا الى البصرة، تلقاهم الناس بأعلى المربد مجتمعين، حتى لو رمي حجر لما وقع إلاّ على رأس إنسان، فتكلم طلحة، وتكلمت عائشة(رض) وكثر اللغط، وطلحة يقول: انصتوا; فجعلوا يركبونه ولا ينصتون، فقال: اف، اف، فراش نار وذباب طمع. وانقلبوا على غير بيان.

وانحدروا إلى بني فهد; فرماهم الناس بالحجارة حتى نزلوا الجبل، والتقى طلحة والزبير وعثمان بن حنيف ـ عامل علي على البصرة- وكتبوا بينهم أن يكفوا عن القتال، ولعثمان دار الامارة والمسجد وبيت المال، وأن ينزل طلحة والزبير من البصرة حيث شاءوا، ولا يعرض بعضهم لبعض حتى يقدم علي.

وروي أن حكيم بن جبلة عارضهم حينئذ، فقُتل بعد الصلح[٣٠٩].

هذا هو ملخص الأحداث عن مجيء أصحاب الجمل الى البصرة وما جرى فيها من أحداث قبل مجيء علي بن أبي طالب، كما يرويها لنا القاضي ابن العربي، ويقول عنها: انها صحاح الأخبار! وقبل أن أُناقش رواية القاضي ابن العربي هذه، أود أن أنقل ما أضافه الشيخ محب الدين الخطيب إليها من معلومات، لأنه رأى أن رواية ابن العربي المختصرة لا تشفي الغليل، فقال معلقاً عليها بقوله:

حفظ لنا الطبري وصفاً دقيقاً نقله سيف بن عمر التميمي عن شيخيه محمد وطلحة عن موقف أصحاب الجمل السلمي في هذه الوقعة، وإسراف حكيم بن جبلة في إنشاب القتال، قالا:

(٣٠٩) العواصم من القواصم : ١٥٥ .

وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا الى مقبرة بني مازن، ثم حجز الليل بين الفريقين.

وفي اليوم التالي انتقل أصحاب الجمل الى جهة دار الرزق، وأصبح عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة فجددوا القتال، وكان حكيم يطيل لسانه بسبّ أم المؤمنين، ويقتل من يلومه على ذلك من نساء ورجال، ومنادي عائشة يدعو الناس الى الكف عن القتال فيأبون، حتى إذا مسّهم الشر وعضّهم، نادوا أصحاب عائشة الى الصلح(٣١٠).

فتبين لنا من تعليق الخطيب على رواية ابن العربي - نقلا عن الطبري بطريق سيف- أن عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة هما المسؤولان عن نشوب القتال، فضلا عما تظهره لنا رواية محب الدين الخطيب عن حكيم بن جبلة من سوء خلق هذا الرجل الذي كان يسبّ أم المؤمنين عائشة ولا يفرق في القتل بين الرجال والنساء، بينما يظهر لنا موقف أصحاب الجمل السلمي، ودعوة عائشة لايقاف القتال دون جدوى! وليس غريباً أن يتهم الخطيب حكيم بن جبلة ويصفه بهذه النعوت الشنيعة، فهو ليس إلاّ مقتفياً لأثر سيف ابن عمر الذي قال في وصف حكيم بن جبلة:

وكان حكيم بن جبلة رجلا لصاً، إذا قفل الجيوش خنس عنهم، فسعى في أرض فيغير على أهل الذمّة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض، ويصيب ما يشاء ثم يرجع، فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة الى عثمان، فكتب الى عبدالله بن عامر أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً، فحبسه(٣١١).

حقيقة الأمر

قلنا إن جمعاً من المؤرخين -ومنهم الطبري- قد أخرجوا روايات عديدة عن حقيقة أحداث معركتي الجمل بغير رواية سيف التي تخالف جميع الروايات، لذا أجد من المستحسن أن نتابع الأحداث ابتداءً بوصول المتحالفين الى مشارف البصرة، حيث أخرج ابن أبي الحديد المعتزلي عن أبي مخنف بسنده الى ابن عباس «أن

(٣١٠) العواصم من القواصم : هامش ٢٦٢ .
(٣١١) الطبري ٤ : ٣٢٦ .

الزبير وطلحة أغذّا السير بعائشة حتى انتهوا الى حفر أبي موسى الأشعري -وهو قريب من البصرة- وكتبا الى عثمان بن حنيف الانصاري، وهو عامل علي(عليه السلام) على البصرة: أن أخلِ لنا دار الامارة! فلما وصل كتابهما اليه، بعث إلى الأحنف بن قيس، فقال له: إن هؤلاء القوم قدموا علينا ومعهم زوجة رسول الله، والناس إليها سراع كما ترى.

فقال الأحنف : إنهم جاؤوك بها للطلب بدم عثمان، وهم الذين ألّبوا على عثمان الناس وسفكوا دمه! وأراهم والله لا يزايلون حتى يُلقوا العداوة بيننا ويسكفوا دماءنا! وأظنهم والله سيركبون منك خاصة مالا قبل لك به إن لم تتأهب لهم بالنهوض إليهم فيمن معك من أهل البصرة، فإنك اليوم الوالي عليهم، وأنت فيهم مطاع; فسر إليهم بالناس، وبادرهم قبل أن يكونوا معك في دار واحدة، فيكون الناس لهم أطوع منهم لك(٣١٢).

ذكرنا فيما سبق بأن المتحالفين كانوا بحاجة الى شخصيات ذات تأثير جماهيري يدعم دعواهم، وأن عائشة أم المؤمنين كانت خير من يمثل ذلك، ويبدو أن أم المؤمنين عائشة كانت تعرف في نفسها هذه الموهبة، لذا فإنها لم تألُ جهداً في استخدام منطقها، بل وقلمها أيضاً للبدء بحملة إعلامية تستهدف استقطاب عدد آخر من الشخصيات المهمة المؤثرة على الآخرين، فبادرت الى مراسلة الأحنف بن قيس - سيد تميم- «فأبى أن يأتيها، ثم أرسلت إليه فأتاها، فقالت: ويحك يا أحنف، بم تعتذر الى الله من ترك جهاد قتلة أمير المؤمنين عثمان(رضي الله عنه)، أمن قلّة عدد، أو أنك لا تطاع في العشيرة!

قال : يا أم المؤمنين، ما كبرت السن ولا طال العهد، وإن عهدي بك عام أول تقولين فيه وتنالين منه!

قالت : ويحك يا أحنف! إنهم ماصوه موص الاناء ثم قتلوه.

قال : يا أم المؤمنين، إني آخذ بأمرك وأنت راضية، وأدعه وأنت ساخطة»(٣١٣).

وقد راسلت أم المؤمنين عائشة شخصية مهمة أخرى فيما بعد، فإنه «لما نزل علي(عليه السلام) بالبصرة، كتبت عائشة الى زيد بن صوحان العبيدي: من عائشة بنت

(٣١٢) شرح نهج البلاغة ٩ : ٣١١ .
(٣١٣) الاستيعاب بهامش الاصابة ٢ : ١٩٢ ترجمة صخر بن قيس .

أبي بكر الصديق، زوج النبي(صلى الله عليه وآله) الى ابنها الخالص زيد بن صوحان، أما بعد: فأقم في بيتك، وخذّل الناس عن علي، وليبلغني عنك ما اُحب، فإنك أوثق أهلي عندي، والسلام.

فكتب إليها : من زيد بن صوحان الى عائشة بنت أبي بكر، أما بعد: فإن الله أمرك بأمر، وأمرنا بأمر، أمرك أن تقرّي في بيتك، وأمرنا أن نجاهد، وقد أتاني كتابك، فأمرتني أن أصنع خلاف ما أمرني الله، فأكون قد صنعت ما أمرك الله به، وصنعتِ ما أمرني الله به! فأمرك عندي غير مطاع، وكتابك غير مجاب، والسلام»(٣١٤).

التفاوض

على الرغم من أن رواية ابن العربي عن الطبري بطريق سيف، ومن بعده الخطيب تظهر عثمان بن حنيف رجلا نزقاً ميالا الى الشر، فإن باقي المصادر تبرز مدى حكمة هذا الرجل وتأنّيه، فهو على الرغم من استماعه الى الأحنف ابن قيس - وهو المعروف بحلمه وسعة صدره- الذي كان يحرض عثمان بن حنيف على المبادرة الى قتال القوم قبل دخولهم البصرة، وقد تبعه في ذلك حكيم بن جبلة فقال مثل قول الأحنف من تحريض عثمان على المناجزة وأخذ زمام المبادرة من خصومه، وهذا في الحقيقة منطق عسكري سليم، إلاّ أن عثمان بن حنيف قرر التأني وعدم المبادرة بانشاب القتال، وكان جوابه للأحنف بن قيس: الرأي ما رأيت، لكنني أكره الشر، وأن أبدأهم به، وأرجو العافية والسلامة الى أن يأتيني كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به.

وتبعاً لذلك فإنه لم يبدأ بشن الغارة على أصحاب الجمل، بل فعل ما يفعله الرجل الحكيم المسالم حين أرسل إلى خليفته بكتاب يخبره بما جرى، فأجابه الخليفة علي بن أبي طالب بكتاب جواباً عليه، يتضمن هو الآخر نفس الروحية في عدم المبادأة بالقتال، والاكتفاء بدعوة القوم الى الدخول في الطاعة والسلم، فكان مما جاء في كتابه:

من عبدالله علي أمير المؤمنين، الى عثمان بن حنيف.

(٣١٤) شرح نهج البلاغة ٦ : ٢٢٦ ، الطبري ٤ : ٤٧٦ .

أما بعد : فإن البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا، وتوجهوا الى مصرك، وساقهم الشيطان لطلب ما لا يرضى الله به، والله أشد بأساً وأشد تنكيلا، فإذا قدموا عليك فادعهم الى الطاعة والرجوع الى الوفاء بالعهد والميثاق الذي فارقونا عليه، فإن أجابوا فأحسن جوارهم ما داموا عندك، وإن أبوا إلاّ التمسك بحبل النكث والخلاف، فناجزهم القتال حتى يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين; كتابي هذا إليك من الربذة وأنا معجل المسير إليك إن شاء الله.

فلما وصل كتاب علي(عليه السلام) الى عثمان، أرسل الى أبي الأسود الدؤلي وعمران بن الحصين الخزاعي، فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلم القوم، وما الذي أقدمهم. فانطلقا حتى إذا أتيا حفر أبي موسى وبه معسكر القوم، فدخلا على عائشة، فنالاها ووعظاها وأذكراها وناشداها الله، فقالت لهما: القيا طلحة والزبير، فقاما من عندها ولقيا الزبير فكلماه فقال لهما: إنا جئنا للطلب بدم عثمان وندعو الناس الى أن يردوا أمر الخلافة شورى ليختار الناس لأنفسهم.

فقالا له : إن عثمان لم يُقتل بالبصرة ليطلب دمه فيها، وأنت تعلم قتلة عثمان من هم وأين هم! وإنك وصاحبك وعائشة كنتم أشد الناس عليه وأعظمهم اغراء بدمه، فأقيدوا من أنفسكم، وأما إعادة أمر الخلافة شورى، فكيف وقد بايعتم علياً طائعين غير مكرهين! وأنت يا أبا عبدالله لم يُبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وأنت آخذ قائم سيفك تقول: ما أحد أحق بالخلافة منه ولا أولى بها منه! وامتنعت من بيعة أبي بكر! فأين ذلك الفعل من هذا القول!

فقال لهما : إذهبا فالقيا طلحة، فقاما الى طلحة فوجداه أخشن الملمس، شديد العريكة، قوي العزم في إثارة الفتنة وإضرام نار الحرب، فانصرفا الى عثمان بن حنيف[٣١٥].

كان المتحالفون يحاولون استمالة الرأي العام إليهم بظهورهم بمظهر المدافع عن الحق والمطالبة بدم الخليفة المقتول، حتى إنهم ولتحقيق تلك الغاية، اتهموا علي بن أبي طالب صراحة بقتل عثمان أو التواطؤ على قتله، وتناوبوا إلقاء الخطب على أهل البصرة لاستمالة قلوب أهلها إليهم وإيغار صدورهم على علي بن أبي طالب، واجتمع أهل البصرة يستمعون إليهم، فقام طلحة بن عبيدالله أولا فخطب فيهم، وقال بعد أن ذكر فضل عثمان: «وقد كان أحدث احداثاً نقمنا عليه، فأتيناه فاستعتبناه فأعتبنا، فعدا

(٣١٥) شرح نهج البلاغة ٩ : ٣١٢ .

عليه امرؤ ابتز هذه الأُمة أمرها غصباً بغير رضا منها ولا مشورة فقتله! وساعده على ذلك قوم غير أتقياء ولا أبرار، فقُتل مُحرماً بريئاً تائباً. وقد جئناكم أيها الناس نطلب بدم عثمان، وندعوكم الى الطلب بدمه، فإن نحن أمكننا الله من قتلته قتلناهم به، وجعلنا هذا الأمر شورى بين المسلمين، وكانت خلافة رحمة للأُمة جميعاً، فإن كان أخذ الأمر من غير رضا من العامة ولا مشورة منها ابتزازاً، كان ملكاً عضوضاً وحدثاً كبيراً.

ثم قام الزبير فتكلم بمثل كلام طلحة.

فقام إليهما ناس من أهل البصرة فقالوا لهما : ألم تبايعا علياً فيمن بايعه! ففيم بايعتما ثم نكثتما!

فقالا : ما بايعناه ، وما لأحد في أعناقنا بيعة، وإنما استكرهنا على بيعته! فقال ناس : قد صدقا وأحسنا القول وقطعا الثواب.

وقال ناس : ما صدقا ولا أصابا في القول. حتى ارتفعت الأصوات.

ثم أقبلت عائشة على جملها فنادت بصوت مرتفع: أيها الناس، أقلّوا الكلام وأسكتوا. فأسكت الناس لها، فقالت: إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غيّر وبدّل، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قُتل مظلوماً تائباً، وإنما نقموا عليه ضربه بالسوط، وتأميره الشبان، وحمايته موضع الغمامة; فقتلوه محرماً في حرمة الشهر وحرمة البلد، ذبحاً كما يذبح الجمل، ألا وإن قريشاً رمت غرضها بنبالها، وأدمت أفواهها بأيديها، وما نالت بقتلها إياه شيئاً، ولا سلكت به سبيلا قاصداً، أما والله ليرونها بلايا عقيمة تنبّه النائم، وتقيم الجالس، وليسلطن عليهم قوم لا يرحمونهم، ويسومونهم سوء العذاب.

أيها الناس، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل به دمه، مصتموه كما يماص الثوب الرحيض، ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه، وبايعتم ابن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة ابتزازاً وغصباً; تراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ولا أغضب لعثمان من سيوفكم! ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته، فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان.

فماج الناس واختلطوا، فمن قائل: القول ما قالت، ومن قائل يقول: وما هي وهذا الأمر، إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها!

وارتفعت الأصوات، وكثر اللغط حتى تضاربوا بالنعال وتراموا بالحصى.

ثم إن الناس تمايزوا فصاروا فريقين: فريق مع عثمان بن حنيف، وفريق مع عائشة وأصحابها(٣١٦).

لقد كان من نتائج هذه الخطب الاستفزازية، انقسام الناس الى معسكرين متعاديين، بينما يرى القاضي ابن العربي أنهم خرجوا لتأليف القلوب، وأن الطلب بدم عثمان لم يكن دعواهم، في الوقت الذي تثبت الوقائع جميعاً، أن دعوى المتحالفين الرئيسة كانت الطلب بدم عثمان، والادعاء بأنه قد قُتل بعد توبته، وقد مرَّ فيما سبق أن موقف عائشة من عثمان وتحريضه عليها قد استمر حتى اللحظة الأخيرة من حياة عثمان، وانها استبشرت بقتله عندما سمعت به، ولكن الأهداف الحقيقية لثورة عائشة وحلفائها على عثمان لم تتحقق عندما تولى علي بن أبي طالب الخلافة، خلافاً لما كانت ترجوه عائشة، فكانت الخطة تتطلب الطعن في خلافة علي ونقض شرعيتها، ومن ثم تأليب الناس على العصيان.

الدوافع الحقيقية للخروج

مرّ بنا فيما سبق موقف أم المؤمنين عائشة من عثمان ومقالتها فيه من مختلف المصادر وعرفنا هدفها الحقيقي من الخروج، وبقي علينا أن نتبين الأهداف الحقيقية لكل من طلحة والزبير في الخروج، وقد مرّ فيما سبق نتف من الأخبار التي تدل على أن طلحة والزبير وتأليبهما على عثمان كان معلوماً عند معظم الناس، فقد واجههم عثمان بن حنيف ومبعوثاه اليهم بتلك الحقائق التي لم يتمكنا من ردّها، وقد أخرج البلاذري عن أبي مخنف قوله:

خطب طلحة بن عبيدالله الناس بالزابوقة فقال: يا أهل البصرة، توبة بحوبة، إنّما أردنا أن نستعتب عثمان ولم نرد قتله، فغلب السفهاء الحكماء حتى قتلوه.

فقال ناس لطلحة : يا أبا محمد، قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا من ذمّه والتحريض على قتله!

كما وروى البلاذري بسنده الى الزهري، قال: لما قدم طلحة والزبير البصرة، أتاهما عبدالله بن حكيم التميمي بكتب كتبها طلحة إليهم يؤلبهم فيها على عثمان، فقال

(٣١٦) شرح نهج البلاغة ٦ : ٣١٤ .

له حكيم: أتعرف هذه الكتب؟ قال: نعم، قال: فما حملك على التأليب عليه أمس والطلب بدمه اليوم؟! فقال: لم أجد في أمر عثمان شيئاً إلاّ التوبة والطلب بدمه![٣١٧].

أما أنصار عثمان، فقد مرّ فيما سبق رواية الطبري عن الحوار الذي دار بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وقوله لمروان: أين تذهبون وثأركم على أعجاز الابل! مشيراً بذلك الى أن المتهمين بقتل عثمان معهم وبرفقتهم، ولقد نفذ مروان الوصية فقتل طلحة بسهم، ولولا اعتقاده بأن طلحة يعد من قتلة عثمان لما أقدم على ذلك، وكما مرّ بنا في ترجمة مروان بن الحكم، أن ابنه عبدالملك كان يعتقد جازماً بأن طلحة من قتلة عثمان، ولولا أن أباه مروان اعترف له بقتل طلحة، لما أبقى من بني تيم -قبيلة طلحة- أحداً على وجه الأرض.

وقد أثبت معظم المؤرخين بأن طلحة كان من أشد المناوئين لعثمان، والمحرضين على دمه، فقد روى البلاذري بسنده الى ابن سيرين قال:

لم يكن من أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله) أشد على عثمان من طلحة![٣١٨].

وقال ابن أبي الحديد المعتزلي:

وكان طلحة من أشد الناس تحريضاً عليه، وكان الزبير دونه في ذلك، روي أن عثمان قال: ويلي على ابن الحضرمية -يعني طلحة- أعطيته كذا وكذا بهاراً ذهباً، وهو يروم دمي يحرّض على نفسي، اللهم لا تمتعه به ولقِهِ عواقب بغيه.

وروى الناس الذين صنفوا في واقعة الدار أن طلحة كان يوم قتل عثمان مقنّعاً بثوب قد استتر به عن أعين الناس، يرمي الدار بالسهام، ورووا أيضاً أنه لما امتنع على الذين حصروه الدخول من باب الدار، حملهم طلحة الى دار لبعض الأنصار، فأصعدهم الى سطحها، وتسوّروا منها على عثمان داره فقتلوه[٣١٩].

وقال أيضاً :

وروى المدائني في كتاب (مقتل عثمان) أن طلحة منع من دفنه ثلاثة أيام، وأن علياً(عليه السلام) لم يبايع الناس إلاّ بعد مقتل عثمان بخمسة أيام، وأن حكيم ابن حزام أحد بني أسد بن عبد العزى وجبير بن مطعم بن الحارث بن نوفل استنجدوا بعلي(عليه السلام) على دفنه، فأقعد طلحة لهم في الطريق ناساً بالحجارة; فخرج به نفر يسير من أهله وهم يريدون به حائطاً بالمدينة يعرف بحش كوكب، كانت اليهود تدفن فيه موتاهم، فلما صار هناك رُجم سريره وهمّوا بطرحه، فأرسل علي(عليه السلام) الى

(٣١٧) أنساب الأشراف ٣ : ٢١ .
(٣١٨) أنساب الاشراف ٦ : ٢٠١ .
(٣١٩) شرح نهج البلاغة ٩ : ٣٥ ، تاريخ المدينة : ١١٦٩ .

الناس يعزم عليهم ليكفوا عنه فكفوا، فانطلقوا به حتى دفنوه في حش كوكب، وروى الطبري نحو ذلك، إلاّ أنه لم يذكر طلحة بعينه!

وروى المدائني في هذا الكتاب، قال: دفن عثمان بين المغرب والعتمة، ولم يشهد جنازته إلاّ مروان بن الحكم وابنه عثمان وثلاثة من مواليه، فرفعت ابنته صوتها تندبه، وقد جعل طلحة ناساً هناك أمكنهم كميناً، فأخذتهم الحجارة وصاحوا: نعثل نعثل! فقالوا: الحائط الحائط، فدفن في حائط هناك.

وروى الواقدي، قال: لما قُتل عثمان، تكلموا في دفنه، فقال طلحة: يُدفن بديرسلع، يعني مقابر اليهود![٣٢٠].

فطلحة لم يكتف بالتحريض على قتل عثمان، بل شارك في الهجوم على داره بالسهام، ولم يكفه كل ذلك، فأمر برمي نعشه بالحجارة، ومنع من دفنه في مقابر المسلمين!

أما الزبير، فإنه وان كان أقل نكاية في عثمان من طلحة، إلاّ أنه لم يكن أقل منه تحريضاً وإغراء بدم عثمان، فقد كان يقول: «اقتلوه فقد بدّل دينكم! فقالوا: إن ابنك يحامي عنه بالباب! فقال: ما أكره أن يُقتل عثمان ولو بدئ بابني! إن عثمان لجيفة على الصراط غداً![٣٢١].

فتبين من كل ذلك أن المطالبين بدم عثمان كانوا هم أنفسهم من أشد المحرّضين عليه، بل ومن المشاركين في قتله، ومن العجب أن نجد أم المؤمنين عائشة تتهم علياً بقتل عثمان أو بالتواطؤ على قتله وتطالب بخلعه وردّ الأمر شورى بين المسلمين في النفر الذين اختارهم عمر بن الخطاب، مع استبعاد من شرك في دم عثمان، وهي تعني بذلك علي بن أبي طالب!

فالمطالبة بدم عثمان إذاً كان عذراً متهافتاً غير واقعي، ولكن المتحالفين تترّسوا به من أجل تبرير خروجهم على السلطة، ولقد جاءت الأخبار الصحيحة التي تكشف عن الدوافع الحقيقية لهذا الخروج، وقد مرّ طرف منها فيما يتعلق بآمال أم المؤمنين عائشة في تولية طلحة، ولا شك أن كلاً من طلحة والزبير كان يمني نفسه هو الآخر بنيل منصب الخلافة، فقد روى الطبري عن عمر بن شبة بسنده قال:

خرج أصحاب الجمل في ستمائة... فلما جازوا بئر ميمون، إذا هم بجزور نحرت ونحرها ينشعب، فتطيروا; وأذّن مروان حين فصل من مكة، ثم جاء حتى وقف

(٣٢٠) شرح نهج البلاغة ١٠ : ٦ .
(٣٢١) شرح نهج البلاغة ٩ : ٣٦ .

عليهما فقال: أيّكما أُسلّم بالامارة وأُؤذّن بالصلاة؟ فقال عبدالله بن الزبير: على أبي عبدالله، وقال محمد بن طلحة: على أبي محمد!

فأرسلت عائشة(رض) الى مروان فقالت: أتريد أن تفرّق أمرنا! ليصلِّ ابن أُختي.

فكان يصلي بهم عبدالله بن الزبير، حتى قدم البصرة، فكان معاذ بن عبيدالله يقول: والله لو ظفرنا لافتتنّا، ما خلّى الزبير بين طلحة والأمر، ولا خلّى طلحة بين الزبير والأمر![٣٢٢].

وذكر أبو مخنف في (كتاب الجمل) أن علياً(عليه السلام) خطب لما سار الزبير وطلحة من مكة ومعها عائشة يريدون البصرة، فقال: أيها الناس، إن عائشة سارت الى البصرة ومعها طلحة والزبير، وكل منهما يرى الأمر له دون صاحبه، أما طلحة فابن عمها، وأما الزبير فختنها، والله لو ظفرنا بما أرادوا -ولن ينالوا ذلك أبداً- ليضرب أحدهما عنق صاحبه بعد تنازع منهما شديد[٣٢٣].

وروى ابن كثير في خبر وقعة الجمل ومحاورة علي لطلحة والزبير، قول علي للزبير: ما أخرجك؟ قال: أنت، ولا أراك بهذا الأمر أولى مني[٣٢٤].

كما أخرج أحمد بن حنبل، وابن أبي شيبة، عن ابن عباس قال: أرسلني علي الى طلحة والزبير يوم الجمل، فقلت لهما: إن أخاكما يقرئكما السلام، ويقول لكما: هل وجدتما عليّ في حيف أو استئثار في فيء أو في كذا؟ فقال الزبير: ولا في واحدة منهما، ولكن مع الخوف شدة المطامع[٣٢٥].

وقال ابن أبي الحديد :

وقد روى المدائني أيضاً نحواً مما روى أبو مخنف، قال: بعث علي(عليه السلام)ابن عباس يوم الجمل الى الزبير قبل الحرب، فقال له: إن أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام، ويقول لكم: ألم تبايعني طائعاً غير مكره! فماالذي رابك مني فاستحللت به قتالي! قال: فلم يكن له جواب إلاّ أنه قال لي: إنا مع الخوف الشديد لنطمع، لم يقل غير ذلك.

قال أبو إسحاق: فسألت محمد بن علي بن الحسين(عليه السلام): ما تراه يعني بقوله هذا؟

(٣٢٢) تاريخ الطبري ٤ : ٤٥٤ .
(٣٢٣) شرح نهج البلاغة ١ : ٢٣٣ .
(٣٢٤) البداية والنهاية ٧ : ٢٣٣ .
(٣٢٥) الفضائل : ٩٢ ، المصنف ٧ : ٥٣٩ .

فقال : أما والله ما تركت ابن عباس حتى سألته عن هذا، فقال: يقول، إنا مع الخوف الشديد مما نحن عليه، نطمع أن نلي مثل الذي وليتم!

وقال محمد بن إسحاق : حدثني جعفر بن محمد(عليه السلام) عن أبيه، عن ابن عباس، قال: بعثني علي(عليه السلام) يوم الجمل الى طلحة والزبير، وبعث معي بمصحف منشور، وأن الريح لتصفق ورقه، فقال لي: قل لهما، هذا كتاب الله بيننا وبينكم، فما تريدان؟ فلم يكن لهما جواب إلاّ أن قالا: نريد ما أراد، كأنّهما يقولان (المُلك)، فرجعت الى علي فأخبرته[٣٢٦].

هذه الأخبار التي تصافق على إخراجها المؤرخون والمحدّثون تؤكد بأن المطامع السياسية والرغبة في الملك كانت الدافع الحقيقي للمتحالفين على الخروج، ويضاف إليها دوافع ثانوية تنبثق من هذا الواقع، وهي الرغبة في الاحتفاظ بالثروات الكبيرة التي تملكها القوم، فإنه بعد أن تبيّن لهم ولغيرهم أن سياسة علي بن أبي طالب المالية الجديدة، تستلزم تجريدهم من كثير من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في عهد الخليفتين السابقين له، بل وتجريدهم من الكثير مما في أيديهم أيضاً، لأن علي بن أبي طالب كان لا يرى في الصحبة امتيازاً خاصاً يخوّل لهم امتلاك الثروات، لذا فقد كان من أوائل كلماته قوله من على المنبر: فأفضل الناس عند الله منزلة، وأقربهم من الله وسيلة، أطوعهم لأمره، وأعملهم بطاعته، وأتبعهم لسنّة رسوله، وأحياهم لكتابه، ليس لأحد عندنا فضل إلاّ بطاعة الله وطاعة الرسول..

ثم قال : يا معشر المهاجرين والأنصار : أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم، بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين...

وبعث الى طلحة والزبير، فكان مما قال لهما : نشدتكما الله، هل جئتماني طائعين للبيعة، ودعوتماني إليها، وأنا كاره لها؟ قالا: نعم، فقال: غير مُجبرين ولا مقسورين، فاسلمتماني بيعتكما وأعطيتماني عهدكما؟ قالا: نعم. قال: فما دعاكما بعد الى ما أرى؟ قالا: أعطيناك بيعتنا على ألاّ تقضي الأمور ولا تقطعها دوننا، وأن تستشيرنا في كل أمر ولا تستبدّ بذلك علينا، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت، فأنت تقسم القسم وتقطع الأمر وتمضي الحكم بغير مشورتنا ولا علمنا.

فقال : لقد نقمتما يسيراً، وأرجأتما كثيراً فاستغفر الله لكما، ألا تخبرانني: أدفعتكما عن حق وجب لكما فظلمتكما إياه؟ قالا: معاذ الله، قال: فهل استأثرت من هذا المال لنفسي بشيء؟ قالا: معاذ الله. قال: أفوقع حكم أو حق لأحد من المسلمين فجهلته أو

(٣٢٦) شرح نهج البلاغة ٩ : ٣١٧ .

ضعفت عنه؟ قالا: معاذ الله. قال: فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟ قالا: خلافك عمر بن الخطاب في القسم، أنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا، وسوّيت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا، وأوجفنا عليه بخيلنا ورجالنا وظهرت عليه دعوتنا، وأخذناه قسراً قهراً ممن لا يرى الإسلام الاّ كرهاً.

فقال: ... وأما القسم والأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ ذي بدء، قد وجدت أنا وأنتما رسول الله(صلى الله عليه وآله) يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأما قولكما: جعلت فيأنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقديماً سبق الى الاسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم فلم يفضّلهم رسول الله(صلى الله عليه وآله)في القسم، ولا آثرهم بالسبق، والله سبحانه موف السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلاّ هذا[٣٢٧].

لقد فهم اولئك الصحابة أن بقاء الحكم في يد علي بن أبي طالب سيحرمهم من كثير من الامتيازات التي تعودوا على التمتع بها، وبالتالي فما الذي يجبرهم على الانقياد له؟ أليسوا مثله في الصحبة والسابقة والجهاد، ألم يرشحهم عمر بن الخطاب للخلافة في المجلس السداسي الذي كان مطلوباً منه اختيار أحدهم للخلافة؟

فما الذي يمنعهم من الوثوب للوصول الى سدّة الحكم حفاظاً على الخط الذي سار عليه عمر بن الخطاب في العطاء، مع ما يتضمن من امتيازات كبيرة لهم؟

وقد جاءت الأخبار مؤكدة هذا النهج في التفكير عند اولئك الصحابة، وتضمنت اعترافاتهم بذلك، وقد سبق بعضها فيما يتعلق بالرغبة في الامارة.

إن الأخبار التي رواها أبو مخنف والتي تضمن بعضها ما أخرج المدائني أيضاً -فيما نقل عنهما ابن أبي الحديد- تضمنت قول أبي مخنف: وحدثنا الأشعث بن سوار عن محمد بن سيرين عن أبي الخليل، قال: لما نزل طلحة والزبير المربد، أتيتهما فوجدتهما مجتمعين، فقلت لهما: ناشدتكما الله وصحبة رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ما الذي أقدمكما أرضنا هذه؟ فلم يتكلما، فأعدت عليهما، فقالا: بلغنا أن بأرضكم هذه دنيا، فجئنا نصيبها!

قال : وقد روى محمد بن سيرين، عن الأحنف بن قيس أنه لقيهما، فقالا له مثل مقالتهما الاولى: إنما جئنا نطلب الدنيا![٣٢٨].

(٣٢٧) شرح نهج البلاغة ٧ : ٣٩ .
(٣٢٨) شرح نهج البلاغة ٩ : ٣١٦ .

وروى الطبري بسنده الى الحسن البصري : أن طلحة بن عبيد الله باع أرضاً له من عثمان بسبعمائة الف فحملها إليه، فقال طلحة: إن رجلا تتسق هذه عنده وفي بيته لا يدري ما يطرقه من أمر الله عزّوجل لغرير بالله سبحانه; فبات ورسوله يختلف بها في سكك المدينة يقسمها حتى أصبح، فأصبح وما عنده منها درهم. قال الحسن: وجاء هاهنا يطلب الدينار والدرهم، أو قال: الصفراء والبيضاء[٣٢٩].

هكذاسارت الأمور منذ أن تولى علي بن أبي طالب الخلافة وحتى مجيء المتحالفين الى البصرة، وكانت هذه مقدمات الأحداث التي انتهت بمعركتي الجمل، وقد تبين من الروايات المتكاثرة من مختلف المصادر، وتعدد طرقها وأسانيدها أن أصحاب الجمل لم يخرجوا لتأليف الكلمة وبسط سلطة قانون الإسلام، وحتى لو افترضنا أن ذلك كان غايتهم حقيقة، فإنهم لم يكونوا يمتلكون الحق الشرعي الذي يخوّلهم التصدي لذلك العمل بدون أمر من الخليفة الشرعي الذي بايعوه، وإلاّ لأصبح الأمر فوضى وصار كل فرد يقوم مقام الخليفة ويقيم الحدود ويستأثر بالأمر كما يشاء، ولو كان هدف أصحاب الجمل إقامة الحد على قتلة الخليفة كما يدعون فما بالهم لم يقيموا الحد على عبيدالله بن عمر بن الخطاب عندما تقاعس عثمان عن إقامة الحد عليه!

فالأهداف الحقيقية للمتحالفين كانت تتلخص في الاطاحة بالخليفة الجديد واختيار أحدهم للخلافة مكانه، ومن ثم الاستئثار بالأموال والنفوذ، وهي نفس السياسة التي نقموها على عثمان، ولكنهم كانوا يحتجون بسبقهم وصحبتهم على ولاة عثمان الذين كانوا مجردين من هذه الامتيازات.

بدء المعركة

عندما فشلت الجهود التي بذلها عثمان بن حنيف في إقناع المتحالفين بالرجوع عن موقفهم وإصرارهم على الاستيلاء على مدينة البصرة، وقد حاول عثمان بن حنيف إقناعهم أخيراً بانتظار مجيء كتاب الخليفة علي بن أبي طالب حتى يرى رأيه، وقد تظاهر المتحالفون بالموافقة على ذلك، لكنهم نكثوا عهدهم وغدروا بعثمان بن حنيف، وارتكبوا في أثناء ذلك جملة من الفظائع، ذهب ضحيتها عدد غير قليل من أبرياء المسلمين، وقد ذكرنا فيما سبق رواية ابن العربي ومن بعده الخطيب لأحداث معركة الجمل الأصغر عن طريق سيف بن عمر، وسنذكر ها هنا عدداً من الروايات

(٣٢٩) الطبري ٤ : ٤٠٥ .

التي جاءت بطرق أُخرى غير طريق سيف، ومن بينها روايات الطبري، حتى يتبين للقارئ كيف أن سيف بن عمر يقلب الحقائق رأساً على عقب ويزيف الوقائع تماماً!

روى الطبري عن أحمد بن زهير بسنده الى الزهري قال:

بلغني أنه لما بلغ طلحة والزبير منزل علي بذي قار، انصرفوا الى البصرة فأخذوا على المنكدر، فسمعت عائشة(رض) نباح الكلاب، فقالت: أي ماء هذا! قالوا: الحوأب، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون! إني لهيه، قد سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله)يقول وعنده نساؤه: «**ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب**» فأرادت الرجوع، فأتاها عبدالله بن الزبير، فزعم أنه قال: كذب من قال إن هذا الحوأب.

ولم يزل حتى مضت، فقدموا البصرة وعليها عثمان بن حنيف، فقال لهم عثمان: ما نقمتم على صاحبكم! فقالوا: لم نره أولى بها منّا، وقد صنع ما صنع!

قال : فإن الرجل أمّرني، فاكتب إليه فاعلمه ما جئتم له، على أن اُصلي بالناس حتى يأتينا كتابه.

فوقفوا عليه وكتب، فلم يلبث إلاّ يومين، حتى وثبوا عليه فقاتلوه بالزابوقة عند مدينة الرزق، فظهروا، وأخذوا عثمان فأرادوا قتله، ثم خشوا غضب الأنصار، فنالوه في شعره وجسده.

فقام طلحة والزبير خطيبين فقالا: يا أهل البصرة، توبة بحوبة، إنما أردنا أن يستعتب أمير المؤمنين عثمان ولم نرد قتله، فغلب سفهاء الناس الحلماء حتى قتلوه.

فقال الناس لطلحة : يا أبا محمد، قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا!

فقال الزبير : فهل جاءكم مني كتاب في شأنه؟ ثم ذكر قتل عثمان(رضي الله عنه) وما أتى إليه، وأظهر عيب عليّ، فقام إليه رجل من عبدالقيس فقال: أيها الرجل، أنصت حتى نتكلم.

فقال عبدالله بن الزبير : ومالك وللكلام!

فقال العبدي : يا معشر المهاجرين، أنتم أول من أجاب رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فكان لكم بذلك فضل، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم، فلما توفي رسول الله(صلى الله عليه وآله) بايعتم رجلا منكم، والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك، فرضينا واتبعناكم، فجعل الله عزّوجل للمسلمين في إمارته بركة، ثم مات(رضي الله عنه)واستخلف عليكم رجلا منكم، فلم تشاورونا في ذلك، فرضينا وسلّمنا، فلما توفي الأمير جعل الأمر الى ستة نفر، فاخترتم عثمان وبايعتموه من غير مشورة منا، ثم أنكرتم من ذلك الرجل شيئاً فقتلتموه من غير مشورة منا، ثم بايعتم علياً من غير

مشورة منا، فما الذي نقمتم عليه فنقاتله! هل استأثر بفيء أو عمل بغير الحق، أو عمل شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه؟ وإلاّ فما هذا!

فهمّوا بقتل ذلك الرجل، فقام من دونه عشيرته، فلما كان الغد، وثبوا عليه وعلى من كان معه، فقتلوا سبعين رجلا![٣٣٠].

كما أخرج الطبري عن عمر بن شبة بسنده، قال:

لما كانت الليلة التي أخذ فيها عثمان بن حنيف، وفي رحبته مدينة الرزق طعام يرتزقه الناس، فأراد عبدالله أن يرزقه أصحابه، وبلغ حكيم بن جبلة ما صنع بعثمان، فقال: لستُ أخاف الله إن لم أنصره; فجاء في جماعة من عبدالقيس وبكر بن وائل، وأكثرهم عبدالقيس; فأتى ابن الزبير مدينة الرزق، فقال: مالك يا حكيم؟ قال: نريد أن نرتزق من هذا الطعام، وأن تخلوا عثمان فيقيم في دار الامارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم علي، والله لو أجد أعواناً عليكم أخبطكم بهم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلكم بمن قتلتم، ولقد أصبحتم وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم من إخواننا، أما تخافون الله عزّوجل! بم تستحلّون سفك الدماء؟!

قال : بدم عثمان بن عفان!

قال : فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان! أما تخافون مقت الله؟

فقال له عبدالله بن الزبير : لا نرزقكم من هذا الطعام، ولا نخلّي سبيل عثمان بن حنيف حتى يخلع علياً!

قال حكيم : اللهم إنك حكم عدل فاشهد، وقال لأصحابه: إني لست في شك من قتال هؤلاء، فمن كان في شك فلينصرف، وقاتلهم فاقتتلوا قتالا شديداً وضرب رجل ساق حكيم، فأخذ حكيم ساقه فرماه بها فأصاب عنقه فصرعه ووقذه، ثم حبا إليه فقتله واتكأ عليه، فمر به رجل فقال: من قتلك؟ قال: وسادتي، وقُتل سبعون رجلا من عبدالقيس..[٣٣١].

وروى أبو مخنف القصة بتفصيل أكثر، قال:

فلما أقبل طلحة والزبير من المربد، يريدان عثمان بن حنيف، فوجداه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السكك، فمضوا حتى انتهوا الى موضع الدباغين; فاستقبلهم أصحاب ابن حنيف فشجرهم طلحة والزبير وأصحابهما بالرماح، فحمل عليهم حكيم بن جبلة، فلم يزل هو وأصحابه يقاتلوهم حتى أخرجوهم من جميع السكك، ورماهم النساء من

(٣٣٠) تاريخ الطبري ٤ : ٤٦٩ .
(٣٣١) تاريخ الطبري ٤ : ٤٧٤ .

فوق البيوت بالحجارة، فأخذوا الى مقبرة بني مازن، فوقفوا بها ملياً حتى ثابت إليهم خيلهم، ثم أخذوا على مُسنّأة البصرة حتى انتهوا الى الزابوقة، ثم أتوا سبخة دار الرزق فنزلوها.

قال : وأتاهما عبدالله بن حكيم التميمي لما نزلا السبخة بكتب كتباها إليه، فقال لطلحة: يا أبا محمد، أما هذه كتبك إلينا؟ قال: بلى. قال: فكتبت أمس تدعونا الى خلع عثمان وقتله، حتى إذا قتلته، أتيتنا ثائراً بدمه! فلعمري ما هذا رأيك، لا تريد إلاّ هذه الدنيا، مهلا إذا كان هذا رأيك فلم قبلت من علي ما عرض عليك من البيعة فبايعته طائعاً راضياً، ثم نكثت بيعتك، ثم جئت لتدخلنا في فتنتك! فقال: إن علياً دعاني الى بيعته بعدما بايع الناس، فعلمت لو لم أقبل ما عرضه علي لم يتم لي، ثم يغري بي من معه.

قال : ثم أصبحا من غد فصفّا للحرب، وخرج عثمان بن حنيف إليهما في أصحابه، فناشدهما الله والاسلام، وأذكرهما بيعتهما علياً(عليه السلام)، فقالا: نطلب بدم عثمان! فقال لهما: وما أنتما وذاك، أين بنوه؟ أين بنو عمه الذين هم أحق به منكم، كلا والله، ولكنكما حسدتماه حيث اجتمع الناس عليه، وكنتما ترجوان هذا الأمر وتعملان له، وهل كان أحد أشد على عثمان قولا منكما؟! فشتماه شتماً قبيحاً وذكرا أُمّه، فقال للزبير: أما والله لولا صفية ومكانها من رسول الله، فإنها أدنتك الى الظل، وأن الأمر بيني وبينك يابن الصعبة -يعني طلحة- أعظم من القول، لأعلمتكما من أمركما ما يسؤكما، اللهم إني قد أعذرت الى هذين الرجلين.

ثم حمل عليهم واقتتل الناس قتالا شديداً ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يكتب بينهم كتاب صلح، فكتب: هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حنيف الأنصاري ومن معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وطلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما: أن لعثمان ابن حنيف دار الامارة والرحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وأن لطلحة والزبير ومن معهما أن ينزلوا حيث شاءوا من البصرة، ولا يضارّ بعضهم بعضاً في طريق ولا فرضة ولا سوق ولا شرعة ولا مرفق، حتى يقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فإن أحبوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمة، وإن أحبوا لحق كل قوم بهواهم وما أحبوا من قتال أو سلم أو خروج أو إقامة، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه وأشد ما أخذه على أنبيائه من عهد وذمة، وختم الكتاب، ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الامارة وقال لأصحابه: الحقوا رحمكم الله بأهلكم وضعوا سلاحكم وداووا جرحاكم.

فمكثوا كذلك أياماً، ثم إن طلحة والزبير قالا: إن قدم عليٌّ ونحن على هذه الحال من القلة والضعف، ليأخذن بأعناقنا.

فأجمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب; فأرسلا الى وجوه الناس وأهل الرياسة والشرف يدعوانهم الى الطلب بدم عثمان وخلع علي وإخراج ابن حنيف من البصرة; فبايعهم على ذلك الأزد وضبّه وقيس بن عيلان كلها إلاّ الرجل والرجلين من القبيلة، كرهوا أمرهم فتواروا عنهم. وأرسلوا الى هلال بن وكيع التميمي فلم يأتهم; فجاءه طلحة والزبير الى داره فتوارى عنهما، فقالت له أُمه: ما رأيت مثلك! أتاك شيخا قريش فتواريت عنهما!

فلم تزل به حتى ظهر لهما وبايعهما ومعه بنو عمرو بن تميم كلهم وبنو حنظلة الاّ بني يربوع، فإن عامتهم كانوا شيعة لعلي(عليه السلام)، وبايعهم بنو دارم كلهم إلاّ نفراً من بني مجاشع ذوي دين وفضل.

فلما استوثق لطلحة والزبير أمرهما، خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر، ومعهما أصحابهما قد ألبسوهم الدروع، وظاهروا فوقها الثياب، فانتهوا الى المسجد وقت صلاة الفجر وقد سبقهم عثمان بن حنيف إليه، وأُقيمت الصلاة، فتقدم عثمان ليصلي بهم، فأخّره أصحاب طلحة والزبير وقدّموا الزبير فجاءت السبابجة وهم الشّرط حرس بيت المال فأخرجوا الزبير وقدّموا عثمان، فغلبهم أصحاب الزبير فقدموا الزبير وأخرجوا عثمان، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلع، وصاح بهم أهل المسجد: ألا تتقون يا أصحاب محمد وقد طلعت الشمس!

فغلب الزبير فصلى بالناس، فلما انصرف من صلاته صاح بأصحابه المستسلمين: أن خذوا عثمان بن حنيف، فأخذوه بعد أن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفهما فلما أسر ضُرب ضرب الموت ونتف حاجباه وأشفار عينيه وكل شعرة في رأسه ووجهه، وأخذوا السبابجة وهم سبعون رجلا فانطلقوا بهم وبعثمان بن حنيف الى عائشة، فقالت لأبان بن عثمان: أُخرج إليه فاضرب عنقه فإن الأنصار قتلت أباك وأعانت على قتله. فنادى عثمان: يا عائشة ويا طلحة ويا زبير! إن أخي سهل بن حنيف خليفة علي بن أبي طالب على المدينة وأُقسم بالله إن قتلتموني ليضعنّ السيف في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم، فلا يبقي أحداً منكم.

فكفوا عنه وخافوا أن يقع سهل بن حنيف بعيالاتهم وأهلهم بالمدينة، فتركوه. وأرسلت عائشة الى الزبير أن اقتل السبابجة فإنه قد بلغني الذي صنعوا بك.

قال : فذبحهم والله الزبير كما يذبح الغنم، وليَ ذلك منهم عبد الله ابنه، وهم سبعون رجلا، وبقيت منهم طائفة مستمسكين ببيت المال، قالوا: لا ندفعه إليكم حتى يقدم أمير المؤمنين; فسار اليهم الزبير في جيش ليلا فأوقع بهم، وأخذ منهم خمسين أسيراً فقتلهم صبراً!

قال أبو مخنف : فحدثنا الصقعب بن زهير، قال:

كانت السبايجة القتلى يومئذ أربعمائة رجل، قال: فكان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف أول غدر كان في الإسلام، وكان السبايجة أول قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صبراً.

قال : وخيّروا عثمان بن حنيف بين أن يقيم أو يلحق بعلي، فاختار الرحيل، فخلّوا سبيله، فلحق بعلي(عليه السلام)، فلما رآه بكى وقال له: فارقتك شيخاً وجئتك أمرد، فقال علي: إنا لله وإنا إليه راجعون. قالها ثلاثاً...

قال : فلما بلغ حكيم بن جبلة ما صنع القوم بعثمان بن حنيف، خرج في ثلاثمائة من عبد القيس مخالفاً لهم ومنابذاً; فخرجوا إليه، وحملوا عائشة على جمل، فسمي ذلك اليوم، يوم الجمل الأصغر، ويوم علي يوم الجمل الأكبر.

وتجالد الفريقان بالسيوف، فشدّ رجل من الأزد من عسكر عائشة على حكيم بن جبلة فضرب رجله فقطعها، ووقع الأزدي عن فرسه، فجثا حكيم فأخذ رجله فرمى بها الأزدي فصرعه، ثم دب إليه فقتله متكئاً عليه خانقاً له حتى زهقت نفسه، فمر بحكيم رجل وهو يجود بنفسه فقال: من فعل بك؟ قال: وسادي، فنظر فإذا الأزدي تحته، وكان حكيم شجاعاً مذكوراً.

قال : وقُتل مع حكيم إخوة له ثلاثة، وقُتل أصحابه كلهم، وهو ثلاثمائة من عبدالقيس، والقليل منهم من بكر بن وائل; فلما صفت البصرة لطلحة والزبير بعد قتل حكيم وأصحابه وطرد ابن حنيف عنها، اختلفا في الصلاة، وأراد كل منهما أن يؤم بالناس، وخاف أن تكون صلاته خلف صاحبه تسليماً له ورضاً بتقدمه، فاصلحت بينهما عائشة بأن جعلت عبدالله ابن الزبير ومحمد بن طلحة يصليان بالناس، هذا يوماً وهذا يوماً.

قال أبو مخنف : ثم دخلا بيت المال بالبصرة ; فلما رأوا ما فيه من الأموال، قال الزبير: (**وَعدكمُ اللهُ مَغانمَ كثيرةً تأخُذونَها فعجَّلَ لكُمْ هذِهِ**). فنحن أحق بها من أهل البصرة،

فأخذا ذلك المال كله، فلما غلب علي(عليه السلام)، ردّ تلك الأموال الى بيت المال، وقسمها بين المسلمين(٣٣٢).

هذه بعض الروايات التي حكت واقعة الجمل الأصغر ومقدماتها كما جاءت عن أرباب التاريخ، وهي باختلاف طرقها تعضد بعضها بعضاً وتصدّق بعضها بعضاً، ولا يشذ عنها إلاّ الروايات التي جاءت عن طريق سيف بن عمر، والتي تتضمن متناقضات عجيبة، وتخالف كل الروايات التي جاءت عن الأئمة الثقاة، ولا يفوتنا أن نشير الى التزييف الذي ظل يرافق روايات سيف في كلامه عن الشخصيات التي لعبت دوراً في هذه الأحداث ممن يحسبون على اتباع علي بن أبي طالب; وقد أوردنا ما ذكره محب الدين الخطيب وسيف بن عمر عن حكيم بن جبلة، والتهم الشنيعة التي ألصقاها به، إمعاناً في تشويه صورته واستغفالا للمسلمين وصدّاً لهم عن الحقيقة، لذا سأورد ترجمة حكيم بن جبلة -كما وعدت القارئ- باختصار، رداً على تلك الافتراءات، وحتى يعرف المسلم حقيقة الأمر، فلا يتحمل إثماً عن جهل بالتحامل على صلحاء الأمة.

قال ابن الأثير في ترجمة حكيم بن جبلة :

أدرك النبي(صلى الله عليه وآله) ... وكان رجلا صالحاً له دين، مطاعاً في قومه، وهو الذي بعثه عثمان على السند فنزلها...(٣٣٣).

وقال ابن عبدالبر إضافة لما تقدم :

وقد روي أنه لما غدر ابن الزبير بعثمان بن حنيف بعد الصلح الذي كان عقده عثمان بن حنيف مع طلحة والزبير، أتاه ابن الزبير ليلا في القصر، فقتل أربعين رجلا من الزط على باب القصر، وفتح بيت المال، وأخذ عثمان بن حنيف فصنع به ما قد ذكرتُ في غير هذا الموضع، وذلك قبل قدوم علي(رضي الله عنه)، فبلغ ما صنع ابن الزبير بعثمان بن حنيف حكيم بن جبلة، فخرج في سبعمائة من ربيعة فقاتلهم حتى أخرجهم من القصر، ثم كروا عليه فقاتلهم حتى قطعت رجله...(٣٣٤).

فحكيم بن جبلة صحابي قطعاً، مع فضله وصلاحه، ولكن سيف بن عمر جعله لصاً من شذاذ الآفاق، وتابعه المؤلفون بغير بصيرة، فنالوا من حكيم بن جبلة وأساءوا إليه تبعاً لسيف بن عمر، ومن ثم تراهم يدّعون أن سيف هو المدافع عن الصحابة!

(٣٣٢) شرح نهج البلاغة ٩ : ٣١٨ ، وانظر أنساب الاشراف ٦ : ٢٦ .
(٣٣٣) أسد الغابة ١ : ٥٢ .
(٣٣٤) الاستيعاب ١ : ٣٦٧ .

وقعة الجمل الأكبر

لا أجد حاجة لتذكير القارئ بأن الهدف من عرض هذه الأحداث- والذي قد يضطرني أحياناً الى الاطالة في سرد الروايات- إنما هو لأجل أن يتمكن القارئ من البحث في تاريخ الاسلام وفق منهجية واضحة مبتنية على دراسة مقارنة، من خلال مطابقة الروايات المتعددة المصادر، للكشف عن الزيف الذي وقع في هذا التاريخ، ورداً على مزاعم القائلين بأن بعض المؤرخين كانوا ينافحون عن الصحابة، مما يستلزم صدق رواياتهم وبالتالي ضرورة تبنّيها دون سواها من الروايات التي جاءت بما يوحي بذم بعض الصحابة، حتى لو كانت هذه الروايات قد جاءت عن المؤرخين الثقات الذين تقدمت تراجمهم فيما سبق، وكانت كل الدلائل تشير الى صحتها.

لقد تعرضت أحداث معركة الجمل الى أبشع صور التزييف والتحريف دون شك، ولكن الأمر الذي يحزّ في النفس حقاً، أن هذه الروايات المزيفة هي التي أصبحت الرواية الرسمية المعتمدة عند جمهور المؤلفين قديماً وحديثاً، حتى أن أحد المؤلفين المعاصرين، وهو أحمد راتب عرموش، جمع الروايات المزيفة كلها في كتاب صغير أسماه (معركة الجمل برواية سيف بن عمر) اعتمد فيها على المحاضرات التي القاها استاذه الدكتور يوسف العش، ووصف الرواية بأنها الرواية التي تتماشى مع العقل!

ويذكر اسم الطبري كأعظم مؤرخ، شاهداً على صحة هذه الروايات لأنه أوردها في سفره الكبير، ولكن هؤلاء المؤلفين يتناسون أن الطبري قد أورد روايات أُخرى مخالفة لرواية سيف تماماً، نقلاً عن المؤلفى الثقاة، ولكن معظم المؤلفين أعرضوا عنها وكأنها لم توجد في تاريخ الطبري الذي يمجّدونه ولاخطّها بيراعه، لذا فإنني استشهدت بتلك الروايات التي أوردها الطبري، والتي تؤيدها الروايات التي جاءت عن غيره من المؤرخين- شاهداً على صحتها- وإسقاطاً لحجج الذين يتخذون من الطبري جسراً لتمرير الروايات الساقطة وترسيخها في أذهان المسلمين تجاهلا للحقيقة وإعراضاً عن الحق، بدعاوى متهافتة لا تصمد أمام الحقائق التي سوف نظل نكشف النقاب عنها فيما يتبع من مباحث وفصول.

وبما أننا اتخذنا كتاب العواصم من القواصم لمؤلفه ابن العربي المالكي شاهداً ومثالا على هذا التهافت الذي وقع فيه المؤلفون القدامى، واحتذى حذوهم المعاصرون، فإنني أجد نفسي مضطراً للاستشهاد أولا بأقوال ابن العربي - من القدماء- وتابعه محب الدين الخطيب - من المعاصرين- وارجاعها الى مصدرها الأصلي، ومن ثم مقارنتها مع الروايات الأخرى، مروراً - في بعض الأحيان- بآراء

مؤلفين آخرين ممن يؤيدون وجهة النظر المحافظة التي تبناها ابن العربي شاهداً على ما نقول.

لقد انتهت معركة الجمل الأصغر بما جرّته من فواجع أليمة استبيحت فيها الأرواح البريئة، وانتهبت فيها الأموال المحرّمة، وجُعلت الأمور في غير نصابها، خلافاً للشرعية التي تقتضيها قوانين الاسلام.

ولو أن الأمر اقتصر على ذلك، ثم ثاب المبطلون الى رشدهم وقرروا التوقف عن هذه اللعبة الخطرة، وأصلحوا ذات البين، لهان الأمر، لكن ما حدث كان عكس ذلك تماماً، من إصرار أصحاب الجمل على الاستمرار في السير على هذا الطريق الشائك، وما جرّه بعد ذلك من ويلات فاقت ما حدث في معركة الجمل الأصغر أضعافاً مضاعفة، إلاّ أن مما يبعث على الاستغراب، أن المؤلفين الذين دونوا هذه الحوادث، يصرّون على عكس الأمور التي وقعت، ويحاولون إلقاء التبعة فيما حدث بعد ذلك على جهات اُخرى، ظناً منهم أن ذلك يبرئ أصحاب الجمل من ارتكاب تلك الطامات، وتبعاً لذلك وقع الكثير من المؤلفين في جملة من المتناقضات التي لا يجد المرء لها مخرجاً، مما يفضح التلاعب الذي وقع في نقل هذه الأخبار، وسوف أبدأ أولا بذكر ما أورده ابن العربي ملخصاً -كعادته- مستخدماً العبارات المنمّقة، حيث قال:

وقدم عليٌّ البصرة، وتدانوا ليتراءوا، فلم يتركهم أصحاب الأهواء، وبادروا باراقة الدماء، واشتجر الحرب، وكثرت الغوغاء على البوغاء، كل ذلك حتى لا يقع برهان، ولا تقف الحال على بيان، ويخفى قتلة عثمان، وإن واحداً في الجيش يفسد تدبيره، فكيف بألف! وقد روي أن مروان لما وقعت عينه في الاصطفاف على طلحة قال: لا أطلب أثراً بعد عين، ورماه بسهم فقتل..

وقد خرج كعب بن سور بمصحف منشور بيده يناشد الناس أن لا يريقوا دماءهم، فأصابه سهم غرب فقتله، ولعل طلحة مثله![٣٣٥].

ومعلوم أنه عند الفتنة، وفي ملحمة القتال يتمكن اُولو الإحن والحقود من حلّ العرى ونقض العهود، وكانت آجالا حضرت، ومواعيد انتجزت...[٣٣٦].

هكذا يموّه ابن العربي على القارئ الأحداث، فيقتطع عبارات قصيرة، ويصفّها مع بعضها، معتقداً بأنه قد أعطى الأحداث بعدها الكامل، فلا شيء يدعو الى التفكير والبحث، كل ما هنالك أن بعض أصحاب الأهواء أنشبوا الحرب بين الفريقين اللذين كانا يبغيان الصلح، ووقع ما وقع، هذا كل ما في الأمر!

(٣٣٥) سبق وأن ناقشنا قول ابن العربي هذا وأثبتنا عدم صحته (المؤلف).
(٣٣٦) العواصم من القواصم : ١٥٩ .

لكن محب الدين الخطيب استطرد على قول ابن العربي ما ظنّه يزيل هذا الغموض، فقال معلقاً:

« كان ذلك يوم الخميس في النصف من جمادى الآخرة سنة ٣٦ »... وكان الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو التميمي قد قام بين الفريقين بالوساطة الحكيمة المعقولة; فاستجاب له أصحاب الجمل، وأذعن علي لذلك، وبعث علي الى طلحة والزبير يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو، فكفّوا حتى ننزل فننظر في هذا الأمر، فأرسلا إليه: إنا على ما فارقنا عليه القعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس. قال الحافظ بن كثير: فاطمأنت النفوس وسكنت، واجتمع كل فريق بأصحابه من الجيشين، فلما أمسوا بعث علي عبدالله بن عباس إليهم، وبعثوا محمد بن طلحة السجّاد الى علي، وعوّلوا جميعاً على الصلح، وباتوا بخير ليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية، وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشرّ ليلة باتوها قط، قد أشرفوا على الهلكة، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها، حتى اجتمعوا على انشاب الحرب في السر، واستسرّوا بذلك خشية أن يفطن بما حاولوا من الشر، فغدوا مع الغلس وما يشعر بهم جيرانهم، انسلوا الى ذلك الأمر انسلالا، (وانظر مع ذلك الموضع من تاريخ ابن كثير، تاريخ الطبري ٥ : ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، ومنهاج السنة ٢ : ١٨٥ ، و ٣ : ٢٢٥ و ٢٤١) ، وهكذا انشبوا الحرب بين علي وأخويه طلحة والزبير، فظن أصحاب الجمل أن علياً غدر بهم، وظن علي أن اخوانه غدروا به، وكل منهم أتقى لله من أن يفعل ذلك في الجاهلية فكيف بعد أن بلغوا أعلى المنازل من أخلاق القرآن»[٣٣٧].

تناقض الرواية وتهافت المؤلفين

لقد استشسهد الخطيب بابني كثير وتيمية، وهما مع ابن العربي من أكثر المؤلفين الذين اعتمدوا على روايات الطبري بطريق سيف بن عمر حول الأحداث المهمة في تاريخ المسلمين، وعملوا على ترويجها، ولا أظن أن ذلك كان عن جهل منهم بعدم صحة هذه الروايات، ولكن هناك أهدافاً بعيدة المدى ـ سنكشف النقاب عنها فيما بعد ـ من وراء تمسك أولئك المؤلفين ومن بعدهم معظم المؤلفين المعاصرين بهذه الروايات. فإن أدوات البحث العلمي لم تكن تنقص أحدهم للتوصل الى الحقائق، والكفيلة بكشف نواحي الخلل والتناقض في روايات سيف، والأراجيف المكشوفة التي

(٣٣٧) العواصم من القواصم : هامش ٢٢٦ .

يروّجها بين المسلمين، والتي ذهب ضحيتها - بسبب المؤلفين- جمهور المسلمين من غير الباحثين، والذين اعتمدوا على هؤلاء المؤلفين ثقة بهم.

لقد أورد الطبري الرواية التي يروّج لها الخطيب والمؤلفون الذين نقل عنهم بشكل مفصّل، ونظراً لطولها، ومخافة إملال القارئ، فسوف أقتطع الأجزاء المهمة منها، بهدف الكشف عن المتناقضات التي فيها، مع الاشارة الى تعليقات بعض المؤلفين عليها، والتي تظهر مدى تهافت أصحاب هذه النظرية السطحية.

قال الطبري نقلا عن سيف باسناده المعروف :

« لما جاءت وفود أهل البصرة الى الكوفة، ورجع القعقاع من عند أم المؤمنين وطلحة والزبير بمثل رأيهم، جمع علي الناس، ثم قام على الغرائر; فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي(صلى الله عليه وآله)، وذكر الجاهلية وشقاءها، والإسلام والسعادة وانعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ثم الذي يليه، ثم حدث هذا الحدث الذي جرّه على هذه الأمة أقوام طلبوا الدنيا، حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة. وأرادوا ردّ الأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره ومصيب ما أراد، ألا وإني راحل غداً فارتحلوا، ألا لا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان(رضي الله عنه) بشيء في شيء من أمور الناس، وليغن السفهاء عني أنفسهم.

فاجتمع نفر منهم : علياء بن الهيثم، وعدي بن حاتم، وسالم بن ثعلبة العبسي، وشريح بن أوفى بن ضبيعة، والأشتر، في عدّة ممن سار الى عثمان ورضي بسير من سار، وجاء معهم المصريون: ابن السوداء، وخالد بن ملجم...الخ.

من المتناقضات العجيبة في هذا الجزء من الرواية، هي جرأة علي بن أبي طالب في ردّ المتآمرين على عثمان وطلبه عدم التحاقهم به! مع العلم أن روايات سيف ومن تابعه عليها، تذكر عجز علي بن أبي طالب أمام هؤلاء المتآمرين، ولا ندري لماذا انتظر علي كل هذه المدة، وسمح لهم بمرافقته من المدينة الى البصرة، ولم يصرفهم عنه كل هذه المدة. كما لم يخبرنا سيف عن الذي منع اولئك المتآمرين عن الامتثال لأمر علي بالرجوع، وظلوا يرافقونه حتى انشبوا المعركة، وهل تركهم علي اعتماداً على صحوة ضمائرهم في الامتثال لأمره -وهو أمر غير معقول- أم أنه كان يجهل أشخاصهم، فيصبح طلبه ذلك بلا معنى!

ومن الطريف أن ابن كثير نقل هذا الجزء من الرواية، وبعد أن عدد أسماء المتآمرين كما وردت في رواية سيف، قال: «وليس فيهم صحابي والحمدلله»[٣٣٨].

ولا أدري هل نسي ابن كثير أن عدي بن حاتم هو أحد الصحابة أم لا، أم أنه عرف وتغافل إيهاماً للقارئ ليس إلا![٣٣٩].

(٣٣٨) البداية والنهاية ٧ :

ويستكمل الطبري الرواية عن سيف بقوله :

« ... فخرج طلحة والزبير، فنزلا بالناس من الزابوقة في موضع قرية الرزق، فنزلت مضر جميعاً وهم لا يشكون في الصلح، ونزلت ربيعة فوقهم جميعاً وهم لا يشكون في الصلح، ونزلت اليمن جميعاً أسفل منهم وهم لا يشكون في الصلح، وعائشة في الحدّان، والناس في الزابوقة على رؤسائهم هؤلاء، وهم ثلاثون ألفاً، وردوا حكيماً ومالكاً الى علي: بأنّا على ما فارقنا عليه القعقاع، فأقدم; فخرجا حتى قدما عليه بذلك.

فارتحل حتى نزل عليهم بحيالهم، فنزلت القبائل الى قبائلهم، مضر الى مضر، وربيعة الى ربيعة، واليمن الى اليمن، وهم لا يشكون في الصلح، فكان بعضهم بحيال بعض، وبعضهم يخرج الى بعض، ولا يذكرون ولا ينوون إلاّ الصلح...

وبعث علي من العشي عبدالله بن عباس الى طلحة والزبير، وبعثاهما من العشي محمد بن طلحة الى علي، وأن يكلم كل واحد منهما أصحابه، فقالوا: نعم، فلما أمسوا، وذلك في جمادى الآخرة، أرسل طلحة والزبير الى رؤساء أصحابهما، وأرسل علي الى رؤساء أصحابه، ما خلا اولئك الذين حضّوا عثمان، فباتوا على الصلح، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثله للعافية من الذي أشرفوا عليه ... الخ[٣٤٠].

ويلاحظ على هذا الجزء من الرواية من المتناقضات الكثيرة التي تشي بكذبها، أن المتآمرين المشتركين في أمر عثمان قد ظلوا يرافقون علياً رغم أمره لهم بالانصراف، ولا أدري كيف يجازف علي هذه المجازفة، فيغضي عن مصاحبتهم، وهو الذي لابد وأن يكون قد تخوّف من غائلتهم، لذا أمرهم بالانصراف، ولكنه لم يتخذ التدابير اللازمة لدفع شرهم بعد أن رافقوه.

والأمر الآخر، أننا نجد طلحة والزبير يبادران الى المصالحة دون أية إشارة الى قتلة عثمان الذين كانوا يرافقون علي بن أبي طالب! وهم ما خرجوا- حسب ادعائهم-

(٣٣٩) عدي بن حاتم الطائي : مهاجري يكنى أبا طريف، قدم على النبي(صلى الله عليه وآله) في شعبان من سنة سبع ... قال الواقدي: قدم عدي بن حاتم على النبي(صلى الله عليه وآله) في شعبان سنة عشر، وخبره في قدومه على النبي(صلى الله عليه وآله)عجيب في حديث صحيح من رواية قتادة عن ابن سيرين، ثم قدم على أبي بكر الصديق بصدقات قومه في حين الردة، ومنع قومه في طائفة معهم من الردة بثبوته على الاسلام وحسن رأيه، وكان سيداً شريفاً في قومه، خطيباً حاضر الجواب، فاضلا كريماً، روي عن عدي بن حاتم قال: ما دخل وقت صلاة إلاّ وأنا اشتاق إليها. وعن عدي بن حاتم قال: ما دخلت على النبي(صلى الله عليه وآله) قط إلاّ وسع لي أو تحرك لي، وقد دخلت عليه يوماً في بيته وقد امتلأ من أصحابه فوسّع لي حتى جلست الى جنبه.

نزل عدي الكوفة وسكنها، وشهد مع علي(رض) الجمل، وفقئت عينه يومئذ، ثم شهد أيضاً مع علي صفين والنهروان، ومات بالكوفة سنة سبع وستين في أيام المختار. الاستيعاب ٣ : ١٦٨ برقم ١٨٠٠ ، اسد الغابة ٤ : ١٠ برقم ٣٦٠٤ ، الطبقات الكبرى ٦ : ٩٩ رقم ١٨٥١ ، الاصابة ٤: ٣٨٨ رقم ٥٤١٩١ ، تهذيب التهذيب ٧ : ١٤٧ رقم ٤٧٠٣ أسماء الصحابة الرواة لابن حزم : ٧١ رقم ٤٩ .

(٣٤٠) تاريخ الطبري ٤ : ٤٩٣ باختصار .

إلاّ للاقتصاص من قتلة عثمان، وها هم قتلة عثمان أمام أعينهم ولا يطالبون برؤوسهم، ولا يشترطون على علي في معاهدة الصلح المزعومة الاقتصاص منهم!

وإذا كانت هذه النيّات الحسنة موجودة عند الطرفين منذ البداية، فلماذا خرج أصحاب الجمل إذاً؟ ولماذا لاحقهم علي بجيشه الى البصرة! ولماذا كل هذه التدابير والاستعدادات العسكرية! ولماذا لم يأمر الطرفان جيشيهما بالانسحاب وبقيا متواجهين ليتركا لقتلة عثمان الفرصة في انشاب المعركة، ولماذا لم تكتب بنود المصالحة التي تمت بين الفريقين، ثم يتلوه الانسحاب الفوري من ساحة المعركة تفويتاً لأصحاب الأغراض الدنيئة; بدلا من البقاء متواجهين تحت السلاح!

أسئلة كثيرة تثيرها روايات سيف، لتلقي ضلالا قاتمة على الأحداث، ولا أعتقد أن الذين يؤيدون هذه الروايات ويروجونها، يستطيعون أن يجدوا جواباً شافياً لأي سؤال من كل تلك الاسئلة.

المعركة على حقيقتها

مرّ بنا فيما مضى الرواية المنقولة عن سيف، من أن عائشة قد بعثت بكعب بن سور يحمل القرآن ويناشد الناس ايقاف الاقتتال، وفي الرواية ما يوحي بأن أصحاب علي هم الذين انشبوا القتال. إلاّ أن الروايات التي جاءت عن المؤرخين الثقاة -والتي يعضد بعضها بعضاً- تنفي كل ذلك وتثبت عكسه.

وقد أخرج الطبري عن أحداث معركة الجمل، روايتين مخالفتين للرواية التي ذكرها بطريق سيف، وكأنه أراد أن يجعل من القارئ حكماً على الأحداث، وهو يلفت الانتباه من طرف خفي الى الاختلاف في الروايات، فقال: وأما غير سيف، فإنه ذكر من خبر هذه الوقعة وأمر الزبير وانصرافه عن الموقف الذي كان فيه ذلك اليوم، غير الذي ذكر سيف عن صاحبيه.

ثم يورد الطبري رواية عن أحمد بن زهير بسنده الى الزهري، حيث يقول: وبلغ الخبر علياً -يعني خبر السبعين الذين قُتلوا مع العبدي بالبصرة- فأقبل -يعني علياً- في اثني عشر ألفاً، فقدم البصرة وجعل يقول:

يا لهف نفسي على ربيعة *** ربيعة السامعة المطيعة

سنتها كانت بها الوقيعة

فلما تواقفوا خرج علي على فرسه، فدعا الزبير فتواقفا، فقال علي للزبير: ما جاء بك؟ قال: أنت، ولا أراك لهذا الأمر أهلا، ولا أولى به منّا! فقال علي: لستُ أهلا له بعد عثمان، قد كنّا نعدّك من بني عبدالمطلب، حتى بلغ ابنك ابن السوء، ففرّق بيننا

وبينك; وعظّم عليه أشياء، فذكر أن النبي(صلى الله عليه وآله) مرّ عليهما فقال لعلي: **«ما يقول ابن عمتك؟ ليقاتلنك وهو لك ظالم»**.

فانصرف عنه الزبير وقال: إني لا أُقاتلك.

فرجع الى ابنه عبدالله فقال: ما لي في هذه الحرب بصيرة، فقال له ابنه: إنك قد خرجت على بصيرة، ولكنك رأيت رايات ابن أبي طالب، وعرفت أن تحتها الموت فجبنت. فأحفظه حتى أرعد وغضب، وقال: ويحك إني قد حلفت له لا أُقاتله.

فقال له ابنه : كفّر عن يمينك بعتق غلامك سرجس.

فاعتقه وقام في الصف معهم، وكان علي قال للزبير : أتطلب مني دم عثمان وأنت قتلته! سلّط الله على أشدّنا عليه اليوم ما يكره.

وقال علي : يا طلحة ، جئت بعرس رسول الله(صلى الله عليه وآله) تقاتل بها، وخبأت عرسك في البيت! أما بايعتني! قال: بايعتك وعلى عنقي اللّج. فقال علي لأصحابه: أيكم يعرض عليهم هذا المصحف وما فيه، فإن قطعت يده أخذه بيده الأُخرى، وإن قطعت أخذه بأسنانه؟

قال فتىً شاب : أنا.

فطاف علي على أصحابه يعرض ذلك عليهم، فلم يقبله الاّ ذلك الفتى.

فقال له علي : أعرض عليهم هذا وقل: هو بيننا وبينكم من أوله الى آخره، والله في دمائنا ودمائكم; فحُمل على الفتى وفي يده المصحف فقطعت يداه; فأخذه بأسنانه حتى قُتل.

فقال علي : قد طاب لكم الضراب فقاتلوهم، فقُتل يومئذ سبعون رجلا كلهم يأخذ بخطام الجمل. فلما عُقر الجمل وهُزم الناس، أصابت طلحة رمية فقتلته، فيزعمون أن مروان بن الحكم رماه، وقد كان ابن الزبير أخذ بخطام جمل عائشة، فقالت: من هذا؟ فأخبرها، قالت: واثكل أسماء! فجرح فالقى نفسه في الجرحى، فاستُخرج فبرأ من جراحته، واحتمل محمد بن أبي بكر عائشة، فضرب عليها فسطاط، فوقف علي عليها فقال: استفززت الناس وقد فزّوا، فألّبت بينهم حتى قتل بعضهم بعضاً، في كلام كثير، فقالت عائشة: ياابن أبي طالب، ملكت فاسجح، نعم ما أبليت قومك اليوم. فسرّحها علي...[٣٤١].

وهذه الرواية تتفق مع رواية اُخرى أخرجها الطبري عن عمرو بن شبة بسنده قال: أخذ علي مصحفاً يوم الجمل، فطاف به في أصحابه وقال: من يأخذ هذا المصحف يدعوهم الى ما فيه، وهو مقتول؟

فقام إليه فتىً من أهل الكوفة عليه قباء أبيض محشو، فقال: أنا.

(٣٤١) تاريخ الطبري ٤ : ٥٠٨ ، أنساب الأشراف ٣ : ٥١ .

فأعرض عنه... (ثلاث مرات) فدفعه إليه، فدعاهم فقطعوا يده اليمنى، فأخذه بيده اليسرى، فدعاهم، فقطعوا يده اليسرى، فأخذه بصدره والدماء تسيل على قبائه، فقُتل(رضي الله عنه)، فقال علي: الآن حلّ قتالهم.

فقالت أم الفتى :

لاهمَّ إنّ مسلماً دعاهُمُ *** يتلو كتاب الله لا يخشاهُم

وأمّهم قائمة تراهُم *** يأتمرون الغيَّ لا تنهاهُم

قد خُضبت من علق لحاهُم(٣٤٢)

هذه هي حقيقة الأحداث من بدء خروج المتحالفين وحتى انتهاء معركة الجمل، وقد تبين للقارئ مدى التزييف الذي تعرضت له الأحداث بسبب اعتماد معظم المؤلفين قديماً وحديثاً على ما ورد عن الطبري برواية سيف ابن عمر، وبانتهاء أحداث معركة الجمل، انقطعت سلسلة روايات سيف عند الطبري، بعد أن أورد له مئات الروايات في أخبار تلك الفترة المهمة من تاريخ صدر الإسلام.

وقد لاحظنا أن أصحاب الجمل كانوا هم المصرّين على القتال، سواء في الأحداث التي وقعت قبل مجيء علي بن أبي طالب، ونقضهم العهد مع عثمان ابن حنيف، أو في إصرارهم على الحرب بعد مجيء علي ودعوته إياهم الى كتاب الله، وبعد أن التقى بطلحة والزبير ووبخهما ووعظهما، ولكن دون جدوى.

نكث البيعة

بقي هناك أمر مهم لعل القارئ قد ظل متحيّراً فيه، وهو موقف هؤلاء الصحابة. والذي بدا واضحاً من الدراسة المقارنة التي قمنا بها، أنهم لم يخرجوا بدافع الاصلاح بين الناس -كما ادعى بعض المؤلفين- بل إن كل الدلائل تشير الى أن أصحاب الجمل قد نكثوا بيعتهم ونقضوا العهود والمواثيق لأهداف ودوافع باتت واضحة للقارئ، إلاّ أن الأمر الذي قد يبدو محيراً للبعض، هو كيف يفعل اولئك ذلك رغم الصحبة والسابقة والجهاد والفضل!

عند استعراض بعض الحوادث التي وقعت في زمن النبي(صلى الله عليه وآله)، فإنها قد تلقي بعض الأضواء على حقيقة نفسيات اولئك الصحابة، فالزبير قد سمع قول النبي(صلى الله عليه وآله)وتحذيره إياه من مقاتلة علي، ورغم ذلك فقد أخذته الحمية بكلمة عيّره بها ابنه عبدالله، فعاد الى الصف; ولا شك أن الزبير قد فرّ من المعركة بعدما تحقق من الهزيمة، ثم لحقه ابن جرموز فقتله، ولا عبرة للروايات التي تدّعي بأن الزبير انسحب من المعركة قبل نشوب القتال، لأن قول النبي(صلى الله عليه وآله)له:

(٣٤٢) المصدر السابق .

«**لتقاتلنه وأنت له ظالم**» يؤكد بأن الزبير سيباشر القتال وهو يعلم أنه ظالم، كما وأن انسحابه قبل المعركة لو صح لما نفعه ذلك أيضاً ولا برّأه من الجريمة، لأنه كان ينبغي عليه أن يتبع الحق بعد ما عرفه لا أن يترك المسلمين يذبح بعضهم بعضاً وينصرف، بل كان عليه أن يعلن توبته وندمه على الملأ، ويقف على صف جيش أصحاب الجمل فيخبرهم بما عرف من الحق ويدعوهم الى التخلي عن مواقعهم واجتناب الفتنة، فإن استجابوا له فبها ونعمت، وإن لم يستجيبوا فإن الواجب كان يفترض عليه أن ينضم الى معسكر الحق وينصر إمامه على الخارجين عليه، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث.

وما حدث بالنسبة للزبير يقال مثله في طلحة أيضاً، فقد قُتل هو الآخر في المعركة بعد أن نكث البيعة وخرج على إمامه، رغم أن هذين الصحابيين قد سمعا النبي(صلى الله عليه وآله) يهتف في أكثر من مناسبة محذراً من نكث البيعة أو تفريق كلمة المسلمين ونزع اليد من الطاعة، كما وردت بذلك الأحاديث المتكاثرة التي خرّجها المحدثون، فمنها :

عن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول : «**من خلع يداً من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتةً جاهلية**».

وعن ابن عباس يرويه، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، فميتة جاهلية**».

وعن أبي هريرة، عن النبي(صلى الله عليه وآله) أنه قال: «**من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبية، أو يدعو الى عصبية، فقُتل، فقتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه**»[٣٤٣].

وعن أُسامة بن شريك قال : قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**من فرّق بين أُمتي وهم جميع، فاضربوا رأسه كائناً من كان**»[٣٤٤].

وعن زياد بن علاقة، أنه سمع عرفجة، سمع النبي(صلى الله عليه وآله) يقول : «**إنها ستكون هناة وهناة، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأُمة وهم جميع، فاضربوا رأسه بالسيف كائناً من كان**»[٣٤٥].

(٣٤٣) صحيح مسلم ٣ : ١٤٧٦ كتاب الامارة ، باب وجوب ملازمة الجماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة.

(٣٤٤) سنن النسائي ٢ : ١٦٦ ، كتاب السنة لابن أبي عاصم : ٥١٢ وصححه الألباني .

(٣٤٥) صحيح مسلم ٣ : ١٤٧٩ ، مسند الطيالسي : ١٢٢٤ ، سنن النسائي ٢ : ١٦٦ ، مسند أحمد ٥ : ٢٣ ، كتاب السنة لابن أبي عاصم : ٥١٢ وصححه الالباني.

وقد أثبتنا فيما سبق أن الأوصاف المذكورة في الأحاديث النبوية الشريفة المتقدمة تنطبق تماماً على المتحالفين الذين أشعلوا نار حرب ذهب ضحيتها ألوف المسلمين من الطرفين، من بينهم عدد من الصحابة، وفي مقدمتهم طلحة والزبير نفسيهما.

سوابق أصحاب الجمل

قلنا إن القارئ قد يستغرب صدور مثل هذه الأمور عن أولئك الصحابة، رغم السابقة والفضل، إلاّ أن استطلاع أحوال بعض الصحابة كفيل بأن يكشف سر ذلك، فطلحة بن عبيدالله قد آذى النبي(صلى الله عليه وآله) بمقولة شنيعة، حتى نزلت في حقه آية فيها من التوبيخ والتقريع ما فيها.

فقد أخرج جمع من المفسرين والمحدّثين، أن قوله تعالى (**وَما كانَ لكُمْ أنْ تُؤذُوا رَسولَ اللهِ وَلا أن تَنكِحوا أزواجهُ مِنْ بَعدهِ أبداً إنَّ ذلكُم كانَ عندَ اللهِ عظيماً**)(٣٤٦). قد نزل في طلحة.

قال السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي(رضي الله عنه) قال: بلغنا أن طلحة بن عبيدالله قال: أيحجبنامحمد عن بنات عمّنا ويتزوج نساءنا من بعدنا! لئن حدث به حدث لنتزوجنّ نساءه من بعده!

وأخرج عبدالرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، عن قتادة(رضي الله عنه) قال: قال طلحة بن عبيدالله: لو قُبض النبي(صلى الله عليه وآله)، تزوجت عائشة(رض).

وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، في قوله (**وَما كانَ لكُم أن تؤذوا رسولَ اللهِ ...**)، قال: نزلت في طلحة بن عبيدالله، لأنه قال: إذا توفي رسول الله(صلى الله عليه وآله) تزوجت عائشة(٣٤٧).

وروى الشعبي قصة المحاججة بين علي بن أبي طالب وبقية المرشحين للخلافة من الذين اختارهم عمر بن الخطاب لذلك، فكان مما قاله علي: وأما أنت يا طلحة فقلت: إن مات محمد، لنركضن بين خلاخيل نسائه كما ركض بين خلاخيل نسائنا...!(٣٤٨).

أما الزبير، فقد صدقت فيه فراسة عمر بن الخطاب، فعن قيس بن أبي حازم قال: جاء الزبير الى عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) يستأذنه في الغزو، فقال عمر: اجلس في بيتك فقد غزوت مع رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال: فردد ذلك عليه، فقال عمر في الثالثة أو التي تليها: اقعد في بيتك فوالله إني لأجد بطرف المدينة منك ومن أصحابك أن تخرجوا فتفسدوا على أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله)!(٣٤٩).

(٣٤٦) الاحزاب : ٥٣ .
(٣٤٧) الدر المنثور ٦ : ٦٤٣ .
(٣٤٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩ : ٤٩ .
(٣٤٩) المستدرك على الصحيحين ٣ : ١٢٠ كتاب معرفة الصحابة ، وصححه ووافقه الذهبي .

أما أم المؤمنين عائشة، فمع تيّقنها من أنها هي المعنية من تحذير النبي(صلى الله عليه وآله) في قصة كلاب الحوأب، إلاّ أنها تغافلت عن ذلك التحذير، وصمّت أُذنيها عن النصائح التي بذلت لها شفاهاً أو من خلال الكتب التي أجاب بها بعض خيار الصحابة على خطاباتها المحرّضة للحرب وركبت رأسها وخرجت إلى البصرة هاتكة ستر رسول الله(صلى الله عليه وآله)، حتى قُتل عند خطام جملها أُلوف المسلمين وهي تحرضهم على القتال، وقد مرّ فيما سبق أنها أمرت بقتل السيابجة الذين أُسروا، بل وأمرت بقتل عثمان بن حنيف، متهمة الأنصار بأنهم قتلوا عثمان أو تواطأوا على قتله، ولأم المؤمنين عائشة سوابق كثيرة في حياة رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فإنها وصاحبتها حفصة قد تظاهرتا على النبي(صلى الله عليه وآله) إيذاءً شديداً، حتى نزلت بحقهما سورة كاملة في القرآن الكريم، فيها ما فيها من آيات التهديد والوعيد لهما، والانذار بالمصير الأسود الذي انتهت اليه زوجتا نبيين سابقين، هما نوح ولوط(عليهما السلام)، ولم يشفع لهما أنهما كانتا زوجتي نبيين كريمين، فقال عزّ من قائل : **(ضَرَبَ اللهُ مثلا للذينَ كَفروا امرأةَ نوح وامرأة لوط كانتا تحتَ عَبدينِ مِنْ عِبادِنا صالحين فخانتاهما فلمْ يُغنيا عَنهما منَ اللهِ شيئاً وَقيلَ ادخُلا النارَ معَ الدّاخلينَ)**(٣٥٠).

إخبار النبي عن الصحابة

لا شك أن التنازع على الدنيا كان دافعاً لبعض الصحابة على الخروج عن الجادة والتقحّم في الفتن، ولقد أخبر النبي(صلى الله عليه وآله) بكل ذلك، والتي هي حقاً من دلائل نبوته ومعاجزه الكبرى، لذا فإنه ما ترك أمراً ملتبساً يمكن أن يكون محل نزاع وخلاف بين المسلمين الاّ وأوضحه، وأشار الى الفتن المقبلة، ودلَّ أُمته على مواطن الحق، وأرشدهم الى علامات مضيئة لتكون معالم لهم يميزون بها المحق من المبطل، ليقطع الحجة على المخالفين لأمره.

فعن أُسامة : أن النبي(صلى الله عليه وآله) أشرف على أطم من آطام المدينة، ثم قال: **«هل ترون ما أرى! إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر»**(٣٥١).

وعندما ألمّ بالنبي(صلى الله عليه وآله) المرض، خرج الى البقيع وسلّم على أموات المسلمين، ثم قال: **«ليهننكم ما أصبحتم فيه، قد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم»**(٣٥٢).

(٣٥٠) التحريم : ١٠ .

(٣٥١) صحيح البخاري ٢ : ٢٧ باب آطام المدينة ، صحيح مسلم، كتاب الفتن واشراط الساعة ، باب نزول الفتن كمواقع القطر، مسند الحميدي ١: ٢٤٨ و ٨: ٥٩٤، مسند أبي يعلى ٢: ٩٥، دلائل النبوة لإسماعيل الاصبهاني: ١٦٣، الجامع الصغير للسيوطي ٢: ٧١٢، كنز العمال ١١: ١٢٨، ٢٨٠، فيض القدير للمناوي ٦: ٤٥٨.

(٣٥٢) تاريخ الطبري ٣ : ١٨٨ ، الكامل لابن الاثير ٢ : ٣١٨ .

فالنبي(صلى الله عليه وآله) قد أخبر بأن الفتن سوف تبدأ بعد وفاته، وحذّر أصحابه منها في العديد من المناسبات، أخرج المحدّثون بصددها عدداً من الأحاديث في كتبهم.

ففي الصحيحين -واللفظ لمسلم- عن عقبة بن عامر، قال: صلّى رسول الله(صلى الله عليه وآله)على قتلى اُحد، ثم صعد المنبر كالمودّع للأحياء والأموات، فقال: «**إني فرطكم على الحوض، وإن عرضه كما بين أيلة الى الجحفة، إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها، وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم!**»(٣٥٣).

وعندما أرسل النبي(صلى الله عليه وآله) أبا عبيدة الى البحرين ليأتي بجزيتها، فسمعت الأنصار بقدومه فوافته صلاة الصبح مع رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فلما انصرف تعرّضوا له، فتبسّم حين رآهم، وقال(صلى الله عليه وآله): «**أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة وأنه جاء بشيء**».

قالوا : أجل يا رسول الله. قال: فأبشروا وأمّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم»(٣٥٤).

بل إن النبي(صلى الله عليه وآله) قد حذّر أصحابه في أكثر من مناسبة، بأن الكثيرين منهم سوف يرتدون على أعقابهم ويحدثون أحداثاً يستوجبون عليها دخول النار! فعن أبي وائل ، قال: قال عبيدالله: قال النبي(صلى الله عليه وآله): «**أنا فرطكم على الحوض ليرفعن إلي رجال منكم، حتى إذا أهويت لأنالهم; اختلجوا دوني، فأقول: أي ربّ، أصحابي! يقول: لا تدري ما أحدثو بعدك!**»(٣٥٥).

وعن أبي حازم، قال :سمعت سهل بن سعد يقول: سمعت النبي(صلى الله عليه وآله)يقول: «**أنا فرطكم على الحوض، من ورده شرب منه، ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً، ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم**»(٣٥٦).

وعن عبدالله(رضي الله عنه) عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: «**أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن رجال منكم ثم ليختلجن دوني، فأقول: يا رب أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك!**»(٣٥٧).

وعن أبي هريرة، عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: «**يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي، فيحلؤن عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي! فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى!**»(٣٥٨).

(٣٥٣) صحيح مسلم ٤ : ١٧٩٦ ، صحيح البخاري ٨ : ١١٢ ، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها.
(٣٥٤) صحيح البخاري ٨ : ١١٢ .
(٣٥٥) صحيح البخاري ٩ : ٥٨ كتاب الفتن
(٣٥٦) صحيح البخاري ٩: ٥٨ .
(٣٥٧) المصدر السابق ٩ : ١٤٨ باب في الحوض .
(٣٥٨) صحيح البخاري ٨ : ١٥٠ .

وعن ابن المسيّب، أنه كان يحدّث عن أصحاب النبي، أن النبي(صلى الله عليه وآله)قال: **«يرد على الحوض رجال من أصحابي فيحلؤون عنه، فأقول: يا رب أصحابي! فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنـهم ارتدوا على أدبارهم القهقري!»**(٣٥٩).

وعن أبي هريرة عن النبي(صلى الله عليه وآله)، قال: **«بينا أنا قائم، إذا زمرة، حتى إذا عرفتهم، خرج رجل من بيني وبينهم فقال: هلم! فقلت: أين؟ قال: الى النار والله! قلت: وما شأنهم؟ قال: إنـهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم، خرج من بيني وبينهم فقال: هلم. قلت: أين؟ قال: إلى النار والله! قلت: ما شأنهم؟ قال: إنـهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقري، فلا أراه يخلص منهم إلاّ مثل همل النَّعَم!»**(٣٦٠).

وعن عبدالله، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): **«أنا فرطكم على الحوض، ولأنازعنّ أقواماً ثم لأغلبن عليهم، فأقول: يا رب أصحابي أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك!»**(٣٦١).

وعن أم سلمة زوج النبي(صلى الله عليه وآله)، أنها قالت: كنت أسمع الناس يذكرون الحوض، ولم أسمع ذلك من رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فلما كان يوماً من ذلك، والجارية تمشطني، فسمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: **«أيها الناس»**، فقلت للجارية : استأخري عني، قالت: إنما دعا الرجال ولم يدع النساء! فقلت: إني من الناس; فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): **«إني فرطكم على الحوض، فإيّاي، لا يأتين أحدكم فيُذب عني كما يُذب البعير الضّال، فأقول: فيم هذا؟! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك! فأقول: سحقاً»**(٣٦٢).

وعن أنس بن مالك، أن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: **«ليردن علي الحوض رجال ممن صاحبني،حتى إذا رأيتهم ورفعوا إلي; اختلجوا دوني، فلأقولن: أي ربّ، أصيحابي أصيحابي، فليقالن لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك!»**(٣٦٣).

وعن أبي هريرة قال -يحدّث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)- **«والذي نفس محمد بيده، لأذودن رجالا منكم عن حوضي كما تذاد الغريبة من الابل عن الحوض، ألا ليذادن رجال منكم عن حوضي كما يذاد البعير الضّال، أناديهم: ألا هلم; فيقال لي: إنـهم بدّلوا بعدك! فأقول: سحقاً سحقاً»**(٣٦٤).

وعن أبي هريرة عن النبي(صلى الله عليه وآله)، أنـه قال: **«ليذادن من أصحابي عن الحوض كما تذاد الغريبة من الابل!»**(٣٦٥).

(٣٥٩) المصدر السابق .
(٣٦٠) المصدر السابق .
(٣٦١) صحيح مسلم ٤ : ١٧٩ .
(٣٦٢) صحيح مسلم ٤: ١٧٩ .
(٣٦٣) المصدر السابق.
(٣٦٤) مسند أحمد ٢ : ٢٩٨ ، ٣٠٠ .
(٣٦٥) المصدر السابق ٢ : ٤٥٤ .

وعن أبي سعيد الخدري، عن أبيه قال: سمعت النبي(صلى الله عليه وآله) يقول على هذا المنبر: «**ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله**(صلى الله عليه وآله) **لا تنفع قومه! بلى والله، إن رحمي موصولة في الدنيا والآخرة، وإني أيها الناس فرط لكم على الحوض، فإذا جئتم، قال رجل: يا رسول الله، أنا فلان بن فلان، وقال أخوه: أنا فلان بن فلان، قال لهم: أما النسب فقد عرفته، ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقرى**»(٣٦٦).

وعن أبي بكرة، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**ليردن علي رجال ممن صحبني ورآني، حتى إذا رفعوا إلي ورأيتهم، اختلجوا دوني، فلأقولن: رب أصحابي أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»(٣٦٧).

وعن أُم سلمة قالت : قال النبي(صلى الله عليه وآله): «**من أصحابي من لا أراه ولا يراني بعد أن أموت أبداً...**»(٣٦٨).

وعن أنس قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**ليردن علي الحوض رجلان ممن صحبني، فإذا رأيتهما اختلجا دوني**»(٣٦٩).

وفي مسند أحمد روايات أُخرى كثيرة بهذا الشأن(٣٧٠).

إن هذه الروايات المتكاثرة الطرق، ما كانت إلاّ ناقوس الخطر، أراد النبي(صلى الله عليه وآله)أن يحذّر أصحابه من التلبّس في الفتن المقبلة عليهم، ويذكرهم بأن صحبتهم له لا تكفي لنجاتهم من النار إذا ما أحدثوا بعده أو انقلبوا على أعقابهم.

ادعاءات فارغة

حول موضوع ارتداد الصحابة وانقلابهم على الأعقاب، كتب محمود مهدي الاستانبولي: ومما يحتج به الرافضة على ارتداد الصحابة بعد وفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله)حديث ابن عباس عن النبي(صلى الله عليه وآله): «**إن أُناساً من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال**» أي الى جهنم.

فأقول : أُصيحابي أُصيحابي، على صيغة القلة والتصغير، لقلة عددهم، **فيقول**-أي الله سبحانه- «**إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم. فأقول كما قال العبد الصالح -أي عيسى**(عليه السلام) **معتذراً- وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم** -الى قوله: **العزيز الحكيم-**» متفق عليه.

(٣٦٦) المصدر السابق ٣ : ١٨ .
(٣٦٧) المصدر السابق ٥ : ٤٨ .
(٣٦٨) مسند أحمد ٦ : ٢٩٨ .
(٣٦٩) المصدر السابق ٤ : ٢٠ .
(٣٧٠) انظر مسند احمد ١ : ٣٨٤ ، ٤٠٦ ، ٤٢٥ ، ٤٣٩ ، ٤٥٣ ، ٥ : ٣٣٢ ، ٣٣٩ .

قال في أشعة اللمعات في الرد على الرافضة: قالوا إنه لم يرتد أحد منهم بعد النبي(صلى الله عليه وآله) إلاّ قوم من جفاة العرب من أصحاب مسيلمة الكذاب والأسود العنسي، أو بعض مؤلفة القلوب الذين لم تكن لهم بصيرة ولا قوة في الإيمان...

ولما كان كل من رأى النبي(صلى الله عليه وآله) لحظة يطلق عليه لفظ صاحب، كان هذا الحديث بحق من لم يرسخ الإسلام في نفسه، وهو بحق هؤلاء الأصحاب...

ومن أغراض الرافضة التي يقصدونها من وراء ادعاء ارتداد الصحابة; العمل على فقدان الثقة في الأجيال الإسلامية بسلفيهم، وحرمانهم الاقتداء بالجيل المثالي الأول الذي تربى في مدرسة محمد(صلى الله عليه وآله)، فيصبحون هملا لا تاريخ عظيم لهم، ولا قدوة صالحة، وتضليل الناشئة مئات السنين... مما رأينا في هذا الكتاب نماذج من أكاذيبهم وأضاليلهم، وكيف ردّ عليها القاضي ابن العربي، ومحب الدين الخطيب...!(٣٧١).

لا أجد حاجة للتعليق على قيمة معلومات القاضي ابن العربي ومحب الدين الخطيب بعد أن تبين للقارئ مصدر هذه المعلومات، ولكنني أود مناقشة ادعاءات الاستانبولي في هذه القضية، وكيف يلجأ الى تزييف الحقائق، وكيف أن أصحاب هذا الاتجاه يوقعون أنفسهم في تناقضات عجيبة لا يعرفون لها مخرجاً إلاّ بالاستمرار في تضليل المسلمين.

لقد فات الاستانبولي أن القاضي ابن العربي قد استشهد في بداية كتابه، وفي أُولى قواصمه، بقول أنس بن مالك الصحابي: ما نفضنا أيدينا من تراب قبر رسول الله(صلى الله عليه وآله)، حتى أنكرنا قلوبنا!(٣٧٢).

والذي يشكل اعترافاً صريحاً ومقصوداً من الصحابي أنس بن مالك، وغير مقصود من القاضي ابن العربي، بأن قلوب كثير من الصحابة قد تغيّرت بموت رسول الله(صلى الله عليه وآله) -وكما أخبر الباري عزوجل فيما سيأتي- وأصابهم ما أصاب الاُمم الأُخرى، وأصحاب الأنبياء السابقين من حب الدنيا والتنازع عليها، بل إن قلوب بعض الصحابة قد تغيّرت، وارتد بعضهم في حياة رسول الله(صلى الله عليه وآله) وفي بدايات البعثة، فعن أم حبيبة (زوج رسول الله) قالت:

رأيت في المنام كأن عبيدالله بن جحش زوجي بأسوأ صورة وأشوهه! ففزعت وقلت: تغيرت والله حاله!

(٣٧١) العواصم من القواصم : ١٨٧ هامش : ٣٣١ .
(٣٧٢) العواصم من القواصم : ٥٤ والحديث في مسند أحمد ٣ : ٢٢١ .

فاذا هو يقول حين أصبح: يا أم حبيبة، إني نظرت في الدين، فلم أر خيراً من النصرانية! وكنت قد دنتُ بها، ثم دخلت في دين محمد، ثم رجعت الى النصرانية!

فقلت : والله ما خير لك. وأخبرته بالرؤيا التي رأيت، فلم يحفل بها، وأكب على الخمر حتى مات...[٣٧٣].

فهذا الصحابي عبيدالله بن جحش، من المسلمين الأوائل، ومن الذين هاجروا الى الحبشة، إلاّ أنه ارتد هناك في دار هجرته، ومات مرتداً عن دينه!

وقصة عدد من الذين ارتدوا بعد اسلامهم في حياة النبي(صلى الله عليه وآله) معروفة، وقد قتل المسلمون - بأمر النبي- عدداً منهم يوم فتح مكة، بينما فرّ آخرون وبعضهم شفع له بعض الصحابة وانجاه من القتل، كابن أبي سرح، كما تقدم.

والرواية التي استشهد بها الاستانبولي وذكر فيها أن صيغة التصغير الواردة على لسان النبي(صلى الله عليه وآله) قد جاءت للتدليل على قلة عدد أُولئك الأصحاب، فيردّه ما أوردناه من روايات متكاثرة تدل على أن زمراً عديدة منهم يؤخذ بهم ويختلجون دون النبي(صلى الله عليه وآله)، ولعل رواية أبي هريرة التي أخرجها البخاري، وفيها قول النبي(صلى الله عليه وآله): «**فلا أراه يخلص منهم إلاّ مثل همل النعم!**»[٣٧٤].

لتؤكد على أن الهالكين من الصحابة هم أكثر من الناجين، مع العلم أن صيغة التصغير لا تستعمل للتقليل في العدد فقط، بل قد تستعمل للتحبيب أو للتحقير أيضاً.

أما الادعاء بأن المقصود بأُولئك الأصحاب، هم بعض أجلاف العرب والمؤلفة قلوبهم، فلا صحة له أيضاً، لأن الصيغ التي نطق بها الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله)، لتؤكد عكس ذلك تماماً، فقوله مخاطباً أصحابه: «**رجال منكم**» و «**أصحابي**»، و «**رهط من أصحابي**» و «**ناس من أصحابي**» و«**رجال ممن صاحبني**»، و«**ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفوني**» ، وقوله «**أما النسب فقد عرفته**» لتدل كلها دلالة واضحة على أن الكثير من أُولئك الصحابة، هم ممن يعرفون النبي(صلى الله عليه وآله)ويعرفهم معرفة وثيقة، فضلا عن أن تخصيصه لاثنين من أصحابه لا يراهما ولا يريانه بعد موته أبداً، يدل على أن هذين الصحابيين كانا على علاقة وثيقة في صحبتهما مع النبي(صلى الله عليه وآله) ولا يمكن أن يكونا من أجلاف العرب وجفاتهم!

ومن السخف أيضاً الادعاء بأن اولئك الصحابة إنما هم أتباع مسيلمة الكذاب والأسود العنسي، لأن هؤلاء قد ارتدوا في حياة النبي(صلى الله عليه وآله) وليس بعد موته،

(٣٧٣) مستدرك الحاكم ٤ : ٢٠ ، مسند أحمد ٤ : ٢٠ .

(٣٧٤) قال ابن منظور : وفي حديث الحوض «فلا يخلص منهم إلاّ مثل همل النعم» الهمل : ضوال الابل ، واحدها هامل ، أي أن الناجي منهم قليل في قلة النعم الضالة . لسان العرب ١١ : ٧١٠ .

وقد جرت بين مسيلمة وبين النبي(صلى الله عليه وآله) مراسلات عديدة مذكورة في كتب التاريخ والسيرة والحديث، فضلا عن أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد جهّز بعض الحملات العسكرية ووجهها لمحاربة اولئك المرتدين.

ولو أننا تنزلنا رغم كل ذلك، وصدّقنا بأن المقصود هم اولئك الأعراب، فإن ذلك لا ينقذ القائلين بهذا القول من أصحاب التيار المحافظ المعروف من الورطة، لأن اولئك قد ثبتت صحبتهم، والمفروض أن الصحابة جميعاً وعلى الاطلاق، عدول، وكلهم من أهل الجنة، فكيف يخبر النبي(صلى الله عليه وآله) بأن اولئك الأصحاب من أصحاب النار! وأين الحصانة التي يدعيها هؤلاء للصحابة!

لقد أكّد القرآن الكريم على إمكانية ارتداد بعض الصحابة وانقلابهم على أعقابهم بعد وفاة النبي(صلى الله عليه وآله)، فقال عزّ من قائل: (**وَما محمدٌ إلاّ رسولٌ قدْ خَلَتْ مِنْ قبلهِ الرُّسلُ أفئنْ ماتَ أو قُتلَ انقلبتُمْ على أعقابكمْ وَمَنْ يَنقلِب على عَقبيهِ فلنْ يَضُرَّ الله شيئاً وسَيَجزي اللهُ الشاكِرينَ**)[٣٧٥].

قال الطبري، عن سلمة بن إسحاق :

وذكر أن هذه الآية اُنزلت على رسول الله(صلى الله عليه وآله) فيمن انهزم عنه باُحد من أصحابه... أي افئن مات أو قتل نبيكم، رجعتم عن دينكم كفاراً كما كنتم وتركتم جهاد عدوكم وكتاب الله وما قد خلف نبيه من دينه معكم وعندكم وقد بيّن لكم فيما جاءكم عني أنه ميت ومفارقكم، ومن ينقلب على عقبيه، أي يرجع عن دينه[٣٧٦].

ومن الجدير بالذكر أن معظم الصحابة قد فرّوا عن النبي(صلى الله عليه وآله) يوم اُحد، ثم تكرر ذلك منهم يوم حنين أيضاً!

وقوله تعالى : (**إنَّ الذينَ يُبايعونَك إنّما يُبايعونَ اللّهَ يَدُ اللهِ فوقَ أيديهمْ فَمَنْ نكثَ فإنّما ينكثُ على نَفسهِ وَمَنْ أوفى بما عاهدَ عَليه اللّهَ فَسيؤتيهِ أجراً عظيماً**)[٣٧٧].

قال ابن كثير : أي إنّما يعود وبال ذلك على الناكث، والله غني حميد[٣٧٨].

فالوعد لمن أوفى بيعته، والوعيد لم نكثها، ومعلوم أن الذين بايعوا النبي(صلى الله عليه وآله)هم الصحابة وليس أحد غيرهم.

(٣٧٥) آل عمران : ١٤٤ .
(٣٧٦) تفسير الطبري ٤ : ٧٤ .
(٣٧٧) الفتح : ١٠ .
(٣٧٨) تفسير القرآن العظيم ٤ : ١٩٩ .

الأهداف المشتركة للتزييف

بعد أن طوينا صفحة الفتنة التي وقعت في زمن عثمان بن عفان وانتهت بمقلته، واختيار علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين، وما استتبع ذلك من خروج أصحاب الجمل عليه، وانتهاء حركة التمرد هذه بعد هزيمة أصحاب الجمل ومقتل قادتهم، يكون الطبري أيضاً قد طوى صفحة سيف بن عمر ومن روى عنه، بعد أن أغرق تاريخه بطوفان من رواياته، والتي تناولت أحداث ربع قرن من الزمان من أخطر مراحل التاريخ الاسلامي، واستطعنا أن نلاحظ بكل وضوح أن سيف بن عمر قد شوّه معالم هذه الفترة من التاريخ الإسلامي بأُسلوب ذكي وخبيث، متظاهراً بالمنافحة عن الصحابة وتبرأتهم مما ينسب إليهم من قبائح الأعمال، والتظاهر بالقاء تبعة كل ما جرى من أحداث على عاتق شخصيات غريبة عن المجتمع الإسلامي، ولكنه لم يستطع رغم ذلك أن يخفي أهدافه الحقيقية المتمثلة بالنيل من عدد من الصحابة من ذوي السابقة والفضل، ومن خيار التابعين أيضاً، بينما نجده يتصدى للدفاع بكل قوة عن مجموعة أُخرى من الصحابة المتأخرين ومن المؤلفة قلوبهم، وممن اشتهروا بالفسق والخروج عن جادة الصواب، فجعل المحق مبطلا والمبطل محقاً!

ولم يعد - بعدما ذكرناه- من العسير على القارئ أن يكتشف أن الصحابة والتابعين الذين كان سيف بن عمر ينال منهم، كانوا كلهم من اتباع علي بن أبي طالب، بينما نجده يمجّد الصحابة والتابعين من بني أُمية وأشياعهم، وقد تبيّن لنا بعد كل هذا أن محاولة البعض نفي تهمة الزندقة عن سيف بن عمر لا تجدي نفعاً بعدما تبين طعنه في عدد من كبار الصحابة واظهارهم بمظهر الذيول لابن سبأ ومشاركتهم إياه في التآمر على الإسلام.

ويبقى السؤال المهم بهذا الخصوص، وهو: لماذا تبنى جمهور المؤلفين من القدماء والمعاصرين روايات سيف بن عمر دون سواها؟ فإذا كانت حجتهم الظاهرية أن سيف بن عمر ينافح عن الصحابة، فحجتهم هذه داحضة بعد أن تبين عكس ذلك،

وكشف سيف بن عمر القناع عن زندقته، فلماذا يصر الجمهور على تبني رواياته ومحاولة تبرأته من تهمة الزندقة؟!

إن المنطق يفترض أن الزنادقة يريدون هدم الإسلام وتشويه صورته أمام الناس، عن طريق الدفاع عن السياسات المنحرفة لبعض زعماء المسلمين ومحاولة تبريرها، ومن ثم محاولة الطعن من ناحية أُخرى في رجالات الإسلام الأفذاذ والحط من أقدارهم وتشويه صورهم أمام الرأي العام، حتى يتخذ موقفاً معادياً من تاريخه الصحيح، وينساق وراء الزخرف الذي يزيّنه له هؤلاء الأعداء المستترون، فينسلخ عن الرؤية الصائبة لهذا التاريخ، ويكون انسلاخه تبعاً لذلك عن تراث الأُمة الحقيقي، فيقع ضحية لتخرصات الدجالين.

وقد قلنا إن سيف بن عمر قد استهدف أصحاب علي بن أبي طالب بالذم، وأصحاب عثمان وبني اُمية بالمدح، فلو أننا وضعنا آراء الزنادقة في الميزان، فهل نحكم بأنهم يمكن أن يكونوا حريصين على مصلحة الإسلام، أو بعبارة أُخرى: هل من مصلحة الزنادقة إبراز الوجه المشرق للاسلام أم العكس؟

إن المنطق يفترض أن الزنادقة لابد وأن يعمدوا الى إظهار الجوانب السلبية وتزيينها أمام جمهور المسلمين، وفي الوقت نفسه يقومون بتزييف الجوانب الايجابية وإظهارها على غير حقيقتها.

الخطوات الأولى للتزييف

لقد تحدثنا في فصول سابقة عن وجود رأي عام إسلامي قد توارث اُموراً أصبحت عنده في حكم المسلّمات، لذا فإن الزنادقة قد استغلوا هذه الأرضية الخصبة الممهدة لهم أبشع استغلال، لأن الأذهان كانت مهيأة لقبول رواياتهم من قبل، فكيف ومتى تكوّن هذا الرأي العام الذي نجد الكثير من المؤرخين يحاولون مجاملته؟

إن الأُمور ستكون أكثر وضوحاً إذا تتبعنا القضية من بدايتها.

ذكر المؤرخون أن معاوية بن أبي سفيان «استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة إحدى وأربعين، فلما أمّره عليها، دعاه وقال له: أما بعد، فإن لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا، وقد يجزي عنك الحكيم بغير التعليم، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك، ولستُ تاركاً إيصاءك بخصلة: لا تترك شتم عليّ وذمّه، والترحّم على عثمان والاستغفار له، والعيب لأصحاب علي والاقصاء لهم، والإطراء بشيعة عثمان والادناء لهم!

فقال له المغيرة : قد جَرّبت وجُرّبت، وعملتُ قبلك لغيرك فلم يذممني، وستبلو فتحمد أو تذم.

فقال : بل نحمد إن شاء الله.

فأقام المغيرة عاملا على الكوفة، وهو أحسن شيء سيرة، غير أنه لا يدع شتم علي والوقوع فيه، والدعاء لعثمان والاستغفار له...(٣٧٩).

هكذا كانت البداية، فمنذ أن استولى معاوية على مقاليد الأمور، وجلس على كرسي الخلافة، بدأ بتشكيل الخميرة الاعلامية التي سوف تبدأ بالانتشار والتغلغل في أذهان الناس، ويتربى عليها الأجيال شيئاً فشيئاً حتى تصبح عندها من المسلمات.

ولما كانت الكوفة هي أخطر المعاقل بالنسبة للأمويين، فإن معاوية جرّب هذا الاسلوب مبتدئاً بها، ثم جاءت الخطوات التالية في تعميم هذا الأمر على كافة الولايات والأمصار.

روى المدائني في كتاب (الأحداث) قال:

كتب معاوية نسخة واحدة الى عمّاله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته.

فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه، ويقعون في أهل بيته، وكان أشد الناس بلاءً حينئذ أهل الكوفة، لكثرة من بها من شيعة علي(عليه السلام)، فاستعمل عليهم زياد بن سميّة، وضمّ إليه البصرة، فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف، لأنه كان منهم أيام علي(عليه السلام); فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشرّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم.

وكتب معاوية الى عمّاله في جميع الآفاق، ألاّ يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبّيه وأهل ولايته، والذين يروون فضائله ومناقبه; فأدنوا مجالسهم وقرّبوهم وأكرموهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته! ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصّلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في

(٣٧٩) تاريخ الطبري ٥ : ٢٥٣ ، الكامل في التاريخ ٣ : ٤٧٢ .

المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملا من عمال معاوية، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة، إلاّ كتب اسمه وقرّبه وشفّعه فلبثوا بذلك حيناً...[٣٨٠].

هكذا بدأت سياسة معاوية الاعلامية في تشكيل الرأي العام الإسلامي المناهض لعلي بن أبي طالب وشيعته، والمتعاطف مع عثمان بن عفان وشيعته، وامتد ذلك على مدى عشرين عاماً من خلافة معاوية، وهي مدة تكفي لنشوء جيل على هذه العقيدة الجديدة.

ولم يتوان معاوية طيلة مدة حكمه عن الاستمرار في هذه السياسة ودفعها الى الأمام بشكل مستمر، ولم يقبل نصيحة أو رأياً حتى من معاونيه الذين قال ابن أبي الحديد المعتزلي: اشتركوا معه في أداء هذه المهمة وانجاحها.

« روى الزبير بن بكار في (الموفقيات) -وهو غير متهم على معاوية، ولا منسوب الى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانبة علي(عليه السلام)والانحراف عنه-:

قال المطرّف بن المغيرة بن شعبة : دخلت مع أبي على معاوية، وكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف اليّ فيذكر معاوية وعقله، ويعجب مما يرى منه; إذ جاء ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: مالي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئتُ من عند أكفر الناس وأخبثهم! قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلا وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت الى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه.

فقال: هيهات هيهات، أي ذكر أرجو بقاءه؟ ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل: أبو بكر. ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين; فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشة ليُصاح به كل يوم خمس مرات أشهد أن محمّداً رسول الله فأي عمل يبقى وأيُّ ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك! لا والله إلاّ دفناً دفناً!»[٣٨١].

وقد أدرك المغيرة بعد هذا اللقاء، أن لا مندوحة له من الاستمرار في انتهاج السياسة التي رسمها له معاوية حتى النهاية، رغم أن المغيرة كان يعلم جيداً أن ما يذكره من فضل عثمان وذم عليّ لا حقيقة له، ولكنه ملزم به، وبخاصة في بلدة مثل

(٣٨٠) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١١ : ٤٤ .
(٣٨١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥ : ١٢٩

الكوفة، وما جرى بينه وبين صعصعة بن صوحان -فيما أورده المؤرخون- يدل على ذلك، إذ أنه «بلغه أنه يعيب عثمان بن عفان ويكثر ذكر علي ويفضّله، وكان المغيرة دعاه وقال له: إيّاك أن يبلغني عنك أنك تعيب عثمان، وإياك أن يبلغني أنك تظهر شيئاً من فضل علي، فأنا أعلم بذلك منك، ولكن هذا السلطان قد ظهر، وقد أخذنا باظهار عيبه للناس، فنحن ندع شيئاً كثيراً مما أمرنا به، ونذكر الشيء الذي لا نجد منه بدّاً، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا، فإن كنت ذاكراً فضله، فاذكره بينك وبين أصحابك في منازلكم سراً، وأما علانية في المسجد، فإن هذا لا يحتمله الخليفة لنا...[٣٨٢]

وهكذا استمرت السياسة على هذا المنوال طيلة عهد بني اُمية، بعد أن وضع معاوية لِبنتها الأولى، فمرّت السنوات الطوال، وفتحت الأجيال الجديدة أعينها على واقع جديد، فالاعلام الرسمي المعلن الذي تتبناه الدولة، تظهر عثمان بن عفان وشيعته من بني اُمية وغيرهم، هم أصحاب الفضائل والمحاسن العظيمة، بينما تختفي الحقائق عن فضل علي بن أبي طالب وشيعته وأهل بيته من على ساحة الاعلام الرسمي، ليتناقلها العارفون بها سراً، فيسير هذان الخطان جنباً لجنب، ويبدأ عصر التدوين، فتأتي الأخبار من مصادرها على نوعين، نوع تتبناه الدولة رسمياً، يحمل في جوفه كل الأخبار الزائفة، ونوع يتبناه طلاب الحقيقة، ممن لا يخالطون السلطان ولا يقتاتون على موائده، وتأتي الشواهد لتثبت ذلك كله.

الزهري والسيرة النبوية

بدأت حركة التدوين في العصر الأموي بشكل نشط، وعلى الرغم من أن البعض يؤرخون لبدء التدوين للحديث النبوي والسيرة، ببداية عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز المتوفى سنة (١٠١ هـ)، إلاّ أن ذلك لا يمنع أن كثيراً من التابعين كانوا يدوّنون ما يسمعونه من الصحابة، بل كان بعض الصحابة يدونون ما يسمعونه من النبي(صلى الله عليه وآله)، كعبد الله بن عمرو بن العاص وصحيفته التي سميت (الصادقة). وكان ابن شهاب الزهري، محمد بن مسلم من أوائل المصنفين في الحديث والسيرة، فقد روى عبدالرحمان بن أبي الزناد عن أبيه قال:

كنت أطوف أنا وابن شهاب الزهري، ومع ابن شهاب الألواح والصحف.

قال: وكنّا نضحك به.

(٣٨٢) الطبري ٥ : ١٨٩ ، الكامل لابن الأثير ٣ : ٤٣٠ .

وفي رواية قال : كنا نكتب الحلال والحرام، وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع، فلما احتيج إليه، علمت أنه أعلم الناس.

وقال معمّر، عن صالح بن كيسان :

كنت أطلب العلم أنا والزهري. قال: فقال: نكتب السنن. قال: فكتبنا ما جاء عن النبي(صلى الله عليه وآله)، ثم قال: تعال نكتب ما جاء عن الصحابة. قال: فكتب ولم أكتب، فأنجح وضيّعتُ[٣٨٣].

وقال الدراوردي : أول من دوّن العلم وكتبه، ابن شهاب.

قدم الزهري على عبدالملك بن مروان سنة (٨٢ هـ)، ولزمه حتى توفي، فلزم ابنه الوليد، ثم سليمان، ثم عمر بن العزيز، ثم يزيد الذي ولاّه القضاء، ثم لزم هشام بن عبدالملك وصار معلماً لأولاده، وكان في البداية يكره أن يكتب عنه أحد، فلما ألزمه هشام بن عبدالملك أن يملي على بنيه، أذن للناس أن يكتبوا وقال: كنا نكره الكتاب حتى أكرهنا عليه الأمراء، فرأيت أن لا أمنعه مسلماً.

قال الذهبي : كان رحمه الله محتشماً جليلا بزيّ الأجناد، له صورة كبيرة في دولة بني أمية.

وقال مكحول : أي رجل هو، لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك[٣٨٤].

وقد تناولتُ ابن شهاب الزهري كمثال يبرز اتجاه حركة الاعلام الرسمي للدولة الأموية نحو تحريف الحقائق وتزييف التاريخ الإسلامي.

لقد كان عمل الزهري لبني أمية يفرض عليه أحياناً الانصياع لرغبات أولئك الحكام، حتى لو تطلب ذلك منه إخفاء الحقائق على الأقل إن لم يكن تزييفها. وعلى الرغم من أن الزهري قد وقف بعض المواقف الشجاعة تجاه السلطة الأموية، إلاّ أنه كان لا يجد بداً من الخضوع لهذه السلطة في معظم الأحيان، ويتضح ذلك من سياق بعض الحوادث التي تكشف عن إتجاه السياسة الأموية الاعلامية، فقد دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبدالملك، فقال: يا سليمان، من الذي تولّى كبره منهم؟ قال: عبدالله بن أبي ابن سلول، قال: كذبت! هو علي! فدخل ابن شهاب، فسأله هشام، فقال: هو عبدالله ابن أبي. قال: كذبت! هو علي! فقال: أنا لا أكذب لا أبا لك، فوالله لو نادى مناد من السماء أن الله أحلّ الكذب ما كذبت، حدثني سعيد وعروة وعبيد وعلقمة ابن وقاص عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبدالله بن أبي.

(٣٨٣) تهذيب الكمال ١٧ : ٢٢٠

(٣٨٤) سير أعلام النبلاء ٥ : ٣٢٦ .

قال : فلم يزل القوم يُغرون به، فقال هشام: ارحل، فوالله ما كان ينبغي لنا أن نحمل على مثلك...![٣٨٥].

فالخليفة الأموي يضغط على سليمان بن يسار والزهري من أجل تحريف واقعة الإفك المعروفة والادعاء بأن علي بن أبي طالب هو الذي تولى كبره، وليس عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين!

وعلى الرغم من هذا الموقف الجريء للزهري، إلاّ أنه قد خضع أحياناً لرغبات الحكام. فقد ذكر المدائني عن الزهري قوله: قال لي خالد بن عبدالله القسري: اكتب لي النَّسب; فبدأت بنسب مضر، فمكثت فيه أياماً ثم أتيته، فقال: ما صنعت؟ فقلت: بدأت بنسب مضر وما أتممته، فقال: اقطعه قطعه الله مع أُصولهم، واكتب لي السيرة. فقلت له: فإنه يمرّ بي الشيء من سير علي بن أبي طالب، فأذكره؟ فقال: لا، إلاّ أن تراه في قعر الجحيم!![٣٨٦].

وقد امتثل الزهري لهذا الأمر، فكتب السيرة بعد أن أخلاها من ذكر علي ابن أبي طالب إلاّ لماماً، ولم يثبت له أي منقبة أو فضيلة، ولو أن المسلمين اعتمدوا على السيرة التي كتبها الزهري دون غيره، لما عرفت أجيال المسلمين لعلي بن أبي طالب فضلا ولا سبقاً.

وقد نبّه لذلك المحدّث عبدالرزاق الصنعاني -الذي نقل السيرة النبوية- فأورد إلى جانب روايات الزهري، روايات اُخرى عن غيره.

ولم يكتف الزهري بذلك، بل إنه أنكر أمراً لا يكاد يختلف عليه اثنان من المسلمين، وهو سبق علي بن أبي طالب الى الإسلام، فقال: ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة![٣٨٧].

فالزهري كان مدفوعاً دون شك من السلطة الأموية لتزييف الحقائق التاريخية وطمس فضائل علي بن أبي طالب، إلاّ أنه كان في قرارة نفسه يعترف بالحقيقة، ويصرّح بها أحياناً لخواصه، فقد قال معمر: سألت الزهري عن كاتب الكتاب يوم الحديبية، فضحك وقال: هو علي بن أبي طالب، ولو سألت هؤلاء، لقالوا عثمان -يعني بني اُمية[٣٨٨]-.

(٣٨٥) سير أعلام النبلاء ٥: ٣٢٦ .
(٣٨٦) الأغاني ٢٢ : ٢١ أخبار خالد القسري .
(٣٨٧) مصنف عبد الرزاق ٥ : ٣٢٥ .
(٣٨٨) مصنف عبدالرزاق ٥ : ٣٤٣ الفضائل لاحمد بن حنبل.

المستشرقون والتزييف

إذا كان الزهري وأمثاله قد كتبوا ما يرضي الأمويين خوفاً أو طمعاً، فإن هناك من قد تبرّع للكتابة لهم والاشادة بهم والحط من خصومهم بدون هذه الدوافع، اللهم إلاّ رغبة في الحط من الإسلام بتزييف حقائق تاريخه. فمن القدامى:

١ - القديس يوحنا الدمشقي :

وهو في طليعة من ألّف في الرد على المسلمين.

ولد حوالي سنة (٦٧٥م)، وتوفي سنة ٧٤٩م وهو من أسرة كانت في أيامها شهيرة معروفة، فكان أبوه في خدمة الخلفاء الأمويين، وله منزلة وحظوة عندهم، وكان هو نفسه من المقربين اليهم والمتصلين بهم، ومن الذين يستشيرونهم في مهمات الأمور...!

وقد نسب يوحنا الإسلام الى الهرطقة[٣٨٩]، وادعى أن الرسول أخذ علمه من رجل من أهل الكتاب، أو من رجل من الهراطقة الأريوسيين... وزعم أيضاً أن الرسول كان قد نظر في التوراة والانجيل، وأنه تعلم منها وتنبأ...! ويعد يوحنا الدمشقي ممهّد الجادة للمستشرقين المعروفين بتحاملهم على الإسلام، فأكثر ما يزعمونه ويذكرونه عنه هو مما كان قد قاله ودوّنه قبلهم بما يزيد على ألف عام[٣٩٠].

٢ - يوحنا بن بنكاية :

وقد تعرض لنزاع علي ومعاوية، وأثنى على معاوية كثيراً، وذكر أنه كان عادلا قديراً، انتشر الأمن في زمانه، وعامل النصارى معاملة طيبة![٣٩١].

أما من المستشرقين المحدثين فأهمهم :

الأب لامنس :

قال عبدالرحمان بدوي : «مستشرق بلجيكي وراهب يسوعي شديد التعصب ضد الاسلام، يفتقر افتقاراً تاماً الى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها. ويعد نموذجاً سيئاً جداً للباحثين في الإسلام من بين المستشرقين.

ولد في بلجيكا سنة (١٨٦٢م)، وجاء الى بيروت في صباه، وتعلم في الكلية اليسوعية في بيروت، وبدأ حياة الرهبنة في سنة (١٨٧٨م)، فأمضى المرحلة الاولى

(٣٨٩) الهرطقة عند النصارى : البدعة في الدين . المنجد في اللغة : ٨٦٣ .

(٣٩٠) جواد علي : ٢٥

(٣٩١) جواد علي : ٢٥ .

في دير لليسوعيين في قرية غزير في جبل لبنان طوال عامين، ثم قضى خمسة أعوام في دراسة الخطابة واللغات. وفي سنة (١٨٨٦م) صار معلماً في الكلية اليسوعية ببيروت. وسافر الى انجلترة والى لوفان، ووصل الى فيينا في (١٨٩٦م)، وعاد الى بيروت سنة (١٨٩٧م)، حيث عيّن معلماً للتاريخ والجغرافيا في كلية اليسوعيين. ولما أسس (معهد الدروس الشرقية) ضمن كلية اليسوعيين في (١٩٠٧م)، صار فيه أُستاذاً للتاريخ الإسلامي، ولما توفي لويس شيخو في سنة (١٩٢٧م)، خلفه لامنس على إدارة مجلة المشرق، وهي مجلة فصلية تصدر عن اليسوعيين في بيروت، ولهم مجلة دينية شعبية تبشيرية أُخرى تدعى (البشير)، وقد تولى لامنس إدارتها مرتين قبل ذلك بزمن طويل، مرة في سنة (١٨٩٤م)، ومرة أُخرى من سنة (١٩٠٠م) إلى (١٩٠٣م).

وكان لامنس يكتب في هاتين المجلتين مقالات كثيرة، يكتبها بالفرنسية، ثم يتولى غيره ترجمتها الى العربية، وتنشر باللغة العربية، وتوفي لامنس في ٢٣ أبريل (١٩٣٧م).

وإنتاج لامنس يدور حول موضوعين :

ألف - السيرة النبوية.

ب - بداية الخلافة الأُموية.

لكن له إلى جانب ذلك كتب ودراسات حول موضوعات متفرقة في العقيدة الإسلامية، وتاريخ سوريا وآثارها، وفيما يلي ثبت بكتبه:

ألف - مصنفاته ومقالاته في السيرة النبوية :

١ ـ مهد الاسلام ، ١٩١٤ م

٢ ـ مكة عشية الهجرة ، بيروت ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤م .

٣ ـ مدينة الطائف العربية عشية الهجرة ، بيروت ١٩٢٢ م

٤ ـ غربي الجزيرة العربية قبل الهجرة ، بيروت ١٩٢٨ م ، وهو مجموع من ست دراسات عن اليهود والنصارى قبيل الهجرة النبوية، وعن ديانات العرب قبل الإسلام، ويقع في ٣٤٤ صفحة.

٥ ـ المعابد قبل الإسلام في غربي الجزيرة العربية .

وهو في هذه الكتب الخمسة، إنّما يلخص أبحاث المستشرقين وعلماء الآثار والجغرافيا في هذه الموضوعات، وليس له أي إسهام أصيل، وفي ظل التمهيد بهذه الكتب التي تبيّن الوضع الجغرافي والديني والاقتصادي والاجتماعي للحجاز عامة،

وللقريتين : مكة والطائف خاصة، كتب دراساته المتعلقة بالنبي(صلى الله عليه وآله) وفاطمة(عليها السلام) وتأريخ السيرة، وهي:

٦ ـ القرآن والسنّة، كيف ألفت حياة محمد، بحيث ظهر في أبحاث في علوم الدين : ج ١ باريس ١٩١٠ م.

٧ ـ هل كان محمد أميناً. أبحاث في علوم الدين : ج٢ باريس ١٩١١ م.

٨ ـ عصر محمد وتاريخ السيرة، في المجلة الآسيوية ١٩١١ م.

٩ ـ فاطمة وبنات محمد، تعليقات نقدية لدراسة السيرة، روما (١٩١٢ م)

ثم تناول مسألة خلافة النبي بعد وفاته، وذلك في كتاب بعنوان:

أ ـ الحكومة الثلاثية من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة.

وفي هذه الكتب الأربعة، تحامل لامنس على السيرة النبوية تحاملا شديداً، زاعماً أن القرآن وحده هو المصدر الذي يعتمد عليه في بيان سيرة النبي، وأن كتب الحديث كلها موضوعة من أجل تحقق غايات معينة هي تمجيد حياة النبي(صلى الله عليه وآله).

وقد نهج في هذا نهج ليوني كايتاني، فلم يُقم لكتب الحديث وكتب السيرة أي وزن، وهو في هذا لا يسوق أي دليل نقلي أو عقلي، ولا يرجع الى مصادر اُخرى عن السيرة، بل هو يلقي الكلام جزافاً ويعتمد على تحكمات ذهنية استقرت حسب معان ذهنية سابقة، ولم يكن لديه اطّلاع باحث مثل جولدتسيهر، يحاول أن يستمد دعواه من مصادر اُخرى تلمودية أو هلينية...الخ، بل راح يخبط دون أدنى سند أو برهان عقلي، وأبشع ما فعله، خصوصاً في كتابه (فاطمة وبنات محمد) هو أنه كان يشير في الهوامش الى مراجع بصفحاتها، وقد راجعت معظم هذه الإشارات في الكتب التي أحال إليها، فوجدت أنه إما أن يشير الى مواضع غير موجودة إطلاقاً في هذه الكتب، أو يفهم النص فهماً ملتوياً خبيثاً، أو يستخرج إلزامات بتعسف شديد يدل على فساد الذهن وخبث النية، ولهذا ينبغي ألاّ يعتمد القارئ على إشاراته الى مراجع، فإن معظمها تمويه وكذب وتعسف في فهم النصوص، ولا أعرف باحثاً بين المستشرقين المحدثين قد بلغ هذه المرتبة من التضليل وفساد النية.

ب ـ في تاريخ بداية الخلافة الأموية، وعلى نحو مشابه درس لامنس أولوية الخلافة الأموية، فصنف الكتب والدراسات التالية:

١ ـ دراسات عن حكم الخليفة الأموي معاوية الأول، بيروت ١٩٠٧ م.

٢ ـ خلافة يزيد الأول ، بيروت ١٩١٢ م.

٣ ـ زياد بن أبيه والي العراق ونائب معاوية الأول ١٩١٢ م.

٤ ـ معاوية الثاني أو آخر السفيانيين.

٥ - دراسات عن عصر الأمويين ، بيروت ١٩٣٠ م.
٦ - مجيء المروانيين وخلافة مروان الأول.

وفي هذه الدراسات بالغ لامنس في تمجيد الأمويين بدافع من الحقد الشديد على الإسلام، وفارق هائل بين ما قام به يوليوس فلهوزن في كتابه (الدولة العربية وسقوطها) من انصاف لمعاوية ولبعض الأمويين من تحامل اقترفه المؤرخون المسلمون الذين كتبوا في العصر العباسي، وكانوا تبعاً لذلك متأثرين بكراهية العباسيين للأمويين ومشايعين لرواية أهل العراق، وبين الاندفاع الأهوج عند لامنس في تبرير أبشع جرائم يزيد والأمويين عامة...[٣٩٢]

وهكذا نجد التطابق بين أهداف المستشرقين والزنادقة من أعداء الاسلام، وكذلك في أساليبهم، فكل طعن في الاسلام يقابله أيضاً تمجيد للأمويين بشكل يدل على أن هذا التمجيد لبني أمية إنما يستهدف في حقيقته هدم الاسلام، وإظهار الأمويين وكأنهم هم الذين يمثلون وجهة نظر الاسلام، وصارت جهود هؤلاء تصب في المجرى الذي رسمه الأمويون وفي مقدمتهم معاوية لتزييف الحقائق عن تاريخ الاسلام.

موقف الجمهور

من الأمور التي تبعث على الاستغراب حقاً، هو تمسّك جمهور المؤلفين المسلمين بالروايات الكاذبة التي دسّها الزنادقة في التاريخ الإسلامي، ورفض ما عداها بإصرار غريب، والادعاء بأن تلك الروايات هي (صحاح الاخبار) كما عبّر عنها القاضي ابن العربي!

ولا شك أن السياسة الأموية كانت على درجة من الدهاء بحيث استطاعت طيلة ما يقرب من قرن من الزمان أن تبث إعلامها وتفرضه على المسلمين، حتى استقرت هذه المعلومات في أذهان العامة، وصارت تشكل المصدر الرئيس لمعارفه.

ولعل الأمر الذي يبعث على التساؤل هو: لماذا استمر هذا الخط الأموي بعد انقراض دولتهم، والاطاحة بهم من قبل خصومهم العباسيين، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن أكثر المؤرخين الكبار قد دوّنوا موسوعاتهم التاريخية في العصر العباسي، وكيف سمحت السلطة العباسية بذلك!

لقد أوضحنا في فصول سابقة، أن المؤرخين ـ أمثال الطبري ـ إنما اعتمدوا على ما وصلهم من مؤلفات ترجع أصولها الى العصر الأموي الذي بدأ فيه تدوين هذه

(٣٩٢) عبد الرحمان بدوي . موسوعة المستشرقين: ٥٠٣ .

الأمور، فقاموا بنقلها كما هي عن مصادرها الاولى تلك. وهناك أمران آخران على جانب من الأهمية:

١ - إن المصالح السياسية العليا للدولة العباسية -وكل الدول التي جاءت بعدها- كانت تتفق تماماً مع مثيلاتها للدولة الأموية، وإن استمرار هذا المنهج التاريخي كفيل بخدمة الدولة العباسية كما خدم الدولة الأموية، وسوف أناقش هذا الأمر بتفصيل أكثر فيما بعد، ليزداد الأمر وضوحاً.

٢ - إن الرأي العام الإسلامي الذي تشكل بفعل الاعلام الموجّه للدولة الأموية طيلة ما يقرب من قرن من الزمان، قد ترسخ في الأذهان، وصار من الصعب تغييره، وقد تبنى هذا المنهج بعض المواضيع التي تدخل في صلب عقيدة المسلم، والتي تشكلت هي الأخرى في بعض جوانبها نتيجة لهذه السياسة الإعلامية، ولعل أهم ما فيها هو: تقديس السلف الذي كان مقدمة لظهور مصطلح (عدالة الصحابة المطلقة)، والتي سوف نناقشها أيضاً في موضعها المناسب إن شاء الله.

ويمكننا ملاحظة عقيدة الجمهور من خلال أخذهم الأخبار من المصادر التي تتوافق -ولو ظاهرياً- مع هذه النظرة الاعلامية، ورفضهم لكل ما يخالف ذلك القصور. فنقرأ في ترجمة أبي مخنف لوط بن يحيى قولهم: شيعي محترق، صاحب أخبارهم![٣٩٣].

وبملاحظة عبارة (صاحب أخبارهم) تبين لنا أن المصدر الرئيس الذي يعتمده الجمهور ويأخذ منه الأخبار، هو الذي قد جاء عن طريق وسائل الاعلام الرسمية التي أسستها الدولة الأموية، ودعمها رجال اللاهوت النصارى والمستشرقون المعاصرون والزنادقة الحاقدون على الإسلام، فأصحبت هي الأخبار المعتمدة عند الجمهور، وما عدا ذلك فهو ليس ممّا يعتمده الجمهور كمصدر لتناول الأخبار، بل هو من مصادر أهل البدع والأهواء. وقد لخّص بعض المؤلفين من القدامى والمحدثين هذه النظرية، وعبّروا عن رأيهم ذلك بكل صراحة ووضوح، فبعد أن يورد ابن كثير الدمشقي روايات الطبري عن طريق سيف، حول أحداث معركة الجمل، نجده يقول معلقاً:

هذا ملخص ما ذكره أبو جعفر بن جرير رحمه الله عن أئمة هذا الشأن، وليس فيما ذكره أهل الأهواء من الشيعة وغيرهم من الأحاديث المختلقة على الصحابة والأخبار الموضوعة التي ينقلونها بما فيها، وإذا دُعوا الى الحق الواضح أعرضوا

(٣٩٣) ميزان الاعتدال ٣ : ٤٢ ، لسان الميزان ٤ : ٤٩٢ .

عنه وقالوا: لنا أخبارنا ولكم أخباركم، فنحن حينئذ نقول لهم: سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين!![٣٩٤].

ولم يسلم من ربقة هذا الاتجاه الفكري حتى المؤلفين المعاصرين الذين يُفترض فيهم التعمق الأكثر في التراث لتوفر أدوات البحث بشكل أفضل في هذا العصر، ولكننا نراهم لا يتبعون إلاّ سبيلا واحداً، وهو مجاملة الرأي العام الذي تشكل منذ أربعة عشر قرناً وبقيت قناعاته مستمرة الى يومنا هذا.

يقول محمد قطب في معرض حديثه عن المناهج التاريخية الإسلامية:

هناك عيب رئيسي في تلك المناهج بصفة عامة، هو التركيز على التاريخ السياسي للمسلمين على حساب بقية مجالات الحياة الإسلامية: العقدية، الفكرية، والحضارية، والعلمية، والاجتماعية ...الخ. ومما لا شك فيه أن التاريخ السياسي للمسلمين هو أسوأ ما في تاريخهم كله، فبصرف النظر عن المبالغات التي نشأت من الخلافات المذهبية وتلوينها لوقائع التاريخ، ككتابات الشيعة عن تاريخ أهل السنّة مثلا... فمما لا شك فيه أنه قد وقعت انحرافات كثيرة في المجال السياسي عن الخط الإسلامي الأصيل، وأن هذه الانحرافات قد وقعت في وقت مبكر من تاريخ الإسلام لم يكن ينبغي أن تقع فيه[٣٩٥].

فمع اعترافه بوجود انحرافات خطيرة في تاريخ الإسلام في وقت مبكر، إلاّ أنه يحاول الايماء بأن المبالغات التي وقعت في هذا التاريخ قد جاءت من الشيعة، ولكنه لا يلتفت الى التشويه الذي تولاه الزنادقة لتخريب هذا التاريخ وإفساد عقائد المسلمين بتلك المعلومات المدسوسة.

وإنك لتجد معظم الباحثين المحدثين، ومن ذوي المستويات العلمية العالية، يتناولون أحداث التاريخ الإسلامي بحذر شديد، فيحومون حول القضية الجوهرية حتى يكاد بعضهم ينطق بالحقيقة! إلاّ أنه سرعان ما ينكص على عقبيه، معتذراً للجمهور بافتعال أعذار واهية لا تسمن ولا تغني من جوع، وما ذلك إلاّ لأن بعض المؤسسات الدينية التي ورثت هذه العقائد من قرون متطاولة، ترفض أي مناقشة لهذه المواضيع، وويل لمن يتجرأ على خرق هذا الحظر المفروض على الحقيقة. إن النظر دائماً الى التاريخ السياسي للمسلمين على أنه أسوأ ما في تاريخهم، خطأ جسيم،

(٣٩٤) البداية والنهاية ٧ : ١٧٥ .
(٣٩٥) كيف نكتب التاريخ : ١٦

فالتاريخ السياسي للمسلمين هو جزء من عقيدتهم، ولكن المشكلة تكمن في كيفية تناول هذا التاريخ...!

بين الزنادقة والأمويين

لقد تبين من خلال استعراضنا للحوادث التي وقعت في زمن عثمان بن عفان وما بعدها بقليل، ومن خلال تحليل الروايات التي تفرّد بها سيف بن عمر، أن محاولة نفي تهمة الزندقة عن سيف بن عمر لا تجدي نفعاً، لأن الاحتجاج بمنافحته عن الصحابة مردود بتحامله الشديد على عدد غير قليل من خيار الصحابة والتابعين. إلاّ أن الملفت للانتباه -وكما ذكرنا سابقاً- هو دفاعه المستميت عن معاوية وبني اُمية عامة وإظهارهم بمظهر الأتقياء البررة المدافعين عن الإسلام. وليس ثمة شك بأن الزنادقة لا يمكن أن يكونوا حريصين على تاريخ الإسلام، فلابد إذاً من وجود علاقة متينة بين أهداف هؤلاء الزنادقة، مضافاً إليهم المستشرقون الحاقدون على الإسلام، وأهداف الأمويين في تخريب الإسلام. «فالزندقة لم تكن إلاّ نشاطاً مركزاً للمانوية، أرادت تحت ستار إسلامي شفّاف، وبطريق التأويل. وبالتشكيك بالقيم والعقيدة، أرادت تهديم الكيان القائم والسلطان العربي بنسف الاسلام»(٣٩٦).

والأساليب التي أتبعها الزنادقة لتحقيق أهدافهم كانت على درجة كبيرة من الدهاء والخبث، فبعضهم يظهر بمظهر الزاهد العابد الواعظ المعرض عن الدنيا وزخرفها، بل وإن بعضهم استطاع افساد عقائد الناس عن طريق الخطب والمواعظ التي كانوا يلقونها من على المنابر، ويبثون فيها سمومهم بين المسلمين، ومن العجب أن الناس كانوا كثيراً ما تستهويهم أساليب هؤلاء الزنادقة!

قال ابن أبي الحديد :

كان أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ -أخو أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الفقيه الشافعي- قاصاً لطيفاً وواعظاً مفوّهاً، وهو من خراسان من مدينة طوس، وقدم الى بغداد ووعظ بها، وسلك في وعظه مسلكاً منكراً، لأنه كا يتعصّب لإبليس ويقول: إنه سيّد الموحّدين!

وقال يوماً على المنبر : من لم يتعلم التوحيد من إبليس فهو زنديق! أُمر أن يسجد لغير سيّده فأبى:

ولستُ بضارع إلاّ إليكم *** وأمّا غيركم حاشا وكلاّ

(٣٩٦) عبدالعزيز الدوري. مقدمة في تاريخ الاسلام : ٩٣ .

وقال مرة أُخرى : لما قال موسى (أرني) فقال (لن)، قال: هذا شغلك، تصطفي آدم ثم تسوّد وجهه، وتخرجه من الجنة! وتدعوني الى الطور ثم تُشمت بي الأعداء! هذا عملك بالاحباب، فكيف تصنع بالأعداء....!

وقال مرة أُخرى : إلتقى موسى وإبليس عند عقبة الطور، فقال موسى: يا إبليس لِمَ لَمْ تسجد لآدم؟ فقال: كلا، ما كنت لأسجد لبشر، كيف أُوحّده ثم التفت إلى غيره! ولكنك أنت يا موسى سألت رؤيته ثم نظرت الى الجبل، فأنا أصدق منك في التوحيد!

وكان هذا النمط من كلامه ينفق على أهل بغداد، وصار له بينهم حديث مشهور وإسم كبير!(٣٩٧).

ولجأ بعض الزنادقة الى تحريف وتزييف السنّة النبوية الشريفة، بوضع الأحاديث المكذوبة والافتراء على النبي(صلى الله عليه وآله) بنسبتها إليه، ومن أشهر هؤلاء الزنادقة الوضاعين، عبدالكريم بن أبي العوجاء الذي اعترف عندما عُرض على السيف بأنه وضع أربعة آلاف حديث يُحلّ فيها الحرام ويحرّم فيها الحلال!(٣٩٨).

أما الزنديق الأكثر خطراً والأعظم مكراً فهو دون شك سيف بن عمر الذي لم يكتف بوضع الأحاديث المكذوبة، بل إنه قام بتزييف التاريخ الاسلامي أيضاً، ووضع للمسلمين تاريخاً مقلوباً رأساً على عقب، نصرة لبني أُمية دون سواهم، والذي يهمنا في المباحث القادمة أن نبيّن العلاقة الحميمة بين أعمال الزنادقة وبين سياسات الأمويين والتي لا شك وأنها كانت تخدم أغراض الزنادقة تماماً، فانبروا للدفاع عنها بشكل مستميت. ولنبدأ باستكمال بحثنا حول هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الاسلام، والتي تعرضت لأبشع صور التشويه والتزييف على أيدي الزنادقة، باستعراض الحوادث التي وقعت بعد معركة الجمل.

(٣٩٧) شرح نهج البلاغة ١ : ١٠٧

(٣٩٨) لسان الميزان ٤ : ٦١ .

معاوية وعلي

قلنا إن سلسلة الروايات التي تزعمها سيف بن عمر قد انقطعت عند الطبري بانتهاء معركة الجمل، ولعل البعض سوف يعتقد أن مرحلة التزييف في التاريخ الإسلامي سوف تنتهي عند ذلك، وتبدأ الحقائق بالظهور من الآن فصاعداً. ولكن الواقع أن التزييف لم يتوقف في هذه المرحلة، ولكنه اتخذ شكلا آخر من خلال تصدي المؤلفين الذين جاءوا بعد الطبري لتلك الحوادث بالتحليل، والذي كان يصب عادة في المجرى السابق الذي تبناه سيف بن عمر في محاولة تبرأة معاوية وبني أمية وأشياعهم من الخروج عن جادة الصواب، ومحاولة تصويب أعماله ودعاواه التي تذرّع بها للخروج عن الطاعة وشق العصا، لذا فسوف تتركز أبحاثنا القادمة للكشف عن محاولات التزييف هذه، وإبراز النيات الحقيقية والدوافع لهذا الخروج، مع مناقشة آراء بعض المؤلفين الذين تصدوا لهذه المرحلة، حتى يتم استخلاص الحقائق كاملة، وسوف أبدأ باستعراض بعض آراء القاضي ابن العربي والشيخ محب الدين الخطيب حول هذه المسألة، باعتبارهما انموذجين يمثل أحدهما التيار المحافظ القديم، ويمثل الآخر التيار نفسه ولكن في العصر الحاضر، ولأن كتاب العواصم من القواصم كان هو الذي حفزني ودفعني الى البحث عن الحقيقة.

قال ابن العربي :

أما وجود الحرب بينهم فمعلوم قطعاً، وأما كونه لهذا السبب[٣٩٩]، فمعلوم كذلك قطعاً، وأما الصواب فيه فمع علي، لأن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، وتهمة الطالب للقاضي لا توجب عليه أن يخرج عليه، بل يطلب الحق عنده، فإن ظهر له قضاء وإلاّ سكت وصبر، فكم من حق يحكم الله فيه، وإن لم يكن له دين فحينئذ يخرج عليه، فيقوم له عذر في الدنيا.

ولئن اتُّهم علي بقتل عثمان، فليس في المدينة أحد من أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)إلاّ وهو متهم به، أو قل معلوم قطعاً أنه قتله، لأن ألف رجل جاءوا لقتل عثمان لا

(٣٩٩) يقصد الطلب بدم عثمان .

يغلبون أربعين ألفاً. وهبك أن علياً وطلحة والزبير تضافروا على قتل عثمان، فباقي الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن اعتد فيهم وضوى إليهم، ماذا صنعوا بالقعود عن نصرته! فلا يخلو أن يكون لأنهم رأوا أُولئك طلبوا حقاً وقد فعلوا حقاً، فهذه شهادة قائمة على عثمان فلا كلام لأهل الشام، وإن كانوا قعدوا عنه استهزاء بالدين، وأنهم لم يكن لهم رأس مال في الحال ولا مبالاة عندهم بالاسلام ولا فيما يجري فيه من اختلال، فهي ردّة ليست معصية، لأن التهاون بحدود الدين وإسلام حرمات الشريعة للتضييع كفر، وإن كانوا قعدوا لأنهم لم يروا أن يتعدى حد عثمان وإشارته، فأي ذنب لهم فيه! وأي حجة لمروان وعبدالله بن الزبير والحسن والحسين وابن عمر وأعيان العشرة معه في داره، يدخلون إليه ويخرجون عنه في الشكة والسلاح، والمطالبون ينظرون! ولو كان بهم قوة أو آووا الى ركن شديد، لما مكّنوا أحداً أن يراه منهم ولا يداخله، وإنما كانوا نظارة، فلو قام في وجوههم الحسن والحسين وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير، ما صبروا، ولو قتلوهم ما بقي على الأرض منهم حي. ولكن عثمان سلّم نفسه، وتُرك ورأيه، وهي مسألة اجتهاد كما قدّمنا، وأي كلام كان يكون لعلي لو كتبت عنده البيعة، وحضر وليّ عثمان وقال الخليفة له: يا ايها، وما تمالأ عليه ألف نسمة حتى قتلوه، وهم معلومون! ماذا كان يقول إلاّ: أثبت وخذ. وفي يوم كان يثبت. إلاّ أن يثبتوا هم أن عثمان كان مستحقاً للقتل. وبالله لتعلمن يا معشر المسلمين أنه ما كان يثبت على عثمان ظلم أبداً، وكان يكون الوقت أمكن للطلب وأرفق في الحال وأيسر وصولا الى المطلوب.

والذي يكشف الغطاء في ذلك، أن معاوية لما صار إليه الأمر، لم يمكنه أن يقتل من قتلة عثمان أحداً إلاّ بحكم، إلاّ من قتل في حرب بتأويل أو دسٍّ عليه فيما قيل، حتى انتهى الأمر الى زمان الحجاج وهم يقتلون بالتهمة لا بالحقيقة، فتبين لكم أنهم ما كانوا في ملكهم يفعلون ما أضحوا له يطلبون.

والذي تثلج صدوركم، أن النبي(صلى الله عليه وآله) ذكر في الفتن، وأشار وبيّن، وأنذر الخوارج وقال «تقتلهم أدنى الطائفتين الى الحق»، فبيّن أن كل طائفة منهما تتعلق بالحق، ولكن طائفة علي أدنى إليه، وقال تعالى **(وإنْ طائِفتانِ مِنَ المؤمنينَ اقْتَتَلوا فَأصلِحُوا بَيْنَهُما فإن بَغَتْ إحداهُما على الأُخرى فقاتِلوُا التي تَبغي حتى تَفيء إلى أمرِ اللهِ فإنْ فاءَتْ فَأصلِحُوا بَيْنَهُما بالعَدلِ وَأقسِطوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقسِطينَ)**(٤٠٠)، فلم يخرجهم عن الإيمان بالبغي بالتأويل، ولا سلبهم إسم الأخوة بقوله بعده: **(إنما المؤمنون إخوةٌ فأصلِحُوا بَينَ**

(٤٠٠) الحجرات : ٩ .

أَخَوَيكُمْ[٤٠١]، وقال(صلى الله عليه وآله) في عمار: «**تقتله الفئة الباغية**»، وقال في الحسين[٤٠٢]: «**ابني هذا سيّد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»، فحسّن له خلعه نفسه واصلاحه.

وكذلك يروى أنه أذن في الرؤيا لعثمان في أن يستسلم ويفطر عنده الليلة.

فهذه كلها أُمور جرت على رسم النزاع، ولم تخرج عن طريق من طرق الفقه، ولا تعدّت سبيل الاجتهاد الذي يؤجر فيه المصيب عشرة، والمخطئ أجراً واحداً. وما وقع في الروايات في كتب التاريخ - عدا ما ذكرنا- فلا تلتفتوا الى حرف منها، فإنها كلها باطلة![٤٠٣].

لقد أدلى ابن العربي باعترافات خطيرة تكشف الحقيقة عن مجريات الأمور، والتي لا يجد الباحث بداً من الاعتراف بها لتوفر الأدلة عليها، ولكنه وكما قلنا سابقاً، فعل كما يفعل الكثير من الباحثين والمؤلفين -خاصة من المعاصرين- عاد فقلب ظهر المجن للحقيقة، وبدأ يردد نفس النغمة السابقة، محاولا جهد الامكان نفي التهمة عن بعض الشخصيات التي لعبت دوراً سلبياً في تلك الأحداث، مثل عثمان ومعاوية. ورغم أننا ناقشنا الكثير من الأمور التي تدين تلك الشخصيات، إلاّ أن هناك أُموراً أُخرى لابد من توضيحها.

لقد اعترف ابن العربي أولا بأن جميع الصحابة في المدينة متهمون بقتل عثمان أو على الأقل على الرضا بقتله وتسليمه دون أن يتولوا الدفاع عنه، ولكنه عاد وبرّر عملهم هذا بأنه قد تم بموافقة عثمان أو بالأحرى بأمر عثمان الذي كان متبعاً في ذلك أمر رسول الله(صلى الله عليه وآله) الذي أمره بالاستسلام لقتلته وعدم محاولة مدافعتهم! وهذا العذر هو الشيء الوحيد الذي يتذرع به معظم المؤلفين لتبرير عمل الصحابة وخذلانهم لعثمان، ويتشبث المؤلفون المعاصرون بهذا العذر تشبث الغريق بالقشة، ولكننا عندما نعرض ذلك على العقل والمنطق والشرع، نجده عذراً متهافتاً تم اختلاقه للخروج من هذه الورطة! إذ أن استسلام الخليفة لقاتليه بأمر النبي(صلى الله عليه وآله) يعني أن النبي هو المسؤول الأول عن الفتنة التي نشبت بعد مقتل عثمان، والحروب الطاحنة التي دارت بين المسلمين، والذين كان خليقاً بهم أن يكفوا عن هذا القتال، وكان خليقاً بالمطالبين بدم عثمان أن يكفوا عن طلبهم، طالما أن عثمان نفسه لم يحقن دمه امتثالا لأمر النبي(صلى الله عليه وآله)، ولا أدري إن كان هناك عاقل واحد بين

(٤٠١) الحجرات : ١٠ .
(٤٠٢) الصحيح : الحسن (المؤلف).
(٤٠٣) العواصم من القواصم : ١٦٨ .

المسلمين يصدّق أن النبي(صلى الله عليه وآله) يأمر بمثل هذه المفسدة، وينصح خليفة المسلمين بالاستسلام الى البغاة الذين جاءوا لقتله بغياً وعدواناً ودون سبب مشروع. وإذا كان الأمر يتطلب من كل خليفة أن يستسلم لأي خارج عليه فإن الخلافة تكون بلا معنى، بل إن منصب الخلافة نفسه كان سيبقى شاغراً أبد الدهر، لأن أي زمان لا يخلو من شذاذ الآفاق والفوضويين الذين سيبادرون الى قتل كل خليفة يحاول أن يردعهم عن مفاسدهم، وإذا كان عمل عثمان صحيحاً، فلماذا لم يقتدي به من جاء بعده من الخلفاء! لماذا لم يستسلم علي ابن أبي طالب للذين خرجوا عليه! ولماذا لم يستسلم جميع الخلفاء ابتداء من معاوية وانتهاء بآخر خليفة جلس على كرسي الخلافة بهذه السنّة التي سنّها عثمان بأمر من النبي(صلى الله عليه وآله)!

الحقيقة هي التي نطق بها ابن العربي أولا، حين قال عن موقف الصحابة من قتل عثمان، فلا يخلو أن يكون لأنهم رأوا اولئك طلبوا حقاً وقد فعلوا حقاً!

أما معاوية، فلم ينكر ابن العربي، ولا يقدر غيره أن ينكر أنه ادعى المطالبة بدم عثمان، وأنه لم يكن محقاً في طلبه ذاك، إذ أن تكليفه الشرعي كان يفرض عليه طاعة ولي أمره -كما أمر الله سبحانه وتعالى- فكان عليه أن يبدأ أولا بالامتثال لأمر الخلع الذي جاءه من الخليفة، فيخلع نفسه من منصبه، ثم يقدم على الخليفة ويعرض عليه ظلامته، ويطلب منه محاكمة المتهمين بقتل عثمان وإقامة الحد عليهم إن ثبتت عليهم التهمة بقتل عثمان ظلماً، فيأخذ العدل مجراه وتنتهي المشكلة، ولكن معاوية فضّل اتّباع سنّة الجاهلية على سنّة الاسلام، فراح يطالب بالثأر وتسليم قتلة عثمان إليه ليقتلهم دون محاكمة، ورفض في سبيل ذلك كل المحاولات التي قام بها بعض الصحابة للحيلولة دون نشوب الحرب بين المسلمين مجدداً.

أما اعتراف ابن العربي بأن معاوية قد كفّ عن ملاحقة قتلة عثمان عندما صار إليه الأمر، وأن بني اُمية ما كانوا يفعلون في ملكهم ما أضحوا له يطلبون، فان هذا الاعتراف هو أكبر دليل إدانة بحق معاوية، ويكشف عن نياته الحقيقية بكل وضوح، فإن تهاونه في ملاحقة قتلة عثمان يدل على إحدى اثنتين:

١ ـ إما أن يكون معاوية متيقناً من أن هؤلاء قد قتلوا عثمان بغياً عليه، وأن دعواه في المطالبة بدم عثمان صادقة وصادرة عن قناعة لا يشوبها ريب، تبرّر خوض تلك الحرب الضروس الذي سالت فيها أنهار من دماء المسلمين من الطرفين، فيكون معاوية بتهاونه عن إقامة الحد على اُولئك القتلة، قد عطّل حدّاً من حدود الله لا ينبغي التهاون فيه، لأن في تعطيل الحدود خروجاً على أمر الله ورسوله وتعطيلا

للشريعة وإفساداً للمجتمع الاسلامي، وتشجيعاً لأهل البغي، فتكون جريمة معاوية في هذه الحالة، ليست بأقل خطراً من جريمته في الخروج على السلطة الشرعية وإراقة دماء المسلمين.

٢ ـ وإما أن يكون معاوية متيقناً من أن قتلة عثمان لم يكونوا بغاة فعلا، وأنهم فعلوا حقاً، وأن مطالبته بدم عثمان لم تكن تصدر عن الواقع، فيكون معاوية مسؤولا أمام الله، وأمام التاريخ عن كل الدماء التي أُريقت بسبب ذلك، فضلا عن خروجه على السلطة الشرعية بغير وجه حق، والتي ترتبت عليها أعظم المفاسد.

إن الحقيقة التي يحاول معظم الذين ألفوا في هذا الشأن -قديماً وحديثاً- أن يغمضوا أعينهم عنها، هي أن الطلب بدم عثمان لم يكن إلاّ وسيلة غير شريفة لتبرير غاية أكثر منها لؤماً، ألا وهي محاولة الوثوب على كرسي الخلافة الذي فشل كل من طلحة والزبير في الوصول إليه، ونجح معاوية وحقق غايته منه، فلما نال ما يشتهي وحقق الغاية من رفع شعاره الكاذب، انتفت الحاجة الى هذا الشعار، فكف معاوية عن ملاحقة المتهمين بقتل عثمان، لأن معاقبتهم لم تكن هي الغاية الحقيقية من رفع ذلك الشعار. فمعاوية لم يعف عمن تبقى من قتلة عثمان تكرماً منه وتفضلا -لأن ذلك لا يجوز شرعاً- ولكنه بعد أن وجد أنه قد حقق مبتغاه، تخلى عن دعوته!

البغاة

لقد دأب معظم الذين ألفوا في الحوادث التي وقعت بين معاوية وعلي، الى محاولة تبرئة معاوية بهذه الآية من سورة الحجرات حول اقتتال طائفتين من المؤمنين، وكأن ما جرى بين علي ومعاوية كان هو السبب في نزول هذه الآية! وهم بذلك يحاولون إضفاء صفة الايمان على معاوية وحزبه، والادعاء بأن كلتي الطائفتين كانتا على حق، إلاّ أن طائفة علي كانت أدنى الى هذا الحق، وذلك حين يربطون الحديث النبوي الشريف بشأن الخوارج بهذه الآية الكريمة، رغم أن التلاعب قد طال بعض ألفاظ هذا الحديث، من أجل الايحاء بما يدعم دعواهم، فإن الحديث قد ورد بقوله(صلى الله عليه وآله) : «**تقتلهم أولى الطائفتين بالحق**»[٤٠٤].

(٤٠٤) صحيح مسلم ٢ : ٧٤٥ .

قال الشوكاني : قوله «اولاهما بالحق» ، فيه دليل على أن علياً ومن معه هم المحقّون، ومعاوية ومن معه هم المبطلون، وهذا أمر لا يمتري فيه منصف، ولا يأباه إلاّ مكابر متعسّف[٤٠٥].

أما الآية من سورة الحجرات، فقال السيوطي في تفسيرها:

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه عن ابن عباس في الآية، قال:

إن الله أمر النبي(صلى الله عليه وآله) والمؤمنين إذا اقتتلت طائفة من المؤمنين، أن يدعوهم الى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض; فإن أجابوا، حكم فيهم بكتاب الله، حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، وحق على إمام المؤمنين والمؤمنين أن يقاتلوهم حتى يفيئوا الى أمر الله ويقرّوا بحكم الله...[٤٠٦] فالله سبحانه وتعالى يأمر بالاصلاح بين الطائفتين وفق حكم الله، ولكن إذا بغت إحداهما ولم تستجب لحكم الله، فينبغي مقاتلتها، لأنها تكون باغية، حتى إذا ما أذعنت لحكم الله، فعندئذ يحكم بينهما وفق كتاب الله، وتعود الطائفتان الى الأخوة الاسلامية التي تزعمها معاوية الى حكم الله؟ وهل كان معاوية بالفعل مخطئاً متأولا في هذه الحرب، كما يدّعي البعض؟! إن استقصاء الحقائق كفيل بالكشف عن كل ذلك، حتى يمكننا أن نحكم على الأمور وفق حكم الله.

وقد علّق الشيخ محب الدين الخطيب على أقوال ابن العربي قائلا:

لما طالب علي معاوية ومن معه من الصحابة والتابعين أن يبايعوه، احتكموا إليه في قتلة عثمان، وطلبوا منه أن يقيم حدّ الله عليهم، أو أن يسلمهم إليهم فيقيموا عليهم الحد، وقد اعتذرنا عن أمير المؤمنين علي، بأن قتلة عثمان لما صاروا مع علي في العراق، صاروا في معقل قوتهم وعنجهية قبائلهم، فكان علي يرى - بينه وبين نفسه- أن قتلهم يفتح عليه باباً لا يستطيع سدّه بعد ذلك.

وقد انتبه لهذه الحقيقة الصحابي الجليل (القعقاع بن عمرو) التميمي، وتحدث بها مع أُم المؤمنين عائشة وصاحبي رسول الله(صلى الله عليه وآله) طلحة والزبير، فأذعنوا لها وعذروا علياً، ووافقوا على التفاهم معه على ما يوصلهم الى الخروج من هذه الفتنة، فما لبث قتلة عثمان أن أنشبوا الحرب بين الفريقين، فالمطالبون بإقامة حدّ الله على قتلة عثمان معذورون لأنهم يطالبون بحق، سواء كانوا من أصحاب الجمل أو من أهل الشام; وتقصير علي في إقامة حد الله، كان عن ضرورة قائمة ومعلومة، ولكن

(٤٠٥) نيل الأوطار ٤ : ٣٤٨ .

(٤٠٦) الدر المنثور ٧ : ٥٦ .

إذا كانت حرب البصرة ناشئة عن إنشاب قتلة عثمان الحرب بين الفريقين الأولين، فقد كان من مصلحة الإسلام أن لا تنشب حرب صفين بين الفريقين الآخرين...[٤٠٧]

إن تعليق محب الدين الخطيب يعطينا صورة عن مدى التهافت والتناقض الذي قد وقع المؤلفون والباحثون من أصحاب هذا الاتجاه فيه، فالخطيب لا ينفك يتشبث بروايات سيف بن عمر حول الموضوع، وبالتالي فهو يبني تحليلاته للأمور وفق النظرة التي تتبنى الروايات المكذوبة، والتي تصب في نهاية الأمر الى الاتجاه الذي يحاول أن يجعل علي بن أبي طالب هو المسؤول الحقيقي عن تلك الأحداث المفجعة. رغم اختلاق التبريرات التي تدعي أنها تبرئ علياً!

لقد ناقشنا فيما سبق الأساطير التي اختلقها سيف بن عمر في سرده لأحداث معركة الجمل ومقدماتها وبيّنا تهافتها وسقوطها أمام الروايات التي جاءت عن الثقاة، وعن الدور الخيالي الذي قام به القعقاع بن عمرو في الأحداث مما لا نجد له ذكراً إلاّ عند الطبري برواية سيف.

أما اعتذار الخطيب لعلي بن أبي طالب بأنه لم يستطيع الاقتصاص من قتلة عثمان لأنهم صاروا في العراق بين أفراد قبائلهم التي تحميهم، فإنهم في المدينة لم يكونوا بين قبائلهم، وكان باستطاعة علي - لو أراد- وبمساعدة الصحابة أن يقضي عليهم، لأنهم -وكما اعترف ابن العربي- لا يغلبون أربعين ألفاً من الصحابة، فلماذا تأخر علي في اقامة الحد عليهم إذاً!

إن ادعاء الخطيب بأن علياً خاف أن يفتح على نفسه باباً يصعب غلقه إذا ما اقتص من قتلة عثمان! ولكن الباب الذي كان سيفتح عليه في هذه الحالة لم يكن أكثر خطراً من الأبواب التي فتحها عليه أصحاب الجمل وصفّين، ودارت تلك المعارك الطاحنة بين الفريقين، ولو كان هذا السبب الذي يدعيه الخطيب منطقياً، فقد كان بإمكان علي بن أبي طالب أن يتحالف مع أصحاب الجمل من جهة، ومع معاوية وأهل الشام من جهة أُخرى، فيصبح لديه بذلك جيش جرّار لا يستطيع قتلة عثمان وعشائرهم مهما بلغوا من القوة والمنعة أن يواجهوا علياً وحلفاءه اولئك، وعندئذ كانت تنتهي المشكلة من أساسها ويعاقب قتلة عثمان، وتصفو الخلافة لعلي، فلماذا لم يفعل ذلك؟!

أما الشيخ الخضري فيعلق على تلك الأحداث بقوله:

(٤٠٧) العواصم من القواصم : الهامش ٨٢١ .

ففي الشام كان الأمير معاوية بن أبي سفيان بن أُمية أميراً على الشام في عهد عمر وعثمان، وكان محبوباً من أهله، فلما وقع إليه مقتل عثمان واستخلاف علي، لم يرض أن يدخل في بيعته لأسباب:

١ ـ إنه كان يتهم علياً بشيء من أمر عثمان!

٢ ـ آوى قتلته في جيشه.

٣ ـ إنه كان بين الرجلين نفور أدى الى أن علياً يرى ضمن أول واجباته عزل معاوية عن إمارة الشام. وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الامارة والعزّة...[٤٠٨]

فإيواء علي بن أبي طالب لقتلة عثمان ـ إن كانوا حقاً بغاة ظالمين- يوقعه تحت طائلة حكم الحديث النبوي الشريف الذي يتوعد بشدّة كل من يؤوي محدثاً في المدينة المنورة!

فعن عاصم، قال: قلت لأنس بن مالك: أحرّم رسول الله(صلى الله عليه وآله) المدينة؟

قال : نعم، ما بين كذا الى كذا، فمن أحدث فيها. قال: ثم قال لي: هذه شديدة «**من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا**». قال: فقال ابن أنس: «**أو آوى محدثاً**»![٤٠٩].

ومن العجيب أن علي بن أبي طالب نفسه يروي حديثاً في هذا المعنى. فعن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال: خطبنا علي(رضي الله عنه) فقال: من زعم أن عندنا شيئاً نقرؤه إلاّ كتاب الله وهذه الصحيفة -صحيفة فيها أسنان الابل وأشياء من الجراحات- فقد كذب. قال: وفيها، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**المدينة حرم ما بين عير الى ثور، فمن أحدث فيها، أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة عدلا ولا صرفاً**»![٤١٠].

أما اعتذار الخطيب وغيره لعلي بن أبي طالب بأنه كان يتربص بقتلة عثمان الفرصة للايقاع بهم، فهو ادعاء غير صحيح، وتكذبه الشواهد وما عُرف من سيرة علي بن أبي طالب، فقد قال الخضري:

رأى علي أن يكون أول أعماله عزل جميع ولاة عثمان قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأمصار، وقد حذّروه عاقبة ذلك، المغيرة بن شعبة أولا وابن عباس ثانياً، فأبى ذلك إباءً تاماً، كأنه قد وقر في نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من

(٤٠٨) الدولة الأموية : ٢٥٧

(٤٠٩) صحيح مسلم ٢ : ٩٩٤

(٤١٠) صحيح البخاري ٢ : ٢٦ باب حرم المدينة، مسند أحمد ١ : ٨١ ، تاريخ ابن عساكر ٤٢ : ٣٩٦ ، مسند أبي يعلى ١ : ٤٦٢ .

أمر المسلمين، مع أنه قبِل أن يؤخر الحد على قتلة عثمان حتى يهدأ الناس، مع أن هذا حد من حدود الله...[٤١١]

فالخضري يبدي تعجبه عن تعجل علي عزل معاوية مع أنه لم يحدث حدثاً يشابه قتل الخليفة، بينما يتباطأ في إقامة الحد على قتلة عثمان، لأنه كغيره من الذين ألفوا في هذا الشأن، يظلون أسرى للمتبنيات التي ورثوها على مرّ الأجيال، دون أن يفكروا في تمحيص هذا التاريخ جيداً!

إن علي بن أبي طالب قد عبّر عن حقيقة ما جرى من الأحداث، حين رفض طلب الأمويين المقيمين في المدينة إقامة الحد على قتلة عثمان، وقال بأنه لو لزمه إقامة الحد عليهم اليوم، للزمه بالأمس! فلو كان علي بن أبي طالب مقتنعاً بوجوب إقامة الحد على قتلة عثمان، لما توانى عن إقامة هذا الحد في اليوم الأول من استلامه منصب الخلافة، بل كان سيجعل هذا أول عمل يقوم به بعد البيعة.

أما الرواية التي أشار إليها الخضري، فهي عن ابن عباس، قال: دعاني عثمان فاستعملني على الحج; فخرجت الى مكة فأقمت للناس الحج، وقرأت عليهم كتاب عثمان إليهم، ثم قدمت المدينة وقد بويع لعلي، فأتيته في داره، فوجدت المغيرة بن شعبة مستخلياً به، فحبسني حتى خرج من عنده، فقلت: ماذا قال لك هذا؟ فقال: قال لي قبل مرّته هذه: أرسل الى عبدالله بن عامر والى معاوية والى عمال عثمان بعهودهم، تقرّهم على أعمالهم ويبايعون لك الناس، فإنهم يمهدون البلاد ويسكّنون الناس، فأبيتُ ذلك عليه يومئذ وقلت: والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيي ولا ولّيت هؤلاء ولا مثلهم يُولّى.

قال : ثم انصرف من عندي وأنا أعرف فيه أنه يرى أني مخطئ، ثم عاد إلي الآن فقال: إني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت عليك وخالفتني فيه، ثم رأيت بعد ذلك رأياً، وأنا أرى أن تصنع الذي رأيت فتنزعهم وتستعين بمن تثق به، فقد كفى الله، وهم أهون شوكة مما كان.

قال ابن عباس : فقلت لعلي: أما المرة الاولى فقد نصحك، وأما المرة الآخرة فقد غشّك! قال علي: ولم نصحني؟ قال ابن عباس: لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالون بمن ولي الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا: أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلّبون عليك، فينتفض عليك أهل الشام وأهل العراق، مع أني لا آمن طلحة والزبير أن يكرّا عليك!

(٤١١) الدولة الأموية : ٢٥٧

فقال علي : أما ما ذكرت من إقرارهم، فوالله ما أشك أن ذلك خير لي في عاجل الدنيا لإصلاحها، وأما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان، فوالله لا أُولي منهم أحداً أبداً، فإن أقبلوا فذلك خير لهم، وإن أدبروا بذلت لهم السيف. قال ابن عباس: فاطعني وادخل دارك والحق بما لك بينبع، وأغلق بابك عليك، فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، فإنك والله إن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنّك الناس دم عثمان غداً. فأبى عليّ، فقال لابن عباس: سر الى الشام فقد وليتكها، فقال ابن عباس: ما هذا برأي، معاوية رجل من بني أُمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام، ولست آمن أن يضرب عنقي لعثمان، أو أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيحكّم علي. فقال له علي: ولم؟ قال: لقرابة ما بيني وبينك، وإن كل ما حُمل عليك حُمل علي، ولكن اكتب الى معاوية فمنّه وعِدهُ. فأبى عليّ وقال: والله ما كان هذا أبداً...(٤١٢)

فإذا كان علي بن أبي طالب لا يتردد لحظة في عزل عمال عثمان وفي مقدمتهم معاوية وهو يعلم مدى خطورة هذا العمل، وأن الشام والعراق قد تنتقضان عليه؟ فكيف يؤخر إقامة الحد على قتلة عثمان خوفاً من بضع مئات من الرجال، وتحت يده ألوف الصحابة من المهاجرين والأنصار وغيرهم؟!

إنّ الأعذار التي يسوقها المؤلفون لمعاوية، هي نفس الأعذار التي تذرّع بها معاوية، ومحاولتهم حلّ التناقض في مواقف علي لا تأتي بالنتيجة المرجوة، لأنها مبتنية أساساً على الزيف، وهي التي تصوّر الأمور على نقيضها تماماً، ومما يثبت صحة كلامنا هو ما نلاحظه على أقوال اولئك المؤلفين، إذ يقول محب الدين الخطيب مثلا: وقد كان معاوية يعرف من نفسه أنه لم يكن منه البغي في حرب صفين، لأنه لم يبتدئها، ولم يأت لها الاّ بعد خروج علي من الكوفة وضرب معسكره في النخيلة ليسير الى الشام -كما تقدم- ولذلك لما قُتل عمار، قال معاوية: إنما قتله من أخرجه...(٤١٣)

إن الخطيب يصوّر الأمر بشكل معكوس تماماً، ويحاول الايحاء بأن معاوية لم يكن هو الباغي، لأنه لم يبتدئ الحرب، وإنما الباغي الحقيقي - في نظره- هو علي بن أبي طالب، فهو لم يسلم قتلة عثمان ولم يُقم الحد عليهم، وهو الذي خرج بجيشه الى

(٤١٢) تاريخ الطبري ٤ : ٤٣٩
(٤١٣) كتاب العواصم من القواصم : هامش ٢٩٣ .

معاوية، فموقف معاوية هو موقف المدافع عن الحق وليس الباغي كما يصوّره الخطيب!

وعلى الرغم من أن ابن كثير الدمشقي لا يألو جهداً هو الآخر في تبرير مواقف معاوية، إلاّ أنه لا يملك إلاّ الاعتراف بالحقائق التاريخية إذ يقول:

وفي رواية أن معاوية لما أمر أبا الأعور بحفظ الشريعة، وقف دونها برماح مشرعة، وسيوف مسلّلة، وسهام موتورة، جاء أصحاب علي علياً فشكوا إليه ذلك، فبعث صعصعة بن صوحان الى معاوية يقول له: إنّا جئنا كاقّين عن قتالكم حتى نقيم عليكم الحجة، فبعثت إلينا مقدّمتك فقاتلتنا قبل أن نبدأكم، ثم هذه أُخرى: منعتمونا الماء![٤١٤].

فعلي بن أبي طالب وإن كان قد خرج بجيشه الى صفّين، إلاّ أنه لم يأمر هذا الجيش ببدء القتال، وكان هدفه -كما في معركة الجمل- هو محاولة إقناع الطرف الآخر بالاقلاع عن بغيه والدخول في الطاعة لحقن دماء المسلمين من الطرفين، وذلك بإرسال المفاوضين الى معاوية لاقناعه بالرجوع عما ينويه، حيث قال ابن كثير مستكملا فصول القصة:

وأقام علي يومين لا يكاتب معاوية ولا يكاتبه معاوية، ثم دعا علي بشير ابن عمرو الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي السهمي، فقال: إيتوا هذا الرجل فادعوه الى الطاعة والجماعة، واسمعوا ما يقول لكم.

فلما دخلوا على معاوية قال له بشير بن عمرو: يا معاوية، إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع الى الآخرة، والله محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك، وإني أنشدك الله أن تفرّق جماعة هذه الأمة، وأن تسفك دماءها بينها.

فقال له معاوية : هلاّ أوصيت بذلك صاحبكم! فقال له: إن صاحبي أحق هذه البرية بالأمر في فضله ودينه وسابقته وقرابته، وإنه يدعوك الى مبايعته فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في آخرتك. فقال معاوية: ويطلّ دم عثمان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً!

ثم أراد سعيد بن قيس الهمداني أن يتكلم، فبدره شبث بن ربعي فتكلم قبله بكلام فيه غلظة وجفاء في حق معاوية، فزجره معاوية وزبره في إفتياته على من هو

(٤١٤) البداية والنهاية ٧ : ٢٥٦

أشرف منه وكلامه بما لا علم له به! ثم أمر بهم فأُخرجوا من بين يديه، وصمّم على القيام بطلب دم عثمان الذي قتل مظلوماً، فعند ذلك نشبت الحرب(٤١٥).

أما كلام شبث بن ربعي - الذي اقتطعه ابن كثير واعتبره تطاولا على معاوية- وكشف بذلك عن مكنون نفسه بتأييد موقف معاوية، فقد ذكره الطبري، قال: فتكلم فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا معاوية، إني قد فهمتُ ما رددتَ على ابن محصن، إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب! إنك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستحيل به أهواءهم، وتستخلص به طاعتهم إلاّ قولك: قُتل إمامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه; فاستجاب له سفهاء طغام، وقد علمنا أن قد أبطأتَ عنه بالنصر، وأحببتَ له القتل، لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب، وربَّ متمنّي أمر وطالبه الله عزّوجل يحول دونه بقدرته، وربما أُوتي المتمنّي أُمنيّته وفوق أُمنيته، واللهِ مالكَ في واحدة منهما خير، لئن أخطأتَ ما ترجو إنك لشرّ العرب حالا في ذلك، ولئن أصبت ما تمنّى لا تصيبه حتى تستحق من ربّك صُليّ النار! فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه، ولا تنازع الأمر أهله(٤١٦).

وقد شقّ هذا الكلام على ابن كثير، لما فيه من كشف لنوايا معاوية الحقيقية، فاقتطعه من النص الذي ينقله عن الطبري -كعادته- ، واتهم شبثاً بإساءة الادب مع معاوية الذي هو أشرف منه!

والذي يتبين من كلام شبث بن ربعي، أن خذلان معاوية لعثمان كان أمراً معلوماً من الجميع، وقد مرّ فيما سبق أن عثمان بن عفان كتب الى معاوية يستمده عندما أُحيط به، إلاّ أن معاوية تريّث وكره مخالفة أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) وقد علم اجتماعهم -على حد تعبير رواية الطبري-...(٤١٧)

كما قال ابن أبي الحديد :

لما أرسل عثمان الى معاوية يستمده، بعث يزيد بن أسد القسري وقال له: إذا أتيت ذا خشب، فأقم بها ولا تتجاوز، ولا تقل: يرى الشاهد مالا يرى الغائب; فإنني أنا الشاهد وأنت الغائب! قال: فأقام بذي خشب حتى قُتل عثمان، فاستقدمه حينئذ معاوية; فعاد الى الشام بالجيش الذي كان أرسل معه، وإنما صنع ذلك معاوية ليُقتل عثمان، فيدعو الى نفسه.

(٤١٥) البداية والنهاية ٧ : ٢٥٦ .
(٤١٦) الطبري ٤ : ٥٧٣
(٤١٧) الطبري ٤ : ٣٦٨

وعندما أهل شهر محرّم، اتفق الطرفان على هدنة، وتبادلوا الرسل فيما بينهم رجاء الصلح، «فبعث علي عدي بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي وزياد بن خصفة الى معاوية، فلما دخلوا; حمد الله عديٌّ بن حاتم ثم قال: أما بعد، فإنّا أتيناك ندعوك الى أمر يجمع الله عزّوجل كلمتنا وأُمتنا، ويحقن به الدماء، ويؤمن به السبل، ويصلح به ذات البين. إن ابن عمك سيّد المسلمين، أفضلها سابقة، وأحسنها في الاسلام أثراً، وقد استجمع له الناس، وقد أرشدهم الله عزّوجل بالذي رأوا، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك، فأنت يا معاوية لا يصيبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل.

فقال معاوية : كأنك إنما جئت مهدداً لم تأتِ مصلحاً! هيهات يا عدي، كلا والله إني لابن حرب، ما يقعقع لي بالشّنان، أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان(رضي الله عنه) وإنك لمن قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عزّوجل به، هيهات يا عدي بن حاتم، قد صلبت بالساعد الأشد(٤١٨).

والملاحظ أن عدي بن حاتم لم يدفع عن نفسه تهمة المشاركة في قتل عثمان، كما أن معاوية لم يُقم الحد عليه بعد توليه السلطة!

وقد تكلم شبث بن ربعي وزياد بن خصفة ويزيد بن قيس بكلام مقارب لكلام عدي، ودعيا معاوية الى الألفة والجماعة، فكان جواب معاوية أن قال: أما بعد، فإنكم دعوتم الى الطاعة والجماعة، فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإنّا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرّق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نردّ عليه ذلك، أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة.

فقال له شبث : أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمّار تقتله؟!

فقال معاوية : وما يمنعني من ذلك! والله لو أُمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان ،ولكن كنت قاتله بقاتل مولى عثمان...

ونلاحظ هنا إشارة أُخرى، وهي إتهام معاوية عمار بن ياسر بالاشتراك في قتل عثمان، لذا أقسم معاوية على استعداده لقتل عمار، ومن الجدير بالذكر أن الموقف من عمار بن ياسر يعتبر الفيصل في تمييز الطائفة المحقّة من الطائفة الباغية، كما أخبر النبي(صلى الله عليه وآله) فيما سوف يأتي.

(٤١٨) الطبري ٥ : ٥

أما فيما يتعلق بالوفد الذي بعثه معاوية الى علي، فقد قال ابن كثير -فيما ينقل عن الطبري-:

وبعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري، وشرحبيل بن السمط، ومعن بن يزيد بن الأخنس الى علي; فدخلوا عليه، فبدأ حبيب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً عمل بكتاب الله وثبت لأمر الله، فاستثقلتم حياته، واستبطأتم وفاته، فعدوتم عليه فقتلتموه، فادفع إلينا قتلته إن زعمت أنك لم تقتله، ثم اعتزل الناس فيكون أمرهم شورى بينهم، فيولي الناس أمرهم من جمع عليه رأيهم!

فقال له علي : وما أنت لا اُم لك وهذا الأمر وهذا العزل، فاسكت فإنك لست هناك ولا بأهل لذاك، فقال له حبيب: أما والله لترينى حيث تكره! فقال له علي : وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك، لا أبقى الله عليك إن أبقيت، إذهب فصعّد وصوّب ما بدا لك.

قال ابن كثير : ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلا جرى بينهم وبين علي، وفي صحة ذلك عنهم وعنه نظر، فإن في مطاوي ذلك الكلام من علي ما ينتقص فيه معاوية وأباه، وإنهم إنما دخلوا في الاسلام ولم يزالا في تردد فيه وغير ذلك، وإنه قال في غضون ذلك: لا أقول أن عثمان قُتل مظلوماً ولا ظالماً. فقالوا: نحن نبرأ ممن لم يقل إن عثمان قتل مظلوماً، وخرجوا من عنده، فقال علي: **(إنَّكَ لا تُسمعُ الموتى ولا تُسمعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا وَلَّوا مُدبرينَ * وَما أنتَ بهدي العُميَ عَنْ ضَلالتهمْ إنْ تُسمعُ إلاّ مَنْ يُؤمنُ بآياتِنا فهُمْ مُسلمونَ)**(٤١٩).

ثم قال لأصحابه : لا يكون هؤلاء أولى بالجد في ضلالتهم منكم بالجد في حقكم وطاعة نبيكم، وهذا عندي لا يصح عن علي(رضي الله عنه)!

إن ابن كثير لا يذكر دليله على عدم صحة هذه الأقوال، وليس له أي مستند فيما يدعي إلاّ أن يكون سلطان الهوى قد غلب عليه، فحبّه لمعاوية وبني اُمية يجعله لا يصدق أي كلمة تخدشهم ،وما ذلك كله إلاّ رواسب الإعلام الاُموي الذي خطط له معاوية منذ القرن الأول، حتى وقع ضحيته جلّ المؤرخين المسلمين.

أما كلام علي بن أبي طالب، فهو كما جاء عند الطبري:

أما بعد، فإن الله جلّ ثناؤه بعث محمداً(صلى الله عليه وآله) بالحق، فأنقذ به من الضلالة، وانتاش به الهلكة، وجمع به من الفرقة، ثم قبضه الله إليه وقد أدى ما عليه(صلى الله عليه وآله)، ثم استخلف الناس أبا بكر(رضي الله عنه)، واستخلف أبو بكر

(٤١٩) النمل : ٨٠ ـ ٨١ .

عمر(رضي الله عنه)، فأحسنا السيرة، وعدلا في الأمة، وقد وجدنا عليهما أن تولّيا علينا ونحن آل رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فغفرنا ذلك لهما، وولي عثمان(رضي الله عنه) فعمل بأشياء عابها الناس عليه، فساروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزل اُمورهم فقالوا لي: بايع، فأبيتُ عليهم، فقالوا لي: بايع فان الأمة لا ترضى الاّ بك، وإنّا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس; فبايعتهم، فلم يرعني الاّ شقاق رجلين قد بايعاني، وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله عزّوجل له سابقة في الدين، ولا سلف صدق في الاسلام، طليق ابن طليق، حتى دخلا في الاسلام كارهين، فلا غرو إلاّ خلافكم معه، وانقيادكم له، وتدعون آل نبيكم(صلى الله عليه وآله) الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم، ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً. ألا إني أدعوكم الى كتاب الله عزّوجل وسنّة نبيكم(صلى الله عليه وآله)وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين. أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ولكل مؤمن ومؤمنة ومسلم ومسلمة...[٤٢٠]

وليت شعري ماالذي أنكره ابن كثير من كلام علي بن أبي طالب، فإن كل ما ورد فيه صحيح ومعروف من الجميع، ولكن الهوى يعمي القلوب والأبصار، وسوف نُفصّل القول في أخبار معاوية وأبيه استناداً الى أوثق المصادر، وذلك في فصول لاحقة إن شاء الله.

وعلى الرغم من أن المطّلع على مجريات الأحداث تلك من خلال كتب التاريخ يستطيع وبكل بساطة أن يتعرف على نوايا معاوية الحقيقية، فإن البعض من أصحاب الاتجاه المحافظ المعروف من المؤلفين ما زال يصرّ على إغماض عينيه عن رؤية الحقيقة، أو بالأحرى يخادع نفسه ويحاول اقناع الآخرين أيضاً بسلامة نوايا معاوية ورغبته الفعلية في الاقتصاص من قتلة عثمان لا غير، ومن أصحاب هذا الاتجاه الدكتور امحزون إذ يقول:

ولو افترض أنه اتخذ قضية القصاص والثأر لعثمان ذريعة لقتال علي طمعاً في السلطان، فماذا سيحدث لو تمكن علي من إقامة الحد على قتلة عثمان؟ حتماً ستكون النتيجة خضوع معاوية لعلي ومبايعته له، على أن معاوية إذا كان يخفي في نفسه شيئاً آخر لم يعلن عنه، سيكون هذا الموقف بالتالي مغامرة، ولا يمكن أن يقدم عليه إذا كان ذا أطماع[٤٢١].

(٤٢٠) الطبري ٥ : ٧
(٤٢١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ٢ : ١٥٠

إن هذا الكلام يدل على عدم إحاطة الدكتور امحزون بجميع جوانب الأحداث التي وقعت في زمن عثمان وأدت الى مقتله من جهة، ولا على الأحداث التي اكتنفت فترة ولاية معاوية على الشام في زمن عثمان والترتيبات التي كان يجريها لتثبيت أقدامه طمعاً في القفز على السلطة. إن معاوية لم يكن من السذاجة بحيث يجازف مثل هذه المجازفة لو كان قد خالجه أدنى قدر من الشك في أن عثمان لم يقتل مظلوماً، وأنه لم يكن علي ابن أبي طالب على استعداد لتسليم أي فرد من الذين قتلوا عثمان أو اشتركوا في قتله، وذلك لقناعته التامة بعدم استحقاق هؤلاء إقامة الحد عليهم، ولو خامر علياً أدنى شك في ذلك لما توانى عن إقامة الحد عليهم منذ اليوم الأول لخلافته لأنه وكما هو معروف من سيرته، كان لا يتهاون في هذه الأمور، ولقد اصطدم بعثمان منذ اليوم الأول لخلافة الأخير، لأنه رفض إقامة الحد على عبيدالله بن عمر لقتله الهرمزان. فقد كان معاوية متحققاً من أن علياً لن يسلمه أحداً من قتلة عثمان، لأن ذلك يتنافى مع مبادئه في معاقبة الأبرياء، فتشبث بهذه الحجة وعض عليها نواجذه لأنها كانت وسيلته الوحيدة لخداع أهل الشام وجرّهم الى محرقته وهو يعلم جيداً أنه هو نفسه قد جعل عثمان كبش الفداء على مذبح مطامعه.

وليس أدل على كلامنا هذا من موقف علي بن أبي طالب من الخوارج، فقد روى أبو عبيدة قال:

استنطقهم علي(عليه السلام) بقتل عبدالله بن خباب، فأقرّوا به، فقال: انفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبة كتيبة; فتكتبوا كتائب، وأقرّت كل كتيبة بمثل ما أقرت به الأخرى من قتل ابن خبّاب وقالوا: ولنقتلنك كما قتلناه! فقال علي: والله لو أقرّ أهل الدنيا كلهم بقتله هكذا، وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم، ثم التفت الى أصحابه فقال لهم: شدّوا عليهم فأنا أول من يشدّ عليهم(٤٢٢).

وينقل الدكتور امحزون عن ابن حزم قوله :

ولو أن معاوية بايع علياً لقوي به على أخذ الحق من قتلة عثمان، فصح أن الاختلاف هو الذي أضعف يد علي عن انفاذ الحق عليهم، ولولا ذلك لأنفذ الحق عليهم كما أنفذه على قتلة عبدالله بن خباب إذ قدر على مطالبة قتلته(٤٢٣).

(٤٢٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢٨٢
(٤٢٣) تحقيق مواقف الصحابة ٢ : ١٦٠ عن الفصل في الملل والنحل ٤ : ١٦٢

ولكن الدكتور امحزون ومن قبله ابن حزم فاتهما أن علياً كان يستطيع أن ينفذ الحق على قتلة عثمان لأنهم لم يكونوا أقوى شوكة من الخوارج، ولكن علم علي بعدم استحقاقهم ذلك هو السبب الحقيقي في توانيه عن مقاصصتهم، وعلم معاوية بذلك أيضاً هو الذي منعه من وضع يده في يد علي للسبب نفسه، فلو كانت نوايا معاوية سليمة لبايع علياً أولاً ثم طالب بمحاكمة قتلة عثمان، ولكنه أبى ذلك رغم الوساطات والنصائح، لأنه كان يعلم علم اليقين أن حجته داحضة، وأنه لن ينال ما يريد إذا ما استجاب لعلي بن أبي طالب، لأنه سوف يضطر الى مبايعة الخليفة والتنازل عن ولاية الشام كما أمره الخليفة، وفي نفس الوقت فإن التحقيق مع قتلة عثمان لن يكون في صالحه، ولن يثبت عليهم حق، فيعود معاوية بخفي حنين!

الموقف من عمّار

ذكرنا سابقاً أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد أنذر أصحابه الفتن التي سوف تُقبل عليهم كقطع الليل المظلم، وأن النبي(صلى الله عليه وآله) قد حدّد مسارات لأمته تهتدي بها الى الطريق المستقيم، حتى قال الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان - صاحب سرّ رسول الله(صلى الله عليه وآله)- وهو يرى الأصحاب يخوضون غمرات الفتن:

والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا! والله ما ترك رسول الله(صلى الله عليه وآله) من قائد فتنة الى أن تنقضي الدنيا، بلغ من معه ثلثمائة فصاعداً، إلاّ قد سمّاه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته!![٤٢٤].

وقال أيضاً : قام فينا رسول الله(صلى الله عليه وآله) قائماً، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك الى قيام الساعة إلاّ حدّثه، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه[٤٢٥].

فأصحاب النبي(صلى الله عليه وآله) قد سمعوا ووعوا، ولكن بعضهم نسي أو تناسى، حتى سارت الأمور هذا المسار.

وقد أدى حذيفة بن اليمان رسالته على أكمل وجه، فقبل أن يتوفى بأربعين يوماً تقريباً أتاه الناس وقالوا له: «إن أمير المؤمنين عثمان قد قُتل، فما تأمرنا؟ قال: آمركم أن تلزموا عماراً. قالوا: إن عماراً لا يفارق علياً! قال: إن الحسد هو أهلك الجسد،

(٤٢٤) سنن أبي داود ٤ : ٧٣ كتاب الفتن والملاحم.
(٤٢٥) المصدر السابق .

وإنما ينقّركم من عمار قربه من علي; فوالله لعليٌّ أفضل من عمار أبعد ما بين التراب والسحاب، وإن عماراً لمن الأحباب، وهو يعلم أنهم إن لزموا عماراً كانوا مع علي(عليه السلام)[٤٢٦].

وقال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**عمّار ما عُرض عليه أمران إلاّ اختار الأرشد منهما**»[٤٢٧].

فالنبي(صلى الله عليه وآله) قد أخبر بأن الفرقة التي فيها عمار بن ياسر هي الفرقة المحقة إذا اختلف المسلمون فيما بينهم، ومن المعلوم أن عمار بن ياسر كان في فئة علي بن أبي طالب، ولم يفارقه حتى اللحظة الأخيرة من حياته، عندما سقط قتيلا في حرب صفين وهو يقاتل فئة معاوية.

يقول ابن كثير :

وهذا مقتل عمار بن ياسر(رضي الله عنه) مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قتله أهل الشام، وبان وظهر بذلك سرّ ما أخبر به الرسول(صلى الله عليه وآله) من أنه تقتله الفئة الباغية، وبان بذلك أن علياً محق وأن معاوية باغ، وما في ذلك من دلائل النبوة.

ذكر ابن جرير من طريق أبي مخنف، أن عماراً قال يومئذ: من يبتغي رضوان ربه ولا يلوي الى مال ولا ولد؟ قال: فأتته عصابة من الناس، فقال: أيها الناس، اقصدوا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يبتغون دم عثمان ويزعمون أنه قُتل مظلوماً، والله ما قصدهم الأخذ بدمه ولا الأخذ بثأره! ولكن القوم ذاقوا الدنيا واستحلوها، واستمرؤا الآخرة فقلوها، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم وشهواتهم، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة الناس لهم ولا الولاية عليهم، ولا تمكنت من قلوبهم خشية الله التي تمنع من تمكنت من قلبه عن نيل الشهوات، وتعقله عن إرادة الدنيا وطلب العلو فيها، وتحمله على اتباع الحق والميل الى أهله، فخدعوا أتباعهم بقولهم: إمامنا قتل مظلوماً. ليكونوا بذلك جبابرة ملوكاً، وتلك مكيدة بلغوا بها ما ترون، ولولا ذلك ما تبعهم من الناس رجلان، ولكانوا أذل وأخسّ وأقل، ولكن قول الباطل له حلاوة في أسماع الغافلين، فسيروا الى الله سيراً جميلا، واذكروا ذكراً كثيراً.

ثم تقدم فلقيه عمرو بن العاص وعبيدالله بن عمر، فلامهما وأنّبهما ووعظهما، وذكروه من كلامه لهما ما فيه غلظة، فالله أعلم.

(٤٢٦) مجمع الزوائد ٧ : ٢٢٣ وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .
(٤٢٧) المستدرك على الصحيحين ٣ : ٣٨٨ ، جامع الترمذي ٥ : ١٣٣ ، مسند أحمد ٦ : ١١٣ ، سنن ابن ماجة ١ : ٦٣ .

ثم يستكمل ابن كثير فصول القصة، فيروي عن ابن ديزيل ابراهيم بن الحسن، بسنده الى الأحنف بن قيس، قال: ثم حمل عمار بن ياسر عليهم، فحمل عليه ابن جوى السكسكي وأبو الغادية الفزاري، فأما أبو الغادية فطعنه، وأما ابن جوى فاحتزّ رأسه.

وقد كان ذو الكلاع سمع قول عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله)لعمار بن ياسر: «**تقتلك الفئة الباغية، وآخر شربة تشربها صاع من لبن**» فكان ذو الكلاع يقول لعمرو: ويحك، ما هذا يا عمرو؟! فيقول له عمرو: إنه سيرجع إلينا. قال: فلما أُصيب عمار بعد ذو الكلاع، قال عمرو لمعاوية: ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحاً، بقتل عمار أو ذي الكلاع، والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمار، لمال بعامة أهل الشام، ولأفسد علينا جندنا(٤٢٨).

فعمرو بن العاص الذي يروي حديث مقتل عمار بن ياسر بيد الفئة الباغية، وهو يرى عماراً في الجانب الآخر مع علي، ثم لا يكتفي بذلك، بل يخدع أبا الكلاع الذي استغرب من وجود عمار في الطرف الآخر من ساحة المعركة -بعد أن كانت أكاذيب معاوية قد أضلته كما أضلت أهل الشام- فيقول له بأن عماراً سيعود إلينا، بل ويعبّر عن سروره بمقتل كلا الرجلين بعد أن تحقق بأن الفئة التي يقاتل تحت لوائها هي الفئة الباغية لأنها قتلت عماراً، أما زعيمه معاوية فلم يكتف بذلك، بل حاول أن يقلب الأمور رأساً على عقب -كما هي عادة المزيفين-، حيث يروي ابن كثير عن ابن ديزيل- مستكملا قص الحوادث- قال:

«فبلغني أن معاوية قال: إنما قتله من أخرجه، يخدع بذلك أهل الشام»!

ولنا هنا وقفة مع الذين يستشهدون بالآية الكريمة حول قتال الطائفتين، ويدّعون أن فئة معاوية لم تخرج من الإيمان ببغيها، وكأنهم لا يفقهون قوله تعالى (**فإنْ فاءتْ فأصلحُوا بَينَهُما**)، فهل فاءت فئة معاوية ورجعت عن بغيها بعد أن تبين وجه الحق بمقتل عمار بن ياسر على يديها؟ ولو أننا سلّمنا بأن معاوية وفئته كانوا مخطئين متأولين -كما يدعي الذين يلتمسون الأعذار لمعاوية- فإن هذا الخطأ قد تكشف وظهرت الحقائق جليّة، فلو أن معاوية أوقف الحرب بعد مقتل عمار، وذهب الى علي وبايعه معتذراً عما بدر منه واستغفر الله لكان الأمر كما يدعي أُولئك، ولصدّقنا أن معاوية كان مخطئاً متأولا، أما أن يرى ما يرى ثم لا يكتفي بالإصرار على بغيه، بل يخدع رعيته من أهل الشام، حتى يقول لوزيره في البغي عمرو بن العاص، حينما

(٤٢٨) البداية والنهاية ٧ : ٢٦٧

أخبره عمرو بحديث النبي(صلى الله عليه وآله) حول مقتل عمار بيد الفئة الباغية : إنك شيخ أخرق ولا تزال تحدّث بالحديث وأنت تدحض في بولك، أو نحن قتلنا عماراً؟ إنما قتل عماراً من جاء به!

قال : فخرج الناس من فساطيطهم وأخبيتهم وهم يقولون: إنما قتل عماراً من جاء به، فلا أدري من كان أعجب، هو أو هم![٤٢٩].

وقد قال علي بن أبي طالب عند سماعه ذلك: فيكون رسول الله(صلى الله عليه وآله) قد قتل حمزة لأنه أخرجه!

فمعاوية لم يكتف بالإصرار على البغي، بل راح يخدع الناس بأضاليله، مع تأكيد النبي(صلى الله عليه وآله) على حرمة ذلك، وتوعد فاعله بالعذاب، فيما أخرج المحدثون عن معقل بن يسار، عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: **«ما من وال يلي رعيةً من المسلمين، فيموت وهو غاشٌ لهم، إلاّ حرّم الله عليه الجنة!»**[٤٣٠].

فهل يبقى بعد ذلك كلام للعاذرين لمعاوية بدعوى التأول والاجتهاد؟

القاسطون

إن أصحاب الاتجاه المحافظ من المؤلفين الذين انساقوا وراء الإعلام الأموي ومن ناصرهم من الزنادقة وغيرهم، يصرون على تبرئة معاوية وحزبه من تبعات الجرائم التي ارتكبوها بحق المسلمين، بخروجهم على الخلافة الشرعية وإشعالهم نار الحروب التي ذهب ضحيتها عشرات الألوف من المسلمين، وأنهكت قوى الدولة الاسلامية وتسببت في توقف الفتوحات مدة من الزمن، وجعلت بلاد المسلمين هدفاً لأعدائهم.

ويحاول أصحاب هذا الاتجاه التشبث بقشة الغريق وهم يحاولون إثبات صفة المجتهد المخطئ على معاوية، ويجعلونه مأجوراً على أعماله هذه أجراً واحداً كما قال ابن العربي وغيره، ويصرّون على أن قتال معاوية لعلي لم يكن بهدف الوثوب على السلطة، وفي هذا الصدد يقول الشيخ الخضري:

فالخلاف بينهما ليس على الإمامة، وإنما كان حول قتلة عثمان، يقول الغزالي في هذا الصدد: وما جرى بين علي ومعاوية كان مبنياً على الاجتهاد، لا منازعة من معاوية في الإمامة![٤٣١].

(٤٢٩) البداية والنهاية ٧ : ٢٦٧ .
(٤٣٠) صحيح البخاري ٩ : ٨٠
(٤٣١) محاضرات في التاريخ الإسلامي : ٧١

ويقول ابن كثير - بعد أن ينقل حديث النبي(صلى الله عليه وآله) في الخوارج-:

فهذا الحديث من دلائل النبوة، إذ وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين. أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب علي أدنى الطائفتين الى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنّة والجماعة، أن علياً هو المصيب وإن كان معاوية مجتهداً، وهو مأجور إن شاء الله، ولكن علي هو الإمام فله أجران، كما ثبت في صحيح البخاري ومن حديث عمرو بن العاص، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: **«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»**(٤٣٢).

هكذا جرت العادة بالتلاعب بألفاظ الحديث -كما قدمنا- لاثبات أحلام الفئة الباغية، بل والادعاء إنها على الحق أيضاً! وليس هذا في الحقيقة هو محل الاشكال، لأن من المعلوم أن كل من نطق بالشهادتين فهو مسلم، ولكن هل هذا يعفيه من مسؤولياته؟ وماذا لو بقي على الشهادتين ولكنه عمل بأعمال أهل النار؟ وكيف يمكن تبرير أعمال معاوية وأهل الشام على ضوء قول النبي(صلى الله عليه وآله):

عن عبدالله، قال النبي(صلى الله عليه وآله): **«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»**.

وعن ابن عمر، أنه سمع النبي(صلى الله عليه وآله) يقول: **«لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض!»**.

وعن جرير، عن جده جرير، قال: قال لي رسول الله(صلى الله عليه وآله) في حجة الوداع: **«استنصت الناس»**، ثم قال: **«لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»**(٤٣٣).

بل إن النبي(صلى الله عليه وآله) اعتبر مجرد التهديد بالسلاح أو رفعه في وجه المسلم خروجاً عن الملّة، فعن عبدالله بن عمر(رضي الله عنه)، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: **«من حمل علينا السلاح فليس منا»**.

وعن أبي موسى عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: **«من حمل علينا السلاح فليس منا»**.

وعن أبي هريرة، عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: **«لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار»**(٤٣٤).

فإذا كان النبي(صلى الله عليه وآله) ينهى بشدة عن مجرد الاشارة بالسلاح على المسلم ولو مزاحاً، ويحذّر بأن ذلك مدعاة للوقوع في النار، فما بالك بمن جيّش الجيوش،

(٤٣٢) البداية والنهاية ٧ : ٢٧٩

(٤٣٣) هذه الأحاديث في : صحيح البخاري ٩ : ٦٣ ، ٥ : ٢٢٤ ، ومسند أحمد ٢ : ١٠٤ ، ١ : ٤٣٩ ، وسنن ابن ماجة ١ : ٥٢

(٤٣٤) صحيح البخاري ٩ : ٦٢ كتاب الفتن ، باب قول النبي(صلى الله عليه وآله) : من حمل علينا السلاح فليس منا!

وقصد بها الخروج على جماعة المسلمين المنضوين تحت لواء خليفتهم الشرعي - وأدى ذلك الخروج الى قتل اُلوف المسلمين، وفيهم خيار الصحابة وصلحاء التابعين- وهو يعلم جيداً أنه ما خرج إلاّ في طلب الباطل، ثم يخدع من انضوى تحت إمرته، ويزيّف لهم الوقائع، ويوحي إليهم زخرف القول، بأنه إنما خرج يطلب حقاً! فيؤدي عمله الى تفاني الناس من الجهتين، كل ذلك في طلب الدنيا ورغبة في الملك، ثم يأتي قوم يردّون كل تلك الأحاديث التي تقدمت، والتي تبيّن للأمة حقيقة الأمر، وتحذّر من التمادي في الغي، لكنهم يصمّون آذانهم عن نداء الحقيقة، فيتبارون في خلق المبررات لمعاوية وحزبه، ويخترعون له نظرية المجتهد المخطئ، من أجل إقرار بغيه، هذا مع العلم أن لفظ الحديث لا يؤدي المعنى المنحرف الذي يذهب إليه هؤلاء، فقوله(صلى الله عليه وآله): «**إذا اجتهد الحاكم**»، إن كان المقصود به هو القاضي الذي يفصل بين قضايا الناس، فهو لا ينطبق على معاوية وأمثاله، وأما إذا كان المقصود به من يتولى الحكم، فهو أيضاً لا ينطبق على معاوية، فإن الحاكم إما أن يكون المقصود منه الخليفة، ولم يكن معاوية خليفة، أو الوالي، فمعاوية لم يكن والياً شرعياً بعد أن عزله الخليفة الشرعي، وكان الواجب يحتم عليه أن يتخلى عن منصبه امتثالا لأمر الإمام، فكان تشبثه بولاية الشام -رغم أمر الخليفة- أولى علامات البغي، وهي وحدها كانت كافية لاعطاء الحق للخليفة بمحاربته، لا كما يدعي محب الدين الخطيب وأمثاله.

ويروي ابن كثير عن الشعبي أنه قال في الطائفتين :

«هم أهل الجنة، لقي بعضهم بعضاً فلم يفر أحد من أحد».

يقول ابن كثير هذا، وهو يروي عن المحدثين، في قصة بناء المسجد، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال لعمار: «**ويح عمار، تقتله الفئة الباغية، يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار**»(٤٣٥).

فإذا كانت الفئة الباغية من أهل الجنة، فكيف يدعون عماراً الى النار، وهل يدعو أهل الجنة الى النار؟!

ويصطدم أصحاب الاتجاه المحافظ بعقبة تلو اُخرى، ويحاولون التملص منها بأي ثمن، لمجرد اثبات أن أهل الشام ليسوا هم القاسطين الذين ذكرهم رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فقد قال ابن كثير:

فأما الحديث الذي قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا اسماعيل بن موسى، ثنا الربيع بن سهل، عن سعيد بن عبيد، عن علي بن ربيعة، قال: سمعت علياً على منبركم هذا يقول: عهد إليّ النبي(صلى الله عليه وآله) أن اُقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين.

(٤٣٥) صحيح البخاري ١ : ١٢٢ باب بناء المسجد ، صحيح مسلم ٤ : ٢٢٣٦ ، مسند أحمد ٣ : ٩١ ، المستدرك على الصحيحين ٣ : ٣٨٧ ، سنن البيهقي ٨ : ١٨٩

وقد رواه أبو بكر بن المقرئ، عن الجد بن عبادة البصري، عن يعقوب ابن عباد، عن الربيع بن سهل الفزاري به. فإنه حديث غريب ومنكر، على أنه قد روي من طرق عن علي وعن غيره، ولا تخلو واحدة منها عن ضعف، والمراد بالناكثين يعني أهل الجمل، وبالقاسطين أهل الشام، وأما المارقون فالخوارج لأنهم مرقوا من الدين...[٤٣٦]

ثم يورد ابن كثير مجموعة من الأحاديث التي أخبر النبي(صلى الله عليه وآله) فيها بأن علياً يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين عن عدد من الحفاظ مثل ابن عدي والخطيب البغدادي وابن عساكر والحاكم النيسابوري...الخ[٤٣٧]، لكنه لا يشير الى أن الأحاديث الضعيفة تتقوى بتعدد طرقها، ولكنه عندما يروي فضيلة لأحد الصحابة بطرق قليلة وضعيفة جداً، يقول: فهذه طرق تقوي بعضها بعضاً[٤٣٨]، ولكنه أمام هذه المشكلة التي تكشف أن أهل الشام هم القاسطون، وينطبق عليهم قول الله سبحانه وتعالى: (**وَأَمّا القاسِطونَ فكانُوا لجهنَّمَ حَطباً**)[٤٣٩]، فهو يحاول تضعيف الحديث رغم تعدد طرقه، مضافاً الى كل ذلك، فإن ابن كثير أغفل طريقاً آخر للحديث لا يتطرق إليه الضعف، فقد أخرج الحافظ نورالدين الهيثمي، عن علي قال: عهد إليّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وفي رواية: أمرت بقتال الناكثين، فذكره[٤٤٠].

البدريون والرضوانيون

من أساليب التزييف الأخرى التي يتّبعها أصحاب الاتجاه المحافظ المعروف، محاولة التقليل من شأن علي بن أبي طالب، بتقليل عدد الصحابة الأوائل -وبخاصة البدريين والرضوانيين- الذين شاركوه حروبه في صفين وغيرها، معتقدين أنهم يسحبون بذلك الشرعية من حروب علي، وأنه لم يكن من بين أنصاره عدد يُعتدّ به من الصحابة، لقناعتهم بأنه لم يكن مصيباً في حروبه، وبعضهم صرّح بذلك علناً، فقد قال ابن كثير:

وهاجت الفتنة وأصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) عشرات الألوف، فلم يحضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين. وقال الإمام أحمد: حدثنا اُمية بن خلد، قال لشعبة: إن

(٤٣٦) البداية والنهاية ٧ : ٣٠٤

(٤٣٧) الكامل في ضعفاء الرجال ٢ : ٦٣٦ ، تاريخ بغداد ٨ : ٣٤٠ ، تاريخ ابن عساكر ٤٢ : ٤٧٠ ، المستدرك ٣ : ١٣٩ .

(٤٣٨) في قصة سارية الجبل .

(٤٣٩) الجن : ١٥ .

(٤٤٠) مجمع الزوائد ٧ : ٢٣٨ وقال : رواه البزار والطبراني في الأوسط، وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح، غير الربيع بن سعيد ووثقه ابن حبان !

أبا شيبة روى عن الحكم عن عبدالرحمان بن أبي ليلى، قال: شهد صفين من أهل بدر سبعون رجلا، فقال: كذب أبو شيبة، والله لقد ذاكرنا الحكم في ذلك. فما وجدناه شهد صفين من أهل بدر غير خزيمة بن ثابت! وقد قيل إنه شهدها من أهل بدر سهل بن حنيف، وكذا أبو أيوب الأنصاري، قاله شيخنا العلاّمة ابن تيمية في كتاب الرد على الرافضة، وروى ابن بطة باسناده عن بكير بن الأشج أنه قال: أما إن رجالا من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد قتل عثمان، فلم يخرجوا إلاّ الى قبورهم![٤٤١]

أما أن أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) كانوا عشرات الألوف، ولم يشهد الفتنة منهم إلاّ عدد قليل، فان هذا لا يعني أنهم لم يشتركوا في الفتنة أو يسهموا فيها، فإن سكوتهم على ما كان يحدث تحت سمعهم وبصرهم، وخذلانهم عثمان بن عفان ليدل على موقفهم السلبي من عثمان، وقد أثبت ذلك عدد كبير من الصحابة ممن شهدوا الوقائع، منهم على سبيل المثال أحد شهود العيان، معترفاً بذلك أمام معاوية بن أبي سفيان نفسه، فقد ورد أبو الطفيل عامر بن واثلة -وهو آخر الصحابة موتاً- على معاوية بن أبي سفيان، فقال له معاوية: أنت أبو الطفيل عامر بن واثلة؟ قال: نعم. قال معاوية: أكنت ممن قتل عثمان أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكن ممن شهده فلم ينصره. قال: ولم؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار! فقال معاوية: أما والله إن نصرته كانت عليهم وعليك حقاً واجباً وفرضاً لازماً، فإذا ضيعتموه فقد فعل الله بكم ما أنتم أهله، وأصاركم الى ما رأيتم. فقال أبو الطفيل: فما منعك يا أمير المؤمنين إذ تربّصت به ريب المنون أن تنصره ومعك أهل الشام! قال معاوية: أو ما ترى طلبي لدمه نصرة له؟! فضحك أبو الطفيل وقال: بلى، ولكنك وإياه كما قال عبيد بن الأبرص:

لأعرفنك بعد الموت تندبني *** وفي حياتي ما زودتني زادي[٤٤٢]

فأبو الطفيل يعبّر عن موقفه وموقف المهاجرين والأنصار -وهم عشرات الألوف- قِبل عثمان وعدم تحرّجهم في خذلانه والامتناع عن نصرته.

أما الادعاء بأنه لم يكن مع علي بن أبي طالب غير نفر قليل من البدريين والرضوانيين، فإن هناك روايات عديدة تثبت عكس ذلك. فعن عبدالرحمان ابن أبزى، قال: شهدنا مع علي ثمانمائة ممن بايع بيعة الرضوان، قال: قُتل منهم ثلاثة وستون، منهم عمار بن ياسر[٤٤٣].

(٤٤١) البداية والنهاية ٧ : ٢٥٢

(٤٤٢) مروج الذهب ٣ : ٢٦ ، تاريخ دمشق ٢٦ : ١١٦ ، مختصر تاريخ دمشق ١١ : ٢٩٣ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي : ١٨٦

(٤٤٣) تاريخ خليفة بن خياط : ١٤٥ ، ١٤٨ ، وقال الذهبي : سنده صحيح ، ورجاله بين الثقة والصدوق ، تاريخ الاسلام ٣ : ٥٤٥ .

وعن سعيد بن جبير قال : كان مع علي يوم الجمل ثمانمائة من الأنصار وأربعمائة ممن بايع بيعة الرضوان.

وعن الأعمش : والله تعجبت لعلي وأصحابه، إنه كان مع علي أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)، وكان مع معاوية أعاريب اليمن ولخم وجذام(٤٤٤).

وقال السُدّي : شهد مع علي يوم الجمل (١٣٠) بدرياً، وسبعمائة من أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)، وقُتل بينهما ثلاثون ألفاً، لم تكن مقتلة أعظم منها. وكان الشعبي يبالغ ويقول: لم يشهدها إلاّ علي وعمار وطلحة والزبير من الصحابة!(٤٤٥).

وقال الزرقاني في نهج المسالك : أتى علي(رضي الله عنه) في أهل العراق في سبعين ألفاً، فيهم تسعون بدرياً وسبعمائة من أهل بيعة الرضوان وأربعمائة من سائر المهاجرين والأنصار، وخرج معاوية في أهل الشام في خمسة وثمانين ألفاً، ليس فيهم من الأنصار إلاّ النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد!

وقد أخرج ابن كثير عن ابن ديزيل من طريق عمرو بن سعد باسناده، أن قرّاء اهل العراق وقرّاء أهل الشام عسكروا ناحية وكانوا قريباً من ثلاثين ألفاً، وأن جماعة من قرّاء العراق منهم: عبيدة السلماني، وعلقمة بن قيس، وعامر ابن عبد قيس، وعبدالله بن عقبة بن مسعود وغيرهم، جاءوا الى معاوية فقالوا له: ما تطلب؟ قال: أطلب بدم عثمان! قالوا: فمن تطلب به؟ قال: علياً! قالوا: أهو قتله؟ قال: نعم! وآوى قتلته(٤٤٦).

فانصرفوا إلى علي، فذكروا له ما قال، فقال: كذب! لم أقتله، وأنتم تعلمون أني لم أقتله. فرجعوا الى معاوية فقال: إن لم يكن قتله بيده، فقد أمر رجالا! فرجعوا إلى علي فقال: والله ما قتلت ولا أمرت ولا ماليت. فرجعوا، فقال معاوية: فإن كان صادقاً فليقدنا من قتلة عثمان فإنهم في عسكره وجنده. فرجعوا، فقال علي: تأوّل القوم عليه القرآن في فتنة، ووقعت الفرقة لأجلها، وقتلوه في سلطانه وليس لي عليهم سبيل، فرجعوا الى معاوية فأخبروه، فقال: إن كان الأمر على ما يقول، فماله أنفذ الأمر دوننا من غير مشورة منا ولا ممّن هاهنا؟! فرجعوا الى علي فقال علي: إنما الناس مع المهاجرين والأنصار، فهم شهود الناس على ولايتهم وأمر دينهم، رضوا بي وبايعوني، ولستُ استحل أن أدع مثل معاوية يحكم على الأمة ويشق عصاها.

(٤٤٤) التاريخ الصغير : ١٢٥ بسند صحيح .

(٤٤٥) سير اعلام النبلاء ٣ : ٤٨٤

(٤٤٦) قال محب الدين الخطيب في الهامش (٢٨٢) من كتاب العواصم من القواصم «ليس في أهل السنّة رجل واحد يتهم علياً بقتل عثمان، لا في زماننا، ولا في زمانه»!

فرجعوا الى معاوية فقال: ما بال من هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا في هذا الأمر؟ فرجعوا فقال علي: إنما هذا للبدريين دون غيرهم، وليس على وجه الأرض بدري إلاّ وهو معي! وقد بايعني وقد رضي، فلا يغرنكم من دينكم وأنفسكم(٤٤٧).

فها هنا أيضاً نلاحظ أن معاوية يحاول التشبث بأي عذر للتوصل الى غرضه، ومن العجيب أنه يستنكر إنفاذ أمر البيعة دون علمه ومشورته، وهو ليس من المهاجرين ولا الأنصار، ولا سابقة له، بل هو طليق من الطلقاء الذين لا تجوز لهم الخلافة ولا حتى إبداء الرأي فيها!(٤٤٨).

أما احتجابه بمن معه من المهاجرين والأنصار فهو مدعاة للسخرية، فضلا عن أنه لم يكن معه ولا بدري واحد، إذ أكد علي بن أبي طالب على أن جميع البدريين معه! وقد وصف علي بن أبي طالب الفئة الباغية بقوله لأصحابه: قاتلوا من حاد الله ورسوله وحاول أن يطفئ نور الله، فقاتلوا الخاطئين الضالّين القاسطين الذين ليسوا بقرّاء قرآن ولا فقهاء في الدين ولا علماء في التأويل، ولا لهذا الأمر بأهل من سابقة الاسلام، والله لو ولّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل!(٤٤٩).

والعجيب بعد كل هذه الأدلة التي تكشف عن نوايا معاوية وأغراضه، أن تجد بعض المؤلفين المعاصرين يلوّحون بما يعتمل في أنفسهم، وتنضح أقلامهم بما يحاولون التستر عليه من مكنونهم دون جدوى، فالدكتور امحزون يحاول كسلفه محب الدين الخطيب وغيره من القدماء كابن كثير وغيره أن يبرئ معاوية، ويلقي التبعة على علي بن أبي طالب، إذ يقول:

وقد كان في إمكان علي(رضي الله عنه) اتخاذ وسائل أُخرى غير السيف لتهدئة الأحوال وجمع الكلمة، وللصلح أبواب كثيرة، ولو بالتنازل عن بعض الحق، إذ لا يلزم من كونه إماماً شرعياً أن يكون قتاله لأهل الجمل وصفين صواباً وحقاً باطلاق!!(٤٥٠).

إن المشكلة تتلخص في أن بعض الباحثين وهم يتمسكون بجزء من القضية ويتشبثون بروايات معينة دون غيرها، ويحاولون أن يجعلوها هي الأساس لمتبنياتهم، لكنهم وللاشكالات المعقدة التي تطرحها هذه الروايات، سرعان ما يجدون أنفسهم

(٤٤٧) البداية والنهاية ٧ : ٢٥٧

(٤٤٨) الاستيعاب ٢ : ٨٥ ، أسد الغابة ٤ : ٣٨٧ ، الطبقات الكبرى ٣ / ١ / ٢٤٨ .

(٤٤٩) الكامل لابن الاثير ٣ : ٣٣٩ .

(٤٥٠) تحقيق مواقف الصحابة ٢ : ١٧٠

مضطرين لمخالفتها دون وعي منهم، فهل نسي الدكتور امحزون أنه حتى روايات سيف بن عمر نفسها حول معركة الجمل -والتي يعتمدها الدكتور امحزون- تقول بأن علياً بذل الصلح لأهل الجمل، ولم يبدأهم بقتال، ولكن السبائية هم الذين انشبوا الحرب كما تدعي الرواية!

أما إذا كان الدكتور امحزون يعلم - في قرارة نفسه- أن تلك الروايات مكذوبة، فإن الروايات التي جاءت عن الثقات، والتي سبق وأن أوردناها حول معركة الجمل، تؤكد أن علياً قد بذل لهم الصلح أيضاً، ووقف ثلاثة أيام يفاوضهم ويعظهم وينصحهم، وأنه دعا طلحة والزبير ووعظهما، وأنه لم يبدأ الحرب حتى دعاهم الى كتاب الله، ولكنهم هم الذين بدأوه القتال! وهلاّ كان الدكتور امحزون يوجّه هذه الملاحظة الى موقف معاوية وينصحه بالتنازل عن بعض حقه - إن كان معه شيء من الحق أصلا- ومع ذلك فإن الدكتور امحزون يعود فيناقض نفسه حيث يقول:

وذكر يحيى بن سليمان الجعفي في (كتاب صفين) بسند جيد عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع علياً في الخلافة; أو أنت مثله! قال: لا، وإني أعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوماً وأنا ابن عمه ووليه أطلب بدمه؟ فأتوا علياً فقولوا له يدفع لنا قتلة عثمان.

فأتوه فكلموه، فقال: يدخل في البيعة ويحاكمهم إلي، فامتنع معاوية[٤٥١].

فلماذا لم يتنازل معاوية عن شرطه بدفع قتلة عثمان إليه ليقتلهم كما هي عادة الجاهلية التي نهى عنها الإسلام، ولماذا ظل يرفض طلب الخليفة المنسجم مع مبادئ الإسلام، فيدخل في الطاعة أولا، ثم يحتكم الى الخليفة في قتلة عثمان؟ إن السبب واضح تماماً، إذ أن معاوية كان يعلم أنه يراهن على جواد خاسر، ولكن لم تكن لديه ذريعة اُخرى يحقق بها مطامعه.

وأخيراً فإن هؤلاء المؤلفين لو كانوا يبتغون الحقيقة كما هي من دون ميل مع الهوى لوجدوها، ولكنهم غضوا أنظارهم عنها، وحاولوا أن يجعلوا معاوية محقاً في دعواه بأي ثمن، ولو بافتعال ذريعة التأول الخاطئوقد عبّر علي بن أبي طالب عن موقف هؤلاء بقوله: وحزبنا حزب الله، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن ساوى بيننا وبين عدونا فليس منا[٤٥٢].

(٤٥١) تحقيق مواقف الصحابة ٢ : ٤٧ عن ابن حجر في الفتح ١٣ : ٨٦
(٤٥٢) كنز العمال ٦ : ٨٩

قضية التحكيم

انتهت معركة صفين بعدما كاد جيش علي أن يسحق جيش معاوية، لولا الحيلة التي اهتدى إليها عمرو بن العاص برفع المصاحف، والادعاء بتحكيم القرآن، والتي انطلت على قسم من جيش علي، فأجبروه على الموافقة على التحكيم وإيقاف الحرب، وإرسال حكمين على أن يتحاكما الى كتاب الله.

هذا ملخص ما جرى قبل التحكيم، ولا أريد الدخول في تفاصيل السياق التاريخي لها، إلاّ أنني أود أن أتعرض أولا الى رأي القاضي ابن العربي حولها، لأنه جاء برأي غريب فيها، حيث قال في إحدى قواصمه:

وقد تحكم الناس في التحكيم، فقالوا فيه مالا يرضي الله، وإذا لاحظتموه بعين المروءة - دون الديانة- رأيتم أنها سخافة حمل على سطرها في الكتب في الأكثر عدم الدين، وفي الأقل جهل بيّن.

والذي يصح في ذلك، ما روى الأئمة كخليفة بن خياط والدارقطني: أنه لما خرج الطائفة العراقية في مائة ألف، والشامية في سبعين أو تسعين ألفاً، نزلوا على الفرات بصفّين، اقتتلوا في أول يوم وهو الثلاثاء على الماء، فغلب أهل العراق عليه، ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين، حتى يكون الرجلان يحكمان بين الدعويين بالحق، فكان من جهة علي الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت، ورفعت المصاحف من أهل الشام، ودعوا الى الصلح، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها الى رجل، أبو موسى، ومن جهة معاوية عمرو بن العاص.

وكان أبو موسى رجلا تقياً ثقفاً فقيهاً عالماً(٤٥٣).

وقالوا إنهما لما اجتمعا بأذرح من دومة الجندل وتفاوضا، اتفقا على أن يخلعا الرجلين، فقال عمرو لأبي موسى : اسبق بالقول فتقدم فقال: إني نظرت فخلعت علياً عن الأمر، ولينظر المسلمون لأنفسهم كما خلعت سيفي هذا من عاتقي - وأخرجه من عنقه فوضعه في الأرض-، وقام عمرو فوضع سيفه في الأرض وقال: إني نظرت فأثبت معاوية في الأمر كما أثبت سيفي هذا في عاتقي، وتقلده، فأنكره أبو موسى، فقال عمرو: كذلك اتفقنا. وتفرق الجمع على ذلك الاختلاف.

ثم قال ابن عربي في (عاصمة):

هذا كله كذب صراح! ما جرى منه حرف قط! وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة ووضعته التاريخية للملوك، فتوارثته أهل المجانة والجهارة بالمعاصي والبدع، وإنما

(٤٥٣) وماذا عن عمرو بن العاص ؟!

الذي روى الأئمة الثقات الاثبات: أنهما لما اجتمعا للنظر في الأمر في عصبة كريمة من الناس، منهم ابن عمر ونحوه، عزل عمرو معاوية!

ذكر الدارقطني بسنده الى حصين بن المنذر: لما عزل عمرو معاوية، جاء حصين بن المنذر فضرب فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية، فبلغ ثناه معاوية، فأرسل إليّ فقال: إنه بلغني عن هذا (أي عن عمرو) كذا وكذا، فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه. فأتيته فقلت: أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى، كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟

قال : أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله(صلى الله عليه وآله) وهو عنهم راض. قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ قال: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما. قال: فكانت هي التي قتل معاوية منها نفسه.

فأتيته فأخبرته أن الذي بلغه عنه كما بلغه، فأرسل الى أبي الأعور الذكواني فبعثه في خيله، فخرج يركض فرسه ويقول: أين عدوّ الله، أين هذا الفاسق؟ قال أبو يوسف: أظنه قال: إنّما يريد حوباء نفسه، فخرج عمرو الى فرس تحت فسطاطه فجال في ظهره عرياناً فخرج يركضه نحو فسطاط معاوية وهو يقول: إن الضجور قد تحتلب العلبة، إن الضجور قد تحتلب العلبة، فقال معاوية: أحسبه ويريد الحالب فتدق أنفه وتكفأ إناؤه![٤٥٤].

إن القصة التي يوردها ابن العربي مدعياً أنها هي الصحيحة، وأنها قد جاءت عن الائمة الثقات، لتثير من التساؤلات أكثر بكثير مما تشير الرواية التي اتفق المؤرخون عليها، والتي أنكرها ابن العربي! إذ ما هو الأمر الذي قال الناس فيه ما قالوا -كما يقول عمرو بن العاص- وهل هناك مقالة تفشو بهذه السرعة بين الناس دون أن يكون لها أي أصل! وإذا كان عمرو بن العاص وأبو موسى قد اتفقا على خلع معاوية -كما يدعي عمرو- فعن أي شيء خلعاه؟ عن الخلافة وهو ليس بخليفة، أم عن إمارة الشام؟ فإن كانا قد خلعاه عن إمارة الشام، فلماذا لم يرضخ معاوية لحكمهما - وهو الذي طلب التحكيم- فيعزل نفسه نزولا عند حكم الحكمين!

وإن كان أبو موسى قد قال لعمرو: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما، فهو لم يخذل إمامه علي بن أبي طالب ويخلعه، فلماذا هرب إذاً الى مكة استحياء من علي، طالما أنه لم يقبل أو يفعل ما يستوجب

(٤٥٤) العواصم من القواصم : ١٧٥

غضب الخليفة عليه، ولماذا كان علي بن أبي طالب يلعنه في قنوته! وأين النتيجة في تلك القصة التي يرويها ابن العربي عن الدارقطني، والتي تبدو وكأنها هذيان محموم؟

إن محاولة تبرئة أبي موسى الأشعري من مسؤوليته في قضية التحكيم لا تجدي نفعاً، فإن لهذا الرجل سوابق غير محمودة، فهو بالأمس يخذّل الناس عن علي من على منبر الكوفة الذي جلس عليه بأمر علي نفسه حين عيّنه والياً على الكوفة، ويدّعي انها فتنة، وأن أصحاب رسول الله أعلم بالأمر، وكأنه هو الصحابي الوحيد الذي بقي بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، مع أنه لم يدخل الإسلام إلاّ بعد فتح خيبر، وهل نسي أن علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر وغيرهما من الصحابة الذين مع علي، هم أقدم منه إسلاماً وأعرف بأمور الدين، وأفهم لسنّة النبي(صلى الله عليه وآله)؟!

وإذا كانت نية الرجل سليمة حقاً، فما باله لم يخذّل الناس عن أصحاب الجمل! فلا بعث كتاباً الى عائشة يرجوها أن تقرّ في بيتها كما أمرها الله ورسوله، -وكما فعل غيره من الصحابة من ذوي البصائر- ولا حذّر طلحة والزبير من عواقب هذه الفتنة! مع العلم أن الواجب كان يحتّم عليه أن ينصر خليفته الذي اختاره المهاجرون والأنصار ممن هم أسبق منه إسلاماً وأكثر بلاءً فيه، وأن يخرج بأهل الكوفة لنصرته. كل هذه الهنات من أبي موسى تجعله موضع شك في نياته تجاه علي بن أبي طالب، وموقفه قبل أن يبدأ التحكيم ينم عن فساد نياته، فقد روى نصر بن مزاحم قال:

وكان آخر من ودّع أبا موسى، الأحنف بن قيس، أخذه بيده ثم قال له: يا أبا موسى اعرف خطب هذا الأمر، واعلم أن له ما بعده، وأنك إن أضعت العراق فلا عراق. اتق الله فإنها تجمع لك دنياك وآخرتك، وإذا لقيت غداً عمراً فلا تبدأه بالسلام، فإنها وإن كانت سنّة، إلاّ أنه ليس من أهلها، ولا تعطه يدك فإنها أمانة، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة، ولا تلقه إلاّ وحده، واحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ لك فيه الرجال والشهود. ثم أراد أن يُثوّر ما في نفسه لعلي، فقال له: فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي، فليختر أهل العراق من قريش الشام من شاءوا، وليختر أهل الشام من قريش العراق من شاءوا! فقال أبو موسى: قد سمعت ما قلت، ولم ينكر ما قاله من زوال الأمر عن علي!

فرجع الأحنف إلى علي(عليه السلام) فقال له: أخرج أبو موسى والله زبدة سقائه في أوّل محضة! لا أرانا إلاّ قد بعثنا رجلا لا ينكر خلعك! فقال علي: الله غالب على أمره(٤٥٥).

(٤٥٥) شرح نهج البلاغة ٢ : ٢٤٩ ، كتاب صفين : ٦١٦ .

فأبو موسى قد كشف عن مكنون نفسه قبل أن يرحل الى المكان المتفق عليه، وبدا أنه لا ينكر خلع علي بن أبي طالب، فقد كان مائلا عنه منذ البداية، لأن هواه مع غيره، فقد روى نصر أيضاً قال:

وقد كان الأجناد أبطأت على معاوية، فبعث الى رجال من قريش كانوا كرهوا أن يعينوه في حربه: إن الحرب قد وضعت أوزارها، والتقى هذان الرجلان في دومة الجندل، فأقدموا عليَّ.

فأتاه عبد الله بن الزبير، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وأبو الجهم بن حذيفة العدوي، وعبدالرحمان بن الأسود بن عبد يغوث الزهري، وعبدالله ابن صفوان الجمحي، وأتاه المغيرة بن شعبة -وكان مقيماً بالطائف لم يشهد الحرب- فقال له: يا مغيرة، ما ترى؟ قال: يا معاوية، لو وسعني أن أنصرك لنصرتك، ولكن عليَّ أن آتيك بأمر الرجلين. فرحل حتى أتى دومة الجندل، فدخل على أبي موسى كالزائر له! فقال: يا أبا موسى، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء؟ قال: اُولئك خير الناس، خفّت ظهورهم من دمائهم، وخمصت بطونهم من أموالهم، ثم أتى عمراً فقال: يا أبا عبدالله، ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره الدماء؟ قال: اُولئك شرار الناس! لم يعرفوا حقاً ولم ينكروا باطلا.

فرجع المغيرة الى معاوية فقال له: قد ذقتُ الرجلين، أما عبدالله بن قيس، فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر، وهواه في عبدالله بن عمر، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذي تعرف، وقد ظنّ الناس أنه يرومها لنفسه، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه![٤٥٦].

فقد كان أبو موسى قد وطّن نفسه منذ البداية على خلع علي من الخلافة، وصرفها الى عبدالله بن عمر بن الخطاب - الذي كان هواه معه- فقد روى نصر أن أبا موسى قال غير مرة:

والله إن استطعت لأحيينّ اسم عمر بن الخطاب. قال: فقال عمرو بن العاص: إن كنت إنّما تريد أن تبايع ابن عمر لدينه، فما يمنعك من ابني عبدالله وأنت تعرف فضله وصلاحه؟ فقال: إن ابنك لرجل صدق، ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة[٤٥٧].

(٤٥٦) شرح نهج البلاغة ٢ : ٢٤٩ ، كتاب صفين : ٦١٦ .
(٤٥٧) المصدران السابقان، تاريخ الطبري ٥ : ٦٨

فلما عجم عمرو بن العاص عود أبي موسى، وأدرك تهاونه في حق خليفته، دبّر له المكيدة التي أردته، وسأله آخر الأمر: أخبرني ما رأيك يا أبا موسى؟ قال: أرى أن نخلع هذين الرجلين، ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، يختارون من شاءوا. فقال عمرو: الرأي والله ما رأيت، فأقبلا الى الناس وهم مجتمعون، فقال: يا أبا موسى، أعلمهم بأن رأينا قد اجتمع واتفق، فتكلم أبو موسى فقال: إن رأيي ورأي عمرو قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله عزّوجل به أمر هذه الأمة. فقال عمرو: صدق وبرّ; يا أبا موسى، تقدّم فتكلم. فتقدم أبو موسى ليتكلم، فقال له ابن عباس: ويحك! والله إني لأظنه قد خدعك، إن كنتما قد اتفقتما على أمر، فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ثم تكلم أنت بعده، فإن عمراً رجل غادر، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه، فإذا قمت في الناس خالفك -وكان أبو موسى مغفلا- فقال له: إنّا قد اتفقنا.

فتقدم أبو موسى فحمد الله عزّوجل وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنّا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها، ولا ألمَّ لشعثها من أمر قد اجتمع رأيي ورأي عمرو عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولّوا منهم من أحبوا عليهم، وإني قد خلعت علياً ومعاوية، فاستقبلوا أمركم، وولّوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا، ثم تنحّى. وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه وليّ عثمان بن عفان والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه! فقال أبو موسى: مالك لا وفّقك الله، غدرت وفجرت! إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. قال عمرو: إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

وحمل شريح بن هانئ على عمرو فقنّعه بالسوط، وحمل على شريح إبن لعمرو فضربه بالسوط، وقام الناس فحجزوا بينهم. وكان شريح بعد ذلك يقول: ما ندمتُ على شيء ندامتي على ضرب عمرو بالسوط ألاّ أكون ضربته بالسيف آتياً به الدهر ما أتى.

والتمس أهل الشام أبا موسى، فركب راحلته ولحق بمكة.

قال ابن عباس : قبّح الله رأي أبا موسى! حذّرته وأمرته بالرأي فما عقل. فكان أبو موسى يقول: حذّرني ابن عباس غدرة الفاسق، ولكني اطمأننت إليه، وظننت أنه لن يؤثر شيئاً على نصيحة الأمة(٤٥٨).

ولما جاءت الأخبار الى علي بن أبي طالب، قام فخطب الناس، فكان مما قال:

ألا أن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما قد نبذا حكم الكتاب، وأحييا ما أمات، واتبع كل واحد منهما هواه، وحكم بغير حجة ولا بيّنة ولا سنة ماضية، واختلفا فيما حكما، فكلاهما لم يرشد، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين..

قال نصر : فكان علي(عليه السلام) بعد الحكومة إذا صلى الغداة والمغرب، وفرغ من الصلاة وسلّم، قال: اللهم العن معاوية، وعمراً، وأبا موسى، وحبيب بن مسلمة، وعبدالرحمان بن خالد، والضحاك بن قيس، والوليد بن عقبة.

فبلغ ذلك معاوية، فكان إذا صلى لعن علياً وحسناً وحسيناً وابن عباس وقيس بن سعد والأشتر.

وزاد ابن ديزيل في أصحاب معاوية، أبا الأعور السلمي(٤٥٩).

هذه هي قصة التحكيم كما وردت عند الطبري وتناقلها عنه المؤرخون، ولنا هنا وقفة مع القاضي ابن العربي، فلماذا أنكر هذه الرواية وقال إنها من وضع التاريخية للملوك؟ ومن هم اولئك التاريخية الذين يتهمهم؟ أليس الطبري هو المصدر الرئيسي الذي أورد الرواية، والذي اعتمده ابن العربي دون غيره في معظم الأخبار التي دوّنها في كتابه الذي بين أيدينا! أوليس هو الذي دعانا الى اعتماد الطبري دون سواه من المؤرخين! فما باله قد تنكّر له هذه المرة، بعد أن نقل عنه كل ما يوافق منحاه واتجاهه، ولكنه في هذه القضية انقلب على الطبري واتهمه! وتلك هي الحال مع معظم المؤلفين من القدامى والمعاصرين، فتراهم يمجّدون الطبري في نقل الأخبار التي توافق اتجاهاتهم، ولكنهم ينقلبون عليه إذا روى ما خالف هذه الاتجاهات، حتى أن بعضهم اتهم الطبري بالرفض!

سوابق لأبي موسى الأشعري

(٤٥٨) تاريخ الطبري ٥ : ٧٠ ، شرح نهج البلاغة ٢ : ٢٥٥

(٤٥٩) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢٥٩ ، تاريخ الطبري ٥ : ٧١ ولكنه لم يذكر أبا موسى من بينهم .

تبين لنا من قصة التحكيم فساد نيات أبي موسى، وتواطئه على خلع الخليفة الشرعي دون وجه حق، وهو الذي يفترض فيه أنه قد ذهب حكماً عنه لا عليه، والرائد لا يكذب أهله، ولكنه خان الذين ائتمنوه. وصمّ سمعه عن نصائح المخلصين من الصحابة. ولعل من المستغرب أن يحظى هذا الرجل بكل هذا التكريم والتبجيل من المؤلفين ذوي الاتجاه المعروف، حتى وصفه ابن العربي بتلك الصفات التي أسلفنا، ولكن البحث عن ماضي هذا الرجل يكشف عن خفايا رهيبة تصطك لها المسامع، فقد قال ابن عبد البر في ترجمته :

كان أبو موسى الأشعري منحرفاً عن علي(عليه السلام)، لأنه عزله ولم يستعمله، وكان لحذيفة قبل ذلك فيه كلام!![٤٦٠].

ترى ما هو الكلام الذي ذكره حذيفة ـ صاحب سرّ رسول الله- في أبي موسى، وأضمره ابن عبدالبر ولم يذكره؟!

قال حذيفة -وقد ذُكر عنده أبو موسى بالدّين-: أما أنتم فتقولون ذلك، وأمّا أنا فأشهد أنه عدوّ لله ولرسوله، وحرب لهما في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار!

وكان حذيفة عارفاً بالمنافقين، أسرّ إليه رسول الله(صلى الله عليه وآله) أمرهم وأعلمه أسماءهم. وروي أن عمّاراً سُئل عن أبي موسى، فقال: لقد سمعت فيه من حذيفة قولا عظيماً، سمعته يقول: صاحب البرنس الأسود، ثم كلح كلوحاً علمت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط![٤٦١].

فأبو موسى ـ حسب هذه الروايه ـ هو أحد المتآمرين لاغتيال رسول الله(صلى الله عليه وآله) ليلة العقبة!! وخلاصة قصتها، أن النبي(صلى الله عليه وآله) بعد أن عاد من غزوة تبوك، فلما كان ببعض الطريق «مكر به أناس من المنافقين وائتمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق. فلما بلغ رسول الله(صلى الله عليه وآله) تلك العقبة، أرادوا أن يسلكوها معه، فاُخبر رسول الله(صلى الله عليه وآله)خبرهم، فقال للناس: اسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع. فسلك الناس بطن الوادي وسلك رسول الله(صلى الله عليه وآله) العقبة، وأمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها، وأمر حذيفة بن اليمان يسوق من خلفه. فبينا رسول الله(صلى الله عليه وآله)يسير في العقبة، إذ سمع حسّ القوم قد غشوه، فغضب رسول الله(صلى الله عليه وآله)وأمر حذيفة أن يردهم، فرجع حذيفة إليهم وقد رأوا

(٤٦٠) الاستيعاب ٤ : ٣٢٦
(٤٦١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣ : ٣١٤

غضب رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجن في يده، وظن القوم أن رسول الله(صلى الله عليه وآله)قد اطلع على مكرهم، فانحطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله(صلى الله عليه وآله) فساق به.

فلما خرج رسول الله(صلى الله عليه وآله) من العقبة نزل الناس، فقال النبي(صلى الله عليه وآله): يا حذيفة، هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم؟ قال: يا رسول الله، عرفتُ راحلة فلان وفلان، وكان القوم متلثمين فلم أبصرهم من أجل ظلمة الليل...

كان أهل العقبة الذين أرادوا بالنبي(صلى الله عليه وآله) ثلاثة عشر رجلا، قد سمّاهم رسول الله(صلى الله عليه وآله) لحذيفة وعمار رحمهما الله...(٤٦٢)

وقد أخرج المحدثون قصة العقبة، فروى الإمام مسلم عن أبي الطفيل قال:

كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال: كنا نُخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنتَ منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة. قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله(صلى الله عليه وآله) ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان في حرة، فمشى فقال: «**إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد**». فوجد قوماً قد سبقوه، فلعنهم يومئذ.

وأخرج عن قيس قال : قلت لعمار : أرأيتم صنيعكم هذا الذي صنعتم في أمر علي، أرأياً رأيتموه أو شيئاً عهده إليكم رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ فقال: ما عهد إلينا رسول الله(صلى الله عليه وآله) شيئاً لم يعهده الى الناس كافة، ولكن حذيفة أخبرني عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: قال النبي(صلى الله عليه وآله): «**في أصحابي إثنا عشر منافقاً، فيهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط، ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبيلة، وأربعة ...**» لم أحفظ ما قال شعبة فيهم(٤٦٣).

ولقد أكّد معاوية بن أبي سفيان على دور أبي موسى الأشعري في نصرته وخيانة علي بن أبي طالب، فقد روى الطبري عن أحمد (ابن زهير) بسنده قال: قدم أبو موسى على معاوية، فدخل عليه في برنس أسود، فقال: السلام عليك يا أمين الله! قال: وعليك السلام.

فلما خرج قال معاوية : قدم الشيخ لأولّيه! ولا والله لا أولّيه.

(٤٦٢) مغازي الواقدي ٣ : ١٠٤٢

(٤٦٣) صحيح مسلم ٤ : ٢١٤٣ ، ٢١٤٤ ، باب صفات المنافقين ، وانظر مسند أحمد ٥ : ٣٩٠ ، ٤٥٣، مجمع الزوائد ١ : ١١٠ ، الدر المنثور للسيوطي ٣ : ٢٥٨ آية ٧٢ من سورة التوبة .

وروى أيضاً عن عبدالله بن أحمد بسنده إلى أبي بردة(٤٦٤).

قال: دخلت على معاوية حيث أصابته قرحته، فقال: هلم يا ابن أخي نحوي فانظر، فنظرت فإذا هي قد سبُرت، فقلت: ليس عليك بأس يا أمير المؤمنين. فدخل يزيد فقال معاوية: إن وليت من أمر الناس شيئاً فاستوص بهذا، فإن أباه كان لي خليلا -أو نحو ذلك من القول- غير أني رأيت في القتال ما لم يره(٤٦٥).

فمعاوية قد اعتبر أبا موسى خليله، ومثل هذا اللفظ لا يقال إلاّ في حق الأعوان المقربين المخلصين، وكان أبو موسى يطمع في الولاية -كما يتبين من كلام معاوية- ولكن معاوية كافأه على خدماته بحرمانه من الولاية، ربما لعدم ثقته باخلاص هذا الرجل!

عمرو بن العاص

كنت أعتقد أن الكلام على عمرو بن العاص قد يعتبر ترفاً لا حاجة إليه، ولكنني وكما أوضحت، فإن الاتجاه المحافظ الذي بقي وفياً لأساليب الدعاية الأموية على مرّ العصور، لم يغادر شيئاً دون أن يلمسه بريشة التزييف، ومن تلك الأساليب في التزييف، قلب الحقائق حول الشخصيات التي أثرت في مجريات الأمور في تلك الفترة التي تحدثنا عنها، باظهار المحق مبطلا والمبطل محقاً! ومن تلك الشخصيات التي تناولتها أقلام المؤلفين -أصحاب الاتجاه المحافظ- شخصية لعبت أدواراً خطيرة استطاعت أن تؤثر بها على مجريات الأحداث في تلك الحقبة، وتقلب كثيراً من الأوضاع، ألا وهو عمرو ابن العاص، وزير معاوية وساعده الأيمن. فمن تلك المحاولات التجميلية ما قام به القاضي ابن العربي، حيث نقل عن الدارقطني قال:

وذكر سنداً عدلا (وساق الحديث): ربعي عن أبي موسى، أن عمرو بن العاص قال: والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحلّ لهما منه شيء لقد غُبِنا ونقص رأيهما! وأيم الله ما كانا مغبونين ولا ناقصي الرأي، ولئن كانا امرأين يحرم عليهما هذا المال الذي أصبناه بعدهما، لقد هلكنا، وأيم الله ما جاء الوهم إلاّ من قبلنا(٤٦٦).

قال أحد محققي الكتاب :

(٤٦٤) هو ابن أبي موسى الأشعري .
(٤٦٥) تاريخ الطبري ٥ : ٣٣٢ حوادث سنة ٦٠ ، أنساب الأشراف ٥ : ٢٤ ، ٥٠
(٤٦٦) العواصم من القواصم : ١٨١

أورد المؤلف هذا الخبر للدلالة على ورع عمرو ومحاسبته لنفسه وتذكيره بسير السلف!(٤٦٧).

كما وعلّق الاستانبولي على الخبر أيضاً بقوله:

قال النبي(صلى الله عليه وآله) في الثناء على عمرو بن العاص(رضي الله عنه): «أسلم الناس وآمن عمرو ابن العاص»(٤٦٨).

قال شيخنا محدّث الديار الشامية في المصدر السابق: وفي هذا الحديث منقبة عظيمة لعمرو بن العاص(رضي الله عنه)، أن شهد له النبي(صلى الله عليه وآله): «**لا يدخل الجنة إلاّ نفس مؤمنة**»، متفق عليه. وقال تعالى (**وَعَد اللهُ الذينَ آمنُوا وَعملوا الصالحاتِ جنّات تجري مِن تَحتِها الأنهارُ**).

وعلى هذا لا يجوز الطعن في عمرو بن العاص(رضي الله عنه) كما يفعل بعض الكتّاب المعاصرين وغيرهم من المخالفين بسبب ما وقع من الخلاف، بل القتال مع علي(رضي الله عنه) لأن ذلك لا ينافي الإيمان، فإنه لا يستلزم العصمة كما لا يخفى، لا سيما إذا قيل إن ذلك وقع منه بنوع من الاجتهاد وليس اتباعاً للهوى(٤٦٩).

لعل من المناسب أن نقف قليلا على هذه الأقوال والتعليقات قبل الخوض في سيرة عمرو بن العاص، ولا أدري أي ورع هذا الذي يظهر من عمرو وهو يعترف بأن أبا بكر وعمر لم يأخذا هذا المال لا لأنهما مغبونان أو ناقصي رأي، بل لعلمهما أنه لا يحل لهما، فالمال الذي يعترف عمرو بأنه قد أخذه إنما هو مال حرام من أموال المسلمين التي لا تحل له ولا لغيره بغير وجه حق، وقوله (وأيم الله ما جاء الوهم إلا من قبلنا)، ما هو في الحقيقة إلاّ اعتراف منه بذلك، مع الفارق بأن ذلك لم يكن وهماً توهمه، بل فعله على علم وبصيرة، فأين الورع والتذكير بالسلف! ولماذا لم يذكر عثمان بن عفان في جملة السلف أيضاً؟!

أما الادعاء بأن النبي(صلى الله عليه وآله) قد قال ما قال في عمرو والثناء عليه، فإن تصديق ذلك يستلزم تفرّد عمرو بن العاص بالإيمان وحده دون الناس جميعاً، والذين يصبحون -ومنهم السابقون من الصحابة من المهاجرين والأنصار- في حكم الأعراب الذين قال الله تعالى فيهم : (**قالتِ الأعرابُ آمنّا قُلْ لَمْ تُؤمنوا وَلكنْ قولُوا أسلَمنا ولَمّا يَدخُل الإيمانُ في قُلوبكُم**)(٤٧٠).

(٤٦٧) هامش : ٣٢٠ من المصدر السابق .
(٤٦٨) وهو حديث حسن كما جاء في الاحاديث الصحيحة ٢ : ٦٤
(٤٦٩) الهامش من المصدر السابق .
(٤٧٠) الحجرات : ١٤ .

أما محاولة الشيخ الألباني تبرير أعمال عمرو بن العاص بالاجتهاد! فإن الإجتهاد قد صار المشجب الذي تُعلّق عليه كل الجرائم التي ارتكبت بحق الإسلام والمسلمين، وأي اجتهاد هذا وهو قد انضم الى الفئة الباغية وهو يعلم علم اليقين أن دعواها باطلة، وأن الطلب بدم عثمان لم يكن إلاّ حيلة لجأ إليها معاوية وأعانه عليها عمرو، ومن المضحك حقاً أن يطلب عمرو بدم عثمان، وهو أحد أشدّ مناوئي عثمان والمحرّضين عليه، وكما اعترف هو نفسه بذلك! فقد أخرج الطبري عن الواقدي باسناده قال: كان عمرو بن العاص على مصر عاملا لعثمان، فعزله عن الخراج واستعمله على الصلاة، واستعمل عبدالله بن سعد على الخراج، ثم جمعهما لعبدالله بن سعد، فلما قدم عمرو بن العاص المدينة جعل يطعن على عثمان، فأرسل إليه يوماً عثمان خالياً به فقال: أتطعن عليَّ وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر! والله لولا أكلة ما فعلت ذلك. قال: فقال عمرو: إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون الى ولاتهم باطل، فاتق الله يا أمير المؤمنين في رعيتك! فقال عثمان: والله لقد استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك. فقال عمرو: قد كنتُ عاملا لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راض. قال: فقال عثمان: وأنا والله لو اخذتك بما اخذك به عمر لاستقمت، ولكني لنتُ عليك فاجترأت علي، أما والله لأنا أعزّ منك نفراً في الجاهلية وقبل أن ألي هذا السلطان! فقال عمرو: دع عنك هذا، فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد(صلى الله عليه وآله)وهدانا به; قد رأيت العاصي بن وائل ورأيت أباك عفان، فوالله للعاص كان أشرف من أبيك! قال: فانكسر عثمان وقال: مالنا ولذكر الجاهلية. قال: وخرج عمرو ودخل مروان فقال: يا أمير المؤمنين، وقد بلغت مبلغاً يذكر عمرو بن العاص أباك! فقال عثمان: دع هذا عنك، من ذكر آباء الرجال ذكروا أباه.

قال : فخرج عمرو من عند عثمان وهو محتقد عليه، يأتي علياً مرة فيؤلبه على عثمان، ويأتي الزبير مرة فيؤلبه على عثمان، ويأتي طلحة مرة فيؤلبه على عثمان، ويعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث عثمان. فلما كان حصر عثمان الأول، خرج من المدينة حتى انتهى الى أرض له بفلسطين يقال لها السبع، فنزل في قصر له يقال له العجلان وهو يقول: العجب ما يأتينا عن ابن عفان!

قال : فبينا هو جالس في قصره ذلك ومعه ابناه محمد وعبدالله وسلامة بن روح الجذامي، إذ مرّ بهم راكب فناداه عمرو: من أين قدم الرجل؟ فقال: من المدينة. قال: ما فعل الرجل؟ يعني عثمان. قال: تركته محصوراً شديد الحصار. قال عمرو: أنا أبو

عبدالله، قد يضرط العير والمكواة في النار. فلم يبرح مجلسه ذلك حتى مرّ به راكب آخر، فناداه عمرو: ما فعل الرجل؟ يعني عثمان. قال: قُتل! قال: أنا أبو عبدالله. إذا حككتُ قرحة نكأتها، إن كنتُ لأُحرّض عليه، حتى إني لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل! فقال له سلامة بن روح: يا معشر قريش، إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه، فما حملكم على ذلك؟ فقال: أردنا أن نخرج الحق من حافرة الباطل، وأن يكون الناس في الحق شرعاً سواء.

وكانت عند عمرو اُخت عثمان لأُمه أم كلثوم بنت عقبة بن معيط، ففارقها حين عزله![٤٧١].

كما وأخرج جمع من المؤرخين والحفاظ -واللفظ للطبري- عن محمد ابن عمر بسنده قال:[٤٧٢]

لما رجع علي(عليه السلام) الى عثمان(رضي الله عنه)، أخبره أنهم قد رجعوا، وكلّمه علي كلاماً في نفسه، قال له: إعلم أني قائل فيك أكثر مما قلت. قال: ثم خرج الى بيته، فمكث عثمان ذلك اليوم حتى إذا كان الغد جاءه مروان فقال له: تكلّم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلا! فإن خطبتك تسير في البلاد قبل أن يقلب الناس عليك من أمصارهم، فيأتيك من لا تستطيع دفعه. فأبى عثمان أن يخرج، فلم يزل به مروان حتى خرج فجلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا الى بلادهم.

قال : فناداه عمرو بن العاص من ناحية المسجد: اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت نهابير وركبناها معك، فتُب الى الله نَتُب. قال: فناداه عثمان وإنك هناك يا ابن النابغة! قملت والله جُبّتك منذ تركتك من العمل! قال: فنودي من ناحية اُخرى: تُب الى الله وأظهر التوبة يكف الناس عنك. قال: فرفع عثمان يديه مدّاً واستقبل القبلة فقال: اللهم إني أول تائب إليك.

ورجع الى منزله، وخرج عمرو بن العاص حتى نزل منزله بفلسطين، فكان يقول: والله إن كنت لألقى الراعي فأحرّضه عليه![٤٧٣].

(٤٧١) تاريخ الطبري ٤ : ٣٥٦ ، أنساب الاشراف للبلاذري ٥ : ١٠٨ و ٢٠٣ ، البداية والنهاية ٧ : ١٧٠ ، شرح نهج البلاغة ٢ : ١٤٤

(٤٧٢) وذلك بعد رجوع المصريين عن عثمان بوساطة علي.

(٤٧٣) الطبري ٤ : ٣٦٠ ، أنساب الأشراف ٦ : ١٩٢ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ١٤٣ ، الكامل في التاريخ ٢ : ٢٨٣ ، الفائق للزمخشري ٤ : ٣٥ ، البداية والنهاية ٧ : ١٩٦ ، تاريخ ابن خلدون ٢ : ٥٩٧ .

كما وأخرج المؤرخون والحفاظ أخبار عمرو بن العاص وكيفية التحاقه بمعاوية، قالوا - واللفظ للطبري أيضاً عن الواقدي- قال:

لما بلغ عمراً قتل عثمان(رضي الله عنه) قال: أنا أبو عبدالله، قتلته وأنا بوادي السباع! من يلي هذا الأمر من بعده؟ إن يلهِ طلحة فهو فتى العرب سَيباً، وإن يلهِ ابن أبي طالب فلا أراه إلاّ سيستنظف الحق، وهو أكره من يليه إليَّ! فبلغه أن علياً قد بويع له، فاشتدّ عليه، وتربص أياماً ينظر ما يصنع الناس، فبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة، وقال: أستأني وأنظر ما يصنعون فأتاه الخبر أن طلحة والزبير قد قُتلا; فأُرتج عليه أمره، فقال له قائل: إن معاوية بالشام لا يريد أن يبايع لعلي، فلو قاربت معاوية. فكان معاوية أحب إليه من علي بن أبي طالب! وقيل له: إن معاوية يُعظم شأن قتل عثمان بن عفان، ويحرّض على الطلب بدمه. فقال عمرو: ادعوا لي محمداً وعبدالله، فدعيا له، فقال: قد كان ما قد بلغكما من قتل عثمان(رضي الله عنه)، وبيعة الناس لعلي، وما يرصد معاوية من مخالفة علي، وقال: ما تريان؟ أما علي فلا خير عنده! وهو رجل يُدلّ بسابقته، وهو غير مشركي في شيء من أمره.

فقال عبدالله بن عمرو : توفي النبي(صلى الله عليه وآله) وهو عنك راض، وتوفي أبوبكر(رضي الله عنه)وهو عنك راض، وتوفي عمر(رضي الله عنه) وهو عنك راض، أرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس على إمام فبايعته.

وقال محمد بن عمرو : أنت نابٌ من أنياب العرب، فلا أرى أن يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ولا ذكر.

قال عمرو : أما أنت يا عبدالله فأمرتني بالذي هو خير لي في آخرتي وأسلم في ديني، وأما أنت يا محمد فأمرتني بالذي أنبه علي في دنياي وشرٌ لي في آخرتي.

ثم خرج عمرو بن العاص ومعه ابناه حتى قدم على معاوية، فوجد أهل الشام يحضّون معاوية على الطلب بدم عثمان، فقال عمرو بن العاص: أنتم على الحق، اطلبوا بدم الخليفة المظلوم!! -ومعاوية لا يلتفت الى قول عمرو- فقال ابنا عمرو لعمرو: ألا ترى الى معاوية لا يلتفت الى قولك! انصرف الى غيره. فدخل عمرو على معاوية فقال: والله لعجب لك، إني أرفدك بما أرفدك وأنت معرض عني، أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة، إن في النفس من ذلك ما فيها! حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته، ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا!

فصالحه معاوية وعطف عليه(٤٧٤).

(٤٧٤) الطبري ٤ : ٥٦٠ ، الاستيعاب ٣ : ٢٦٦ ، الاصابة ٣ : ٣٨١

فمن هذه النصوص وغيرها نعلم أن عمراً كان أبعد من يحق له من الناس أن يدعي الطلب بدم عثمان، بل إنه هو أحد المطلوبين لهذا الدم، لأن التحريض على القتل قد يكون سبباً ودافعاً إليه، فيكون المحرّض كالقاتل سواء بسواء، ولم يكن معاوية غافلا عن ذلك، ولو أنه كان صادقاً في دعواه بالطلب بدم عثمان، لكان ينبغي عليه أن يحاسب عمراً قبل غيره وهو في قبضته، ولكن معاوية كان يرمي لأهداف أُخرى، ولم يكن عمرو بن العاص ساذجاً لتخفى عليه نوايا معاوية الحقيقية، ولقد عبّر عن رأيه صراحة أمام معاوية حين قال له: أما والله إن قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة، إن في النفس من ذلك ما فيها... ولكنا إنما أردنا هذه الدنيا.

أما الدنيا بالنسبة لعمرو فقد كانت ولاية مصر، نعم مصر التي انتزعه عثمان عنها فبقيت في نفسه بعد أن ذاق حلاوتها، فقد روى الزبير بن بكار قال:

لما قلّد عمر عمرو بن العاص مصراً، بلغه أنه قد صار له مال عظيم من ناطق وصامت، فكتب إليه: أما بعد، فقد ظهر لي من مالك ما لم يكن في رزقك ولا كان لك مال قبل أن استعملك، فأنّى لك هذا؟! فوالله لو لم يهمني في ذات الله إلاّ من اختان في مال الله، لكثر همّي وانتثر أمري، ولقد كان عندي من المهاجرين الأولين من هو خير منك، ولكني قلدتك رجاءَ غنائك، فاكتب إليّ من أين لك هذا المال، وعجّل!

فكتب إليه عمرو : أما بعد، فقد فهمت كتاب أمير المؤمنين. فأما ما ظهر لي من مال، فإنّا قدمنا بلاداً رخيصة الأسعار، كثيرة الغزو، فجعلنا ما أصابنا في الفضول التي اتصل بأمير المؤمنين نبؤها، ووالله لو كانت خيانتك حلالا ما خنتك وقد ائتمنتني، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك، وذكرت أن عندك من المهاجرين من هو خير مني، فإذا كان ذاك، فوالله ما دققتُ لك يا أمير المؤمنين باباً، ولا فتحت لك قفلا.

فكتب إليه عمر : أما بعد، فإني لستُ من تسطيرك الكتاب وتشقيقك الكلام في شيء، ولكنكم معشر الأمراء قعدتم على عيون الأموال، ولن تعدموا غدراً، وإنما تأكلون النار وتتعجلون العار، وقد وجّهت إليك محمد بن مسلمة، فسلّم إليه شطر مالك ...(٤٧٥)

فعمر بن الخطاب يتّهم عمراً بالخيانة صراحة، ولم تنفع اعذار عمرو في اقناع الخليفة ولا عدوله عن رأيه في مشاطرة عمرو أمواله، ولقد ظلت هذه الحسرات على فوات مصر وثرواتها من يد عمرو تنغّص عليه عيشه، وتدفعه للتأليب على عثمان

(٤٧٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ : ١٧٤

الذي حرمه منها، فلما جاءت الفرصة على يد معاوية، خفَّ عمرو إليه وكلّه أمل في عودة مصر إليه، «ويكفي أن نشير الى حجم هذه الصفقة بين الرجلين، في انتقال ابن العاص المثير من موقع الساخط المتمرد على الخليفة السابق ـ معبراً عن ذلك بعد خروجه من الحجاز بقوله: كنت لألقى الراعي فأُحرّضه على عثمان- الى مطالب بدمه ومدافع عن قضيته تحت اللواء الأموي في الشام!»[٤٧٦].

لقد علم معاوية أن الأمر لا يتم له إن لم يبايعه عمرو، فقال له : يا عمرو اتّبعني. قال: لماذا، للآخرة! فوالله ما معك آخرة، أم للدنيا؟ فوالله لا كان حتى أكون شريكك فيها! قال: فأنت شريكي فيها. قال: فاكتب لي مصر وكورها. فكتب له مصر وكورها، وكتب في آخر الكتاب: وعلى عمرو السمع والطاعة.

قال عمرو : واكتب أن السمع والطاعة لا ينقصان من شرطه شيئاً. قال معاوية: لا ينظر الناس الى هذا. قال عمرو: حتى تكتب. قال: فكتب، ووالله ما يجد بداً من كتابتها.

ودخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية وهو يكلم عمرو في مصر، وعمرو يقول له: إنما أُبايعك بها ديني!! فقال عتبة: ائتمن الرجل بدينه، فإنه صاحب من أصحاب محمد. وكتب عمرو الى معاوية:

معاويَ لا أُعطيك ديني ولم أنل *** به منك دنيا فانظرن كيف تصنعُ
وما الدين والدنيا سواء وإنني *** لآخذ ما تعطي ورأسي مقنّعُ
فإن تعطني مصراً فأربحُ صفقة *** أخذتَ بها شيخاً يضرّ وينفعُ[٤٧٧]

وقد أخرج المؤرخون والحفّاظ هذه القصة بتفصيلات أكثر، ولكنني أعرضت عنها روماً للاختصار، إذ أن هذه الشواهد تكفي لكي تكشف عن النوايا الحقيقية لكل من معاوية وعمرو بن العاص، وعن الصفقة الدنيوية التي باع بها عمرو دينه، ولقد كان الصحابة يعرفون بعضهم أفضل مما نعرف نحن أو ابن العربي أو ابن كثير وغيرهم، فهذا عمار بن ياسر، السبّاق المبشّر بالجنة، الموعود بالقتل بأيدي الفئة الباغية الداعية الى النار -كما أخبر النبي- يدنو من عمرو بن العاص فيقول له:[٤٧٨]

يا عمرو بعت دينك بمصر، تباً لك! طالما بغيت في الاسلام عوجاً...[٤٧٩]

(٤٧٦) من دولة عمر ... : ١٢٧
(٤٧٧) العقد الفريد لابن عبد ربه ٤ : ١٤٤
(٤٧٨) وهو الكلام الذي حذفه ابن كثير.
(٤٧٩) الطبري ٥ : ٣٩ ، صفين : ٣٣٧ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨ : ٢١ ، تذكرة الخواص:٩٢.

كما وأخرج الطبري عن موسى بن عبدالرحمان المسروقي بسنده قال: سمعت عمار بن ياسر بصفين وهو يقول لعمرو بن العاص: لقد قاتلتُ صاحب هذه الراية ثلاثاً مع رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وهذه الرابعة، ما هي بأبرّ ولا أنقى[٤٨٠].

أما علي بن أبي طالب، فقد أبدى رأيه في كل من معاوية ووزيره عمراً، في جواب الكتاب الذي بعثه إليه محمد بن أبي بكر. من تهديد معاوية له وإرساله عمراً بجيش كبير الى مصر لانتزاعها منه، فكان مما كتب إليه:

... وقد قرأتُ كتاب الفاجر ابن الفاجر معاوية، والفاجر ابن الكافر عمرو، المتحابّين في عمل المعصية، والمتوافقين المرتشيين في الحكومة، المنكرَين في الدنيا، قد استمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم...[٤٨١]

كما وأشار علي بن أبي طالب - في كتاب له الى أهل العراق- الى هذه الصفقة بين معاوية وعمرو. فكان مما قال فيه: لقد أُنهي إليّ أن ابن النابغة لم يبايع معاوية حتى أعطاه، وشرط عليه أن يعطيه إتاوة هي أعظم مما في يديه من سلطانه، ألا صفرت يد هذا البائع دينه بالدنيا، وتربت يد هذا المشتري نصرة غادر فاسق بأموال المسلمين...[٤٨٢]

هذه بعض من سيرة عمرو بن العاص كما أوردها الأئمة الأعلام من المؤرخين والحفّاظ، ولقد تجنبت ذكر المثالب والمطاعن فيه من جهة نسبه أو غير ذلك، لاعتقادي بأن تلك الأمور ليست بذات أهمية بالقياس الى السيرة الذاتية للمرء، خاصة وأن عمرو قد التحق بمعاوية في أواخر عمره، وبعد أن صار على أعتاب قبره، إلاّ أن حب الدنيا قد ظل مغروساً في أعماقه، وبدلا من أن يقضي ما تبقى من عمره في العبادة والاستغفار بعد أن أكرمه الله تعالى بالاسلام وصحبة نبيّه(صلى الله عليه وآله)، نراه يعرض عن كل ذلك ويستقبل الدنيا من جديد مؤثراً مرافقة البغاة وصحبتهم على صحبة من هم خير منهم وأقرب للتقوى، ولو أن عمرو بن العاص قد شكّ في معرفة الحقيقة أفلا اعتزل الأمر كما فعل غيره من الصحابة -وذلك أضعف الإيمان- ولكنه أبى إلاّ النباهة في الدنيا والخسران في الآخرة.

لقد أوردت هذا الشيء اليسير من سيرة عمرو بن العاص رداً على ادعاءات أصحاب الاتجاه المعروف، الذين يضفون عليه سيما التقوى والورع ومحاسبة النفس في اعترافه بأكل أموال المسلمين بغير حق، وقد تبين لكل ذي بصيرة أن عمرو بن

(٤٨٠) الطبري ٥ : ٤٠
(٤٨١) الطبري ٥ : ١٠٢ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ٨٤
(٤٨٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ٩٩

العاص قد باع دينه - معترفاً بنفسه على نفسه بذلك- في مقابل ولاية مصر، فهل يبقى بعد ذلك كلام لعاذر!

ولقد أحسن ابن عباس القول لعمرو في مرضه الذي مات فيه، فقال له:

كيف أصبحت يا أبا عبدالله؟ قال: أصلحت من دنياي قليلا وأفسدت من ديني كثيراً، فلو كان الذي أصلحتُ هو الذي أفسدت، والذي أفسدت هو الذي أصلحت لفزتُ، ولو كان ينفعني أن أطلب طلبتُ، ولو كان ينجيني أن أهرب هربت، فصرتُ كالمنجنيق بين السماء والأرض، لا أرقى بيدين، ولا أهبط برجلين، فعظني بعظة انتفع بها يا ابن أخي.

فقال له ابن عباس : هيهات يا أبا عبدالله! صار ابن أخيك أخاك. ولا تشاء أن أبكي إلا بكيت، كيف يؤمن برحيل من هو مقيم!

فقال عمرو : على حينها من حين ابن بضع وثمانين سنة تقنّطني من رحمة ربي! اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك، فخُذ مني حتى ترضى. قال ابن عباس: هيهات يا أبا عبدالله! أخذتَ جديداً وتعطي خلقاً! فقال عمرو: مالي ولك يا ابن عباس، ما أرسل كلمة إلاّ أرسلت نقيضها![٤٨٣].

فعمرو بن العاص قد ظل سادراً في غيّه، حتى إذا داهمه الموت واقتربت منيّته، صار يتمنى على الله الأماني، بعد أن انقطع رجاؤه من الدنيا، وأدرك أنها قد فاتته، وقد أذن موعد الرحيل عنها، ولات ساعة ندم.

(٤٨٣) الاستيعاب في معرفة الاصحاب ٣ : ٢٦٩

الفصل الثامن: معاوية بن أبي سفيان

معاوية بن أبي سفيان

قال ابن أبي الحديد المعتزلي :

ومعاوية مطعون في دينه عند شيوخنا رحمهم الله، يرمى بالزندقة(٤٨٤).

وقال أيضاً :

وقد طعن كثير من أصحابنا في دين معاوية، ولم يقتصروا على تفسيقه، وقالوا عنه إنه كان ملحداً لا يعتقد بالنبوة، ونقلوا عنه في فلتات كلامه وسقطات ألفاظه ما يدل على ذلك.

وروى الزبير بن بكار في (الموفقيات) -وهو غير متهم على معاوية، ولا منسوب الى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانبة علي(عليه السلام)، والانحراف عنه-: قال المطرّف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي على معاوية، وكان أبي يأتيه فيتحدث معه ثم ينصرف إلي، فيذكر معاوية وعقله، ويُعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني جئتُ من عند أكفر الناس وأخبثهم قلت: وما ذاك؟! قال: قلت له وقد خلوت به: إنك قد بلغت سناً يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلا وبسطت خيراً، فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شي تخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه. فقال: هيهات هيهات، أي ذكر أرجو بقاءه! مَلَكَ أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلاّ أن يقول قائل: عمر، وإن ابن أبي كبشة ليُصاح به كل يوم خمس مرات «أشهد أن محمداً رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فأيُّ عمل يبقى وأيُّ ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك، لا والله إلاّ دفناً دفناً!!»(٤٨٥).

(٤٨٤) شرح نهج البلاغة ١ : ٣٤٠

(٤٨٥) الموفقيات : ٥٧٧ .

وأما أفعاله المجانبة للعدالة الظاهرة، من لبسه الحرير وشربه في آنية الذهب والفضة، حتى أنكر عليه أبو الدرداء، فقال له: إني سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله)يقول: «**إن الشارب فيهما ليجرجر في جوفه نار جهنم**»، وقال معاوية: أما أنا فلا أرى بذلك بأساً فقال أبو الدرداء: من عذيري من معاوية أنا اُخبره عن الرسول(صلى الله عليه وآله)وهو يخبرني عن رأيه لا اُساكنك بأرض أبداً.

نقل هذا الخبر المحدّثون والفقهاء في كتبهم(٤٨٦) في باب الاحتجاج على أن خبر الواحد معمول به في الشرع، وهذا الخبر يقدح في عدالته، كما يقدح أيضاً في عقيدته، لأن من قال في مقابلة خبر قد روي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله): أما أنا فلا أرى بأساً فيما حرّمه رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ليس بصحيح العقيدة، ومن المعلوم أيضاً من حالة استئثاره بمال الفيء، وضربه من لا حدّ عليه، واسقاط الحد عمن يستحق إقامة الحد عليه، وحكمه برأيه في الرعية وفي دين الله، واستلحاقه زياداً وهو يعلم قول رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»، وقتله حجر ابن عدي وأصحابه ولم يجب عليهم القتل، ومهانته لأبي ذر الغفاري وجبهه وشتمه وإشخاصه الى المدينة على قتب بغير وطاء لإنكاره عليه، ولعنه علياً وحسناً وحسيناً وعبدالله بن عباس على منابر الإسلام، وعهده بالخلافة إلى ابنه يزيد مع ظهور فسقه وشربه المسكر جهاراً، ولعبه بالنرد، ونومه بين القيان المغنيات واصطحابه معهن، ولعبه بالطنبور بينهن، وتطريقه بني اُمية للوثوب على مقام رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وخلافته حتى أفضت الى يزيد بن عبدالملك، والوليد ابن يزيد المفتضحين الفاسقين، صاحب حبّابة وسلامة، والآخر رامي المصحف بالسّهام، وصاحب الأشعار في الزندقة والالحاد..(٤٨٧)

ليس ثمة شك في أن بعض المتأثرين بأقوال المؤلفين من أصحاب الاتجاه المحافظ يعتقدون أن في كلام ابن أبي الحديد، أو الزبير بن بكّار مبالغة دعا إليها التعصب المذهبي أو الخلاف العقدي، وأن الزبير بن بكار قد أورد تلك الرواية ـ وما فيها من أقوال لمعاوية تثبت زندقته وإلحاده ـ تقرباً الى الخلفاء العباسيين الذين يسرّهم الطعن في معاوية وبني اُمية، بسبب العداء المستحكم بين الطرفين، ولكن الذي يحقق في التاريخ الاسلامي جيداً سوف يعلم أن هذا الادعاء ليس صحيحاً البتة، وأن موقف

(٤٨٦) صحيح مسلم: كتاب الأشربة، فتح الباري ٩: ٤٥٦، صحيح ابن حبان ١٢: ١٦١، اصلاح غلط المحدثين للخطابي البستي: ١٦١، الفايق في غريب الحديث للزمخشري ١: ١٧٥، فيض القدير للمناوي ٦: ٤١١، فتح العزيز لعبدالكريم الرافعي ١: ٣٠١.

(٤٨٧) شرح نهج البلاغة ٥ : ١٢٩

العباسيين من معاوية لم يكن كما يظن هؤلاء، ولسوف أذكر موقف العباسيين من معاوية بشكل أكثر تفصيلا في أواخر هذا الفصل، بعد أن نتحقق من كلام ابن أبي الحديد وما أورده من أخبار عن معاوية معتمدين على أقوال العلماء والمحدّثين الذين يعتدّ برأيهم وهم قطعاً ليسوا متّهمين على معاوية، بل على العكس فسوف يتبين لنا أن معظم أولئك العلماء، ورغم اعترافهم بتلك الحقائق التي لا يجدون مناصاً من إثباتها، فإن البعض منهم يحاول تأويلها أو حتى تحريفها - بكل أسف- حفاظاً على كرامة معاوية الصحابي، فأخبار أولئك العلماء تناقض آراءهم في معاوية، ولكنهم يوردونها معتقدين صحتها مع محاولة التملص منها أو توجيهها وجهة تحفظ لمعاوية ماء وجهه، وهيهات من سبيل الى ذلك.

١ - لبس الحرير وجلود السباع

لا خلاف بين الفقهاء في أن لبس الحرير وجلود السباع محرّم على المسلمين، وقد أخرج المحدّثون العديد من الأحاديث عن النبي(صلى الله عليه وآله) في النهي عن ذلك، وعلم بذلك الصحابة، ورأوا معاوية يخالف النهي النبوي، فوعظوه رغم علمهم بأنه يعلم حرمة ذلك، مما يدل على مدى استهتار معاوية بأقوال النبي(صلى الله عليه وآله) ونواهيه، فقد أخرج المحدثون عن خالد، قال:

وفد المقدام بن معديكرب وعمرو بن الأسود ورجل من بني أسد من أهل قنسرين الى معاوية ابن أبي سفيان، فقال معاوية للمقدام: أعلمت أن الحسن بن علي توفي؟ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فرجّع المقدام، فقال له فلان: أتعدّها مصيبة؟ فقال له: ولم لا أراها مصيبة وقد وضعه رسول الله(صلى الله عليه وآله)في حجره فقال: «**هذا منّي وحسين من علي**»، فقال الاسدي: جمرة أطفأها الله، فقال المقدام: أما أنا فلا أبرح اليوم حتى أغيظك وأسمعك ما تكره، ثم قال: يا معاوية، إن أنا صدقتُ فصدقني، وإن أنا كذبتُ فكذّبني، قال: أفعل. قال: فأنشدك بالله، هل سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) ينهي عن لبس الذهب، قال: نعم، قال: فأنشدك بالله هل تعلم أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) نهى عن لبس الحرير؟ قال: نعم. قال: فأنشدك بالله، هل تعلم أن رسول الله(صلى الله عليه وآله)نهى عن لبس جلود السباع والركوب عليها؟ قال: نعم. قال: فوالله لقد رأيت هذا كله في بيتك يا معاوية فقال معاوية: قد علمتُ أني لن أنجو منك يا مقدام..[٤٨٨]

(٤٨٨) سنن أبي داود : ح ٤١٣١ باب في جلود النمور والسباع، سنن النسائي ح ٢٤٦٥ مختصراً، مسند أحمد ٤ : ١٣٢ وفيه : فقال له معاوية: أتراها مصيبة !

٢ ـ الاستئثار بمال الفيء

جرت العادة منذ عهد النبي(صلى الله عليه وآله) أن يؤخذ من الغنائم التي يحصل عليها المسلمون في الحرب خمسها لتوزع على الأوجه التي أمر الله سبحانه وتعالى بها، وأما الأربعة أخماس المتبقية فهي حق المقاتلين المسلمين، حيث كانت توزع عليهم. ولكن معاوية خالف أمر الله وسنة نبيه(صلى الله عليه وآله) في ذلك، عندما أراد أن يستصفي الذهب والفضة من تلك الغنائم لنفسه بغير وجه حق، فقد أخرج الحاكم النيسابوري وغيره من الحفاظ والمؤرخين، عن الحسن، قال: بعث زياد بن الحكم بن عمرو الغفاري على خراسان، فأصابوا غنائم كثيرة، فكتب إليه زياد: أما بعد، فإن أمير المؤمنين كتب أن يصطفى له البيضاء والصفراء ،ولا تقسم بين المسلمين ذهباً ولا فضة.

فكتب اليه الحكم : أما بعد، فإنك كتبت تذكر كتاب أمير المؤمنين، وإني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وإني أُقسم بالله لو كانت السماوات والأرض رتقاً على عبد، فاتقى الله، لجعل له من بينهم مخرجاً، والسلام.

أمر الحكم منادياً فنادى: أن اغدوا على فيئكم، فقسمه بينهم، وإن معاوية لما فعل الحكم في قسمة الفيء ما فعل، وجّه إليه من قيّده وحبسه، فمات في قيوده ودُفن فيها، وقال: إني مخاصم(٤٨٩).

فمعاوية يريد أن يصطفي كل الذهب والفضة من أموال الغنائم التي هي حق للمقاتلين الذين أصابوها برماحهم وسيوفهم وبذلوا فيها دماءهم، مع العلم أن الخليفة ـ لو افترضنا صحة خلافته- ليس له الحق في التحكم في غير الخمس، وهذا الخمس ليس حقاً خالصاً له، بل هو لبيت المال، ولإنفاقه على مصالح المسلمين، وكذلك كانت سيرة النبي(صلى الله عليه وآله)، فعن عبدالله بن شقيق، عن رجل من بلقين (عندما سأل رسول الله عن بعض الأمور حتى قال) : قلت: فما تقول في الغنيمة؟ قال: «لله خمسها، وأربعة أخماسها للجيش». قلت: فما أحد أولى به من أحد؟ قال: لا، ولا السهم تستخرجه من جنبك أحق به من أخيك المسلم(٤٩٠).

فأخذ شيء من أموال الفيء بغير وجه حق يعدّ من الغلول، وقد شدّد النبي(صلى الله عليه وآله)على تحريم ذلك مهما كان هذا الشيء الذي يغلّه المرء بسيطاً، وأن الشهيد

(٤٨٩) المستدرك ٣ : ٤٤٢ ، تاريخ الطبري حوادث سنة ٥٠، الكامل في التاريخ ٢ : ٤٨٧ حوادث سنة ٥٠ ، البداية والنهاية ٨ : ٤٧ ، تهذيب التهذيب ٢ : ٣٩٢ ، الاستيعاب ١ : ٤١٢ ترجمة الحكم ، اسد الغابة ١ : ٥١ ترجمة الحكم .
(٤٩٠) سنن النسائي : كتاب قسم الفي والغنيمة .

الذي يغلّ شيئاً من الغنم لا يعدّ شهيداً، ويدخل النار بسبب ذلك وقد استفاضت الأحاديث النبوية التي تؤكد ذلك، فعن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) يوم خيبر، فلم يغنم ذهباً ولا فضة، إلاّ الأموال والثياب والمتاع، فأهدى رجل من بني الضّبيب، يقال له رفاعة بن زيد لرسول الله(صلى الله عليه وآله) غلاماً يقال له مِدعَم. فوجّه رسول الله(صلى الله عليه وآله) الى وادي القرى، حتى إذا كان بوادي القرى، بينما مدعم يحط رحلا لرسول الله(صلى الله عليه وآله)، إذا سهم عائر فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنة. فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): **«كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم، لم تُصبها المقاسم، لتشتعل عليه ناراً»**، فلما سمع ذلك الناس، جاء رجل بشراك أو شراكين الى النبي(صلى الله عليه وآله)، فقال: **«شراك من نار، أو شراكان من نار»**(٤٩١).

وعن خالد الجهني، قال: توفي رجل يوم حنين، وإنهم ذكروه لرسول الله(صلى الله عليه وآله)، فزعم زيد أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال : **«صلّوا على صاحبكم»** فتغيرت وجوه الناس لذلك، فزعم زيد أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: **«إن صاحبكم قد غلَّ في سبيل الله»**، قال: ففتحنا متاعه فوجدنا خرزات من خرز يهود، ما تساوي درهمين(٤٩٢).

ومن المعلوم أن النبي(صلى الله عليه وآله) نهي عن الصلاة على المنافقين، فالذي يغل- وإن قتل بعد ذلك في سبيل الله- يصبح في زمرة المنافقين، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

قال النووي : إن الغلول يمنع من إطلاق اسم الشهادة على من غل(٤٩٣).

كما جاء عن عمرو بن شعيب، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) حين صدر من حُنين وهو يريد الجعرانة، سأله الناس حتى دنت ناقته من شجرة فتشبكت بردائه حتى نزعته عن ظهره، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): **«ردّوا علي ردائي، أتخافون أن لا أقسم بينكم ما أفاء الله عليكم والذي نفسي بيده لو أفاء الله عليكم سمر تهامة نَعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً»**. فلما نزل رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قام في الناس فقال **«أدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول عارٌ ونارٌ وشنار على أهله يوم القيامة»**. ثم تناول من الأرض

(٤٩١) صحيح البخاري ٨ : ١٧٩ كتاب الايمان والنذور ، باب هل يدخل في الايمان والنذور الأرض والغنم والزروع والامتعة، الموطأ ٢ : ٤٥٩ كتاب الجهاد ، باب ما جاء في الغلول، صحيح مسلم ١ : ١٤٨ كتاب الايمان ، باب غلظ تحريم الغلول .

(٤٩٢) الموطأ ٢ : ٤٥٨ ، سنن ابي داود : كتاب الجهاد ، باب في تعظيم الغلول ، سنن النسائي : كتاب الجنائز ، باب الصلاة على من غل ، سن ابن ماجة : كتاب الجهاد باب الغلول ح ٢٨٤٨ .

(٤٩٣) شرح صحيح مسلم ٢ : ٤٨٩

وبرة من بعير أو شيئاً ثم قال: «**والذي نفسي بيده، مالي مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه إلاّ الخمس، والخمس مردود عليكم**»(٤٩٤).

فهذه هي سيرة النبي(صلى الله عليه وآله) في الفيء، وهذه هي تحذيراته الشديدة من الغلول مهما كان بسيطاً، ورغم ذلك فإن معاوية يضرب بهذه السيرة وهذه النواهي عرض الحائط، ويريد أن يغل ذهب المغنم وفضته كله!

٣ ـ اسقاط الحد

روى ابن كثير عن القاضي الماوردي في (الأحكام السلطانية) قال: وحكي أن معاوية أتي بلصوص فقطعهم، حتى بقي واحد من بينهم فقال:

يميني أمير المؤمنين أعيذها *** بعفوك أن تلقى مكاناً يشينها

يدي كانت الحسناء لو تم سترها *** ولا تقدم الحسناء عيباً يشينها

فلا خير في الدنيا وكانت حبيبة *** إذا ما شمالي فارقتها يمينها

فقال معاوية : كيف أصنع بك؟ قد قطعنا أصحابك، فقالت أم السارق: يا أمير المؤمنين، اجعلها في ذنوبك التي تتوب منها فخلى سبيله، فكان أول حدّ تُرك في الاسلام(٤٩٥).

لا شك أن التهاون في إقامة حدود الله يعدّ بادرة خطيرة تؤدي الى تفشّي الفساد في أوصال المجتمع، لأنه يجرّيء الأشقياء على ارتكاب الجرائم دون خوف من عقاب، فينشأ من ذلك اختلال الأمن في المجتمع، ولهذا شدّد النبي(صلى الله عليه وآله) على هذا الأمر، فعن عائشة(رض) أن قريشاً أهمّتهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلّم رسول الله(صلى الله عليه وآله) ومن يجترئ عليه إلاّ أسامة حبّ رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فكلم رسول الله(صلى الله عليه وآله) فقال: «**أتشفع في حدّ من حدود الله**». ثم قام فخطب، قال: «**إنما ضلّ من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**»(٤٩٦).

ولكن معاوية أعطى لنفسه هذا الحق، وبعد قول الله تعالى (**ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون**)(٤٩٧).

(٤٩٤) الموطأ ٢ : ٤٥٧ باب ما جاء في الغلول ، سنن النسائي : كتاب قسم الفيء.
(٤٩٥) البداية والنهاية ٨ : ١٣٦ ، الأحكام السلطانية، للماوردي ٢ : ٢٢٨
(٤٩٦) صحيح البخاري ٨ : ١٩٩ باب كراهية الشفاعة في الحد .
(٤٩٧) البقرة : ٢٢٩ .

٤ ـ إستلحاق زياد

أورد الطبري خبر استلحاق معاوية زياداً ضمن أحداث سنة أربع وأربعين، قال: حدثني عمر بن شبة قال: زعموا أن رجلا من عبدالقيس كان مع زياد لما وفد على معاوية فقال لزياد: إن لابن عامر عندي يداً، فإن أذنت لي أتيته، قال: على أن تحدثني ما يجري بينك وبينه قال: نعم، فأذن له فأتاه، فقال له ابن عامر: هيه هيه وابن سمية يقبّح آثاري ويعرّض بعمالي لقد هممت أن آتي بقسامة من قريش يحلفون أن أبا سفيان لم ير سمية، قال: فلما رجع سأله زياد، فأبى أن يخبره، فلم يدعه حتى أخبره. فأخبر ذلك زياد معاوية، فقال معاوية لحاجبه: إذا جاء ابن عامر فاضرب وجه دابته عن أقصى الأبواب. ففعل ذلك به، فأتى ابن عامر يزيد، فشكا إليه ذلك فقال له: هل ذكرت زياداً؟ قال: نعم. فركب معه يزيد حتى أدخله، فلما نظر إليه معاوية قام فدخل، فقال يزيد لابن عامر: إجلس فكم عسى أن تقعد في البيت عن مجلسه فلما أطالا، خرج معاوية وفي يده قضيب يضرب به الأبواب ويتمثل:

لنا سياقٌ ولكم سياق *** قد علمت ذلكم الرفاق

ثم قعد فقال : يابن عامر، أنت القائل في زياد ما قلت! أما والله لقد علمت العرب أني كنت أعزّها في الجاهلية، وأن الإسلام لم يزدني الاّ عزاً، وأني لم أتكثر بزياد من قلة، ولم أتعزّز به من ذلة، ولكن عرفت حقاً له فوضعته موضعه، فقال: يا أمير المؤمنين، نرجع الى ما يحب زياد، قال: إذاً نرجع الى ما تحب، فخرج ابن عامر الى زياد فترضّاه.

كما ونقل الطبري عن أحمد بن زهير بسنده قال: إن زياداً لما قدم الكوفة قال: قد جئتكم في أمر ما طلبته إلاّ اليكم. قالوا: ادعنا الى ما شئت. قال: تُلحقون نسبي بمعاوية قالوا: أما بشهادة الزور، فلا. فأتى البصرة فشهد له رجل(٤٩٨).

هذه هي قصة الاستلحاق برواية شيخ المؤرخين الطبري، ولا يخفى على القارئ اللبيب أن الطبري قد بتر القصة كلها، ولم يذكر منها إلاّ ذيلها، مما هو مشهور بين المؤرخين والمحدثين والعلماء والفقهاء قاطبة، والذين أخرجوا قصة الاستلحاق بتمامها في كتبهم، وقد أنكر ابن الأثير على الطبري إكتفاءه بهذا القدر من القصة، فقال -بعد أن أوردها-:

هذا جميع ما ذكره أبو جعفر في استلحاق معاوية نسب زياد، ولم يذكر حقيقة الحال في ذلك وكيفيته، فإنه من الأمور المشهورة الكبيرة في الإسلام لا ينبغي

(٤٩٨) تاريخ الطبري ٥ : ٢١٤

اهمالها. وكان ابتداء حاله أن سمية أُم زياد كانت لدهقان زندورد بكسكر، فمرض الدهقان، فدعا الحارث بن كلدة الطبيب الثقفي، فعالجه فبرأ، فوهبه سميّة، فولدت عند الحارث أبا بكرة، واسمه نفيع، فلم يُقرّ به، ثم ولدت نافعاً، فلم يُقرّ به أيضاً، فلما نزل أبو بكرة الى النبي(صلى الله عليه وآله) حين حصر الطائف، قال الحارث لنافع: أنت ولدي، وكان قد زوّج سميّة من غلام له إسمه عبيد، وهو رومي، فولدت له زياداً.

وكان أبو سفيان بن حرب سار في الجاهلية الى الطائف، فنزل على خمّار يقال له أبو مريم السّلولي - وأسلم أبو مريم بعد ذلك وصحب النبي(صلى الله عليه وآله)- فقال أبو سفيان لأبي مريم: قد اشتهيت النساء فالتمس لي بغيّاً. فقال له: هل لك في سمية؟ فقال: هاتها على طول ثدييها وذفر بطنها، فأتاه بها، فوقع عليها فعلقت بزياد، ثم وضعته في السنة الاولى من الهجرة، فلما كبر ونشأ استكتبه أبو موسى الأشعري لما ولي البصرة، ثم إن عمر بن الخطاب استكفى زياداً أمراً، فقام فيه مقاماً مرضياً، فلما عاد إليه حضر، وعند عمر المهاجرون والأنصار، فخطب خطبة لم يسمعوا بمثلها، فقال عمرو بن العاص: لله هذا الغلام، لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه. فقال أبو سفيان -وهو حاضر-: والله إني لأعرف أباه ومن وضعه في رحم أُمه فقال علي: يا أبا سفيان، اسكت، فإنك لتعلم أن عمر لو سمع هذا القول منك لكان إليك سريعاً.

فلما ولي علي الخلافة استعمل زياداً على فارس، فضبطها، وحمى قلاعها، واتصل الخبر بمعاوية فساءه ذلك، وكتب الى زياد يتهدده ويعرّض له بولادة أبي سفيان إياه، فلما قرأ زياد كتابه قام في الناس وقال: العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق يخوّفني بقصده إياي وبيني وبينه ابنا عم رسول الله(صلى الله عليه وآله) في المهاجرين والأنصار أما والله لو أذن لي في لقائه لوجدني أضمر مخشيّاً ضرّاباً بالسيف.

وبلغ ذلك علياً فكتب إليه: إني وليتك وأنا أراك له أهلا، وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس لا توجب له ميراثاً ولا تحلّ له نسباً، وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذر ثم احذر والسلام.(٤٩٩)

فلما قُتل علي، وكان من أمر زياد ومصالحته معاوية ما ذكرناه، واضع زياد مصقلة بن هبيرة الشيباني وضمن له عشرين ألف درهم ليقول لمعاوية إن زياداً قد

(٤٩٩) (وفي رواية ابن عبد البر عن ابن عباس قال: فلما قرأ زياد الكتاب قال: شهد لي أبو الحسن وربّ الكعبة) الاستيعاب ٢ : ٩٩.

أكل فارس براً وبحراً وصالحك على ألفي ألف درهم، والله ما أرى الذي يقال إلاّ حقاً، فإذا قال لك: وما يقال؟ فقل: يقال إنه ابن أبي سفيان.

ففعل مصقلة ذلك، ورأى معاوية أن يستميل زياداً، واستصفى مودته بالتحاقه، فاتفقا على ذلك، وأحضر الناس وحضر من يشهد لزياد، وكان فيمن حضر: أبو مريم السلولي، فقال له معاوية: بم تشهد يا أبا مريم؟ فقال: أنا أشهد أن أبا سفيان حضر عندي وطلب مني بغياً، فقلت له: ليس عندي إلاّ سمية، فقال: ايتني بها على قذرها ووضرها، فأتيته بها، فخلا معها، ثم خرجت من عنده وإن اسكيتها لتقطران منياً. فقال له زياد: مهلا أبا مريم، إنما بعثت شاهداً ولم تبعث شاتماً

فاستلحقه معاوية، وكان استلحاقه أول ما رُدّت أحكام الشريعة علانية، فإن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قضى بالولد للفراش وللعاهر الحجر.

وكتب زياد الى عائشة : من زياد بن أبي سفيان، وهو يريد أن يكتب له: الى زياد بن أبي سفيان، فيحتج بذلك، فكتبت: من عائشة اُم المؤمنين الى ابنها زياد

وعظم ذلك على المسلمين عامة وعلى بني اُمية خاصة، وجرى بذلك أقاصيص يطول ذكرها...

ثم قال ابن الاثير : ومن اعتذر لمعاوية قال: إنما استلحق معاوية زياداً لأن أنكحة الجاهلية كانت انواعاً لا حاجة الى ذكر جميعها، وكان منها أن الجماعة يجامعون البغي فإذا حملت وولدت ألحقت الولد لمن شاءت منهم فيلحقه، فلما جاء الاسلام حرّم هذا النكاح، إلاّ أنه أقرّ كل ولد كان ينسب الى أب من أي نكاح كان من أنكحتهم على نسبه، ولم يفرق بين شيء منها، فتوهم معاوية أن ذلك جائز له، ولم يفرّق بين استلحاق في الجاهلية والاسلام، وهذا مردود لاتفاق المسلمين على انكاره، ولأنه لم يستحلق أحد في الاسلام مثله ليكون به حجة(٥٠٠).

وقال ابن عبد البر : فلما بلغ أبا بكرة أن معاوية استلحقه وأنه رضي بذلك، آلى يميناً لا يكلمه أبداً، وقال: هذا زنّى اُمه وانتفى من أبيه، لا والله ما علمت سمية رأت أبا سفيان قط، ويله ما يصنع بأُم حبيبة زوج النبي(صلى الله عليه وآله)، أيريد أن يراها، فإن حجبته فضحته، وإن رآها فيالها مصيبة يهتك من رسول الله(صلى الله عليه وآله)حرمة عظيمة!

وحج زياد في زمن معاوية ودخل المدينة، فأراد الدخول على اُم حبيبة، ثم ذكر قول أبي بكرة فانصرف عن ذلك.

(٥٠٠) الكامل في التاريخ ٣ : ٤٤١ .

وقيل : إن أم حبيبة زوج النبي(صلى الله عليه وآله) حجبته ولم تأذن له في الدخول عليها، وقيل : انه حج ولم يزر من أجل قول أبي بكرة وقال: جزى الله أبا بكرة خيراً، فما يدع النصيحة على حال(٥٠١).

وقال ابن كثير :

قال ابن جرير ، وفي هذه السنة استلحق معاوية زياد بن أبيه فألحقه بأبي سفيان، وذلك أن رجلا شهد على إقرار أبي سفيان أنه عاهر بسمية أم زياد في الجاهلية وأنها حملت بزياد هذا منه، فلما استلحقه معاوية قيل له: زياد بن أبي سفيان، وقد كان الحسن البصري ينكر هذا الاستلحاق ويقول: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»(٥٠٢).

هذه هي قصة الاستلحاق كما ذكرها الأئمة الأعلام، ومن المؤسف أن تجد من يعتذر لمعاوية عن هذا العمل الشنيع الذي استنكره ابن الأثير وكفانا مؤونة الرد على المعتذرين لمعاوية، ولكن أسفاً على الاسلام أن يتصدى بعض الفقهاء والعلماء لتبرير مثل هذه الجرائم التي تقصم ظهر الاسلام والمسلمين، إلاّ أن ذلك ليس غريباً على من يبيع آخرته بدنيا غيره، فإن سياسة الترغيب والترهيب التي اتّبعها معاوية قد أوجدت طبقات من المتكسّبين الذين يبيعون دينهم بالدرهم .

قال عبدالرحمن الشرقاوي: «وكان بعض المنتسبين الى الفقه والثقافة وعلوم الدين قد صانعوا حكام بني أمية وزيّنوا لهم الاستبداد، وأفتوا لهم بأنهم ظل الله في الأرض، وأنهم لا يُسألون عما يفعلون.. وفي الحق أن الحكام الأمويين كانوا يحسنون مكافأة هؤلاء المتملقين فيجزلون لهم العطاء، ويولّون بعضهم»(٥٠٣).

لكن الذي يبعث على الاستغراب أكثر من ذلك، أن يتصدى بعض العلماء لتبرير أعمال معاوية وبني أمية بعد انقضاء دولتهم بقرون متطاولة -كما يفعل ابن العربي مثلا- فإذا كان أولئك العلماء العملاء قد باعوا دينهم مقابل ثمن قبضوه من معاوية وبني أمية، فممن يرتجي هؤلاء الجزاء؟! وكيف ينسون المواقف الشجاعة التي وقفها بعض الفقهاء الأتقياء الذين ندّدوا بعمل معاوية علانية رغم أنهم كانوا في ملكه ودولته، ومن هؤلاء: الحسن البصري الذي قال: أربع خصال كنّ في معاوية، لو لم يكن فيه منهنّ إلاّ واحدة، لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها

(٥٠١) الاستيعاب ٢ : ٩٩ ، وانظر اسد الغابة ٢ : ٣٣٦ ، تاريخ ابن عساكر ٥ : ٤٠٦ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦ : ١٨٧ ، تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٩ ، مروج الذهب ٣ : ١٥ وغيرها من المصادر .

(٥٠٢) البداية والنهاية ٨ :

(٥٠٣) أئمة الفقه التسعة : ٤٣ .

أمرها بغير مشورة منهم، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادّعاؤه زياداً وقد قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**، وقتله حجراً، ويلا له من حجر وأصحاب حجر، ويلا له من حجر وأصحاب حجر»(٥٠٤).

وعن ابن حرملة قال : ما سمعت سعيد بن المسيب سبَّ أحداً من الائمة قط، إلاّ أني سمعته يقول : قاتل الله فلاناً (يعني معاوية) كان أول من غيّر قضاء رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وقد قال النبي(صلى الله عليه وآله): «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**»(٥٠٥).

٥ ـ أكل الربا

من الأمور التي لا يخالج أحداً من المسلمين الشك فيها مطلقاً، حرمة الربا تحريماً قطعياً، والنهي الشديد عنه، والوعيد لآكله في الكتاب العزيز والسنّة النبوية الشريفة، وفقهاء المسلمين مجمعون بكافة طوائفهم على حرمة الربا وأنه من الكبائر.

وقد نعت القرآن الكريم أكلة الربا بأقبح النعوت والأوصاف، وتوّعدهم بشدّة، فقال عزّ من قائل: (**الذينَ يأكلونَ الرِّبا لا يقومونَ إلاّ كما يَقومُ الذي يَتخبَّطهُ الشيطانُ مِنَ المسّ ذلكَ بأنّهم قالوا إنَّما البيعُ مِثْلُ الرِّبا وأحَلَّ اللهُ البيعَ وَحَرَّمَ الربا فمنْ جاءَهُ مَوعِظَةٌ مِنْ ربِّهِ فانتهى فلهُ ما سَلَفَ وأمرهُ الى اللهِ ومَنْ عادَ فأولئكَ أصحابُ النّار هُمْ فِيها خالِدونَ**)(٥٠٦)، فالذي يصر على أكل الربا هو من الخالدين في النار، مثله في ذلك كمثل الكفار والمشركين كما وتهدّد القرآن الكريم المصرّين على أكل الربا بحرب من الله ورسوله، فقال تعالى ذكره: (**يا أيُّها الذينَ آمَنوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرّبا إنْ كُنتُمْ مُؤمِنِينَ * فإنْ لَمْ تَفعلُوا فأذَنُوا بحرب مِنَ اللهِ وَرَسولِه**)(٥٠٧).

أما السنّة النبوية الشريفة، فالأحاديث فيها في التشديد على حرمة الربا أكثر من أن تحصى، ولا يخلو منها كتاب من كتب الحديث، والفقه، وسوف أكتفي بالاستشهاد بأمثلة قليلة جداً منها:

(٥٠٤) الطبري ٥ : ٢٧٩ ، الكامل في التاريخ ٣ : ٤٨٧ ، تاريخ ابن عساكر ٢ : ٣٨١ ، البداية والنهاية ٨ : ١٣٩ ، النجوم الزاهرة ١ : ١٤١ وغيرها .

(٥٠٥) حلية الاولياء ٢ : ١٦٧ ، والحديث في صحيح البخاري ٨ : ١٩١ كتاب الفرائض ، باب الولد للفراش، حرة كانت أو أمة ، صحيح مسلم كتاب الرضاع ، سنن الترمذي ٣ : ٤٦٣ ح ١١٥٧ ، سنن النسائي : ٣ : ٣٧٨ ح ٥٦٧٦ ، سنن أبي داود ٢ : ٢٨٢ ح ٢٢٧٣ .

(٥٠٦) البقرة : ٢٧٥ .

(٥٠٧) البقرة : ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

عن أبي جحيفة قال: رأيت أبي اشترى حجاماً، فسألته عن ذلك، قال: إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) نهى عن ثمن الدم وثمن الكلب وكسب الأمَة، ولعن الواشمة والمستوشمة، وآكل الربا ومؤكله، ولعن الصور(٥٠٨).

وعن أبي هريرة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال : «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات**»(٥٠٩).

وعن إبن مسعود مرفوعاً : «**الربا ثلاث وسبعون باباً، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمّه**»(٥١٠).

هذا هو حكم آكل الربا ومؤكله في القرآن والسنّة، وهذا هو عقابه الأليم، فهو خالد في النار كالكفار، وهو محارب لله ورسوله...الخ.

ومع كل هذا فإن معاوية بن أبي سفيان الصحابي الذي يفترض أنه ممن يأخذ المسلمون دينهم عنهم لا يتورع عن أكل الربا، وليس هذا من تخرصات أحد مخالفيه أو من أكاذيب أهل البدع -كما يسميهم البعض- ولا هو من تقوّلات التاريخية الذين يكتبون للملوك المناوئين لبني أمية، بل هو بشهادة الصحابة من أولي الفضل والتُقى، أخرجها عنهم أئمة الحديث من علماء الجمهور، فعن عطاء بن يسار: أن معاوية بن أبي سفيان باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) ينهى عن مثل هذا إلاّ مثلا بمثل. فقال له معاوية: ما أرى بثمل هذا بأساً! فقال أبو الدرداء: من يعذرني من معاوية أنا أخبره عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ويخبرني عن رأيه لا أُساكنك بأرض أنت بها، ثم قدم أبو الدرداء على عمر بن الخطاب فذكر له ذلك، فكتب عمر بن الخطاب الى معاوية: أن لا تبيع ذلك إلاّ مثلا بمثل، وزناً بوزن(٥١١).

وعن أبي قلابة قال : كنت بالشام في حلقة فيها مسلم بن يسار، فجاء أبو الأشعث، قال: قالوا: أبو الاشعث، أبو الاشعث; فجلس، فقلت له: حدّث أخانا حديث عبادة بن

(٥٠٨) صحيح البخاري ٣ : ٧٨ كتاب البيوع باب مؤكل الربا ، و ٣ : ١١١ باب ثمن الكلب .

(٥٠٩) صحيح مسلم ١ : ٦٤ ، صحيح البخاري ٣ : ١٩٥ ، سنن أبي داود ح ٣٣٣٣ ، سنن البيهقي ٥ : ٢٧٥ ، سنن الترمذي ٣ : ١٢ ح ١٢٠٦ ، سنن ابن ماجة ٢ : ٧٦٤ ح ٢٢٧٧ .

(٥١٠) المستدرك على الصحيحين ٢ : ٤٣ ح ٢٢٥٩ ، شعب الايمان للبيهقي ٤ : ٣٩٤ ح ٥٥١٩٩

(٥١١) الموطأ ٢ : ٦٣٤ باب بيع الذهب بالفضة تبراً وعيناً . السنن الكبرى للبيهقي ٥ : ٢٨٠ كتاب البيوع ، باب تحريم التفاضل في الجنس الواحد . السنن الكبرى للنسائي ٤ : ٣٠ كتاب البيوع: بيع الذهب بالذهب ح ٦١٦٤

الصامت. قال: نعم، غزونا غزاة وعلى الناس معاوية، فغنمنا غنائم كثيرة، فكان فيما غنمنا: آنية من فضة، فأمر معاوية رجلا أن يبيعها في أعطيات الناس، فتسارع الناس في ذلك، فبلغ عبادة بن الصامت فقام فقال: إني سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) ينهى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبُر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح، إلاّ سواء بسواء، عيناً بعين، فمن زاد أو ازداد فقد أربى. فردّ الناس ما أخذوا، فبلغ معاوية فقام خطيباً فقال: ألا ما بال رجال يتحدثون عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) أحاديث قد كنّا نشهده ونصحبه فلم نسمعها منه فقام عبادة بن الصامت فأعاد القصة ثم قال: لنحدثن بما سمعنا عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) وإن كره معاوية (أو قال: وإن رغم)، ما اُبالي أن لا أصحبه في جنده ليلة سوداء[٥١٢].

وفي رواية لابن عساكر عن الحسن، وفيها: فقال له معاوية: اسكت عن هذا الحديث ولا تذكره فقال له: بلى وإن رغم أنف معاوية، ثم قام فقال له معاوية: ما نجد شيئاً أبلغ فيما بيني وبين أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله) من الصفح عنهم[٥١٣].

إن الملاحظ أن معاوية يريد أن يقرن نفسه بأصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)الذين سارعوا الى الإيمان به منذ البداية، ورافقوه وشهدوا معه المشاهد، فيستنكر عليهم أن يرووا عنه أحاديث لم يسمع معاوية بها ولا أدري ما الغريب في ذلك فعبادة بن الصامت ممن بايع النبي(صلى الله عليه وآله) ليلة العقبة، وهو من النقباء، وهو بدري، وقد شهد مع النبي مشاهده[٥١٤].

بينما معاوية لم يُسلم إلاّ بعد فتح مكة، ولم يصحب النبي(صلى الله عليه وآله) إلاّ فترة وجيزة، فأنّى له الاحاطة بحديث النبي وسننه، حتى ينكر على عبادة وأمثاله من السبّاقين ولو أن معاوية اعترف بجهله بذلك، وارتدع عما يفعل، لكان له بعض العذر، لكننا نراه يصرّ على التمسك برأيه وينعى على الآخرين تبصيره بالحقيقة - إن كان يجهلها- مع العلم أن معاوية لابد وأن يكون قد سمع النبي(صلى الله عليه وآله) في حجة الوداع، في السنة العاشرة من الهجرة وهو يخطب قائلا: **«أيها الناس. اسمعوا قولي فلعلي**

(٥١٢) صحيح مسلم ٣ : ٣٩٨ كتاب المساقاة : باب صرف وبيع الذهب بالورق نقداً ، وسنن ابن ماجة ١ : ٢٢ ح ١٨ باب اتباع سنة رسول الله(ص) ، والسنن الكبرى للنسائي ٤ : ٢٧ كتاب البيوع : بيع الشعير بالشعير ح ٦١٥٤ ، ٦١٥٥ ، والسنن الكبرى للبيهقي ٥ : ٢٧٧ كتاب البيوع وتاريخ ابن عساكر ٢٦ : ١٧٦

(٥١٣) تاريخ دمشق ٨ : ٨٦٦

(٥١٤) روى ابن سعد عن خالد بن معدان قال: لم يبق من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) بالشام أحد أوثق ولا أفقه ولا أرضى من عباد بن الصامت وشداد بن أومى، الطبقات: ٣٧٤ .

لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، وكل رباً موضوع، لكم رؤوس أموالكم، وإن ربا العباس بن عبدالمطلب موضوع كله ...»(٥١٥).

ولا يكتفي معاوية بكل ذلك، بل يمنّ على أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله) بعد ذلك بالصفح عنهم وكأنهم هم المذنبون بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وهو المصيب باصراره على المنكر والمحرّم!.

٦ ـ بيع الأصنام

قال السرخسي : وذُكر عن مسروق(رحمه الله) قال: بعث معاوية(رض) بتماثيل من صفر تُباع بأرض الهند، فمرّ بها على مسروق رحمه الله، قال: والله لو أني أعلم أنه يقتلني لغرّقتها، ولكني أخاف أن يعذبني فيفتنني، والله لا أدري أي الرجلين معاوية، رجل قد زُيّن له سوء عمله، أو رجل يئس من الآخرة فهو يتمتع في الدنيا .

وقيل : هذه تماثيل كانت أصيبت في الغنيمة، فأمر معاوية(رض) ببيعها بأرض الهند بها الاسلحة والكراع للغزاة، فيكون دليلا لأبي حنيفة في جواز بيع الصنم والصليب ممن يعبده، كما هو طريقة القياس، وقد استعظم ذلك مسروق رحمه الله، كما هو طريق الاستحسان الذي ذهب إليه أبو يوسف ومحمد رحمهما الله في كراهة ذلك.

ومسروق من علماء التابعين، وكان يزاحم الصحابة رضي الله عنهم في الفتوى، وقد رجع ابن عباس الى قوله في مسألة النذر بذبح الولد، ولكن مع هذا، قول معاوية (رض) مقدّم على قوله وقد كانوا في المجتهدات يلحق بعضهم الوعيد بالبعض، كما قال علي(رضي الله عنه): من أراد أن يتقحم جراثيم جهنم فليقل في الحد، يعني بقول زيد(رض). وإنما قلنا هذا لأنه لا يُظن بمسروق رحمه الله أنه قال في معاوية(رض) ما قال عن اعتقاد، وقد كان هو من كبار الصحابة رضي الله عنهم، وكان كاتب الوحي وكان أمير المؤمنين، وقد أخبره رسول الله(صلى الله عليه وآله)بالملك بعده فقال له(عليه السلام) يوماً: **«إذا ملكت أمر أمتي فأحسن إليهم»**، فكان هو مخطئاً في مزاحمة علي(رضي الله عنه)، تاركاً لما هو واجب عليه من الانقياد له، لا يجوز أن يقال فيه أكثر من هذا(٥١٦).

(٥١٥) تاريخ الطبري ٣ : ١٤٨ ، الكامل لابن الاثير ٢ : ٣٠٢ ذكر حجة الوداع ، تاريخ الإسلام ١ : ٧٠٤ ، مغازي الواقدي ٣ : ١٠٨٨ ، السيرة النبوية لابن هشام ٤ : ٢٣٠ ، الطبقات الكبرى ٢ : ١٧٢ ، تاريخ خليفة بن خياط : ٩٤ ، نهاية الإرب ١٧ : ٣٧١ ، عيون الأثر ٢ : ٢٧٢ .

(٥١٦) المبسوط : ٢٤ : ٤٦ كتاب الاكراه .

لقد أوردت كلام السرخسي كله في هذه القضية للتذكير بأن بعض فقهاء العصر الأموي قد قبلوا أن يبيعوا دينهم بدراهم معاوية، إلاّ أننا نجد في الفقهاء المتأخرين عن عصر بني اُمية -كأمثال السرخسي هذا- من يبيع دينه لمعاوية دون مقابل، بعد أن أضلته أساليب الدعاية الأموية على مرّ القرون، فيستميت في الدفاع عن معاوية متأولا كلام التابعي مسروق بن الأجدع الواضح الذي لا لبس فيه ولانكارة - من باب حسن الظن بالصحابة كما درجوا على القول- ثم يفتعل لمعاوية مناقب عظيمة من كتابته الوحي وبشارة النبي المزعومة له بالملك وغيرها، وسوف اُؤجل البحث في مناقب معاوية ورأي الحفاظ والعلماء فيها إلى مباحث قادمة، إلاّ أنني اُريد فقط أن أذكر هذا الفقيه وأمثاله بقول النبي(صلى الله عليه وآله) في مسألة بيع الأصنام، مكتفياً بما أخرجه أعظم المحدثين، محمد بن اسماعيل البخاري، عن جابر بن عبدالله، أنه سمع رسول الله(صلى الله عليه وآله)يقول عام الفتح وهو بمكة : «**إن الله ورسوله حرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام**». فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا ، هو حرام» ، ثم قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) عند ذلك : «**قاتل الله اليهود، إن الله لمّا حرّم شحومها، جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه**»(٥١٧).

٧ - شرب الخمر

لا يخامر أحداً من المسلمين شك في حرمة الخمر، وتحذير النبي(صلى الله عليه وآله)منها، فهي اُم الخبائث، وهي التي تفتح الباب للكثير من الشرور والمفاسد، وقد تسببت في تهديم الكيان الأسري، ومفاسدها أكثر من أن تحصى، لذا حاربها الإسلام، ونظراً لآثارها العميقة على المدمن عليها، وصعوبة تخلصه منها والفكاك من شراكها، ولأنها كانت من الأمور التي اعتاد عليها أبناء المجتمع الجاهلي، فقد تدرجت أحكام الشريعة الإسلامية في النهي عنها، حتى جاء الوقت المناسب، فأعلن الكتاب العزيز تحريمها بشكل قطعي، وذلك في قوله تعالى: (**يا أيُّها الذينَ آمنُوا إنّما الخَمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ منْ عَمَلِ الشيطانِ فاجتَنبوهُ لعلّكم تُفلحونَ**)(٥١٨).

ثم جاء دور السنّة النبوية الشريفة في التشديد على النهي عنها واجتنابها، والوعيد لمن أصرّ على شربها، أو حتى بيعها أو حملها...الخ.

(٥١٧) صحيح البخاري ٣ : ١١٠ باب بيع الميتة والأصنام .
(٥١٨) المائدة : ٩٠ .

فعن أبي الدرداء، قال: أوصاني خليلي(صلى الله عليه وآله): «**لا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر**»(٥١٩).

وعن أبي بكر بن عبدالرحمان بن الحرث عن أبيه قال: سمعت عثمان(رضي الله عنه)يقول: اجتنبوا الخمر فإنها اُم الخبائث، أنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبّد، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى الى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليَّ أو تشرب من هذه الخمرة كأساً، أو تقتل هذا الغلام. قال: فاسقيني من هذا الخمر كأساً، فسقته كأساً. قال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس. فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر، إلاّ ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه(٥٢٠).

وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**مدمن الخمر كعابد وثن**»(٥٢١).

وعن أبي الدرداء، عن النبي(صلى الله عليه وآله) قال: «**لا يدخل الجنة مدمن خمر**»(٥٢٢).

وعن أبي علقمة مولاهم، وعبدالرحمان بن عبدالله الغافقي، أنهما سمعا ابن عمر يقول: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه**»(٥٢٣).

وعن عبدالله بن عمر، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب لم يتب الله عليه، وسقاه من نهر الخبال**». قيل : يا أبا عبدالرحمان، وما نهر الخبال؟ قال: نهر من صديد أهل النار(٥٢٤).

وعن مسروق ، قال: القاضي إذا أكل الهدية فقد أكل السحت ، وإذا قبل الرشوة بلغت به الكفر، وقال مسروق: من شرب الخمر فقد كفر، وكفره أن ليس له صلاة(٥٢٥).

(٥١٩) سنن ابن ماجة ٢ : ٣١١ كتاب الأشربة : باب الخمر مفتاح كل شر .
(٥٢٠) سنن النسائي ٨ : ٣١٥
(٥٢١) سنن ابن ماجة : كتاب الأشربة .
(٥٢٢) المصدر السابق .
(٥٢٣) سنن أبي داود ٣ : ٣٢٤ كتاب الأشربة .
(٥٢٤) جامع الترمذي ٣ : ٤٤ وقال : هذا حديث حسن ، وقد روي نحو هذا عن عبدالله بن عمرو وابن عباس عن النبي(ص)، وانظر مسند أبي داود الطيالسي ح ١٩٠١ ، ومصنف عبد الرزاق ح ١٠٧٥٨ ، ومسند أبي يعلى ح ٥٦٨٦ ، ومعجم الطبراني الكبير ح ١٣٤٤١ ، ومصابيح السنة للبغوي ح ٣٠١٦ ، وتحفة الاشراف ح ٧٣١٨ ، ومسند احمد ٢ : ٣٥ ، وشعب الإيمان للبيهقي ح ٥٥٨٠ .
(٥٢٥) سنن النسائي ٨ : ٣١٤

فبعد هذه الروايات التي أخرجها الأئمة المحدّثون -وهي غيض من فيض- في موقف الشريعة الإسلامية من الخمر وشاربها، نعود لنسائل اولئك الأئمة عما أخرجوا عن موقف معاوية بن أبي سفيان من الخمر:

أخرج الإمام أحمد عن عبدالله بن بريدة، قال: دخلت أنا وأبي على معاوية فأجلسنا على الفرش، ثم اُتينا بطعام فأكلنا، ثم أتينا بالشراب; فشرب معاوية ثم ناول أبي قال: ما شربته منذ حرّمه رسول الله(صلى الله عليه وآله). ثم قال معاوية: كنت أجمل شباب قريش وأجودهم ثغراً، وما شيء كنت أجد له لذة كما كنت أجده وأنا شاب غير اللبن أو إنسان حسن الحديث يحدثني(٥٢٦).

وعن عبيد بن رفاعة قال: مرّ على عبادة بن الصامت وهو في الشام قطارة تحمل الخمر، فقال: ما هذه، أزيت؟ قيل: لا، بل خمر تباع لفلان فأخذ شفرة من السوق فقام إليها فلم يذر فيها راوية إلاّ بقرها، وأبو هريرة إذ ذاك بالشام، فأرسل فلان الى أبي هريرة يقول له: أما تمسك عنّا أخاك عبادة! أما بالغدوات فيغدو الى السوق فيفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأما بالعشي فيقعد في المسجد ليس له عمل إلاّ شتم أعراضنا أو عيبنا، فأمسك عنا أخاك، فأقبل أبو هريرة يمشي حتى دخل على عبادة فقال له: يا عبادة، ما لك ولمعاوية ذره وما حمل، فإن الله يقول: (**تِلكَ اُمّة قدْ خَلَتْ لها ما كسبتْ وَلكمْ ما كسبتُمْ**)(٥٢٧).

قال : يا أبا هريرة ، لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله(صلى الله عليه وآله)، بايعناه على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا في الله لومة لائم، وعلى أن ننصره إذا قدم علينا يثرب، فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأهلنا، ولنا الجنة، فهذه بيعة رسول الله(صلى الله عليه وآله) التي بايعناه عليها، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما بايع عليه رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وفى الله له بما بايع عليه نبيّه، فلم يكلمه أبو هريرة بشيء(٥٢٨).

مرة اُخرى يتصدى الصحابي عبادة بن الصامت لمعاوية السادر في غيّه وكأنه لم يسمع نهي النبي(صلى الله عليه وآله) عن الخمر، أو أن أحداً من ذلك الجم الغفير من الصحابة لم ينبهه الى ذلك إن كان هو قد صُمَّ عن السماع، ولا يكتفي بالاستمرار في إصراره على المعصية، بل يلوم الصحابي الذي ينصحه أو يمنعه من ارتكاب ذلك

(٥٢٦) مسند أحمد ٦ : ٤٧٦، ولاشك أن الراوي قد أبدل كلمة الخمر باللبن.

(٥٢٧) البقرة : ١٣٤ .

(٥٢٨) تاريخ دمشق ٢٦ : ١٩٧ ، مختصر تاريخ دمشق ١١ : ٣٠٦

الاثم، والأغرب من ذلك موقف أبي هريرة، فهو بدلا من أن ينكر على معاوية أفعاله تلك، نجده ينكر على عبادة أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر! وكأنه لم يسمع شيئاً هو الآخر عن كل ذلك، رغم أنه أكثر من روى عن النبي(صلى الله عليه وآله) من الصحابة، والعجب منه أن يحاول إقناع عبادة بالآية الكريمة التي استشهد بها، وكأن معاوية من قوم عاد وثمود أو من بني إسرائيل ويفوته قوله تعالى (**وأنَّ هذهِ أُمّتكُمْ أمة واحدةً وأنا ربُّكمْ فاعبُدونِ**)[٥٢٩].

ولكن عبادة ألقمه حجراً حين عرّض بتأخر إسلام أبي هريرة، وعدم شهادته العهد بين أصحاب العقبة وبين النبي(صلى الله عليه وآله).

وليس عبادة بن الصامت وحده الذي فعل ذلك بروايا الخمر المحمولة لمعاوية، فإن صحابياً آخر قد فعل مثل ذلك، مما يدل على تكرر هذه الحالة عند معاوية واصراره عليها، فعن محمد بن كعب القرضي، قال: غزا عبدالرحمان بن سهل الأنصاري في زمن عثمان ومعاوية أمير على الشام، فمرّت به روايا خمر، فقام إليها برمحه فبقر كل راوية منها، فناوشه الغلمان حتى بلغ شأنه معاوية، فقال: دعوه فإنه شيخ قد ذهب عقله.

فقال : كذب والله ما ذهب عقلي، ولكن رسول الله(صلى الله عليه وآله) نهانا أن ندخل بطوننا وأسقيتنا خمراً، وأحلف بالله لئن بقيت حتى أرى في معاوية ما سمعت من رسول الله(صلى الله عليه وآله) لابقرنّ بطنه أو لأموتن دونه[٥٣٠].

ويبدو أن الصحابي عبدالرحمان بن سهل الأنصاري قد سمع عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)حديثاً في معاوية لم يكشف النقاب عنه، وتعهد بقتل معاوية إذا رأى مصداق الحديث بعينه، ولكن يبدو أن القدر لم يمهله ليبر بيمينه، وسوف يأتي تفصيل ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فهذه حال معاوية عندما كان أميراً على الشام، ولعل هذه التصرفات كانت من الأسباب القوية التي جعلت علي بن أبي طالب يبادر الى عزل معاوية بعد ما تولى الخلافة مباشرة، ولم يقرّه على عمله، وتحمل في سبيل ذلك خوض غمار الحروب الطاحنة لمنع معاوية من نشر الفساد، لكن من المؤسف أن عثمان بن عفان لم يأخذ على يد معاوية، بل تركه مطلق اليدين، بل وتولى الدفاع عنه وعن تصرفاته أحياناً عندما كتب إليه معاوية: إن عبادة قد أفسد عليّ الشام وأهله، فأما أن تكفّه إليك، وإما

(٥٢٩) الأنبياء : ٩٢ .

(٥٣٠) الاستيعاب ٢ : ٤٠١ ، أسد الغابة ٣ : ٢٩٩ ، الاصابة في معرفة الصحابة ٢ : ٤٠١ ، تهذيب التهذيب ٦ : ١٧٣ ، تاريخ دمشق ٣٤ : ٤١٩ ، مختصر تاريخ دمشق ١٤ : ٢٦٣ .

أن أُخلّي بينه وبين الشام، فكتب إليه عثمان: أن أرحل عبادة حتى ترجعه الى داره من المدينة، فبعث بعبادة حتى قدم المدينة، فدخل على عثمان في الدار وليس فيها إلاّ رجل من السابقين أو من التابعين الذين قد أدركوا القوم متوافرين، فلم يفجَ عثمان به إلاّ وهو قاعد في جنب الدار، فالتفت إليه وقال: مالنا ولك ياعبادة. فقام عبادة بين ظهراني الناس فقال: إني سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) أبا القاسم يقول: «**إنه سيلي أموركم بعدي رجال يعرّفونكم ما تنكرون، وينكرون عليكم ما تعرفون، فلا طاعة لمن عصى، فلا تضلّوا بربكم**». فوالذي نفس عبادة بيده، إن فلاناً لمن اولئك. فما راجعه عثمان بحرف[٥٣١].

لقد كانت سيرة معاوية هي التخلص من أي صحابي يعترض على مفاسده، فقبل عبادة كان هناك أبو ذر الغفاري الذي اعترض على تصرفات معاوية، فبعثه معاوية الى عثمان بعد أن كتب إليه بأن أبا ذر قد أنغل عليه الشام، ثم أرسله على بعير بلا وطاء حتى كاد يهلك في الطريق. وكان هدف معاوية واضحاً، وهو إبقاء الشام وأهله في حالة استلاب فكري لا يرون منه الحقيقة أبداً إلاّ كما يريدها معاوية، وقد استطاع معاوية بدهائه وعلى مدى عشرين عاماً من إمارته على الشام أن ينشيء جيلا منفصلا عن الأحداث الحقيقية التي تدور حوله، جيل لا يكاد يعرف من شرائع الإسلام إلاّ مظهرها الشكلي فقط، بينما هو لا يرى ما يجري حوله إلاّ بالشكل الزائف الذي توحيه وسائل إعلام معاوية له، فقد ذكر المؤرخون الذين ارّخوا لحرب صفين - مثلا على ما ندّعي- «ان هاشم بن عتبة»[٥٣٢]. استصرخ الناس عند المساء : ألا من كان له الى الله حاجة، ومن كان يريد الآخرة فليقبل، فأقبل إليه ناس كثير شدّ بهم على أهل الشام مراراً، ليس من وجه يحمل عليه إلاّ صبروا له! فقاتل قتالا شديداً ثم قال لأصحابه: لا يهولنكم ما ترون من صبرهم، فوالله ما ترون منهم إلاّ حميّة العرب

(٥٣١) مسند أحمد ٦ : ٤٤٤ ، المستدرك على الصحيحين ٣ : ٣٥٧ وصححه على شرط الشيخين ، تاريخ دمشق ٢٦ : ١٩٨ ، مختصر تاريخ دمشق ١١ : ٣٠٧

(٥٣٢) يكنى أبا عمرو ، ويعرف بالمرقال . نزل الكوفة ، أسلم يوم الفتح ، وكان من الشجعان الأبطال والفضلاء الأخيار ، فقئت عينه يوم اليرموك بالشام ، وهو الذي فتح جلولاء من بلاد الفرس وهزم الفرس ، وكانت جلولاء تسمى فتح الفتوح ... شهد صفين مع علي(رض) ، وكانت معه الراية ، وهو على الرجالة ، وقتل يومئذ ... وفيه يقول أبو الطفيل عامر بن واثلة :

يا هاشم الخير جزيت الجنة *** قاتلتَ في الله عدّو السُّنة

قال ابن الكلبي وابن حيان : له صحبة . وقال المرزباني : لما جاء قتل عثمان الى أهل الكوفة ، قال هاشم لأبي موسى الأشعري : تعال يا أبا موسى بايع لخير هذه الأمة علي، فقال : لا تعجل فوضع هاشم يده على الأخرى فقال: هذه لعلي وهذه لي، وقد بايعت علياً، وأنشد :

أُبايع غير مكترث علياً *** ولا أخشى أميراً أشعرياً

أُبايعه وأعلم أن سأُرضي *** بذاك الله حقاً والنبيّا

الاصابة ٦ : ٥١٥ ، أسد الغابة ٥ : ٣٥٣ .

وصبرها تحت راياتها وعند مراكزها، وإنهم لعلى ضلال، وإنكم لعلى الحق، يا قوم اصبروا وصابروا واجتمعوا، وامشوا بنا الى عدونا على تؤدة رويداً، واذكروا الله، ولا يسلمنّ رجل أخاه، ولا تكثروا الالتفات ، واصمدوا صمدهم، وجالدوهم محتسبين حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين.

قال أبو سلمة : فبينا هو وعصابة من القراء يجالدون أهل الشام، إذ طلع عليهم فتىً شاب وهو يقول:

أنا ابن أرباب ملوك غسان *** والدائن اليوم بدين عثمان

أنبأنا قراؤنا بما كان *** أن علياً قتل ابن عفّان

ثم شدّ لا ينثني حتى يضرب بسيفه، ثم جعل يلعن علياً ويشتمه ويسهب في ذمه، فقال له هاشم بن عقبة : يا هذا إن الكلام بعده الخصام، وإن لعنك سيّد الأبرار بعده عقاب النار، فاتق الله فإنك راجع الى ربك فيسألك عن هذا الموقف وعن هذا المقال.

قال الفتى : إذا سألني ربي قلت: قاتلتُ أهل العراق لأن صاحبهم لا يصلّي كما ذُكر لي وإنهم لا يصلّون ، وصاحبهم قتل خليفتنا، وهم آزروه على قتله. فقال له هاشم: يا بني، وما أنت وعثمان إنما قتله أصحاب محمد الذين هم أولى بالنظر في أمور المسلمين، وإن صاحبنا كان أبعد القوم عن دمه، وأما قولك إنه لا يصلّي، فهو أول من صلّى مع رسول الله، وأول من آمن به، وأما قولك: إن أصحابه لا يصلون، فكل من ترى معه قرّاء الكتاب. لا ينامون الليل تهجداً، فاتق الله واخش عقابه، ولا يغررك من نفسك الأشقياء الضالّون.

فقال الفتى : يا عبدالله، لقد دخل قلبي وجلٌ من كلامك، وإني لأظنك صادقاً صالحاً، وأظنني مخطئاً آثماً، فهل لي من توبة؟ قال: نعم، ارجع إلى ربك وتب إليه فإنه يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، ويحب التوابين ويحب المتطهرين.

فرجع الفتى الى صفه منكسراً نادماً، فقال له قوم من أهل الشام: خدعك العراقي قال: لا، ولكن نصحني العراقي»(٥٣٣).

فمعاوية بن أبي سفيان قد «عمل دائباً منذ كان والياً على سورية زمن عمر بن الخطاب وعثمان، على إيجاد جيش مخلص له شخصياً، يستطيع الاعتماد عليه، وقد استثمر أفضل استثمار ضعف عثمان، ثم بقتله للحصول على الخلافة...»(٥٣٤).

(٥٣٣) تاريخ الطبري ٥ : ٤٢ ، كتاب صفين لنصر بن مزاحم : ٤٠٢ ، الكامل لابن الأثير ٣ : ٣١٣ حوادث سنة ٣٧ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨ : ٣٥ .

(٥٣٤) عمر ماهر حمادة : دراسة وثقيّة للتاريخ الاسلامي : ٢٣ .

معاوية وشرائع الإسلام

قال الخضري بك : كان حكام الدولة الأُموية أمراء للمؤمنين، وخلفاء، وليسوا أئمة كأئمة الشيعة، فهم يؤمون الناس في الصلاة، ولكنهم ليسوا مجتهدين ولا مشرّعين في الدين، فموقفهم في هذا مخالف للشيعة، فلم يضعوا لهم مذهباً دينياً معيناً يختلف عن مذهب أهل السلف، بل تقيدوا بمذهب أهل السلف من حيث العقيدة والتشريع[٥٣٥].

ليس من شأننا الآن المقارنة بين عقائد الشيعة وعقائد الأُمويين، بل هدفنا هو الكشف عن مدى تمسّك الأُمويين بعقيدة السلف -كما يدعي الخضري بك- وتبيين ما إذا كان خلفاء بني اُمية مشرّعين أم لا، وهل كان اجتهادهم وتشريعهم لمصلحة الإسلام، أم كان بهدف محقه وتبديل السنّة النبوية خدمة لأغراضهم!

إن الكلام في أحداث بني اُمية يستغرق الكثير من الجهد والوقت، لذا فسوف اُحاول ذكرها بشيء من الاختصار - إظهاراً للحقيقة فحسب- معتمداً على أقوال العلماء والمحدثين الذين يعتدُّ بأقوالهم، حتى لا يظن أحد ان مصدر هذه الأخبار هو أعداء بني اُمية من الشيعة أو من العباسيين أو الخوارج أو غيرهم، بل سأذكر الأخبار التي جاءت -وكما قلنا سابقاً- عن العلماء والمحدثين الذين ليسوا بمتهمين على معاوية، بل هم يعتقدون بعدالته - كونه صحابياً- ويحملون كل أعماله على التأول والاجتهاد، ويحاول بعضهم إلتماس الأعذار له -كما مرّ عن السرخسي سابقاً- وسوف نرى مدى التناقض أحياناً بين الأخبار والآراء.

١ ـ الأذان في العيدين

لا خلاف بين المذاهب الإسلامية في أن صلاة العيدين لا أذان فيها ولا إقامة.

قال الشوكاني : أحاديث الباب تدل على عدم شرعية الأذان والاقامة في صلاة العيدين، قال العراقي: وعليه عمل العلماء كافة، وقال ابن قدامة في المغني: ولا نعلم في هذا خلافاً ممن يعتد بخلافه[٥٣٦].

وقال الإمام مالك إنه سمع غير واحد من علمائهم يقول: لم يكن في عيد الفطر ولا في الاضحى نداء ولا إقامة منذ زمان رسول الله(صلى الله عليه وآله) الى اليوم. قال مالك: وتلك السنّة التي لا اختلاف فيها عندنا[٥٣٧].

(٥٣٥) محاضرات في التاريخ الاسلامي : ٩٤ .
(٥٣٦) نيل الأوطار ٣ : ٣٣٦ ، المغني ٢ : ٢٣٥ .
(٥٣٧) الموطأ ١ : ١٧٧ .

وقال النووي : ولا يؤذن لها ولا يُقام، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: شهدت العيد مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) ومع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فكلهم صلى قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة. والسنّة أن ينادى لها: الصلاة جامعة لما روي عن الزهري أنه كان ينادي بها(٥٣٨).

وروى الشافعي عن الزهري قال: لم يؤذّن للنبي(صلى الله عليه وآله) ولأبي بكر ولا لعمر ولا لعثمان في العيدين، حتى أحدث ذلك معاوية بالشام، فأحدثه الحجاج بالمدينة حين اُمِر عليها!(٥٣٩)

قال ابن حجر العسقلاني : اختلف في أول من أحدث الأذان فيها، فروى ابن أبي شيبة باسناد صحيح عن سعيد بن المسيب، أنه معاوية. وروى الشافعي عن الثقة عن الزهري مثله، وروى ابن المنذر عن حصين بن عبدالرحمان، قال: أوّل من أحدثه زياد بالبصرة، وقال الداودي: أول من أحدثه مروان، وكل هذا لا ينافي أن معاوية أحدثه كما تقدم في البداءة بالخطبة!(٥٤٠).

فمعاوية كان مجتهداً ومشرعاً إذاً، وليس الأمر كما يدعي الخضري بك، ولكن معاوية كان مجتهداً في تغيير السنّة النبوية الشريفة وابتداع شريعة جديدة لا تتماشى مع شريعة الإسلام، وكما سوف يتبين بشكل أوضح فيما يأتي.

٢ ـ ترك البسملة والتكبير

أخرج الشافعي من طريق عبيد بن رفاعة قال: إن معاوية قدم المدينة فصلى بهم، فلم يقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم)، ولم يكبّر إذا خفض وإذا رفع، فناداه المهاجرون حين سلّم والأنصار: أن يا معاوية، سرقت صلاتك! أين بسم الله الرحمن الرحيم؟! وأين التكبير إذا خفضت وإذا رفعت؟!

فصلى بهم صلاة اُخرى، فقال ذلك فيها الذي عابوا عليه(٥٤١).

وأخرج ابن أبي شيبة من طريق سعيد بن المسيب أنه قال: أول من نقص التكبير معاوية.

كما وأخرج عن طريق ابراهيم ، قال: أول من نقص التكبير زياد(٥٤٢).

(٥٣٨) المجموع ، شرح المهذب ٥ : ١٨ كتاب الصلاة : باب صلاة العيدين .
(٥٣٩) الأم ١ : ٢٣٥ .
(٥٤٠) فتح الباري ٢ : ٤٥٣ ، ارشاد الساري للقسطلاني ٢ : ٧٣٧ ، المصنف لابن أبي شيبة ٢ : ١٦٩، شرح الموطأ للزرقاني ١ : ٣٦٢ .
(٥٤١) الأم ١ : ١٠٨ .
(٥٤٢) المصنف ١ : ٢٤٢ .

قال ابن حجر : هذا لا ينافي الذي قبله، لأن زياداً تركه بترك معاوية، وكان معاوية تركه بترك عثمان![٥٤٣].

وقال الفخر الرازي : إن علياً(عليه السلام) كان يبالغ في الجهر بالتسمية، فلما وصلت الدولة الى بني اُمية، بالغوا في المنع من الجهر، سعياً في إبطال آثار علي(عليه السلام)![٥٤٤].

فعدم جهر معاوية بالبسلمة، وتركه التكبير عند كل رفع وخفض، إنما كان من بغض علي بن أبي طالب وسعياً الى هدم السنّة النبوية الشريفة التي كان علي بن أبي طالب حريصاً عليها.

ويبدو أن هذه البدعة قد استشرت حتى بعد زمان معاوية، الى أن أبطلها عمر بن عبدالعزيز الذي «كتب الى عماله يأمرهم أن يكبّروا كلما خفضوا ورفعوا في الركوع والسجود، إلاّ في القيام من التشهد بعد الركعتين، لا يكبّر حتى يستوي قائماً، مثل قول مالك»[٥٤٥].

ولم يقتصر التغيير والتضييع على البسملة والتكبير، بل إن أيدي التغيير قد طالت الصلاة كلها، حتى شقّ ذلك على صحابي كبير بقي حياً حتى رأى ما أحدثه معاوية وبنو اُمية في الصلاة التي هي عماد الدين، ألا وهو الصحابي أنس بن مالك الذي قال: ما أعرف شيئاً مما كان على عهد النبي(صلى الله عليه وآله)! قيل: الصلاة. قال: أليس ضيّعتم ما ضيعتم فيها!

وعن عثمان بن أبي روّاد أخي عبدالعزيز قال: سمعت الزهري يقول: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلت ما يبكيك! فقال: لا أعرف شيئاً مما أدركت إلاّ هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيّعت![٥٤٦].

٣ ـ ترك التلبية

لم يقتصر بغض معاوية وبني اُمية لعلي على مخالفته في ترك البسملة والتكبير ـ والتي كانت تخفي في الحقيقة أهدافاً أبعد من ذلك ـ بل تعداه الى ترك شعيرة من شعائر الحج، وسنّة مؤكدة عن النبي(صلى الله عليه وآله)، وهو التلبية، والتي اتفق العلماء عليها ووردت بذلك الأخبار الصحيحة المتكاثرة. فقد جاء «عن عبدالله بن عمر(رضي

(٥٤٣) فتح الباري ٢ : ٢٧٠ .
(٥٤٤) التفسير الكبير ١ : ١٨٠ الجهر بالبسملة في الصلاة .
(٥٤٥) المدونة الكبرى ١ : ٧٠ .
(٥٤٦) صحيح البخاري ١ : ١٤١ باب تضييع الصلاة عن وقتها.

الله عنه) أن تلبية رسول الله(صلى الله عليه وآله): **«لبّيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».**

وعن عائشة(رض) قالت : إني لأعلم كيف كان النبي(صلى الله عليه وآله) يلبي : **«لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك ...»**(٥٤٧).

وعن ابن عباس(رضي الله عنه) أن النبي(صلى الله عليه وآله) أردف الفضل، فأخبر الفضل أنه لم يزل يلبي حتى رمى الجمرة.

وعن عبدالله بن عباس أيضاً أن اُسامة بن زيد(رضي الله عنه) كان ردف النبي(صلى الله عليه وآله)من عرفة الى المزدلفة، ثم أردف الفضل من المزدلفة الى منى، قال: فكلاهما قال: لم يزل النبي(صلى الله عليه وآله) يلبي حتى رمى جمرة العقبة(٥٤٨).

وعن عكرمة : أهلّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) حتى رمى الجمرة، وأبو بكر وعمر(٥٤٩).

وعن ابن عباس : حججت مع عمر إحدى عشرة حجة، وكان يلبي حتى يرمي الجمرة(٥٥٠).

وعن علي بن أبي طالب أنه لبّى حتى رمى جمرة العقبة(٥٥١).

فهذه هي السنة المتواترة عن النبي(صلى الله عليه وآله)، وخلفائه من بعده، ولم يخالف هذه السنّة إلاّ معاوية، فعن سعيد بن جبير قال: كنا مع ابن عباس بعرفة، فقال: يا سعيد، مالي لا أسمع الناس يلبّون؟! فقلت: يخافون من معاوية; فخرج ابن عباس من فسطاطه فقال: لبيك اللهم لبيك، وإن رغم أنف معاوية، اللهم العنهم فقد تركوا السنّة من بغض علي!(٥٥٢).

وعن سعيد بن جبير أيضاً قال : أتيت ابن عباس بعرفة وهو يأكل رماناً، فقال: أفطر رسول الله(صلى الله عليه وآله) بعرفة وبعثت اليه اُم الفضل بلبن فشربه، وقال: لعن الله فلاناً، عمدوا الى أعظم أيام الحج فمحوا زينته، وإنما زينة الحج التلبية(٥٥٣).

٤ ـ قتل الصحابة

(٥٤٧) صحيح البخاري ٣ : ١٧٠ كتاب الحج : باب التلبية
(٥٤٨) صحيح البخاري ٣ : ٢٠٤ كتاب الحج : باب التلبية .
(٥٤٩) المصنف لابن أبي شيبة ٤ : ٣٤٢ ، المحلى لابن حزم ٧ : ١٣٦
(٥٥٠) فتح الباري ٣ : ٤١٩ .
(٥٥١) المحلى ٧ : ١٣٦ .
(٥٥٢) السنن الكبرى للنسائي ٢ : ٤١٩ ، السنن الكبرى للبيهقي ٥ : ١١٣ ، وقال السندي في شرحه لسنن النسائي : من بغض علي ، أي لأجل بغضه ، أي وهو كان يتقيّد بالسنن، فهؤلاء تركوها بغضاً له !
(٥٥٣) مسند احمد ١ : ٣٥٨ ، كنز العمال ٥ : ١٥٢ .

مرّ فيما سبق أن الحسن البصري عدَّ من موبقات معاوية الأربعة: قتل حجر بن عدي وأصحابه.

وحجر بن عدي من خيار الصحابة، «وهو المعروف بحجر الخير، وفد على النبي(صلى الله عليه وآله) هو وأخوه هانئ، وشهد القادسية، وكان من فضلاء الصحابة، وكان على كندة بصفين، وعلى الميسرة يوم النهروان، وشهد الجمل أيضاً مع علي، وكان من أعيان الصحابة، قال أحمد: قلت ليحيى بن سليمان: أبلغك أن حجراً كان مستجاب الدعوة؟ قال: نعم، وكان من أفاضل أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)(٥٥٤).

ورغم كل ذلك، نجد بعض المؤلفين ينبرون لتبرير عمل معاوية هذا، بل أنهم يوحون للقراء بأن معاوية هو المحق، وأن حجراً وأصحابه هم المذنبون، ومن هؤلاء المؤلفين، القاضي ابن العربي حيث يقول في معرض حديثه عن معاوية:

فإن قيل : فقد قتل حجر بن عدي -وهو الصحابي المشهور بالخير- صبراً أسيراً بقول زياد، وبعثت اليه عائشة في أمره فوجدته قد فات بقتله. قلنا: قد علمنا قتل حجر كلنا، واختلفنا، فقائل يقول: قتله ظلماً، وقائل يقول: قتله حقاً.

فان قيل : الأصل قتله ظلماً إلاّ إذا ثبت عليه ما يوجب قتله. قلنا: الأصل أن قتل الإمام بالحق! فمن ادعى أنه الظلم، فعليه الدليل! ولو كان ظلماً محضاً لما بقي بيت إلاّ لعن فيه معاوية، وهذه مدينة السلام دار خلافة بني العباس- وبينهم وبين بني اُمية ما لا يخفى على الناس -مكتوب على أبواب مساجدها: (خير الناس بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله): أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم معاوية خال المؤمنين رضي الله عنهم)!.

ولكن حجراً -فيما يقال- رأى من زياد اُموراً منكرة فحصبه وخلعه وأراد أن يقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية ممن سعى في الأرض فساداً. وقد كلمته عائشة في أمره حين حج فقال لها: دعيني وحجراً حتى نلتقي عند الله!.

وأنتم معشر المسلمين أولى أن تدعوهما حتى يقفا بين يدي الله مع صاحبهما العدل الأمين المصطفى المكين، وأنتم ودخولكم حيث لا تشعرون، فمالكم لا تسمعون!(٥٥٥).

أما مسألة الاختلاف في قتل حجر، هل هو حق أم ظلم، فسنترك للقارئ أن يتخذ القرار في ذلك، بعد أن نضع بين يديه الأخبار التي ذكرت هذه القضية وملابساتها،

(٥٥٤) الاستيعاب ١ : ٣٨٩ ، أسد الغابة ١ : ٦٩٧ الاصابة ٢ : ٣٢

(٥٥٥) العواصم من القواصم : ٢١٩

ومحاولة تقديم الدليل الذي طلبه القاضي ابن العربي. أما فيما يتعلق بموقف المسلمين من معاوية وسبب عدم لعنه وما رأى القاضي ابن العربي من قرن اسمه مع اسماء الخلفاء الأربعة على مساجد مدينة بغداد، رغم العداوة بين بني العباس وبني أمية، فسوف نقوم بمناقشته في المبحث القادم بالتفصيل.

لكن المهم أن القاضي ابن العربي -كعادته- لم يذكر الأمور المنكرة التي رآها حجر من زياد حتى حصبه وخلعه، وكيفية خلعه! وكيف أراد أن يقيم الخلق للفتنة حتى صار في نظر معاوية من المفسدين في الأرض!

أما طلب القاضي منّا أن ندع موضوع حجر ومعاوية جانباً حتى يوم القيامة، فإن ذلك هو دأب الاتجاه المحافظ الذي يريد التغطية على كل الجرائم المشينة التي وقعت في تاريخنا في تلك الحقبة، والتحذير دائماً من محاولة نبش هذا التاريخ لئلا تظهر الحقائق، وهي على عكس المعلومات التي ظلت الأجيال تتلقاها عن طريق وسائل الإعلام الأموي ومؤيديه على مرّ القرون، ولكن هل يجوز للمسلمين أن يتركوا هذه الأمور دون بحث عن الحقيقة، ولمعرفة المحق من المبطل، والمظلوم من الظالم، حتى لا يتولى الظالمين كما أمر الله سبحانه وتعالى، فقال عزّ من قائل: (**وَلا تَرْكَنُوا إلى الذينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُم النارُ وَمالَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أولياءَ ثُمَّ لا تُنصَرونَ**)[٥٥٦].

قال الفخر الرازي في تفسيرها :

قال المحققون : الركون المنهي عنه، هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم، وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم... واعلم أن الله تعالى حكم بأن من ركن الى الظلمة لابد وأن تمسه النار، وإذا كان كذلك، فكيف يكون حال الظالم نفسه![٥٥٧].

معاوية وحجر بن عدي

أورد المؤرخون، والذين ترجموا للصحابة قصة مقتل حجر بن عدي، فمنهم من ذكرها بتفاصيلها ومنهم من اختصرها، وسوف اقتطف أهم ما أورده الطبري عن هذه القضية.

(٥٥٦) هود : ١١٣ .
(٥٥٧) التفسير الكبير ٦ : ٤٠٧

قال الطبري - بعد أن أورد قصة وصية معاوية للمغيرة بن شعبة حين توليته على الكوفة بمدح شيعة عثمان وذم علي وشيعته-:

أقام المغيرة على الكوفة عاملا لمعاوية سبع سنين وأشهراً، وهو من أحسن شيء سيرة وأشدّه حبّاً للعافية، غير أنه لا يدع ذم علي والوقوع فيه، والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له، والتزكية لأصحابه، فكان حجر بن عدي إذا سمع ذلك قال: بل إيّاكم فذمّم الله ولعن، ثم قام فقال: إن الله عزّوجل يقول : (**كُونوا قوّامينَ بالقِسطِ شُهَداءَ للهِ**) وأنا أشهد أن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل، وأن من تزكون وتطرون أولى بالذم! فيقول المغيرة: يا حجر، لقد رُمي بسهمك إذ كنتُ أنا الوالي عليك، يا حجر ويحك! اتق السلطان، اتق غضبه وسطوته، فإن غضْبَة السلطان احياناً مما يهلك أمثالك كثيراً، ثم يكف ويصفح.

فلم يزل حتى كان في آخر إمارته، قام المغيرة فقال في علي وعثمان كما كان يقول، وكانت مقالته: اللهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه، وأجزه بأحسن عمله، فإنه عمل بكتابك واتبع سنّة نبيك(صلى الله عليه وآله)، وجمع كلمتنا، وحقن دماءنا، وقُتل مظلوماً! اللهم فارحم أنصاره وأولياءه ومحبيّه والطالبين بدمه! ويدعو على قتلته! فقام حجر بن عدي فنعر نعرة بالمغيرة سمعها كل من كان في المسجد وخارجاً منه وقال: إنك لا تدري بمن تولع من هرمك أيها الانسان، مُرلنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنك قد حبستها عنا، وليس ذلك لك، ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك، وقد أصبحت مولعاً بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين!

قال : فقام معه أكثر من ثلثي الناس يقولون: صدق والله حجر وبر، مُر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنّا لا ننتفع بقولك هذا ولا يجدي علينا شيئاً، وأكثروا في مثل هذا القول ونحوه. فنزل المغيرة فدخل، واستأذن عليه قومه فأذن لهم، فقالوا: علام تترك هذا الرجل يقول هذه المقالة ويجترئ عليك في سلطانك هذه الجرأة! إنك تجمع على نفسك بهذا خصلتين: اما أولهما فتهوين سلطانك، وأما الأخرى فإن ذلك إن بلغ معاوية كان أسخط له عليه -وكان أشدهم له قولا في أمر حجر والتعظيم عليه، عبدالله أبي عقيل الثقفي- فقال لهم المغيرة: إني قد قتلته، إنه سيأتي أمير بعدي فيحسبه مثلي، فيصنع شبيهاً بما ترونه يصنع بي، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شرّ قتلة، إنه قد اقترب أجلي وضعف عملي، ولا أحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم، فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعزّ في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة!

ولكني قابل من محسنهم، وعاف عن مسيئهم، وحامد حليمهم، وواعظ سفيههم، حتى يفرق بيني وبينهم الموت، وسيذكرونني لو قد جرّبوا العمال بعدي...

ثم يروي الطبري خطبة زياد بعد توليه الكوفة عقباً للمغيرة الذي هلك سنة إحدى وخمسين، فيورد خطبته التي استهلها بالوعظ والتهديد والوعيد، «ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرّظهم، وذكر قتلته ولعنهم، فقام حجر ففعل مثل الذي كان يفعل بالمغيرة، وقد كان زياد قد رجع الى البصرة وولى الكوفة عمرو بن حريث، ورجع الى البصرة، فبلغه أن حجراً يجتمع إليه شيعة علي ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه، وأنهم حصبوا عمرو بن الحريث، فشخص الى الكوفة حتى دخلها، فأتى القصر فدخله، ثم خرج فصعد المنبر وعليه قباء سندس ومطرف خزّ أخضر، قد فرق شعره -وحجر جالس في المسجد حوله أصحابه أكثر ما كانوا- فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن غبّ البغي والغي وخيم، إن هؤلاء حجّوا فأشروا، وأمّنوني فاجترأوا علي، وأيم الله لئن لم يستقيموا لأداوينكم بدوائكم. وقال: ما أنا بشيء إن لم امنع باحة الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده، ويل امك يا حجر! سقط العشاء بك على سرحان، ثم قال:

ابلغ نصيحة أن راعي إبلها *** سقط العشاء به على سرحان

كما وأورد الطبري قصة أُخرى حول هذا الموضوع، عن علي بن حسن بسنده الى ابن سيرين قال: خطب زياد يوماً في الجمعة فأطال الخطبة وأخّر الصلاة، فمضى في خطبته، فلما خشي حجر فوت الصلاة، ضرب بيده الى كف من الحصا وثار الى الصلاة وثار الناس معه، فلما رأى ذلك زياد، نزل فصلى بالناس، فلما فرغ من صلاته كتب الى معاوية في أمره وكثّر عليه.

فكتب إليه معاوية أن شدّه في الحديد ثم احمله إلي.

فلما أن جاء كتاب معاوية، أراد قوم حجر أن يمنعوه، فقال: لا، ولكن سمع وطاعة، فشدّ في الحديد ثم حمل الى معاوية، فلما دخل عليه قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال له معاوية: أمير المؤمنين! أما والله لا أقيلك ولا استقيلك! أخرجوه فاضربوا عنقه. فأُخرج من عنده، فقال حجر للذين يلون أمره: دعوني حتى أُصلي ركعتين. فقالوا: صلّ. فصلى ركعتين خفف فيهما ثم قال: لولا أن تظنوا بي غير الذي أنا عليه لأحببت أن تكون أطول مما كانتا، ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خير فما في هاتين خير، ثم قال لمن حضره من أهله: لاتطلقوا

عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً فإني ألاقي معاوية غداً على الجادة. ثم قُدّم فضربت عنقه.

قال مخلد : قال هشام : كان محمد إذا سئل عن الشهيد، يغسّل؟ حدثهم حديث حجر! قال محمد: فلقيت عائشة أم المؤمنين معاوية - قال مخلد أظنه بمكة- فقالت: يا معاوية، أين كان حلمك عن حجر! فقال لها: يا أم المؤمنين لم يحضرني رشيد! قال ابن سيرين: فبلغنا أنه لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حجر يوم طويل...(٥٥٨).

ويورد الطبري عن أبي مخنف روايات طويلة حول مطاردة زياد لحجر وعدد من أصحابه واستشهاده شهداء زور على حجر وأصحابه، أعرضت عنها لطولها، وأجد أن ما نقلناه عن شيخ المؤرخين حول القضية يكفي لتوضيح الأمور وبيان أن ادعاء ابن العربي ومن يجري مجراه - بأن معاوية لم يكن ظالماً بقتله حجراً، وأن حجراً كان يريد أن يقيم الخلق للفتنة- لا يقوم على أساس صحيح، فالذي أخرج رأس الفتنة هو معاوية وعمّاله، إذ أنهم بلعنهم علي بن أبي طالب -وهي السنّة السيئة التي ابتدعها معاوية بلعن علي على المنابر حتى أبطلها عمر بن عبدالعزيز- كانت هي السبب في استفزاز مشاعر الأخيار من أمثال حجر وغيره، لأنهم يعلمون أن معاوية وعمّاله يأتون باباً عظيماً من المنكر الذي ينبغي تغييره، فهؤلاء الصحابة قد سمعوا - كما قد سمع المغيرة ومعاوية أيضاً- أقوال النبي(صلى الله عليه وآله) في من يسب علياً، كما أخرجها المحدثون:

فعن أبي عبدالله الجدلي، قال: دخلت على أم سلمة فقالت: أيسبُّ رسول الله(صلى الله عليه وآله)فيكم؟! قلت: معاذ الله، أو سبحان الله، أو كلمة نحوها. قالت: سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: **«من سبّ عليّاً فقد سبّني!!»**(٥٥٩).

وفي لفظ الحاكم : **«من سبَّ علياً فقد سبّني، ومن سبني فقد سبَّ الله تعالى»**(٥٦٠).

وعن أبي مليكة قال: جاء رجل من أهل الشام فسبّ علياً عند ابن عباس، فحصبه ابن عباس وقال: يا عدّو الله، آذيت رسول الله(صلى الله عليه وآله) **(إنَّ الذينَ يُؤذونَ اللهَ وَرَسولَهُ لَعَنَهُم اللهُ في الدُّنيا وَالآخرة وأعدَّ لَهُم عَذاباً مُهيناً)**، لو كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) حياً لآذيته!(٥٦١).

(٥٥٨) الطبري ٥ : ٢٥٣ ، الكامل ٣ : ٤٧٢ حوادث سنة ٥١ .
(٥٥٩) مجمع الزوائد ٩ : ١٣٠ وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، غير أبي عبدالله الجدلي وهو ثقة .
(٥٦٠) المستدرك على الصحيحين ٣ : ١٢٣ .
(٥٦١) المصدر السابق .

وليس ثمة شك بأن معاوية لم يكن جاهلا بما قاله النبي(صلى الله عليه وآله) فيمن يسب علياً، إلاّ أنه كان يتغافل عن ذلك ويتجاهل، استخفافاً منه بالشريعة وصاحبها الكريم، بل واستخفافاً بالله تعالى، «فعلى الرغم من أن اُم المؤمنين اُم سلمة كانت قد أرسلت الى معاوية تنهاه عن تلك البدعة البشعة وتقول له: إنكم تلعنون الله ورسوله إذ تلعنون علياً ابن أبي طالب ومن يحبه، وأشهد أن الله ورسوله يحبانه.

على الرغم من تلك النصيحة، فقد ظل الإمام علي يلعن على المنابر، وتلعن معه زوجه فاطمة الزهراء بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله)»(٥٦٢).

فالأمور المنكرة التي رآها حجر بن عدي وغيره من الأخيار، من عمال معاوية هي إصرارهم على لعن علي بن أبي طالب وسبّه من على المنابر، فلم يتمالكوا أن يقوموا بواجبهم المفروض عليهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأي منكر أكبر من أن يرى ويسمع المؤمن، الله ورسوله يُسبّان بسب علي كما أخبر النبي(صلى الله عليه وآله) بذلك، بل إن معاوية وعماله قد أصبحوا بعملهم هذا وقد حلّت دماؤهم ووجب قتالهم إن أمكن، لأنهم من المحاربين لله ورسوله، ليس بالسب واللعن فقط، بل إنهم محاربون لله ورسوله حقاً، بحربهم علي بن أبي طالب أيضاً، وكما أخبر النبي(صلى الله عليه وآله)، فيما أخرج المحدثون:

فعن زيد بن أرقم، أن النبي(صلى الله عليه وآله) قال لفاطمة وعلي وحسن وحسين: **«أنا حرب لمن حاربكم، وسلم لمن سالمكم»**.

وعن أبي هريرة قال: نظر النبي(صلى الله عليه وآله) الى علي والحسن والحسين وفاطمة فقال: **«أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم»**(٥٦٣).

أما اعتراض حجر على زياد بسبب تأخيره الصلاة، فهو محق في ذلك أيضاً، لأن الصلاة لا ينبغي تأخيرها عن وقتها بدون عذر مشروع، والتهاون فيه قد يؤدي بالنهاية الى الاستخفاف بهذه الفريضة التي هي عمود الاسلام.

وقد أثبتت الوقائع ان حجراً كان محقاً في انكاره على زياد تأخير الصلاة، لأن ذلك صار ديدن بني اُمية، وعمالهم -كما مرّ في مباحث سابقة- حتى بكى أنس بن مالك عندما رأى بني اُمية قد ضيّعوا الصلاة.

فهذه هي الأسباب التي قتل معاوية حجراً وأصحابه من أجلها، بعد قول النبي(صلى الله عليه وآله):

(٥٦٢) عبد الرحمان الشرقاوي . أئمة الفقه التسعة : ٣٩ .

(٥٦٣) مسند أحمد ٢ : ٤٤٢ ، المستدرك على الصحيحين ٣ : ١٤٩ ، المعجم الكبير للطبراني ٣ : ٣٠ ، سنن الترمذي ٥ : ٦٩٩ ، مجمع الزوائد ٩ : ١٦٩ ، تاريخ بغداد ٧ : ١٣٧ ، الكنى للدولابي ٢ : ١٦٠ .

١ ـ « لقتل المؤمن عند الله أعظم من زوال الدنيا »[٥٦٤].

٢ ـ « من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله تعالى مكتوباً بين عينيه : آيس من رحمة الله »[٥٦٥].

٣ ـ « من عادى ولياً فقد بارزني بالحرب »[٥٦٦].

فهذه هي الأدلة التي طلبها القاضي ابن العربي لاثبات أن معاوية كان ظالماً لحجر، نتركها بين يدي القارئ ليحكم على ضوئها.

العباسيون ومعاوية

لا شك وأن الكثير من القرّاء يعتقدون أن العباسيين قد ظلوا أعداء للأمويين يحملون لهم الضغينة منذ بداية عهدهم وحتى انقراض ملكهم على أيدي التتار!

إلاّ أن من له إلمام بالتاريخ السياسي والظروف والملابسات التي اكتنفت قيام الدولة العباسية على أنقاض دولة بني اُمية، وما واجهته الدولة العباسية من مشاكل فيما بعد، وقيام الثورات المستمرة على العباسيين، يعلم أن موقف العباسيين من معاوية وبني اُمية لم يكن موقفاً ثابتاً، بل إنه تعرض للتغيّر حسب الظروف السياسية التي سادت في عهود الخلفاء العباسيين.

لقد شاد العباسيون ملكهم على أكتاف أبناء عمومتهم العلويين، وحيث إن الناس لم يكونوا يعرفون لبني العباس حقاً في الخلافة، وإنما كان معظمهم يعتقد بأحقية العلويين في الخلافة، لاعتقادهم أن الأمويين قد غصبوهم إياها، وبسبب ميل الناس الى أبناء علي بن أبي طالب باعتبارهم سلالة الرسول(صلى الله عليه وآله)، لذا فقد كانت دعوة العباسيين «للرضا من أهل البيت»[٥٦٧] دون تحديد، ويتبيّن هذا المنحى في أول خطبة خطبها أبو العباس السفاح ومن بعده عمه داود بن علي من على منبر الكوفة ـ وهي معقل العلويين ـ فيما يرويه ابن أبي الحديد، حيث يقول:

لما صعد أبو العباس منبر الكوفة، حُصر فلم يتكلم، فقام داود بن علي ـ وكان تحت منبره حتى قام بين يديه تحته بمرقاة ـ فاستقبل الناس وقال: أيها الناس، إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله، ولأثر الفعال أجدى عليكم من تشقيق المقال، وحسبكم كتاب الله تمثلا فيكم، وابن عم رسول الله(صلى الله عليه وآله)خليفة عليكم، اُقسم

(٥٦٤) السنن الكبرى للبيهقي ٨ : ١٢ .

(٥٦٥) سنن ابن ماجة ٢ : ٨٧٤ ح ٢٦٢٠ .

(٥٦٦) السنن الكبرى للبيهقي ٢: ٣٤٦ وقريب منه في مجمع الزوائد: ٢: ٢٤٨، فتح الباري ١١: ٣٩٣ .

(٥٦٧) الكامل ٥ : ٣٨٠ .

بالله قسماً برّاً، ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله)أحق به من علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين هذا! فليهمس هامسكم، ولينطق ناطقكم...(٥٦٨).

كما وأن أعظم القوّاد الذي كان له اليد الطولى في تشييد ملك العباسيين، أبو مسلم الخراساني يعترف في كتاب بعثه الى أبي جعفر المنصور، بعدم أحقية العباسيين في الحكم على العلويين، قال فيه: أما بعد، فقد كنت اتخذت أخاك إماماً وجعلته على الدين دليلا لقرابته، والوصية التي زعم أنها صارت إليه، فأوطأ بي عشوة الضلالة، وأرهقني في ربقة الفتنة، وأمرني أن آخذ بالظنة، وأقتل على التهمة، ولا أقبل المعذرة، فهتكتُ بأمره حرمات حتم الله صونها، وسفكتُ دماءً فرض الله حقنها، وزويت الأمر عن أهله، ووضعته في غير محله!(٥٦٩).

وقد استفتح العباسيون عهدهم بالانتقام من بني اُمية، أحيائهم وأمواتهم على السواء! وكانت دعواهم في ذلك، أنهم ينتقمون من الأمويين لما فعلوه بأهل بيت النبي(صلى الله عليه وآله) من أبناء علي بن أبي طالب، وروى المؤرخون أن أبا العباس لما اُتي برأس مروان بن محمد -آخر الخلفاء الأمويين- سجد فأطال، ثم رفع رأسه وقال: الحمد لله الذي لم يُبق ثأرنا قبل رهطك، الحمد لله الذي أظفرنا بك وأظهرنا عليك، ما اُبالي متى طرقني الموت وقد قتلتُ بالحسين(عليه السلام)ألفاً من بني اُمية، وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي... ثم قال: أما مروان، فقتلناه بأخي ابراهيم، وقتلنا سائر بني اُمية بحسين ومن قُتل معه وبعده من بني عمنا أبي طالب(٥٧٠).

ولم يكتف العباسيون بالانتقام من الأحياء من بني اُمية، بل تعدّوهم الى الأموات أيضاً يشفون منهم غليلهم، حيث «أمر عبدالله بن علي بنبش قبور بني اُمية بدمشق، فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلاّ خيطاً مثل الهباء، ونبش قبر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد، ونبش قبر عبدالملك فوجدوا جمجمته، وكان لا يوجد في القبر إلاّ العضو بعد العضو، غير هشام بن عبدالملك فإنه وجد صحيحاً لم يَبلَ منه إلاّ أرنبة أنفه، فضربه بالسياط وصلبه وحرّقه وذرّاه في الريح ...(٥٧١).

(٥٦٨) شرح نهج البلاغة ٧ : ١٥٥ .
(٥٦٩) تاريخ بغداد ١٠ : ٢٨٠ .
(٥٧٠) الكامل ٥ : ٤٢٧ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧ : ١٣١ .
(٥٧١) الكامل لابن الأثير ٥ : ٤٣٠ حوادث سنة ١٣٢ هـ

هكذا كان موقف العباسيين من معاوية وبني أمية في بداية عهد دولتهم، ولكن سرعان ما جدّت أمور أدت الى أن يفكر العباسيون بتغيير موقفهم من معاوية خاصة بعد ذلك.

تغيّر موقف العباسيين من معاوية

كان الناس في معظم البلاد الإسلامية ينتظرون زوال ملك بني أمية الذي فتّ في عضده كثرة الثورات التي قامت عليه من مختلف الفئات، وكان للعلويين نصيب كبير في تلك الثورات، ولما بدأت علامات الزوال تلوح على دولة الأمويين بعد هزيمتهم في معركة الزاب أمام جيوش العباسيين، استبشر الناس خيراً، حتى إن مروان بن محمد، «لما هزمه عبدالله بن علي بالزاب، أتى مدينة الموصل وعليها هشام بن عمرو التغلبي وبشر بن خزيمة الأسدي، فقطعا الجسر! فناداهم أهل الشام: هذا أمير المؤمنين مروان! فقالوا: كذبتم، أمير المؤمنين لا يفر. وسبّه أهل الموصل وقالوا: يا جعدي، يا معطّل، الحمد لله الذي أزال سلطانكم وذهب بدولتكم، الحمد لله الذي أتانا بأهل بيت نبيّنا..»[٥٧٢]

إلاّ أن الناس سرعان مامنوا بخيبة أمل كبيرة، حينما تبيّن لهم بأن العباسيين لم يكونوا أقلّ شراً من الأمويين، إن لم يكونوا أكثر، خصوصاً بعد المذبحة الفظيعة التي ارتكبها العباسيون في مدينة الموصل وغيرها، ففي نفس السنة التي ابتدأ العباسيون بها عهدهم الجديد، استعمل السفاح أخاه يحيى بن محمد على الموصل بدلا من محمد بن صول، فارتكب فيها مذبحة رهيبة، «وكان سبب ذلك أن أهل الموصل امتنعوا من طاعة محمد بن صول وقالوا: يلي علينا مولى الخثعم! وأخرجوه عنهم، فكتب الى السفاح بذلك واستعمل عليهم أخاه يحيى بن محمد، وسيّره إليها في اثني عشر ألف رجل، فنزل قصر الامارة بجانب مسجد الجامع، ولم يُظهر لأهل الموصل شيئاً ينكرونه ولم يعترضهم فيما يفعلونه، ثم دعاهم فقتل منهم اثني عشر رجلا، فنفر أهل الموصل وحملوا السلاح، فأعطاهم الأمان، وأمر فنودي: من دخل الجامع فهو آمن، فأتاه الناس يهرعون إليه، فأقام يحيى الرجال على أبواب الجامع، فقتلوا الناس قتلا ذريعاً أسرفوا فيه، فقيل إنه قتل فيه أحد عشر ألفاً ممّن له خاتم، وممن ليس له خاتم خلقاً كثيراً. فلما كان الليل سمع يحيى صراخ النساء اللاتي قتل رجالهن، فسأل عن ذلك الصوت فأخبر به فقال: إذا كان الغد، فاقتلوا النساء والصبيان. ففعلوا ذلك، وقتل

(٥٧٢) الكامل ٥ : ٤٢٤

منهم ثلاثة أيام، وكان في عساكره قائد معه أربعة آلاف زنجي، فأخذوا النساء قهراً...![٥٧٣]

أمام هذه التصرفات الشنيعة للعباسيين، بدأ الناس يتململون، وتحركت عوامل النقمة، ثم الثورة على العباسيين، ففي سنة (١٣٣ هـ) «خرج شريك بن شيخ المهري ببخارا على أبي مسلم ونقم عليه وقال: ما على هذا اتبعنا آل محمد، أن تسفك الدماء، وأن يعمل بغير الحق!

وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين ألفاً، فوجّه إليهم أبو مسلم زياد بن صالح الخزاعي فقاتله ...[٥٧٤].

العباسيون والعلويين

كانت الأخطار التي تتهدد الدولة العباسية تتمثل في ثورات الخوارج والعلويين بالدرجة الأولى، وبما أن الخوارج -رغم تعدد فرقهم وكثرة ثوراتهم وشدة بأسهم- لم يستطيعوا أن يكوّنوا قاعدة شعبية عريضة تدين لهم بالولاء والانتماء، وذلك بسبب غرابة آرائهم وتطرفهم، وتكفيرهم جميع مخالفيهم، فبقي الخطر الذي كان يقض مضاجع العباسيين يتأتى من جانب بني عمهم العلويين، نظراً للقاعدة الشعبية العريضة التي كانوا يتمتعون بها، ولأن الناس لم يعرفوا هذا الأمر للعباسيين، بل كان الاعتقاد السائد عند معظم الناس، ان العلويين هم الأحق بهذا الأمر.

لكن العباسيين خدعوا العلويين، وخدعوا الناس أيضاً، فكان دعاتهم يهيئون الأمر لبني العباس باسم العلويين، وبخاصة أبو مسلم الخراساني الذي «من المؤكد أنه كان يدعو الناس الى الرضا من أهل البيت، ولا يصرّح باسمه ولا نسبه، مما يدل على أن الأمة كان توجهها الى علي وأهل بيته أكثر من توجهها الى بني العباس، فلما تم له الأمر، أعلن اسم عبدالله السفاح بن محمد ابن علي بن عبدالله بن عباس.

عاد الاصطدام حينئذ بين البيتين العلوي والعباسي، فكان نصيب آل علي في خلافة بني هاشم أشد وأقسى مما لاقوه في عهد خصومهم من بني أمية، فقتلوا وشردوا كل مشرّد، وخصوصاً في زمن المنصور والرشيد والمتوكل من بني العباس، وكان إتهام شخص في هذه الدولة بالميل الى واحد من بني علي كافياً لإتلاف نفسه ومصادرة أمواله. وقد حصل ذلك فعلا لبعض الوزراء وغيرهم»[٥٧٥].

(٥٧٣) الكامل في التاريخ ٥ : ٤٤٣

(٥٧٤) الطبري ٧ : ٤٥٩ ، الكامل ٥ : ٤٤٨ ، البداية والنهاية ١٠ : ٥٦

(٥٧٥) محمد الخضري . الدولة الأموية : ١٥٠

أدرك العباسيون أن بني اُمية لم يعودوا يشكلون خطراً عليهم وعلى دولتهم، فقد اُبيدوا تقريباً في المجازر التي أقامها لهم العباسيون، ودالت دولتهم وزالت شوكتهم، فلم يعد العباسيون يهتمون بذكرهم أو الاساءة لتاريخهم، بسبب انصرافهم الى مقارعة خصومهم العلويين الذين كانوا يشكلون الخطر الأكبر عليهم، لذا فقد صبّوا جل اهتمامهم عليهم، وبدأوا بمحاربتهم بالسيف والقلم واللسان، فأطلقوا لمبغضيهم العنان في النيل منهم، بل وإنهم كانوا يشجعون كل من ينتقص العلويين ويقلل من شأنهم ويكافؤنه، كما فعلوا مع الشاعر علي بن الجهم الذي كان لا يفتأ يتحامل على العلويين بشعره في حضرة الخلفاء العباسيين، وغيره كثير.

تلاقت إذاً أهداف أعداء الأمس الذين صار يجمعهم شيء واحد، التخلص من خصومهم العلويين، والعباسيون وإن لم يبلغوا الحد الذي يلعنون فيه علي بن أبي طالب وأهل بيته على المنابر جهاراً، إلاّ أنهم وجدوا في تمجيد الأمويين - وبخاصة معاوية- ما يحقق بعض أغراضهم وغاياتهم، فتركوا المجال فسيحاً لمن يروي مناقب الأمويين أو مثالب العلويين، ويشهد أحد المؤلفين والعلماء الثقات من العصر العباسي على هذه الظاهرة، إذ يقول ابن قتيبة:

وقد رأيت هؤلاء قد قابلوا الغلو في حب علي، بالغلو في تأخيره وبخسه حقه، ولحنوا في القول -وإن لم يصرّحوا- الى ظلمه، واعتدوا عليه بسفك الدماء بغير حق، ونسبوه الى الممالأة على قتل عثمان، وأخرجوه بجهلهم من أئمة الهدى الى جملة أئمة الفتن، ولم يوجبوا له إسم الخلافة لاختلاف الناس عليه، واوجبوها ليزيد بن معاوية لإجماع الناس عليه واتهموا من ذكره بخير! وتحامى كثير من المحدثين أن يحدّثوا بفضائله أو يظهروا ما يجب له. وكل تلك الأحاديث لها مخارج صحاح، وجعلوا ابنه الحسين خارجياً شاقاً لعصا المسلمين، حلال الدم! وأهملوا من ذكره أو روى حديثاً من فضائله، حتى تحامى كثير من المحدثين أن يتحدثوا بها، وعنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص ومعاوية! وكأنهم لا يريدونهما بذلك، وإنما يريدونه...![٥٧٦]

«وأخرج ابن الجوزي أيضاً من طريق عبدالله بن أحمد بن حنبل، سألت أبي: ما تقول في علي ومعاوية؟ فأطرق ثم قال: إعلم أن علياً كان كثير الأعداء، ففتش أعداؤه له عيباً فلم يجدوا، فعمدوا الى رجل قد حاربه، فأطروه كياداً منهم لعلي، فأشار بهذا الى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل مما لا أصل له»[٥٧٧].

(٥٧٦) الاختلاف في اللفظ : ٤٧ .
(٥٧٧) فتح الباري ٧ : ١٠٤ .

هذه الأمثلة وغيرها كثير، لتدلل على عدم صحة ادعاء القائلين بأن العباسيين هم الذين شوّهوا صورة الأمويين لدى الرأي العام، فالثابت أن العكس هو الصحيح، وأن الفضائل التي نسجت لمعاوية وبني أُمية، إنما نسجت في أيام بني العباس أكثر مما وضع لهم من مناقب في عصرهم وابان دولتهم، وما ذلك إلاّ لأن العباسيين كانوا «على بغضهم وعداوتهم لبني أُمية يضيقون ذرعاً بكل فضيلة واتباع وانتماء الى علي وأهل بيته ... ولئن كان بنو العباس أعداء لبني أُمية، فإنهم كذلك أعداء ألداء للعلويين، كارهين ذكر كل ما فيه منقبة وفضل لبني علي(عليه السلام) حتى أن أحد ملوكهم(٥٧٨)، هدم قبر الحسين(عليه السلام)وزرع الأرض فوقه، وحكم بعضهم على العلويين أن لا يركبوا خيلا ولا يتخذوا خادماً، وإن من كان بينه وبين أحد من العلويين خصومة من سائر الناس، قُبل قول خصمه فيه ولم يُطالب ببينة! ومات كثير من أكابرهم في سجون بني العباس...»(٥٧٩).

كتاب المعتضد في معاوية

إن موقف العباسيين المتقلب من معاوية كان منبعثاً من الظروف السياسية المحيطة بالدولة من جهة، وبوجهة نظر خلفاء بني العباس من جهة أُخرى، فقد لاحظنا أن الموقف في بداية قيام الدولة العباسية، وفي زمن خليفتهم الأول السفاح بالتحديد كان يتميز بالنكاية في الأمويين والانتقام منهم بهدف استئصالهم، وكذلك بذمّهم وإسقاطهم أمام الرأي العام تقرباً من الناس الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً بالأمويين. إلاّ أن الموقف بدأ يتغير منذ عهد خليفتهم الثاني أبو جعفر المنصور، خاصة بعدما بدأت ثورات العلويين ضد دولة بني العباس; فاتجه اهتمام هؤلاء الى بني عمهم من العلويين الثوار ومحاولة النيل منهم بشتى الطرق، واستمر هذا الاتجاه المعادي للعلويين -والمهادن للأمويين في الوقت نفسه- حتى أيام الخليفة المأمون بن هارون الرشيد الذي بدأ يقرّب العلويين ويمتدحهم، ويذم الأمويين، حتى إنه أمر بانشاء كتاب بلعن معاوية بن أبي سفيان! ولكن يبدو أن الكتاب لم يُقرأ على الناس في المساجد كما كان قد تقرّر، لأسباب لعل أهمها هو تحذير بعض خواص المأمون له من إمكان ثورة العامة وانتشار القلاقل، ذلك لأن الاعلام الأموي كان قد نجح في

(٥٧٨) هو المتوكل.
(٥٧٩) النصائح الكافية : ٢٨٤ عن الخطط للمقريزي

تعبئة رأي عام مؤيد له، أو على الأقل يكنّ الاحترام والحب لمعاوية بن أبي سفيان -كونه صحابياً- وقيام البعض بنشر فضائله المختلقة حتى ترشح في أذهان الكثير من العوام صحتها وصدقها، وربما كانت هناك أسباب أُخرى ثبطت من عزم المأمون، حتى جاء الخليفة المعتضد، فأمر باخراج الكتاب -كما يذكر الطبري في حوادث سنة أربع وثمانين ومائتين- فأخذ من جوامعه نسخة هذا الكتاب، وذُكر أنها نسخة الكتاب الذي أُنشيء للمعتضد بالله:

بسم الله الرحمن الرحيم ... (إلى أن قال):

وقد انتهى الى أمير المؤمنين ما عليه جماعة من العامة من شبهة قد دخلتهم في أديانهم وفساد قد لحقهم في معتقدهم، وعصبية قد غلبت عليها أهواؤهم ونطقت بها ألسنتهم على غير معرفة ولا روية، وقلّدوا فيها قادة الضلالة بلا بيّنة ولا بصيرة، وخالفوا السنن المتبعة الى الأهواء المبتدعة... تعظيماً لمن صغّر الله حقّه، وأوهن أمره، وأضعف ركنه من بني اُمية الشجرة الملعونة... فأعظم أمير المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك، ورأى في ترك إنكاره حرجاً عليه في الدين، وفساداً لمن قلّده الله أمر المسلمين، وإهمالا لما أوجبه الله عليه من تقويم المخالفين وتبصير الجاهلين، وإقامة الحجة على الشاكّين، وبسط اليد على العاندين.

وأمير المؤمنين يرجع إليكم معشر الناس، بأن الله عزّوجل لما ابتعث محمداً بدينه، وأمره أن يصدع بأمره، بدأ بأهله وعشيرته.. فكان من استجاب له وصدّق قوله واتبع أمره، نفر يسير من بني أبيه... وكان ممن عانده ونابذه وكذبه وحاربه من عشيرته، العدد الأكثر، والسواد الأعظم، يتلقونه بالتكذيب من قصده، وينالون بالتعذيب من اتبعه، وأشدهم في ذلك عداوة وأعظمهم له مخالفة، وأولهم في كل حرب ومناصبة، لا يرفع على الإسلام راية إلاّ كان صاحبها وقائدها ورئيسها من كل مواطن الحرب منذ بدر واُحد والخندق والفتح... أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بني اُمية الملعونين في كتاب الله، ثم الملعونين على لسان رسول الله في عدة مواطن وعدة مواضع، لما مضى علم الله فيهم وفي أمرهم، ونفاقهم وكفر أحلامهم ، فحارب مجاهداً، ودافع مكايداً، وأقام منابذاً حتى قهره السيف، وعلا أمر الله، وهم كارهون، فتقوّل بالإسلام غير منطو عليه، وأسرَّ الكفر غير مقلع عنه، فعرفه بذلك رسول الله(صلى الله عليه وآله)والمسلمون، وميّز له المؤلفة قلوبهم، فقبله وولده على علم منه، فممّا لعنهم الله به على لسان نبيه(صلى الله عليه وآله)، وأنزل به كتاباً، قوله: (**والشجرة الملعونةَ في**

القرآنِ ونخوّفهمْ فما يزيدهم إلاّ طغياناً كبيراً)[٥٨٠]، ولا اختلاف بين أحد أنه أراد بها بني أمية!

ومنه قول الرسول(صلى الله عليه وآله)، وقد رآه مقبلا على حمار ومعاوية يقود به ويزيد ابنه يسوق به : «**لعن الله القائد والراكب والسائق**»، ومنه ما يرويه الرواة من قوله: يا بني عبد مناف تلقفوها تلقّف الكرة، فما هناك جنة ولا نار! وهذا كفر صراح يلحقه به اللعنة من الله كما لحقت(**الذينَ كَفروا مِنْ بَني إسرائيلَ عَلى لسانِ داودَ وَعيسى بنِ مَريمَ ذلكَ بما عَصَوا وَكانُوا يَعتَدونَ**)[٥٨١]، ومنه ما يروون من وقوفه على ثنيّة أحد بعد ذهاب بصره، وقوله لقائده: هاهنا ذببنا محمداً وأصحابه! ومنه الرؤيا التي رآها النبي(صلى الله عليه وآله) فوجم لها، فما رُئي ضاحكاً بعدها، فأنزل الله: (**وَما جَعلنا الرؤيا التي أريناكَ إلاّ فتنةً لِلناس**)[٥٨٢]، فذكروا أنه رأى نفراً من بني اُمية ينزون على منبره! ومنه طرد رسول الله(صلى الله عليه وآله) الحكم بن أبي العاص لحكايته إياه، وألحقه الله بدعوة رسوله آية باقية حين رآه يختلج، فقال له: «**كن كما أنت**»، فبقي على ذلك سائر عمره، إلى ما كان من مروان في افتتاحه أول فتنة في الإسلام، واحتقابه لكل دم حرام سفك فيها أو اُريق بعدها، ومنه ما أنزل الله على نبيه في سورة القدر: (**ليلةُ القدر خَيرٌ مِنْ ألفِ شَهر**)[٥٨٣]، من ملك بني اُمية، ومنه أن رسول الله(صلى الله عليه وآله)دعا بمعاوية ليكتب بأمره بين يديه، فدافع أمره، واعتلّ بطعامه، فقال النبي(صلى الله عليه وآله):«**لا أشبع الله بطنه**»، فبقي لا يشبع، ويقول: والله ما أترك الطعام شبعاً ولكن اعياءً، ومنه أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**يطلع من هذا الفج رجل من اُمتي يحشر على غير ملتي**»، فطلع معاوية! ومنه أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه!**» ومنه الحديث المرفوع المشهور أنه قال: «**إن معاوية في تابوت من نار في أسفل درك منها ينادي: يا حنان يا منان، الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين**»!.

ومنه انبراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً، وأقدمهم إليه سبقاً، وأحسنهم فيه أثراً وذكراً: علي بن أبي طالب، ينازعه حقه بباطله، ويجاهد أنصاره بضلاّله وغواته، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه من إطفاء نور الله وجحود دينه، ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره ولو كره المشركون. يستهوي أهل الغباوة، ويموّه على أهل الجهالة بمكره وبغيه اللذين قدّم رسول الله(صلى الله عليه وآله) الخبر عنهما.

(٥٨٠) الاسراء : ٦٠ .
(٥٨١) المائدة : ٧٨ .
(٥٨٢) الأسراء : ١٧ .
(٥٨٣) القدر : ٣ .

فقال لعمار : «تقتلك الفئة الباغية ، تدعوهم الى الجنة» ويدعونك الى النار، مؤثراً للعاجلة، كافراً بالآجلة، خارجاً من ربقة الاسلام، مستحلا للدم الحرام، حتى سفك في فتنته وعلى سبيل ضلالته، ما لا يحصى عدده من خيار المسلمين الذابين عن دين الله والناصرين لحقه، مجاهداً لله، مجتهداً في أن يُعصى الله فلا يطاع، وتبطل أحكامه فلا تقام، ويخالف دينه فلا يُدان، وأن تعلو كلمة الضلالة، وترتفع دعوة الباطل... حتى احتمل أوزار تلك الحروب وما أتبعها، وتطوّق تلك الدماء وما سُفك بعدها، وسنّ سنن الفساد التي عليه إثمها وإثم من عمل بها الى يوم القيامة، وأباح المحارم لمن ارتكبها، ومنع الحقوق أهلها...

ثم مما أوجب له به اللعنة : قتله من قتل صبراً من خيار الصحابة والتابعين وأهل الفضل والديانة، مثل عمرو بن الحمق، وحجر بن عدي، فيمن قتل من أمثالهم، في أن تكون له العزّة والملك والغلبة، ولله العزة والملك والقدرة، والله عزّوجل يقول: **(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمناً مُتعمداً فجزاؤهُ جَهنَّمُ خِالداً فيها وَغضِبَ اللهُ عَليهِ وأعدّ لهُ عَذاباً عَظيماً)**(٥٨٤).

ومما استحق به اللعنة من الله ورسوله : ادعاؤه زياد بن سمية، جرأة على الله، والله يقول: **(اُدعوهُم لآبائِهِمْ هُوَ أقسُط عِندَ اللهِ)**(٥٨٥)، ورسول الله(صلى الله عليه وآله)يقول **«ملعون من ادعى الى غير أبيه، أو انتمى الى غير مواليه»**، ويقول: **«الولد للفراش وللعاهر الحجر»**، فخالف حكم الله عزّوجل وسنة نبيه(صلى الله عليه وآله) جهاراً، وجعل الولد لغير الفراش، والعاهر لا يضره عهره، فأدخل بهذه الدعوة من محارم الله ومحارم رسوله في أم حبيبة زوجة النبي(صلى الله عليه وآله)، وفي غيرها من سفور وجوه، ما قد حرّمه الله، وأثبت بها قربى قد باعدها الله، وأباح بها ما قد حظره الله مما لم يدخل على الإسلام خلل مثله، ولم ينل الدين تبديل شبهه!

ومنه إيثاره بدين الله، ودعاؤه عباد الله الى ابنه يزيد المتكبر الخمّير صاحب الديوك والفهود والقرود، وأخذه البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعيد والاخافة والتهدد والرهبة وهو يعلم سفهه ويطّلع على خبثه ورهقه، ويعاين سكرانه وفجوره وكفره، فلما تمكن منه ما مكنه منه، ووطأ له، وعصى الله ورسوله فيه، طلب بثارات المشركين وطوائلهم عند المسلمين، فأوقع بأهل الحرّة الوقيعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش، مما ارتكب من الصالحين فيها، وشفى بذلك

(٥٨٤) النساء : ٩٣ .
(٥٨٥) الأحزاب : ٥ .

عبد نفسه وغليله، وظن أن قد انتقم من أولياء الله، وبلّغ النوى لأعداء الله، فقال مجاهراً بكفره ومظهراً لشركه:

ليت أشياخي ببدر شهدوا *** جزع الخزرج من وقع الأسل

قد قتلنا القوم من ساداتكم *** وعدلنا ميل بدر فاعتدل

فأهلوا واستهلوا فرحاً *** ثم قالوا: يا يزيد لا تُسل

لستُ من خندف إن لم انتقم *** من بني أحمد ما كان فعل

ولعتْ هاشم بالملك فلا *** خبرٌ جاء ولا وحي نزل!

هذا هو المروق من الدين، وقول من لا يرجع الى الله ولا الى دينه ولا الى كتابه ولا الى رسوله، ولا يؤمن بالله ولا بما جاء من عند الله.

ومن أغلظ ما انتهك واعظم ما اخترم: سفكه دم الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله(صلى الله عليه وآله) مع موقعه من رسول الله(صلى الله عليه وآله) ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل، وشهادة رسول الله(صلى الله عليه وآله) له ولأخيه بسيادة شباب الجنة، اجتراءً على الله وكفراًبدينه وعداوة لرسوله ومجاهدة لعترته واستهانة بحرمته، فكأنما يقتل به وبأهل بيته قوماً من كفار أهل الترك والديلم، لا يخاف من الله نقمة ولا يرقب منه سطوة، فبتر الله عمره، واجتث أصله وفرعه، وسلبه ما تحت يده، وأعدّ له من عذابه وعقوبته ما استحقه من الله بمعصيته.

هذا الى ما كان من بني مروان من تبديل كتاب الله وتعطيل أحكامه واتخاذ مال الله دولا بينهم، وهدم بيته واستحلال حرامه ونصبهم المجانيق عليه ورميهم إياه بالنيران. لا يألونه احراقاً واضراباً، ولما حرّم الله منه استباحة وانتهاكاً، ولمن لجأ إليه قتلا وتنكيلا، ولمن أمّنه الله به إضافة وتشريداً...

اللهم العن أبا سفيان بن حرب، ومعاوية ابنه، ويزيد بن معاوية، ومروان ابن الحكم وولده، اللهم العن أئمة الكفر وقادة الضلالة وأعداء الدين ومجاهدي الرسول ومغيّري الأحكام ومبدّلي الكتاب وسفاكي الدم الحرام ...الخ.

قال الطبري : وذكر أن عبيدالله بن سليمان أحضر يوسف بن يعقوب القاضي وأمره أن يُعمل الحيلة في إبطال ما عزم عليه المعتضد، فمضى يوسف ابن يعقوب فكلم المعتضد في ذلك وقال له: يا أمير المؤمنين، إني أخاف أن تضطرب العامة ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة! فقال: إن تحركت العامة أو نطقت وضعت سيفي فيها. فقال: يا أمير المؤمنين، فما تصنع بالطالبيين الذين هم في كل ناحية يخرجون، ويميل إليهم كثير من الناس لقرابتهم من الرسول ومآثرهم، وفي هذا

الكتاب اطراؤهم، أو كما قال: وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميل، وكانوا هم أبسط ألسنةً وأثبت حجة منهم اليوم!

فأمسك المعتضد فلم يردّ عليه جواباً، ولم يأمر في الكتاب بعده بشيء!

وذكر الطبري أيضاً أن المعتضد قد أمر فنودي في الجامعين بأن الذمة برية ممن اجتمع من الناس على مناظرة أو جدل، وأن من فعل ذلك أحلّ بنفسه الضرب، وتقدّم الى الشُرّاب والذين يسقون الماء في الجامعين ألاّ يترحموا على معاوية ولا يذكروه بخير(٥٨٦).

أما ابن الأثير - الذي نعى على الطبري عدم إخراجه قصة استلحاق زياد ابن أبيه- فإنه هنا يخالف منهجه ذاك، فلا يورد كتاب المعتضد بالله، ويكتفي بالقول في حوادث سنة (٢٨٤ هـ).

وفيها عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بانشاء كتاب يُقرأ على الناس، وهو كتاب طويل قد أحسن كتابته، إلاّ أنه قد استدل فيه بأحاديث كثيرة على وجوب لعنه عن النبي(صلى الله عليه وآله) لا تصح! وذكر في الكتاب يزيد وغيره من بني أُمية، وعُملت به نسخ قرئت بجانبي بغداد...

ثم يذكر ابن الأثير بعض أعمال المعتضد وحيلة عبيدالله في اقناع المعتضد عن طريق القاضي يوسف بن يعقوب لصرفه عن قراءة الكتاب، وقال: وكان عبيدالله من المنحرفة عن علي(عليه السلام)!(٥٨٧).

وتابعه على ذلك ابن كثير الدمشقي فقال:

وفيها عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر فحذّره ذلك وزيره عبدالله بن وهب وقال: إن العامة تنكر قلوبهم ذلك، وهم يترحمون عليه ويترضّون عنه في أسواقهم وجوامعهم، فلم يلتفت إليه، بل أمر بذلك وأمضاه وكتب به نسخاً الى الخطباء بلعن معاوية، وذكر فيها ذمه وذم ابنه يزيد بن معاوية وجماعة من بني أُمية، وأورد فيها أحاديث باطلة في ذم معاوية وقرئت في الجانبين من بغداد، ونهيت العامة عن الترحم على معاوية والترضي عنه، فلم يزل به الوزير حتى قال له فيما قال: يا أمير المؤمنين، إن هذا الصنيع لم يسبقك أحد من الخلفاء إليه، وهو مما يرغب العامة في الطالبيين وقبول الدعوة إليهم! فوجم المعتضد عند ذلك تخوفاً على

(٥٨٦) تاريخ الطبري ١٠ : ٥٤

(٥٨٧) الكامل في التاريخ ٧ : ٤٨٥

الملك، وقدّر الله تعالى أن هذا الوزير كان ناصبياً يكفّر علياً، فكان هذا من هفوات المعتضد![588].

ويجدر بنا أن نشير الى بعض الأمور المهمة فيما يتعلق بأمر هذا الكتاب وموقف المؤرخين منه.

منها : أن الترحم على معاوية والترضي عنه كان شائعاً في زمن العباسيين للأسباب التي أوردناها سابقاً، والخلفاء العباسيون وإن كانوا في دواخلهم يكنون البغضاء والحقد لمعاوية وبني اُمية أجمعين، إلا أنهم كانوا لا يجهرون بذلك، ولا يمنعون الرواية في فضائلهم والترضي عنهم، أو بالأحرى اختلاق الفضائل لهم توهيناً لشوكة العلويين، وقد بدا ذلك واضحاً في إعراض المعتضد عن الكتاب - رغم قناعته به واستعداده لوضع السيف في العامة إذا ما اعترضوا عليه- عندما حذّره وزيره وقاضيه من مغبة التفاف العامة حول العلويين وميلهم إليهم، فعند ذاك نظر المعتضد الى مصلحة دولته وملك بني العباس، فأهمل الكتاب!

لقد أوردت كتاب المعتضد - مختصراً بعض الشيء لطوله- بهدف توضيح موقف العباسيين من معاوية، والكشف عن الملابسات التي تكتنف مواقفهم منه، ولكي لا يتوهم القاريء بأن مجرد وضع اسمه على أبواب المساجد في عاصمة العباسيين يدل على تعظيمهم إياه، فلطالما خالفت السياسة المبادئ.

والأمر الآخر، هو الكشف عن مواقف بعض المؤرخين من الكتاب وعدم ايراده في كتبهم، والحكم على الأحاديث النبوية التي وردت فيه بذم معاوية وأبيه وأخيه بعدم الصحة، رغم أن هؤلاء الحفاظ قد خرّجوا الكثير منها - مع محاولة تأويلها- وسوف نتطرق الى مواقف الحفاظ من الأحاديث التي ذكرت فضائل معاوية ومثالبه بعد أن نستعرض هذه الأحاديث التي وردت في كتاب المعتضد وتبيّن مدى صحتها أو عدمه، مع ترك بعض الأمور التي سبق وأن تناولناها في مباحث سابقة. وأود أن أشير أخيراً الى موقف ابن كثير وهو يعبّر عن سروره الواضح لأن الله قدّر لهذا الكتاب رجلا ناصبياً منحرفاً عن علي بن أبي طالب ليمنعه من الظهور، ويعتبر الكتاب من هفوات المعتضد، ورغم إنني أعتقد أن ما تقدم من تصرفات معاوية وأعماله تكفي لإدانته بشكل تام، إلا أنني أود أن أستعرض شيئاً من سيرة عائلته التي تربى في أحضانها

(٥٨٨) البداية والنهاية ١١ : ٩٧ .

وبنى مواقفه من الإسلام متأثراً بمواقف تلك الاسرة، وزعيمها أبي سفيان بن حرب.

أبو سفيان

إن من الغرابة أن يتنكر بعض المؤلفين القدامى لكتاب المعتضد، مع أن المحدثين والحفاظ قد أخرجوا الكثير من تلك الأحاديث التي تنكر لها هؤلاء المؤلفون، وكثير منها طرقه لا مغمز فيها، فقصة مناصبة الأُمويّين ورأسهم أبو سفيان العداوة للنبي(صلى الله عليه وآله) هي من الأُمور التي لا يختلف فيها اثنان.

وأبو سفيان معروف منذ الجاهلية بأنه «كان من زنادقة قريش الثمانية»[٥٨٩]. وطائفة ترى أنه كان كهفاً للمنافقين منذ أسلم، وكان في الجاهلية ينسب الى الزندقة.

وفي خبر ابن الزبير أنه رآه يوم اليرموك، قال: فكانت الروم إذا ظهرت قال أبو سفيان: إيه بني الأصفر! فإذا كشفهم المسلمون قال أبو سفيان:

وبنو الاصفر الملوك ملوك *** الروم لم يبق منهم مذكور

فحدّث به ابن الزبير أباه لما فتح الله على المسلمين، فقال الزبير: قاتله الله، يأبى إلاّ نفاقاً! أو لسنا خيراً له من بني الاصفر»؟[٥٩٠].

ومن الجدير بالذكر هاهنا، أن الطبري قد روى عن سيف بن عمر في خبر معركة اليرموك، قال: «وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس فيقول: الله الله، إنكم ذادة العرب، وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم انزل نصرك على عبادك»![٥٩١].

ولا عجب أن يتصدى زنديق الكوفة للمنافحة عن زنديق قريش.

وأورد ابن هشام شماتة أبي سفيان بالمسلمين في وقعة حنين. فقال نقلا عن ابن إسحاق:

فلما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال بما في أنفسهم من الضّغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر! وإن الأزلام لمعه في كنانته![٥٩٢].

(٥٨٩) المحبّر : ١٦١ .
(٥٩٠) الاستيعاب ٤ : ٢٤٠ ، الكامل في التاريخ ٢ : ٤١٤ ، الاصابة ٢ : ١٧٢ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥ : ٥٣٦، ٦ : ٤٠٦ .
(٥٩١) تاريخ الطبري ٣ : ٣٩٧ .
(٥٩٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٨٦

وعندما بويع لأبي بكر، دخل أبو سفيان بن حرب على علي والعباس فقال: يا علي، وأنت يا عباس، ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش، في تيم! أما والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا! فقال علي: يا أبا سفيان طالما غششت الإسلام![٥٩٣].

وعندما بويع لعثمان، دخل أبو سفيان عليه وقد عمي، فقال: ها هنا أحد؟ قالوا: لا، قال: اللهم اجعل الأمر جاهلية، والملك ملك غاصبية، واجعل أوتاد الأرض لبني أمية![٥٩٤].

وفي رواية أنه قال : قد صارت إليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة، واجعل أوتادها بني أمية، فإنما هو الملك، ولا أدري ما جنة ولا نار!

ومع ذلك، فقد أخرج الإمام مسلم في فضائل أبي سفيان، عن ابن عباس، قال: كان المسلمون لا ينظرون الى أبي سفيان ولا يقاعدونه، فقال للنبي(صلى الله عليه وآله): يا نبي الله، ثلاث أعطنيهن، قال: «نعم». قال: عندي أحسن العرب وأجمله: أم حبيبة بنت أبي سفيان، أزوجك بها! قال: «نعم». قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك. قال: «نعم». قال: وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين! قال: «نعم».

قال النووي في شرحه للحديث : واعلم أن هذا الحديث من الأحاديث المشهورة بالإشكال! ووجه الإشكال أن أبا سفيان إنما أسلم يوم فتح مكة سنة ثمان من الهجرة، وهذا مشهور لا خلاف فيه، وكان النبي(صلى الله عليه وآله) قد تزوج أم حبيبة قبل ذلك بزمان طويل! قال أبو عبيدة وخليفة بن خياط وابن البرقي، والجمهور: تزوجها سنة ست، وقيل سنة سبع...

قال القاضي (عياض) : والذي في مسلم هنا أنه زوجها أبو سفيان، غريب جداً! وخبرها مع أبي سفيان حين ورد المدينة في حال كفره مشهور، ولم يزد القاضي على هذا.

وقال ابن حزم : هذا الحديث وهم من بعض الرواة، لأنه لا خلاف بين الناس أن النبي(صلى الله عليه وآله) تزوج أم حبيبة قبل الفتح بدهر وهي بأرض الحبشة، وأبوها كافر، وفي رواية عن ابن حزم أيضاً أنه قال: موضوع!! قال: والآفة فيه من عكرمة بن عمار الراوي، عن أبي زميل...[٥٩٥].

(٥٩٣) مختصر تاريخ دمشق ١١ : ٦٥

(٥٩٤) الاستيعاب ٤ : ٢٤٠ ، النزاع والتخاصم للمقريزي : ٢٠ ، تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ٤٠٩، الأغاني ٦ : ٣٥٥ .

(٥٩٥) شرح صحيح مسلم للنووي ١٦ : ٢٧٩ .

أما القول بأن الحديث وهم من الرواة، فالأصح القول أنه من كذب الرواة الذين أرادوا أن يختلقوا هذه الفضائل لأبي سفيان تقرباً لمعاوية ورغبة فيما عنده من الدنيا وقد فطن ابن حزم لذلك، فالحقيقة أن الحديث لا يزيد عن قول ابن عباس بأن المسلمين كانوا لا ينظرون الى أبي سفيان ولا يقاعدونه، وهذا مطعن عليه وعلى بني أمية، فزاد الرواة باقي الكلام ظناً منهم أنهم بذلك يتقربون لمعاوية وبني أمية الذين كانوا يجزلون العطاء للكذابين من مختلقي الفضائل، وليس أدل على ذلك من الادعاء بأن أبا سفيان قد طلب من النبي(صلى الله عليه وآله)تأميره لقتال المشركين، وموافقة النبي على ذلك! فالنبي(صلى الله عليه وآله) لم يؤمر أبا سفيان على أي جيش، وموقفه في اليرموك وحنين يكفي للدلالة على نواياه تجاه الإسلام.

فكل ما في الأمر أن ابن عباس أراد أن يكشف عن موقف المسلمين من أبي سفيان الذي كان متهماً في دينه عندهم، وليس أدل على ذلك من الحديث الآخر الذي أخرجه مسلم في فضائل سلمان وصهيب وبلال، عن عائد بن عمرو، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها! قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها! فأتى النبي(صلى الله عليه وآله) فأخبره، فقال: «**يا أبا بكر لعلك أغضبتهم! لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك!**» فأتاهم ابو بكر فقال: يا إخوتاه، أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي(٥٩٦).

فالنبي(صلى الله عليه وآله) لم يعاتب الصحابة الذين عرّضوا بأبي سفيان، بل عاتب أبا بكر على أن يكون قد أغضبهم، ولو كانت لأبي سفيان كرامة عند النبي(صلى الله عليه وآله)، لظهر في موقفه من أُولئك الصحابة، ولكن موقف النبي قد كشف عن دناءة قدر أبي سفيان عنده!

هند بنت عتبة

أما زوج أبي سفيان : هند بنت عتبة، أُم معاوية، «فأخبارها مشهورة حتى قبل الإسلام، وشهدت أُحداً، وهي التي مثلت بجسد حمزة عم النبي(صلى الله عليه وآله)، حيث شقت بطنه واستخرجت كبده فلاكتها -ولذا لقبت بآكلة الاكباد- فلم تطق إساغتها، فبلغ ذلك النبي(صلى الله عليه وآله) فقال: «**لو أساغتها لم تمسها النار**»(٥٩٧).

(٥٩٦) صحيح مسلم ٤ : ١٩٤٧
(٥٩٧) أسد الغابة ٧ : ٢٨١

وقول النبي(صلى الله عليه وآله) يدل على أن هنداً هي من أهل النار، وهي من دلائل نبوته، رغم أنها أسلمت بعد الفتح، ولكنها وزوجها وأبناءها ظلوا يسرّون أحقادهم على النبي وبني هاشم خاصة وعلى المسلمين عامة، ولا أدل على ذلك من جرأتها على النبي(صلى الله عليه وآله) حين أخذ البيعة منها واشترط فيما اشترط أن «**لا يسرقن ولا يزنين**» قالت له هند بنت عتبة: وهل تزني الحرة وتسرق يا رسول الله؟ فلما قال «**ولا يقتلن أولادهن**». قالت: قد ربّيناهم صغاراً وقتلتهم أنت ببدر كباراً![٥٩٨].

فجوابها هذا يدل على مدى ما كانت تحمله من حقد وضغن على النبي(صلى الله عليه وآله)، لأنها لم تنس أن دعوته كانت هي السبب في مقتل أبيها وأخيها وعمها في بدر!

مناقب معاوية ومثالبه

في الواقع أن كلمة مناقب لا تبدو متناسبة مع سيرة معاوية إطلاقاً، وليس هذا من تقوّلنا عليه، بل هو مما اتفق عليه كبار الأئمة والعلماء، ولكن البعض يأبى إلاّ أن يختلق لمعاوية بعض الفضائل بوضع الأحاديث المناسبة للمقام، إلاّ أن الأعجب أن ينبري بعض الأئمة الحفّاظ ـ ممن شق عليه ألاّ يجد لمعاوية فضيلة صحيحة ـ لتحويل مثالب معاوية الى مناقب وفضائل! كما يفعل ابن كثير والذهبي وابن حجر الهيثمي وغيرهم، وقد تشبث البعض بالرواية التي جاءت في البخاري عن أبي مليكة، قال: أوتر معاوية بعد العشاء بركعة، وعنده مولى لابن عباس، فأتى ابن عباس فقال: دعه فانه صحب رسول الله(صلى الله عليه وآله).

وفي رواية قال : إنه فقيه![٥٩٩].

قال ابن حجر العسقلاني في شرحه للحديث :

عبّر البخاري في هذه الترجمة بقوله ذكر، ولم يقل فضيلة ولا منقبة، لكون الفضيلة لا تؤخذ من حديث الباب، لأن ظاهر شهادة ابن عباس بالفقه والصحبة دالة على الفضل الكثير، وقد صنّف ابن أبي عاصم جزءاً في مناقبه، وكذلك أبو عمر غلام ثعلب، وأبو بكر النقّاش، وأورد ابن الجوزي في الموضوعات بعض الأحاديث التي ذكروها، ثم ساق عن اسحاق بن راهويه أنه قال: لم يصح في فضائل معاوية شيء فهذه النكتة في عدول البخاري عن التصريح بلفظ منقبة اعتماداً على قول

(٥٩٨) ترجمة هند من الاستيعاب : ٤ . ٤٧٤ ـ الإصابة : ٨ ـ ١٥٥ ، أسد الغابة : ٧ ـ ٢٨١ .
(٥٩٩) صحيح البخاري ٥ : ٣٥ ، باب ذكر معاوية .

شيخه، لكن بدقيق نظره استنبط ما يدفع به رؤوس الروافض. وقصة النسائي في ذلك مشهورة، وكأنه اعتمد أيضاً على قول شيخه إسحاق. وكذلك في قصة الحاكم.

وأخرج ابن الجوزي أيضاً عن طريق عبدالله بن أحمد بن حنبل، سألت أبي: ما تقول في علي ومعاوية؟ فأطرق ثم قال: إعلم أن علياً كان كثير الأعداء، ففتش أعداؤه له عيباً فلم يجدوا، فعمدوا إلى رجل قد حاربه، فأطروه كيداً منهم لعلي. فأشار بهذا الى ما اختلقوه لمعاوية من الفضائل مما لا أصل له.

وقد ورد في فضل معاوية أحاديث كثيرة، لكن ليس فيها ما يصح عن طريق الإسناد، وبذلك جزم اسحاق بن راهويه والنسائي وغيرهما[٦٠٠].

أما الرواية الآنفة الذكر، والتي يتشبث بها أنصار معاوية ويعدونها منقبة لمعاوية، فهي في الحقيقة ليست منقبة ولا فضلا كما صرح به ابن حجر العسقلاني، إذ أن الصحبة وحدها لا تكفي فضلا، لأن العبرة بحسن العاقبة، وكم من الصحابة ارتدوا وماتوا مرتدين، وكما أخبر النبي(صلى الله عليه وآله) عن مآل الكثير من الصحابة في أحاديث الحوض التي أوردناها فيما سبق.

أما وصف ابن عباس لمعاوية بأنه فقيه، فلا شك أنه من باب التهكم عليه، لأن ابن عباس يعلم جيداً قصر باع معاوية في الفقه، لقلة فترة صحبته، وقد مرّ بنا فيما سبق كيف أن معاوية كان يعترض على بعض الصحابة بأنهم يروون أحاديث تتضمن أحكاماً فقهية خطيرة لم يسمع هو بها، كما أن ابن عباس كان يعرف جيداً ما أحدث معاوية من بدع يخالف بها شريعة الله وسنّة نبيه(صلى الله عليه وآله)، ولقد ذمّ ابن عباس معاوية ولعنه في أكثر من موضع لهذا السبب، كما مر بنا فيما سبق، ولكن البعض يحاولون اقناع أنفسهم بأن قول ابن عباس هو تزكية لمعاوية، ولكن الأمر ليس كذلك قطعاً بعدما تعرفنا على رأي ابن عباس في معاوية.

أما النسائي، فقد دفع حياته ثمناً للحقيقة، حينما أعلن في بلاد الشام أنه ليس لمعاوية فضيلة ولا منقبة.

روى الحافظ المزّي، عن أبي بكر محمد بن موسى بن يعقوب الهاشمي قوله: قيل له: ألا تُخرج فضائل معاوية؟ فقال: أي شيء أُخرج، «اللهم لا تشبع بطنه»!!

كما وأخرج عن الحاكم أبي عبدالله الحافظ : سمعت علي بن عمر يقول: كان أبو عبدالرحمان النسائي أفقه مشايخ مصر في عصره، وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار وأعلمهم بالرجال، فلما بلغ هذا المبلغ حسدوه فخرج الى الرملة، فسئل عن

(٦٠٠) فتح الباري : ٧ ـ ١٠٤ .

فضائل معاوية، فأمسك عنه، فضربوه في الجامع فقال: أخرجوني الى مكة، فأخرجوه الى مكة وهو عليل، وتوفي بها مقتولا شهيداً[٦٠١].

وقد ادعى الحافظ المزي أن الإمام النسائي استشهد بدمشق من جهة الخوارج![٦٠٢].

وأخرج الذهبي عن ابن منده عن حمزة العقبي المصري وغيره، أن النسائي خرج من مصر في آخر عمره الى دمشق، فسئل بها عن معاوية وما جاء من فضائله، فقال: ألا يرضى رأساً برأس حتى يفضل!

قال : فما زالوا يدفعون في خصييه حتى أُخرج من المسجد، ثم حُمل الى مكة فتوفي بها[٦٠٣].

إن هذا يعطينا فكرة واضحة عن مدى تأثير الإعلام الأُموي في كثير من الناس، وبخاصة أهل الشام الذين اعتقدوا بصحة المناقب المفتعلة التي وضعها الكذابون من أكلة السحت لمعاوية، إلاّ أن الغريب أن تجد بعض المحدّثين يخرجون الكثير من هذه الفضائل ويروجونها في كتبهم رغم معرفتهم بأن أئمة الحديث -وعلى رأسهم إبن راهويه- قد حكموا بالإعدام على كل فضائل معاوية! والأعجب من ذلك أن يحاول بعض أُولئك الحفاظ أن يحولوا مثالب معاوية الى مناقب له، كما سوف يأتي فيما بعد!

لعن النبي(صلى الله عليه وآله) **لمعاوية والحكم**

مرّ في المبحث السابق أن الإمام النسائي قد عرّض بحديث «لا أشبع الله بطنه» بمثلبة من مثالب معاوية، إلاّ أن العجب أن تجد بعض الائمة الحفّاظ يصرون على تحويل هذه المثالب واللعنات على معاوية الى مناقب له! وحديث لا أشبع الله بطنه أخرجه الإمام مسلم عن ابن عباس قال: كنت ألعب مع الصبيان، فجاء رسول الله(صلى الله عليه وآله) فتواريت خلف الباب، قال: فجاء فحطأني حطأة، وقال: «**إذهب وادع لي معاوية**» قال: فجئت فقلت: هو يأكل! قال: ثم قال لي : «**اذهب فادع لي معاوية**». قال: فجئت فقلت: هو يأكل! فقال: «**لا أشبع الله بطنه**»[٦٠٤].

(٦٠١) تهذيب الكمال ١ : ١٥٧ ترجمة النسائي .

(٦٠٢) المصدر السابق ١ : ١٥٤

(٦٠٣) تذكرة الحفاظ ٢ : ٧٠٠ .

(٦٠٤) صحيح مسلم ٤ : ٢٠١٠ كتاب البر والصلة والآداب ، باب من لعنه النبي(ص) أو سبّه أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك ، كان له زكاة وأجراً ورحمة .

قال الذهبي - بعد ذكر هذا الحديث- لعل هذه منقبة لمعاوية لقول النبي(صلى الله عليه وآله): «**اللهم من لعنته أو شتمته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة**»[٦٠٥].

أما إبن كثير ، فلم يكتف بذلك، فقال بعد أن أورد هذا الحديث:

وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأُخراه! أما في دنياه فانه لما صار الى الشام أميراً، كان يأكل في اليوم سبع مرّات! يُجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل، فيأكل منها، ويأكل في اليوم سبع أكلات بلحم، ومن الحلوى والفاكهة شيئاً كثيراً، ويقول: والله لا أشبع وإنما أعيا!

وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك! وأما في الآخرة، فقد اتبع مسلم هذا الحديث بالحديث الذي راوه البخاري وغيرهما من غير وجه عن عدد من الصحابة، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**اللهم إنما أنا بشر، فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا، فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة**»![٦٠٦].

يقول ابن كثير هذا القول، وهو الإمام المفسر للقرآن الكريم، متناسياً قوله في تفسير قوله تعالى (**وَكُلوا واشرَبوا ولا تُسرفُوا إنَّهُ لا يُحبُّ المسرفينَ**)[٦٠٧].

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سليمان بن سليم الكلبي، حدثنا يحيى بن جابر الطائي، سمعت المقدام بن معد يكرب الكندي العبدي، قال: سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول : «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فان كان فاعلا لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه**»، ورواه النسائي والترمذي من طرق عن يحيى بن جابر وقال الترمذي: حسن، وفي نسخة حسن صحيح...[٦٠٨]

كما ونقل ابن كثير عن المحدثين تخريجهم لحديث يناقض قوله أيضاً، وهو قول النبي(صلى الله عليه وآله) : «**إن المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**»!![٦٠٩].

هذا مع العلم أن الفطرة الانسانية تنفر بطبعها من الإنسان النهم الذي يفرط في الأكل، فكيف يمدح النبي(صلى الله عليه وآله) معاوية بخصلة تنفر منها طباع البشر! لكن

(٦٠٥) تذكرة الحفاظ ٢ : ٦٩٩ .

(٦٠٦) البداية والنهاية ٨ : ١١٩ حوادث سنة ٦٠ .

(٦٠٧) سورة الاعراف : ٣١ .

(٦٠٨) تفسير القرآن العظيم ٢ : ٢١٥ .

(٦٠٩) البداية والنهاية ٥ : ١٩٥ ، صحيح البخاري ٧ : ٩٢ كتاب الأطعمة ، باب المؤمن يأكل في معي واحد . صحيح مسلم ٦ : ١٣٢ ، سنن الترمذي ٣ : ٤٠٥ أبواب الأطعمة ، باب ما جاء أن المؤمن يأكل في معي واحد .. وقال : هذا حديث حسن صحيح ، مسند الطيالسي ح ١٨٣٤ ، مصنف عبدالرزاق ح ١٩٥٥ ، مصنف ابن أبي شيبة ٨ : ٣٢١ مسند أحمد ٢ : ٤٣ ، ٧٤ ، ١٤٥ ، ٤٥٥ ، و ٣ : ٣٥٧ ، و ٤ : ٣٣٦ ، و ٥ : ٣٧٠ ، و ٦ : ٣٩٧ ، سنن الدارمي ح ٢٠٤٧ ، سنن ابن ماجة ح ٣٢٥٧ ، سنن النسائي ح ٦٧٧١ ، مسند أبي يعلى ح ٢١٥٢ ، ٥٦٣٣ ، مسند أبي عوانة ٥ : ٤٢٤ ، صحيح ابن حبّان : ح ٥٢٣٨ ، المعجم الأوسط للطبراني ح ١٦٢٤ ، ١٧٦٠ ، ١٨٢٨. حلية الأولياء ٦ : ٣٤٧ ، تحفة الأشراف ٦ : ١٧٦ ح ٨١٥٦ ، المسند الجامع ١٠ : ٥٣٦ ح٧٨٥٩ ، الحميدي : ٦٦٩ ، الموطأ : في صفة النبي .

ابن كثير يصر على جعل هذه المثلبة منقبة لمعاوية! أما كيف انتفع معاوية بلعن النبي(صلى الله عليه وآله) له في الآخرة! فذلك أعجب وأغرب، إذ أن من المعلوم أن النبي(صلى الله عليه وآله)قد لعن بعض الصحابة، بل إنه لعن قبائل بأكملها، كما جاء عن الحسن بن علي أنه قال لأبي الأعور الصالحي: ويحك! ألم يلعن رسول الله(صلى الله عليه وآله)رعلا وذكوان وعمرو بن سفيان![٦١٠].

كما ولعن النبي(صلى الله عليه وآله) أشخاصاً بأسمائهم أو بأوصافهم، كما عن سفينة أن النبي(صلى الله عليه وآله) كان جالساً فمرّ رجل على بعير وبين يديه قائد وخلفه سائق، فقال: **«لعن الله القائد والسائق والراكب»**[٦١١].

ومن المعلوم أن الراكب الذي أضمر الرواة اسمه هو أبو سفيان وأن السائق والقائد هما إبناه معاوية ويزيد!

وهذه الروايات وأمثالها قد أوقعت الجمهور في حيرة عظيمة، لأنها تتنافى مع مكانة الصحابة عند الجمهور، إذ من المعلوم أن لعن النبي(صلى الله عليه وآله)لأي شخص يجعله عرضة لنقمة الله وسخطه، فلم يجدوا إزاء ذلك إلاّ اللجوء الى تبرير ذلك كله بروايات ادعوا أنها جاءت عن النبي(صلى الله عليه وآله)، بأن لعنه لأولئك الأشخاص، إنما هو زكاة ورحمة لهم! رغم أن تصرف بعض الصحابة ممن تنسب إليهم هذه الروايات يناقضها تماماً كما سيأتي.

لقد أخرج المحدّثون هذه الروايات عن بعض الصحابة كأبي هريرة وأم المؤمنين عائشة وغيرهما، فمن تلك الروايات نختار رواية عائشة، قالت: دخل على رسول الله(صلى الله عليه وآله) رجلان، فكلّماه بشيء لا أدري ما هو فأغضباه; فلعنهما وسبّهما! فلما خرجا قلت: يا رسول الله، من أصاب من الخير شيئاً، ما أصابه هذان، قال: **«وما ذاك؟»**. قالت، قلت: لعنتهما وسببتهما. قال: **«أو ما علمت ما شارطت ربي عليه؟ قلت : اللهم إنما أنا بشر، فأي مسلم لعنته، أو سببته فاجعله له زكاة وأجراً»!**[٦١٢].

ومن الطريف أن الإمام مسلم استثنى في هذا الباب من هذه اللعنة من ليس لها أهلا، ولا أدري هل أن معاوية أهل للعن بعد كل ما عرضنا من أحواله أم لا!

والأغرب من كل ذلك أن تروي أم المؤمنين عائشة هذا الحديث، وتعيّر مروان بن الحكم -في نفس الوقت- بأن النبي(صلى الله عليه وآله) قد لعنه وهو في صلب أبيه! فلو

(٦١٠) مجمع الزوائد ١ : ١١٣ وقال : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير عبد الرحمان بن أبي عوف وهو ثقة .
(٦١١) المصدر السابق وقال : رواه البزار ورجاله ثقات .
(٦١٢) صحيح البخاري ٨ : ٩٦ كتاب الدعوات ، باب قول النبي (ص) من آذيته فاجعله له زكاة ورحمة عن أبي هريرة، صحيح مسلم ٤ : ٢٠١٠ كتاب البر والصلة والآداب. باب من لعنه النبي (ص) أو سبّه أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك، كان له زكاة وأجراً ورحمة.

كانت عائشة تعلم أن اللعن زكاة له ورحمة، لما عيّرته به! كما وأن ابن الزبير -وهو منافس لآل الحكم على الخلافة وعدّوهم- يذكر لعن النبي(صلى الله عليه وآله)لآل الحكم، فعن الشعبي، قال: سمعت عبدالله بن الزبير وهو مستند الى الكعبة وهو يقول: ورب هذه الكعبة، لقد لعن رسول الله(صلى الله عليه وآله)فلاناً وما ولد من صلبه، رواه أحمد والبزار إلاّ أنه قال: لقد لعن الله الحكم وما ولد على لسان نبيه(صلى الله عليه وآله)(٦١٣).

وعن عبدالله بن عمر أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد أشار الى الحكم وقال: «**إن هذا سيخالف كتاب الله وسنة نبيه، وسيخرج من صلبه فتى يبلغ دخانها السماء**، فقال ناس من القوم: هو أقل وأذل من أن يكون هذا منه. قال: «**بلى، وبعضكم يومئذ شيعته!!**»(٦١٤).

وقال ابن حجر : وبسند رجاله رجال الصحيح، عن عبدالله بن عمر(رضي الله عنه)أنه قال: «ليدخلن الساعة عليكم رجل لعين، ، فوالله ما زلت أتشوف داخلا وخارجاً حتى دخل فلان، وكنت قد تركت عمراً يلبس ثيابه ليقبل الى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فلم أزل مشفقاً أن يكون أول من يدخل، فدخل الحكم بن أبي العاص»(٦١٥).

وعن عمرو بن مرة قال : استأذن الحكم على رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فعرف صوته فقال : «**ائذنوا له. لعنة الله عليه وعلى من يخرج من صلبه إلاّ المؤمنين، وقليل ما هم ، ذوو مكر وخديعة يعطون الدنيا ومالهم في الآخرة من خلاق**»(٦١٦).

وعن محمد بن كعب القرظي، أنه قال : لعن رسول الله(صلى الله عليه وآله) الحكم وما ولد، إلاّ الصالحين ، وهم قليل(٦١٧).

وعن نصر بن حازم الليثي عن أبيه، قال: دخلت مسجد المدينة فاذا الناس يقولون: نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، قال: قلت: ماذا؟ قالوا: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) يخطب على منبر، فقام رجل فأخذ بيد ابنه فأخرجه من المسجد، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**لعن الله القائد لهذه الأمة من فلان ذي الإستاه**»(٦١٨).

وهنا ينبري ابن حجر الهيثمي المكي للدفاع عن الحكم وغيره ممن شملتهم لعنة النبي(صلى الله عليه وآله) فيقول:

(٦١٣) مجمع الزوائد ٥ : ٢٤١ وقال : ورجال أحمد رجال الصحيح، المستدرك ٤ : ٤٨١ وصححه ، كنز العمال ١١ : ٣٥٧ ح ٣١٧٣٢ و ٣١٧٣٣ ، مختصر تاريخ دمشق ٢٤ : ٢٩١ .

(٦١٤) المعجم الكبير للطبراني ١٢ : ٣٣٦ ح ١٣٦٠٢ ، كنز العمال ١١ : ١٦٥ ح ٣١٠٦٠، ٣٥٩ ح٣١٧٤ .

(٦١٥) تطهير الجنان : ٦٣ ، وانظر الاستيعاب ١ : ١١٩ ، مسند أحمد ٢ : ٣٤٧ ح ٦٤٨٤ .

(٦١٦) البلاذري ٥ : ١٢٦ المستدرك ٤ : ٤٨١ وصححه ، السيرة الحلبية ١ : ٣٣٧ ، الصواعق المحرقة : ١٨١ ، تطهير الجنان : ٦٤ ، جمع الجوامع للسيوطي ٦ : ٩٠ ، كنز العمال ١١ : ٣٥٧ ح ٣١٧٢٩ .

(٦١٧) كنز العمال ١١ : ٣٦١ ح ٣١٧٤٦ .

(٦١٨) مجمع الزوائد ٥ : ٢٤٢ وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات.

صحّ أنه(صلى الله عليه وآله) لعن الحكم وبنيه إلاّ الصالح منهم ... على أنه مرّ أن لعنه لمن لا يستحق اللعن من اُمته طهارة ورحمة!(٦١٩).

وهنا أيضاً لا نعلم كيف يستثني النبي(صلى الله عليه وآله) الصالحين مِن ولد الحكم من هذه الزكاة والأجر والرحمة، مع أن الصالحين هم أحوج إليها وأكثر استحقاقاً لها من غير الصالحين! كما ولا أدري كيف علم ابن حجر المكي أن الحكم وبنوه غير مستحقين لتلك اللعنة، بعدما علمنا من أحوالهم فيما سبق ما علمنا!

أليس كل هذا يثبت أن عائشة اُم المؤمنين لم تسمع بهذا الكلام من النبي(صلى الله عليه وآله)ولا روته عنه، وإنما هي روايات اختلقها الوضاعون تقرباً لمعاوية وبني اُمية، بهدف إزالة هذه اللطخة التي تسبب لهم العار والشنار على جباههم بعد ما أصبحوا ملوكاً على رقاب الناس!

دعاء النبي على معاوية وعمرو

من المعلوم يقيناً أن دعاء النبي(صلى الله عليه وآله) مستجاب لكرامة النبي(صلى الله عليه وآله) على الله سبحانه وتعالى لأنه أفضل خلقه وخاتم أنبيائه، ولأن النبي لا يدعو لأحد أو يدعو على أحد إلاّ وهو يعلم استحقاق ذلك الشخص لدعائه له أو عليه.

ولقد نال كل من معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص حظّهما من دعاء النبي(صلى الله عليه وآله) عليهما ـ في حال كانا مشركين أو بعد تظاهرها بالإسلام ـ فقد كان هذا الرجلان وأبواهما من أشد المؤذين للنبي(صلى الله عليه وآله)، وقد كان عمرو بن العاص يقول الشعر في هجاء النبي(صلى الله عليه وآله) عند ما كان مشركاً، و «كان يعلمه صبيان مكة فينشدونه ويصيحون برسول الله إذا مرّ بهم رافعين أصواتهم بذلك الهجاء، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله) وهو يصلي بالحجر : «**اللهم إن عمرو بن العاص هجاني، ولستُ بشاعر، فالعنه بعدد ما هجاني**»(٦٢٠).

وروى أهل الحديث أن النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص، عهدوا الى سلا جمل فرفعوه بينهم ووضعوه على رأس رسول الله(صلى الله عليه وآله)وهو ساجد بفناء الكعبة فسال عليه، فصبر ولم يرفع رأسه، وبكى في سجوده ودعا عليهم، فجاءت إبنته فاطمة(عليها السلام) وهي باكية فاحتضنت ذلك السلا فرفعته عنه فألقته وقامت على رأسه تبكي، فرفع رأسه(صلى الله عليه وآله)وقال «**اللهم عليك بقريش**»

(٦١٩) تطهير اللسان والجنان الملحق بالصواعق المحرقة : ٧٠ .
(٦٢٠) تفسير القرطبي ٢ : ١٢٦ .

قالها ثلاثاً، ثم قال رافعاً صوته : «**إني مظلوم فانتصر**» قالها ثلاثاً، ثم قام فدخل منزله، وذلك بعد وفاة عمه أبي طالب بشهرين.

ولشدة عداوة عمرو بن العاص لرسول الله(صلى الله عليه وآله)، أرسله أهل مكة الى النجاشي ليزهّده في الدين، وليطرد عن بلاده مهاجرة الحبشة، وليقتل جعفر بن أبي طالب عنده إن أمكنه قتله...(٦٢١)

وبعد تظاهر كل من معاوية وعمرو بالإسلام، ظلا يقترفان أموراً جعلت النبي(صلى الله عليه وآله) يلعنهما ويدعو عليهما بدخول النار! فقد أخرج المحدثون عن أبي برزة الأسلمي، قال: كنا مع رسول الله(صلى الله عليه وآله) في سفر، فسمع رجلين يتغنيان وأحدهما يجيب الآخر ويقول:

لا يزال جوادي تلوح عظامه *** زوى الحرب عنه أن يجن فيقبرا

فقال النبي(صلى الله عليه وآله) : «**انظروا من هما؟**» قال: فقالوا: معاوية وعمرو بن العاص، فرفع رسول الله يديه فقال : «**اللهم اركسهما ركساً، ودُعَّهما الى النار دعّاً**»!(٦٢٢).

وبعد أن أورد السيوطي هذه الرواية، نقل عن بعض العلماء قولهم فيه:

لا يصح ! يزيد كان يتلقن بأجرة فيلقن!

قال السيوطي : هذا لا يقتضي الوضع ، والحديث أخرجه أحمد في مسنده: حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا محمد بن فصيل به، وله شاهد من حديث إبن عباس، قال الطبراني في الكبير: حدثنا أحمد بن علي بن الجارود الاصبهاني، حدثنا عبدالله بن عباد عن سعيد الكندي، حدثنا عيسى بن الأسود والنخعي عن ليث عن طاوس عن ابن عباس، قال: سمع النبي(صلى الله عليه وآله) صوت رجلين يتغنيان وهما يقولان:

ولا يزال جوادي تلوح عظامه *** ذوى الحرب عنه أن يجن فيقبرا

فسأل عنهما، فقيل له : معاوية وعمرو بن العاص، فقال: «**اللهم اركسهما في الفتنة ودعهما الى النار دعاً**».

وقال ابن قانع في معجمه : حدثنا محمد بن عبدوس كامل، حدثنا عبدالله بن عمر، حدثنا سعيد أبو العباس التميمي، حدثنا سيف بن عمر، حدثني أبو عمر مولى إبراهيم بن طلحة عن زيد بن أسلم عن صالح عن شقران، قال: بينما نحن ليلة في سفر، إذ سمع النبي(صلى الله عليه وآله) صوتاً فقال: «**ما هذا؟**» فذهبت أنظر، فاذا هو معاوية بن رافع وعمرو بن رفاعة بن التابوت! يقول:

(٦٢١) شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد ٦ : ٢٨٢ .

(٦٢٢) مسند ابي يعلى ١٣ : ٤٢٩ ، المعجم الكبير للطبراني ١١ : ٣٢ ، مسند أحمد ٥ : ٥٨٠ وقد حذف اسمي الرجلين وجعل مكانهما (فلان وفلان).

لا يزال جوادي تلوح عظامه *** ذوي الحرب عنه أن يموت فيقبرا

فأتيت النبي(صلى الله عليه وآله) فأخبرته فقال : «**اللهم اركسهما ركساً ودعهما الى نار جهنم دعاً**»، فمات عمرو بن رفاعة قبل أن يقدم النبي(صلى الله عليه وآله) من السفر...

قال السيوطي : وهذه الرواية أزالت الاشكال، وبينت أن الوهم وقع في الحديث الأول في لفظة واحدة وهي قوله: إبن العاصي، وإنما هو ابن رفاعة، أحد المنافقين، وكذلك معاوية بن رافع أحد المنافقين والله أعلم(٦٢٣).

هنا نجد مثالا آخر من أمثلة التزييف، عندما يضع بعض الأئمة الحفّاظ أيديهم في أيدي الوضاعين الكذابين المتهمين بالزندقة من أجل قلب الحقائق، وتحويل المطاعن في معاوية وعمرو الى غيرهم إن لم يجدوا سبيلا الى تحويلها الى فضائل! فالحافظ الكبير جلال الدين السيوطي يخالف كل مبادئ الأمانة العلمية من أجل دفع هذا العار عن رجلين يعتقد عدالتهما -أو لا يعتقد ولكنه يساير الجمهور- فنجده يناور مناورة عجيبة، فهو بعد أن يورد رواية الإمام أحمد ويثبت أن الحديث بهذا الإسناد لا مغمز فيه إطلاقاً، نجده يعود فيستشهد برواية الطبراني، مدعياً بأنها حلت الاشكال، ويقصد به الاشكال الذي اعتقده هو وغيره في متن الرواية، لأن لعن النبي(صلى الله عليه وآله)لمعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص -وهما صحابيان- ودعاؤه عليهما بدخول جهنم، قد أوقع أُولئك الحفّاظ في هذا المشكل، فهم يدعون من جهة أن الصحابة جميعاً من أهل الجنة، ولكن مثل هذه الروايات الصحيحة عن الأئمة الثقات توقعهم في مشكل لا يجدون للخروج منه سبيلا، فيلجؤون - بكل أسف- الى أساليب التزييف وخداع المسلمين بالادعاء أن الاشكال في الرواية إنما جاءت بسبب الخطأ في الأسماء، وبأن الشخصان المقصودان ليسا معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص الصحابيان! بل هما شخصان آخران من المنافقين! وذلك بالاعتماد على تلك الرواية التي أوردها السيوطي مدعياً بأنها حلت الاشكال، متناسياً أن في إسنادها سيف بن عمر الوضاع المتهم بالزندقة، والذي طالما اخترع أحداثاً وأشخاصاً من نسج الخيال، من أجل أن يصرف النقمة عن أسياده من أعداء الإسلام!

وإذا كان سيف معذوراً في نصرة أسياده الذين كانوا يخدمون نفس غرضه، فما هو عذر الإمام السيوطي - وهو الإمام الحافظ المتقن العليم بالحديث الخبير بالرجال- في تصحيح رواية موضوعة انتصاراً لمعاوية وعمرو، وردّ الحديث الصحيح عن النبي(صلى الله عليه وآله) في لعنهما، وهل غاب عن السيوطي من يكون سيف بن عمر!

(٦٢٣) اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١ : ٣٩٠

معاوية على المنبر

بمناسبة الحديث عن المنبر، أود أولا أن أنقل ما ذكره المؤرخ ابن كثير الدمشقي في حوادث سنة خمسين، من أن معاوية بن أبي سفيان قد همّ بنقل منبر رسول الله(صلى الله عليه وآله) من المدينة المشرّفة الى الشام، وقال: «لما حرّك المنبر خسفت الشمس فترك!»[٦٢٤].

وأعود لأذكر القارئ الكريم بأنه قد مرّ بنا في مبحث سابق أن الصحابي عبدالرحمان بن سهل الأنصاري كان قد نذر أن يقتل معاوية إن رأى منه ما قد سمع من النبي(صلى الله عليه وآله) في حقه، أو كما قال: «وأحلف بالله لئن بقيت حتى أرى في معاوية ما سمعت من رسول الله(صلى الله عليه وآله) لأبقرن بطنه أو لأموتن دونه»[٦٢٥].

إلاّ أن من المؤسف أن هذه الكتب التي ترجمت لهذا الصحابي، قد اغفلت ذكر تاريخ وفاته، ولكن يغلب على الظن أنه قد توفي قبل أن يرى ما أخبر به رسول الله(صلى الله عليه وآله) في معاوية، لذا فانه لم يف بنذره، فما هو ذلك الأمر يا ترى؟

قال ابن كثير :

وقد روى إبن عدي من طريق علي بن زيد -وهو ضعيف- عن أبي نضرة عن أبي سعيد. ومن حديث مجالد -وهو ضعيف أيضاً- عن أبي الوداك، عن أبي سعيد، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه!**». وأسنده أيضاً من طريق الحكم بن ظهير -وهو متروك- عن عاصم عن زر عن ابن مسعود مرفوعاً، وهذا الحديث كذب بلا شك، ولو كان صحيحاً لبادر الصحابة الى فعل ذلك، لأنهم كانوا لا تأخذهم في الله لومة لائم[٦٢٦].

وقال السيوطي :

أبو بكر بن داود لما روى حديث : «**إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه**»

هذا معاوية بن تابوت رأس المنافقين! وكان حلف أن يبول ويتغوط على منبره، وليس هو معاوية بن أبي سفيان! قال المؤلف: وهذا يحتاج الى نقل، ومن نقل هذا؟ قلت: قال ابن عساكر: هذا تأويل بعيد، والله أعلم!

ورواه بعضهم فاقبلوه بالباء الموحّدة!

(٦٢٤) البداية والنهاية ٨ : ٤٥ .

(٦٢٥) الاصابة ٤ : ٢٦٤ ، الاستيعاب ٢ : ٣٧٩ أسد الغابة ٣ : ٤٧١ .

(٦٢٦) البداية والنهاية ٨ : ١٤١ حوادث سنة ٦٠ .

(قال السيوطي) : قال ابن عدي : هذا اللفظ مع بطلانه (أي فاقتلوه) قد قُرئ أيضاً بالباء الموحدة، ولا يصح أيضاً! وهو أقرب الى العقل! فان الأمة رأوه يخطب على منبر رسول الله(صلى الله عليه وآله) ولم ينكروا ذلك عليه، ولا يجوز أن يقال إن الصحابة ارتدت بعد نبيها(صلى الله عليه وآله) وخالفت أمره...[٦٢٧].

وأخرج الخطيب عن جابر مرفوعاً : «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقبلوه فانه أمين مأمون!» وقال: لم أكتب هذا الحديث إلاّ من هذا الوجه، ورجال إسناده ما بين محمد بن إسحاق وأبي الزبير كلهم مجهولون![٦٢٨].

مرة أُخرى نجد الأئمة الحفّاظ يشرّقون ويغرّبون، ويلجؤون الى إقرار الروايات المزيفة دفاعاً عن معاوية وإنقاذاً لماء وجهه ووجوه المدعين الدفاع عن الصحابة، فابن كثير وغيره يكتفون بذكر الروايات الضعيفة ويسقطونها، وآخرون يقلبون التاء باءً فيعكسون المعنى، كل ذلك دفاعاً عن معاوية بن أبي سفيان، وكأنهم بذلك إنما يدافعون عن حياض الاسلام، مع أنهم يثبتون بالروايات الصحيحة عن الأئمة الثقات بأن كل أعمال معاوية وتصرفاته كانت تستهدف هدم عرى الإسلام ومحق الشريعة والسنّة النبوية، فهذا ابن كثير نفسه يقول في حوادث سنة ستين للهجرة :

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وسعيد بن منصور قالا: ثنا أبو معاوية، ثنا الأعمش عن عمرو بن مرّة، عن سعيد بن سويد، قال: صلى بنا معاوية بالنخيلة -يعني خارج الكوفة- الجمعة في الضحى! ثم خطبنا فقال: ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا! قد عرفت أنكم تفعلون ذلك، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم! فقد أعطاني الله في ذلك وأنتم كارهون. رواه محمد بن سعد عن يعلى ابن عبيد عن الأعمش به![٦٢٩]

فها هو إبن كثير ينقل عن لسان معاوية اعترافه بأنه لم يقاتل أهل الكوفة لإقامة الصلاة أو إعطاء الزكاة، بل قاتلهم على الملك، ولكي يثبت معاوية بأن ولاءه وحربه ليست للاسلام، فقد أقام صلاة الجمعة في الضحى خلافاً لسنة النبي(صلى الله عليه وآله) وما تصافقت عليه الأمة المسلمة!

وليس التكذيب والتضعيف والتزييف هو السبيل الوحيد الذي يلجأ إليه بعض أُولئك الأئمة الحفاظ، بل والإغفال أيضاً!

(٦٢٧) اللآلي المصنوعة ١ : ٣٨٩ ، وانظر الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي ٢ : ٣٨٢ رقم ٣٤٢ ، كنوز الدقائق للمناوي ١ : ١٩ ، تهذيب التهذيب ٥ : ٩٦ ، ميزان الاعتدال ٢ : ٣٤٦ رقم ٥٠٤٩ ، كتاب المجروحين لابن حبّان ٢ : ١٧٢ ، تاريخ بغداد للخطيب ١ : ٢٥٩ رقم ٨٨ .

(٦٢٨) تاريخ بغداد ١٢ : ١٧٨ رقم ٦٦٥٢ .

(٦٢٩) البداية والنهاية ٨ : ٩٠ حوادث سنة ٦٠

فلماذا لم يستشهد ابن كثير برواية البلاذري عن الحسن (البصري) قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه**»، فتركوا أمره فلم يفلحوا ولم ينجحوا!

وإذا كان الإرسال عيباً في هذ الرواية، فقد أورد البلاذري رواية مسندة صحيحة عن أبي سعيد الخدري قال: إن رجلا من الأنصار أراد قتل معاوية فقلنا له: لا تسلّ السيف في عهد عمر حتى نكتب إليه، قال: إني سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: «**إذا رأيتم معاوية يخطب على الأعواد فاقتلوه**». قالوا: ونحن سمعناه ولكن لا نفعل حتى نكتب الى عمر. فكتبوا إليه فلم يأتهم جواب حتى مات![٦٣٠]

اما إنكار الروايات الصحيحة من حيث متنها، والادعاء بأن ذلك يعني مخالفة الصحابة لأوامر النبي(صلى الله عليه وآله) وهم منزهون عن ذلك، فهذا أدعى للعجب، فان من المؤكد أن الكثير من الصحابة قد خالفوا أوامر النبي(صلى الله عليه وآله)في حياته وبعد مماته، وسوف نذكر بعض الموارد التي خالف فيها الصحابة أوامر نبيهم كلما دعت الحاجة لذلك إن شاء الله تعالى.

لقد أسهبت في الحديث عن معاوية دون شك، ولكن ذلك كله ماهو إلاّ غيض من فيض، وإنما قصدت من ذلك الكشف عن نواحي التزييف الذي أصاب تراثنا الإسلامي، والرد على اُولئك الذين يرفعون عقائرهم بمدح معاوية وبني اُمية، مدّعين بأن ما قيل في مثالبهم هو من اختراع أهل القرون التي اعقبت سقوط الأمويين، فأثبتنا بأن ما ذكرناه قد جاء عن الأئمة الثقات غير المتهمين على معاوية، بل وأظهرنا كيف أن بعضهم يتصدى للدفاع عن معاوية بعد قرون متطاولة من عهده حتى لو استلزم ذلك منه أن يزيف الحقائق، فيصحح السقيم ويضعّف الصحيح من الحديث النبوي الشريف تحقيقاً لتلك الغاية.

وإن من العجب أن تجد البعض ـ إن لم يجد أي مبرر لمعاوية للوثوب على رقاب المسلمين ـ يلجأ الى القول بأن معاوية- وإن لم يكن من أفاضل الصحابة- إلاّ أنه كان أقدرهم على القيام بمهام الحكم، ويعتبرون ذلك عذراً كافياً له، وقد أحسن السيد رشيد رضا في الإجابة على ذلك بقوله:

«إن سيرة معاوية تفيد بجملتها وتفصيلها أنه كان طالباً للملك ومحباً للرئاسة، وإنني لأعتقد أنه قد وثب على هذا الأمر مفتاتاً، وأنه لم يكن له أن يحجم عن مبايعة علي بعد أن بايعه اُولو الأمر أهل الحل والعقد، وإن كان يعتقد أنه قادر على القيام

(٦٣٠) انساب الأشراف ٥ : ١٣٦

بأعباء الأمة كما يقولون، فما كل معتقد بأهليته لشيء يجوز أن ينازع فيه، وقد كان علي يعتقد أنه أحق بالخلافة، ولما بايع الناس من قبله بايع لئلا يفرق كلمة المسلمين ويشق عصاهم، ومعاوية لم يراع ذلك، وأنه هو الذي أحرج المسلمين حتى تفرقوا واقتتلوا، وبه صارت الخلافة ملكاً عضوضاً، ثم إنه جعلها وراثة في قومه الذين حولوا أمر المسلمين عن القرآن باضعاف الشورى، بل بابطالها، واستبدال الاستبداد بها حتى قال قائلهم على المنبر : (من قال لي اتق الله ضربت عنقه)![٦٣١].

هذه كانت نتائج خروج معاوية على طاعة الخليفة الشرعي، وإشعاله نار تلك الحرب التي أودت بحياة اُلوف المسلمين، والتي انتهت أخيراً باستيلاء معاوية على السلطة بغير وجه حق، والتي كانت هدفه الأوّل من كل تلك الأعمال، من أجل أن يحقق بها هدفه الآخر - اضافة الى الملك- ألا وهو محاولة تحريف الشريعة وتغيير حكم الله، ومحق السنّة النبوية، كيداً لبني هاشم وسيدهم النبي(صلى الله عليه وآله) لما كان يحمله معاوية وتحمله بنو اُمية من ضغن لهم، حتى بلغت بمعاوية الجرأة على اتهام النبي(صلى الله عليه وآله) بالغدر! فعن عباية قال: ذُكر قتل كعب بن الأشرف عند معاوية فقال: كان قتله غدراً!

فقال محمد بن مسلمة : يا معاوية، أيغدر عندك رسول الله(صلى الله عليه وآله)!؟ لا يظلّني وإياك سقف بيت أبداً[٦٣٢].

نعم، لقد ظل معاوية يحارب ذكر النبي(صلى الله عليه وآله) وسيرته وسنّته طيلة مدة حكمه، ويظهر العداء الصريح لبني هاشم وبغض علي بن أبي طالب، ويحرّض الكذابين على وضع أخبار تستهدف النيل منه -كما سوف نتطرق إليه في موضعه- حتى صار ذلك سنة يتبعها خلفاؤه وولاتهم، فأعمال ابنه يزيد التي فاقت كل الحدود في بشاعتها ووحشيتها، من قتله الحسين بن علي وهو سبط النبي(صلى الله عليه وآله) وريحانته وأحد سيدي شباب أهل الجنة، وبعد قول النبي(صلى الله عليه وآله) : «**حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً، حسين سبط من الأسباط**»[٦٣٣]، وما أعقب ذلك من استباحة جنده بأمره مدينة رسول الله(صلى الله عليه وآله)وقتله الصحابة وأبناءهم وختمه أعناقهم كالعبيد، وانتهاك أعراض النساء، في واقعة الحرّة الشهيرة التي لا يقدر أحد على انكارها ولا أن يجد مبرراً لها، ومن ثم هجوم جيشه على حرم الله ورميه الكعبة

(٦٣١) المنار ٩ : ٢١٢ ، وقائل ذلك هو عبدالملك بن مروان !

(٦٣٢) مشكل الآثار ١ : ٧٧ .

(٦٣٣) الأدب المفرد للبخاري. باب معانقة الصبي ح ٣٦٤ ، المستدرك ٣ : ١٧٧ وصححه ووافقه الذهبي، سنن الترمذي ١٣ : ١٩٥ مناقب الحسن والحسين ، سنن ابن ماجة ح ١٤٤ ، مسند أحمد ٤ : ١٧٢ ، ١٣٢ أسد الغابة ٢ : ١٩ ، ٥ : ١٣٠ كنز العمال ١٣ : ١٠٦ ، فيض القدير ٣ : ١٤٥ .

المشرفة بالمنجنيق حتى احترقت، كل ذلك كان بسبب الباب الذي فتحه معاوية للاجتراء على الله ورسوله والمسلمين، وحتى صار تولية الطغاة العتاة من أمثال عبيدالله بن زياد بن سمية، والحجاج بن يوسف الثقفي وخالد القسري وغيرهم ممن وطأوا المسلمين وأذلوهم وقتلوا خيارهم، سنة متبعة عند بني اُمية، ومهما أسهبنا في الحديث عن الأعمال التي ارتكبها اُولئك الخلفاء غير الشرعيين وولاتهم بحق الإسلام فاننا لن نستوفي كل ما أحدثوه، ويكفي أن نُلم إلمامة بسيطة ببعض أخبار اُولئك الولاة - دون الدخول في التفاصيل- لنعطي للقارئ فكرة مبسطة عن جرائمهم وما كانوا يحملون للإسلام من ضغن.

فالحجاج بن يوسف الثقفي يقول عن الصحابي عبدالله بن مسعود: ابن مسعود رأس المنافقين، ولو أدركته لأسقيت الأرض من دمه!

ويعترض على قراءة ابن مسعود، ويقول: يا عجباً من عبد هُذيل، يزعم أنه يقرأ قرآناً من عند الله، ما هو إلاّ رجز من رجز الأعراب، والله لو أدركتُ عبد هُذيل لضربت عنقه!

ويعترض على وجود المعوّذتين في القرآن، ويتهم ابن مسعود في قراءته وينهى عنها ويقول: ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن اُم عبد إلاّ ضربت عنقه، ولأحكّنها من المصحف ولو بضلع خنزير![٦٣٤].

قال الذهبي : قاتل الله الحجاج، ما أجرأه على الله، كيف يقول هذا في العبد الصالح عبدالله بن مسعود![٦٣٥]

وقال في ترجمته : كان ظلوماً، ناصبيّاً، جبّاراً، خبيثاً، سفّاكاً للدماء... (وذكر من أعماله) : حصاره لابن الزبير بالكعبة، ورميه إياها بالمنجنيق، وإذلاله لأهل الحرمين، ثم ولايته على العراق والمشرق كله عشرين سنة، وحروب ابن الأشعث له، وتأخيره للصلوات الى أن استأصله الله، فنسبُّه ولا نحبّه، بل نبغضه في الله، فان ذلك من أوثق عرى الإيمان..[٦٣٦]

وعن حبيب بن أبي ثابت، قال: قال علي(رضي الله عنه) لرجل: لا مُتَّ حتى تدرك فتى ثقيف. قيل يا أمير المؤمنين، ما فتى ثقيف؟ قال: ليقالنَّ له يوم القيامة: اكفنا زاوية من زوايا جهنم، رجل يملك عشرين سنة أو بضعاً وعشرين سنة، لا يدع معصية لله إلاّ ارتكبها!

(٦٣٤) تهذيب تاريخ دمشق ٤ : ٧٢ .
(٦٣٥) تاريخ الاسلام ٦ : ٣١٤ .
(٦٣٦) سير أعلام النبلاء ٤ : ٣٤٣ .

وعن إسحاق بن يزيد قال : رأيت أنساً(رضي الله عنه) مختوماً في عنقه ختمة الحجاج، أراد أن يذلّه بذلك.

وعن قتادة قال : قيل لسعيد بن جبير : خرجت على الحجاج! قال: والله ما خرجتُ عليه حتى كفر.

وقال هشام بن حسّان : أحصوا ما قتل الحجاج صبراً فبلغ مائة ألف وعشرون ألفاً. وقال الهيثم بن عدي : مات الحجاج وفي سجنه ثمانون ألفاً، منهم ثلاثون ألف امرأة.

ولم يكتف الحجاج بكل ذلك، بل تشبّه برب العالمين -تعالى عن ذلك- فقد مرّ الحجاج في يوم جمعة، فسمع استغاثة فقال: ما هذا؟ قيل: أهل السجون يقولون: قتلنا الحر، فقال: قولوا لهم: (**اخسؤوا فيها وَلا تُكلّمونِ**)(٦٣٧)، فما عاش بعد ذلك إلاّ أقل من جمعة.

وعن عمر بن عبدالعزيز، قال : لو تخابثت الأمم، وجئنا بالحجاج لغلبناهم، ما كان يصلح لدنيا ولا لآخرة!

وقال سفيان عن منصور : ذكرت لإبراهيم لعن الحجاج أو بعض الجبابرة، فقال: أليس الله يقول : (**ألا لعنةُ اللهِ عَلى الظالمينَ**)(٦٣٨).

وكفى بالرجل عمىً أن يعمى عن أمر الحجاج.

وقال الأصمعي : قال عبدالملك للحجاج: إنه ليس أحد إلاّ وهو يعرف عيبه، فعب نفسك، قال: اعفني يا أمير المؤمنين; فأبى عليه، فقال: أنا لجوج حقود حسود. فقال: ما في الشيطان شرٌّ مما ذكرت(٦٣٩).

يقول عبدالملك بن مروان : ذلك للحجاج، ويعرفه حق المعرفة، ومع ذلك يوليه على رقاب المسلمين في العراق والمشرق كله!

أما خالد القسري - أحد ولاة الأمويين- فقال عنه ابن كثير:

كان رجل سوء، يقع في علي بن أبي طالب، وكانت اُمه نصرانية، وكان متهماً في دينه، وقد بنى لأمه كنيسة في داره(٦٤٠).

وقال أبو عبيدة : حدثني أبو الهذيل العلاّف، قال: صعد خالد القسري المنبر، فقال: الى كم يغلب باطلنا حقكم، أما آن لربكم أن يغضب لكم! وكان زنديقاً، اُمه

(٦٣٧) المؤمنون : ١٠٨ .

(٦٣٨) هود : ١٨ .

(٦٣٩) تهذيب تاريخ دمشق ٤ : ٧٢ ، تاريخ الإسلام ٦ : ٣١٤ ترجمة الحجاج .

(٦٤٠) البداية والنهاية ١٠ : ٢٠ .

نصرانية، فكان يولي النصارى والمجوس على المسلمين، ويأمرهم بامتهانهم وضربهم، وكان أهل الذمة يشترون الجواري المسلمات ويطئنهن، فيطلق لهم ذلك ولا يغيّر عليهم!

قال : ودخل عليه فراس بن جعدة بن هبيرة وبين يديه نبق، فقال له: العن علي بن أبي طالب ولك بكل نبقة دينار، ففعل، فأعطاه بكل نبقة ديناراً!

ولم يقتصر خلفاء بني اُمية على تولية الظلمة على رقاب المسلمين، بل تعداه الى تولية الولاة الجهّال بأُمور الدين، وحتى الجهل بكتاب الله، وبأبسط قواعد الشريعة، فقد قال عوانة فيما يروي عن هشام الكلبي، قال: خطبنا عتبة بن النهاس العجلي فقال:

ما أحسن شيئاً قاله الله عزّوجل في كتابه:

ليس حيٌّ على المنون بباق *** غير وجه المسيّح الخلاّق!

قال : فقمت إليه فقلت : الله عزّوجل لم يقل هذا، وإنما قاله عدي بن زيد!

فقال : قاتله الله، ما ظننته إلاّ من كتاب الله، ولا نعم ما قال عدي بن زيد، ثم نزل عن المنبر.

واُتي بامرأة من الخوارج فقال : يا عدوة الله، ما خروجك على أمير المؤمنين! ألم تسمعي الى قول الله عزّوجل في كتابه:

كُتب القتل والقتال علينا *** وعلى الغانيات جرّ الذيول!

فقالت : يا عدوّ الله، حملني على الخروج جهلكم بكتاب الله وإضاعتكم لحق الله(٦٤١).

هذا بعض ما أوردناه من أعمال بعض خلفاء بني اُمية وعمالهم -وهي غيض من فيض- ولا يشك من له مسكة من عقل أن هؤلاء الخلفاء والولاة كانوا لا يمتّون لروح الإسلام بصلة إلاّ في الظاهر خوفاً من ثورة الأمة عليهم ونزع ملكهم، والمسؤول الأوّل في كل ذلك هو معاوية بن أبي سفيان ومن أعانه على بغيه بما مهّد لهم من طريق للتسلط على رقاب المسلمين، ومع ذلك تجد من المؤلفين -قديماً وحديثاً- يتفننون في اختلاق الأعذار لمعاوية وأعوانه. بل ويتفاخرون بتلقيبه بخال المؤمنين، ولا أدري لماذا ينفرد معاوية بخؤولة المؤمنين دون سواه، فان كان هو أخا اُم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي(صلى الله عليه وآله)، فان عبدالرحمان ومحمداً إبنا أبي بكر الصديق هما أخوا عائشة اُم المؤمنين زوج النبي وأحبّهن إليه -كما يقال- وهي إبنة أبي بكر الصديق أفضل من بقي بعد النبي -كما يقال- وعبدالله بن عمر ألم يكن أخا

(٦٤١) الفهرست : ١١٩ ترجمة عوانة .

حفصة أم المؤمنين، وإبن عمر بن الخطاب الفاروق -ثاني أفضل رجلين بعد النبي كما يقال- وابن عمر معروف بتقواه وزهده، حتى قيل: إبن عمر في زمانه أفضل من أبيه في زمانه، ويقيناً فان لزوجات النبي الأخريات إخوة وأشقاء، إلاّ أن أحداً من كل هؤلاء لم يحظ بهذا التكريم بوصفه خالا للمؤمنين -وكلهم أفضل من معاوية- وانفرد هو وحده بهذا الشرف الرفيع! ألا يدل هذا على مدى قوة الإعلام الأموي من جهة، ومدى تفشي الجهل في أوساط المسلمين من جهة أخرى! حتى تنطلي عليهم هذه التخرصات، ويصدقوا أن معاوية لم يفعل ما فعله إلاّ غيرة على الإسلام والمسلمين، وإنه لم يكن يطمع في حطام الدنيا، ولا يبتغي بعمله إلاّ الآخرة، وأي غيرة هذه على الإسلام بعدما استعرضنا بعضاً من أعمال معاوية، وبعد ورود لعنه على لسان النبي(صلى الله عليه وآله)، وبعد قول النبي(صلى الله عليه وآله): «**إن أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلا وتشريداً، وإن أشد قومنا لنا بغضاً بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم**»(٦٤٢).

وبعد قول النبي(صلى الله عليه وآله) : «**ستّة لعنهم الله وكل نبي مجاب : الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله تعالى، والمتسلط بالجبروت فيعزّ بذلك من أذلّ الله ويذلّ من أعزّه الله، والمستحل لحرم الله، والمستحل من عترتي ما حرّم الله، والتارك لسنّتي**»(٦٤٣).

فأي مصلحة للاسلام جلبها له معاوية، وأي مفسدة دفعها عنه؟!

إن أعمال معاوية لم تكن إلاّ بدوافع عبّرت عنها أم الخير بقولها: لإحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحدية، وثب بها معاوية حين الغفلة، ليدرك ثارات بني عبدشمس...!(٦٤٤).

وقد قال الأسود بن يزيد لعائشة : ألا تعجبين من رجل من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله في الخلافة! قالت: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البرّ والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة، وكذلك غيره من الكفار(٦٤٥).

فعائشة قد أثبتت أن معاوية من الفجّار وليس من الأبرار، بل إنها قرنته مع فرعون الكافر، وهو في أشد العذاب كما أخبر الله سبحانه وتعالى!

وقال سمرة بن جندب -وهو أحد أعوان معاوية وولاته- : لعن الله معاوية! والله لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبني أبداً!(٦٤٦).

(٦٤٢) مستدرك الحاكم ٤ : ٤٨٧ .
(٦٤٣) سنن الترمذي ٤ : ٤٥٧ .
(٦٤٤) العقد الفريد ٢ : ١١٥ ، صبح الاعشى ١ : ٢٩٧ ، بلاغات النساء : ٥٧ ، نهاية الارب ٧ : ٢٤١ .
(٦٤٥) تفسير ابن كثير ٨ : ١٣١ ، الدر المنثور ٦ : ١٩ .
(٦٤٦) تاريخ الطبري حوادث ٥٣ .

ولعل أفضل وصف لمعاوية ، أخرجه البلاذري عن المدائني وابن الكلبي قالا :

قال معاوية لابن الكواء اليشكري : نشدتك الله كيف تعلمني؟ فقال: أما إذ نشدتني الله، فاني أعلمك واسع الدنيا ضيّق الآخرة، قريب الرّشا بعيد المدى، تجعل الظلمة نوراً والنور ظلمة!(٦٤٧).

وأود أن أُنبّه القرّاء الكرام، بأن ما ذكرناه لم يكن من باب التحامل على أحد، وكلامنا لم يصدر عن نظرة مسبقة، بل كان كل ذلك محاولة لكشف نواحي التزييف الذي تعرض له تاريخنا في أخطر وأدق مراحله، وسوف نتناول في الفصول القادمة موضوعاً أكثر خطورة وأهمية مما سبق، ألا وهو ما تعرضت له السنّة النبوية الشريفة من عملية تزييف، محاولين تبين أسبابها وأهدافها ونتائجها، والله المستعان.

(٦٤٧) أنساب الأشراف ٥ : ٤٧ .

الفصل التاسع: النصوص على الخلافة

النصوص على الخلافة

قد يبدو هذا العنوان الذي اخترناه مطلعاً لهذا الفصل من كتابنا، مثار تساؤل عند الكثيرين، فالعبارة التي اعتدنا على قراءتها -والتي درج عليها المؤلفون قديماً وحديثاً- فحواها : «توفي رسول الله(صلى الله عليه وآله) ولم يوصِ بالخِلافة لأحد من بعده»، فإذا كان الأمر كذلك فما بال هذا المدّعي وجود أكثر من نص على الخلافة إذاً!؟ ومن هم المنصوص عليهم إن وجدت مثل هذه النصوص؟ ولكي تتوضح الصورة بشكل أفضل، فان علينا أن نستعرض ما كتبه بعض المؤلفين حول موضوع (الإمامة والخلافة)، والتي كانت مدار نزاع دائم بين المسلمين، وأدت الى تميّز بعض فرقهم عن بعض بادعاء وجود نص على الخليفة من بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وعندما نستعرض ما كتبه أُولئك المؤلفون، فاننا سندهش عندما نجدهم يتضافرون على القول بوجود النص! بل إن بعضهم يدعي أن وجود النص أفضل للأمّة وأدعى إلى تحقيق تماسكها، وأنفى لوقوع الفتن والقلاقل بين أبنائها. فهذا ابن حزم الأندلسي يقول: وجدنا عقد الإمامة يصح بوجوه: أوّلها وأصحّها وأفضلها، أن يعهد الإمام الميّت إلى إنسان يختاره إماماً بعد موته، سواء جعل ذلك في صحته أو عند موته، كما فعل رسول الله(صلى الله عليه وآله)بأبي بكر، وكما فعل أبو بكر بعمر، وكما فعل سليمان بن عبدالملك بعمر بن عبدالعزيز! وهذا هو الوجه الذي نختاره ونكره غيره لما في هذا الوجه من اتصال الإمامة، وانتظام أمر الإسلام وأهله، ورفع ما يُتخوّف من الاختلاف والشغب مما يتوقّع في غيره من بقاء الأمة فوضى، ومن انتشار الأمر وحدوث الأطماع(٦٤٨).

والذي يهمنا من مقالة ابن حزم : إدعاؤه بأن النبي(صلى الله عليه وآله) قد نص على أبي بكر، مع أن نظرية الجمهور على عمومها تنفي وجود نص على شخص بعينه مطلقاً! وانفردت طائفة الشيعة بالقول بوجود نص من النبي(صلى الله عليه وآله)بالخلافة، ولكن لعلي بن أبي طالب.

(٦٤٨) الفصل : ٤ ـ ١٦٩ .

وقد تصدى المؤلّفون والمتكلّمون من الجمهور لحجج الشيعة بعدم وجود نص أصلا على أحد من الناس، وحاولوا أن يفنّدوا دعاواهم، ولكن أُولئك المؤلّفين والمتكلّمين -وهم ينقضون إدعاءات الشيعة- تجدهم بالمقابل يلمحون بوجود نص أو نصوص مقابلة للنصوص التي يتمسك بها الشيعة، ويمثل القاضي ابن العربي أحد أركان هذا الاتجاه، فهو ينعى على الشيعة قولهم بوجود نص على علي بن أبي طالب، ويتخذ من ذلك وسيلة أيضاً لتفنيد عقائدهم كلياً، ثم يبدأ بالتلميح الى النصوص التي يعتقد أنها تشكل نقضاً لنصوص الشيعة، وتوحي بأن النبي(صلى الله عليه وآله) قد أشار الى استخلاف أبي بكر من بعده. ولأن الموضوع بالغ الحساسية والخطورة، فانني سوف أجد نفسي مضطراً مرة أُخرى الى أن أُثقل على القارئ بايراد بعض النصوص الطويلة لبعض المؤلّفين حول هذا الموضوع، وذلك لاعتقادي بضرورتها، ولأنها تعطي توضيحاً أكثر للموضوع قيد الخلاف، وتزيل الغموض الذي يكتنفه في نهاية الأمر.

ولنبدأ أولا باستعراض مقالة ابن العربي -كما عودنا القارئ- في هذا الشأن، حيث قال في إحدى قواصمه:

إنما يكون ذلك في المعاني التي تُشكل، وأما هذه الأُمور كلها فلا إشكال فيها، لأن النبي(صلى الله عليه وآله)، نصّ على استخلاف علي بعده فقال: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنه لا نبي بعدي**»، وقال :«**اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله**»، فلم يبق بعد هذا خلاف لمعاند، فتعدى عليه أبو بكر واقتعد في غير موضعه، ثم خلفه في التعدي عمر، ثم رجا أن يوفق عمر للرجوع الى الحق، فأبهم الحال وجعلها شورى قصراً للخلاف، للذي سمع من النبي(صلى الله عليه وآله). ثم تحيّل ابن عوف حتى ردها عنه الى عثمان، ثم قتل عثمان لتسوره على الخلافة وعلى أحكام الشريعة، وصار الأمر الى عليّ بالحق الإلهي النبوي، فنازعه من عانده، وخالف عليه من بايعه، ونقض عهده من شدّه، وانتدب أهل الشام مع معاوية الى الفسوق في الدين، بل الكفر. وهذه حقيقة مذهبهم، أن الكل منهم كفرة، لأن مذهبهم التكفير بالذنوب، وكذلك تقول هذه الطائفة التي تسمى بالإمامية: أن كل عاص بكبيرة كافر، على رسم القدرية، ولا أعصى من الخلفاء المذكورين ومن ساعدهم على أمرهم، وأصحاب محمد(صلى الله عليه وآله) أحرص الناس على دنيا، وأقلّهم حماية على دين، وأهدمهم لقاعدة وشريعة ...

وقال في (عاصمة) -بعد تحامل على الشيعة-:

وقد أجمعت الأمة على أن النبي(صلى الله عليه وآله) ما نص على أحد يكون من بعده، وقد قال العباس لعلي -فيما روى عنه عبدالله ابنه-: خرج علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) من عند رسول الله(صلى الله عليه وآله) في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً. فأخذ بيده العباس بن عبدالمطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبدالعصا، وإني والله لأرى رسول الله(صلى الله عليه وآله) سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبدالمطلب عند الموت! إذهب بنا الى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فلنسأله فيمن يكون هذا الأمر بعده، فان كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا. فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله(صلى الله عليه وآله) فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله(صلى الله عليه وآله).

قال القاضي أبو بكر(رضي الله عنه) : رأي العباس عندي أصح، وأقرب الى الآخرة، والتصريح بالتحقيق، وهذا يبطل قول مدّعي الإشارة باستخلاف علي، فكيف أن يدّعى فيه نص؟! فأما أبو بكر، فقد جاءت امرأة الى النبي(صلى الله عليه وآله)، فأمرها أن ترجع إليه، قالت له: فان لم أجدك -كأنها تعني الموت-، قال: تجدين أبا بكر.

وقال النبي(صلى الله عليه وآله) لعمر -وقد وقع بينه وبين أبي بكر كلام- فتمعّر وجه النبي(صلى الله عليه وآله)حتى أشفق من ذلك أبو بكر، وقال النبي(صلى الله عليه وآله): «**هل أنتم تاركو لي صاحبي (مرّتين)، إني بعثت إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت، ألا إني أبرأ الى كل خليل من خلته**».

وقال النبي(صلى الله عليه وآله) : «**لو كنت متخذاً في الإسلام خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا، لا يبقين في المسجد خوخة إلاّ خوخة أبي بكر**».

وقد قال النبي(صلى الله عليه وآله) : «**بينما أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم استحالت غرباً، فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر، حتى ضرب الناس بعطن**».

وقد ثبت أن النبي(صلى الله عليه وآله) صعد اُحداً وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهما، فرجف بهم فقال: «**أثبت أحد، فانما عليك نبي وصديق وشهيدان**».

وقال النبي(صلى الله عليه وآله) : «**لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فان يكن في أمتي منهم أحد فعمر**».

وقال النبي(صلى الله عليه وآله) لعائشة رضي الله عنها في مرضه : «**ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتاباً، فاني أخاف أن يتمنّى متمن ويقول: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر**».

وقال ابن عباس : إن رجلا أتى النبي(صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله، إني أرى الليلة في المنام ظلة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون بأيديهم، فالمستكثر والمستقل، وأرى سبباً واصلا من السماء الى الأرض فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع، ثم وصل له فعلا (وذكر الحديث). ثم عبّرها أبو بكر فقال: وأما السبب الواصل من السماء الى الأرض، فالحق الذي أنت عليه، فاخذته فيعليك الله، ثم يأخذ به رجل آخر بعدك فيعلو به، ثم يأخذه رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذه رجل آخر فيتقطع به ثم يوصل له فيعلو به».

وصح أن النبي(صلى الله عليه وآله) قال ذات يوم : «**من رأى منكم رؤيا**»؟ فقال رجل: أنا رأيت كأن ميزاناً نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت، ووزن أبو بكر وعمر فرجح أبو بكر، ووزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رفع الميزان. فرأينا الكراهية في وجه رسول الله(صلى الله عليه وآله).

قال ابن العربي : وهذه الأحاديث جبال في البيان وحبال في التسبب الى الحق لمن وفّقه الله، ولو لم يكن معكم -أيها السنّية- إلاّ قوله تعالى (**إلا تنصروه فقد نَصرهُ اللهُ إذْ أخرَجهُ الذينَ كَفَروا ثانِيَ اثنينِ إذْ هُما في الغار**)(٦٤٩) فجعلها في نصيف وجعل أبا بكر في نصيف آخر وقام معه جميع الصحابة...(٦٥٠)

لابدّ لنا من وقفة قصيرة أمام مقالة إبن العربي التي يدعي فيها عدم وجود نص على أحد، لا على علي ولا على أبي بكر، ولكنه يورد مجموعة من الروايات توحي بتلميح يفوق التصريح ليس الى استخلاف أبي بكر وحده، بل على استخلاف من بعده!

إن ابن العربي يورد أولا حديثين يحتج بهما الشيعة -على ما يبدو- على وجود نص بالخلافة لعلي بن أبي طالب، والقاضي ابن العربي يذكرهما دون اهتمام، لكنه يسهب في إيراد الروايات التي توحي باستخلاف أبي بكر ومن بعده، ولا شك أن الكثير من هذه الروايات مخرّجة في الصحاح التي يعتمدها الجمهور فضلا عن السنن

(٦٤٩) التوبة : ٤٠ .
(٦٥٠) العواصم من القواصم : ١٨٣ .

والمسانيد وغيرها، ولست هنا بصدد مناقشتها سنداً - إذ جرت عادة الجمهور على عدم مناقشة أسانيد الصحاح كما هو معلوم- ولكنني أود أن أُثير بعض النقاط المتعلقة بهذه الأحاديث. ففي رواية ابن عباس التي أوردها ابن العربي ووافق فيها على قول العباس، نجد كلام العباس لعلي غريباً وغامضاً، إذ ما معنى أن يصبح علي عبداً للعصا بعد ثلاث! هل يريد العباس بذلك أن من سوف يتولى الخلافة مكانه سوف يضطهد علياً ويستضعفه، ولماذا؟ وما معنى قول علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله(صلى الله عليه وآله)فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده! فهل كان علي يريد أخذ الخلافة بالرغم من رغبة النبي وأمره!

أما الروايات الأخرى التي أوردها ابن العربي، فهي تكاد تنص على خلافة الخلفاء الثلاثة على الترتيب، ولكن الأمر الأكثر غرابة أننا لا نجد لعلي بن أبي طالب أي ذكر بين هؤلاء، فأضغاث الأحلام التي رآها ذلك الرجل المجهول لا تذكر إلاّ ثلاثة خلفاء، والنبي(صلى الله عليه وآله) يخاطب اُحداً بأن عليه نبي وصدّيق وشهيدان فقط، ولا أدري هل يعتبر علي بن أبي طالب شهيداً، أم أن النبي(صلى الله عليه وآله)قد أسقطه من كل حساباته، وبذلك يكون قد أخرجه من دائرة الخلفاء الراشدين الأربعة الذين يقول الجمهور بهم!

إننا لا نريد الاسترسال في مناقشة ابن العربي كثيراً فان هناك من كان أكثر صراحة منه وإسهاباً في عرض الأمر، فالحافظ ابن كثير الدمشقي قد عقد فصلا لطيفاً تحدث فيه باسهاب عن هذا الأمر، وأورد حجج الطرفين -فيما يتعلق بالنص- فيما يشبه مقارنة بين آرائهما، وتغليب الرأي الأصح والأقوى -حسب اعتقاده- لذا أجد نفسي مضطراً مرة أُخرى الى إيراد جزء كبير من مقالة ابن كثير، فإن فيها أُموراً جديرة بالملاحظة والمناقشة وإيراد آراء بعض العلماء والمتكلمين فيما فيها :

حادثة الغدير وحديثها

تحت عنوان (فصل)، كتب ابن كثير الدمشقي :

في إيراد الحديث الدال على أنه(عليه السلام) خطب بمكان بين مكة والمدينة مرجعه من حجة الوداع قريب من الجحفة -يقال له غدير خم- فبيّن فيها فضل علي بن أبي طالب وبراءة عرضه مما كان تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن، بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التي ظنها بعضهم جوراً وتضييقاً وبخلا، والصواب كان معه في ذلك، ولهذا لما تفرغ(عليه السلام) من بيان المناسك ورجع الى المدينة تبين

ذلك أثناء الطريق، فخطب خطبة عظيمة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة عامئذ، وكان يوم الأحد بغدير خم تحت شجرة هناك، فبين فيها أشياء، وذكر فضل علي وأمانته وعدله وقربه إليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه، ونحن نورد عيون الأحاديث الواردة في ذلك، ونبين ما فيها من صحيح وضعيف بحول الله وقوته وعونه، وقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ، فجمع فيه مجلدين أورد فيهما طرقه وألفاظه، وساق الغث والسمين والصحيح والسقيم.. وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر، أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة، ونحن نورد عيون ما روي فى ذلك، مع إعلامنا أنه لا حظّ للشيعة ولا متمسك لهم ولا دليل لما سنبيّنه وننبّه عليه...

ثم يورد ابن كثير حديث الغدير من سبعة طرق، نكتفي بذكر واحدة منها.

قال : روى النسائي في سننه عن محمد بن المثنى عن يحيى بن حماد عن أبي معاوية عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم، قال: لما رجع رسول الله(صلى الله عليه وآله) من حجة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقمّمن، ثم قال: «**كأني قد دُعيت فأجبت، إني قد تركت فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض**» ثم قال :«**الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن**» ثم أخذ بيد علي فقال: «**من كنت مولاه فهذا وليّه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه**». فقلت لزيد: سمعته من رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ فقال: ما كان في الدوحات أحد إلاّ رآه بعينه وسمعه بأُذنيه. تفرّد به النسائي من هذا الوجه.

قال ابن كثير : قال شيخنا أبو عبدالله الذهبي: وهذا حديث صحيح.

ثم يورد ابن كثير أكثر من ثلاثين رواية حول مناشدة علي بن أبي طالب الصحابة في رحبة مسجد الكوفة ممن سمع حديث غدير خم ليشهد بسماعه، فقام إثنا عشر صحابياً -وفي رواية اثنا عشر بدرياً- فشهدوا، نذكر منها هذه الرواية التي أوردها ابن كثير قال:

قال عبدالله بن الإمام أحمد في مسند أبيه : حدّث علي بن حكيم الأودي: أخبرنا شريك عن أبي إسحاق عن سعيد بن وهب، وعن زيد بن يثيغ قال: نشد عليّ الناس في الرحبة من سمع رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول يوم غدير خم ما قال إلاّ قام؟ قال: فقام من قبل سعيد ستة ومن قبل زيد ستة، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول لعلي يوم غدير خم : «**أليس الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟**» قالوا: بلى. قال: «**اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه**» . قال عبدالله: وحدثني

علي بن حكيم، حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن عمرو ذي أمر مثل حديث أبي إسحاق، يعني عن سعيد وزيد، وزاد فيه: «**وانصر من نصره واخذل من خذله...**»[٦٥١].

الكتاب العاصم

بعد ذلك ينتقل ابن كثير الى ذكر حادثة اُخرى وحديثها، والتي تبدو من حجج الشيعة أيضاً على النص على خلافة علي بن أبي طالب، وهي قصة الكتاب الذي أخبر النبي(صلى الله عليه وآله) في مرضه عن رغبته في كتابته ليعصم اُمته من الضلالة. وينفي ابن كثير دلالة الحديث على وجود نص في علي بن أبي طالب، ويشنّع على الشيعة، فينقل عن ابن عباس روايتين في البخاري قائلا: وقال البخاري: ثنا قتيبة، ثنا سفيان عن سليمان الأحول عن سعيد بن جبير، قال: قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس! اشتّد برسول الله(صلى الله عليه وآله)وجعه، فقال: «**ائتوني أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً**». فتنازعوا -ولا ينبغي عند نبي تنازع- فقالوا: ما شأنه يهجر! استفهموه; فذهبوا يردّون عنه. فقال: «**دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه»**»، فأوصاهم بثلاث، قال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم»**»، وسكت عن الثالثة أو قال: فنسيتها!

ثم يورد ابن كثير رواية اُخرى عن البخاري ويقول: ورواه مسلم عن محمد بن رافع وعبد بن حميد، كلاهما عن عبدالرزاق بنحوه، وقد أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه من حديث معمر ويونس عن الزهري.

ثم قال معلقاً : وهذا الحديث مما قد توهّم به بعض الأغبياء من أهل البدع من الشيعة وغيرهم، كل مدع أنه كان يريد أن يكتب في ذلك الكتاب ما يرمون إليه من مقالاتهم، وهذا هو التمسك بالمتشابه وترك المحكم، وأهل السنّة يأخذون بالمحكم ويردّون المتشابه، وهذه طريقة الراسخين في العلم[٦٥٢].

فابن كثير يقرّر في مقالته صحة حديث الغدير كما ورد عن الذهبي، ولكنه يقرّر أيضاً بأن لا صحة لدعاوى الشيعة في كونه نصاً في الخلافة، بل هو مجرّد إزالة لبعض ما اعتمل في نفوس البعض من تصرفات قام بها علي، فأراد النبي(صلى الله عليه وآله) أن يزيل هذا الالتباس ويفهمهم صحة موقف علي.

(٦٥١) البداية والنهاية : ٥ ـ ٢٠٨ .
(٦٥٢) البداية والنهاية ٥ : ٢٠٨ .

أما بشأن الكتاب الذي أراد النبي(صلى الله عليه وآله) أن يكتبه في مرضه الذي توفي فيه، فان ابن كثير يكتفي بالإشارة الى أن الشيعة يقولون فيه ما يوافق أهواءهم دون أن يتطرق الى ذكر الحجج التي يدلون بها، ويكتفي بانكارها فقط. ونعلم بذلك - حتى الآن - أن للشيعة ثلاثة دعاوى في النص هي حديث الغدير، وحديث «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى**»، والكتاب العاصم. وبعد أن ينقل ابن كثير هذه الحجج ويردّ عليها، يقوم هذه المرّة بإيراد الروايات التي يعتقد أنه ردٌّ على دعاوى الشيعة -كما فعل ابن العربي قبله- وفيها ما فيها من إشارات -لا يسع ابن كثير نفسه أن ينكرها- توحي بالنص على أبي بكر، وسنورد هذه الحجج - برواية ابن كثير- ونناقش تأويله لها.

كتاب لأبي بكر

بعدما قدّم ابن كثير لمحة عما يعتبره حججاً للشيعة في وجود نص على علي بن أبي طالب وقال رأيه فيها، ينتقل الى إيراد روايات يظن أنها تشكّل نصّاً على أبي بكر، حيث يقول مستكملا مقالته التي أوردنا قسماً منها:

وهذا الموضوع مما زلّ فيه أقدام كثير من أهل الضلالات وأما أهل السنّة فليس لهم مذهب إلاّ اتباع الحق، يدورون معه كيفما دار، وهذا الذي كان يريد عليه الصلاة والسلام أن يكتبه، قد جاء في الأحاديث الصحيحة التصريح بكشف المراد منه، فانه قد قال الإمام أحمد: حدثنا مؤمل، حدثنا نافع عن ابن عمرو، ثنا ابن أبي مليكة عن عائشة، قالت: لما كان وجع رسول الله(صلى الله عليه وآله) الذي قُبض فيه قال: «**ادعوا لي أبا بكر وابنه لكي لا يطمع في أمر أبي بكر طامع ولا يتمناه متمن**»، ثم قال: «**يأبى الله ذلك والمؤمنون**»، مرّتين. قالت عائشة: فأبى الله ذلك والمؤمنون.

وبعد أن يورد إبن كثير رواية اُخرى عن أحمد بنفس المعنى، ورواية عن البخاري أيضاً، يقول:

في صحيح البخاري ومسلم من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه، قال: أتت إمرأة الى رسول الله(صلى الله عليه وآله)فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك -كأنها تقول الموت- قال: «**إن لم تجديني فأتِ أبا بكر**» والظاهر والله أعلم إنها إنما قالت ذلك له(عليه السلام) في مرضه الذي مات فيه...

ويستكمل ابن كثير الكلام في أدلته قائلا:

وقد خطب عليه الصلاة والسلام في يوم الخميس قبل أن يقبض(عليه السلام)بخمس أيام خطبة بيّن فيها فضل الصدّيق من سائر الصحابة مع ما كان قد نصّ عليه أن يؤم الصحابة أجمعين، كما سيأتي بيانه مع حضورهم كلهم. ولعل خطبته هذه كانت عوضاً عما أراد أن يكتبه في الكتاب.

خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) **في ابي بكر**

يورد ابن كثير بعد ذلك روايات متعددة عن خطبة النبي(صلى الله عليه وآله) منها:

قال : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر; ثنا فليح عن سالم عن أبي النضر عن بشر بن سعيد عن أبي سعيد، قال: خطب رسول الله الناس فقال: إن الله خيّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله. قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله عن عبد، فكان رسول الله هو المخيّر، وكان أبو بكر أعلمنا به، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله)«**إنَّ أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، لو كنت متخذاً خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن خلّة الإسلام ومودته، لا يبقى في المسجد باب إلاّ سدّ، إلاّ باب أبي بكر**». وهكذا رواه البخاري من حديث أبي عامر العقدي به...

وبعد أن يورد ابن كثير روايات اُخرى في نفس المعنى يقول:

وهذا اليوم الذي كان قبل وفاته(عليه السلام) بخمسة أيام، هو يوم الخميس الذي ذكره إبن عباس فيما تقدم...

ثم يورد رواية عن الحافظ البيهقي، عن ابن عباس، لكن في نهايتها: «**سدّوا كل خوخة في المسجد غير خوخة أبي بكر**»

قال ابن كثير : وفي قوله(عليه السلام) سدوا عني كل خوخة -يعني الأبواب الصغار- الى المسجد، غير خوخة أبي بكر، إشارة الى الخلافة، أي ليخرج منها الى الصلاة بالمسلمين.

صلاة أبي بكر

ليستكمل ابن كثير أدلته في النص على خلافة أبي بكر بذكر صلاته بأمر النبي(صلى الله عليه وآله)، فيورد فصلا في (ذكر أمره(عليه السلام) أبا بكر الصدّيق(رضي الله عنه)أن يصلي بالصحابة أجمعين مع حضورهم كلهم، وخروجه(عليه السلام)، فصلى وراءه مقتدياً في بعض الصلوات على ما سنذكره، وإماماً له ولمن بعده من الصحابة).

ثم يورد مجموعة كبيرة من الروايات في ذلك، نذكر منها:

قال البخاري : ثنا عمر بن حفص، ثنا أبي، ثنا الأعمش عن إبراهيم، قال الأسود: كنا عند عائشة فذكرنا المواظبة على الصلاة والمواظبة لها، قالت: لما مرض النبي(صلى الله عليه وآله) مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة فأذّن بلال، فقال: «**مروا أبا بكر فليصلّ بالناس**»، فقيل له: إن أبا بكر رجل أسيف، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد فأعادوا له فأعاد الثالثة، فقال : «**إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، فخرج أبو بكر، فوجد النبي(صلى الله عليه وآله) في نفسه خفة فخرج يهادي بين رجلين كأني انظر الى رجليه تخطّان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر، فأومأ إليه النبي(صلى الله عليه وآله) أن مكانك، ثم أُتي به حتى جلس الى جنبه، قيل للأعمش : فكان النبي(صلى الله عليه وآله)يصلي وأبو بكر يصلي بصلاته والناس يصلّون بصلاة أبي بكر؟ فقال برأسه نعم.

ويخلص ابن كثير من ذلك كله الى القول:

والمقصود أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قدم أبا بكر الصدّيق إماماً للصحابة كلهم في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام العملية. قال الشيخ أبو الحسن الأشعري: وتقديمه له أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام. قال: وتقديمه له دليل على أنه أعلم الصحابة وأقرؤهم، لما ثبت في الخبر المتفق على صحته بين العلماء، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال : يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنّة، فان كانوا في السنة سواء فأكبرهم سنّاً، فان كانوا في السن سواء فأقدمهم مسلماً. قلت: وهذا من كلام الأشعري رحمه الله ينبغي أن يكتب بماء الذهب(٦٥٣).

هذه مجمل الحجج التي أوردها ابن كثير -فيما يشبه المقارنة بين أدلة القائلين بالنص على علي، وأدلة القائلين بعدم وجود نص ظاهراً، ووجود نص على أبي بكر واقعاً، حيث يخرج ابن كثير في النهاية بنتيجة مفادها عدم صحة ادعاء القائلين بالنص على علي بن أبي طالب، بينما يثبت من ناحية أُخرى وجود نصوص -غير صريحة- على استخلاف أبي بكر، وسوف نبدأ بمناقشة حجج الطرفين واستدلالات ابن كثير للخروج بالنتيجة القاطعة إن شاء الله تعالى.

(٦٥٣) البداية والنهاية ٥ : ٢٢٧ - ٢٣٦ .

الفصل العاشر: دور الحديث النبوي

دور الحديث النبوي

إن الباحث وهو يقف أمام هذه النصوص، ليلاحظ أمراً غريباً، فخطبة النبي(صلى الله عليه وآله) في غدير خم لبيان فضل علي بن أبي طالب، يقابلها خطبة النبي(صلى الله عليه وآله)في مرضه لبيان فضل أبي بكر، والكتاب الذي أراد أن يكتبه في مرضه يوم الخميس -والذي يحتج به الشيعة كما يقول ابن كثير دون أن يبين وجه احتجاجهم- يقابله الكتاب الذي أراد أن يكتبه لأبي بكر حتى لا يتمنى متمن ويأبى الله ذلك والمؤمنون، في يوم الخميس أيضاً كما يقول ابن كثير، ولا أدري كيف علم ابن كثير إن ذلك كان يوم الخميس، وليس في الروايات التي ذكرت ذلك الكتاب إشارة حول تعيين اليوم، مما يدل على أن ذلك كان من استنباط ابن كثير. إضافة الى روايات أُخرى متقابلة كحديث المرأة التي جاءت النبي، وحديث سدّ الأبواب وغيرها ـ مما سنتطرق إليه في هذا الفصل- حتى يمكن التوصل الى معرفة وجود نص أم لا، وإن وجد ففي من؟ فلنستعرض أولا بعض الأقوال في ذلك.

أورد إبن أبي الحديد المعتزلي أيضاً بعضاً من هذه الروايات تحت عنوان (فصل فيما وضع الشيعة والبكرية من الأحاديث) ، قال فيه :

واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة، فانهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم، حملهم على وضعها عداوة خصومهم، نحو حديث السطل، وحديث الرمانة، وحديث غزوة البئر التي كان فيها الشياطين، وتعرف كما زعموا بـ (ذات العلم)، وحديث غسل سلمان الفارسي، وطيّ الأرض، وحديث الجمجمة، ونحو ذلك; فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة، وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث، نحو «لو كنت متخذاً خليلا»، فانهم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء، ونحو سدّ الأبواب، فانه لعلي(عليه السلام)، فقلبته البكرية الى أبي بكر، ونحو «ائتوني بدواة وبياض أكتب فيه لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه اثنان»، ثم قال: «يأبى الله تعالى والمسلمون إلاّ أبا بكر»، فانهم وضعوه في

مقابلة الحديث المروي عنه في مرضه : «ائتوني بدواة وبياض اكتب لكم ما لا تضلون بعده أبداً»، فاختلفوا عنده، وقال قوم منهم: لقد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله، ونحو حديث «أنا راض عنك فهل أنت عني راض»! ونحو ذلك، فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية، أوسعوا في وضع الأحاديث، فوضعوا حديث الطوق الحديد الذي زعموا أنه فتله في عنق خالد، وحديث اللوح الذي زعموا أنه كان في غدائر الحنفية أم محمد، وحديث «لا يفعلن خالد ما أمر به»، وحديث الصحيفة التي علّقت عام الفتح بالكعبة، وحديث الشيخ الذي صعد المنبر يوم بويع أبو بكر فسبق الناس ببيعته، وأحاديث مكذوبة كثيرة تقتضي نفاق قوم من أكابر الصحابة والتابعين الأولين وكفرهم، وعلي أدون الطبقات فيهم، فقابلتهم البكرية بمطاعن كثيرة في علي وفي ولديه، ونسبوه تارة الى ضعف العقل، وتارة الى ضعف السياسة، وتارة الى حبّ الدنيا والحرص عليها...[٦٥٤]

أما ابن تيمية، فيعتقد عكس ما يقوله ابن أبي الحديد، فيقول في معرض رده على أحد علماء الشيعة، في قضية سدّ الأبواب:

وكذلك قوله : «**وسدّوا الأبواب كلها إلاّ باب علي**»، فان هذا مما وضعته الشيعة على طريق المقابلة، فان الذي في الصحيح عن أبي سعيد عن النبي(صلى الله عليه وآله)، أنه قال في مرضه الذي مات فيه : «لا يبقين في المسجد خوخة إلاّ سدّت إلاّ خوخة أبي بكر»[٦٥٥].

وقال ابن الجوزي -بعد أن أورد روايات سدّ الأبواب غير باب علي، بطرقها: فهذه الأحاديث كلها من وضع الرافضة، قابلوا بها الحديث المتفق على صحته في «سدوا الأبواب إلاّ باب أبي بكر»[٦٥٦].

أما سبط ابن الجوزي ، فقال :

وأما قولهم إن النبي(صلى الله عليه وآله) أمر بسدّ أبواب المسجد إلاّ باب أبي بكر(رضي الله عنه)فنقول: قد أخرج احمد والترمذي أن الواقعة كانت لعلي(عليه السلام)، وروى أبو سعيد أن الواقعة كانت لأبي بكر(رضي الله عنه)، وليس إحدى الروايتين بأولى من

(٦٥٤) شرح نهج البلاغة ١١ : ٤٨ .
(٦٥٥) منهاج السنّة النبوية ٣ : ٩ .
(٦٥٦) الموضوعات ١ : ٣٦٦ باب في فضائل علي (عليه السلام).

الأخرى، فتوقف الأمر على التاريخ، غاية ما في الباب أن يقال: حديث أبي سعيد في الصحيحين[٦٥٧].

محاولات الجمع والتوفيق

اختلفت آراء العلماء وتضاربت -كما أوردنا القول لبعضهم- في حديث سدّ الأبواب، بحسب الآراء، فتسرع بعضهم بالحكم بالوضع على بعضها دون تمحيص دقيق، بينما قام بعض شرّاح الأحاديث بمحاولة الجمع والتوفيق بين هذه الأحاديث على قدر اجتهادهم، وسوف نستعرض آراء بعضهم في محاولة للخروج بنتيجة مرضية.

رأي ابن حجر العسقلاني

بعد أن أورد ابن حجر روايات سدّ الأبواب غير باب علي، قال:

وهذه الأحاديث يقوّي بعضها بعضاً، وكل طريق منها صالح للاحتجاج فضلا عن مجموعها، وقد أورد ابن الجوزي هذا الحديث في الموضوعات، أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص وزيد بن أرقم وابن عمر، مقتصراً على بعض طرقه عنهم، وأعلّه ببعض من تكلم فيه من رواته، وليس ذلك بقادح لما ذكرت من كثرة الطرق، وأعلّه بأنه مخالف للأحاديث الصحيحة الثابتة في باب أبي بكر، وزعم أنه من وضع الرافضة، قابلوا به الحديث الصحيح في باب أبي بكر، وأخطأ في ذلك خطأ شنيعاً، فانه سلك في ذلك ردّ الأحاديث الصحيحة بتوهّمه المعارضة، مع أن الجمع بين القصتين ممكن، وقد أشار الى ذلك البزار في مسنده فقال: ورد من روايات أهل الكوفة بأسانيد حسان في قصة علي، وورد من روايات أهل المدينة بأسانيد حسان في قصة أبي بكر، فان ثبتت روايات أهل الكوفة، فالجمع بينهما بما دلّ عليه حديث أبي سعيد الخدري، يعني الذي أخرجه الترمذي أن النبي(صلى الله عليه وآله)، قال: «**لا يحل لأحد أن يطرق هذا المسجد جُنباً غيري وغيرك**» ، والمعنى أن باب عليّ كان الى جهة المسجد، ولم يكن لبيته باب غيره، فلذلك لم يؤمر بسدّه... ومحصّل الجمع أن الأمر بسدّ الأبواب وقع مرتين، ففي الاولى استثني علي لما ذُكر، وفي الأخرى استثني أبو بكر،

(٦٥٧) تذكرة الخواص : ٤٦ .

ولكن لا يتم ذلك إلاّ بأن يُحمل ما في قصة علي على الباب الحقيقي، وما في قصة أبي بكر على الباب المجازي![٦٥٨].

رأي ابن كثير

قال ابن كثير ـ بعد أن أورد الروايات في سدّ الأبواب غير باب علي-:

وقد تقدم ما رواه أحمد والنسائي من حديث أبي عوانة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس، الحديث الطويل، وفيه سدّ الأبواب غير باب علي، وكذا رواه شعبة عن أبي بلج، ورواه سعد بن أبي وقاص، قال أبو يعلي.. عن خيثمة عن سعد: أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) سدّ أبواب المسجد وفتح باب علي، فقال الناس في ذلك، فقال : «**ما أنا فتحته ولكن الله فتحه**». وهذا لا ينافي ما ثبت في صحيح البخاري من أمره(عليه السلام) في مرض الموت، بسدّ الأبواب الشارعة الى المسجد إلاّ باب أبي بكر الصدّيق، لأن نفي هذا في حق علي كان في حال حياته، لاحتياج فاطمة الى المرور من بيتها الى بيت أبيها، فجعل هذا رفقاً بها، وأما بعد وفاته، فزالت هذه العلّة، فاحتيج الى فتح باب الصديق لأجل خروجه الى المسجد ليصلي بالناس، إذ كان الخليفة عليهم بعد موته(عليه السلام)، وفيه إشارة الى خلافته...[٦٥٩].

القول الفصل

هذه بعض آراء العلماء والشرّاح في حديث سدّ الأبواب، فمن جملة المشاكل التي واجهها بعض الحفّاظ والشرّاح لكتب الحديث، هي مسألة التوفيق والجمع بين الأحاديث الصحيحة الأسناد -بحسب المقاييس المعروفة- المتعارضة المتون.

إن القاعدة التقليدية التي اعتمدها ابن الجوزي ومن وافقه هي أن صحيح البخاري هو أقوى كتب الحديث وأصحها، فهو بذلك حجة على ما سواه من كتب الحديث، فينبغي -على رأي هؤلاء- أن تكون الواقعة لأبي بكر لا لعلي.

(٦٥٨) فتح الباري ٧ : ١٢ .
(٦٥٩) البداية والنهاية ٧ : ٣٤٢ .

وقد ادعى ابن حجر أن ابن الجوزي قد توهم أن هذه الأحاديث متعارضة وأنه أخطأ في ذلك، لكن الحقيقة أن ابن الجوزي لم يخطئ في تعارض الأحاديث، ولكنه أخطأ في معرفة الحقيقة!

إن من الأسباب التي أوقعت الكثير من الشرّاح في الخطأ، هي أخذهم الأحاديث بأسانيدها فقط دون الالتفات الى النواحي الأُخرى، وهكذا وقعوا في خطأ التقدير، لأن الأخذ بالأحاديث ينبغي أن يكون مسبوقاً بمعرفة جملة الظروف -السياسية منها خاصّة- ومطابقتها للواقع، فعندئذ يمكن الحكم على الكثير من الأحاديث -وبخاصة المتعارضة منها- حكماً صحيحاً.

وعندما نسبر أغوار القضية يتبيّن لنا أن أبا بكر لم يكن له بيت في مسجد رسول الله حين وفاته(صلى الله عليه وآله)! وهذا يفسّر قول ابن حجر: ولكن لا يتم ذلك إلاّ بحمل ما في قصة علي على الباب الحقيقي، وما في قصة أبي بكر على الباب المجازي.

ففي صحيح البخاري، عن عائشة : أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) مات وأبو بكر بالسنح، قال اسماعيل : يعني العالية[٦٦٠].

وفي تاريخ الطبري تفصيل أكثر، فقد أخرج من عدة طرق: عن سعيد بن المسيّب، وعبدالرحمان بن صبيحة التيمي عن أبيه، وعن ابن عمر، وعن عروة عن عائشة، وعن أبي وجيزة عن أبيه، قال(الطبري): وغير هؤلاء أيضاً قد حدثني ببعضه، فدخل حديث بعضهم في حديث بعض، قالوا: قالت عائشة: كان منزل أبي بالسنح، عند زوجته حبيبة ابنة خارجة بن زيد بن أبي زهير من بني الحارث بن الخزرج، وكان قد حجّر عليه حجرة من سعف، فما زاد على ذلك حتى تحوّل الى منزله بالمدينة، فأقام هنالك بالسنح بعدما بويع له ستة أشهر، يغدو على رجليه الى المدينة، وربما ركب على فرس له، وعليه إزار ورداء ممشق، فيوافي المدينة، فيصلي الصلوات بالناس، فاذا صلّى العشاء رجع الى أهله بالسنح، فكان إذا حضر صلّى بالناس، وإذا لم يحضر صلّى بهم عمر بن الخطاب...[٦٦١]

والمصادر التاريخية الأُخرى متفقة على ذلك[٦٦٢].

وقال ياقوت الحموي :

(٦٦٠) صحيح البخاري ٥ : ٨
(٦٦١) تاريخ الطبري ٣ : ٤٣٢ .
(٦٦٢) الكامل في التاريخ ٢ : ٣٢٣ ، المنتظم ٤ : ٤٣ ، البداية والنهاية ٥ : ٢٤٢ ، الروض الأنف ٧ : ٥٤٦ ، السيرة النبوية لابن كثير ٤ : ٤٨٠ .

(السنح) : وهي إحدى محال المدينة، كان بها منزل أبي بكر(رضي الله عنه) .. بعوالي المدينة، وبينها وبين مسجد النبي(صلى الله عليه وآله) ميل[٦٦٣].

أما محاولة ابن كثير للتوفيق بين هذه الأحاديث، فهي الأكثر تهافتاً، فادعاؤه أن هذا كان في حق علي حال حياته لاحتياج فاطمة الى المرور من بيتها الى بيت أبيها، كلام غير منطقي، إذ أن ابن حجر قال: إن باب علي كان إلى جهة المسجد، ولم يكن لبيته باب غيره فلذلك لم يؤمر بسده، فاذا لم يكن له باب غيره، فهل حكم النبي(صلى الله عليه وآله) على ابنته فاطمة بالحجر في ذلك البيت حتى الموت، وكيف استطاعت الخروج منه إذاً!

وتبقى هناك مسألة اُخرى، فاذا كانت واقعة سدّ الأبواب غير باب علي متقدمة على واقعة أبي بكر -لأنها كانت قبل وفاة النبي مباشرة- فهذا يعني أن جميع الأبواب -ومن ضمنها باب أبي بكر- كان مسدوداً من قبل، بينما يدل قول النبي -على زعمهم- أن الأبواب كانت مفتوحة فأمر بسدها واستثنى منها باب أبي بكر! فتبيّن من ذلك كله أن حديث سد الأبواب غير باب أبي بكر، قد وضع في مقابل الحديث في حق علي[٦٦٤]، وهذه مسألة بالغة الخطورة، إذ تبيّن أن التزييف لم يقتصر على تاريخ المسلمين فقط، بل تعداه الى تراثهم كله -ومن ضمنه الحديث النبوي الشريف- ولهذا نبهنا في بداية هذا الكتاب الى ضرورة أن يفهم المسلمون تاريخهم بشكل صحيح، ونوّهنا الى أهمية ربط التاريخ الاسلامي والحديث النبوي الشريف بعضه ببعض، إذ لا يمكن فهم حقائق الاسلام إلاّ بذلك.

وقد يستغرب القارئ هذه الجرأة في رد الأحاديث التي اشتملت عليها الصحاح -وبخاصة صحيح البخاري- لكن هذا هو الواقع فعلا، وستثبت الأبحاث القادمة ذلك بشكل قاطع، فلنواصل مناقشة حجج الطائفتين حول موضوع النص ونتبين السرّ في هذا التقابل في الأحاديث بين حجج الطرفين.

المرأة المجهولة

(٦٦٣) معجم البلدان ٣ : ٧٦٠ .

(٦٦٤) أورد ابن حجر عن عمر بن شبة في أخبار المدينة: أن دار أبي بكر التي أذن له في إبقاء الخوخة منها الى المسجد كانت ملاصقة للمسجد ولم تزل بيد أبي بكر حتى احتاج الى شيء يعطيه لبعض من وفد عليه، فباعها فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم، فلم تزل بيدها الى أن أرادوا توسيع المسجد في خلافة عثمان. فتح الباري ٧ : ١١ .

إلاّ أن ابن حجر لم يذكر لنا -ولا عمر بن شبة- متى باع أبو بكر داره هذه، فان كان قد باعها في زمن النبي(صلى الله عليه وآله)، فلا يبقى عند ذلك معنى لطلب النبي(صلى الله عليه وآله) بسدّ الأبواب غير باب أبي بكر، أما إن كان باعها في خلافته -كما يبدو من ظاهر كلامهما- فلماذا بقي يسير من السنح الى المسجد طيلة ستة أشهر كما في رواية عائشة!

أما الحديث عن تلك المرأة التي جاءت الى النبي(صلى الله عليه وآله)، فأمرها بأن تأتي أبا بكر بعد وفاته، فسأترك الكلام أولا لابن حجر، ليدلي برأيه فيه، حيث قال:

حديث محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه: (قوله أتت إمرأة)، لم أقف على اسمها..

وروى الطبراني من حديث عصمة بن مالك، قال: قلنا يا رسول الله، الى من ندفع صدقات أموالنا بعدك؟ قال: «الى أبي بكر الصديق». وهذا لو ثبت، كان أصرح في حديث الباب من الإشارة الى أنه الخليفة بعده، لكن إسناده ضعيف.

وروى الاسماعيلي في معجمه من حديث سهل بن أبي خيثمة قال: بايع النبي(صلى الله عليه وآله) أعرابياً فسأله إن أتى عليه أجله من يقضيه؟ فقال: «أبو بكر»، ثم سأله من يقضيه بعده؟ قال: «عمر» الحديث. وأخرجه الطبراني في الأوسط من هذا الوجه مختصراً، وفي الحديث أن مواعيد النبي(صلى الله عليه وآله) كانت على من يتولى الخلافة بعده تنجيزها، وفيه ردّ على الشيعة في زعمهم أنه نصّ على استخلاف علي والعباس...[٦٦٥]

لكننا عندما نتصفح كتب الحديث يفاجئنا أن هذه الأحاديث التي فسّرها ابن حجر وغيره بأنها نصوص على استخلاف أبي بكر ـ مخالفةً لنظرية الشيعة- إنما قد وضعت في مقابل حديث صحيح في علي!

فعن ذؤيب، أن النبي(صلى الله عليه وآله) لما حُضر قالت صفية: يا رسول الله، لكل إمرأة من نسائك أهل تلجأ إليهم، وإنك أجليت أهلي، فان حدث حدث فالى من؟

قال : «الى علي بن أبي طالب»[٦٦٦].

فهذا الحديث الصحيح واضح الدلالة والمعنى، والمرأة التي سألت النبي(صلى الله عليه وآله)هي زوجه صفية بنت حيي التي اُجلي أهلها من خيبر، ولم يبق لها أهل، فمن حقها أن تطمئن على مصيرها وتعرف الذي سيتولى أمرها بعد رحيل النبي(صلى الله عليه وآله).

أما حديث البخاري فهو شديد الغموض ، فمن هي تلك المرأة ومن هو أبوها، ألم يكن لها اسم أو قبيلة تنتسب إليها؟، وماذا طلبت من النبي(صلى الله عليه وآله)ولماذا توقعت المعاودة وسألت عن الشخص الذي يليه إذا توفي؟ وكذلك حديث الأعرابي الذي أخرجه الطبراني ـ وواضح أن الراوي الذي اختلق هذه الكذبة تعمد أن يجعله أعرابياً مجهولا- ومثله حديث الاسماعيلي، فالذي أتى النبي(صلى الله عليه وآله) أعرابي مجهول،

(٦٦٥) فتح الباري ٧ : ١٥

(٦٦٦) مجمع الزوائد ٩ : ١١٣ وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

والأغرب من ذلك أن النبي(صلى الله عليه وآله) لم يكتف بالنص على أبي بكر، بل نص على عمر أيضاً!

أموال أبي بكر

لقد أصبحت صورة النبي(صلى الله عليه وآله)، والتي حفظتها ذاكرة المسلمين جيلا بعد جيل، هي صورة الرجل الفقير الجائع الذي تمرّ عليه الأيام والليالي يبيت ويصبح فيها طاوياً لا يجد طعاماً يأكله، بينما نجد في مقابله صورة أبي بكر، التاجر الغني الذي ينفق بغير حساب، ومن جملة نفقته أيضاً ما كان يصيب النبي(صلى الله عليه وآله)من أموال أبي بكر، حتى ليبدو وكأن النبي والمسلمين جميعاً ما كانوا ينفقون إلاّ من أموال أبي بكر، وأن دعوة الاسلام لم تقم إلاّ بأموال أبي بكر، حتى لا يجد النبي بداً من الاعتراف بذلك من فوق المنبر وعلى رؤوس الأشهاد، ويعترف لأبي بكر بمنّته عليه في صحبته وماله! وقد رسّخ هذا التفكير في أذهان المسلمين جملة من الروايات التي أخرجها المحدّثون تظهر حال النبي(صلى الله عليه وآله) وهو يشكو الجوع والحرمان بشكل دائم، منها ما جاء عن عائشة(رض) قالت: ما أكل آل محمد(صلى الله عليه وآله) أكلتين في يوم إلاّ إحداهما تمر(٦٦٧).

وعنها أيضاً، قالت : كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً، إنما هو التمر والماء، إلاّ أن نؤتى باللُّحيم(٦٦٨).

وعنها أيضاً أنها قالت لعروة ابن اختها : إن كنا لننظر الى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله(صلى الله عليه وآله) نار. فقلت: ما كان عيشكم؟ قالت: الاسودان، التمر والماء، إلاّ أنه قد كان لرسول الله(صلى الله عليه وآله)جيران من الأنصار كان لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله(صلى الله عليه وآله) من أبياتهم فيسقيناه(٦٦٩).

هذه هي صورة النبي التي حفظتها الأجيال، وعلى العكس منها صورة أبي بكر التاجر الموسر، إلاّ أننا عندما ننظر الى الأمر بعين التحقيق التي لا تحابي ولا تجامل أحداً، نجد عكس الصورة التي تعودنا عليها دون تحقيق.

(٦٦٧) صحيح البخاري ٨ : ١٢١ باب كيف كان عيش النبي وأصحابه .
(٦٦٨) المصدر السابق .
(٦٦٩) المصدر السابق .

إن الله سبحانه وتعالى قد تكفّل بتوفير العيش الكريم لنبيه منذ البداية، وكانت من بين أوائل السور التي اُنزلت. قوله تعالى مخاطباً نبيه : (**وَوَجَدكَ عائلا فأغنى**)(٦٧٠)، إذ يسّر له الزواج من خديجة التي عاش في كنفها ربع قرن من الزمان، مصون الكرامة غير محتاج الى أموال أحد من الناس بما كفاه الله من أموال زوجه خديجة، وحتى بعد وفاتها لم يحتج النبي(صلى الله عليه وآله) الى أموال أبي بكر أو غيره، ويدلك على ذلك أن النبي(صلى الله عليه وآله) عندما أراد الخروج من مكة مهاجراً الى المدينة برفقة أبي بكر، أبى أن يركب البعير الذي قدّمه له أبو بكر دون ثمن، فعن عائشة(رض) قالت (وساق الحديث الى قوله ...) قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله(ص): «**بالثمن...**»(٦٧١).

وعن ابن إسحاق : فلما قرّب أبو بكر(رضي الله عنه) الراحلتين الى رسول الله(ص)، قدّم له أفضلهما ثم قال: اركب فداك أبي واُمي، فقال رسول الله(ص): إني لا أركب بعيراً ليس لي. قال: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت واُمي، قال: لا، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟ قال: كذا وكذا. قال: قد أخذتها به ...(٦٧٢)

فالنبي(صلى الله عليه وآله) لم يرض بركوب جمل أبي بكر إلاّ بدفع ثمنه، ولو كان فقيراً محتاجاً إلى أبي بكر لما اشترط ذلك، فضلا عما في طبع النبي(صلى الله عليه وآله)من أنفة وعزّة نفس وترفّع عما في أيدي الآخرين مهما كانت منزلتهم.

وبعد الهجرة النبوية وبدء الغزوات والتعرض لأموال المشركين، فرض الله سبحانه وتعالى نصيباً معلوماً من الغنائم بقوله عزّ من قائل : (**يَسألونكَ عَنِ الأنفالِ قُلِ للهِ والرَّسولِ فاتَّقوا اللهَ وَأصلِحوا ذاتَ بَينكم وَأطيعُوا اللهَ وَرَسولهُ إنْ كُنتم مُؤمنينَ**)(٦٧٣)، فأعطاه حق التصرف في الأنفال، وفرض له نصيباً معلوماً من الخمس في قوله تعالى : (**وَاعلموا أنَّما غنِمتُمْ مِنْ شَيء فإنَّ للهِ خُمُسَهُ وَللرَّسولِ وَلِذي القُربى وَاليتامى وَالمساكينَ وَابنَ السَّبيلِ إنْ كُنتُم آمَنتُم باللهِ وَما أنزَلنا على عَبدِنا يَومَ الفُرقانِ يَومَ التقى الجمعانِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شي قديرٌ**)(٦٧٤).

ثم زاد الله سبحانه وتعالى من أنعامه على نبيه الكريم فأفاء عليه أموال بني النضير في قوله تعالى : (**وَما أفاءَ اللهُ على رَسولهِ مِنْهُم فما أوجَفتُم عَليهِ من خَيل وَلا ركاب وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شيء قديرٌ**)(٦٧٥).

(٦٧٠) الضحى : ٨ .
(٦٧١) صحيح البخاري ٥ : ٧٥ باب هجرة النبي (ص) وأصحابه الى المدينة .
(٦٧٢) السيرة النبوية لابن هشام ٣ : ١٣١ .
(٦٧٣) سورة الأنفال : ١
(٦٧٤) سورة الأنفال : ٤١
(٦٧٥) سورة الحشر : ٦

يقول ابن كثير في تفسير الآية :

كانت أموال بني النضير مما أفاء الله الى رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله(صلى الله عليه وآله) خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته.. وما بقي جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله عزّوجل(٦٧٦).

فهذا يثبت أن النبي(صلى الله عليه وآله) كان يدخر لأهله ما يقوتهم سنة كاملة، والفائض من المال كان يشتري به الخيل والسلاح للجهاد، أما أن النبي(صلى الله عليه وآله) كان يعاني من ضيق في العيش أحياناً، فمرده الى كرم النبي(صلى الله عليه وآله) وجوده، إذ ما جاءه سائل إلاّ أعطاه، فعن أبي سعيد الخدري(رضي الله عنه): إن اُناساً من الأنصار سألوا رسول الله(صلى الله عليه وآله)فاعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده فقال : **«ما يكون عندي خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبّر يصبّره الله، وما اُعطيَ أحدٌ عطاءً خيراً أو أوسع من الصبر»**(٦٧٧).

فاذا كان النبي(صلى الله عليه وآله) يحث أصحابه على التعفف، أفلا يكون قدوة لهم في ذلك. هذا مع العلم أنه لم تصلنا سوى رواية عن عائشة تقول:

أرسل أبو بكر قائمة شاة ليلاً، فقطعتُ وأمسك عليَّ رسول الله(صلى الله عليه وآله)، أو قطع رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأمسكتُ عليه.

فقيل لها: على غير مصباح؟ قالت عائشة(رضي الله عنه): لو كان عندنا مصباح لإئتدمنا به...(٦٧٨)

وقد تبيّن ابن تيمية هذا الخلل الفاحش، فحاول تبرير الرواية بقوله:

إن إنفاق أبي بكر لم يكن نفقة على النبي في طعامه وكسوته، فان الله قد أغنى رسوله عن مال الخلق أجمعين، بل كان معونة له على إقامة الدين، فكان إنفاقه فيما يحبه الله ورسوله، لا نفقة على نفس الرسول(٦٧٩).

لكن هذا لا ينقذ الموقف، لأن فحوى الحديث المزعوم لا تدل على هذا الاستنتاج، ومن جهة اُخرى فان الروايات التي جاءت عن إنفاق بعض الصحابة الآخرين، تفوق كثيراً ما ورد في إنفاق أبي بكر، كالروايات التي تذكر أن عثمان بن عفان قد جهّز جيش العسرة بعشرة آلاف دينار أو بكذا أوقية ذهب... الخ، وفيها من الفضائل لعثمان

(٦٧٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ : ٣٥٩
(٦٧٧) صحيح البخاري ٢ : ١٥١ باب الاستعفاف عن المسألة .
(٦٧٨) الطبقات الكبرى ١: ٤٠٠ .
(٦٧٩) منهاج السنّة النبوية ٤ : ٢٨٩ .

بن عفان ما ليس لأبي بكر عُشرها، فكان ينبغي للنبي(صلى الله عليه وآله) أن يعتبر عثمان بن عفان أمنّ الناس عليه بدلا من أبي بكر.

وإذا جمعنا الرواية المزعومة تلك، الى الرواية الأُخرى التي احتج بها ابن العربي وهي قول النبي(صلى الله عليه وآله) -فيما تدعي الرواية- «**إني بعثت إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت ...**»، لما وجدنا صعوبة في معرفة أن كل ذلك قد كان في حق زوج النبي(صلى الله عليه وآله) خديجة، وباعتراف ضرّتها عائشة التي قالت: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله)إذا ذكر خديجة أثنى فأحسن الثناء، قالت: فغرتُ يوماً فقلت: ما أكثر ما تذكر حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيراً منها. قال: «ما أبدلني الله خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذّبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله أولادها وحرمني أولاد الناس»[٦٨٠].

وفوق هذا وذاك، فان تلك الروايات التي تدعي ثراء أبي بكر لا تتفق مع الحقيقة، «فهو -أي الخليفة الأول- لم يشارك سابقاً في التحالف التجاري المعروف بـ (حلف المطيبين)، وهذا أول ما يعني أنه لم يكن من فريق الثروة العظمى في مكة الذي قاده الامويون مع بني نوفل...[٦٨١]

وبعد غزوة بني النضير، قسم رسول الله(صلى الله عليه وآله) الأموال على المهاجرين لأنهم كانوا فقراء، قال ابن سعد: «وكانت بنو النظير صفياً لرسول الله(ص)، خالصة له حبساً لنوائبه، ولم يخمسها ولم يسهم منها لأحد، وقد اعطى ناساً من أصحابه ووسّع في الناس منها، فكان ممّن ممّن اُعطي سمّي لنا من المهاجرين: أبو بكر الصدّيق (بئر حجر)، وعمر بن الخطاب (بئر جرم)...[٦٨٢]

كما أن الشواهد الأُخرى لا تثبت لأبي بكر كرماً ولا إنفاقاً، فقد أخرج البخاري، أن أبا هريرة كان يقول: الله الذي لا إله إلاّ هو، إن كنتُ لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدّ الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه، فمرّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ،ما سألته إلاّ

(٦٨٠) مجمع الزوائد ٩ : ٢٢٤ وقال : رواه أحمد وإسناده حسن ، مسند أحمد ٦ : ١١٧ ، الاستيعاب ترجمة خديجة ، البداية والنهاية ٣ : ١٢٨ .

(٦٨١) من دولة عمر ... : ٢٢ .

(٦٨٢) الطبقات الكبرى ٢ : ٥٨ ، مغازي الواقدي ١ : ٣٧٩ ، السيرة الحلبية ٢ : ٢٦٨ ، تاريخ الخميس ١ : ٤٦٣ ، فتوح البلدان : ٣١، معجم البلدان ٥ : ٢٩٠ .

ليشبعني، فمرّ ولم يفعل! ثم مرّ بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلاّ ليشبعني فمرّ فلم يفعل ...الحديث(٦٨٣)

فأبو بكر قد بخل على أبي هريرة بلقمة تسدّ رمقه، فأين كانت أمواله وأين كان إنفاقه على النبي والمسلمين حتى يعترف النبي(صلى الله عليه وآله) له بالمنة والفضل! ولا أدري أي منّة هذه لأبي بكر وهو يرى رسول الله(صلى الله عليه وآله)وزوجه عائشة ابنة أبي بكر يتضوران جوعاً، فلا يرسل لهم طعاماً يشبعون منه إلاّ مرّة واحدة فقط.

فأبو بكر لم يرسل للنبي(صلى الله عليه وآله) غير قائمة شاة واحدة ولمرّة واحدة، وأين عمله هذا من عمل بعض الصحابة الآخرين، إذ ذكر مخرمة بن سليمان قال: وكانت جفنة سعد تدور على رسول الله(ص) منذ يوم نزل المدينة في الهجرة إلى يوم توفي! وغير سعد بن عبادة من الأنصار يفعلون ذلك...!(٦٨٤)

حديث الخلّة

مرّ بنا فيما سبق أن ابن أبي الحديد اعتبر حديث (لو كنت متخذاً خليلا) قد وضعته البكرية في مقابل حديث الاخاء، فما هو حديث الاخاء، وكيف يمكن استنتاج الصحيح من السقيم!

قال ابن تيمية :

إن أحاديث المؤاخاة لعلي كلها موضوعة، والنبي(ص) لم يؤاخ أحداً، ولا آخى بين مهاجري ومهاجري، ولا بين أبي بكر وعمر، ولا بين أنصاري وأنصاري...(٦٨٥)

فالكلام إذاً حول أن يكون النبي(صلى الله عليه وآله) قد آخى بين نفسه وبين علي بن أبي طالب، وقد بيّنا رأي ابن تيمية في ذلك وادعاؤه أن الأحاديث الواردة في ذلك موضوعة.

أما ابن حجر العسقلاني فيقول:

قال ابن عبدالبر كانت المؤاخاة مرّتين، مرّة بين المهاجرين خاصّة، وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار... وأنكر ابن تيمية في كتاب الرد على ابن المطهر الرافضي في المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبي(صلى الله عليه وآله)لعلي،

(٦٨٣) صحيح البخاري ٨ : ١١٩ ـ ١٢٠ باب كيف كان عيش النبي(صلى الله عليه وآله) وأصحابه وتخليهم عن الدنيا.
(٦٨٤) الطبقات ١ : ٤٠٠ ، الاصابة ٢ : ٣٠ ، أسد الغابة ٢ : ٢٠٤
(٦٨٥) منهاج السنّة النبوية ٣ : ٩٦ .

قال: لأن المؤاخاة شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً ولتأليف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي(صلى الله عليه وآله) لأحد منهم ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري، وهذا ردّ للنص بالقياس، وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى، فآخى بين الأعلى والأدنى ليرتفقن الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا نظر مؤاخاته(صلى الله عليه وآله) لعلي، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة، واستمر، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة، لأن زيداً مولاهم، فقد ثبت أُخوتهما وهما من المهاجرين.. وأخرج الحاكم وابن عبدالبر بسند حسن عن أبي الشعثاء عن ابن عباس: آخى النبي(صلى الله عليه وآله) بين الزبير وابن مسعود من المهاجرين... وأخرجه الضياء في المختارة من المعجم الكبير للطبراني، وابن تيمية يصرّح بأن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرك، وقصة المؤاخاة الأُولى أخرجها الحاكم من طريق جميع بن عمير عن ابن عمر: آخى رسول الله(صلى الله عليه وآله) بين أبي بكر وعمر، وبين طلحة والزبير، وبين عبدالرحمان بن عوف وعثمان، وذكر جماعة فقال علي: يا رسول الله، إنك آخيت بين أصحابك فمن أخي؟ قال: «**أنا أخوك**»(٦٨٦).

وليس ذلك هو الحديث الوحيد الصحيح في الاخاء، فقد أخرج المحدّثون والحفّاظ عن ابن عباس; أن علياً كان يقول في حياة رسول الله(صلى الله عليه وآله): إن الله عزّوجل يقول: (**أفإنْ ماتَ أو قُتلَ انقلبتُمْ على أعقابكمْ**) والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله تعالى، ولئن مات أو قُتل، لأُقاتلنّ على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إني لأخوه ووليّه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني(٦٨٧).

هذه هي إذاً قصة المؤاخاة التي يدّعي ابن تيمية أن الأحاديث فيها موضوعة، وهي التي يقول ابن أبي الحديد أن أحاديث خلّة أبي بكر قد وضعت في مقابلها.

وقال ابن حجر :

حديث ابن عباس أخرجه من طرق ثلاثة : الأولى (قوله: لو كنت متخذاً خليلا). زاد في حديث أبي سعيد «غير ربي» وفي حديث ابن مسعود عند مسلم «وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا»، وقد تواردت هذه الأحاديث على نفي الخلّة من النبي(صلى الله عليه وآله) لأحد من الناس.

(٦٨٦) فتح الباري ٧ : ٢١٦

(٦٨٧) مجمع الزوائد ٩ : ١٣٤ وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، مستدرك الحاكم ٣ : ١٢٦ وصححه وسكت عنه الذهبي .

وأما ما روي عن أُبي بن كعب قال: إن أحدث عهدي بنبيكم قبل موته بخمس، دخلت عليه وهو يقول : «**إنه لم يكن نبي إلاّ وقد اتخذ من أُمّته خليلا، وإن خليلي أبو بكر، ألا وإن الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا**». أخرجه أبو الحسن الحربي في فوائده، وهذا يعارضه ما في رواية جندب عند مسلم... أنه سمع النبي(صلى الله عليه وآله) يقول قبل أن يموت بخمس: «**اني أبرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل**»! فإن ثبت حديث أُبي، أمكن الجمع بينهما بأنه لما برئ من ذلك تواضعاً لربه وإعظاماً له، أذن الله تعالى له فيه من ذلك اليوم لما رأى تشوّفه إليه، وإكراماً لأبي بكر بذلك، فلا يتنافى الخبران...(٦٨٨)

لا ندري كيف عرف ابن حجر أن الله تعالى قد أذن لنبيه باتخاذ أبي بكر خليلا لما رأى من تشوّف النبي(صلى الله عليه وآله) لذلك، وما الذي يستدعي أن يتخذ النبي خليلا في الساعات الأخيرة من حياته، أفما كان ذلك قبل الحين أجدر؟!

إن محاولة ابن حجر في التوفيق بين هذه الأحاديث المتناقضة هي من أكثر المحاولات تهافتاً دون شك، وإنّ نَفَس الوضاعين واضح فيه، ولقد كان بعض الصحابة يتباهون بخلّتهم للنبي(صلى الله عليه وآله) غير أبي بكر، فحديث الخلّة في الصحاح ينفي هذه المنقبة لأبي بكر، ولم تصل إلينا مقولة لأبي بكر يدّعي خلّته للنبي(صلى الله عليه وآله)، في حين أثبتها غيره من الصحابة لنفسه، كقول أبي ذرّ الغفاري: أوصاني خليلي(صلى الله عليه وآله) بست: حب المساكين ... الخ، الحديث(٦٨٩).

وعنه أيضاً : أوصاني حبّي بثلاث لا أدعهن إن شاء الله أبداً...(٦٩٠)

وعن أبي هريرة : أوصاني خليلي(صلى الله عليه وآله) أن لا أنام إلاّ على وتر(٦٩١).

وعنه أيضاً : أوصاني خليلي بثلاث : الوتر قبل النوم ...الحديث(٦٩٢)

وعن أبي الأشعث الصنعاني، قال: بعثنا يزيد بن معاوية إلى ابن الزبير، فلما قدمت المدينة دخلت على فلان... فقال: إن الناس قد صنعوا ما صنعوا فما ترى؟ فقال: أوصاني خليلي أبو القاسم(صلى الله عليه وآله)...الخ(٦٩٣)

وعن أبي هريرة : «**إن لكل نبي خليلا من أمته ، وإن خليلي عثمان بن عفان**»!(٦٩٤).

(٦٨٨) فتح الباري ٧ : ١٠ .
(٦٨٩) حلية الأولياء ١ : ١٥٩ .
(٦٩٠) مسند أحمد ٥ : ١٧٣ .
(٦٩١) مسند أحمد ٢ : ٣٤٧ .
(٦٩٢) حلية الأولياء ٦ : ٢٠٠ .
(٦٩٣) مسند أحمد ٤ : ٢٢٦ .
(٦٩٤) تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٩ : ١٢٥ ، تاريخ بغداد ٦ : ٣٢١ .

وعنه «**لكل نبي خليل في أمته، وإن خليلي عثمان بن عفان**»[٦٩٥].

و «**لكل نبي خليلا ، وخليلي سعد بن معاذ**»![٦٩٦].

ففي الوقت الذي ينفي النبي(صلى الله عليه وآله) أن يكون قد اتخذ خليلا -لأنه خليل الله، لذا لم يتخذ أبا بكر خليلا -نجده يتخذ عثمان بن عفان خليلا، فهل يناقض النبي نفسه، فينفي شيئاً ثم يثبته - حاشاه - أم أن في الأمر سرّاً؟

أما الداودي فيعلق على تلك الروايات التي تثبت الخلة لبعض الصحابة - فيما ينقل عنه إبن حجر- قائلا:

لا ينافي هذا قول أبي هريرة وأبي ذر وغيرهما: أخبرني خليلي(صلى الله عليه وآله)، لأن ذلك جائز لهم ولا يجوز للواحد منهم أن يقول: أنا خليل النبي(صلى الله عليه وآله)، ولهذا يقال: ابراهيم خليل الله، ولا يقال: الله خليل ابراهيم.

قال ابن حجر : ولا يخفى ما فيه!

وينقل ابن حجر عن إبن التين أنه نقل عن بعضهم أن معنى قوله: ولو كنت متخذاً خليلا، لو كنت أخص أحداً بشيء من أمر الدين لخصصت أبا بكر، قال: وفيه دلالة على كذب الشيعة في دعواهم أن النبي(صلى الله عليه وآله) كان خص علياً بأشياء من القرآن وأمور الدين لم يخص بها غيره.

قال ابن حجر : والاستدلال بذلك متوقف على صحة التأويل المذكور وما أبعدها...![٦٩٧]

فنلاحظ أن شراح الأحاديث يتخبطون خبط عشواء ويناقض بعضهم بعضاً وهم يحاولون الخروج من المأزق الذي وضعهم فيه بعض الكذابين بمحاولة التوفيق والجمع بين هذه الأحاديث المتضاربة، ولكن دون جدوى.

محاولات الدفع

أود في البداية أن أذكّر القارئ الكريم بأن كلامنا ليس من باب التحامل على أحد، ولا هو نتيجة لنظرة سابقة، بل هو محاولة للتحقيق في تراثنا من أجل استخلاص الحقائق منه، فبذلك فقط يمكن أن تتحقق الصحوة التي ننشدها للمسلمين، ولا شك أن القارئ قد تبين أن تحليلاتنا واستنتاجاتنا لم تأتِ من فراغ، بل هي زبدة المخاض من

(٦٩٥) المصدر السابق .
(٦٩٦) كنز العمال ٦ : ٨٣ .
(٦٩٧) فتح الباري ٧ : ١٠ ، ١٤ .

آراء وتعليقات جلّة من علماء الجمهور الذين أورثونا هذا التراث الضخم المليء بالغثّ والسمين، والذي لا نجد بداً من إعادة النظر فيه بأُسلوب علمي لا يميل مع الهوى، فان اتباع الهوى مدعاة للضلالة، فلا نكون إن شاء الله من الذين ذمّهم الله تعالى بقوله: (**إنْ يَتَّبعونْ إلاّالظَّنَّ وَما تَهوى الأنفُسُ**)(٦٩٨)، فان معرفة الحق تكون بمخالفة الهوى وليس باتباعه.

نعود الى موضوعنا فنقول : إن المشكلة في تناقض هذه النصوص -التي أوردنا بعضها- هي أن الجمهور قد وجد نفسه أمام نصوص قوية يحتج بها الشيعة عليهم في إثبات النص على علي بن أبي طالب، مما ألجأ متعصّبي الجمهور -بعد اشتداد الصراع الكلامي بين الفرق- الى إيجاد نصوص مقابلة لدفعها، فخطبة الغدير تقابلها خطبة النبي(صلى الله عليه وآله) على المنبر قبل وفاته بخمسة أيام فقط، والكتاب الذي أراد النبي(صلى الله عليه وآله) أن يكتبه في مرضه(٦٩٩)، والذي يبدو أنه من حجج الشيعة أيضاً -كما يقول ابن كثير- يقابله الكتاب الذي أراد أن يكتبه النبي(صلى الله عليه وآله) لأبي بكر، وحديث الخلة في مقابل حديث الإخاء، وحديث سدّ الأبواب غير باب علي، يقابله حديث سدّ الأبواب غير باب أبي بكر، وحديث المرأة المزعومة التي جاءت الى النبي(صلى الله عليه وآله) فأوصاها -في حالة وفاته- بمراجعة أبي بكر، في مقابل حديث صفية وطلب النبي(صلى الله عليه وآله)منها مراجعة علي بن أبي طالب...الخ، وسوف تكشف الفصول القادمة عن أشياء اُخرى كثيرة من هذا القبيل، وهذه إحدى محاولات الدفع التي لجأ إليها المتعصبون المذهبيون من أبناء الجمهور، وهناك محاولات اُخرى عديدة لجأوا إليها لدفع هذه النصوص، منها :

١ ـ استهدفت بعض المحاولات دفع النصوص برمّتها والادعاء بأنها موضوعة أو ضعيفة -كما لاحظنا من مقالة ابن تيمية وغيره- ولكن علماء الجمهور تخبطوا مرة اُخرى وناقضوا أنفسهم بأنفسهم كما ناقض بعضهم البعض، وخير من نستشهد به هو الحافظ ابن حجر الهيتمي المكي إذ يقول- في معرض رده احتجاج الشيعة بحديث الغدير-:

وبالجملة، فما زعموه مردود من وجوه.. أحدها أن فرق الشيعة اتفقوا على اعتبار المتواتر فيما يُستدل به على الإمامة، وقد عُلم نفيه لما مرّ من الخلاف في صحة

(٦٩٨) النجم : ٢٣ .
(٦٩٩) سوف نتطرق إليه فيما بعد .

الحديث[٧٠٠]، بل الطاعنون في صحته جماعة من أئمة الحديث وعدوله المرجوع إليهم فيه كأبي داود السجستاني، وأبي حاتم الرازي وغيرهم، فهذا الحديث مع كونه آحاداً، مختلف في صحته، فكيف ساغ لهم أن يخالفوا ما اتفقوا عليه من اشتراط التواتر في أحاديث الإمامة ويحتجون بذلك؟ ما هذا إلاّ تناقض قبيح وتحكّم لا يعتضد بشيء من أسباب الترجيح[٧٠١].

فابن حجر المكي يرد صحة الحديث -اعتماداً على أقوال بعض العلماء- مع أنه يقول قبل ذلك بقليل، وفي الصفحة ذاتها:

وجواب هذه الشبهة التي هي أقوى شبههم يحتاج الى مقدمة وبيان الحديث ومخرجيه، وبيان أنه حديث صحيح لا مرية فيه! وقد أخرجه جماعة كالترمذي والنسائي وأحمد، وطرقه كثيرة جداً! ومن ثم رواه ستة عشر صحابياً! وفي رواية لأحمد أنه سمعه من النبي(صلى الله عليه وآله) ثلاثون صحابياً، وشهدوا به لعلي لمّا نوزع أيام خلافته...! وكثير من أسانيدها صحاح وحسان، ولا التفات لمن قدح في صحته! ولا لمن ردّه بأن علياً كان باليمن لثبوت رجوعه منها وإدراكه الحج مع النبي(صلى الله عليه وآله)، وقول بعضهم أن زيادة «**اللهم وال من والاه**» موضوعة مردود، فقد ورد ذلك من طرق صحَّح الذهبي كثيراً منها![٧٠٢].

فأي تناقض هذا الذي نجده في كلام ابن حجر! يعترف أولا بصحة الحديث، بل بتواتره -لأن رواية ثلاثين صحابياً له يكفي للقول بتواتره -ثم يعود فيتنكر للحديث، ويناقض نفسه.

إن من الانصاف القول إن خطبة النبي(صلى الله عليه وآله) في الغدير ينبغي أن تكون متواترة[٧٠٣]، لأن النبي(صلى الله عليه وآله) ألقاها في العام الحادي عشر من الهجرة بعد رجوعه من حجة الوداع بأيام قليلة، وقبل وفاته بأقل من ثلاثة أشهر، وذلك بعد أن بلغ الإسلام ذروته في ذلك الوقت، ودانت الجزيرة العربية بكافة قبائلها -تقريباً- للإسلام، ولأن ذلك الموسم قد شهده ما بين ٤٥ ـ ١٢٠ الف مسلم -حسب اختلاف الروايات-، وقبل تفرق الناس بعد أداء مناسك الحج، إذ يروي ابن كثير عن الطبري:

(٧٠٠) يعني حديث الغدير .
(٧٠١) الصواعق المحرقة : ٦٤ .
(٧٠٢) الصواعق المحرقة : ٦٤ .
(٧٠٣) قال الذهبي : وصدر الحديث متواتر ، أتيقن أن رسول الله(ص) قاله، وأما «اللهم وال من والاه» فزيادة قوية الاسناد ، البداية والنهاية ٥ : ٢١٤ .

أنه(عليه السلام) وقف حتى لحقه من بعده، وأمر بردّ من كان تقدّم، فخطبهم ... الحديث[٧٠٤].

أما الملاّ علي القاري، فيأتي بعجب آخر، إذ أنه في معرض تعداده لبعض المسائل التي اشتهرت والصواب خلافها يقول:

ومنها أن يدّعى على النبي(صلى الله عليه وآله) أنه فعل أمراً ظاهراً بمحضر من الصحابة كلهم، وأنهم اتفقوا على كتمانه ولم يفعلوه، كما يزعم أكذب الطوائف[٧٠٥]أنه(صلى الله عليه وآله) أخذ بيد علي بمحضر من الصحابة كلهم وهم راجعون من حجة الوداع، فأقامه بينهم حتى عرفه الجميع ثم قال: «**هذا وصيي وأخي والخليفة من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا**»! ثم اتفق الكل على كتمان ذلك وتغييره ومخالفته، فلعنة الله على الكاذبين![٧٠٦].

لا أدري عن أي شيء يصدر كلام القاري هذا، أعن جهل حقيقي بالحديث -لأن الحديث الذي رواه ليس هو حديث الغدير كما يزعم، بل هو حديث آخر سنأتي على ذكره فيما بعد- أم عن تجاهل لعدم استيفاء التحقيق في الموضوع لقلة أهميته عنده؟! وهذا هو الراجح عندي.

أما الباقلاني فيقول -في معرض احتجاجه على الشيعة- في باب: الكلام في إبطال النص وتصحيح الاختيار:

ثم يقال لهم : كيف لم تستدلوا على إثبات النص لأبي بكر(رضي الله عنه)بقوله(ص): «**يؤم الناس أبو بكر**» ، وقوله : «**يأبى الله إلاّ أبا بكر**»، وقوله «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**»، وقوله «**لا ينبغي لقوم يكون فيهم أبو بكر أن يتقدمهم غيره**»، وقوله «**إيتوني بدواة وكتف اكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه اثنان**»، وقوله(صلى الله عليه وآله): «**انتما من الدين بمنزلة السمع والبصر من الرأس**»، وقوله : «**لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الرحمان**»، وقوله : «**إن تولوها أبا بكر تجدوه ضعيفاً في بدنه قوياً في أمر الله، وإن تولوها عمر تجدوه قوياً في بدنه قوياً في أمر الله، وإن تولوها علياً تجدوه هادياً مهدياً**». وعلموا بهذه البنية والترتيب أنه قصر التنبيه على النص عليه، وبقوله : «**الخلافة بعدي الى ثلاثين**»، وقوله: «**إن يطع الناس أبا بكر وعمر رشدوا وارشدت أمتهم، وإن يعصوهما غووا وغوت أمتهم**»، وقوله: «**خير أمتي أبو بكر وعمر**»، وقوله: «**من أفضل من أبي بكر؟ زوجني إبنته وجهزني بماله وجاهد**

(٧٠٤) البداية والنهاية ٥ : ٢١٣ .
(٧٠٥) يعني الشيعة .
(٧٠٦) الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة : ٤١٣ .

معي ساعة الخوف»، وقوله في عمر : «**لو كان بعدي نبي لكان عمر»**، و «**لو لم أبعث فيكم لبعث عمر»! و «إن الله ضرب بالحق على لسان عمر وقلبه، يقول الحق وإن كان مرّاً» و «إن منكم لمحدّثين ومكلّمين، وإن عمر منهم»** في نظائر هذه الأخبار والفضائل التي يطول تتبعها، فكيف لم تقولوا بالنص عليهما؟!

فان قالوا: كل هذه الأخبار آحاد غير ثابتة، قيل لهم: فما الذي يمنع خصومكم على هذه الدعوى في أخباركم؟[٧٠٧].

إن الباقلاني يريد أن يساوي بين الأحاديث التي قيل إنها نص في علي بن أبي طالب، وبين التي تدّعي النص على أبي بكر وحتى عمر أيضاً، بالادعاء أن الأخبار التي جاءت من الفريقين هي أخبار آحاد، فبذلك تتساوى الكفة بين الحجتين، لكن الحقيقة أن الباقلاني أغفل أمراً مهماً ألا وهو: أن الأحاديث في النص على أبي بكر وعمر هي فعلا روايات آحاد إلاّ أن الأحاديث التي يشمّ منها النص على علي -كحديث الغدير- فهي متواترة، اعترف بذلك أئمة الفن المبرّزون، وقد مرّ اعتراف الذهبي بتواتره، وأورده الكتاني في نظم المتناثر من الحديث المتواتر[٧٠٨].

وقال ابن الجزري - بعد ايراده رواية في حديث الغدير- :

هذا حديث حسن من هذا الوجه، صحيح من وجوه كثيرة، متواتر عن أمير المؤمنين علي، وهو متواتر أيضاً عن النبي(صلى الله عليه وآله)، رواه الجم الغفير عن الجم الغفير، ولا عبرة بمن حاول تضعيفه ممن لا اطلاع له في هذا العلم[٧٠٩].

وقد مرّ بنا قول ابن كثير بأن الطبري قد جمع طرق حديث الغدير في مجلدين، وهذا يعطينا فكرة واضحة عن كثرة طرق هذا الحديث.

وقال الألباني -بعد تخريجه لبعض روايات حديث الغدير-:

كان الدافع لتحرير الكلام على الحديث وبيان صحته، أنني رأيت شيخ الإسلام ابن تيمية قد ضعف الشطر الأول من الحديث، وأما الشطر الثاني فزعم أنه كذب! وهذا من مبالغاته الناتجة في تقديري من تسرعه في تضعيف الأحاديث قبل أن يجمع طرقها ويدقق النظر فيها[٧١٠].

(٧٠٧) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل : ٤٦٥ .
(٧٠٨) ص: ١٩٣ .
(٧٠٩) أسنى المطالب : ٤٨ .
(٧١٠) سلسلة الأحاديث الصحيحة . المجلد الرابع : ٣٤٤ .

٢ ـ لما تبين عدم إمكانية دفع الحديث ـلتواتره- حاول البعض أن يتأوّل متنه، وذلك بمحاولة صرف كلمة الولي أو المولى التي وردت في الحديث الى معنىً يُفهم منه غير المقصود بالنص، وقد أطال البعض في ذلك الى الحد الذي يسأم القارئ منه، حتى إن ابن حجر الهيتمي المكي يعترف بذلك في قوله:

وبالجملة، فما زعموه مردود من وجوه نتلوها عليك ـوإن طالت- لمسيس الحاجة إليها، فاحذر أن تسأمها أو تغفل عنها![٧١١].

وردّ سبط ابن الجوزي على تلك المحاولات بقوله:

فأما قوله: «**من كنت مولاه**»، فقال علماء العربية: لفظة المولى ترد على وجوه (وبعد أن يعدد تلك الوجوه) يقول: والعاشر بمعنى الأولى، قال الله تعالى : (**فاليومَ لا يُؤخذُ مِنكُمْ فِديَةٌ وَلا مِنَ الذينَ كَفرُوا مَأواكُم النارُ هِيَ مَولاكُم**)، أي أولى بكم، وإذا ثبت هذا لم يجز حمل لفظة المولى في هذا الحديث على مالك الرق، لأن النبي(صلى الله عليه وآله) لم يكن مالكاً لرق علي(عليه السلام) حقيقة، ولا على المولى المُعتق لأنه لم يكن معتقاً لعلي، ولا على المعتق لأن علياً(عليه السلام) كان حراً، ولا على الناصر لأنه(عليه السلام) كان ينصر من ينصر رسول الله(صلى الله عليه وآله) ويخذل من خذله، ولا على ابن العم لأنه كان ابن عمه، ولا على الحليف لأن الحلف يكون بين الغرباء للتعاضد والتناصر، وهذا المعنى موجود فيه، ولا على المتولي لضمان الجريرة لما قلنا أنه انتسخ ذلك، ولا على الجار لأنه يكون لغواً من الكلام وحوشي منصبه الكريم من ذلك، ولا على السيد المطاع لأنه كان مطيعاً له يقيه بنفسه ويجاهد بين يديه.

والمراد من الحديث الطاعة المحضة المخصوصة، فتعين الوجه العاشر، وهو الأولى ومعناه من كنت أولى به من نفسه، فعلي أولى به، وقد صرّح بهذا المعنى الحافظ ابو الفرج يحيى بن السعيد الثقفي الاصبهاني في كتابه المسمى بمرج البحرين، فانه روى هذا الحديث باسناده الى مشايخه وقال فيه : فأخذ رسول الله(صلى الله عليه وآله) بيد علي فقال: «**من كنت وليّه وأولى به من نفسه فعلي وليه**»، فعلم أن جميع المعاني راجعة الى الوجه العاشر، ودل عليه أيضاً قوله(عليه السلام): «**ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم**»، وهذا نص صريح في إثبات إمامته وقبول طاعته، وكذا قوله(صلى الله عليه وآله): «**وأدر الحق معه حيث دار وكيف ما دار**»، فيه دليل على أنه ما جرى خلاف بين علي(عليه السلام) وبين أحد من الصحابة إلاّ والحق مع علي(عليه السلام)، وهذا

(٧١١) الصواعق المحرقة : ٦٤ .

باجماع الأمة، ألا ترى أن العلماء إنما استنبطوا أحكام البغاة من وقعة الجمل وصفين[٧١٢].

كما اعترف عدد من متكلمي الجمهور بورود لفظة المولى بمعنى الأولى، منهم التفتازاني الذي قال :

إنَّ المولى قد يُراد به المعتق والحليف والجار وابن العم والناصر والأولى بالتصرف، قال الله تعالى : (**مَأواكُمُ النّارُ هِيَ مَولاكُمْ**) : أي أولى بكم، ذكره أبو عبيدة، وقال النبي(صلى الله عليه وآله) : «**أيّما امرأة نُكحت بغير إذن مولاها ...**»، أي الأولى بها والمالك لتدبير أمرها، ومثله في الشعر كثير.

وبالجملة، استعمال (المولى) بمعنى المتولي والمالك للأمر والأولى بالتصرف شائع في كلام العرب، منقول عن كثير من أئمّة اللغة، والمراد أنه اسم لهذا المعنى، لا أنه صفة بمنزلة الأولى ليُعترض بأنه ليس من صيغة أفعل التفضيل وأنه لا يستعمل استعماله[٧١٣].

ويقيناً فانه لو لم يكن معنى المولى هو الذي نعتقده لما احتج به علي بن أبي طالب في رحبة مسجد الكوفة لمّا نوزع في أمر الخلافة، وكان غرضه في ذلك أن يُفهم الناس أن حديث الغدير لم يكن إلاّ نصاً عليه بالخلافة، ويدل على ذلك رواية أبي الطفيل للحادثة، حيث قال: جمع عليّ(رضي الله عنه) الناس في الرحبة، ثم قال لهم: أنشد الله كل امري مسلم سمع رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول يوم غدير خم ما سمع لمّا قام. فقام كثير من الناس. قال أبو نعيم ـ فقام ناس كثير ـ فشهدوا حين أخذ بيده فقال للناس: «**أتعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟**» قالوا: نعم يا رسول الله قال: «**من كنت مولاه فهذا مولاه، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه**». قال: فخرجتُ كأن في نفسي شيئاً، فلقيت زيد بن أرقم فقلت له: إني سمعت علياً يقول كذا وكذا؟ قال: فما تنكر؟ قد سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله)يقول ذلك له[٧١٤].

فلو لم يكن في معنى قول النبي(صلى الله عليه وآله) ما يدل على النص لما أنكر ابن الطفيل ذلك حتى سأل زيد بن أرقم عن صحة ذلك، ولو كان معنى المولى احد المعاني التي احتج بها بعض علماء الجمهور كالناصر وغيره، لما أثار استغراب ابن الطفيل.

٣ ـ تركزت محاولات اُخرى على تجزئة النص وتقطيعه، والادعاء بأن بعض المقاطع من الحديث ليست منه فعلا، كقوله(صلى الله عليه وآله) : «**وانصر من نصره واخذل من**

(٧١٢) تذكرة الخواص : ٣٧ .
(٧١٣) شرح المقاصد ٥ : ٢٧٣ .
(٧١٤) البداية والنهاية ٥ : ٣٢١ .

خذله»، وأعتقد أن السبب في ذلك يعود الى رغبة أُولئك في الحفاظ على كرامة بعض الصحابة - الذين يشملهم الدعاء- من الذين خذلوا علياً، سواء في الامتناع عن مبايعته، أو رفض القتال الى جانبه، أو من الذين قاتلوه فعلا، وقد عبّر العلاّمة المقدسي عن ذلك الاتجاه بقوله:

«**انصر من نصره، واخذل من خذله»**، فان الواقع ليس كذلك، فقد قاتل معه أقوام يوم صفّين فما انتصروا، وأقوام لم يقاتلوا معه فما خُذلوا، كسعد بن أبي وقاص الذي فتح العراق، لم يقاتل معه، وكذا أصحاب معاوية وبنو اُمية الذين قاتلوه، فتحوا كثيراً من بلاد الكفار، ونصرهم الله تعالى، ولا سيما من كان على رأي الشيعة فانهم دائماً مخذولون وأهل السنّة منتصرون...[٧١٥]

إننا لو وافقنا المقدسي على اعتبار النصر العسكري مقياساً لنصر الله أو خذلانه، فينبغي عندئذ أن يكون جنكيزخان وحفيده هولاكو من أولياء الله المقرّبين لأنهما اكتسحا الممالك الإسلامية من خوارزم الى شواطىء البحر المتوسط، واقتحموا مدينة بغداد -وهي عاصمة الخلافة الإسلامية- ووطئت خيلهم هامة الخليفة العباسي حامي بيضة الإسلام، وهذه اُمور لابد وان المقدسي يعلمها لأن تاريخ وفاته ٨٨٨ هـ والمغول فتحوا بغداد قبل ذلك بأكثر من قرنين من الزمان، ولا أدري كيف يفسّر المقدسي وغيره هزيمة المسلمين بقيادة عبدالرحمان الغافقي -القائد الأموي- أمام جيوش الفرنجة في معركة پواتيه أو بلاط الشهداء، بل وكيف يفسّر هزيمة المسلمين بقيادة النبي(صلى الله عليه وآله) أمام المشركين في معركة اُحد؟!

٤ - لم يكن هناك بدٌّ من اللجوء الى طريقة اُخرى، ألا وهي مقابلة النصوص بنصوص مماثلة، فخطبة الغدير يقابلها خطبة النبي على المنبر قبل وفاته بأيام قليلة، وغير ذلك مما مرّ ويأتي، ولقد حققت هذه المحاولة من النجاح ما لم تحققه المحاولات الأخرى، ثم توّج كل ذلك بالاحتجاج بصلاة أبي بكر أيام مرض النبي(صلى الله عليه وآله) واعتبرها ابن كثير الحجة الدامغة على النص على أبي بكر، وعبّر عن فرحه الشديد بكلام الأشعري حتى تمنى كتابته بماء الذهب. فما هي حقيقة تلك الصلاة، وهل تصلح حجة للدلالة على النص أم لا؟

إمامة أبي بكر للمصلّين

(٧١٥) الردّ على الرافضة : ٨٢ .

عندما نراجع الروايات التي تحدثت عن إمامة أبي بكر للصحابة في الصلاة في مرض النبي(صلى الله عليه وآله) فاننا نجد أنفسنا أمام مجموعة من الروايات المتضاربة، في أشياء كثيرة، حول عدد الأيام التي صلّى فيها أبو بكر بالناس، وعدد الصلوات التي صلاها، وحتى مكان جلوس النبي(صلى الله عليه وآله) منه، والنفر الذين كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) يتهادى بينهم - لشدة مرضه- عند خروجه للصلاة وغير ذلك، وهذا أمر مستغرب حقاً في حادثة حدثت في المسجد النبوي الشريف، وعلى مرأى ومسمع من اُلوف الصحابة، أو كلّهم كما يدعي ابن كثير، ومع ذلك فالروايات بطرق قليلة - أهمها روايات عائشة التي شكلت الثقل الأهم في الصحيحين وبخاصة البخاري - مع أن عائشة لم تدّع الرؤية، ولا ثبت أنها كانت في المسجد ورأت بعينها شيئاً، ولكنها مع ذلك لا تنسب الرواية الى أحد غيرها!

وقد أفاض ابن كثير في هذا الموضوع، فأورد جميع الروايات التي تحدثت عن صلاة أبي بكر من مصادرها المختلفة، وقام بمناقشتها مبدياً رأيه في الأمر كله، ليخرج بالنتيجة التي ظنّها صحيحة ومرضية. وأول تناقض في الروايات نجده فيما ذكره ابن كثير، من أن الإمام أحمد أخرج عن عبدالله بن زمعة، قال: لما استعزّ برسول الله(صلى الله عليه وآله) -وأنا عنده في نفر من المسلمين- دعا بلال للصلاة فقال: **«مروا من يصلي بالناس»**، فخرجت فاذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقلت: قم يا عمر فصل بالناس، فقام، فلما كبّر عمر، سمع رسول الله(صلى الله عليه وآله)صوته - وكان عمر رجلا مجهراً- فقال رسول الله: فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون (مرتين)! فبعث الى أبي بكر فجاء بعدما صلّى عمر تلك الصلاة فصلّى بالناس. وقال عبدالله بن زمعة: قال لي عمر: ويحك ماذا صنعت يا ابن زمعة، والله ما ظننت حين أمرتني إلاّ أن رسول الله أمرني بذلك، ولولا ذلك ما صليت. قلت: والله ما أمرني رسول الله، ولكن حين لم أرَ أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة...

وقال أبو داود، عن عبدالله بن عتبة، أن عبدالله بن زمعة أخبره، قال: لما سمع النبي(ص) صوت عمر، قال ابن زمعة: خرج النبي(صلى الله عليه وآله) حتى أطلع رأسه من حجرته ثم قال : **«لا، لا ، لا يصلي للناس إلاّ إبن أبي قحافة»**، يقول ذلك مغضباً!

لا أدري ما سبب غضب النبي وهو لم يعين في بداية الأمر اسم الشخص الذي يريده أن يصلي بالناس، ولا أدري أيضاً كيف عرف ابن زمعة أن النبي كان يعني أبا بكر، فلما لم يجده اختار عمر، وفي هذه الرواية ما يوحي بالنص ليس على أبي بكر فحسب، بل وعلى عمر أيضاً من بعده!

لكن الروايات الأخرى - وأكثرها عن عائشة- تذكر أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد حدّد الشخص المطلوب للصلاة، وهو أبو بكر، وأن عائشة هي التي كانت تحاول صرفه عن ذلك حتى أغضبته، فقد أورد ابن كثير فيما أخرج البخاري عن عائشة قالت :

لما مرض النبي(صلى الله عليه وآله) مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة فأذّن بلال، فقال: «**مروا أبا بكر فليصلّ بالناس**»، فقيل له: إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلّي بالناس، وأعاد فأعادوا له فأعاد الثالثة، فقال: «**إنكن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصلّ بالناس**»، فخرج أبو بكر، فوجد النبي(صلى الله عليه وآله) في نفسه خفة فخرج يهادي بين رجلين، كأني أنظر الى رجليه تخطان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ إليه النبي(صلى الله عليه وآله) أن مكانك، ثم أتى به حتى جلس الى جنبه، قيل للأعمش : فكان النبي(صلى الله عليه وآله) يصلّي وأبو بكر يصلّي بصلاته، والناس يصلّون بصلاة أبي بكر؟ فقال برأسه : نعم!

قال ابن حجر :

هي العشاء، كما في رواية موسى بن أبي عائشة (قوله: فأعاد الثالثة فقال إنكن صواحب يوسف).. وفيه أيضاً : فمرّ عمر فقال: مه، إنكن لأنتن صواحب يوسف; وصواحب جمع صاحبة، والمراد إنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن، ثم إن هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع، فالمراد به واحد وهي عائشة... وإن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها كونه لا يسمع المؤتمّين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك وهو أن لا يتشاءم الناس به...

وأورد ابن حجر ما في رواية موسى ابن أبي عائشة أن أبا بكر قال: يا عمر صلِّ بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك.

قال في شرحه : وقول أبي بكر هذا لم يرد به ما أرادت عائشة، قال النووي: تأوله بعضهم على أنه قاله تواضعاً، وليس كذلك، بل قاله للعذر المذكور، وهو كونه رقيق القلب كثير البكاء، فخشي أن لا يسمع الناس.

قال ابن حجر : ويحتمل أن يكون(رضي الله عنه) فهم من الإمامة الصغرى الإمامة العظمى، وعلم ما في تحملها من الخطر، وعلم قوة عمر على ذلك فاختاره...

وهذا في الحقيقة إيحاء آخر -من ابن حجر هذه المرة- بأن إمامة الصلاة إنما هي نص على الإمامة الكبرى أي الخلافة.

وحول خروج النبي(صلى الله عليه وآله) يتهادى بين رجلين والاختلاف فيهما حسب الروايات يقول ابن حجر:

(قوله بين رجلين) : في الحديث الثاني من حديثي الباب أنهما العباس بن عبدالمطلب وعلي بن أبي طالب، ومثله في رواية موسى بن أبي عائشة، و وقع في رواية عاصم المذكورة: وجد خفّة من نفسه فخرج بين بريرة ونُوبّة، ويُجمع كما قال النووي بأنه خرج من البيت الى المسجد بين هذين، ومن ثم الى مقام الصلاة بين العباس وعلي، أو يحمل على التعدد، ويدل عليه ما في رواية الدارقطني أنه خرج بين أسامة بن زيد والفضل بن العباس، وأما ما في مسلم: أنه خرج بين الفضل بن العباس وعلي، فذاك في مجيئه الى بيت عائشة...

إن الحمل على التعدد قد يكون صحيحاً إذا صحّ المطلب نفسه، أي إذا تكررت حادثة خروج النبي(صلى الله عليه وآله) الى الصلاة في المسجد بعد شروع أبي بكر في الصلاة، إلاّ أن ذلك لا يمكن إثباته، إذ أن جلّ الروايات توحي بعدم تكرر ذلك الحادث، أما التبريرات الأخرى حول اختلاف أسماء الأشخاص، فلا يخفى على اللبيب أنها مصطنعة، ولقد أشار ابن حجر الى ذلك إشارة غامضة فقال: ودعوى وجود العباس في كل مرة والذي يتبدل غيره مردودة...

وعن كيفية جلوس النبي(صلى الله عليه وآله) بعد خروجه الى المسجد -وحينما كان أبو بكر قد شرع في الصلاة- اضطربت الروايات واختلفت، وأورد ابن كثير روايات متعددة في ذلك، إذ أورد فيما أخرج أحمد عن ابن عباس قال: لما مرض النبي(صلى الله عليه وآله)، أمر أبا بكر أن يصلّي بالناس، ثم وجد خفة فخرج، فلما أحس به أبو بكر أراد أن ينكص، فأومأ إليه النبي(صلى الله عليه وآله) فجلس إلى جنب أبي بكر عن يساره، واستفتح من الآية التي انتهى إليها أبو بكر(رضي الله عنه).

قال ابن كثير : ثم رواه أيضاً عن وكيع، عن ابن عباس بأطول من هذا، وقال وكيع مرة: فكان أبو بكر يأتم بالنبي(صلى الله عليه وآله)، والناس يأتمون بأبي بكر...، وقد قال الإمام أحمد عن مسروق عن عائشة قالت:

صلّى رسول الله(صلى الله عليه وآله) خلف أبي بكر قاعداً في مرضه الذي مات فيه!

وقد رواه الترمذي والنسائي من حديث شعبة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال أحمد ، عن مسروق عن عائشة: إن أبا بكر صلّى بالناس ورسول الله(صلى الله عليه وآله)في الصف!

وقال البيهقي، عن عائشة : أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) صلّى خلف أبي بكر! وهذا إسناد جيد ولم يخرجوه.

قال البيهقي : عن أنس بن مالك : ان رسول الله(صلى الله عليه وآله) خرج وأبو بكر يصلّي بالناس فجلس الى جنبه... فصلّى بصلاته!

قال البيهقي (عن أنس) : آخر صلاة صلاّها رسول الله(صلى الله عليه وآله) مع القوم في ثوب ملتحفاً به خلف أبي بكر! قلت: وهذا اسناد جيد على شرط الصحيح ولم يخرجوه.

وهذا التقيد جيد بأنها آخر صلاة صلاّها مع الناس(صلى الله عليه وآله)(٧١٦).

فنلاحظ أن بعض الروايات تقول : إن النبي جلس إلى يسار أبي بكر، وأُخرى تقول إنه جلس خلفه، وأُخرى تقول إنه كان في الصف.

وفوق هذا وذاك نجد أُم المؤمنين عائشة -وهي راوية عدد كبير من أحاديث الصلاة هذه- تعود فتذكر اختلاف الناس في هذه القضية، حيث يذكر ابن حجر عن ابن خزيمة في صحيحه عن محمد بن بشار عن أبي داود بسنده هذا عن عائشة قالت: من الناس من يقول: كان أبو بكر المقدّم بين يدي رسول الله(صلى الله عليه وآله)في الصف، ومنهم من يقول: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) هو المقدّم.

قال ابن حجر: ورواه مسلم بن إبراهيم عن شعبة بلفظ أن النبي(صلى الله عليه وآله) صلّى خلف أبي بكر. أخرجه ابن المنذر، وهذا عكس رواية أبي موسى، وهو اختلاف شديد! ووقع في رواية مسروق عنها أيضاً اختلاف، فأخرجه ابن حيّان من رواية عاصم عن شقيق عنه بلفظ: كان أبو بكر يصلّي بصلاته والناس يصلّون بصلاة أبي بكر، وأخرجه الترمذي والنسائي وابن خزيمة من رواية شعبة عن نعيم بن أبي هند عن شقيق بلفظ: أن النبي(صلى الله عليه وآله) صلّى خلف أبي بكر، وظاهر رواية محمد بن بشار أن عائشة لم تشاهد الهيئة المذكورة، ولكن تظافرت الروايات عنها بالجزم بما يدل على أن النبي(صلى الله عليه وآله) كان هو الإمام في تلك الصلاة...(٧١٧)

وأما عن عدد الأيام التي صلّى فيها أبو بكر بالمسلمين، فيقول ابن كثير رأيه فيها مستنبطاً ذلك من الروايات التي ذكرت الأمر، فيقول:

(٧١٦) البداية والنهاية ٥ : ٢٣١ - ٢٣٧ .
(٧١٧) فتح الباري ٢ : ١٢٠ - ١٢٤

ذكر البيهقي عن أنس أن النبي(صلى الله عليه وآله) صلّى خلف أبي بكر في ثوب واحد مخالفاً بين طرفيه، فلما أراد أن يقوم، قال: «أدع لي أسامة بن زيد» فجاء، فأسند ظهره الى نمره، فكانت آخر صلاة صلاّها. قال البيهقي: ففي هذا دلالة أن هذه الصلاة كانت صلاة الصبح من يوم الاثنين يوم الوفاة، لأنها آخر صلاة صلاّها لما ثبت أنه توفي ضحى يوم الاثنين، وهذا الذي قال البيهقي أخذه مسلّماً من مغازي موسى بن عقبة فانه كذلك ذكر. وكذا روى أبو الأسود عن عروة -وذلك ضعيف- بل هذه آخر صلاة صلاّها مع القوم كما تقدّم تقييده في الرواية الأخرى، والحديث واحد، فيُحمل مطلقه على مقيّده، ثم لا يجوز أن تكون هذه صلاة الصبح من يوم الاثنين يوم الوفاة، لأن تلك لم يصلّها مع الجماعة، بل في بيته لما به من الضعف(صلى الله عليه وآله)، والدليل على ذلك ما قال البخاري عن أنس بن مالك -وكان تبع النبي(ص) وخدمه وصحبه- أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع النبي(صلى الله عليه وآله) الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة، فكشف النبي(صلى الله عليه وآله) ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف تبسّم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي(صلى الله عليه وآله)، ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبي(صلى الله عليه وآله)خارج الى الصلاة، فأشار إلينا(صلى الله عليه وآله) أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر وتوفي في يومه(صلى الله عليه وآله). وقد رواه مسلم عن أنس، ثم قال البخاري عن أنس بن مالك: لم يخرج النبي(صلى الله عليه وآله) ثلاثاً، فأُقيمت الصلاة، فذهب أبو بكر يتقدّم فقال نبي الله: «عليكم بالحجاب» فرفعه، فلما وضح وجه النبي(صلى الله عليه وآله) ما نظرنا منظراً كان أعجب إلينا من وجه النبي(صلى الله عليه وآله)حين وضح لنا; فاومأ(صلى الله عليه وآله) بيده الى أبي بكر أن يتقدّم وأرخى النبي(صلى الله عليه وآله)الحجاب، فلم يُقدر عليه حتى مات(صلى الله عليه وآله). ورواه مسلم من حديث عبدالصمد بن عبدالوارث عن أبيه، فهذا أوضح دليل على أنه(عليه السلام)لم يصلّ يوم الاثنين صلاة الصبح مع الناس، وأنه كان قد انقطع عنهم لم يخرج إليهم ثلاثاً، قلنا: فعلى هذا يكون آخر صلاة صلاّها معهم الظهر كما جاء مصرّحاً به في حديث عائشة المتقدّم، ويكون ذلك يوم الخميس لا يوم السبت ولا يوم الأحد كما حكاه البيهقي عن مغازي موسى بن عقبة وهو ضعيف، ولما قدّمنا من خطبته بعدها، ولأنه انقطع عنهم يوم الجمعة والسبت والأحد! وهذه ثلاثة أيام كوامل...(٧١٨)

هكذا بنى ابن كثير استنتاجه من خلال الروايات المتضاربة، مدّعياً بأن النبي(صلى الله عليه وآله) قد انقطع عن الصلاة بالمسلمين في مسجده الشريف ثلاثة أيام من بينها يوم الجمعة! وهنا يحق لنا أن نتساءل: من الذي صلّى يوم الجمعة صلاتها وألقى خطبتها؟

(٧١٨) فتح الباري ٢: ١٢٠ ـ ١٢٤.

فاذا كان النبي(صلى الله عليه وآله) قد أوكل أمر إمامة الصلاة الى أبي بكر، فينبغي أن يكون أبو بكر هو الذي صلاّها وألقى خطبتها، فلماذا لم يصلنا هذا الخبر المهم، ولماذا لم تسمع اُذن الدنيا كلمة من الخطبة التي ألقاها أبو بكر في تلك الجمعة، مع أنها أول صلاة جمعة لا يحضرها النبي(صلى الله عليه وآله)، وهو حدث تأريخي مهم حقيق بالمسلمين أن يحفظوه لأبي بكر - الذي حفظوا له أقوالا وخطباً كثيرة- فما بالهم لا يلتفتون الى هذه المسألة التي تشكل دعامة مهمة في استخلافه!

إن الاستنتاج الذي نخرج به من كل ذلك هو أن المتعصبين قد تلاعبوا بهذا الموضوع كما تلاعبوا بكل شيء يمت الى تراثنا، وزيّفوا الحقائق ووضعوا الروايات المتكاثرة نصرة للنظرة المتعصبة الضيّقة، لذا نجد هذه الروايات المتناقضة التي حيّرت الشرّاح وهم يعتصرون أدمغتهم في محاولة الجمع بينها، كما أوقعت بعض هذه الروايات الفقهاء أيضاً في تناقضات كثيرة، سنذكر مثالا لها بعد قليل. ولنستمع أولا الى ما يقوله ابن أبي الحديد المعتزلي حول موضوع صلاة أبي بكر، نقلا عن شيخه أبي يعقوب:

... ومن حديث الصلاة بالناس ما عُرف، فنسب علي(عليه السلام) الى عائشة أنها أمرت بلالا مولى أبيها أن يأمره فليصلّ بالناس، لأن رسول الله كما رُوي قال: «**ليصلّ بهم أحدهم**»، ولم يعيّن -وكانت صلاة الصبح- فخرج رسول الله(صلى الله عليه وآله)وهو في آخر رمق يتهادى بين علي والفضل بن العباس، حتى قام في المحراب كما ورد في الخبر، ثم دخل فمات ارتفاع الضحى، فجعل يوم صلاته حجّة في صرف الأمر إليه، وقال: أيكم يطيب نفساً أن يتقدّم قدمين قدّمهما رسول الله في الصلاة! ولم يحملوا خروج رسول الله(صلى الله عليه وآله) الى الصلاة لصرفه عنها، بل لمحافظته على الصلاة ما أمكن، فبويع على هذه النكتة التي اتهمها علي(عليه السلام)على أنها ابتدأت منها، وكان علي(عليه السلام) يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً، ويقول: إنه لم يقل(صلى الله عليه وآله): «**إنكن لصويحبات يوسف**» إلاّ إنكاراً لهذه الحال وغضباً منها، لأنها وحفصة تبادرتا الى تعيين أبويهما، وأنه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب، فلم يُجدِ ذلك ولا أثر، مع قوة الداعي الذي كان يدعو الى أبي بكر ويمهّد له قاعدة الأمر...، فقلت له - رحمه الله- أفتقول أنت ان عائشة عيّنت أباها للصلاة ورسول الله لم يعيّنه؟!

فقال : أما أنا فلا أقول ذلك، ولكن علياً كان يقوله، وتكليفي غير تكليفه، كان حاضراً ولم أكن حاضراً، فأنا محجوج بالأخبار التي اتصلت بي، وهي تتضمن تعيين النبي(صلى الله عليه وآله) لأبي بكر في الصلاة، وهو محجوج بما كان قد علمه أو يغلب

على ظنه من الحال التي كان حاضرها...، هذه خلاصة كلام الشيخ أبي يعقوب(رحمه الله)، ولم يكن يتشيّع، وكان شديداً في الاعتزال، إلاّ أنه في التفضيل كان بغدادياً[٧١٩].

فشيخ المعتزلي يعتقد بأن أبا بكر قد صلّى بالمسلمين صلاة واحدة وذلك فجر يوم الاثنين الذي توفي فيه النبي(صلى الله عليه وآله)، وأن النبي قد تدارك الأمر، وخرج الى الصلاة - في حالة يرثى لها من الاعياء- وصرف أبا بكر عن إمامة المصلّين.

في الحقيقة أن الشواهد تشير الى صحة رأي المعتزلي، فبعض الروايات تذكر أن النبي لم يعيّن أحداً للإمامة، بينما تدعي الروايات الأُخرى أنه عيّن أبا بكر لها، إلاّ أن نفس الروايات التي تدّعي تعيين أبي بكر بالاسم -ومعظمها عن عائشة- تعود فتعترف بأن النبي(صلى الله عليه وآله) قد خرج (يهادي بين رجلين ورجلاه تخطان من الوجع)، مدّعية بأنه خرج بعد أن وجد خفة! فأي خفة هذه وهو لا يستطيع أن يرفع رجليه عن الأرض؟! إن خروج النبي(صلى الله عليه وآله)بهذه الصورة المؤلمة وجلوسه الى يسار أبي بكر -لصرفه عن الإمامة- ما يقوّي الظن بأنه لم يكن راضياً عن تولي إمامة أبي بكر للصلاة، وأن عائشة هي التي دعت أباها ليؤم المصلّين -ولهذا نجدها تنفي أن تكون راغبة في تولي أبيها إمامة الصلاة باعذار واهية، من باب (يكاد المريب يقول خذوني) -ولقد أحس النبي بتآمرها هذا، فجبهها بتلك العبارة الخشنة «**إنكن لصويحبات يوسف**» لأنها وكما اعترف ابن حجر قد أضمرت غير ما تكشف، وقد حاول النبي(صلى الله عليه وآله) تدارك الأمر رغم صعوبة ذلك عليه، ولقد دُهل أبو بكر بخروج النبي(صلى الله عليه وآله) على غير توقع، فنسي أن يقعد هو الآخر -كما فعل النبي- وبقي يصلّي واقفاً خلافاً للأحاديث التي تأمر بالائتمام بالإمام قياماً وجلوساً، الأمر الذي أوقع الفقهاء في إشكال عويص، ورغم ان الموضوع خارج قليلا عما نحن بصدده، إلا أننا أحببنا أن نعطي القارئ فكرة عما تسببه تزييف التراث من مشاكل للمسلمين.

صلاة القاعد

بعد أن استعرض ابن كثير الروايات المتكاثرة عن صلاة أبي بكر، وخرج منها بالاستنتاج الذي إرتآه، تطرق الى موضوع صلاة القاعد، استكمالا للمبحث، فقال تحت عنوان (فائدة):

(٧١٩) يقصد أنه من القائلين بتفضيل علي بن أبي طالب. شرح نهج البلاغة : ٩ ـ ١٩٧ .

استدل مالك والشافعي وجماعة من العلماء ومنهم البخاري بصلاته(عليه السلام)قاعداً وأبو بكر مقتدياً به قائماً والناس بأبي بكر على نسخ قوله(عليه السلام) في الحديث المتفق عليه حين صلّى ببعض أصحابه قاعداً، وقد وقع عن فرس فجحش شقّه، فصلّوا وراءه قياماً، فأشار إليهم أن اجلسوا، فلما انصرف قال: «**كذلك والذي نفسي بيده تفعلون كفعل فارس والروم، يقومون على عظمائهم وهم جلوس**».

وقال : «**إنما جعل الإمام ليؤتم به، فاذا كبّر فكبّروا وإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلّى جالساً فصلّوا جلوساً أجمعون**».

قالوا : ثم إنه (عليه السلام) أمّهم قاعداً وهم قيام في مرض الموت، فدلّ على نسخ ما تقدم والله أعلم...[٧٢٠]

ثم ذكر اختلاف الناس في ذلك، إلاّ أن ادعاء نسخ الحكم السابق بالاقتداء بالإمام إذا قعد لا دليل عليه، فالحديث المتفق عليه -كما قال ابن كثير- يدل على أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد اعترض على أصحابه لوقوفهم وهو قاعد في الصلاة لأن عملهم يشبه عمل الفرس والروم في تعظيم كبرائهم، فهل تغيّرت عادة الفرس والروم حتى ينسخ الحكم تبعاً لذلك؟!

واستعرض ابن حجر آراء بعض العلماء واختلافهم في هذه المسألة، قال:

وحكى عياض عن بعض مشايخهم أن الحديث المذكور يدل على نسخ أمره المتقدم لهم بالجلوس لما صلّوا خلفه قياماً، وتعقّب بأن ذلك يحتاج -لو صحّ- الى تاريخ، وهو لا يصح، لكنه زعم أنه تقوّى بأن الخلفاء الراشدين لم يفعله أحد منهم، قال: والنسخ لا يثبت بعد النبي(صلى الله عليه وآله)، لكن مواظبتهم على ترك ذلك تشهد لصحة الحديث المذكور... فالقاضي عياض يؤكد على استمرار الخلفاء الراشدين على العمل بالحديث الذي يأمر المأمومين بالاقتداء بالإمام في حال قعوده، مما يثبت أنهم قد علموا أن الحديث لم ينسخ!

ثم ينقل ابن حجر رأي القاضي ابن العربي، فقال ما ملخّصه:

واستدل على نسخ الأمر بصلاة المأموم قاعداً إذا صلّى الإمام قاعداً لكونه(صلى الله عليه وآله)أقرّ الصحابة على القيام خلفه وهو قاعد، هكذا قرره الشافعي، وكذا نقله المصنف في آخر الباب عن شيخه الحميدي، وهو تلميذ الشافعي، وبذلك يقول أبو حنيفة وأبو يوسف والأوزاعي، وحكاه الوليد بن مسلم عن مالك، وأنكر أهل النسخ الأمر المذكور بذلك، وجمع بين الحديثين بتنزيلهما على حالتين :

(٧٢٠) البداية والنهاية ٥ : ٢٣١ .

إحداهما: إذا ابتدأ الإمام الراتب الصلاة قاعداً لمرض يُرجى برؤه فحينئذ يصلون خلفه قعوداً.

ثانيتهما : إذا ابتدأ الإمام الراتب قائماً لزم المأمومين أن يصلوا خلفه قياماً، سواءً طرأ ما يقتضي صلاة إمامهم قاعداً أم لا، كما في الأحاديث التي في مرض موت النبي(صلى الله عليه وآله)، فإن تقريره لهم على القيام دلّ على أنه لا يلزمهم الجلوس في تلك الحالة، لأن أبا بكر ابتدأ الصلاة بهم قائماً وصلّوا معه قياماً، بخلاف الحالة الأُولى فانه(صلى الله عليه وآله) ابتدأ الصلاة جالساً فلما صلّوا خلفه قياماً أنكر عليهم، ويقوّي هذا الجمع أن الأصل عدم النسخ، لا سيما وهو في هذه الحالة يستلزم دعوى النسخ مرّتين... وأبعد منه ما تقدم في نقل عياض، فانه يقتضي وقوع النسخ ثلاث مرات!

لقد فات هؤلاء الفقهاء أن النبي(صلى الله عليه وآله) لم يعترض على وقوف أبي بكر والمصلين من بعده -رغم أنه أمّهم قاعداً- لأن النبي في هذه المرّة كان على حال من المرض والألم تجعله غير متفرغ لإرشادهم الى الجلوس -كما فعل في مرة سابقة- لأن أمره لهم في المرة السابقة كان كافياً ليدلهم على الحكم ولم تكن هناك حاجة للتكرار، كما وأن النبي(صلى الله عليه وآله) لم يخرج الى تلك الصلاة ليعلمهم صلاة القاعد والواقف، بل خرج -في تلك الحالة المؤلمة- متحاملا على نفسه لشدة مرضه، من أجل أن يصرف أبا بكر عن إمامة الصلاة ليس إلاّ، وليزيل ما قد يعلق بأذهان الناس من أن إمامة أبي بكر للمصلين قد تكون بأمر النبي نفسه، إلاّ أن الفقهاء وشراح الأحاديث لم يلتفتوا الى هذه النقطة المهمة، فراحوا يبنون أحكامهم على ما قد ترسخ في أذهانهم -بفعل التزييف- من أن النبي قد عيّن أبا بكر لإمامة المصلين لكي يُفهم الناس رضاه بإمامته وخلافته من بعده، وهذا هو عكس الواقع فعلا.

إن بعض الفقهاء وشرّاح الأحاديث يعترفون بالحقيقة من حيث لا يشعرون، حيث ينقل ابن حجر آراء بعض المحدّثين والفقهاء حول أحاديث الباب، فيقول: وقد قال بقول أحمد جماعة من محدّثي الشافعية كابن خزيمة وابن المنذر وابن حبّان، وأجابوا عن حديث الباب بأجوبة اُخرى، منها قول ابن خزيمة: إن الأحاديث التي وردت بأمر المأموم أن يصلي قاعداً تبعاً لإمامه، لم يُختلف في صحتها ولا في سياقها! وأمّا صلاته(صلى الله عليه وآله) قاعداً، فاختلف فيها، هل كان إماماً أو مأموماً؟ قال :وما لم يُختلف فيه لا ينبغي تركه لمختلف فيه، واُجيبَ بدفع الاختلاف والحمل على أنه كان

إماماً مرة ومأموماً اُخرى، ومنها أن بعضهم جمع بين القصّتين بأن الأمر بالجلوس كان للندب وتقريرهم قيامهم خلفه كان لبيان الجواز.

لا يخفى ما في محاولة الجمع من خلل، لأن الإدعاء بأن النبي(صلى الله عليه وآله)قد صلّى إماماً لأبي بكر مرة ومأموماً له مرة اُخرى، إنما هو إدعاء صحيح لو صحّت الأحاديث التي تذكر تعدّد الواقعة، وأن أبا بكر قد صلى بالمسلمين عدة أيام، ولكن ذلك الاضطراب والتعارض بين الروايات قد جاء بسبب كذب الرواة الذين لفقوها، إذ أن القوم وجدوا أن صلاة أبي بكر الوحيدة بالمسلمين، وخروج النبي وصرفه عن الإمامة لا تثبت في مقام الاحتجاج بالنص على أبي بكر، فاختلقوا روايات اُخرى تدعي تكرّر صلاة أبي بكر، واضطربت أقوالهم بين كون النبي إماماً أو مأموماً، ومن المضحك حقاً أن هؤلاء لا يلتفتون الى مسألة مهمة، ألا وهي: ما معنى أن يأمر النبي(صلى الله عليه وآله) أبا بكر للصلاة بالمسلمين -بسبب مرض النبي الشديد- ثم يعود النبي فيخرج في كل مرة ليؤم المسلمين ويصرف أبا بكر عن إمامتهم، ويأتم مرة اُخرى بأبي بكر! فاذا كان النبي قد أراد تعيين أبي بكر لخلافته في إمامة الصلاة وإمامة الاُمة، فلماذا يوقع اُمّته في هذه الحيرة! ولا شك أن الأعذار التي اختلقها القوم -برغبة النبي في المحافظة على شهود صلاة الجماعة- إنما هو محاولة فاشلة اُخرى لتبرير هذا الاضطراب في الروايات.

ونعود مرة اُخرى لنستكمل ما تبقى من كلام ابن حجر في هذا الموضوع، فنصل ما انقطع منه، قال: فعلى هذا الأمر، من أمَّ قاعداً اعذر تخيّر من صلّى خلفه بين القعود والقيام! والقعود أولى لثبوت الأمر بالإئتمام والاتباع! وكثرة الأحاديث الواردة في ذلك، وأجاب ابن خزيمة عن استبعاد من استبعد ذلك بأن الأمر قد صدر من النبي(صلى الله عليه وآله) بذلك، واستمر عليه عمل الصحابة في حياته وبعده، فروى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن قيس بن فهد الأنصاري: أن إماماً لهم اشتكى لهم على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال: فكان يؤمنا وهو جالس ونحن جلوس، وروى ابن المنذر بإسناد صحيح عن اُسيد بن حضير أنه كان يؤم قومه، فاشتكى، فخرج إليهم بعد شكواه، فأمروه أن يصلي بهم، فقال: إني لا أستطيع أن اُصلي قائماً فاقعدوا، فصلى بهم قاعداً وهم قعود، وروى أبو داود من وجه آخر عن اُسيد بن حضير أنه قال: يا رسول الله، إمامنا مريض، قال : «**إذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً**»، وفي إسناده انقطاع، وروى إبن أبي شيبة بإسناد صحيح عن جابر: أنه اشتكى فحضرت الصلاة،

فصلى بهم جالساً وصلوا معه جلوساً، وعن أبي هريرة أنه أفتى بذلك وإسناده صحيح أيضاً[٧٢١].

فهذه الاستشهادات ما هي في الحقيقة إلاّ اعتراف بصحة ما نذهب إليه، وبه تبين أن الصحابة جميعاً قد فهموا الأمر بأنه غير منسوخ واستمر عملهم عليه في حياة النبي وبعد وفاته أيضاً.

شروط إمامة الصلاة

بعد كل ما أثبتناه فنقول : إن لإمامة الصلاة شروطاً ذكرها النبي(صلى الله عليه وآله) في بعض الأحاديث -ومنها ما استشهد به ابن كثير- وادعى فيها أن النبي قد اختار أبا بكر لإمامة المصلين، لأنه قد استجمع هذه الشروط دون غيره، وذلك نقلا عن أبي الحسن الأشعري، الذي قال: وتقديمه له دليل على أنه أعلم الصحابة، وأقرؤهم، لما ثبت في الخبر المتفق على صحته بين العلماء، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله)قال :«**يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنّة، فان كانوا في السنّة سواء فأكبرهم سناً، فان كانوا في السن سواء، فأقدمهم مسلماً**»... ثم قد اجتمعت هذه الصفات كلها في الصدّيق...(رضي الله عنه)

إلاّ أننا عندما نستعرض هذه الأمور، ونتتبع الأحاديث والآثار، نجد أن إدعاء ابن كثير -ومن قبله الأشعري- لا أساس له من الصحة بتاتاً! إذ أن أبا بكر لم يجمع ولا شرطاً واحداً من تلك الشروط! وذلك باعتراف المصادر المعتمدة في ذلك ومنها الصحاح، فادعاء ابن كثير يستلزم أولا أن يكون أبو بكر أقرأ الصحابة للقرآن -كما ورد في صدر الحديث- فهو الشرط الأوّل لإمامة الصلاة، إلاّ أننا عندما نتتبع أخبار القرّاء من الصحابة، فاننا نفاجأ بأن أبا بكر لم يذكر فيهم مطلقاً، وقد جعل البخاري باباً بعنوان (القرّاء من أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)، أورد فيه عدة روايات تذكر أسماء القرّاء من الصحابة، وليس لأبي بكر ذكر بينهم، فعن مسروق، قال: ذُكر عبدالله[٧٢٢] عند عبدالله بن عمر، فقال: ذاك رجل لا أزال أحبّه بعدما سمعت النبي(صلى الله عليه وآله) يقول: «**استقرئوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود -فبدأ به- وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ ابن جبل**»[٧٢٣].

(٧٢١) فتح الباري ٢ : ١٢٠ ـ ١٢٤ .
(٧٢٢) يعني ابن مسعود .
(٧٢٣) صحيح البخاري ٦ : ٢٢٩ باب القرّاء من أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله) ٥ : ٤٥ مناقب أبي بن كعب .

وعن شقيق بن سلمة، قال : خطبنا عبدالله فقال : والله لقد أخذت من فِيّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) بضعاً وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله) أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم، قال شقيق: فجلستُ في الحِلَق أسمع ما يقولون فما سمعت راداً يقول غير ذلك(٧٢٤).

وعن مسروق، قال : قال عبدالله(رضي الله عنه) : والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلاّ أنا أعلم أين نزلت، ولا اُنزلت آية من كتاب الله، إلاّ أنا أعلم فيم اُنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه(٧٢٥).

وعن قتادة، قال : سألت أنس بن مالك(رضي الله عنه) : من جمع القرآن على عهد النبي(صلى الله عليه وآله)؟ قال: أربعة كلهم من الأنصار: اُبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد(٧٢٦).

وعن أنس، قال : مات النبي(صلى الله عليه وآله) ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد، قال: ونحن ورثناه(٧٢٧).

وعن ابن عباس، قال : قال عمر : اُبي أقرؤنا، وإنّا لندع من لحن اُبي، واُبي يقول: أخذته من فِيّ رسول الله(صلى الله عليه وآله) فلا أتركه لشيء... الحديث(٧٢٨)

فهذه الروايات لا تذكر أبا بكر فيمن جمع القرآن ولا هو من أقرأ الصحابة، فعلى هذا فان ابن مسعود واُبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبا الدرداء ومعاذ بن جبل وغيرهم كانوا أحق منه بإمامة المصلين.

وقال السيوطي :

لا أحفظ عن أبي بكر(رضي الله عنه) في التفسير إلاّ آثاراً قليلة جداً لا تكاد تجاوز العشرة، وأما علي فروي عنه الكثير، وقد روى معمر عن وهب بن عبدالله عن أبي الطفيل، قال: شهدت علياً يخطب وهو يقول: سلوني، فوالله لا تسألونني عن شيء إلاّ أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلاّ وأنا أعلم أبليل نزلت أم نهار، أم في سهل أم في جبل.. وأما ابن عباس فهو ترجمان القرآن الذي دعا له النبي(صلى الله عليه وآله): «**اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل**»(٧٢٩).

(٧٢٤) صحيح البخاري ٦ : ٢٢٩.
(٧٢٥) المصدر السابق ٦ : ٢٣٠
(٧٢٦) المصدر السابق .
(٧٢٧) المصدر السابق .
(٧٢٨) صحيح البخاري: ٢٣٠/٦ .
(٧٢٩) الاتقان في علوم القرآن ٤ : ٢٣٣ .

وقال المناوي : قد علم الأولون والآخرون أن فهم كتاب الله منحصر إلى علم علي ...[٧٣٠]

فأبو بكر لم يكن أعلم الصحابة بكتاب الله ولا بسنّة نبيه -وسوف تأتي الشواهد على ذلك في فصل لاحق- بينما نجد علي بن أبي طالب يؤكد أنهم لا يسألونه عن شيء إلاّ وأخبرهم بجوابه، ولم يحدّد علماً معيناً، بل أطلق الكلام في كل شيء، وفي الحقيقة فان من يراجع خطبه في نهج البلاغة وأقواله المأثورة، فانه سوف يدهش حقاً من علمه الغزير في كل المجالات، وهو فوق هذا يؤكد علمه بكتاب الله كله وأسباب نزوله... الخ، كما أن كون ابن عباس ترجمان القرآن -بعد دعاء النبي له- يؤكد -وكما تؤكد الأخبار أيضاً- أنه كان أعلم من أبي بكر أيضاً. ولأن هذه الروايات تثبت أن أبا بكر لم يكن أقرأ الصحابة، مما أوقع الشرّاح في مشكلة جديدة، فانهم لجأوا -كعادتهم- إلى استنباط آراء وأفكار جديدة تخرجهم من الورطة، فقال ابن حجر :

في حديث أبي مسعود (أقرؤهم) : قيل المراد به الأفقه، وقيل هو على ظاهره، وبحسب ذلك اختلف الفقهاء. قال النووي: قال أصحابنا: الأفقه مقدّم على الأقرأ، فإن الذي يحتاج إليه من القراءة مضبوط، والذي يحتاج إليه في الفقه غير مضبوط، فقد يعرض في الصلاة أمر لا يقدر على مراعاة الصلاة فيه إلاّ كامل الفقه، ولهذا قدم النبي(صلى الله عليه وآله) أبا بكر في الصلاة على الباقين، مع أنه(ص) نصّ على أن غيره أقرأ منه، كأنه عنى حديث أقرؤكم أبي، قال: وأجابوا عن الحديث بأن الأقرأ من الصحابة كان هو الأفقه! قلت: وهذا الجواب يلزم منه أن من نص النبي(صلى الله عليه وآله) على أنه أقرأ من أبي بكر، كان أفقه من أبي بكر! فيفسد الاحتجاج بأن تقديم أبي بكر كان لأنه الأفقه. ثم قال النووي بعد ذلك: إن قوله في حديث أبي مسعود : «فان كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسنّة، فإن كانوا في السنّة سواء فأقدمهم في الهجرة» يدل على تقديم الأقرأ مطلقاً. انتهى. وهو واضح للمغايرة... ولا يخفى أن محل تقديم الأقرأ إنما هو حيث يكون عارفاً بما يتعين معرفته من أحوال الصلاة، فأما إذا كان جاهلا بذلك فلا يقدم إتفاقاً...[٧٣١]

هذه التمحلات واضحة المقصد. ولا أظنها تحتاج الى مناقشة، إلاّ أنني أقول تعليقاً على العبارة الأخيرة بأن تقديم الأقرأ يشترط أن يكون عارفاً بما يتعين من

(٧٣٠) فيض القدير ٣ : ٤٦ .
(٧٣١) فتح الباري ٢ : ١٣٥ - ١٣٦

أحوال الصلاة، كان يستلزم تقديم شخص كان أعلمهم بصلاة النبي(صلى الله عليه وآله)، وليس هو أبو بكر، ولكني سأذكره فيما بعد.

الأكبر سنّاً

أما إمامة الأكبر سنّاً، فان من المعلوم قطعاً أن العباس بن عبدالمطلب كان أكبر سناً من أبي بكر، وأن هناك العديد من الصحابة كانوا أكبر منه سناً أيضاً كما يدل على ذلك للمتتبع أخبارهم في كتب تراجم الصحابة. وقد روى ابن أبي الحديد قصة طريفة حول هذا الموضوع، قال:

قيل لأبي قحافة يوم ولي الأمر ابنه : قد ولي ابنك الخلافة، فقرأ: (**قُل اللهمَّ مالكَ الملكِ تُؤتي المُلكَ مَنْ تشاءُ وتنزعُ الملكَ مِمَّنْ تَشاءُ**)، ثم قال: لمَ ولّوه؟ قالوا: لسنّه. قال: أنا أسنّ منه![732]

إلاّ أنّنا نجد الكثير من المؤلفين في العصر الحاضر ينساقون وراء هذه الأخبار دون تحقيق، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ولكني أذكر على سبيل المثال قول ثابت إسماعيل الراوي :

وكان تقديم أبي بكر على غيره أنه كان أكبر المسلمين سناً، وأوّل من أسلم، وهو الذي ضحّى بأمواله في سبيل الله ونشر دينه...[733]

الأوّل إسلاماً

من الأمور التي طال فيها الجدل بين المسلمين، هو تحديد الأسبق الى الاسلام، ومداره بالدرجة الأولى على شخصين هما أبو بكر وعلي بن أبي طالب، وهذا أيضاً من افرازات القول بأحقية أحد الرجلين في الخلافة، لأن السبق الى الإسلام يعدّ من الشرائط المعتبرة في ذلك، وقد أورد ابن كثير قول النبي(صلى الله عليه وآله)في الأحق بتولي إمامة الصلاة وذكر منها السبق الى الإسلام، وبما أن الجمهور يعتبر التقديم الى الصلاة إشارة الى النص على الخلافة، لذا نجد الصراع دائراً بين الفريقين حول أوّل الناس إسلاماً، فقد روى الطبري عن الواقدي بسنده، قال: اجتمع أصحابنا على أن أوّل أهل القبلة استجاب لرسول الله(صلى الله عليه وآله) خديجة بنت خويلد، ثم اختلف عندنا في ثلاثة نفر: في أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة، أيهم أسلم أوّل[734].

(٧٣٢) شرح نهج البلاغة ١ : ٢٢٢ .
(٧٣٣) تاريخ الدولة العربية : ٧ .
(٧٣٤) تاريخ الطبري ٢ : ٣١٧ .

ذكر الطبري ذلك، بعد أن أورد ستة عشر رواية في أن أوّل من أسلم هو علي بن أبي طالب، وسبع روايات في أن أوّل من أسلم أبو بكر، ثم أورد روايات اُخرى فيمن أسلم قبل أبي بكر.

ويورد ابن كثير الدمشقي هذه الروايات المتناقضة أيضاً في أوّل من أسلم، ثم يذكر قول أبي حنيفة بالجمع بين هذه الأقوال بأن أوّل من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن الغلمان علي بن أبي طالب...(٧٣٥)

وبما أن استقصاء هذه الروايات يستغرق صفحات كثيرة، إلاّ أنني أود فقط أن اُشير الى مسألة كانت مدار بحثنا في هذا الكتاب، ألا وهي قضية التزييف في تراثنا الإسلامي لأسباب ذكرنا بعضها وسوف نكشف عما تبقى منها -وهي أهمها- في الفصول القادمة باذن الله تعالى.

فمن أساليب التزييف المتبعة هذه، قول ابن كثير الدمشقي -في فصل عنونه بقوله: في ذكر شيء من فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(رضي الله عنه)- وبعد أن يورد روايات عديدة في فضله يقول:

وقد ورد في أنه أوّل من أسلم من هذه الأُمة أحاديث كثيرة لا يصح منها شيء(٧٣٦).

ولكي ينجلي الموقف على الحقيقة، فانني سأُورد بعض الروايات الصحيحة الإسناد فى إسلام علي بن أبي طالب وسبقه إليه .

١ ـ عن معقل بن يسار، قال : وضّأتُ النبي(صلى الله عليه وآله) ذات يوم فقال : «**هل لك في فاطمة نعودها**»؟ فقلت: نعم. فقام متوكئاً عليَّ فقال: «**أما إنه سيحمل ثقلها غيرك ويكون أجرها لك**». قال: فكأنه لم يكن علي شيء حتى دخلنا على فاطمة(عليها السلام)فقال لها : «**كيف تجدينك**»؟ قالت: والله لقد اشتدّ حزني واشتدت فاقتي وطال سقمي. قال أبو عبدالرحمان: وجدت في كتاب أبي بخط يده في هذا الحديث، قال «**أما ترضين أني زوّجتك أقدم أُمتي سلماً، وأعظمهم حلماً**»؟(٧٣٧).

٢ ـ عن سلمان(رضي الله عنه)، قال : قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**أوّلكم وارداً على الحوض، أوّلكم إسلاماً : علي بن أبي طالب**»(٧٣٨).

(٧٣٥) البداية والنهاية ٣ : فصل أوّل من أسلم من متقدمي الإسلام والصحابة وغيرهم .
(٧٣٦) البداية والنهاية ٧ : ٣٣٤ .
(٧٣٧) مسند أحمد ٥ : ٢٦ ، مجمع الزوائد ٩ : ١٠١ وقال : رواه أحمد والطبراني وفيه خالد بن طهمان وثقه ابو حاتم وغيره، وبقية رجاله ثقات .
(٧٣٨) المستدرك ٣ : ١٣٦ و صححه و وافقه الذهبي .

٣ ـ عن أنس(رضي الله عنه) قال : نُبئ النبي(صلى الله عليه وآله) يوم الاثنين، وأسلم علي يوم الثلاثاء[٧٣٩].

٤ ـ عن أبي إسحاق ، أن علياً لما تزوج فاطمة، قالت للنبي(صلى الله عليه وآله) : زوجتنيه أُعيمش عظيم البطن. فقال النبي(صلى الله عليه وآله): **«لقد زوجتكه وأنه لأول أصحابي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً»**[٧٤٠].

٥ ـ عن سلمان ، قال : **«أول هذه الأمة وروداً على نبيها(ص) أولها إسلاماً، علي بن أبي طالب**[٧٤١].

٦ ـ عن الحسن وغيره ، قال : فكان أول من آمن علي بن أبي طالب وهو إبن خمس عشرة أو ست عشرة سنة[٧٤٢].

٧ ـ عن علي، قال : أنا أول من صلى مع رسول الله(صلى الله عليه وآله)[٧٤٣].

٨ ـ عن علي، قال : خطب أبو بكر وعمر فاطمة الى رسول الله(صلى الله عليه وآله) فأبى رسول الله(صلى الله عليه وآله) عليهما، فقال عمر: أنت لها يا علي. قال: مالي من شيء إلاّ درعي وسيفي; فتعرّض علي ذات يوم لرسول الله(صلى الله عليه وآله) فقال : **«يا علي، هل لك من شيء»**؟ قال: جملي ودرعي أرهنهما، فزوّجني رسول الله(صلى الله عليه وآله) فاطمة، فلما بلغ فاطمة ذلك بكت، فدخل عليها رسول الله(صلى الله عليه وآله) فقال: **«مالك تبكين يا فاطمة، والله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً وأقدمهم سلماً»**[٧٤٤].

هذه بعض الروايات وأقوال الحفّاظ فيها حول إثبات تقدم إسلام علي بن أبي طالب، أما من أين جاءت الروايات التي تدعي سبق أبي بكر الى الاسلام، فاننا نوّهنا فيما سبق الى عملية المقابلة التي قام بها بعض المتعصّبين في مقام المحاججة بين أدلة التنصيص على الخلافة، وأثبتنا بالأدلة أن الروايات التي تشيد بأبي بكر والتي يُشمّ منها رائحة النص إنما وضعت مقابل الروايات التي يحتج الشيعة بها في الدلالة على النص على علي بن أبي طالب، خلافاً لما توهمه بعض حفّاظ ومتكلمي الجمهور بأن الآية معكوسة، مع العلم أن نظرية الجمهور في الخلافة تقوم أساساً على عدم وجود نص! وقد أورد ابن أبي الحديد المعتزلي مناظرة بين الجاحظ وبين أبي جعفر

(٧٣٩) المستدرك ٣ : ١١٢ ، قال الذهبي : صحيح .
(٧٤٠) مجمع الزوائد ٩ : ١٠٢ وقال : رواه الطبراني وهو مرسل صحيح الاسناد .
(٧٤١) المصدر السابق وقال : رواه الطبراني ورجاله ثقات .
(٧٤٢) المصدر السابق وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .
(٧٤٣) مجمع الزوائد ٩ : ١٠٣ وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير حبة العرني وقد وثق.
(٧٤٤) كنز العمال ١٣ : ١١٤ ، وقال : أخرجه ابن جرير وصححه، والدولابي في الذرية الطاهرة .

الإسكافي -وكلاهما معتزليان أيضاً- حول الروايات التي وردت في سبق كل من أبي بكر وعلي بن أبي طالب الى الإسلام، فكان من ردّ الإسكافي على الجاحظ قوله :

فأما ما احتج به الجاحظ بإمامة أبي بكر، بكونه أول الناس إسلاماً، فلو كان هذا صحيحاً، لاحتج به أبو بكر يوم السقيفة، وما رأيناه صنع ذلك لأنه أخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح وقال للناس : **قد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا منهما من شئتم،** ولو كان هذا احتجاجاً صحيحاً لما قال عمر: كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرّها، ولو كان احتجاجاً صحيحاً لادعى واحد من الناس لأبي بكر الإمامة في عصره أو بعد عصره، بكونه سبق الى الإسلام، وما عرفنا أحداً ادعى له ذلك، على أن جمهور المحدّثين لم يذكروا أن أبا بكر أسلم إلاّ بعد عدّة من الرجال، منهم علي بن أبي طالب، وجعفر أخوه، وزيد بن حارثة، وأبو ذر الغفاري، وعمرو بن عنبسة السلمي، وخالد بن سعيد بن العاص، وخبّاب بن الأرت، وإذا تأملنا الروايات الصحيحة، والأسانيد القوية والوثيقة، وجدناها كلها ناطقة بأن علياً(عليه السلام) أوّل من أسلم![٧٤٥] .

ثم يورد الإسكافي مجموعة كبيرة من الروايات في ذلك بما يدعم قوله.

إمامة الصلاة وإمامة الأمّة

إن من المؤكد أن الجمهور قد تعلق بمسألة إمامة أبي بكر للمصلّين، واعتبر ذلك أقوى برهان على النص عليه من قبل النبي(صلى الله عليه وآله)، وانساق وراء هذا الادعاء معظم متكلمي الجمهور، حتى صار الأمر في حكم المسلّمات، إلاّ أن معظم اُولئك المتكلمين لم يلتفتوا الى بعض النقاط المهمة، أو ربما تغافلوا عنها في غمرة الاندفاع من أجل إسقاط حجج مخالفيهم في النص على علي، وراح البعض منهم يعبّر عن فرحه الغامر بهذا الدليل حتى تمنى كتابته بماء الذهب. ولكننا لو أمعنا النظر جيداً في الأمر لوجدنا أن هذه الحجة تفتقر الى الدليل العقلي والنقلي في إثباتها، ولقد اعترف بعض متكلمي الجمهور بهذه الحقيقة الساطعة، فقد قال ابن حزم :

وأمّا من ادعى أنه إنما قُدّم قياساً على تقديمه الى الصلاة، فباطل بيقين، لأنه ليس كل من استحق الإمامة في الصلاة يستحق الامامة في الخلافة، إذ يستحق الإمامة في الصلاة اقرأ القوم وإن كان أعجمياً أو عربياً، ولا يستحق الخلافة إلاّ قرشي، فكيف والقياس كله باطل[٧٤٦].

(٧٤٥) شرح نهج البلاغة ١٣ : ٢٢٤

(٧٤٦) الفصل في الملل والنحل ٤ : ١٠٩

هذا مع العلم أن ابن حزم من القائلين بالنص على أبي بكر كما تقدم عنه، إلاّ أن عبارته حول إمامة الصلاة وإمامة الأمّة في غاية الدقة والصواب، والشواهد تؤيدها، فعن ابن عمر: لمّا قدم المهاجرون الأولون العصبة -موضع بقبا- قبل مقدم رسول الله(صلى الله عليه وآله) كان يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة، وكان أكثرهم قرآنا[٧٤٧].

وعن نافع ، أن ابن عمر(رضي الله عنه) أخبره قال : كان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين الأولين وأصحاب النبي(صلى الله عليه وآله) في مسجد قباء، فيهم أبو بكر وعمر وأبو سلمة وزيد وعامر بن ربيعة[٧٤٨].

وعن المغيرة بن شعبة ، قال : تخلّف رسول الله(صلى الله عليه وآله) وتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: «**أمعك ماء**»؟ فأتيته بمطهرة. فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه... ثم ركب وركبت فانتهينا الى القوم وقد قاموا الى الصلاة، يصلي بهم عبدالرحمان بن عوف، وقد ركع بهم ركعة، فلما أحس بالنبي(صلى الله عليه وآله)ذهب ليتأخر، فأومأ إليه فصلى بهم، فلما سلّم، قام النبي(صلى الله عليه وآله)وقمت، فركعنا الركعة التي سبقتنا[٧٤٩].

وعن سهل بن سعد الساعدي : أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) ذهب الى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، فحانت الصلاة، فجاء المؤذن الى أبي بكر فقال: أتصلي للناس فأُقيم؟ قال: نعم، فصلى أبو بكر; فجاء رسول الله(صلى الله عليه وآله) والناس في الصلاة، فتخلص حتى وقف في الصف، فصفّق الناس، وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته، فلما أكثر الناس من التصفيق، التفت فرأى رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فأشار إليه رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن امكث مكانك، فرفع أبو بكر(رضي الله عنه)يديه فحمد الله على ما أمره به رسول الله(صلى الله عليه وآله) من ذلك. ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف، فتقدم رسول الله(صلى الله عليه وآله) فصلى، فلما انصرف قال: «**يا أبا بكر ما منعك أن تثبت إذ أمرتك**»؟ فقال أبو بكر: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله(صلى الله عليه وآله)[٧٥٠].

كما وذكر أصحاب السير -ومنهم ابن كثير- أن عمرو بن العاص قد صلّى بالناس في غزوة ذات السلاسل، وكان فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة[٧٥١].

(٧٤٧) صحيح البخاري ١ : ١٧٨ باب إمامة العبد والمولى ، وكانت عائشة يؤمها عبدها ذكوان...
(٧٤٨) المصدر السابق ٩ : ٨٨ كتاب الأحكام ، باب استقضاء الموالي واستعمالهم .
(٧٤٩) صحيح مسلم ١ : ٣٢٠ كتاب الطهارة ، باب المسح على الناصية والعمامة .
(٧٥٠) صحيح البخاري ١ : ١٧٤ باب من دخل ليؤم الناس فجاء الإمام الاول .
(٧٥١) السيرة النبوية لابن كثير ٣ : ٥١٦ .

فمن هذا يتبيّن أنه لو كانت إمامة الصلاة دليلا على الخلافة لكان سالم مولى أبي حذيفة أو عبدالرحمان بن عوف أو عمرو بن العاص أحق من أبي بكر بها، وبخاصة فان الرواية التي عند مسلم تدل على أن النبي قد ائتم بعبدالرحمان بن عوف، بينما تؤكد رواية البخاري أن أبا بكر قد انسحب من إمامة المصلين وتركها للنبي(صلى الله عليه وآله)، هذا إذا أخذنا بنظر الاعتبار عدم ثبوت إمامة أبي بكر للنبي(صلى الله عليه وآله) في مرضه فمن هذا يتبيّن أن موضوع صلاة أبي بكر قد قلب كثيراً من المفاهيم والحقائق التاريخية، بل وحتى المفاهيم الفقهية، حيث كان لتلاعب المتعصبين في الروايات أكبر الأثر في وقوع المحدّثين والفقهاء ضحية لها، فراح المحدّثون يروونها معتقدين صحتها، بينما راح الفقهاء يفرّعون المسائل عليها، في حين راح المتكلمون يروجونها على أنها دليل قاطع على النص على خلافة أبي بكر.

الفصل الحادي عشر: تزييف الحديث النبوي

تزييف الحديث النبوي

لعل ما أوردناه في الفصل السابق قد أعطى للقارئ فكرة عن عملية التزييف التي طالت التراث الإسلامي كله، ومن ضمنه الحديث النبوي الشريف، حيث انبرى المتعصبون لوضع أحاديث تدّعي الإشارة الى النص على أبي بكر، وذلك في مقابل الأحاديث الصحيحة التي يحتج بها الشيعة على مسألة النص والوصاية لعلي بن أبي طالب.

وقد انبرى بعض الحفّاظ لإيراد الأسباب التي أدّت الى شيوع الوضع في الحديث، فذكر ابن الجوزي مثلا في كتابه (الموضوعات) أقسام الحديث، فجعلها ستة أقسام، سادسها الموضوعات، ثم قسّم الرواة عدة أقسام، فذكر منهم الوضّاعين ممن تعمّد الكذب، وقسمهم أربعة أقسام:

أوّلها : الزنادقة الذين قصدوا إفساد الشريعة وإيقاع الشك في قلوب العوام والتلاعب بالدين... ثم يروي عن حماد بن زيد قوله: وضعت الزنادقة على رسول الله(صلى الله عليه وآله) أربعة عشر ألف حديث.

وثانيها : قوم كانوا يقصدون وضع الحديث نصرة لمذهبهم، ويروي عن عبدالله بن يزيد المعري، عن رجل من أهل البدع رجع عن بدعته فجعل يقول: انظروا هذا الحديث ممن تأخذونه فإنّا كنا إذا رأينا رأياً جعلنا له حديثا، ويروي عن ابن لهيعة أنه سمع شيخاً من الخوارج تاب ورجع وهو يقول: إن هذه الأحاديث دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم فإنا كنا إذا هوينا أمراً صيّرناه حديثاً، كما ويروي مثل ذلك عن شيخ من الرافضة أيضاً.

وأما القسم الثالث من الوضّاعين، فهم الذين وضعوا الأحاديث في الترغيب والترهيب ليحثوا الناس على الخير ويزجروهم عن الشر.

والقسم الرابع ، فيذكر منهم من وضع الأسانيد لكل كلام حسن، ويروي عن محمد بن سعيد قوله : لا بأس إذا كان كلام حسن أن تضع له إسناداً.

والقسم الخامس فهم أصحاب الأغراض الذين يضعون الحديث تقرّباً للسلطان... الخ

وأما القسم السادس، فهم الذين وضعوا أحاديث في ضد الإغراب ليُطلبوا ويسمع منهم...

هذه هي مجمل الأسباب التي يراها ابن الجوزي من دواعي وضع الحديث.

وقد ذهب معظم من تحدث عن مشكلة الوضع والوضّاعين الى ذكر هذه الأسباب للوضع.

أما الزنادقة فلا يخفى خطرهم، إذ أنهم لم يقتصروا على تزييف الحديث النبوي الشريف، بل تعدوه الى تزييف مجمل تراث الإسلام وتاريخه، وقلب الحقائق فيه متبعين في ذلك أساليب في غاية الخبث، ولقد كانوا من الذكاء والفطنة بحيث إنهم نجحوا في إظهار الحق باطلا والباطل حقاً، كما بيناه في الفصول السابقة من الكتاب، وإذا كان خط هؤلاء الزنادقة متماشياً مع الخط الأموي في تزييف التاريخ الاسلامي -كما أثبتنا- فان الخط الأموي الذي سار عليه الاعلام الرسمي للدولة، قد طال الحديث النبوي الشريف أيضاً، فكانت أُولى الأسباب التي أدت الى انتشار الوضع في الحديث، هي السياسة الأموية ذاتها، إذ أن تزييف التراث الإسلامي في جانب واحد لا يمكن أن يحقق الغرض المنشود، فلابد من أن يطال التزييف جميع نواحي هذا التراث حتى يتكامل العمل ويتحقق الهدف، وقد أوردنا في أحد الفصول من هذا الكتاب ما نقله ابن الحديد عن المدائني(٧٥٢) في كتابه الأحداث عن النسخة الموحدة التي بعثها معاوية الى عمّاله بعد عام الجماعة، والتي تضمنت مراحل عديدة من خطة العمل المطلوب اتباعها، وكما يلي : منع رواية شيء من فضائل علي بن أبي طالب وعدم إجازة أحد من شيعته، وعلى العكس من ذلك، تقريب شيعة عثمان وإجازة كل من يروي شيئاً في فضله، وقد مرّ ذلك في الفصل الخامس من هذا الكتاب مع بعض الشواهد التي تؤيده، ونعود الآن الى استكمال القصة، لمعرفة المرحلة الثانية، وهي قول المدائني:

ثم كتب -أي معاوية- الى عمّاله : أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كلّ مصر وفي كل وجه وناحية; فاذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس الى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوّلين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب، إلاّ وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فان هذا أحبّ إليّ وأقرُّ لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشدّ عليهم من مناقب عثمان وفضله.

(٧٥٢) تقدمت ترجمته وقول ابن معين فيه : ثقة ثقة ثقة .

فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى، حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وأُلقي إلى معلّمي الكتاتيب، فعلّموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه، وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتى علّموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله!

ثم كتب إلى عمّاله نسخة واحدة الى جميع البلدان : انظروا من قامت عليه البيّنة أنه يحب علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أُخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم; فنكّلوا به، واهدموا داره، فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيما الكوفة، حتى إن الرجل من شيعة علي(عليه السلام) ليأتيه من يثق به، فيدخل بيته، فيلقي إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليتمكّن عليه; فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر; ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بليّة القرّاء المراؤون، والمستضعفون الذين يُظهرون الخشوع والنُّسُك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقرّبوا مجالسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل; حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديّانين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تديّنوا بها...

قال ابن أبي الحديد : وقد روى ابن عرفة المعروف بنفطويه -وهو من أكابر المحدّثين وأعلامهم[٧٥٣] في تاريخه ما يناسب هذا الخبر وقال : إن أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة اُفتعلت في أيام بني اُمية، تقرّباً إليهم بما يظنون أنهم يُرغمون به اُنوف بني هاشم[٧٥٤].

هذه الوثيقة التاريخية المهمة التي تكشف عن الكثير من غوامض الأُمور، والتي لولا أن ابن أبي الحديد قد أوردها في شرحه لنهج البلاغة لما وصلتنا بسبب فقدان معظم الأُصول التاريخية المهمة للمدائني وابن عرفة، ومنها نستطيع أن نفهم لماذا أخرج المحدّثون روايات سدّ الأبواب غير باب أبي بكر، وحديث الخلّة والمنّة

(٧٥٣) قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء ٥ : ٧٥ : الامام الحافظ النحوي العلاّمة الأخباري، إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العتكي الأزدي الواسطي، ولد سنة ٢٤٤ هـ، صاحب التصانيف، وكان ذا سنيّة ودين، من تصانيفه (تاريخ الخلفاء) .

(٧٥٤) شرح نهج البلاغة ١١ : ٤٤

وروايات صلاة أبي بكر وغيرها في كتبهم مسلّمين بصحتها، حتى تلقتها الأُمة على أنها واقع غير مشكوك فيه، وكيف وقع الفقهاء أيضاً ضحية لها كالمحدّثين.

وقد أوردنا بعض الشواهد -فيما مضى- على صحة ما جاء في كتاب الأحداث للمدائني من انتقاص علي ومدح عثمان في كتب التاريخ المعروفة، وكيف أن الزنادقة قد وجدوا أمامهم أرضاً ممهّدة للحط من مكانة علي وشيعته، ثم جاء دور الوضّاعين في اختلاق الروايات المنسوبة الى النبي(صلى الله عليه وآله)في ذلك، وللأسف فان بعض الصحابة قد اشتركوا في ذلك -دعماً لمعاوية وبني اُمية- وهو الأمر الذي أوقع المحدّثين في هذا الفخ اعتقاداً منهم بعدالة الصحابة جميعاً وتنزههم عن الكذب، كما أن المحدّثين قد وثّقوا بعض التابعين واعتقدوا عدالتهم، ولم يلتفتوا الى علاقة اولئك التابعين بمعاوية وبني اُمية، وأن بعضهم كانوا يقتاتون على موائدهم، أو بدافع الحقد على علي بن أبي طالب لأنه قاتل آباءهم وإخوانهم وربما قتلهم، ولكي نثبت صحة مدّعانا، فإننا سنورد الأمثلة على ذلك.

تزييف المثالب

قلنا إن الحلقة الأُولى للتزييف -وكما ذكر ابن أبي الحديد عن المدائني- كانت تتلخص في الحطّ من مكانة علي بن أبي طالب، بافتعال روايات تنسب الى النبي(صلى الله عليه وآله) على أنها من حديثه تكشف عن مطاعن في علي بن أبي طالب، فقد أخرج المحدّثون عن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله)جهاراً غير سرّ -يقول : «**إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليّي الله وصالح المؤمنين**»(٧٥٥).

وأخرجه البخاري وفيه : «**إن آل أبي -قال عمرو في كتاب محمد بن جعفر بياض- ليسوا بأوليائي ...**» الحديث(٧٥٦).

قال ابن حجر في شرحه :

نقل ابن التين عن الداودي أن المراد بهذا النفي من لم يُسلم منهم، أي فهو من إطلاق الكل وإرادة البعض، والمنفي على هذا المجموع لا الجميع، وقال الخطابي : الولاية المنفيّة ولاية القرب والاختصاص لا ولاية الدين، ورجح ابن التين الأول وهو الراجح، فان من جملة آل أبي طالب: علياً وجعفراً وهما من أخصّ الناس بالنبي(صلى

(٧٥٥) مسند أحمد ٤ : ٢٠٣ .

(٧٥٦) صحيح البخاري ٨ : ٧ كتاب الأسباب تبلّ الرحم ببلالها، صحيح مسلم ١ : ١٣٦ كتاب الايمان : باب موالاة المؤمنين ، مسند أحمد ٤ : ٢٠٣ .

الله عليه وآله) لما لهما من السابقة والقدم في الإسلام ونصر الدين، وقد استشكل بعض الناس صحة هذا الحديث لما نُسب الى بعض رواته من النصب، وهو الانحراف عن علي وآل بيته...

وبعد أن يورد أسماء بعض رواة الحديث، يقول :

لكن الراوي عن بيان وهو عنبسة بن عبدالواحد، أموي قد نُسب الى شيء من النصب، وأما عمرو بن العاص -وإن كان بينه وبين علي ما كان- فحاشاه أن يُتّهم...[٧٥٧]

فنفهم من كلام ابن حجر وما نقل عن غيره، أن آل فلان -الذين تجنب بعض المحدّثين ذكرهم -هم في الحقيقة آل أبي طالب عمّ النبي(صلى الله عليه وآله)، ووالد علي بن أبي طالب، وقد ذكر ابن أبي الحديد أسماءهم في نقله للحديث[٧٥٨].

ومحاولة ابن حجر لتبرئة عمرو بن العاص باتهام غيره من الرواة لا تجدي نفعاً، فان من يعمل أعمال عمرو -كما بيّنا بعضها- لا يتورّع عن غير ذلك، وليس عمرو بن العاص وحده في ذلك، فان سمرة بن جندب -وهو صحابي أيضاً- قد أدّى دوره في ذلك المسلسل. فقد روى ابن أبي الحديد قال: قال أبو جعفر: وقد روي أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة الف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب : (**وَمنَ الناسِ مَنْ يُعجِبكَ قولهُ في الحياةِ الدُّنيا وَيُشهدُ اللهَ عَلى مَا في قلبهِ وَهوَ ألدُّ الخِصامْ * وَإذا تولّى سعى في الأرضِ ليُفسِدَ فيها وَيُهلِكَ الحَرثَ والنَّسلَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الفساد**)[٧٥٩].

وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى : (**وَمنَ النّاسِ مَن يَشري نَفسُه ابتِغاءَ مَرضاتِ اللهِ**)[٧٦٠] فلم يقبل، فبذل له مائتي الف درهم فلم يقبل، فبذل ثلاثمائة الف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة الف فقبل، وروى ذلك[٧٦١].

كما وأخرج المحدّثون عن ابن عمر(رضي الله عنه)، قال : كنا في زمن النبي(صلى الله عليه وآله) لا نعدل بأبي بكر أحداً، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله) لا نفاضل بينهم[٧٦٢].

وهذا الحديث يذكرنا بجملة من الأحاديث المزعومة التي ذكرناها فيما سبق من احتجاج بعض متكلّمي الجمهور بها للدلالة على النص على الخلفاء الثلاثة، وقد

(٧٥٧) فتح الباري ١٠ : ٣٤٥ .
(٧٥٨) شرح نهج البلاغة ١١ : ٤٢ .
(٧٥٩) سورة البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٧٦٠) سورة البقرة : ٢٠٧ .
(٧٦١) شرح نهج البلاغة ٥ : ٧٣ .
(٧٦٢) صحيح البخاري ٥ : ١٨ باب مناقب عثمان .

ذكرنا من بينها الحديث المزعوم حول صعود النبي(صلى الله عليه وآله) جبل اُحد مع الخلفاء الثلاثة وما قاله النبي في ذلك، وقد أخرجه البخاري أيضاً في فضائل عثمان(٧٦٣) ورائحة السياسة الأموية تفوح من هذه الأحاديث التي علّقنا عليها فيما سبق، وقد ردّ ابن عبدالبرّ هذا الحديث رغم صحة اسناده، فقال :

من قال بحديث ابن عمر (وذكر الحديث)، وهو الذي أنكره ابن معين وتكلّم فيه بكلام غليظ، لأن القائل بذلك قد قال بخلاف ما اجتمع عليه أهل السنّة من السلف والخلف من أهل الفقه والأثر: أن علياً أفضل الناس بعد عثمان(رضي الله عنه)، وهذا مما لم يختلفوا فيه، وإنما اختلفوا في تفضيل علي وعثمان، واختلف السلف أيضاً في تفضيل علي وأبي بكر، وفي إجماع الجمع الذي وضعنا، دليل على أن حديث ابن عمر وهم وغلط، وأنه لا يصح معناه وإن كان اسناده صحيحاً...!(٧٦٤)

لكن الحديث دخل في صحيح البخاري! ودخل معه أكثر من ذلك، فعن المسور بن مخرمة قال: إن علياً خطب بنت أبي جهل، فسمعت بذلك فاطمة فأتت رسول الله(صلى الله عليه وآله) فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك! وهذا علي ناكح بنت أبي جهل! فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله) -فسمعته حين تشهد يقول- «**أما بعد، أنكحتُ أبا العاص بن الربيع، فحدّثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد**»! فترك علي الخطبة، وزاد محمد بن عمرو بن طلحة عن ابن شهاب عن علي عن مسور : سمعت النبي(صلى الله عليه وآله) -وذكر صهراً له من بني عبد شمس- فأثنى عليه في مصاهرته إياه فأحسن وقال: «**حدثني فصدقني، ووعدني فوافى لي**»!(٧٦٥).

فبناء على هذا الحديث المزعوم، يكون علي بن أبي طالب قد حدّث النبي فلم يصدقه، ووعده فلم يف بوعده! ولا أدري هل كان علي قد وعد النبي بأن لا يتزوج على ابنته امرأة اُخرى أم لا، وهل كان ذلك من شروط العقد! وعندما نناقش هذا الحديث يتبين لنا ثلمه، فلماذا ينهى النبي(صلى الله عليه وآله) أن يتزوج عليّ ابنة عدو الله أبي جهل -وهي قد أسلمت والإسلام يجب ما قبله، فضلا عن أنها ليست مسؤولة عن عمل أبيها- بينما نجد النبي نفسه يتزوج اُم حبيبة بنت أبي سفيان الذي كان وقتها ألدّ أعداء الله ورسوله، وحامل راية المشركين في كل معركة، فان كان الزواج بابنة عدو الله محرّماً، فقد كان حرياً بالنبي(صلى الله عليه وآله) أن يكون اُسوة في ذلك، وأن

(٧٦٣) المصدر السابق .
(٧٦٤) الاستيعاب ٣ : ١١١٦ .
(٧٦٥) صحيح البخاري ٥ : ٢٨ باب ذكر أصهار النبي(ص)، منهم أبو العاص بن الربيع، صحيح مسلم ٤ : ١٩٠٣ .

يرشد أمته لهذا الأمر، أما إذا كانت دعوى المصححين للحديث بأن النبي(صلى الله عليه وآله) قد قال ذلك غيرة منه على ابنته وإكراماً لمشاعرها، فمنع علياً أن يأتيها بضرّة، فان هذا الاحتجاج أيضاً ليس في محله، لأننا نجد في كتب الحديث والسيرة، أن علياً -عندما بعثه النبي الى اليمن- قد استصفى لنفسه جارية مما أثار حفيظة بعض الصحابة وشكوه الى النبي(صلى الله عليه وآله)، ولكن النبي أقرّ علياً على عمله، وغضب من الذين شكوه لذلك[٧٦٦].

وفضلاً عن هذا وذاك فان هذه مسألة شخصية، ولو صحّ ذلك فقد كان يكفي أن يأتي النبي(صلى الله عليه وآله) الى علي بن أبي طالب في بيته ويعاتبه على نيّته على هذا الزواج بدلاً من أن يصعد المنبر ويشهّر بعلي على رؤوس الأشهاد بشكل يتنافى مع أخلاق النبي المعروفة.

ويبدو أن هذا الحديث قد زيد فيه، لأسباب سوف تتكشف فيما بعد، إذ أن الروايات الأخرى جاءت، أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد قال : «**إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها**»[٧٦٧]، وعن المسور بن مخرمة(رضي الله عنه) أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها اغضبني**»[٧٦٨]. فقصة زواج علي من ابنة أبي جهل هي من الزيادات المقصودة في الحديث، بهدف إظهار أن غضب فاطمة والنبي(صلى الله عليه وآله)كان على علي بن أبي طالب وليس منصباً على أحد غيره، ولقد بلغ الحصار الاعلامي على رواية فضائل علي بن أبي طالب حدّاً جعل الكثير من المسلمين - حتى الذين على قدر من العلم- يكادون يجهلون الكثير عنها، إن لم يكن كلها، فعن مالك بن دينار قال: سألت سعيد بن جبير فقلت: يا أبا عبدالله، من كان حامل راية رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: فنظر إليَّ وقال: كأنك رخيّ البال. فغضبت وشكوته الى إخوانه من القرّاء، فقلت: ألا تعجبون من سعيد، إني سألته من كان حامل راية رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فنظر إليَّ وقال إنك لرخيَّ البال! قالوا: إنك سألته وهو خائف من الحجاج، وقد لاذ بالبيت فسله الآن، فسألته فقال: كان حاملها علي(رضي الله عنه)، هكذا سمعته من عبدالله بن عباس![٧٦٩].

وعن أبي إسحاق، سأل رجل البرّاء -وأنا أسمع- قال: أشهد عليٌّ بدراً؟!

(٧٦٦) سيأتي تمام الخبر في وقته .
(٧٦٧) صحيح مسلم ٤ : ١٩٠٣ .
(٧٦٨) صحيح البخاري ٥ : ٣٦ باب مناقب فاطمة (عليها السلام).
(٧٦٩) المستدرك ٣ : ١٣٧ .

قال : بارزَ وظاهرَ![٧٧٠].

أفليس عجيباً أن يصل الحصار الاعلامي الذي فرضه بنو اُمية على رواية فضائل علي بن أبي طالب، الى الحد الذي يخفى فيه دوره حتى في معركة بدر، مع أنه أول من خرج للمبارزة، وكان لسيفه الدور الحاسم في رجحان كفة المسلمين في ذلك اليوم الفصل!

هذا بعض ما أردنا توضيحه عن الحرب الاعلامية التي شنّها معاوية على علي بن أبي طالب بعد استلامه السلطة مباشرة، وهي الحلقة الأُولى من المخطط الأُموي. هذا وسيأتي المزيد من الشواهد على استمرار ذلك المخطط الى ما بعد عصر الامويين أيضاً.

فأما الحلقة الثانية من المخطط فكانت بوضع فضائل لعثمان بن عفان لا حقيقة لها، وقد نجح معاوية ومن أعانه على ذلك في نشر تلك الفضائل الموهومة حتى انخدع بها المحدّثون وجمهور المسلمين كافة، ولنذكر بعض الشواهد على ذلك.

مناقب عثمان

إن الذي ينظر في المناقب التي افتعلت للخلفاء الثلاثة بأمر معاوية بن أبي سفيان، ليأخذه العجب من شدّة التناقضات التي يجدها فيها، فان هذه المناقب تكاد تطيح بنظرية الجمهور في التفضيل بين الخلفاء على حسب الترتيب المعلوم، فعثمان بن عفان ينفرد أحياناً بمناقب لا يبلغ شأوها أحد حتى الخليفتان اللذان سبقاه، ونجد أحياناً مناقب لعمر بن الخطاب لا يحلم أبو بكر أن يطالها، ومردّ كل ذلك أن خطة معاوية كانت تقتضي في البداية خلق فضائل لعثمان من أجل طمس فضائل علي، فتبارى الوضاعون في خلق تلك الفضائل حتى رفعوا عثمان الى مراتب عالية جداً، مما اضطر معاوية الى كبح جماحهم ودعوتهم الى اختلاق فضائل للصحابة عامة وللشيخين خاصة، فلما بدأوا بذلك تبين أنهم لا يقدرون أن يضاهوا بها مناقب عثمان إلاّ بالمبالغة والغلو في الشيخين ـ مما سوف يتبين لنا ـ ومن المضحك حقاً أن هؤلاء الوضاعين أو بعضهم لم يكن على إطلاع واسع على الحديث النبوي الشريف والسنّة النبوية، فأوقعوا أنفسهم في تناقضات غريبة، فمن ذلك مثلا ما تعارف عليه الجمهور من أن عثمان بن عفان كان يحيي الليل بقراءة القرآن في ركعة واحدة! والأخبار في ذلك مستفيضة يرسلها البعض إرسال المسلّمات، فقد أفرد ابن سعد في ترجمة عثمان

(٧٧٠) صحيح البخاري ٥ : ٩٦ باب غزوة بدر .

فصلا بعنوان (ذكر أنه كان يقرأ القرآن في ركعة)، أورد فيها روايات تنسب الى ابن سيرين وعبدالرحمان بن عثمان، وعطاء بن أبي رياح، وامرأة عثمان نائلة بنت الفرافصة، نذكر منها ما أورده عن إبراهيم بن عبدالرحمان بن عثمان قال : قمتُ خلف المقام وأنا أُريد أن لا يغلبني عليه أحد تلك الليلة، فاذا رجل يغمزني فلم ألتفت، ثم غمزني فنظرت فاذا عثمان بن عفان، فتنحيتُ فتقدّم فقرأ القرآن في ركعة ثم انصرف!

وعن إبن سيرين، قال : قالت امرأة عثمان حين قُتل عثمان : لقد قتلتموه وإنه ليحيي الليل كلّه بالقرآن في ركعة![٧٧١]

لكن السنّة النبوية هي خلاف عمل عثمان، لأن النبي(صلى الله عليه وآله) لم يكن يقرأ القرآن كله في كل ليلة ولا في كل يوم وليلة، وقد أخرج ابن سعد عن عائشة، قالت: كان لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث[٧٧٢].

ولقد استعظم الصحابة أن يقرأ أحدهم ثلث القرآن في الليلة الواحدة فكيف بكله، فعن أبي سعيد الخدري(رضي الله عنه) قال: قال النبي(صلى الله عليه وآله) لأصحابه: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة**»؟ فشق ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟! فقال : «**الله الواحد الصمد، ثلث القرآن**»[٧٧٣].

بل إن النبي(صلى الله عليه وآله) قد نهى عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث ليال، وربما أكثر من ذلك، فعن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**إقرأ القرآن في شهر**»، قلت: إني أجد قوة; حتى قال : «**فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك**»[٧٧٤].

وفي رواية : «**إقرأ القرآن في كل شهر، إقرأه في كل خمس وعشرين، إقرأه في عشرين، إقرأه في خمس عشرة، إقرأه في سبع، لا يفقهه من يقرأه في أقل من ثلاث**»[٧٧٥].

وهكذا يقع الوضاعون بجهلهم في الخطأ القاتل، في حين يريدون أن يختلقوا فضيلة لعثمان تكون مدحاً له، فانهم يختلقون ما يستحق عليه الذم وهم لا يشعرون.

ومن الأُمور التي ذاعت حتى صارت من المسلّمات، هي قضية تجهيز عثمان جيش العسرة، فعن أبي عمرو القرشي(رضي الله عنه)، وقال النبي(صلى الله عليه وآله) : «**من**

(٧٧١) الطبقات الكبرى ٣ : ٥٥ ترجمة عثمان بن عفان .
(٧٧٢) الطبقات ١ : ٢٨٤ باب صفة قراءته (ص) في صلاته وغيرها وحسن صوته (ص).
(٧٧٣) صحيح البخاري ٦ : ٢٣٣ فضل قل هو الله أحد .
(٧٧٤) المصدر السابق ٦ : ٤٢٣ باب : في كم يقرأ القرآن وقال البخاري : قال بعضهم : في ثلاث ، وفي خمس ، وأكثرهم على سبع.
(٧٧٥) مسند أحمد ٢ : ١٦٥ و ١٨٩ ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الألباني المجلد الرابع ص ١٨ ح ١٥١٣ (حكم من يختم القرآن في أقل مما ثلاث) .

يحفر بئر رومة فله الجنة»، فحفرها عثمان، وقال: «من جهّز جيش العسرة فله الجنة»، فجهّزه عثمان[٧٧٦].

من المعلوم أن عثمان بن عفان -حاله كحال المهاجرين- قد خرج من مكة دون متاع، لأن قريشاً ما كانت لتسمح لأحد بالهجرة بأمواله، وكان أقصى اهتمام المهاجرين أن ينجوا بأنفسهم من قريش، فمن أين جاء عثمان بالمال حتى يشتري بئر رومة! وأين كان الأنصار، كسعد بن عبادة صاحب الجفنة الشهيرة ـ كما مرّ- وغيره من الأنصار!

أما الحديث عن تجهيز جيش العسرة، فهو أعجب وأغرب، ولقد تبارى الوضّاعون فيه حتى تضاربت أقوالهم أيما تضارب، فالواحدي يذكر أن عثمان بن عفان قد جهّز بألف بعير بأقتابها وأحلاسها[٧٧٧].

بينما يذكر ابن هشام أن من يثق به قد حدّثه بأن عثمان بن عفان قد أنفق في جيش العسرة ألف دينار[٧٧٨].

وأخرج أبو نعيم بأن عثمان جاء بألف دينار[٧٧٩].

وعند الإمام أحمد : ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها[٧٨٠].

وعند ابن الأثير : قيل كانت ثلاثمائة بعير وألف دينار[٧٨١].

وعند الحلبي : جهّز عشرة آلاف دينار، غير الإبل والخيل وهي تسعمائة بعير ومائة فرس والزاد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية![٧٨٢].

أما الطبري فقال : وأنفق عثمان ابن عفان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم من نفقته![٧٨٣].

وهكذا تجد الوضّاعين يتسابقون لرفع عدد الدنانير، والتي ستزيد من عدد الدنانير التي تجود بها عليهم كف معاوية المعطاء دون شك.

ومن العجب أن سيرة عثمان السابقة لا تشي بهذا الكرم، ففي الوقت الذي كان فيه المسلمون يعانون الضيق في مكة، قبض عثمان يده عن الانفاق عليهم حتى نزلت

(٧٧٦) صحيح البخاري ٥ : ١٦ باب مناقب عثمان بن عفان .
(٧٧٧) أسباب نزول القرآن : ٥٥ .
(٧٧٨) سيرة ابن هشام ٤ : ١٦١ .
(٧٧٩) حلية الأولياء ١ : ٥٩ .
(٧٨٠) مسند أحمد ٥ : ٣٨ .
(٧٨١) الكامل في التاريخ ١ : ٦٣٥
(٧٨٢) السيرة الحلبية ٣ : ١٣٠ .
(٧٨٣) تاريخ الطبري ٣ : ١٠٢ حوادث سنة تسع وبذلك يكون عثمان أمنَّ على النبي في نفقته من أبي بكر!

بحقه آية من الكتاب العزيز، فقد أخرج المفسرون، أن قوله تعالى : (**أفرأيتَ الذي تَولّى * وَأعطى قليلا وَأكدى * أعندَهُ عِلمُ الغيبِ فهوَ يَرى**)[٧٨٤].

قد نزلت في حق عثمان بن عفان الذي كان يتصدّق وينفق في الخير، فقال له أخوه من الرضاعة عبدالله بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع! يوشك أن لا يُبقى لك شيئاً، فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه، فقال له عبدالله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلها! فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة، فأنزل الله تعالى : (**أفرأيتَ الذي تَولّى ... الآية**)، فعاد عثمان الى أحسن ذلك وأجمله[٧٨٥].

وإذا كان عثمان بن عفان سريعاً الى الانفاق حبّاً لله ورسوله، فما باله لم ينفق درهماً من أجل أن يناجي النبي(صلى الله عليه وآله) وهو صهره، وقد زوّجه النبي(صلى الله عليه وآله)اثنين من بناته! وذلك عند نزول قوله تعالى : (**يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إذا ناجَيتُمُ الرَّسولَ فقدِّمُوا بَينَ يَدَيْ نَجواكُم صَدَقَةً ذلكَ خَيرٌ لَكُمْ وأطهرُ فإنْ لَمْ تَجدُوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رَحيمٌ * ءأشفقتُم أنْ تُقدِّموا بَينَ يَدَيْ نَجواكُم صدَقات فإلَمْ تَفعَلُوا وَتابَ اللهُ عَلَيكُمْ فَأقيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ وَأطيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبيرٌ بما تَعمَلُونَ**)[٧٨٦].

قال مقاتل بن حيّان : نزلت الآية في الأغنياء، وذلك أنهم كانوا يأتون النبي(صلى الله عليه وآله)فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره رسول الله(صلى الله عليه وآله)ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، وأمر بالصدقة عند المناجاة، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً، وأما أهل الميسرة فبخلوا! واشتدّ ذلك على أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)، فنزلت الرخصة.

وقال علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي : (**يا أيُّها الذينَ آمَنُوا إذا ناجَيتُم الرَّسولَ**) ، كان لي دينار فبعته بدراهم، وكنت إذا ناجيتُ الرسول تصدّقت بدرهم حتى نفدَ، فنسخت بالآية الأخرى : (**أأشفقتم أن تُقدّموا ...**) الآية[٧٨٧].

مناقب الصحابة

(٧٨٤) سورة النجم : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .
(٧٨٥) أسباب النزول للواحدي : ٢٩٨ ، الكشاف ٣ : ١٤٦ ، تفسير القرطبي ١٧ : ١١١
(٧٨٦) سورة المجادلة : ١٢ ، ١٣
(٧٨٧) أسباب النزول للواحدي : ٤٣٢ ، تفسير الطبري ٢٨ : ١٤ ، الدر المنثور ٦ : ١٨٥ ، الرياض النضرة ٢ : ٢٦٥ ، الكشاف ٦ : ٧٦ .

كانت الحلقة الثالثة من المخطط الأموي الذي رسمه معاوية لتزييف الحديث النبوي الشريف، تتلخص في وضع فضائل لباقي الصحابة وبخاصة الشيخين أبي بكر وعمر -في مقابل فضائل علي بن أبي طالب، لأنها أقرّ لعينه وأدحض لحجة علي وشيعته- كما عبّر بذلك معاوية في كتابه لولاته- والذي كان من نتائجه أن شمّر الوضّاعون عن ساعد الجدّ في اختلاق الأحاديث المقابلة لفضائل علي -وقد مرّ بعضها فيما سبق- وذكرنا كيف أن تلك الفضائل المختلقة قد أوقعت شرّاح الأحاديث في مشكلة الجمع بين هذه الأحاديث المتعارضة، حتى نبّه على ذلك ابن حجر الهيتمي المكي فقال وهو يورد جملة من فضائل علي بن أبي طالب :

ثمّ اعلم أنه سيأتي في فضائل أهل البيت أحاديث مستكثرة من فضائله، فلتكن منك على ذكر، فانه مرَّ في كثير من الأحاديث السابقة في فضائل أبي بكر جُمل من فضائل علي![٧٨٨].

ومن يراجع أبواب الفضائل في كتب الحديث يسهل عليه إيجاد هذه المقارنة.

وقد نجحت وسائل إعلام معاوية في طمس بعض فضائل علي بن أبي طالب وتحويلها الى غيره، كلقب الصدّيق الذي أصبح لا يُذكر إلاّ ويقفز اسم أبي بكر الى الذهن باعتباره لقباً له، درجت الأجيال على حفظ ذلك، وأرسلها الكُتّاب والمؤلفون -قديماً وحديثاً- إرسال المسلّمات التي لا تقبل نقاشاً ولا جدلا، مع أن لقب الصدّيق هو لعلي بن أبي طالب، سمّاه به رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال المحبّ الطبري: ولم يزل اسمه في الجاهلية علياً، وكان يُكنى أبا الحسن، وسمّاه رسول الله(صلى الله عليه وآله) صدِّيقاً. عن أبي ليلى عن النبي(صلى الله عليه وآله) أنه قال : **«الصدّيقون ثلاثة ، حبيب بن مري النجّار ومؤمن آل ياسين ... وحزقيل مؤمن آل فرعون وعلي بن أبي طالب الثالث ، وهو أفضلهم».** خرّجه أحمد في المناقب، وكنّاه رسول الله(صلى الله عليه وآله)بأبي الريحانتين[٧٨٩].

ولأن لفظ الصدّيق أصبح مقروناً باسم أبي بكر، لكثرة ما تردد على الألسن، لذا فإن إطلاق لقب الصدّيق على علي صار يثير حساسية عند المؤلّفين من الجمهور.

قال ابن كثير : قال سويد بن سعيد، ثنا نوح بن قيس بن سليمان بن عبدالله، عن معاذة العدوية قالت: سمعت علي بن أبي طالب على منبر البصرة يقول: أنا الصدّيق

(٧٨٨) الصواعق المحرقة : ١٨٦ .

(٧٨٩) الرياض النضرة ٣ : ١٠٤ ، الجامع الصغير للسيوطي ٢ : ١١٥ ، كنز العمال ١١ : ٦٠١ ، فيض القدير للمناوي ٤ : ٣١٣ .

الأكبر، آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمتُ قبل أن يُسلم. وهذا لا يصح، قاله البخاري(٧٩٠).

وعن عباد بن عبدالله الأسدي، عن علي(رضي الله عنه) قال: إني عبدالله وأخو رسوله، وأنا الصدّيق الأكبر، لا يقولها بعدي إلاّ كاذب، صلّيت قبل الناس بسبع سنين، قبل أن يعبده أحد من هذه الأمّة.

قال الذهبي : حديث باطل... وعباد، قال إبن المديني: ضعيف(٧٩١).

أما إبن تيمية، فمعلوم شدة حساسيته تجاه أية فضيلة لعلي بن أبي طالب خصوصاً إذا كانت تتضارب مع إحدى فضائل الشيخين التي يرسلها إبن تيمية إرسال المسلّمات، لذا فانه يبادر لا إلى تضعيف الحديث لوجود أحد الضعفاء فيه كما هي العادة، بل الى نسف الحديث من أساسه، فقال: وعبّاد يروي عن علي ما يُعلم أنه كذب عليه قطعاً، مثل الحديث الذي هو كذب ظاهر، معلوم بالضرورة أنه كذب...

فابن تيمية ينسف الحديث بدعوى انه كذب بالضرورة، أي أن متنه يناقض ماهو معلوم من إطلاق لقب الصدّيق على أبي بكر، فيصبح إطلاق هذا اللقب على غيره كذباً بالضرورة!

ومثل ذلك في لقب الفاروق الذي صار سمة لعمر بن الخطاب حتى كاد يغلب على إسمه، وحتى صار لا يخطر ببال أحد أن يعتقد بأن ذلك لقب لعلي أيضاً، فعن علي بن إسحاق، عن إسماعيل بن موسى السدّي، عن عمر بن سعيد، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سخيلة، عن أبي ذر وسلمان، قالا: أخذ النبي(صلى الله عليه وآله)بيد علي فقال : (**إن هذا أوّل من آمن بي، وهذا أوّل من يصافحني يوم القيامة، وهذا الصدّيق الأكبر، وهذا فاروق هذه الأمة، يفرّق بين الحق والباطل، وهذا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الظالم**)(٧٩٢).

قال نور الدين الهيتمي : وفيه عمرو بن سعيد المصري وهو ضعيف(٧٩٣).

لكن عمرو بن سعيد المصري وثّقه البعض، «قال الدوري عن ابن معين: مشهور، وقال ابن الجنيد عن ابن معين: شيخ بصري، وقال ابن سعد والنسائي: ثقة، وذكره ابن حبان في الثقات»(٧٩٤).

(٧٩٠) البداية والنهاية ٧ : ٣٣٣ .
(٧٩١) تلخيص الذهبي على المستدرك ٣ : ١١٢ .
(٧٩٢) المعجم الكبير للطبراني ٦ : ٢٦٩ .
(٧٩٣) مجمع الزوائد ٩ : ١٠٢ .
(٧٩٤) تهذيب التهذيب ٨ : ٣٥ .

ومهما يكن من أمر، فان ألقاب علي بن أبي طالب مأثورة عن النبي(صلى الله عليه وآله)أما ألقاب الآخرين فمشكوك في نسبتها إليه، قال ابن كثير -وهو يورد نسب عمر بن الخطاب- الملقب بالفاروق، قيل لقبه بذلك أهل الكتاب![٧٩٥].

وقال الطبري : قال ابن شهاب : بلغنا أن أهل الكتاب كانوا أوّل من قال لعمر: الفاروق، وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم، ولم يبلغنا أن رسول الله(صلى الله عليه وآله)ذكر من ذلك شيئاً![٧٩٦].

وأما تلقيب أبي بكر بالصدّيق، فيروون في سبب ذلك أن كل من عرض عليه النبي(صلى الله عليه وآله) الإسلام تردّد فيه إلاّ أبا بكر، ماعتم أن آمن به وصدّقه، ولكنهم يروون في مقابل ذلك أن النبي نفسه قد تحيّر عندما نزل عليه الوحي وضاق صدره ولم يصدّق نفسه، حتى أنه أراد أن يلقي بنفسه من أعلى الجبل!

والكلام عن فضائل الشيخين قد أصبح كالأساطير لشدة تناقلها بين الناس، «فالقدماء قد أكبروا هذين الشيخين الجليلين إكباراً يوشك أن يكون تقديساً لهما، ثم أرسلوا أنفسهم على سجيتها في مدحهما والثناء عليهما، وإذا كان من الحق أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد كذب الناس عليه، وكان كثير من هذا الكذب مصدره الاكبار والتقديس، فلا غرابة في أن يكون إكبار صاحبيه العظيمين وتقديسهما مصدراً من مصادر الكذب عليهما أيضاً»[٧٩٧].

إلاّ أن الأمر الذي لم يذكره الدكتور طه حسين، هو أن ذلك التقديس للشيخين إنما تولّد بأمر معاوية الذي أمر بافتعال فضائل مختلقة لهما في مقابل فضائل علي بن أبي طالب، لم تكن معروفة حتى بداية عهد معاوية الذي اعترف بذلك في كلامه مع المغيرة بن شعبة من أن أخا تيم هلك وهلك ذكره إلاّ أن يقال أبو بكر، وأن أخا عدي هلك وهلك ذكره ...الخ.

(٧٩٥) البداية والنهاية ٧ : ١٣٣ .

(٧٩٦) تاريخ الطبري ٤ : ١٩٥ حوادث سنة ٢٣ ، والطبقات الكبرى ٣ : ٢٧٠ ، تاريخ عمر :٣٠ .

(٧٩٧) طه حسين ، الخلفاء الراشدون ، المجلد الرابع : ٨ .

الفصل الثاني عشر: حبيب النبي(صلى الله عليه وآله)

حبيب النبيّ (صلى الله عليه وآله)

إن كلامنا حول مناقب الصحابة -ومنهم الشيخان أبو بكر وعمر- ليس من باب الافتراء، ولا هو تحامل عليهم كما قد يتبادر الى الذهن، بل هو من أجل الكشف عن الزيف في تراثنا وما تعرض له الحديث النبوي من تلاعب، وقد يسأل البعض : ما فائدة الكشف عن نواحي التزييف في أحاديث الفضائل، وهل هي على هذه الدرجة من الأهمية! مع العلم أن دأب المحدّثين كان التساهل في روايات الفضائل باعتبار عدم ترتُّب الأحكام عليها؟ لكن الحقيقة فإن لأحاديث الفضائل أهمية كبيرة، وقد ترتبت بعض الأحكام - عليها، كما لاحظنا في مسألة صلاة أبي بكر -وغيرها كثير، فضلا عن أننا نناقش مسألة مهمة ألا وهي مسألة النص على الخلافة، وهذه القضية على درجة عظيمة من الأهمية لأنها كانت ولا تزال مصدر تفريق بين المسلمين، فلابد إذاً من الاستمرار في معالجة هذا الموضوع حتى تتبين الحقيقة كاملة.

فمن الأمور المتسالم عليها بين الجمهور أيضاً هي أن عائشة أم المؤمنين وأباها هما أحب الناس الى النبي(صلى الله عليه وآله)، ولقد ركزت وسائل الإعلام الأموية على هذه النقطة وانساق المحدّثون وراءها، فقد أخرج البخاري عن عمرو بن العاص «أن النبي(صلى الله عليه وآله) بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلتُ: أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، فقلت: من الرجال؟ فقال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر بن الخطاب! فعدّ رجالا»[٧٩٨].

ولست أدري ما الذي يجعل أمير أحد الجيوش على أن يسأل النبي(صلى الله عليه وآله)عن أحب الناس إليه، وما المناسبة لذلك! مع العلم أنه يتهيأ للحرب، والمفترض في هذه الحال أن يسأله عما يفعله والتدابير التي يجيب اتخاذها لتحقيق النصر العسكري! مع أن الرواية عن عمرو بن العاص، وكفى به أمانة.

إنَّ من المعلوم أن كل إنسان سوي معتدل المزاج، لابد وأن يكون أولاده أحبّ الناس إليه، ولا يعقل أن يحب رجل إمرأة أكثر من أولاده، فكيف بالنبي(صلى الله عليه وآله)وهو كما وصفه الله تعالى في محكم كتابه بأنه على خلق عظيم، فهل يعقل أن

(٧٩٨) صحيح البخاري ٥ : ٦ باب مناقب المهاجرين وفضلهم ، و ٥ : ٢٠٩ باب غزوة ذات السلاسل .

يحب النبي إمرأته أكثر من إبنته الوحيدة التي بقيت له من مجموع أولاده الذين اختارهم الله إلى جواره؟ أوليست هذه الرواية المفتعلة تعطي لأعداء الإسلام -وبخاصة المستشرقين- مبرّراً لترديد مقالاتهم عن شهوانية النبي وحبّه للنساء -حاشاه- وأن مسألة تزوجه من عدد من النساء إنما كان بدافع الشهوة الجنسية ليس إلاّ! ورغم ذلك فاننا لا نجد كبير عناء في معرفة الحقيقة، وهي أن هذه الرواية قد وضعت -بأمر معاوية وبتنفيذ عمرو بن العاص- في مقابل الرواية التي تطمئن إليها النفس وتكشف عن حقيقة مشاعر النبي(صلى الله عليه وآله)، والتي تتضمن إعتراف عائشة نفسها بالحقيقة، فعن النعمان بن بشير قال: إستأذن أبو بكر على رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فسمع صوت عائشة عالياً وهي تقول: والله لقد عرفتُ أن علياً وفاطمة أحب إليك مني ومن أبي - مرتين أو ثلاثاً-...(٧٩٩)

فيتضح أن رواية البخاري عن عمرو بن العاص قد وضعت دون شك في مقابل هذه الرواية، كغيرها من الروايات التي أشرنا إليها والتي استهدفت صرف فضائل علي وأهل بيته إلى غيره من الصحابة وبخاصة الخليفتين الاولين، وكما أمر معاوية. ولقد بلغ الأمر بالجمهور الى عدم تصديق أي رواية توحي بأحبّية علي الى النبي(صلى الله عليه وآله)، ومن ذلك ما يثبته موقف الجمهور من حديث الطير، ولا بأس بذكر قصة هذا الحديث كمثال لما نقول.

حديث الطير

وهو من الأحاديث التي أقامت الدنيا وأقعدتها، لسبب بسيط هو مخالفته لعقيدة الجمهور في ترتيب الأفضلية بين الصحابة. وقد جمع الحافظ إبن كثير الروايات التي وردت في هذا الحديث، وسوف أقتطف قسماً من مقالته، فتحت عنوان (حديث الطير) كتب يقول:

وهذا الحديث قد صنّف الناس فيه، وله طرق متعددة، وفي كل منها نظر! ونحن نشير الى شيء من ذلك. قال الترمذي: عن أنس، قال: كان عند النبي(صلى الله عليه وآله)طير، فقال: «**اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير**»، فجاء علي فأكل معه. ثم قال الترمذي: غريب لا نعرفه من حديث السُّدّي إلاّ من هذا الوجه، قال: وقد روي من غير وجه عن أنس، وقد رواه أبو يعلى عن الحسين بن حماد عن شهر بن عبدالملك، عن عيسى بن عمر به.

(٧٩٩) مجمع الزوائد ٩ : ٢٠١ وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

ورواه الحاكم في مستدركه... قال الحاكم: وقد رواه عن أنس أكثر من ثلاثين نفساً! قال شيخنا الحافظ الكبير أبو عبدالله الذهبي: فصلهم بثقة يصح الإسناد إليه. ثم قال الحاكم: وصحت الرواية عن علي وأبي سعيد وسفينة. قال شيخنا أبو عبدالله: لا والله ما صح شيء من ذلك...!

وبعد أن يورد إبن كثير مجموعة كبيرة من روايات الحاكم في نفس الغرض -نقلا عن الذهبي- ويستشهد بقول الذهبي: الجميع بضعة وتسعون نفساً! أقربها غرائب ضعيفة، وأردؤها طرق مختلفة مفتعلة، وغالبها طرق واهية. يخلص إبن كثير الى القول: وقد جمع الناس في هذا الحديث مصنفات مفردة، منهم أبو بكر بن مردويه، والحافظ أبو طاهر محمد بن أحمد بن حمدان، فيما رواه شيخنا أبو عبدالله الذهبي، ورأيت فيه مجلداً قد جمع طرقه وألفاظه لأبي جعفر بن جرير الطبري المفسّر صاحب التأريخ، ثم وقفت على مجلد كبير في ردّه وتضعيفه سنداً ومتناً للقاضي أبي بكر الباقلاني المتكلم، وبالجملة ففي القلب من صحة هذا الحديث نظر، وإن كثرت طرقه والله أعلم(٨٠٠).

أما إبن تيمية فقال : إن حديث الطائر من المكذوبات الموضوعات عند أهل العلم والمعرفة بحقائق النقل(٨٠١).

وقال الشيخ ناصر الدين الألباني -في تعليقه على قول الترمذي (هذا حديث غريب)- قال: أي ضعيف، وهو كما قال.

أما الحافظ إبن حجر العسقلاني، فقال عنه : هو خبر منكر(٨٠٢).

إن المتبادر الى الذهن لأول وهلة -بعد كل ما قيل- هو طرح الحديث جانباً لعدم صلاحيته للاحتجاج به، إلاّ أن أولئك الحفّاظ سرعان ما يتراجعون عن مواقفهم المتصلّبة تلك، ويبدو التردد عليهم في ردّ الحديث، فنجد الذهبي يعود الى القول:

وحديث الطير على ضعفه، فله طرق جمّة، وقد أفردتها في جزء، ولم يثبت، ولا أنا بالمعتقد بطلانه!(٨٠٣).

أما إبن حجر -الذي أنكر الحديث فيما سبق- فيقول في الأجوبة عن أحاديث وقعت في مصابيح السنّة- عن السُّدي وهو أحد رواة هذا الحديث الذي أُنكر بسببه- :

(٨٠٠) البداية والنهاية ٧ : ٣٥٠

(٨٠١) منهاج السنّة النبوية ٧ : ٣٧١ مؤسسة قرطبة ط الأولى ٤٠٦ هـ.

(٨٠٢) لسان الميزان ٣ : ٣٣٦ .

(٨٠٣) سير أعلام النبلاء ١٣ : ٢٣٣ .

السّدي، إسماعيل بن عبدالرحمان، أخرج له مسلم، ووثقه جماعة، منهم: شعبة، وسفيان، ويحيى القطان![٨٠٤].

فالأمر يدور على السدي إذاً، فماذا قال عنه العلماء، ومن الذي طعن عليه؟

قال علي بن القطان : لا بأس به، ما سمعت أحداً يذكره إلاّ بخير، وما تركه أحد.

وقال أبو طالب عن أحمد : ثقة.

وقال إبن عدي : له أحاديث يرويها عن عدة شيوخ، وهو عندي مستقيم الحديث، صدوق لا بأس به.

أما الجوزجاني فقال : هو كذّاب شتّام.

وقال العقيلي : ضعيف، وكان يتناول الشيخين!

وقال حسين بن واقد : سمعت من السدي فأقمت حتى سمعته يتناول أبا بكر وعمر، فلم أعد إليه...[٨٠٥]

فيتبين لنا من ترجمة السدي، أن الغالبية متفقون على تعديله، وتركه البعض، وضعفه آخرون لأنه كان يتناول الشيخين، ولم يتهمه بالكذب غير الجوزجاني، فلماذا؟ ومن هو الجوزجاني؟

قال ابن عدي : سكن دمشق، فكان يحدّث على المنبر... وكان يتحامل على علي(رضي الله عنه).

وقال الدارقطني : كان من الحفاظ الثقات المصنفين، وفيه انحراف عن علي ...[٨٠٦]

فالجوزجاني ناصبي يبغض علي بن أبي طالب، فماذا يتوقع منه إزاء فضيلة لعلي بن أبي طالب، لكن الأمر الغريب أن يوثقه الجماعة ويمتدحوه، ويذكرون نصبه العداوة لعلي ووقوعه فيه دون اكتراث، في حين نجد موقفهم تجاه من يروي شيئاً في مثالب الشيخين شديداً جداً، ومن الأمثلة على ذلك. موقف الذهبي من أحد الحفاظ، وهو ابن خراش، فبعد أن يثبت عدالته وحفظه وبراعته، يقول: خرّج ابن خراش مثالب الشيخين، وكان رافضياً.. (ثم يقول مخاطباً إياه): فأما أنت أيها الحافظ البارع.. فأنت زنديق معاند للحق، فلا رضي الله عنك! مات ابن خراش الى غير رحمة الله... الخ[٨٠٧]

(٨٠٤) مشكاة المصابيح ٢ : ٥٥٣ .
(٨٠٥) تهذيب التهذيب ١ : ٢٧٤ .
(٨٠٦) تذكرة الحفاظ ٢ : ٢٤٩ .
(٨٠٧) المصدر السابق ٢ : ٦٨٥ .

وبعد كل هذا وذاك، فان الحافظ نورالدين الهيثمي قد ذكر حديث الطير برواية سفينة، وقال عنه: رواه البزار والطبراني باختصار، ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير فطر بن خليفة وهو ثقة![٨٠٨].

ومهما يكن من أمر، فان العادة جرت على تحسين أو تصحيح الحديث الضعيف إذا تكاثرت طرقه، وقد حسّن المحدّثون أحاديث ضعيفة لا تبلغ طرقها عُشر طرق حديث الطير، ولكنهم هنا يقفون طويلا، لا لأن طرق الحديث هي المشكلة، بل لأن متنه يخالف عقيدتهم في المفاضلة.

مناقب عمر

إن الذي يراجع ما قيل في فضائل عمر، لابد أن يأخذه العجب حين يرى أن عمر بن الخطاب يتفوق في فضائله على أبي بكر الذي أجمع الجمهور على أفضليته على عمر، وسبب ذلك أن الوضّاعين الذين حثهم معاوية على اختلاق تلك الفضائل لم تكن تجمعهم لجنة تقوم بتنسيق أعمالهم، فكان همُّ الواحد منهم أن يختلق ما تجود به قريحته دون الإلتفات الى الآخرين، بل إنهم كانوا يتسابقون فيها، ولعل أعظم منقبة مفتعلة لعمر، مما أخرجه المحدثون عن أبي هريرة، قال :

قال النبي(صلى الله عليه وآله) : «**لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أُمتي منهم أحد فعمر**»![٨٠٩].

وهذه المنقبة لو صحّت، فإنها خليقة بأن تزري بجميع مناقب أبي بكر! إن أفضل ما يثبت افتعال المناقب لعمر بن الخطاب، هو ما أخرجه البخاري أيضاً عن الزهري، قال: أخبرني حمزة عن أبيه أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال : «**بينا أنا نائم شربت -يعني اللبن- حتى أنظر الى الري يجري في ظفري، أو في أظفاري، ثم ناولت عمر**»، فقالوا: فما أوّلته؟ قال: «**العلم**»[٨١٠].

على أننا حينما نستعرض سيرة عمر بن الخطاب ومدى علمه يتكشف لنا أن عمر بن الخطاب لم يكن أعلم الصحابة كما يفترضه الحديث المزعوم، ولقد اعترف هو نفسه بذلك في أكثر من مناسبة، فعن معدان بن أبي طلحة، أن عمر بن الخطاب خطب يوم جمعة، فذكر نبي الله(صلى الله عليه وآله)، وذكر أبا بكر، ثم قال: إني لا أدع بعدي شيئاً أهم عندي من الكلالة، ما راجعت رسول الله(صلى الله عليه وآله)في شيء ما

(٨٠٨) مجمع الزوائد ٩ : ١٢٦ .
(٨٠٩) صحيح البخاري ٥ : ١٥ باب مناقب عمر .
(٨١٠) المصدر السابق : ص ١٣

راجعته في الكلالة، وما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن باصبعه في صدري وقال : «**يا عمر ، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء**»! وإني إن أعش أقض فيها بقضية يقضي بها من يقرأ القرآن ومن لا يقرأ القرآن[٨١١].

وأخرج عنه المحدثون أيضاً، أنه قال : إنكم تزعمون أنّا لا نعلم أحكام الربا! ولأن أكون أعلمها أحب إلي من أن يكون لي مثل مصر وكورها![٨١٢].

وعن عمر : أنه سأل النبي(صلى الله عليه وآله) كيف قسم الجد؟ قال: «**ما سؤالك عن ذلك يا عمر! إني أظنك تموت قبل أن تعلم ذلك**»، فمات قبل أن يعلم ذلك[٨١٣].

قال ابن كثير : وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب(رضي الله عنه)، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: ثلاث وددت أن أسأل رسول الله(صلى الله عليه وآله)، كان عهد إلينا عهداً ننتهي إليه: الجد، والكلالة، وباب من أبواب الربا[٨١٤].

وعن سعيد بن عبدالرحمان بن أبزى، عن أبيه: أن رجلا أتى عمر فقال: إني أجنبتُ فلم أجد ماءً. فقال: لا تصلِّ! فقال عمّار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سريّة فأجنبنا فلم نجد ماءً، فأما أنت فلم تصلِّ، وأما أنا فتمعكت في التراب وصليت، فقال النبي(صلى الله عليه وآله) : «**إنما كان يكفيك أن تضرب بيديك الأرض ثم تنفخ، ثم تمسح بهما وجهك وكفيّك**»، فقال عمر : اتق الله يا عمّار، قال: إن شئت لم اُحدّث به[٨١٥].

وعن أبي سعيد الخدري : كنّا في مجلس عند اُبي بن كعب، فأتى أبو موسى الأشعري مغضباً حتى وقف، فقال: أنشدكم الله! هل سمع أحد منكم رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول : «**الاستئذان ثلاث مرّات، فإن أذن لك، وإلاّ فارجع**»؟ قال اُبي: وما ذاك؟ قال: استأذنت على عمر بن الخطاب أمس ثلاث مرات، فلم يؤذن لي فرجعت، ثم جئته اليوم فدخلت عليه فأخبرته إني جئت أمس فسلّمت ثلاثاً ثم انصرفت. قال: قد سمعناك ونحن حينئذ على شغل، فلو استأذنت حتى يؤذن لك. قال: استأذنت كما سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال: فوالله لأوجعن ظهرك وبطنك أو لتأتينّ بمن يشهد لك على هذا، فقال اُبي بن كعب: فوالله لا يقوم معك إلاّ أحدثنا سنّاً، قم يا أبا سعيد، فقمت حتى أتيت عمر فقلت: قد سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول هذا!

(٨١١) صحيح مسلم ٣ : ١٢٣٦ ، مسند أحمد ١ : ١٥ ، سنن إبن ماجة ٢ : ٩١٠ .
(٨١٢) مصنف عبد الرزاق ٨ : ٢٦ ، سنن البيهقي ٣ : ٢٣ .
(٨١٣) مجمع الزوائد ٤ : ٢٢٧ وقال : رواه الطبراني في الاوسط ورجاله رجال الصحيح .
(٨١٤) تفسير القرآن العظيم ١ : ٦٠٦
(٨١٥) صحيح مسلم ١ : ٢٨٠ ، صحيح البخاري ١ : ٩٣ وقد أسقط قول عمر : لا تصل ، ولكن أثبتها إبن حجر في فتح الباري ١ : ٣٥٢ وقال : وهذا مذهب مشهور عن عمر .

وفي رواية، فقال عمر: خفي عليّ هذا من أمر رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ألهاني عنه الصفق بالأسواق![٨١٦].

قال النووي في شرحه لهذا الحديث : وأما قوله لا يقوم معه إلاّ أصغر القوم، فمعناه أن هذا الحديث مشهور بيننا، معروف لكبارنا وصغارنا، حتى إن أصغرنا يحفظه، وسمعه من رسول الله(صلى الله عليه وآله)...[٨١٧].

وعن أبي واقد الليثي، قال : سألني عمر بن الخطاب عما قرأ به رسول الله(صلى الله عليه وآله)في يوم العيد؟ فقلت: باقتربت الساعة، و ق والقرآن المجيد[٨١٨].

وقال ابن كثير في تفسير آية (**وَإنْ أردتُم استبدالَ زَوج مَكانَ زَوج وَآتَيتُم إحداهُنَّ قِنطاراً فلا تَأخذُوا مِنهُ شَيَئاً أتأخُذونهُ بُهتاناً وَإثماً مُبيناً**)[٨١٩].

قال الحافظ أبو يعلى : عن مسروق، قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ثم قال: أيها الناس! ما إكثاركم في صداق النساء وقد كان رسول الله(صلى الله عليه وآله)وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك، ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها، فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم. قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم؟ قال: نعم; فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: (**وآتيتُم إحداهنَّ قِنطاراً**)[٨٢٠] ، فقال: اللهم غفراً، كل الناس أفقه من عمر...!

قال ابن كثير : إسناده جيد قوي[٨٢١].

وقد مرّ في فصل سابق كيف أن صعصعة بن صوحان دلّ عمر بن الخطاب على كيفية توزيع المال حين جهل عمر ذلك.

فهذه شواهد قليلة من أصح الروايات حسب المقاييس المتعارف عليها، وفيها اعتراف عمر بأن كل الناس أفقه منه! وهي كلها تثبت أن عمر بن الخطاب لم يكن على تلك الدرجة من الأعلمية، لا بكتاب الله، ولا بسنّة نبيه(صلى الله عليه وآله)، ورغم ذلك

(٨١٦) صحيح مسلم ٣ : ١٦٩٤ ، ١٦٩٦
(٨١٧) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤ : ١٣١ .
(٨١٨) صحيح مسلم ٢ : ٦٠٧ .
(٨١٩) النساء : ٢٠ .
(٨٢٠) النساء : ٢٠ .
(٨٢١) تفسير القرآن العظيم ١ : ٤٧٨ .

تجد الجمهور متشبثاً بتلك الرواية التي وضعتها أجهزة الإعلام الأموية من أجل إخفاء فضيلة لعلي بن أبي طالب، طالما رددتها الألسن.

قال الحاكم : حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا محمد بن عبدالرحيم بالرملة، ثنا أبو الصلت عبدالسلام بن صالح، ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مجاهد، عن إبن عباس(رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب**»، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبو الصلت ثقة مأمون، فإني سمعت أبا العباس محمد بن يعقوب في التاريخ يقول: سمعت العباس بن محمد الدوري يقول: سألت يحيى بن معين، عن أبي الصلت الهروي، فقال: ثقة؟ فقلت: أليس قد حدّث عن أبي معاوية عن الأعمش: أنا مدينة العلم؟

فقال : قد حدّث به محمد بن جعفر الفيدي وهو ثقة مأمون، سمعت أبا نصر أحمد بن سهل الفقيه القباني إمام عصره ببخارى يقول: سمعت صالح بن محمد بن حبيب الحافظ يقول -وسئل عن أبي الصلت الهروي- فقال: دخل يحيى بن معين ونحن معه على أبي الصلت فسلّم عليه، فلما خرج تبعته فقلت له، إنه يروي حديث الأعمش عن مجاهد عن إبن عباس عن النبي(صلى الله عليه وآله): «**أنا مدينة العلم وعلي بابها ...**» فقال: قد روى هذا ذاك الفيدي عن أبي معاوية عن الأعمش كما رواه أبو الصلت...[٨٢٢]

وقال نور الدين الهيثمي : (باب في علمه(رضي الله عنه)): قد تقدم في إسلامه أن النبي(صلى الله عليه وآله)قال لفاطمة : «**أما ترضين أن زوجتك أقدم أُمتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً**». رواه أحمد والطبراني برجال وثقوا[٨٢٣].

وقال ابن كثير : وقد ثبت عن عمر أنه كان يقول: علي أقضانا، وأُبي أقرؤنا للقرآن، وكان عمر يقول: أعوذ بالله من معضلة ولا أبو حسن لها[٨٢٤].

وقال ابن عبد البرّ : عن سعيد بن المسيب، قال: ما كان أحد من الناس يقول: سلوني غير علي بن أبي طالب(رضي الله عنه).

قال : وأخبرنا يحيى بن معين، عن عبدالملك بن سليمان، قال: قلت لعطاء: أكان أحد في أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله) أحد أعلم من علي؟ قال: لا والله ما أعلمه.

وقال عن ابن مسعود : إن أقضى أهل المدينة علي بن أبي طالب، وعن سعيد بن وهب، قال: قال عبدالله (ابن مسعود) : أعلم أهل المدينة بالفرائض علي بن أبي طالب.

(٨٢٢) المستدرك ٣ : ١٢٦ .
(٨٢٣) مجمع الزوائد ٩ : ١١٤ .
(٨٢٤) البداية والنهاية ٧ : ٣٥٩ .

وروى عبدالرحمان بن اُذنية العبدي عن أبيه قال: أتيت عمر بن الخطاب(رضي الله عنه)فسألته: من أين أعتمر؟ فقال: إيت علياً... وذكر الحديث وفيه: وقال عمر: ما أجدلك إلاّ ما قال علي.

وسأل شريح ابن هانئ عائشة اُم المؤمنين(رض) على المسح على الخفين، قالت: إيت علياً فاسأله...

وقال سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص : قلت لعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة: يا عم! لو كان صغو الناس إلى علي! قال: يا ابن أخي، إن علياً(عليه السلام)كان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم، وكان له البسطة في العشيرة، والقدم في الإسلام، والصهر لرسول الله(صلى الله عليه وآله)، والفقه في المسألة، والنجدة في الحرب، والجود في الماعون.

قال معاوية لضرار الصدائي : يا ضرار، صف لي علياً! قال: اعفني يا أمير المؤمنين، قال لتصفنّه، قال: أمّا إذ لابد من وصفه، فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا ويحكم عدلا، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه..

قال ابن عبد البرّ : وكان معاوية يكتب فيما ينزل به ليسأل علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) عن ذلك، فلما بلغه قتله قال: ذهب العلم والفقه بموت إبن أبي طالب...[٨٢٥]

موافقات عمر

من المسلّمات الأُخرى عند الجمهور، قضية موافقات عمر بن الخطاب، وقد أطال القوم فيها وأكثروا -تبعاً لتناقض الروايات- حتى وجد شراح الأحاديث أنفسهم مرة اُخرى أمام معضلة الجمع بين الأحاديث. فعن أنس، قال: قال عمر: وافقت ربي في ثلاث، فقلت: يا رسول الله! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلّى، فنزلت: واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى، وآية الحجاب، قلت: يا رسول الله! لو أمرت نساءك أن يحتجبن فانه يكلمهن البرّ والفاجر، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبي(صلى الله عليه وآله) في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية![٨٢٦].

(٨٢٥) الاستيعاب ٣ : ١١٠٣ ترجمة علي بن أبي طالب .
(٨٢٦) صحيح البخاري ١ : ١١١ .

وعن ابن عمر قال عمر : وافقت ربي في ثلاث : في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر![٨٢٧].

وعن ابن عمر، أن عبدالله بن أبي لما توفي جاء إبنه الى النبي(صلى الله عليه وآله) فقال: يا رسول الله! أعطني قميصك أكفّنه فيه وصلّ عليه واستغفر له، فأعطاه النبي(صلى الله عليه وآله)قميصه فقال: «**آذني أصلي عليه**»، فاذنه، فلما أراد أن يصلي عليه، جذبه عمر(رضي الله عنه)فقال: أليس الله ينهاك أن تصلي على المنافقين! فقال: «**أنا بين خيرتين، قال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم**»، فصلى عليه، فنزلت ولا تصل على أحد منهم مات أبداً[٨٢٨].

قال ابن حجر في شرحه على الحديث الأوّل : قوله وافقت ربي في ثلاث، أي وقائع، والمعنى: وافقني ربي فأنزل القرآن على وفق ما رأيت! لكن لرعاية الأدب أسند الموافقة الى نفسه... وليس في تخصيصه العدد بالثلاث ما ينفي الزيادة عليها، لأنه حصلت له الموافقة في أشياء غير هذه من مشهورها قصة أسارى بدر، وقصة الصلاة على المنافقين، وهما في الصحيح، وصحح الترمذي من حديث ابن عمر، أنه قال: ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر، إلاّ نزل القرآن فيه على نحو ما قال عمر، وهذا دال على كثرة موافقته، وأكثر ما وقفنا منها بالتعيين على خمسة عشر....[٨٢٩]

وقال النووي، في شرحه على الحديث الثاني : هذا من أجلّ مناقب عمر وفضائله(رضي الله عنه) وهو مطابق للحديث قبله، ولهذا عقبه مسلم به[٨٣٠].

وجاء في هذه الرواية : وافقت ربي في ثلاث، وفسرها بهذه الثلاث، وجاء في رواية أخرى في الصحيح : اجتمع نساء رسول الله(صلى الله عليه وآله) في الغيرة، فقلت: عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن. فنزلت الآية بذلك، وجاء في الحديث الذي ذكره مسلم بعد هذا موافقته في منع الصلاة على المنافقين، ونزول الآية بذلك، وجاءت موافقته في تحريم الخمر، فهذه ست، وليس في لفظه ما ينفي زيادة الموافقة والله أعلم[٨٣١].

(٨٢٧) صحيح مسلم ٤ : ١٨٦٥ .
(٨٢٨) صحيح البخاري ٢ : ٩٧ ، صحيح مسلم ٤ : ١٨٦٥ .
(٨٢٩) فتح الباري ١ : ٤٠١ .
(٨٣٠) الحديث الذي قبله في صحيح مسلم ٤ : ١٨٦٤ ، عن عائشة عن النبي (ص) أنه كان يقول : «قد كان يكون في الامم قبلكم محدّثون، فان يكن في أمتي احد، فعمر بن الخطاب منهم» . وقد أخرجه البخاري أيضاً كما مرّ سابقاً.
(٨٣١) شرح صحيح مسلم ١٥ : ١٦٦ .

أما ابن حجر الهيثمي، فذكر لعمر سبع عشرة موافقة[٨٣٢].

وقال السيوطي : قد أوصلها بعضهم الى أكثر من عشرين![٨٣٣].

إن الأمر الذي يغفله دائماً شرّاح الأحاديث والحفّاظ، هو -كما قلنا- أن أُولئك الوضّاعين لم يكونوا مجتمعين في لجنة تنسّق أعمالهم، فكان كل واحد منهم يخرج برواية تخالف الأُخريات، فأوقعوا الشرّاح والعلماء والفقهاء في تلك المعضلات.

إن الدراسة الدقيقة لقضية الموافقات تثبت عدم صحة أي منها، وبما أن استعراضها كلها يستغرق وقتاً كثيراً، فسوف أكتفي بمناقشة واحدة منها، مع ذكر آراء الشرّاح فيها، وهي قضية موافقة عمر للنهي عن الصلاة على عبدالله بن أُبي، حيث يمكن ملاحظة ما يأتي :

١ ـ إن عمر بن الخطاب قال للنبي(صلى الله عليه وآله) : أليس الله قد نهاك أن تصلي على المنافقين! وهذا يفترض أن آية النهي قد نزلت قبل الحادثة، وأن النبي(صلى الله عليه وآله)قد خالف أمر الله في عدم الصلاة عليهم!

٢ ـ قوله : فنزلت ولا تصل على أحد منهم مات أبداً! وهذا يفترض العكس، أي أن الآية قد نزلت بعد نهي عمر للنبي(صلى الله عليه وآله)، وأن الله قد وافق عمراً في رأيه!

إن هذا التناقض قد أوقع شرّاح الحديث في مشكلة حقيقية، ولم يعرفوا كيفية التخلص من هذا الإشكال، فراحوا يبنون آراء تبعث على السخرية، فقد قال ابن حجر: قوله: فقال يا رسول الله! أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه! كذا في هذه الرواية إطلاق النهي عن الصلاة، قد استشكل جداً حتى أقدم بعضهم فقال: هذا وهم من بعض رواته! وعاكسه غيره فزعم أن عمر اطلع على نهي خاص في ذلك! وقال القرطبي: لعل ذلك وقع في خاطر عمر، فيكون من قبيل الإلهام! ويحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين. قلت: الثاني، يعني ما قاله القرطبي أقرب من الأول لأنه لم يتقدم النهي عن الصلاة على المنافقين، بدليل أنه قال في آخر هذا الحديث، قال: فأنزل الله: ولا تصلّ على أحد منهم ...الخ.

وقال أيضاً : واستشكل فهم التخيير من الآية حتى أقدم جماعة من الأكابر على الطعن في صحة هذا الحديث مع كثرة طرقه واتفاق الشيخين وسائر الذين خرجوا الصحيح على تصحيحه... قال ابن المنير: مفهوم الآية زلّت فيه الأقدام، حتى أنكر

(٨٣٢) الصواعق المحرقة : ١٥٤ .
(٨٣٣) تاريخ الخلفاء : ٩٦ .

القاضي أبو بكر صحة الحديث وقال: لا يجوز أن يقبل هذا، ولا يصح أن الرسول قاله...! وقال إمام الحرمين في مختصره: هذا الحديث غير مخرّج في الصحيح! وقال في البرهان: لا يصححه أهل الحديث! وقال الغزالي في المستصفى: الأظهر أن هذا الخبر غير صحيح! وقال الداودي: هذا الحديث غير محفوظ...![٨٣٤]

وخلاصة القول في الحديث، أن أحدهم قد تورّط بوضع حديث (عمر المحدّث)، ولأجل ترسيخه في الأذهان نسج الآخرون روايات الموافقة، كما يدل على ذلك كلام النووي، ولأجل التأكد من عدم صحة الموافقة في قضية الحجاب على سبيل المثال، راجع رواياته في مصادرها وقارن بينها فيما روي عن كل من عروة عن عائشة، وبين ما رواه أنس بن مالك[٨٣٥].

قرين الحق

إن قضية (عمر المحدَّث) تقودنا الى حديث آخر يعتبر متمّماً لهذا الحديث وموضحاً له، وهو قول النبي(صلى الله عليه وآله) -فيما يزعمون- عن ابن عمر **«إنّ الله وضع الحقَّ على لسان عمر وقلبه»**[٨٣٦].

وبدون حاجة الى الإطالة في الكلام، فإننا نقول: إن هذا كله قد وضع في مقابل حديث عن النبي(صلى الله عليه وآله) في هذا الخصوص، وفيه ما يدل على أن الحق مع علي بن أبي طالب، وهو الأمر الذي أثار حفيظة بعضهم، فقال ابن تيمية: حديث أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: **«علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيث دار، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»** من أعظم الكلام كذباً وجهلا، فان هذا الحديث لم يروه أحد عن النبي(صلى الله عليه وآله) لا بإسناد صحيح ولا ضعيف، وهل يكون أكذب ممن يروي عن الصحابة والعلماء أنهم رووا حديثاً، والحديث لا يُعرف عن أحد منهم أصلا، بل هذا من أظهر الكذب، ولو قيل: رواه بعضهم وكان يمكن صحته لكان ممكناً، وهو كذب قطعاً على النبي(صلى الله عليه وآله)، فانه كلام ينزّه عنه رسول الله(صلى الله عليه وآله)[٨٣٧].

الملاحظ أن ابن تيمية لا ينزه النبي(صلى الله عليه وآله) عن الكلام المماثل في عمر بن الخطاب، لكن الأعجب من ذلك هو إدعاء ابن تيمية أن أحداً لم يرو هذا الحديث لا

(٨٣٤) فتح الباري ٨ : ٢٦٩ .

(٨٣٥) راجع : صحيح البخاري ٦ : ١٤٨ ، ٦٦ ، و ١ : ٤٩ ، صحيح مسلم٢:١٠٤٨

(٨٣٦) مجمع الزوائد ٩ : ٦٦ ، المستدرك ٣ : ٨٧ ، سنن إبن ماجة رقم (١٠٨) ، تاريخ الخلفاء للسيوطي : ١١٧، السنن الكبرى للبيهقي ٦: ٢٩٥، سنن أبي داود ٢: ٢، تحفة الاحوذي للمباكفوري ١٠: ١١٦، عون المعبود للعظيم آبادي ٨: ٨٧ .

(٨٣٧) منهاج السنّة النبوية ٢: ١٦٧.

بإسناد صحيح ولا حتى ضعيف! فإن تلميذه إبن كثير الدمشقي هو أول من يناقضه في ذلك، وإن كان يعزف على وتر مشابه لوتره.

إذ يقول : وقد ورد عن أبي سعيد وأم سلمة : **إن الحق مع علي**(رضي الله عنه)، وفي كل منهما نظر والله أعلم(٨٣٨).

فابن كثير يثبت بأن للحديث إسنادين معروفين عن صحابيين، إلاّ أنه يبدي عدم إطمئنانه له، رغم عدم توضيحه لموقع نظره منه، ولا أدري إن كان ابن كثير قد استوفى طرق الحديث ام أنه تغافل عنه، لأن الروايات الصحيحة- التي ليس فيها نظر- قد وردت عن:

١ - أبي ثابت مولى أبي ذر، قال : كنت مع علي(رضي الله عنه) يوم الجمل، فلما رأيت عائشة واقفة دخلني بعض ما يدخل الناس، فكشف الله عني ذلك عند صلاة الظهر، فقاتلت مع أمير المؤمنين، فلما فرغ ذهبت الى المدينة، فأتيت أم سلمة فقلت: إني والله ما جئت أسأل طعاماً ولا شراباً، ولكني مولى لأبي ذر. فقالت: مرحباً. فقصصت عليها قصتي فقالت: أين كنت حين طارت القلوب مطائرها؟ قلت: الى حيث كشف الله ذلك عني عند زوال الشمس.

قالت : أحسنت ، سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول : **«علي مع القرآن والقرآن مع علي ، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»**(٨٣٩).

٢ - عن أبي حيان التيمي، عن أبيه، عن علي(رضي الله عنه) قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): **«رحم الله علياً، اللهم أدر الحق معه حيث دار»**(٨٤٠).

٣ - عن أبي سعيد الخدري، قال : كنا عند بيت النبي(صلى الله عليه وآله) في نفر من المهاجرين والأنصار، فقال : **«ألا أخبركم بخياركم»؟** قالوا: بلى، قال: **«الموفون المطيبون، إن الله يحب الحفي التقي»**، قال: ومرّ علي بن أبي طالب، فقال: **«الحق مع ذا، الحق مع ذا، الحق مع ذا»**(٨٤١).

وقال الفخر الرازي : ومن اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب فقد اهتدى، والدليل عليه قوله(صلى الله عليه وآله) : **«اللهم أدر الحق مع علي حيث دار»**(٨٤٢).

وطالما أن القرآن حق، فكون علي مع القرآن يعني أنه مع الحق حتى يردا على النبي(صلى الله عليه وآله).

(٨٣٨) البداية والنهاية ٧ : ٣٦٠ .
(٨٣٩) المستدرك ٣ : ١٢٤ وصححه ووافقه الذهبي .
(٨٤٠) المصدر السابق وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .
(٨٤١) مجمع الزوائد ٧ : ٢٣٥ وقال : رواه أبو يعلى ورجاله ثقات .
(٨٤٢) التفسير الكبير ١ : ٢٠٥ .

العشرة المبشرة بالجنة

ومن الأحاديث التي بلغت حدّاً من الشهرة والذيوع، حتى لا يكاد مسلم من عامة المسلمين إلاّ ويعرفه ويعرف معظم رجاله، حديث العشرة المبشرة بالجنة، ومن الغريب أن الشيخين لم يخرجاه على عكس ما يعتقد الكثير من غير الباحثين! ويبدو أن شروطهما غير متوفرة فيه، وإلاّ فانهما يبادران الى إخراج فضائل الصحابة من ذوي الأهمية والمكانة العالية، كأمثال هؤلاء العشرة، وهم كما في سنن الترمذي وأبي داود واللفظ للأوّل: عن حميد بن عبدالرحمان بن عوف، عن أبيه قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبدالرحمان بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة**»(٨٤٣).

إننا وبدون مناقشة إسناد الرواية، نستطيع أن نلاحظ عدة اُمور على هذا الحديث، فهو يكاد يكون نصاً على الخلفاء الأربعة على الترتيب، يضاف إليهم بعض الذين ترشحوا فيما بعد للخلافة، فكأن النبي(صلى الله عليه وآله) قد لاحظ كل هذه الاُمور، ثم قال مقالته هذه! ولا أدري لماذا يخص النبي(صلى الله عليه وآله)هؤلاء النفر من أصحابه بالبشارة بالجنة، مع أن مذهب الجمهور هو أن جميع الصحابة هم من أهل الجنة، حتى الذين تلبّسوا بالفتن، فما معنى أن يؤكد النبي أن هؤلاء الصحابة بالذات هم من أهل الجنة!

إننا نستطيع أن نفهم أن يبشر النبي(صلى الله عليه وآله) آل ياسر بالجنة، وهو يراهم يعذَّبون على أيدي طواغيت قريش والنبي لا يستطيع الدفع عنهم، فيصبرهم ببشارتهم بالجنة تثبيتاً لهم على مواقفهم ،وكذلك بشارته لاُم أيمن بأنها من أهل الجنة ترغيباً للزواج منها بعد أن ترملت ولم يبق لها معيل، وغير ذلك من المواقف، أما تخصيص هؤلاء العشرة الذين كانوا مدار الأحداث من بعده بالبشارة بالجنة، فأمر يبعث على الإرتياب.

إن نظرة فاحصة لهذا الحديث تبين لنا أن هؤلاء العشرة كانوا يمثلون قمة الارستقراطية القرشية، التي دارت على يدها كل الأحداث المهمة بعد وفاة النبي(صلى الله عليه وآله)، وأن هؤلاء إنما كانوا أقطاب الرحى في تلك الأحداث الخطيرة، ما يعطي انطباعاً عاماً بأن هذا الحديث إنما وضع لتبرئة هؤلاء ليس إلاّ، ويقيناً أن هؤلاء

(٨٤٣) سنن الترمذي ٥: ٦٤٧ باب مناقب عبدالرحمن بن عوف(رض)، سنن ابن ماجة ١: ١٤٤ فضائل العشرة(رض) .

الصحابة لم يكونوا قد سمعوا بهذا الحديث من فِيّ النبي(صلى الله عليه وآله)، وإلاّ فلماذا كان عمر بن الخطاب يلاحق حذيفة بن اليمان ويستحلفه إن كان اسمه في لائحة المنافقين التي أسرّها النبي لحذيفة أم لا، فهل كان عمر قد سمع الحديث من النبي، إلاّ أنه لم يكتف بكلام النبي إلاّ أن يشهد معه شاهد عدل! ولماذا ردّ أبو بكر وعمر شهادة عثمان بأن النبي(صلى الله عليه وآله) قد وافقه على ردّ الحكم طريد رسول الله، مع العلم أن المبشر بالجنة لا يمكن أن يكون شاهد زور! وكيف نفسّر قول أحد هؤلاء المبشرين بالجنة، وهو سعد بن أبي وقاص الذي قال: ما سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول لحي يمشي أنه في الجنة إلاّ لعبدالله بن سلاّم![٨٤٤].

وكيف نفسّر قول معاذ بن جبل حين حضره الموت، وقيل له: يا أبا عبدالرحمان، أوصنا، قال: أجلسوني، ثم قال: إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما، يقول ثلاث مرات: والتمسوا العلم عن أربعة رهط: عويمر أبي الدرداء، وعند سلمان الفارسي، وعند عبدالله بن مسعود، وعند عبدالله بن سلاّم الذي كان يهودياً ثم أسلم، فاني سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: **«إنه عاشر عشرة في الجنة»!**[٨٤٥].

فعلى هذا ينبغي إزاحة أحد أُولئك العشرة لافساح المكان لعبدالله بن سلاّم حتى يكون العاشر.

(٨٤٤) صحيح مسلم ٤ : ١٩٣ ، صحيح البخاري ٥ : ٤٦ مناقب عبد الله بن سلام .
(٨٤٥) المستدرك ٣ : ٤١٦ وصححه ووافقه الذهبي .

الفصل الثالث عشر: تدوين الحديث

تدوين الحديث

يميل معظم الباحثين في تاريخ تدوين السنّة النبوية الشريفة الى القول بأنها لم تدوّن حتى نهاية القرن الأوّل الهجري، باستثناء بعض الصحف التي كان بعض الصحابة يدوّنون فيها شيئاً من أحاديث النبي(صلى الله عليه وآله); كصحيفة جابر بن عبدالله وصحيفة عبدالله بن عمرو بن العاص التي سميت (الصادقة) وغيرهما.

ويبدو أن المحاولة الأولى لتدوين الحديث قد بدأت في مطلع القرن الثاني الهجري، بإيعاز من الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز ١٠١ هـ، «فقد كتب هذا الخليفة الى قاضيه في المدينة المنورة أبي بكر بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله(صلى الله عليه وآله) أو سنّة فاكتبه، فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، إلاّ أن عمر بن عبدالعزيز توفي قبل أن ينفذ أمره»[٨٤٦].

ويعدّ الزهري أوّل من دوّن الحديث، ويبدو أنه قد فعل ذلك بأمر من الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك، أو عبدالملك نفسه، وفي ذلك يقول الزهري: كنّا نكره الكتاب حتى أكرهنا عليه الأمراء، فرأيت أن لا أمنعه مسلماً[٨٤٧].

وروى الوليد بن مسلم، قال : خرج الزهري من الخضراء، من عند عبدالملك، فجلس عند ذلك العمود فقال: يا أيها الناس، إنا كنا قد منعناكم شيئاً قد بذلناه لهؤلاء، فتعالوا حتى أُحدّثكم. قال: فسمعهم يقولون: قال رسول الله، وقال رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فقال: يا أهل الشام، مالي أرى أحاديثكم ليست لها أزمّة ولا خُطم! قال الوليد: فتمسك أصحابنا بالأسانيد من يومئذ. وروى نحوها من وجه آخر: أنه كان يمنعهم أن يكتبوا عنه، فلما ألزمه هشام بن عبدالملك أن يملي على بنيه، أذن للناس أن يكتبوا[٨٤٨].

وقد بدأت منذ ذلك الحين حملة تدوين الحديث، وأقبل الناس على الحديث النبوي، وكثر المشتغلون به، ولكن بما أن الحديث كان غير مدوّن طيلة أكثر من قرن من الزمان، بل وكان هناك تشديد على منع روايته، الى أن فتح معاوية بن أبي سفيان

(٨٤٦) أكرم ضياء العمري . بحوث في تاريخ السنّة المشرّفة : ٧ .
(٨٤٧) سير أعلام النبلاء ٥ : ٣٣٤ ترجمة الزهري .
(٨٤٨) سير أعلام النبلاء ٥ : ٣٣٤ ، ترجمة الزهري .

الباب للحديث، ولكن للحديث المكذوب على رسول الله(صلى الله عليه وآله)، من أجل ترويج سياسته، فانتشر الحديث الموضوع رواية، وكانت الفجوة الزمنية بين الرواية الشفهية والتدوين خير فرصة للوضّاعين، «فكانت هذه ثغرة نفذ منها أهل الأهواء الى تحقيق أغراضهم»(٨٤٩)، مما جعل البعض يرفضون الركون الى الحديث بسبب ذلك، وبخاصة أصحاب مدرسة الرأي، وعلى رأسها محمد بن النعمان أبو حنيفة الذي أعرض عن معظم الأحاديث المتناقلة بين الناس، لأنه «فحص الأحاديث الموجودة في عصره، وكانت عشرات الآلاف، فلم يصح في نظره منها إلاّ نحو سبعة عشر»(٨٥٠)، وتبعه على ذلك معظم الذين تمسكوا بالقياس، لذا فقد تعرض إمام الأحناف الى حملة تشهير شديدة من قبل أصحاب الحديث الذين كانوا يذمّون القياس وردّ الأحاديث. قال ابن عبدالبرّ: كثير من أهل الحديث استجازوا الطعن على أبي حنيفة لردّه كثيراً من أخبار العدول، لأنه كان يذهب في ذلك الى عرضها على ما أجمع عليه من الأحاديث ومعاني القرآن، فما شذّ عن ذلك ردّه وسمّاه شاذاً، وكان مع ذلك يقول: (الطاعات من الصلاة وغيرها لا تسمى إيماناً)، وكل من قال من أهل السنّة: الإيمان قول وعمل، ينكرون قوله ويبدّعونه بذلك، وكان مع ذلك محسوداً!(٨٥١).

وقال أيضاً : فممن طعن عليه وجرحه : أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، فقال في كتابه (الضعفاء والمتروكين) : أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، قال نعيم بن حماد: حدثنا يحيى بن سعيد ومعاذ بن معاذ، سمعنا سفيان الثوري يقول: استتيب أبو حنيفة من الكفر مرّتين! وقال نعيم عن الفزاري: كنت عند سفيان بن عينية، فجاء نعي أبي حنيفة، فقال: لعنه الله، كان يهدم الإسلام عروة عروة، وما ولد في الإسلام مولود أشرّ منه. هذا ما ذكره البخاري.

وقال ابن عدي : سمعت ابن أبي داود يقول : الوقيعة في أبي حنيفة إجماع من العلماء، لأن إمام البصرة أيوب السختياني، وقد تكلم فيه، وإمام الكوفة الثوري، وقد تكلم فيه، وإمام الحجاز مالك، وقد تكلم فيه، وإمام مصر الليث بن سعد، وقد تكلم فيه، وإمام الشام الأوزاعي، وقد تكلم فيه، وإمام خراسان عبدالعزيز بن مبارك، وقد تكلم فيه، فالوقيعة فيه إجماع من العلماء في جميع الآفاق(٨٥٢).

(٨٤٩) بحوث في تاريخ السنّة المشرفة : ٢٤ .
(٨٥٠) أئمة الفقه التسعة : ٦٨ .
(٨٥١) الإنتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء : ١٤٩ ، جامع بيان العلم ١ : ١٤٨ .
(٨٥٢) الكامل في ضعفاء الرجال ٧ : ٥

وقال الذهبي : قال ابن عدي : عامة ما يرويه غلط وتصحيف وزيادات، وله أحاديث صالحة. وقال النسائي : ليس بالقوي في الحديث، كثير الغلط على قلة روايته. وقال ابن معين : لا يكتب حديثه[٨٥٣].

وقال أبو نعيم الإصفهاني : قال بخلق القرآن، واستتيب من كلامه الرديء غير مرّة، كثير الخطأ والأوهام[٨٥٤]. الى غير ذلك من الأقوال في ذمّه.

ولم يكن أبو حنيفة وأتباعه من أصحاب مدرسة الرأي هم وحدهم في ذلك الموقف من الحديث المتداول بين الناس، إذ أن أتباع المدرسة العقلية كالمعتزلة قد أخذوا جانب الحذر منه أيضاً، وذكروا لذلك أسباباً، كوجود التضاد والتناقض بين الأحاديث مما لا يمكن صدوره عن النبي(صلى الله عليه وآله)، سواء في الأصول - حيث تروي كل فرقة ما يؤيد وجهة نظرها- أو في الفروع أيضاً- كاختلاف روايات العراقيين والحجازيين- وكذلك رواياتهم للأحاديث التي تنافي تنزيه الله سبحانه وتعالى، حيث تصوّره وفق العقائد التي تدعو الى التجسيم والتشبيه والحلول، وكذلك تناقضهم في الجرح والتعديل..[٨٥٥]

وقال ابن قتيبة أيضاً : ولقد أطلق المعتزلة ألسنتهم في أهل الحديث بتجريحهم واتهامهم بالجمود والغفلة وعدم الفطنة، ولقّبوهم بالحشوبة والنابتة والمجبّرة، وربما قالوا: الجبرية، وسموهم: الغثاء والغثر[٨٥٦].

وردّ المحدّثون على خصومهم فسمّوهم : أهل الباطل والكفر والفرقة، ورموهم بالبدعة والهوى والضلالة والغرور[٨٥٧].

السلطة والحديث

استمرت حركة تدوين الحديث في أواخر العصر الأموي، ولم تظهر المدوّنات المبوّبة للأحاديث في تلك الفترة، بل في أوائل عصر الدولة العباسية: حيث نهض بهذه المهمة عدد من العلماء، كابن جريج ١٥٠ هـ ، ومعمّر بن راشد ١٥٤ هـ ، وسفيان الثوري ١٦١ هـ ، وسفيان بن عينية ١٩٨ هـ وغيرهم.

(٨٥٣) ديوان الضعفاء والمتروكين ٢ : ٤٠٤ ، الضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ٣ : ١٦٣ ، الضعفاء والمتروكين للنسائي : ٢٣٣ .

(٨٥٤) كتاب الضعفاء : ١٥٤ .

(٨٥٥) انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة : ٢ .

(٨٥٦) المصدر السابق : ٩٦ .

(٨٥٧) مقدمة كتاب شرف اصحاب الحديث للخطيب البغدادي .

إلاّ أن أهم المدونات التي حظيت بالقبول وذاع صيتها هو موطأ مالك بن أنس، الذي كتبه بإيعاز من الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الذي قال لمالك -كما يروي هو-: لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك ونبثّها في الأمصار، ونعهد إليهم أن لا يخالفوها ولا يقضوا بسواها.

فقلت له : أصلح الله الأمير، إن أهل العراق لا يرضون علمنا، ولا يرون في عملهم رأينا. فقال أبو جعفر; يُحملون عليه، ونضرب عليه هاماتهم بالسيف، ونقطع طيّ ظهورهم بالسياط..(٨٥٨)

انتعشت سوق الحديث، وراجت بضاعة المحدّثين، حتى إذا ما تولى المأمون العباسي - الذي تأثر بآراء المدرسة العقلية- الخلافة، مال الى رأي المعتزلة ونصرهم، وأساء المعتزلة استخدام جاههم عند الخلفاء، فراحوا يفرضون آراءهم بالقوة. ونكّلوا بالمحدّثين الذين رفضواالقول بخلق القرآن، وامتحنوهم، فيما عرف بفتنة خلق القرآن في عهد المعتصم والى أواخر عهد الواثق، حتى إذا ما تولى الخلافة المتوكل، قلب للمعتزلة ظهر المجن، وقرّب أصحاب الحديث، وأمرهم بنشره والتحديث به. «قال نفطويه في تاريخه: وفي سنة أربع وثلاثين (بعد المائتين) أشخص المتوكل الفقهاء والمحدّثين، فكان بينهم مصعب الزبيري، وإسحاق بن أبي إسرائيل، وإبراهيم بن عبدالله الهروي، وأبو بكر وعثمان ابنا أبي شيبة -وكان من الحفاظ- فقسّمت بينهم الجوائز، وأمرهم المتوكل أن يحدّثوا بالأحاديث التي فيها الردّ على المعتزلة والجهمية; فجلس عثمان في مدينة المنصور، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً، وجلس أبو بكر في مسجد الرصافة، وكان أشدّ تقدماً من أخيه، واجتمع عليه نحو من ثلاثين ألفاً»(٨٥٩).

وقال خليفة بن خياط : استخلف المتوكل، فأظهر السنّة، وتكلم بها في مجالسه، وكتب الى الآفاق برفع المحنة، وبسط السنّة، ونصر أهلها(٨٦٠).

وقال الصولي : نهى المتوكل عن الكلام في القرآن، وأشخص الفقهاء والمحدّثين الى سامراء، منهم إبن أبي الشوارب، وأمرهم أن يحدّثوا، وأجزل لهم الصلات.

وذكر الخطيب بأن المتوكل العباسي أمر المحدّثين أن يجلسوا للناس ويحدّثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية، وأن يحدّثوا بالأحاديث في الرؤية(٨٦١).

(٨٥٨) الإمامة والسياسة ٢ : ٢٠٢ .
(٨٥٩) تاريخ الاسلام للذهبي ، وفيات ٢٣٠ - ٢٤٠ : ص ٢٣٠ .
(٨٦٠) سير أعلام النبلاء ١٢ : ٣١ .
(٨٦١) تاريخ بغداد ١٠ : ٦٦ .

ولذلك قال إبراهيم بن محمد التيمي، قاضي البصرة: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر الصدّيق يوم الردة، وعمر بن عبدالعزيز في ردّ مظالم بني اُمية، والمتوكل في محو البدع وإظهار السنّة![٨٦٢].

الموقف من علي

إن انتشار الحديث بمرحلتيه : الرواية الشفهية والتدوين، كانت في الحقيقة من المراحل المعادية لعلي بن أبي طالب بشكل سافر، فرواية الحديث الموضوع قد بدأت على نطاق واسع في عهد معاوية ومن جاء بعده - وقد مرّ فيما سبق نماذج منه- وكان أهم رواة الحديث في هذا العهد من مؤيدي السلطة الأموية ومن المنحرفين عن علي بن أبي طالب، إما طلباً للدنيا ونيل عطاء معاوية وبني اُمية، وإما تهدئة لنائرة الحقد وإطفاء للثأر في صدور الذين قُتل آباؤهم وأقرباؤهم في حربي الجمل وصفّين!

قال أبو جعفر الاسكافي المعتزلي : إن معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي(عليه السلام) تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلا يُرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين: عروة بن الزبير، روى الزهري أن عروة بن الزبير حدّثه قال: حدثتني عائشة قالت: كنت عند رسول الله، إذ أقبل العباس وعلي، فقال: «**ياعائشة، إن هذين يموتان على غير ملّتي**» أو قال: «**ديني**»!.

وروى عبدالرزاق عن معمر، قال: كان عند الزهري حديثان عن عروة عن عائشة في علي(عليه السلام)، فسألته عنهما يوماً، فقال: ما تصنع بهما وبحديثهما، الله أعلم بهما، إني لأتهمهما في بني هاشم!

قال : فأما الحديث الأوّل، فقد ذكرناه، وأما الحديث الثاني، فهو أن عروة زعم أن عائشة حدثته قالت: كنت عند النبي(صلى الله عليه وآله) إذ أقبل العباس وعلي، فقال: «**يا عائشة ، إن سرّك أن تنظري الى رجلين من أهل النار، فانظري الى هذين قد طلعا**». فنظرت، فاذا العباس وعلي بن أبي طالب![٨٦٣].

وقال الاسكافي : وقد تظاهرت الرواية عن عروة بن الزبير، أنه كان يأخذه الزمع (الرعدة) عند ذكر علي(عليه السلام)، فيسبّه، ويضرب باحدى يديه على الأخرى

(٨٦٢) تاريخ الإسلام للذهبي وفيات ٢٤١ - ٢٥٠ ص ١٩٦ .
(٨٦٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ : ٦٣ - ٦٤ .

ويقول: وما يغني أنه لم يخالف الى ما نُهي عنه، وقد أراق من دماء المسلمين ما أراق![٨٦٤].

وقال أيضاً : وعن يحيى بن عروة قال: كان أبي إذا ذكر علياً نال منه، وقال لي مرة: يا بني، والله ما أحجم الناس عنه إلاّ طلباً للدنيا، لقد بعث إليه اُسامة بن زيد: أن ابعث إلي بعطائي، فوالله إنك لتعلم أنك لو كنت في فم أسد لدخلت معك. فكتب إليه : إن هذا المال لمن جاهد عليه، ولكن لي مالا بالمدينة فأصب منه ما شئت!

قال يحيى : فكنت أعجب عن وصفه إياه بما وصفه به، ومن عيبه له وانحرافه عنه[٨٦٥].

فعروة بن الزبير من كبار التابعين، وهو من الأعلام المعروفين، ورواياته تملأكتب الحديث، ولا خلاف بين المحدثين في وثاقته، إلاّ أن الكثير منهم لم يأخذ بنظر الاعتبار العوامل النفسية القاهرة التي قد تدفع بالفرد الى الاختلاق والافتراء على من وترهم، والأحاديث التي ذكرها الزهري، واتهامه لعروة في بني هاشم، واعتراف يحيى بن عروة بانحراف أبيه عن علي، تكفي شهادة على عروة، رغم كل ما يقال في فضله، وستأتي أمثلة اُخرى عن مواقف الرواة من علي، ومواقف العلماء من اُولئك الرواة بما يزيل بعض الغموض عن القضية.

وقد جرت عادة المحدّثين على عدم التعرض للصحابة والتابعين بجرح بعد أن عدّلهم الله ورسوله ـ على حد قولهم- وإنما يشمل التعديل والجرح ما دونهم، إلاّ أنه قد مرّت أخبار عمرو بن العاص، وسمرة بن جندب، والمغيرة بن شعبة، الذي كان يلعن علياً على المنبر بأمر معاوية، وبقي أن نذكر صحابياً آخر كان من المنحرفين عن علي، إذ قال الاسكافي: وروى الأعمش، قال: لما قدم أبو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة، جاء الى مسجد الكوفة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس، جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلعته مراراً، وقال: يا أهل العراق، أتزعمون أني أكذب على الله ورسوله وأحرق نفسي بالنار! والله لقد سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: **«إن لكل نبي حرماً، وإن حرمي بالمدينة ما بين عير الى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»**. وأشهد بالله أن علياً أحدث فيها!.

فلما بلغ معاوية قوله، أجازه وأكرمه وولاّه إمارة المدينة[٨٦٦].

(٨٦٤) المصدر السابق ٤ : ٦٩ .
(٨٦٥) شرح نهج البلاغة ٤ : ١٠٢ .
(٨٦٦) شرح نهج البلاغة ٤ : ٦٣ .

وقال الاسكافي أيضاً : وقد صحّ أن بني اُمية منعوا من إظهار فضائل علي(عليه السلام)، وعاقبوا على ذلك الراوي له، حتى أن الرجل إذا روى عنه حديثاً لا يتعلق بفضله، بل بشرائع الدين، لا يتجاسر على ذكر اسمه، فيقول: عن أبي زينب[٨٦٧].

هكذا كان الموقف من علي بن أبي طالب في فترة انتشار رواية الحديث على عهد معاوية ومن جاء بعده، الى أن جاءت الفترة التي بدأ فيها تدوين الحديث رسمياً بزعامة الزهري في العصر الأموي، ومالك بن أنس في العصر العباسي، وكلاهما منحرف عن علي بن أبي طالب. قال ابن حبان: ولست أحفظ لمالك ولا للزهري فيما رويا من الحديث شيئاً من مناقب علي أصلا[٨٦٨].

وكان مالك يرى مساواة علي بن أبي طالب لسائر الناس![٨٦٩].

ولم يخرج مالك شيئاً عن علي بن أبي طالب في موطئه، ولما سأله هارون الرشيد عن السبب، اعتذر بأنه (لم يكن في بلدي، ولم ألق رجاله)![٨٧٠].

المتوكل العباسي وعلي

أما المرحلة التي أوعز المتوكل بنشر الحديث فيها ـ والتي تعدّ الفترة الذهبية لتدوين الحديث ـ فكانت من أشد الفترات عداءً لعلي بن أبي طالب!

قال ابن الأثير : وكان المتوكل شديد البغض لعلي بن أبي طالب ولأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولى علياً وأهل بيته بأخذ المال والدم، وكان من جملة ندمائه: عبادة المخنث، وكان أصلع، فيشدّ تحت ثيابه مخدّة، ويكشف رأسه ويرقص، والمغنّون يغنّون: قد أقبل الأصلع البطين، خليفة المسلمين، يحكي بذلك علي بن أبي طالب، والمتوكل يشرب ويضحك...! وقيل : إن المتوكل كان يبغض من تقدمه من الخلفاء: المأمون والمعتصم والواثق في محبة علي وأهل بيته، وإنما كان ينادمه ويجالسه جماعة قد اشتهروا بالنصب والبغض لعلي، منهم: علي بن الجهم، الشاعر الشامي، وأبو السمط، من ولد مروان بن أبي حفصة من موالي بني اُمية، وعبدالله بن داود الهاشمي المعروف بابن أترجة[٨٧١].

(٨٦٧) السابق ٤ : ٧٣

(٨٦٨) كتاب المجروحين ١ : ٢٥٨

(٨٦٩) ترتيب المدارك : ترجمة مالك .

(٨٧٠) تنوير الحوالك للسيوطي ١ : ٧ ، شرح الموطأ للزرقاني ١ : ١١

(٨٧١) الكامل في التاريخ ٤ : ٣١٨ .

وعلي بن الجهم هو الشاعر المشهور، قال عنه ابن حجر: كان مشهور النصب، كثير الحط على علي وأهل بيته، وقيل إنه كان يلعن أباه لم سمّاه علياً![٨٧٢].

ولقد جازف بعض المنصفين من الرواة والمحدّثين بأرواحهم حينما رووا في مناقب علي وأهل بيته بحضرة المتوكل ما أثار حفيظته، ففي ترجمة نصر بن علي الجهضمي، أنه لما حدّث بحديث، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) أخذ بيد حسن وحسين، فقال: «**من أحبني وأحب هذين وأباهما وأُمهما، كان في درجتي يوم القيامة**»، أمر المتوكل بضربه ألف سوط، فكلمه فيه جعفر بن عبدالواحد، وجعل يقول له: هذا من أهل السنّة، فلم يزل به حتى تركه![٨٧٣].

وقال المتوكل يوماً ليعقوب بن السكيت : أيّما أحب إليك، أنا وولداي المؤيد والمعتز، أم علي والحسن والحسين؟ فقال: والله إن شعرة من قنبر خادم علي، خير منك ومن ولديك!

فأمر المتوكل الاتراك فداسوا بطنه، فحمل الى بيته ومات![٨٧٤].

وقال الذهبي : وفي سنة ست وثلاثين ومائتين، هدم المتوكل قبر الحسين، فقال البسامي أبياتاً منها:

أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا *** في قتله فتتبعوه رميماً

وكان المتوكل فيه نصب وانحراف، فهدم هذا المكان وما حوله من الدور، وأمر أن يُزرع، ومنع الناس من إتيانه[٨٧٥].

أما أُولئك المحدّثين والفقهاء الذين استدعاهم المتوكل، فكان في مقدمتهم مصعب الزبيري الذي قال عنه ابن الأثير: وكان عالماً فقيهاً، إلاّ أنه كان منحرفاً عن علي(عليه السلام)![٨٧٦].

موقف المحدّثين من الرواة:

إن من يتعقب مواقف أهل الحديث من الرواة، يستطيع أن يلاحظ بكل وضوح، أن المقاييس التي كانوا يتبعونها تكاد تكون متممة لخطة العمل التي بدأها معاوية بن

(٨٧٢) لسان الميزان ٤ : ٢١٠ .
(٨٧٣) تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٨٣ .
(٨٧٤) النجوم الزاهرة لابن تغري ٢ : ٢٠٣ ، سير أعلام النبلاء ١٢ : ١٨ ، تاريخ أبي الفداء ٢ : ٤٠ ، وفيات الأعيان ٦ : ٣٩٧ .
(٨٧٥) سير أعلام النبلاء ١٢ : ٣٥ ، والمنتظم لابن الجوزي ٢ : ٢٣٧ .
(٨٧٦) الكامل في التاريخ ٤ : ٣٢٠ .

أبي سفيان وبنو اُمية عامة، ومن ثم سار على نهجهم بنو العباس في عصر المتوكل وبعده، واستمر هذا النهج الى يومنا هذا!.

لقد بدأ معاوية عهده باستبعاد العراق ـ وبخاصة الكوفة ـ من لعب أي دور في ترويج الحديث النبوي، وأمر بتعقب شيعة علي بن أبي طالب واضطهادهم وردّ شهاداتهم، فكان عدم قبول حديث العراقيين إحدى سمات وثمرات هذا الأمر.

وقد درج الباحثون المعاصرون على ترديد كلمات الأقدمين، والتمسك بموازينهم دون محاولة للتنقيب عن الحقيقة، مما يوقع بعض اُولئك الباحثين في التناقض أحياناً .

يقول أكرم ضياء العمري : لقد أدّت كثرة الوضع للحديث في الكوفة الى إعطاء فكرة سيئة عن العراق، كمركز مهم من مراكز العلم والرواية في العالم الإسلامي آنذاك، فتدهورت سمعة العراقيين العلمية في الأمصار المختلفة، منذ فترة مبكرة، فقالت عائشة(رض): (يا أهل العراق، أهل الشام خير منكم، خرج إليهم نفر من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) كثير فحدّثونا بما نعرف، وخرج اليكم نفر قليل من أصحابه، فحدثتمونا بما نعرف وبما لا نعرف).

وقدم جماعة من أهل العراق الى عبدالله بن عمرو بن العاص بمكة طالبين إليه أن يحدّثهم، فقال لهم: (إن من أهل العراق قوماً يكذبون ويكذبون ويسخرون).

وقال الزهري : (إذا سمعت بالحديث العراقي فاردد به ثم اردد به).

وقد كان من نتيجة ذلك أن ضربت السلطة في دمشق العزلة العلمية عليهم، فلم تستفتهم فيما يستجد من أقضية وأحداث، بل اعتمدت على علماء الشام والمدينة فقط. يقول الأوزاعي: كانت الخلفاء بالشام، فاذا كانت الحادثة سألوا عنها علماء أهل الشام وأهل المدينة، وكانت أحاديث العراق لا تتجاوز جدر بيوتهم، فمتى كان علماء أهل الشام يحملون عن خوارج أهل العراق.

وهذا مالك بن أنس، فقيه المدينة العظيم، لم يرو عن أحد من الكوفيين سوى عبدالله بن إدريس الذي كان على مذهبه، وكان يقول في ذلك: كما لم يرو أولونا عن أوليهم، كذلك لا يروي آخرونا عن آخريهم، وكلام مالك صريح في أن عدم رواية العلماء عن الكوفيين ليست ظاهرة برزت في جيله، بل ان جيله كان يتبع الأقدمين في عدم الأخذ عنهم.![٨٧٧]

لو أننا حللنا مقولة العمري لوجدناها تكشف عن نقاط الإلتقاء بينها وبين سياسة الدولة الأموية بشكل واضح، إضافة الى أن الأشخاص المذكورين بذم العراق وأهل

(٨٧٧) بحوث في تاريخ السنّة المشرفة : ١٩ ـ ٢٣ عن ابن عساكر ١ : ٦٩ ، الطبقات ٤ : ٢٦٧

الكوفة ورفض احاديثهم، هم في الحقيقة الذين كانوا إما في الخندق المقابل لأهل الكوفة في حرب الجمل كعائشة وأهل البصرة، وفي حرب صفين كعبد الله بن عمرو بن العاص، أو ممن يضطغن على علي بن أبي طالب وشيعته عامة، كالزهري ومالك، وقول مالك: لم يرو أولونا عن أوليهم يثبت هذه الحقيقة التي بدأت في عصر مبكر، وبالتحديد منذ إستلام معاوية مقاليد السلطة، أما ان الخلفاء كانت بالشام وكانت تستفتي علماء المدينة والشام، فهذا أمر طبيعي جداً، فهل نتوقع من معاوية أن يستفتي الصحابة من أهل الكوفة الذين كان وقع رماحهم في جيشه في حرب صفين لا يزال ماثلا أمام ناظريه، أم أن خلفاءه كان يمكن أن يستفتوا أهل الكوفة الشاهرين سيوفهم عليهم في كل حين! فمن الطبيعي إذاً أن يستفتوا أهل الشام الذين كانوا صنائعهم، وعلماء أهل المدينة، وفيهم الصحابة الذين تخلفوا عن علي بن أبي طالب ولم ينصروه وأبناؤهم!

ومن المفارقات العجيبة أن يناقض الباحث نفسه بنفسه، فالعمري الذي ينقل عن عائشة إدعاءها بأنه لم يخرج الى الكوفة إلاّ نفر قليل من الصحابة، يعود فيقول: لقد كان نصيب الكوفة من الصحابة كثيراً، إذ هبط فيها ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر، وكان منهم عبدالله بن مسعود احد كبار فقهاء الصحابة ومحدثيهم، وكان الحسن البصري إذا سئل عن أهل البصرة وأهل الكوفة، يبدأ بأهل الكوفة![٨٧٨].

ويقيناً لو أننا راجعنا طبقات ابن سعد وغيره من الكتب، لوجدنا أن الصحابة الذين نزلوا الكوفة كانوا في معظمهم من السابقين والخيار، وعددهم أكبر من عدد الصحابة الذين نزلوا الشام، ولم يتمكن خيارهم الاستقرار في الشام من جرّاء تصرفات معاوية المخالفة لشريعة الإسلام وسنّة النبي(صلى الله عليه وآله)- وقد مرّت بنا مواقف بعضهم- ولم يستقر بها إلاّ صنائع معاوية كالنعمان بن بشير الذي كان عثمانياً وغيره .

مواقف المحدثين من أهل البدع

لقد جرت عادة أهل الحديث الى تقسيم الرواة إلى قسمين هما : أهل السنّة، وأهل البدعة، ولفظة أهل السنّة بمفهومها المعروف اليوم والذي يعني عامة الجمهور، لم يكن هذا هو المقصود منه، بل كان القصد منه تخصيص أصحاب الحديث بهذا اللقب باعتبارهم حفّاظ السنّة النبوية والقيّمون عليها، وعلى هذا الأساس، فقد كان أهل السنّة

(٨٧٨) بحوث في تاريخ السنه المشرفه : ٢٤ عن الطبقات ٦ : ٩ ، الكامل لابن عدي ١ : ٤٥ أ

من أصحاب الحديث، هم بالدرجة الأولى السائرون في ركب السلطتين الأموية والعباسية، ومن ثم كل السلطات التي تشكّلت على أنقاض الدولة العباسية فيما بعد، قال إبن سيرين: ـ ١١٠ هـ : لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سمّوا لنا رجالكم، فينظر الى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر الى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم(٨٧٩).

إلاّ أن هذه القاعدة لم تطبق بهذا الشكل، فان المحدثين أخذوا من حديث أهل البدع، وصححوا منه ما يوافق عقيدتهم، وردّوا ما عدا ذلك، ويتضح ذلك من مقولة الذهبي في ترجمة أبان بن تغلب الكوفي، قال: شيعي جلد، لكنه صدوق، فلنا صدقه وعليه بدعته... فلقائل أن يقول: كيف ساغ توثيق مبتدع، وحدّ الثقة العدالة والاتقان؟ فكيف يكون عدلا من هو صاحب بدعة؟

وجوابه : أن البدعة على ضربين، فبدعة صغرى، كغلو التشيّع، أو كالتشيّع بلا غلو ولا تحرّف، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق، فلو رُدّ حديث هؤلاء، لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بيّنة، ثم بدعة كبرى، كالرفض الكامل والغلو فيه، والحط على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والدعاء الى ذلك، فهذا النوع لا يحتج به ولا كرامة.

وأيضاً فما استحضر الآن في هذا الضرب رجلا صادقاً ولا مأموناً، بل الكذب شعارهم، والتقية والنفاق دثارهم، فكيف يُقبل نقل من هذا حاله؟! حاشا وكلا.

فالشيعي الغالي في زمان السلف وعرفهم، هو من تكلم في عثمان والزبير وطلحة ومعاوية وطائفة ممن حارب علياً(رضي الله عنه)، وتعرّض لسبّهم. والغالي في زماننا وعُرفنا، هو الذي يكفّر هؤلاء السادة، ويتبرأ من الشيخين أيضاً، فهذا ضال معثّر، ولم يكن ابان بن تغلب يعرض للشيخين أصلا، بل قد يعتقد علياً أفضل منهما...(٨٨٠)

إلاّ أن هذا المقياس الذي ادعاه الذهبي لم يكن دقيقاً أيضاً، لأن المحدّثين تركوا الكثير من رواة الشيعة لمقولات اُخرى غير تلك التي ذكرها الذهبي ـ كما سوف يتبيّن من ترجمة جابر الجعفي- كما أن بعض المحدّثين تركوا حديث بعض الشيعة رغم توثيقهم، ففي ترجمة علي بن هاشم البريد، قال الذهبي :

وثقه يحيى بن معين.

وقال أبو داود : ثبت يتشيّع.

(٨٧٩) صحيح مسلم ١ : ١٥ ، الكامل لابن عدي ١ : ٢٣٩ ، المجروحين لابن حبان ٢ : ٢٧ ، المحدّث الفاصل للرامهرمزي ١ : ١٢ ، الكفاية للخطيب .

(٨٨٠) ميزان الاعتدال ١ : ٥

وقال أبو زرعة : صدوق.

وقال النسائي : ليس به بأس.

قلت (الذهبي) : ولغلوه ترك البخاري إخراج حديثه، فانه يتجنب الرافضة كثيراً، كأنه يخاف من تدينهم بالتقية، ولا نراه يتجنب القدرية والخوارج ولا الجهمية، فانهم على بدعهم يلزمون الصدق[٨٨١].

١ ـ الموقف من النواصب :

وهنا تبرز مسألة مهمة، فأهل البدع ليسوا سواء حتى ولو تساووا في الوثاقة، ويتضح ذلك من خلال ما يبديه الحافظ إبن حجر العسقلاني من ملاحظات حول توثيق العلماء لمن يسموهم بأهل البدع فيما ينقل إلينا من ملاحظات في ترجمة لمازة بن زبّار، أبو الوليد الجهضمي، الذي يقول فيه الذهبي :

بصري ، حضر موقعة الجمل، وكان ناصبياً ينال من علي(رضي الله عنه)ويمدح يزيد[٨٨٢].

وروى ابن حجر ، عن مطر بن جمران : كنا عند أبي لبيد، فقيل له: أتحب علياً؟

فقال : أحب علياً وقد قتل من قومي في غداة واحدة ستة آلاف!

وذكره ابن حبان في الثقات .

وقال عباس الدوري عن يحيى بن معين : حدثنا وهب بن جرير عن أبي لبيد، وكان شتاماً. زاد العقيلي، قال وهب : قلت لأبي : من كان يشتم؟ قال: كان يشتم علي بن أبي طالب!

قال ابن حجر معلقاً : وقد كنت أستشكل توثيقهم الناصبي غالباً، وتوهينهم الشيعة مطلقاً، ولا سيما أن علياً ورد في حقه **«لا يحبه إلاّ مؤمن ولا يبغضه إلاّ منافق»...!**

وبعد أن يورد تبريراته لذلك، يعود الى القول :

وأيضاً فأكثر من يوصف بالنصب يكون مشهوراً بصدق اللهجة والتمسك بأُمور الديانة، بخلاف من يوصف بالرفض، فان غالبهم كاذب ولا يتورع في الاخبار، والأصل فيه أن الناصبة اعتقدوا أن علياً(رضي الله عنه) قتل عثمان أو كان أعان عليه، فكان بغضهم له ديانة بزعمهم، ثم انضاف ذلك أن منهم من قُتلت أقاربه في حروب علي![٨٨٣]

(٨٨١) ميزان الاعتدال ٣ : ١٦٠ .

(٨٨٢) ميزان الاعتدال ٣ : ٤١٩ .

(٨٨٣) تهذيب التهذيب ٨ : ٤١٠

وقال الذهبي : بلى ، غالب الشاميين فيهم توقف عن أمير المؤمنين علي(رضي الله عنه)من يوم صفّين[٨٨٤].

في الحقيقة أن عبارة (توقف) هي أخف العبارات التي استخدمها الذهبي في بيان مواقف الشاميين وغيرهم من النواصب في حق علي بن أبي طالب، كما أن البغض الذي قال به ابن حجر، هو الآخر من الوصف الحقيقي لمشاعرهم تجاه علي، ولكن مضافاً إليه السبّ واللعن، وافتراء الأخبار الكاذبة في انتقاص علي بن أبي طالب، ولا نعني رؤوس الحكم الأموي الذين سنّوا سبّ علي على المنابر، ولا المتعاونين معهم من الصحابة كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وغيرهما، بل نقصد المحدّثين والرواة النواصب ومواقفهم الحقيقية المباينة لما يدعيه ابن حجر من وثاقتهم، من خلال استعراض ترجمة أحدهم.

قال الإسكافي :وقد كان من المحدّثين من يبغضه عليه السلام، ويروي فيه الأحاديث المنكرة، منهم حريز بن عثمان، كان يبغضه عليه السلام، ويروي فيه أخباراً مكذوبة![٨٨٥].

وأود أن أفصّل قليلا في أحوال هذا المحدّث الشامي، وأنقل أقوال العلماء فيه، مع إظهار مواقفه الحقيقية، وكما يعترف بها العلماء أنفسهم.

قال الذهبي في ترجمة حريز : كان متقناً ثبتاً، لكنه مبتدع[٨٨٦].

وقال معاذ بن معاذ : حدثنا حريز بن عثمان، ولا أعلم اني رأيت بالشام أحداً أُفضله عليه.

وقال الآجري عن أبي داود : شيوخ حريز كلهم ثقات، قال: وسألت أحمد بن حنبل عنه فقال : ثقة ثقة. وقال أيضاً : ليس بالشام أثبت من حريز، إلاّ أن يكون بحير، وقال أيضاً عن أحمد -وذكر له حريز وأبو بكر بن أبي مريم وصفوان- فقال: ليس فيهم مثل حريز، ليس أثبت منه، ولم يكن يرى القدر.

وقال إبراهيم بن الجنيد عن ابن معين : حريز، وعبدالرحمان بن يزيد بن جابر، وابن أبي مريم، هؤلاء ثقات .

وقال ابن المديني : لم يزل من أدركناه من أصحابنا يوثقونه.

وقال دحيم : حمصي جيد الإسناد صحيح الحديث. وقال أيضاً : ثقة.

(٨٨٤) ميزان الاعتدال ٣ : ٥٥١ ترجمة محمد بن زياد الالهاني .

(٨٨٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ : ٦٩ .

(٨٨٦) ميزان الاعتدال ١ : ٤٧٥ .

وقال المفضل بن غسان : ثبت .

وقال البخاري : قال أبو اليمان : كان حريز يتناول رجلا ثم ترك!

وقال أحمد بن أبي يحيى عن احمد : حريز صحيح الحديث، إلاّ أنه يحمل على علي!

وقال المفضل بن غسان : يقال في حريز مع تثبته انه كان سفيانياً.

وقال العجلي : شامي ثقة ، وكان يحمل على علي.

وقال عمرو بن علي : كان ينتقص علياً وينال منه، وكان حافظاً لحديثه، وقال في موضع آخر : ثبت، شديد التحامل على علي.

وقال الحسن بن خلال : سمعت عمران بن إياس، سمعت حريز بن عثمان يقول: لا أحبه، قتل آبائي ـ يعني علياً ـ.

وعن إسماعيل بن عياش قال : عادلت حريز بن عثمان من مصر الى مكة، فجعل يسب علياً ويلعنه!

وقال غنجار : قيل ليحيى بن صالح : لِمَ لَمْ تكتب عن حريز؟ قال : كيف أكتب عن رجل صلّيت معه الفجر سبع سنين، فكان لا يخرج من المسجد حتى يلعن علياً سبعين مرة!

وقال ابن حبان : كان يلعن علياً بالغداة سبعين مرة، وبالعشي سبعين مرة!

فقيل له في ذلك ، فقال : هو القاطع رؤوس آبائي وأجدادي.

وقال ابن عمار : يتهمونه أنه كان ينتقص علياً ويروون عنه ويحتجون به ولا يتركونه![٨٨٧].

هذه مقاطع من ترجمة حريز بن عثمان الحمصي، وأقوال الأئمة المحدّثين فيه وتوثيقهم إياه. قال ابن حجر: وإنما أخرج له البخاري لقول أبي اليمان: أنه رجع عن النصب.

فالبخاري اعتمد على قول قائل واحد لا شاهد له عليه، فبادر الى إخراج حديث حريز متابعة لمعظم المحدثين الذين سبقوه، وتبعه من لحقه منهم.

ولو أننا تغاضينا عن سب حريز لعلي بن أبي طالب ولعنه وبغضه له، ووافقنا المحدثين على عدم توهينه لذلك السبب ـكما هي عادتهمـ وإنما آخذناه بروايته للحديث فقط، فاننا سوف نعجب من أولئك المحدثين المعدّلين له، فانهم رووا عنه

(٨٨٧) ميزان الإعتدال ١ : ٤٧٥ .

أموراً تكفي إحداها لاسقاطه من الاعتبار وطرح رواياته لإتضاح الكذب فيها لكل ذي عينين.

قال اسماعيل بن عياش : سمعت حريز بن عثمان يقول : هذا الذي يرويه الناس عن النبي(صلى الله عليه وآله) أنه قال لعلي : **«أنت مني بمنزلة هارون من موسى»** حق، ولكن أخطأ السامع. قلت: فما هو؟ فقال: إنما هو **«أنت مني بمنزلة قارون من موسى»!!** قلت: عمن ترويه؟ قال : سمعت الوليد بن عبدالملك يقوله وهو على المنبر!

وقال ابن حجر : وحكى الأزدي في الضعفاء، أن حريز بن عثمان روى : أن النبي(صلى الله عليه وآله) لما أراد أن يركب بغلته، جاء علي بن أبي طالب فحلّ حزام البغلة ليقع النبي(صلى الله عليه وآله)!

قال الأزدي : من كانت هذه حاله لا يُروى عنه.

قال ابن حجر (مدافعاً) : لعله سمع هذه القصة من الوليد!

وقال ابن عدي : قال يحيى بن صالح الوحاظي : أملى عليّ حريز بن عثمان، عن عبدالرحمن بن ميسرة عن النبيّ(صلى الله عليه وآله) حديثاً في تنقيص عليّ بن أبي طالب لا يصلح ذكره، حديث منكر جداً لا يروي مثله من يتقي الله. قال الوحاظي: فلما حدثني بذلك، قمت عنه وتركته[٨٨٨].

أما الحديث المنكر الذي لم يذكره ابن حجر في ترجمة حريز، فقد أوضحه ابن أبي الحديد نقلا عن الإسكافي، قال: قال محفوظ: قلت ليحيى بن صالح الوحاظي: قد رويت عن مشايخ من نظراء حريز، فما بالك لم تحمل عن حريز؟ قال: إني أتيته فناولني كتاباً، فاذا فيه: حدثني فلان عن فلان، أن النبي(صلى الله عليه وآله) لما حضرته الوفاة، أوصى أن تُقطع يد علي بن أبي طالب! فرددت الكتاب، ولم استحل أن أكتب عنه شيئاً[٨٨٩].

هكذا فلتكن الوثاقة والأمانة والحرص على حديث النبي(صلى الله عليه وآله)، والأعجب من كل ذلك أنهم يدعون أن أحاديث حريز صحيحة الإسناد وشيوخه كلهم ثقات!

فهل هذه المرويات التي افتراها هي أيضاً من أحاديثه الصحيحة الأسناد، وهل نقلها عن شيوخ ثقات، وهل ما بين شيوخه الثقات الوليد بن عبدالملك، وهل عُرف الوليد بأنه من المحدثين الأجلاء الأمناء على سنّة النبي وسيرته، وهل إن اعتذار ابن

(٨٨٨) تهذيب التهذيب ٢ : ٢٠٧

(٨٨٩) شرح نهج البلاغة ٤ : ٧٠

حجر لحريز بأنه ربما يكون سمع هذه الأحاديث المفتراة من الوليد في محله، وبماذا يعتذر البخاري والأئمة الأربعة الذين رووا عنه في كتبهم التي سميت بالصحاح؟!

أوليس من حق المقدسي أن يقول : وأما أربعة لقب بها أهل الحديث :

فالحشوية ، والشكّاك ، والنواصب ، والمجبّرة[٨٩٠].

ومن الأمثلة الأخرى التي تثبت أن نهج المحدثين في التوثيق للنواصب إنما كان امتداداً لمواقف الأمويين والعباسيين، ما نجده في تراجم بعض الرواة، وأقول بعض العلماء فيهم، منهم :

خالد بن سلمة بن العاص المخزومي، المعروف بالفأفاء : روى له البخاري ومسلم والأربعة: عن جرير، قال : كان مرجئاً يبغض علياً.

وذكر ابن عائشة أنه كان ينشد بني مروان الأشعار التي هجا بها المصطفى(صلى الله عليه وآله)!

قال أحمد وابن معين وابن المديني : ثقة ، وكذا قال ابن عمار ويعقوب ابن شيبة والنسائي.

وقال أبو حاتم : شيخ يكتب حديثه.

وقال ابن عدي : هو في عداد من يجمع حديثه، ولا أرى بروايته بأساً.

قال ابن سعد : أُخذ مع ابن هبيرة، فيقولون: إن أبا جعفر قطع لسانه ثم قتله سنة ١٣٢ هـ .

ذكره علي بن المديني يوماً فقال : قُتل مظلوماً![٨٩١].

فعلي بن المديني يبدي أسفه على قتل هذا الزنديق الذي كان يهجو النبي(صلى الله عليه وآله)بحضرة بني مروان، بينما يوثقه الآخرون ويكتبون حديثه.

وفي ترجمة شبابة بن سوّار المدائني، الذي روى له الستّة، قال فيه الذهبي: صدوق مكثر، صاحب حديث، فيه بدعة.

قال ابن حجر : قال أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي الثلج : حدثني أبو علي بن سختي المدائني، حدثني رجل معروف من أهل المدائن. قال: رأيت في المنام رجلا نظيف الثوب حسن الهيئة، فقال لي: من أين أنت؟ قلت: من أهل المدائن. قال: من أهل الجانب الذي فيه شبابة؟ قلت: نعم. قال: فاني أدعو الله فأمّن على دعائي: اللهم إن كان شبابة يبغض أهل بيت نبيّك، فاضربه الساعة بفالج. قال: فانتبهت وجئت المدائن

(٨٩٠) أحسن التقاسيم : ١٣٨

(٨٩١) تهذيب التهذيب ٣ : ٨٣ ، ميزان الاعتدال ١ : ٦٣١ .

وقت الظهر، وإذا الناس في هرج، فقلت: ما للناس؟ فقالوا: فلج شبابة في السحر ومات الساعة[٨٩٢].

قال الذهبي : وشبابة يحتج به في كتب الإسلام، ثقة![٨٩٣].

وفي ترجمة عبدالله بن سالم الأشعري الحمصي، الذي روى له البخاري وأبو داود والنسائي.

قال يحيى بن حسان : ما رأيت بالشام مثله.

وقال عبدالله بن يوسف : ما رأيت أحداً أنبل في مروته وعقله منه.

وقال النسائي : ليس به بأس.

وذكره ابن حبان في الثقات.

قال ابن حجر : ووثقه الدارقطني.

قال الآجري عن أبي داود : كان يقول : أعان علي على قتل أبي بكر وعمر![٨٩٤].

فهذا الناصبي يدعي أن علياً قد أعان على قتل أبي بكر وعمر، ولا يشك أحد في كذب ذلك ومع ذلك فهم يوثقونه ولا يكذبونه!

أما الشاعر علي بن الجهم الذي كان من ندماء المتوكل والذي كان يلعن أباه لأنه سماه علياً، فقد قال ابن كثير في ترجمته: أحد الشعراء المشهورين، وأهل الديانة المعتبرين. وله ديوان شعر فيه أشعار حسنة، وكان فيه تحامل على علي بن أبي طالب[٨٩٥](رضي الله عنه).

ومتابعة أخبار الرواة النواصب يستغرق الكثير، إلاّ أننا أردنا فقط أن نذكر بعض الشواهد التي تظهر حقيقة مواقف أهل الحديث من الرواة، ومدى عدم دقة مقاييسهم، ويتضح ذلك أيضاً من مواقفهم من الرواة الشيعة .

٢ ـ الموقف من الشيعة

بعد أن ذكرنا بعض مواقف المحدّثين من النواصب، وأثبتنا عدم صحة ادعاء ابن حجر في وثاقتهم، نعود الى مناقشة الشق الثاني من مقولة ابن حجر، وهو توهين المحدثين للشيعة مطلقاً واتهامهم بالكذب، لمعرفة الأسباب التي تدفع المحدثين الى

(٨٩٢) تهذيب التهذيب ٤ : ٢٦٤ .
(٨٩٣) ميزان الاعتدال ٢ : ٢٦٠ .
(٨٩٤) ميزان الاعتدال ٢ : ٤٢٦ ، تهذيب التهذيب ٥ : ٢٠٠ .
(٨٩٥) البداية والنهاية ١١ : ٨ حوادث ٢٤٩

اتهام الشيعة بالكذب، وذلك من خلال تراجم بعض الرواة المنسوبين الى التشيع، ومنهم :

١ ـ الحارث بن عبد الله الهمداني ، الأعور :

قال الذهبي : من كبار علماء التابعين، على ضعف فيه.

قال أبو بكر بن أبي داود : كان الحارث الأعور أفقه الناس، وأفرض الناس، وأحسب الناس، تعلّم الفرائض من علي.

وقال مُرّة بن خالد : أنبأنا محمد بن سيرين، قال : كان من أصحاب ابن مسعود خمسة يؤخذ عنهم، أدركت منهم أربعة، وفاتني الحارث فلم أره، وكان يفضّل عليهم، وكان أحسنهم...

وقال الذهبي : وحديث الحارث في السنن الأربعة، والنسائي مع تعنّته في الرجال فقد احتج به وقوّى أمره، والجمهور على توهين أمره مع روايتهم لحديثه في الأبواب، فهذا الشعبي يكذبه ثم يروي عنه، والظاهر أنه كان يكذب في لهجته وحكاياته، وأما في الحديث النبوي فلا، وكان من أوعية العلم!

قال ابن المديني : كذاب .

وقال جرير بن عبدالحميد : كان زيفاً .

وقال الدارقطني : ضعيف .

وقال ابن عدي : عامة ما يرويه غير محفوظ.

وقال عثمان الدارمي : سألت يحيى بن معين عن الحارث الأعور، فقال: ثقة!

قال عثمان : ليس يتابع يحيى على هذا![٨٩٦].

قال ابن حجر : وقال ابن عبد البر في كتاب العلم له ـ لما حكى عن إبراهيم أنه كذّب الحارث-: أظن أن الشعبي عوقب لقوله في الحارث كذاب، ولم يبن من الحارث كذبه، وإنما نُقم عليه إفراطه في حب علي!![٨٩٧].

فهذه المقولات في ذمه وتوهينه سببها محبته لعلي بن أبي طالب ولا شيء غيرها.

٢ ـ ناصح بن عبد الله :

قال الذهبي : ضعفه النسائي وغيره .

وقال البخاري : منكر الحديث .

(٨٩٦) ميزان الاعتدال ١ : ٤٣٥

(٨٩٧) تهذيب التهذيب ٢ : ١٢٦ .

وقال الفلاّس : متروك .

وقال ابن معين : ليس بشيء ، وقال مرّة : ليس بثقة .

قلت (الذهبي) : وكان من العابدين، ذكره الحسن بن صالح فقال: رجل صالح، نعم الرجل!

(روى) عن جابر، قالوا : يا رسول الله، من يحمل رايتك يوم القيامة؟ قال: «**من عسى أن يحملها إلاّ من حملها في الدنيا**». يعني علياً.

وعن سلمان ، قال : قلت : يا رسول الله، لكل نبي وصي، فمن وصيّك؟ فسكت عني، فلما كان بعد قال : «**يا سلمان، إن وصيّي، وموضع سرّي، وخير من أترك بعدي، ينجز موعدي، ويقضي ديني: علي بن أبي طالب**».

قال الذهبي : هذا خبر منكر!

وروى له ابن عدي أحاديث عن سماك، عن جابر بن سمرة، منها قال: قالوا: يا رسول الله(صلى الله عليه وآله)، من يحمل رايتك ... الخ

و «**علي بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنه لا نبي بعدي**».

وقال (صلى الله عليه وآله) : «**تقتل عماراً الفئة الباغية** ».

وقال رسول الله(صلى الله عليه وآله) لعلي : «**إنك مستخلف، وإنك مقتول، وإن هذه مخضوبة من هذا**» يعني لحيته من رأسه[٨٩٨].

ثم قال : وهو في جملة متشيعي الكوفة، وهو ممن يكتب حديثه[٨٩٩].

٣ ـ سالم بن أبي حفصة العجلي الكوفي :

قال الفلاّس : ضعيف ، مفرط في التشيّع.

وأما ابن معين فوثقه .

وقال النسائي : ليس بثقة .

وقال ابن عدي : عيب عليه الغلو، وأرجو أنه لا بأس به.

وقال محمد بن بشر العبدي : رأيت سالم بن أبي حفصة ذا لحية طويلة أحمِقْ بها من لحية، وهو يقول: وددت أني كنت شريك علي(عليه السلام) في كل ما كان فيه.

قال ابن عينية : قال عمر بن ذر لسالم بن أبي حفصة : أنت قتلت عثمان؟! فخرج لذلك وقال: أنا؟! قال: نعم، أنت ترضى بقتله.

(٨٩٨) الكامل ٨ : ٣٠٢ .

(٨٩٩) ميزان الاعتدال ٤ : ٢٤٠ ، تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٥٨ .

وقال حسين بن علي الجعفي : رأيت سالم بن أبي حفصة، طويل اللحية أحمق، وهو يقول: لبّيك قاتل نعثل، لبّيك مُهلك بني اُمية.

قال الذهبي : وكان من رؤوس من ينتقص أبا بكر وعمر...[٩٠٠]

لقد مرّ بنا فيما سبق أن الذهبي جعل انتقاص أبي بكر وعمر من علامات الرفض، وأن ذلك من أسباب ردّ حديث الراوي، ولكن الوقيعة في علي بن أبي طالب يبدو غير كاف لردّ رواية الراوي واتهامه بالنصب، بل لعل ذلك شيء مرغوب فيه، كما تبين من تراجم النواصب.

٤ ـ ثعلبة بن يزيد الحماني :

صاحب شرطة علي ، شيعي غال .

قال البخاري : في حديثه نظر .

روى قال النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي : **«إن الأمة ستغدر بك».**

وقال النسائي : ثقة .

وقال ابن عدي : لم أر له حديثاً منكراً![٩٠١].

فهذا الرجل لمجرد أنه روى ما ليس مستحباً عند الجمهور صار شيعياً غالياً، وردّ البخاري حديثه.

٥ ـ جابر بن يزيد الجعفي ، أبو عبد الله :

قال أبو نعيم عن الثوري : إذا قال جابر : حدثنا وأخبرنا، فذاك.

وقال ابن مهدي عن سفيان : ما رأيت أورع في الحديث منه.

وقال ابن علية عن شعبة : جابر صدوق في الحديث .

وقال يحيى بن أبي بكير عن شعبة : كان جابر إذا قال : حدثنا، وسمعت، أو سألت، فهو من أصدق الناس.

وقال وكيع : مهما شككتم في شيء، فلا تشكوا في أن جابراً ثقة.

وقال ابن عبد الحكم : سمعت الشافعي يقول : قال سفيان الثوري لشعبة : لئن تكلمت في جابر الجعفي لأتكلمنّ فيك.

وقال معلى بن منصور : قال لي أبو عوانة : كان سفيان وشعبة ينهياني عن جابر الجعفي، وكنت أدخل عليه فأقول : من كان عندك؟ فيقول: شعبة وسفيان!

وقال وكيع : قيل لشعبة : لِمَ طرحت فلاناً وفلاناً، ورويت عن جابر؟

(٩٠٠) ميزان الاعتدال ٢ : ١١٠ تهذيب التهذيب ٣ : ٣٧٤

(٩٠١) ميزان الاعتدال ١ : ٣٧١ تهذيب التهذيب ٢ : ٢٣ .

قال : لأنه جاء بأحاديث لم نصبر عليها.

قال الدوري عن ابن معين : لم يدع جابراً ممن رآه إلاّ زائدة، وكان جابر كذاباً!

وقال جرير بن عبد الحميد ، عن ثعلبة : أردت جابراً الجعفي، فقال لي ليث بن أبي سليم: لا تأته فهو كذاب. قال جرير : لا أستحل أن أروي عنه، كان يؤمن بالرجعة!

قال سفيان : كان يؤمن بالرجعة .

قال الحاكم : وعامة ما قذفوه به أنه كان يؤمن بالرجعة!

وقال ابن حبان : كان سبئياً من أصحاب عبدالله بن سبأ، كان يقول: إن علياً يرجع إلى الدنيا!

وقال الجوزجاني : كذاب .

وقال الحميدي : سمعت رجلا يسأل سفيان : أرأيت يا أبا محمد الذين عابوا على جابر الجعفي، قوله: حدثني وصيّ الأوصياء! فقال سفيان: هذا أهونه.

وذكر شهاب أنه سمع ابن عينية يقول: تركت جابراً الجعفي وما سمعت منه، قال: دعا رسول الله(صلى الله عليه وآله) علياً فعلّمه مما تعلّم، ثم دعا علي الحسن فعلّمه مما تعلم، ثم دعا الحسن الحسين فعلّمه مما تعلّم، ثم دعا ولده... حتى بلغ جعفر ابن محمد. قال سفيان : فتركته لذلك(٩٠٢).

وعن محمد بن عمرو الرازي ، قال : سمعت جريراً يقول: لقيت جابر بن يزيد الجعفي فلم أكتب عنه، كان يؤمن بالرجعة.

وقال سفيان : كان الناس يحملون عن جابر قبل أن يظهر ما أظهر، فلما أظهر ما أظهر، اتهمه الناس في حديثه، وتركه الناس. فقيل له: وما أظهر؟ قال: الإيمان بالرجعة(٩٠٣).

فبعد أن أثبت المحدّثون لجابر الجعفي صدقه وأمانته في الحديث، عادوا فكالوا له التهم بالكذب، بعد أن أظهر القول بالرجعة، ونُسب الى السبئية، أتباع ابن سبأ الذي أظهر القول بالرجعة، كما تدّعي روايات سيف بن عمر في الطبري، ولكن مهلا فليس جابراً وحده الذي كان يقول بالرجعة، بل إن هناك صحابياً أيضاً كان يقول بها، وهو أبو الطفيل، عامر بن واثلة(٩٠٤).

٦ ـ عمارة بن جوين ، أبو هارون العبدي البصري :

(٩٠٢) تهذيب التهذيب ٢ : ٤١ ، ميزان الاعتدال ١ : ٣٧٩

(٩٠٣) مقدمة صحيح مسلم ١ : ٢٠ .

(٩٠٤) المعارف لابن قتيبة: ١٣٢ .

قال ابن عبد البرّ : أجمعوا على أنه ضعيف الحديث، وقد تحامل بعضهم فنسبه الى الكذب، روى ذلك عن حماد بن زيد، وكان فيه تشيع، وأهل البصرة يفرطون فيمن يتشيع بين أظهرهم لأنهم عثمانيون.

قال ابن حجر (معلقاً) : كيف لا ينسبونه الى الكذب وقد روى ابن عدي في الكامل عن الحسن بن سفيان عن عبد العزيز بن سلام، عن علي بن مهران، عن بهز بن أسد، قال: أتيت الى أبي هارون العبدي فقلت: أخرج إلي ما سمعت من أبي سعيد، فأخرج لي كتاباً فاذا فيه: حدثنا أبو سعيد أن عثمان اُدخل حفرته وأنه لكافر بالله. قال: قلت تقرّ بهذا؟ قال: هو كما ترى. قال: فدفعت الكتاب في يده وقمت، فهذا كذب ظاهر على أبي سعيد.

قال ابن معين : كانت عند أبي هارون صحيفة، يقول: هذه صحيفة الوصي(٩٠٥).

فالتهمة الموجّهة الى أبي هارون أنه يروي الكذب عن أبي سعيد بسبب مقالته في عثمان، ولكننا عندما نستعرض مواقف الصحابة من عثمان، لا نستبعد أن يصدر مثل هذا القول عن أحدهم، فقد قال الزبير بن عوام: إن عثمان لجيفة على الصراط غداً - كما مر بنا سابقاً -.

وقد روي من طرق مختلفة وبأسانيد كثيرة، أن عماراً كان يقول: ثلاثة يشهدون على عثمان بالكفر، وأنا الرابع، وأنا شرّ الأربعة. (**مَنْ لَمْ يحكُم بما أنزَلَ اللهُ فأُولئكَ هُمْ الكافِرونَ**)(٩٠٦)، وأنا أشهد أنه قد حكم بغير ما أنزل الله.

وروي عن زيد بن أرقم من طرق مختلفة أنه قيل له: بأي شيء كفرتم عثمان؟

فقال : بثلاث : جعل المال دولة بين الأغنياء، وجعل المهاجرين من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) بمنزلة من حارب الله ورسوله، وعمل بغير كتاب الله.

وروي عن حذيفة، أنه كان يقول : ما في عثمان بحمد الله شك، لكني أشك في قاتله، لا أدري أكافر قتل كافراً، أم مؤمن خاض إليه الفتنة حتى قتله، وهو أفضل المؤمنين إيماناً!(٩٠٧).

ويبدو أن ابن معين كان يستنكر قوله هذه صحيفة الوصي، ولعل السبب في توهينه واتهامه بالكذب هي هذه الأمور، وليس لكونه كذاباً في ذاته، فما يخالف عقيدة الجمهور يعد عندهم كذباً. ويتبدّى لنا الموقف بجلاء في ترجمة الحافظ أحمد بن الأزهر النيسابوري :

(٩٠٥) تهذيب التهذيب ٧ : ٣٦١ ، ميزان الاعتدال ٣ : ١٧٣ .
(٩٠٦) سورة المائدة : ٤٤ .
(٩٠٧) شرح نهج البلاغة للمعتزلي ٣ : ٥٠ - ٥١

قال الذهبي : اتهمه يحيى بن معين في رواية ذاك الحديث عن عبدالرزاق، ثم إنه عذره.

قال ابن عدي : هو بصورة الصدق، قلت (الذهبي) : بل هو كما قال أبو حاتم : صدوق .

وقال النسائي وغيره : لا بأس به.

قال الذهبي : ولم يتكلموا فيه إلاّ لرواية عن عبدالرزاق عن معمر حديثاً في فضائل علي، يشهد القلب أنه باطل! وكان عبدالرزاق يعرف الأمور، فما جسر يحدّث بهذا إلاّ سراً لأحمد بن الأزهر ولغيره...![908].

وقال ابن حجر : وقال أحمد بن يحيى بن زهير التستري: لمّا حدّث أبو الأزهر بحديث عبدالرزاق في الفضائل، يعني معمر عن الزهري، عن عبيدالله، عن ابن عباس، قال: نظر النبي(صلى الله عليه وآله) إلى علي(رضي الله عنه) فقال **«أنت سيّد في الدنيا، سيّد في الآخرة»** الحديث. أخبر بذلك يحيى بن معين، فبينا هو عنده في جماعة من أهل الحديث، إذ قال يحيى: من هذا الكذّاب النيسابوري الذي يحدّث عن عبدالرزاق بهذا الحديث؟ فقام أبو الأزهر فقال: هو ذا أنا، فتبسّم يحيى فقال: أما أنك لست بكذاب. وتعجب من سلامته وقال: الذنب لغيرك في هذا الحديث[909].

من العجيب أن يلقى هذا الحديث هذا الاستنكار من قبل المحدّثين، وسنده كلهم ثقات، بل أئمة حفّاظ، ولا أدري ماالذي أنكره الذهبي من متنه حتى شهد قلبه ببطلانه، فأي غرابة في أن يكون علي بن أبي طالب سيداً في الدنيا والآخرة! ولو أن هذا الحديث ورد في أحد الخلفاء الثلاثة قبله، فهل كان سيلقى مثل هذا الإنكار؟!

عندما لم يجد القوم مطعناً على الحديث ينفذون منه، طلعوا برأي عجيب، فقد قال أبو حامد ابن الشرقي: هو حديث باطل، والسبب فيه أن معمراً كان له ابن أخ رافضي، وكان معمّر يمكنه من كتبه، فأدخل عليه هذا الحديث.

وقال ابن عدي : أبو الأزهر بصورة أهل الصدق عند الناس، وأما هذا الحديث، فعبد الرزاق من أهل الصدق، وهو ينسب الى التشيع، فلعله شبّه عليه![910].

لكن هل من المعقول أن تبلغ الغفلة بإمام حافظ مثل عبدالرزاق درجة حتى أن ابن أخيه الرافضي يستطيع أن يدخل في كتبه أحاديث مكذوبة دون أن يفطن عبدالرزاق! وما معنى قول الذهبي: وكان معمر يعرف الأمور، فما جسر يحدّث بهذا

(٩٠٨) ميزان الاعتدال ١ : ٨٢ .
(٩٠٩) تهذيب التهذيب ١ : ١٠
(٩١٠) المصدر السابق .

إلاّ سرّاً. أليس ذلك يعني أن الأحاديث التي تثير سخط السلطة ما كانت تتناقل إلاّ بهذه الطريقة، وأن موقف المحدثين منها إنما هو إنعكاس لموقف السلطة ليس إلاّ؟ وعبدالرزاق لم يكن شيعياً بالمعنى الخاص للتشيّع، ولكن جرت عادة المحدثين -المؤيدين للسلطة- على اتهام كل من يروي شيئاً من فضائل علي بن أبي طالب وأهل بيته بالتشيع، فاتهموا عدداً كبيراً من أئمة الحديث ممن لا يُشك في انتسابهم الى عقيدة الجمهور، فقد قال الذهبي في ترجمة الحاكم: إمام صدوق، لكنه يصحح في مستدركه أحاديث ساقطة، ويكثر من ذلك، فما أدري هل خفيت عليه؟ فما هو ممن يجهل ذلك، وإن علم فهذه خيانة عظيمة، ثم هو شيعي مشهور بذلك من غير تعرض للشيخين! وقد قال ابن طاهر: سألت أبا سهيل عبدالله الأنصاري عن الحاكم أبي عبدالله، فقال: إمام في الحديث، رافضي خبيث! قلت (الذهبي): الله يحب الانصاف، ما الرجل برافضي، بل شيعي فقط. ومن شقاشقه قوله... إن علياً وصي!(٩١١).

هذه خلاصة مواقف المحدّثين من النواصب والشيعة، ويظهر لكل منصف أنهم لم يكونوا عدولا في مواقفهم منهم، رغم أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد وضع لهم مقياساً لا يخطئ في التعامل مع الرواة على قاعدة الحب والبغض لعلي بن أبي طالب الذي قال: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي(صلى الله عليه وآله)إلي: أنه لا يحبني إلاّ مؤمن، ولا يبغضني إلاّ منافقٌ(٩١٢).

ومعلوم أن قول المنافق لا يؤخذ به لأنه فاسق، ومبغض علي منافق بشهادة النبي(صلى الله عليه وآله)، فعليه كان يجب ردّ روايات النواصب واتهامهم، ولكنهم فعلوا عكس ذلك!

أما الألفاظ المستنكرة التي كانت سبباً في التهم، فسوف نتعرض لها في الفصل القادم إن شاء الله، وأما موقف المحدّثين من بعض أهل البدع من الطوائف الأخرى كالخوارج، فسوف نذكرها بعد قليل.

دوافع الوضع في الحديث

(٩١١) ميزان الاعتدال ٣ : ٦٠٨

(٩١٢) صحيح مسلم ١ : ٨٦ كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق، سنن الترمذي ١٣ : ١٧٧ مناقب علي ، سنن إبن ماجة باب ١١ من المقدمة ، سنن النسائي ٢ : ٢٧١ باب علامة المؤمن ، الخصائص للنسائي : ٣٨ ، مسند أحمد ١ : ٨٤ ، ٩٥، ١٢٨، تاريخ بغداد ٢ : ٢٥٥ ، ٨ : ٤١٧ ، ١٦ : ٤٢٦ ، حلية الأولياء ٤ : ١٨٥ وقال : حديث صحيح متفق عليه ، تاريخ الإسلام للذهبي ٢ : ١٩٨ ، البداية والنهاية ٧ : ٣٥٤ ، الاستيعاب ٢ : ٤٦١ ، أسد الغابة ٤ : ٢٩٢ ، كنز العمال ١٥ : ١٠٥ ، الرياض النضرة ٢ : ٢٨٤ .

إن أهم الدوافع للوضع في الحديث، يلخصها العلماء - الذين تعرضوا لذلك- في الصراعات السياسية والفكرية والمذهبية، ومحاولات الزنادقة لإفساد الشريعة، وبعض أهل الصلاح والزهد الذين ظنوا أنهم بذلك يحسنون صنعاً، والقصاص، وقد تناولنا طرفاً من تلك الأسباب، وبقي أن نتبسط قليلا - بعد هذه المقدمات- في السبب الرئيسي للوضع، ألا وهو الصراعات السياسية وما يلحقها.

تكاد آراء الباحثين من الجمهور - قديماً وحديثاً- تتفق على اتّهام الشيعة بالدرجة الأولى بالوضع في الحديث، فقد مرّ بنا سابقاً قول ابن أبي الحديد الذي قال: واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة...الخ.

ومن المعاصرين ، قال البكّار : انقسمت الفرق السياسية في الكذب على رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وكان من أشهرهم الشيعة، وقد سئل الإمام مالك عنهم فقال: لا تكلمهم ولا ترو عنهم فانهم يكذبون، وقال حماد بن سلمة: حدثني شيخ من الشيعة فقال: كنا إذا اجتمعنا فاستحسنا شيئاً جعلناه حديثاً...

وكما وضعواالأحاديث في فضل علي وآل البيت، وضعوا الأحاديث في ذم الصحابة، ولا سيما الشيخان ومعاوية والدولة الأموية، ومن ذلك قولهم:

«**إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه**»! وهكذا أسرفت الشيعة في وضع الأحاديث بما يتفق وأهوائها...(٩١٣)

أما بقية الفرق الإسلامية كالخوارج والجهمية وغيرهم، فقد مرّ قول الذهبي بأن البخاري كان يروي عنهم لأنهم لا يكذبون، وقال البكار: أما الخوارج، فقد كانوا بعيدين كل البعد عن الكذب على رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وذلك لأنهم يكفّرون مرتكب الكبيرة أو مرتكب الذنوب مطلقاً، والكذب كبيرة في حقهم، فكيف الكذب على رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ بل هناك أدلة كثيرة على أنهم أصدق من نقل الحديث، فهذا قول ابن تيمية في رده على الرافضة يقول: ونحن نعلم أن الخوارج شرّ منكم. ومع هذا فما نقدر أن نرميهم بالكذب، لأننا جربناهم فوجدناهم يتحرون الصدق لهم وعليهم...(٩١٤)

وبعد أن ينقل العمري رواية ابن لهيعة، من أن أحد شيوخ الخوارج قد تاب وأعلن أنهم كانوا إذا هووا أمراً جعلوا منه حديثاً! يقول: فلو صح ما نقل عن ابن لهيعة، فان

(٩١٣) أسباب رد الحديث : ١٢٢ .
(٩١٤) المصدر السابق .

دور الخوارج في الوضع ضئيل جداً، ولا يعدو أن يكون هوىً لفرد منهم وليس صفة تعمهم[٩١٥].

إن المشكلة تتلخص في تحديد أصحاب البدع وتمييزهم، فما هي سماتهم حتى يُعرف أن هؤلاء مبتدعة وأن هؤلاء غير مبتدعة، إذ أن من المعلوم يقيناً أن كل فرقة تدعي أنها على الحق، وأنها هي صاحبة السنّة النبوية وغيرها مبتدع، ولا يعقل أن فرداً من أي فرقة يعتقد بضلال فرقته ويستمر في التمسك بآرائها الفكرية، وكما أن المسلمين ينظرون الى اليهود والنصارى على أنهم ضلاّل مبتدعة، فان أُولئك أيضاً ينظرون الى المسلمين بنفس النظرة! وهكذا الحال بالنسبة الى أهل الحديث، فكما أنهم كانوا يعتقدون أنهم هم أهل السنّة وغيرهم مبتدعة، فان أفراد تلك الفرق أيضاً كان يظنون أنفسهم أهل السنّة وغيرهم من الفرق مبتدعة!

والأعجب من كل ذلك أننا نقرأ عن شيخ من الشيعة يتوب ويعترف بوضع فرقته للحديث حسب الهوى، ثم يطالعنا نص آخر يقول إن شيخاً من الخوارج تاب من بدعته واعترف بوضعهم للحديث نصرة لرأيهم، ومرّة نقرأ أن محرز أبو رجاء القدري قد تاب واعترف بوضعهم للحديث نصرة لفكرتهم، إلاّ أننا لا نقرأ أن شيخاً من الجمهور تاب وكشف عن وضعهم للحديث نصرة لمذهبهم، ومع ذلك نقرأ اعتراف المحدّثين بأن بعض أئمتهم كنعيم بن حماد والمصعبي وغيرهما كانوا يضعون الأحاديث في تقوية السنّة!

إن معرفة أسباب وضع الحديث يقتضي معرفة الدوافع إليه أولا، إذ أن لكل جريمة دافعاً يدفع إليها، فما الذي يدفع بالفرق الإسلامية إلى وضع الحديث؟

إن الجواب على ذلك، أن مرحلة الصراع الفكري حول الخلافة هو الدافع الرئيسي الذي يدفع للوضع، لأن منصب الخلافة هو رأس السياسة وسنامها، وكل فرقة تدعي أحقيتها فيها، فاذا أعوزها الدليل لجأت الى الوضع.

من هذا المفهوم ننطلق لنحدد مدى حاجة كل فرقة للدليل على أحقيتها في قيادة المجتمع الإسلامي، والذي سوف يدفعها للوضع تقوية لحججها وأدلتها في ذلك.

فلو أننا نظرنا الى الخوارج، لوجدناهم قد خالفوا الأمة كلها في أفكارها ومعتقداتها، إذ أن معظم الفرق الإسلامية تدعي الخلافة في قريش، وشذّ عنها فرقة الخوارج في ذلك، ثم بالغ الخوارج وتطرفوا في آرائهم حتى كفّروا كل من لا يقول بمقالتهم، أي أنهم كفّروا جميع المسلمين عدا الخوارج، وعندما نستعرض تاريخ

(٩١٥) بحوث في تاريخ السنّة المشرّفة : ٢٧

الخوارج نجدهم في الغالب كانوا من الأعراب غير المتفقهين في الدين، فكانوا يلجؤون الى تأويل الآيات القرآنية لدعم آرائهم، ولكن تأويل الآيات كان يحتاج الى أحاديث تدعم هذا التأويل، فكانت حاجتهم الى الوضع شديدة، وعندما أورد الحافظ ابن حجر حديث ابن لهيعة عن الخارجي الذي تاب واعترف بوضعهم للحديث، قال: هذه والله قاصمة الظهر للمحتجين بالمرسل، إذ بدعة الخوارج كانت في مبدأ الإسلام والصحابة متوافرون، ثم مضى عصر التابعين فمن بعدهم، وهؤلاء إذا استحسنوا أمراً جعلوه حديثاً وأشاعوه، فربما سمع الرجل الشيء فحدّث به، ولم يذكر من حدّثه به تحسيناً للظن، فيحمله عنه غيره، ويجئ الذي يحتج بالمنقطعات فيحتج به، مع كون أصله ما ذكرت[٩١٦].

وزيادة في التوضيح، نقول : ما الذي يمنع أيّاً من وضع الحديث على رسول الله(صلى الله عليه وآله) في فترة الرواية الشفهية؟ ثم يتناقل هذا الحديث الموضوع حتى يتم تدوينه فيما بعد، وهو ما حدث بالفعل.

ورغم أنّ هذا حقيقة - وقد تبين ذلك فيما سبق- فان الجمهور يعود فيناقض نفسه، فهذا ابن حجر يقول: أول من زكّى وجرّح عند انقراض عصر الصحابة : الشعبي وابن سيرين ونحوهما، حفظ عنهم توثيق أناس وتضعيف آخرين، وسبب قلة الضعفاء في ذلك الزمان: قلة متبوعيهم من الضعفاء، إذ أكثر المتبوعين صحابة عدول[٩١٧]. وأكثرهم من غير الصحابة بل عامتهم ثقات صادقون، يعون ما يروون، وهم كبار التابعين[٩١٨]. فيوجد فيهم الواحد بعد الواحد فيه مقال، كالحارث الأعور، وعاصم بن ضمرة ونحوهما...[٩١٩]

إن ابن حجر يضرب صفحاً عن النواصب ويذكر الحارث الأعور لأنه تشيّع لعلي بن أبي طالب! وسوف يرد سبب ذلك في الفصل القادم.

ونعود الى دوافع وضع الحديث : فنقول :

إن حاجة الجمهور لتدعيم نظريته السياسية لم تكن بأقل من حاجة الخوارج، إن لم تكن أكثر، فالجمهور عندما وجد نفسه أمام نصوص دامغة، يحتج بها الشيعة لتدعيم نظريتهم، وجد نفسه مضطراً في نهاية الأمر الى الاعتراف بضرورة وجود

(٩١٦) محمود أبو رية . اضواء على السنّة المحمدية : ١٣٧ .
(٩١٧) مرّ فيما سبق : الدليل على وضع بعض الصحابة للحديث إرضاء لبني أمية وكيداً لعلي وأهل بيته .
(٩١٨) أوليس عروة بن الزبير وحريز بن عثمان من بين أولئك ؟!
(٩١٩) لسان الميزان ١ : ٣٠٩

نص يدعم هذه الحجة، فكانت الأحاديث الموضوعة التي استعرضنا قسماً منها فيما سبق، والتي دخلت الصحاح، واستكان لها الجمهور لذلك.

أما الشيعة ، فقد كانوا أقل هذه الفرق حاجة للوضع لتدعيم نظريتها السياسية، فهم يعتمدون على نصوص قوية صحيحة، بل ومتواترة، اعترف بها جمهور المحدّثين والحفّاظ، لكنهم تنكّروا لمدلولها، وهذا أمر طبيعي، إذ أن اعترافهم بمدلولها سيؤدي إلى هدم نظرية الجمهور السياسية من الأساس، وهو أمر لا يمكن تصور حدوثه بهذه السهولة!

وقد يسأل سائل، ما المانع في أن تكون الأحاديث التي يحتج بها الشيعة لتدعيم نظريتهم موضوعة هي الأخرى؟ لكن الحقيقة أن ذلك أمر لا يمكن تصوره أو الاقرار به لسببين :

١ - إن معظم هذه الأحاديث قد جاءت عن طريق الجمهور، وليس عن طريق الشيعة وحدهم، وهو أمر قد اشترطه المحدّثون، أو بالأحرى هو الطوق الذي حاصر به جمهور المحدّثين الشيعة، لمنعهم رواية مثل هذه الأحاديث، فعلى الرغم من تساهل الجمهور في رواية الفضائل، إلاّ أنهم استثنوا من ذلك انفراد الشيعي برواية فضائل علي بن أبي طالب وأهل بيته، فاذا كان لها متابع أو شاهد من طريق الجمهور وإلاّ ردّت.

٢ - إن رواية مثل تلك الأحاديث كانت مجازفة كبيرة قد تؤدي الى الموت أحياناً، وقد مرّ بنا موقف المتوكل من الجهضمي الذي روى ما يخالف هوى الخليفة، فكاد يدفع حياته ثمناً لذلك، وقضية الحافظ ابن السقا مثال آخر، فقد قال الذهبي: واتفق أنه أملى حديث الطير، فلم تحتمله نفوسهم فوثبوا به وأقاموه وغسلوا موضعه! فمضى ولزم بيته، فكان لا يحدث أحداً من الواسطيين...[٩٢٠]

وفي ترجمة عبدالله بن شدّاد :

عدّه خليفة في تابعي أهل الكوفة.

وقال ابن سعد : في الطبقة الأولى من تابعي أهل المدينة... وكان ثقة قليل الحديث شيعياً.

وقال الذهبي : حديث عبد الله مخرّج في الكتب الستة، ولا نزاع في ثقته.

(٩٢٠) تذكرة الحفاظ ٣ : ٩٦٥ ترجمة ابن السقا .

قال عطاء بن السائب : سمعت عبدالله بن شدّاد يقول : وددت أني قمت على المنبر من غدوة الى الظهر، فأذكر فضائل علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) ثم أنزل، فيُضرب عنقي!

قال الذهبي : هذا غلوّ وإسراف!(٩٢١).

فالشيعي يجد نفسه محاصراً من جهتين إذا ما نوى أن يروي في فضائل علي أو أهل البيت ـ السلطة من أمامه بالسيف، والمحدّثون من ورائه بالرّد ـ إذا لم يتابع على روايته من طريق آخر ليس في إسناده شيعي!

فالروايات التي جاءت في فضائل علي وأهل بيته، إنما جاءت عن طريق المحدّثين من الجمهور، مع محاولة تأويل أي رواية تحمل إيحاءً بالنص على علي. بل إن الاعتراف بشرعية خلافة علي بن أبي طالب لم تأتِ إلاّ في القرن الثالث الهجري، عندما قرّر أحمد بن حنبل ـ على رغم أهل الحديث ـ أن علي بن أبي طالب هو الخليفة الراشد الرابع حسب الترتيب، الأمر الذي لاقى استنكاراً من زملائه أهل الحديث، حيث أخرج ابن أبي يعلى عن وديزة الحمصي قال: دخلت على أبي عبدالله أحمد بن حنبل حين أظهر التربيع بعلي(رضي الله عنه)، فقلت له: يا أبا عبدالله، إن هذا لطعن على طلحة والزبير! فقال: بئسما قلت، وما نحن وحرب القوم وذكرها؟ فقلت: أصلحك الله، إنما ذكرناها حين ربَّعت بعلي، وأوجبت له الخلافة، وما يجب للأئمة قبله. فقال لي: وما يمنعني من ذلك؟ قال: قلت: حديث ابن عمر(٩٢٢).

فقال لي : عمر خير من ابنه، وقد رضي علياً للخلافة على المسلمين وأدخله في الشورى، وعلي بن أبي طالب(رضي الله عنه) قد سمى نفسه أمير المؤمنين، فأقول أنا: ليس للمؤمنين بأمير؟!(٩٢٣).

وما حدث في القرن الثالث يذكرنا بما حدث في القرن الأول الهجري، فعن العوام بن حوشب، قال: حدثنا سعيد بن جهمان، قال: سمعت سفينة مولى رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**الخلافة بعدي في أمتي ثلاثين سنة**». قال محمد بن يزيد في حديثه: فحسبوا ذلك فكان تمام ولاية علي. فقالوا لسفينة: إنهم يزعمون أن علياً لم يكن خليفة؟

فقال : من يزعم ذلك؟ أبنو الزرقاء أولى بذلك وأحق(٩٢٤).

(٩٢١) سير أعلام النبلاء ٣ : ٤٨٨ .

(٩٢٢) يعني الحديث الذي أخرجه بعض المحدثين، وفيه أنهم كانوا يذكرون أبا بكر وعمر وعثمان ثم يسكتون ، وقد مرّ هذا الحديث فيما سبق ، وقول ابن معين فيه .

(٩٢٣) طبقات الحنابلة ١ : ٣٩٣

(٩٢٤) كتاب الفتن لأبي نعيم : ٥٧ .

وابن الزرقاء هو مروان بن الحكم، وهذا يدلنا على أن الروح الأموية نفسها قد بقيت سارية الى القرن الثالث الهجري في النظر الى علي بن أبي طالب بأنه لم يكن من الخلفاء!

الفصل الرابع عشر: الوصيّـة

الوصيّـة

لقد وردت لفظة الوصي ووصي الأوصياء، وغيرها في الفصل السابق، عند الكلام عن موقف المحدّثين من الرواة الشيعة، وقد كانت من جملة الاتهامات التي كانت توجّه الى أولئك الرواة، والتي كان يترتب عليها ترك البعض منهم وتضعيفهم هو القول بالوصية، فما هي هذه الوصية، وأين منشؤها؟

عندما استعرضنا بعض روايات الطبري عن طريق سيف بن عمر، وجدناه يذكر الوصية على أنها مقولة ابتدعها عبدالله بن سبأ اليهودي المتظاهر بالإسلام، والتي يدعي فيها بأن لكل نبي وصياً، وأن علي بن أبي طالب هو وصي النبي الخاتم(صلى الله عليه وآله)، باعتبار أن هذه المقولة إنما كانت من اختراع هذا اليهودي الذي لم يسبق الى القول بمثلها أحد من الناس من الصحابة وغيرهم، وأن هدفه كان تأليب الناس على عثمان بن عفان - كيداً للإسلام ومحاولة لتحطيم الدولة الإسلامية - وأن الكثير من الناس -وفيهم بعض الصحابة- قد انخدعوا بمقولة هذا اليهودي وتابعوه عليها.

ولقد أصبحت رواية الطبري هذه عن سيف هي المدار الذي دارت عليه معظم كتابات المؤلفين - قديماً وحديثاً - عند التعرض لموضوع الفتنة التي حدثت في زمن عثمان، ومن ثم أصبحت الأساس الذي بنى عليه المؤلفون في الفرق والمذاهب، وصار نشوء فرقة الشيعة مرتبطاً بمقولة هذا اليهودي، حتى صارت قضية التشنيع على الشيعة واتهامهم بأنهم قد تلقوا عقائدهم من اليهود أمراً يكاد يُجمع عليه كافة المؤلفين في الفرق، وقد لعب المستشرقون دوراً أساسياً في ترسيخ هذه الفكرة عند المسلمين. لذا نجد المؤلفين - قديماً وحديثاً- ينكرون موضوع الوصية إنكاراً باتاً، بل ويستشهدون بروايات منسوبة الى علي بن أبي طالب نفسه في إنكار موضوع الوصية، باعتبارها مقولة لم تكن على عهد النبي(صلى الله عليه وآله) ولا خليفتيه، وإنما ظهرت في زمن عثمان، والتف الشيعة على هذه المقولة ولهجوا بها في عهد علي بن أبي طالب، مما دفعه الى إنكارها، وفي ذلك يقول محمد أبو زهو: ويظهر أن أمر الوصية من النبي لعلي بالخلافة كان شائعاً على ألسنة هؤلاء القوم في زمن علي بن أبي طالب، يدلنا على ذلك سؤال بعض الصحابة له عن ذلك وسؤال غيرهم أيضاً،

وجواب علي كرم الله وجهه بأنه لم يكن من النبي(صلى الله عليه وآله) شيء من ذلك، فقد روى البخاري في كتاب العلم عن أبي جحيفة الصحابي، أنه قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلاّ كتاب الله، أو فهم اُعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يُقتل مسلم بكافر.

فأنت ترى أبا جحيفة يسأل علياً عن شيء خصهم به رسول الله(صلى الله عليه وآله) من أسرار الوحي، وما سأل هذا السؤال إلاّ لأنه سمع لغطاً من الشيعة حول الوصية والخلافة التي يدّعونها لعلي، فنفى ذلك علي نفياً باتاً، وأقسم على ذلك.

ثم استثنى أشياء لاتمت الى معتقدات الشيعة بصلة، وقد جاء هذا الحديث بروايات عدة في بعضها زيادات، وليس فيها أن النبي(صلى الله عليه وآله) أوصى لعلي بشيء أو خصّه من أسرار الوحي بشيء مما تزعمه الشيعة(٩٢٥).

على الرغم من أن الرواية التي أخرجها البخاري واستشهد بها أبو زهو على الأدلة التي لاتمت في اعتقادي الى موضوع الوصية بشيء، إلاّ أننا سنفترض ذلك، ولو أن أبا زهو كان قد حقق في الأمر جيداً، لوجد أن البخاري وغيره قد أخرجوا روايات اُخرى أكثر وضوحاً في ردّ الوصية، فقد أخرجوا - واللفظ للبخاري- عن الأسود، قال: ذكروا عند عائشة أن علياً رضي الله عنهما كان وصيّاً! فقالت: متى أوصى إليه؟ وقد كنت مسندته الى صدري -أو قالت حجري- فدعا بالطست، فلقد انخنث في حجري، فما شعرت أنه قد مات، فمتى أوصى إليه؟!(٩٢٦).

فهذه الروايات التي أخرجها أئمة المحدثين، تنقل عن عائشة القول بنفي وصية النبي(صلى الله عليه وآله) لعلي بن أبي طالب، وهذا يفترض أن النبي(صلى الله عليه وآله) لم يوص لعلي قُبيل وفاته، لذا قال ابن كثير الدمشقي: وأما ما يغترّ به كثير من جهلة الشيعة والقصاص الاغبياء، من أنه أوصى الى علي بالخلافة، فكذب وبهت وافتراء، يلزم منه خطأ كبير من تخوين الصحابة وممالأتهم بعده على ترك إنفاذ وصيّته..(٩٢٧)

ولكن الأخبار حول موضوع الوصية قد ذاع وانتشر، ولم يكن الشيعة هم الذين اخترعوا هذه المفردة، حتى دخلت هذه اللفظة في معاجم اللغة كلقب لعلي بن أبي

(٩٢٥) الحديث والمحدثون : ٩٤ ، عن فتح الباري ١ : ١٨٢ باب كتابة العلم .

(٩٢٦) صحيح البخاري ٤ : ٣ كتاب الوصايا، باب الوصايا، ٦ : ١٨ كتاب النبي(ص) الى كسرى وقيصر، باب : مرض النبي(ص) ووفاته، صحيح مسلم ٥ : ٧٥ طبعة دار الفكر ـ بيروت كتاب الوصية ، مسند أحمد ٦ : ٣٢ .

(٩٢٧) البداية والنهاية ٧ : ٢٢٤

طالب، فقد قال ابن منظور: وقيل لعلي(عليه السلام) وصي، لاتصال نسبه وسببه وسمته بنسب سيدنا رسول الله(صلى الله عليه وآله)(٩٢٨).

وقال الزبيدي : والوصي كغني، لقب علي(رضي الله عنه)(٩٢٩).

فعلي بن أبي طالب كان يلقب بالوصي إذاً، وقد بلغ من شهرة هذا اللقب أنه دخل في المعاجم اللغوية، ولا يعقل أن يحدث ذلك بفعل مقولة الشيعة أو عبدالله بن سبأ اليهودي، فلابدّ وأن يكون للمسألة جذور أعمق من ذلك، ويمكننا تبيّن ذلك من خلال مطالعة النصوص التي جاءت عن طريق الصحابة والتابعين، وأوردها المؤرخون والمحدّثون في مجاميعهم الكبيرة، رغم تنكرهم لها أحياناً، ومحاولة بعضهم تزييفها أحياناً اُخرى، وهذا ما سوف نكتشفه فيما يأتي :

الإشارة الأولى للوصيّة

ذكرنا في فصل سابق أن الملاّ علي القاري أورد حديثاً عن النبي(صلى الله عليه وآله)- مدعياً أنه موضوع- على أنه الحديث الذي نطق به النبي(صلى الله عليه وآله) في يوم الغدير، وأوضحنا وقتها أن ذلك خطأ - عن سهو أو عمد- من الملاّ علي القاري، لأن ذلك الحديث لا علاقة له بحادثة الغدير، وإنما هو حديث آخر، ولنبدأ أولا برواية ابن كثير الدمشقي لذلك الحديث وتحليله له، حيث ذكر في (باب أمر الرسول(صلى الله عليه وآله) بابلاغ الرسالة) الى الخاص والعام.

فأخرج عدة روايات في تفسير قوله تعالى (**وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأقربينَ**)(٩٣٠).

عن ابن عباس، وأبي هريرة، وعائشة، في بيان سبب نزول الآية، ثم أورد ما أخرجه الحافظ البيهقي عن علي بن أبي طالب، قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «**عرفت أني إن بادأت بها قومي رأيت منهم ما أكره، فصمتُّ، فجاءني جبريل**(عليه السلام) **فقال: يا محمد، إن لم تفعل ما أمرك به ربك عذبك بالنار**».

قال : فدعاني فقال : «**يا علي، إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فاصنع لنا يا علي شاة على صاع من طعام، وأعدّ لنا عس لبن، ثم اجمع لي بني عبدالمطلب**». ففعلت، فاجتمعوا له يومئذ وهم أربعون رجلا يزيدون أو ينقصون، فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب الكافر الخبيث، فقدمت إليهم تلك الجفنة، فأخذ رسول الله(صلى الله

(٩٢٨) لسان العرب ١٥ : ٣٩٤
(٩٢٩) تاج العروس ١٠ : ٣٩٢ .
(٩٣٠) الشعراء : ٢١٤ .

عليه وآله) منها حذية فشقّها بأسنانه، ثم رمى بها في نواحيها وقال : **«كلوا باسم الله»، فأكل** القوم حتى نهلوا منه، ما نرى إلاّ آثار أصابعهم، والله إن كان الرجل ليأكل مثلها. ثم قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): **«اسقهم يا علي»، فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى** نهلوا جميعاً، وأيم الله إن كان الرجل ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يكلمهم، بدره أبو لهب لعنه الله، فقال: لهدّ ما سحركم صاحبكم، فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله(صلى الله عليه وآله). فلما كان من الغد، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : **«عُدّ لنا مثل الذي كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب، فان هذا الرجل قد بدر الى ما سمعت قبل أن أكلم القوم».** ففعلت (ثلاث مرات)، ثم قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : **«يا بني عبدالمطلب: إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة»..**

قال ابن كثير : وقد رواه أبو جعفر بن جرير... عن ابن عباس عن علي، فذكر مثله، وزاد بعد قوله: **«وإني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي وكذا وكذا»!** قال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي فقال: **«إن هذا أخي وكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا».** قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع! تفرّد به عبدالغفار بن القاسم، أبو مريم، وهو كذاب شيعي، إتهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث، وضعّفه الباقون(٩٣١).

ويحق لنا أن نسال ابن كثير : إذا كانت الرواية قد جاءت عن أبي مريم، وهو كذاب، فلماذا هذا الحرج من ذكر بعض ألفاظها واستبدالها بكذا وكذا؟

أما الحلبي فقد أورد الرواية وفيها قول النبي(صلى الله عليه وآله): **« يا بني عبد المطلب إن الله قد بعثني الى الخلق كافة، وبعثني إليكم خاصة، فقال (وأنذر عشيرتك الأقربين)، وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان، ثقيلتين في الميزان، شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله، فمن يجيبني الى هذا الأمر ويؤازرني -أي يعاونني- على القيام به»؟** قال علي : أنا يا رسول الله، وأنا أحدثهم سنّاً، وسكت القوم.

قال الحلبي : زاد بعضهم في الرواية **«يكن أخي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي»!** فلم يجبه أحد منهم، فقام علي وقال: أنا يا رسول الله، قال: **«اجلس».** ثم أعاد القول على القوم ثانياً فصمتوا، فقام علي وقال: أنا يا رسول الله. فقال: **«اجلس»،** ثم أعاد القول على القوم ثالثاً، فلم يجبه أحد منهم، فقام علي فقال: أنا يا رسول الله. فقال: **«اجلس فأنت أخي ووزيري ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي»!**

(٩٣١) البداية والنهاية ٣ : ٣٨ .

قال الحلبي : قال الإمام أبو العباس ابن تيمية - أي في الزيادة المذكورة- إنها كذب وحديث موضوع، من له أدنى معرفة في الحديث يعلم ذلك.

وقد رواه - أي الحديث- مع زيادته المذكورة : ابن جرير، والبغوي بإسناد فيه أبو مريم الكوفي، وهو مجمع على تركه(٩٣٢).

أما أبو جعفر الإسكافي فيصف الخبر - كما ورد في الطبري- بأنه صحيح، قال: وقد روي في الخبر الصحيح أنه كلفه في مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة أن يصنع له طعاماً، (ثم يورد القصة الى أن يقول): ثم ضمن لمن يؤازره منهم وينصره على قوله، أن يجعله أخاه في الدين، ووصيه بعد موته، وخليفته من بعده، فأمسكوا كلهم وأجابه هو وحده، وقال: أنا أنصرك على ما جئت به، وأوازرك وأبايعك، فقال لهم لما رأى منهم الخذلان ومنه النصر، وشاهد منهم المعصية ومنه الطاعة، وعاين منهم الإباء ومنه الإجابة : «**هذا أخي ووصيي وخليفتي من بعدي**». فقاموا يسخرون ويضحكون...(٩٣٣)

فلفظة الوصي كانت من بين الألفاظ، أو هي اللفظة التي أفزعت ابن كثير الدمشقي، ومن قبله الطبري الذي أورد صيغة الحديث كاملة في موسوعته التاريخية، لكنه عاد فحذفها في تفسيره وأبدل ألفاظها بكذا وكذا! كما أورد الطبري أبياتاً للفضل بن العباس منها :

ألا أن خير الناس بعد محمد *** وصيّ النبي المصطفى عند ذي الذكر(٩٣٤) *** كما وأورد الطبري خطبة الحسين بن علي بن أبي طالب يوم عاشوراء، ومنها قوله: أما بعد، فانسبوني فانظروا من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يحلّ لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم(صلى الله عليه وآله) وابن وصيّه ...الخ(٩٣٥)

وقد أورد ابن كثير الخطبة أيضاً - نقلا عن الطبري- ولكنه تصرف فيها وحذف منها لفظة الوصي!(٩٣٦)

(٩٣٢) السيرة الحلبية ١ : ٢٨٦ ، والرواية في تاريخ الطبري ٢ : ٣٢٠ ، وفي معالم التنزيل للبغوي ٤: ٢٧٨ ، والكامل في التاريخ ٢ : ٦٢ حوادث السنة الثالثة للبعثة .

(٩٣٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣ : ٢٤٤ .

(٩٣٤) تاريخ الطبري ٤ : ٤٢٦ .

(٩٣٥) تاريخ الطبري ٥ : ٤٢٤ .

(٩٣٦) البداية والنهاية ٨ : ١٧٩ .

ومن المؤرخين الذين أوردوا لفظة الوصي، اليعقوبي الذي ذكر خبر بيعة علي بن أبي طالب، وقال: ثم قام مالك بن الحارث الأشتر فقال: أيها الناس، هذا وصي الأوصياء، ووارث علم الأنبياء...(٩٣٧)

وأورد المسعودي اللفظة في قول ابن عباس الذي قال عندما سمع بوفاة الحسن بن علي وشماتة معاوية بذلك: ولئن اُصبنا به، فقد اُصبنا قبله بسيّد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين، ثم بعده بسيّد الأوصياء..(٩٣٨)

وقبل هؤلاء أورد نصر بن مزاحم لفظة الوصي في كتاب معاوية بن أبي سفيان لمحمد بن أبي بكر جواباً على كتاب الأخير، وقد أشار الطبري الى الكتابين دون إيرادهما، حيث قال بإسناده إلى يزيد بن ظبيان: إن محمد بن أبي بكر كتب الى معاوية بن أبي سفيان لما ولّي، فذكر مكاتبات جرت بينهما كرهت ذكرها لما فيه مما لا يحتمل سماعها العامة...!(٩٣٩)

وذكرها ابن مزاحم وفيها قول محمد بن أبي بكر لمعاوية : فكيف يا لك الويل تعدل نفسك بعلي، وهو وارث رسول الله(صلى الله عليه وآله) ووصيّه وأبو ولده، وأول الناس له اتباعاً، وآخرهم به عهداً، يخبره بسرّه ويشركه في أمره!(٩٤٠).

أما ابن الأثير، فترسّم خطى الطبري فيما أورد وما حذف.

وأورد ابن أبي الحديد لفظة الوصي في أكثر من موضع من كتابه، وأورد مجموعة من الأشعار التي قيلت وتضمنت كلمة الوصي، حيث قال: ومما رويناه من الشعر المقول في صدر الإسلام المتضمن كونه(عليه السلام) وصي رسول الله، قول عبدالله بن أبي سفيان :

وصي النبي المصطفى وابن عمه *** فمن ذا يدانيه ومن يقاربه!

وقال عبد الرحمان بن جعيل :

لعمري لقد بايعتم ذا حفيظة *** على الدين معروف العفاف موفقا

علياً وصي المصطفى وابن عمه *** وأوّل من صلّى أخا الدين والتقى

وقال أبو الهيثم بن التيهان -وكان بدرياً- :

إنّ الوصي إمامنا ولينا *** برح الخفاء وباحت الأسرار

وقال رجل من الأزد يوم الجمل :

(٩٣٧) تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٧٩ .

(٩٣٨) مروج الذهب ٢ : ٤٣٠ .

(٩٣٩) تاريخ الطبري ٤ : ٥٥٧ .

(٩٤٠) وقعة صفين : ١١٨ ، وسوف نذكر الكتاب وجواب معاوية عليه في وقته .

هذا عليٌّ وهو الوصي *** آخاه يوم النجوة النبي

وقال هذا بعدي الولي *** دعاه داع ونسي الشقي

وقال خزيمة بن ثابت الأنصاري ـ ذا الشهادتين- وكان بدرياً، في يوم الجمل:

يا وصي النبي قد أحلت الحر *** بُ الأعادي وسارت الاظعان

وقال أيضاً :

وصي رسول الله من دون أهله *** وأنت على ما كان من ذاك شاهده

ومن أغرب ما قيل في حرب الجمل، ما رواه المعتزلي من خروج غلام من بني ضبّة، شاب معلم من عسكر عائشة، وهو يقول :

نحن بنو ضبّة أعداء علي *** ذاك الذي يعرف قدماً بالوصي!

فحتى مخالفو علي في حرب الجمل من جند عائشة، كانوا يعلمون أن لفظة الوصي هي لقب لعلي بن أبي طالب قديم، وليس مستحدثاً في زمن عثمان، كما يُدّعى! وبعد أن يورد ابن أبي الحديد مجموعة كبيرة من الأشعار، التي تتضمن لفظة الوصي، قيلت في حرب صفين أيضاً، يخلص الى القول: والأشعار التي تتضمن هذه اللفظة كثيرة جداً، ولكنا ذكرنا منها هاهنا بعض ما قيل في هذين الحربين، فأما ما عداهما فانه يجلّ عن الحصر، ويعظم عن الإحصاء والعد! ولولا خوف الملالة والإضجار، لذكرنا من ذلك ما يملأ أوراقاً كثيرة![٩٤١].

من القائل بالوصية ؟

بعد أن استعرضنا ما أورده المؤرخون من الأخبار التي تتضمن لفظة الوصية، والتي كانت ذائعة في الناس، ويتغنى بها الشعراء في أسفارهم، مما يثبت عدم صحة الادعاء بأن ابن سبأ هو مخترعها، نعود لنبحث عن جذور هذه القضية في الحديث النبوي الشريف، بعد أن تبين لنا أن النبي(صلى الله عليه وآله)قد ذكرها في وقت مبكر جداً في أوائل الدعوة الاسلامية، ثم كرّر التذكير بها في أكثر من مناسبة، فقد جاء عن بريدة قال: قال النبي : «**لكل نبي وصي ووارث، وإن علياً وصيّي ووارثي**»![٩٤٢].

وذكر البيهقي أن جبرائيل جاء بهديّة من الله ليهديها الرسول(صلى الله عليه وآله) الى ابن عمه ووصيّه علي بن أبي طالب[٩٤٣].

(٩٤١) شرح نهج البلاغة ١ : ١٤٣ ـ ١٥٠ .

(٩٤٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٢ : ٤٩ ، الرياض النضرة ٢ : ١٧٨

(٩٤٣) المحاسن والمساوئ.

وعن سلمان، قال : قلت : يا رسول الله، إن لكل نبي وصياً، فمن وصيّك؟ فسكت عني، فلما كان بعد، رآني فقال : «**يا سلمان**»، فأسرعت إليه، قلت: لبيك. قال: «**تعلم من وصي موسى**»؟ قال: نعم، يوشع بن نون. قال: «**لم**»؟ قلت: لأنه كان أعلمهم يومئذ. قال: «**فان وصيي وموضع سري، وخير من أترك بعدي وينجز عدتي ويقضي ديني : علي بن أبي طالب**»![944].

وعن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال : «**إن وصيّي وموضع سرّي وخير من أترك بعدي وينجز عدتي ويقضي ديني : علي بن أبي طالب**»[945].

وعن أنس بن مالك ، أن الرسول توضأ وصلى ركعتين، ثم قال : «**يا أنس أوّل من يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، وقائد الغر المحجلين، وخاتم الوصيّين**». قال أنس : قلت اللهم اجعله رجلا من الأنصار وكتمته. إذ جاء علي فقال : «**من هذا يا أنس**»؟ فقلت: علي. فقام مستبشراً فاعتنقه ثم جعل يمسح عرق وجهه بوجهه، ويمسح عرق علي بوجهه[946].

وعن أبي أيوب، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال لابنته فاطمة : «**أما علمت أن الله عزّوجل اطلع على أهل الأرض فاختار منهم أباك فبعثه نبياً، ثم اطلع الثانية فاختار بعلك، فأوحى إلي فأنكحته واتخذته وصياً**»[947].

فمن هنا يتبين لنا أن لفظة الوصي قد جاءت عن النبي(صلى الله عليه وآله) في حق علي بن أبي طالب، ولهج بها الصحابة الذين رووا تلك الأحاديث، ولكن الجمهور الذي يرى في النصوص التي تتضمن كلمة الوصي معنىً خطيراً يستدعي حذفه أحياناً، لم يرضخ للأمر بسهولة، فتعرضت النصوص التي تضمنت هذه اللفظة الى حملة شعواء استهدفته سنداً ومتناً، وكما سوف يتبين فيما يأتي.

تزييف النصّ

لقد تعرض حديث الوصاية -كما حدث لحديث الغدير- الى حملة استهدفت الطعن في متنه بالتأويل، وفي سنده بالتضعيف لبعض رواته، واتهامهم بالكذب والوضع، وأخيراً الى وضع نصوص في مقابلته. ففيما يتعلق بسند الحديث، فقد مرّ بنا اتهام ابن

(٩٤٤) مجمع الزوائد ٩ : ١١٣ عن الطبراني
(٩٤٥) كنز العمال كتاب الفضائل ، فضائل علي بن أبي طالب .
(٩٤٦) حلية الأولياء ١ : ٦٣ .
(٩٤٧) مجمع الزوائد ٨ : ٢٥٣ .

كثير لأبي مريم بالتشيع والكذب، وادعاء ابن تيمية بالوضع والزيادة في الحديث كما ذكر الحلبي، لذا فاننا عندما نراجع ترجمة أبي مريم نجد فيها ما يلي:

قال أحمد : كان أبو مريم يحدّث ببلايا في عثمان!

وقال أيضاً : كان أبو عبيدة إذا حدثنا عن أبي مريم يصيح الناس، يقولون: لا نريده![٩٤٨].

فالسبب الرئيسي في اتهام عبدالغفار يعود إلى أنه يروي ما يخالف معتقداتهم التي قد تسالموا عليها، ويدل على ذلك من رفض الناس الاستماع الى مروياته، وهذا خطأ كبير وخلل فادح في موازين النقد، إذ أن تجريح الراوي وتعديله كان محكوماً في كثير من الأحيان بموقفه من العقيدة السائدة لدى الجمهور، وليس من حيث شخصية الراوي نفسه، وما عرف به من صلاح وصدق أم لا. وعلى كل حال، فان ابن مريم ليس هو الراوي الوحيد لهذه الرواية التي تتضمن لفظة الوصي، فقد أورد ابن عساكر مجموعة روايات في هذا المعنى وليس في إسنادها أبو مريم، منها عن عباد بن عبدالله، عن المنهال بن عمرو، عن الأعمش، عن علي بن أبي طالب، وفيها: «**أيكم يقضي ديني ويكون خليفتي ووصيي من بعدي**»[٩٤٩].

وكذلك تعرض الحارث الهمداني الى الطعن رغم إننا ذكرنا في ترجمته ما يثبت صلاحه، إلاّ أن الشعبي اتهمه بالكذب، وردّ ابن عبدالبر بأن الحارث لم يبن منه كذب، وإنما نقم عليه إفراطه في حب علي وتفضيله له على غيره، ومن هاهنا والله أعلم كذّبه الشعبي، لأن الشعبي يذهب إلى تفضيل أبي بكر، والى أنه أوّل من أسلم[٩٥٠].

وكانت رواية الحارث لهذا الحديث المتضمن لفظة الوصية هو السبب الأوّل في الطعن عليه، رغم كونه من كبار التابعين، وكما ذكرنا في قول ابن حجر، وادعاؤه أن الحارث هو من بين من فيهم مقال منهم!

أما متن الرواية فقد تعرض للتشويه والتبديل والزيادة والنقصان والتأويل، ففي مسند أحمد: «**من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي**»![٩٥١]

وفي رواية أُخرى : «**فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي**»[٩٥٢].

(٩٤٨) لسان الميزان ٤ : ٤١٣ .
(٩٤٩) تاريخ دمشق ٤٢ : ٤٧ - ٥٠ .
(٩٥٠) جامع بيان العلم ٢ : ١٨٩ ، باب حكم العلماء بعضهم على بعض .
(٩٥١) مسند أحمد ١ : ١١١ ، و ١٥٩ .
(٩٥٢) مسند أحمد ١ : ١١١ ، و ١٥٩ .

أما البيهقي فقد حذف الجزء الأخير منها كله، ففي دلائل النبوة : **«يا بني عبدالمطلب، إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة ... الخ»**(٩٥٣)

وفي الطبقات الكبرى : **«من يؤازرني على ما أنا عليه ويجيبني على أن يكون أخي وله الجنة»**(٩٥٤).

وفي الخصائص : **«فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي ووزيري»**(٩٥٥).

وتأويل الطبراني معنى الوصاية، بأنه أوصاه بأهله لا بالخلافة!(٩٥٦).

كما تأولها ابن أبي الحديد المعتزلي فقال: أما الوصية، فلا ريب عندنا أن علياً(عليه السلام) كان وصي رسول الله(صلى الله عليه وآله) - وإن خالف في ذلك من هو منسوب عندنا الى العناد- ولسنا نعني بالوصية النص على الخلافة، ولكن اُموراً اُخرى لعلها إذا لمحت أشرف وأجلّ!.

أما المحاولة الأخيرة، فقد تلخصت بمقابلة النص بنصوص اُخرى، ففي تفسير الآية المذكورة من سورة الشعراء، أورد ابن كثير عدة روايات فيها، منها:

١ - عن ابن عباس : لما أنزل الله **(وأنذر عشيرتك الأقربين)**، أتى النبي(صلى الله عليه وآله)الصفا، فصعد عليه ثم نادى **«يا صباحاه»**، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : **«يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتموني»؟** قالوا: نعم. قال: **«فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**، فقال أبو لهب - لعنه الله- تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلاّ لهذا؟ وأنزل الله عزّوجل **(تَبَّتْ يَدا أبي لَهب وَتبَّ)**.

٢ - عن أبي هريرة ، قال : لمانزلت هذه الآية .. دعا رسول الله(صلى الله عليه وآله)قريشاً فعم وخص، فقال : **«يا معشر قريش، انقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب انقدوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار، فاني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلاّ أن لكم رحماً سابلها ببلالها»**.

٣ - عن عائشة (رض) قالت : لما نزلت (وأنذر ...) الآية . قام رسول الله(صلى الله عليه وآله)فقال : **«يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبدالمطلب، يا بني عبدالمطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»**(٩٥٧).

(٩٥٣) دلائل النبوة ٢ : ١٨٠ .
(٩٥٤) الطبقات الكبرى ١ : ١٨٧ .
(٩٥٥) خصائص علي بن أبي طالب للنسائي : ٨٤ .
(٩٥٦) مجمع الزوائد ٩ : ١١٣ - ١١٤
(٩٥٧) البداية والنهاية ٣ : ٣٨ - ٤٠

إلاّ أننا لو أنصفنا، لوجدنا أن هذه الروايات لا يمكن القبول بها، رغم أنها هي التي اعتمدها بعض المحدّثين كالبخاري ومسلم، ودخلت هذه الروايات في الصحاح، على أنها من نتاج نزول الآية المذكورة، ولكن من المعلوم أن الآية قد نزلت في بدايات الدعوة الاسلامية ـ قيل في السنة الثالثة من البعثة ـ، ولم يكن ابن عباس ولا عائشة قد ولدا بعد ،كما أن أبا هريرة كان يرعى أغنام أهله في أرض دوس من اليمن، فأيا منهم لم يكن شاهد عيان لما حدث، كما أن اُسلوب خروج النبي(صلى الله عليه وآله) وندائه على جبل الصفا لا يتناسب مع مدلول الآية في الإنذار لعشيرته الأقربين والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا أدري كيف يوجّه النبي خطابه الى ابنته فاطمة، التي كانت في أبعد التقديرات لسنة مولدها ما تزال طفلة صغيرة لا تميّز، وكذلك خطابه الى عمّته، وكأن هؤلاء هم فعلا عشيرته الأقربين، وبشكل يتنافى مع ماهو معلوم من حكمة النبي وتعقله.

إن نظرة فاحصة الى النص الأوّل الذي جاء عن علي بن أبي طالب يثبت صحته ومعقوليته، فدعوة النبي(صلى الله عليه وآله) لأفراد عشيرته الأقربين ـ وهم المعوّل عليهم في نصرته وتأييد دعوته- ودعوتهم الى الطعام مما يتناسب مع أخلاق النبي(صلى الله عليه وآله)وكرمه المعروف، وعادات العرب، فضلا عن أن ذلك يجعل المدعوين أكثر تعاطفاً وتفهماً للموضوع المطروح للمناقشة، ويعطيهم وقتاً أكثر للتفكير وتبادل الآراء، إضافة لما يتركه من أثر إيجابي في النفوس، مما يرجح هذه الرواية على الروايات الأخرى قطعاً. إلاّ أن تلك الروايات هي التي دخلت الصحاح، وليس ذلك غريباً، فالبخاري ومسلم يبادران الى كل ما ينفي الإشارة الى النص على علي، لذا نجد البخاري يكرر رواية عائشة التي تدعي فيها أن النبي مات بين سحرها ونحرها أو بين حاقنتها وذاقنتها في أكثر من موضع، وقد تفردت عائشة بذلك، بينما تثبت الروايات الأخرى المتكاثرة عدم صحة ذلك، فقد مرّ فيما سبق قول محمد بن أبي بكر عن علي وصفه بأنه كان آخر الناس عهداً بالنبي(صلى الله عليه وآله)، والشواهد كلها تثبت ذلك، فعن أم سلمة(رض)، قالت: والذي أحلف به، إن كان علي لأقرب الناس عهداً برسول الله(صلى الله عليه وآله)، عدنا رسول الله(صلى الله عليه وآله) غداة وهو يقول: جاء علي، جاء علي؟ مراراً، فقالت فاطمة(رض): كأنك بعثته في حاجة؟ قالت: فجاء بعد، قالت أم سلمة: فظننت أن له إليه حاجة، فخرجنا من البيت، فقعدنا عند الباب، وكنت من

ادناهم الى الباب، فأكب عليه رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وجعل يساره ويناجيه، ثم قُبض رسول الله(صلى الله عليه وآله) من يومه، فكان علي أقرب الناس عهداً(٩٥٨).

وأخرج ابن سعد عن جابر بن عبدالله الأنصاري : أن كعب الأحبار قام زمن عمر، فقال ونحن جلوس عند عمر أمير المؤمنين: ما كان آخر ما تكلم به رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ فقال عمر: سل علياً. قال: أين هو؟ قال: هاهنا. فسأله، فقال علي: اسندته إلى صدري. فوضع رأسه على منكبي، فقال «الصلاة الصلاة». فقال كعب: كذلك آخر عهد الأنبياء، وبه اُمروا، وعليه يُبعثون. قال: فمن غسله يا أمير المؤمنين؟ قال: سل علياً! قال: فسأله فقال: كنت أنا اُغسله. وكان ابن عباس جالساً، وكان اُسامة وشقران يختلفان إليَّ بالماء.

وروى عبدالله بن محمد بإسناده الى علي بن أبي طالب، قال : قال رسول الله(صلى الله عليه وآله)في مرضه : «اُدعوا لي أخي»، قال: فدعي له علي، فقال : «اُدن مني»، فدنوت منه، فاستند إلي، فلم يزل مستنداً إلي وأنه ليكلمني، حتى إن بعض ريق النبي(صلى الله عليه وآله)ليصيبنى، ثم نزل برسول الله(صلى الله عليه وآله)، وثقل في حجري، فصحت يا عباس أدركني فاني هالك، فجاء العباس، فكان جهدهما جميعاً أن اضجعاه.

وروي عن علي بن الحسين، قال : قبض رسول الله(صلى الله عليه وآله) ورأسه في حجر علي.

وروي عن الشعبي، قال : توفي رسول الله(صلى الله عليه وآله) ورأسه في حجر علي، وغسله علي والفضل محتضنه واُسامة يناول الفضل الماء.

وروي عن أبي غطفان، قال : سألت ابن عباس : أرأيت رسول الله(صلى الله عليه وآله)توفي ورأسه في حجر أحد؟ قال: توفي وهو لمستند إلى صدر علي. قلت: فان عروة حدثني عن عائشة أنها قالت: توفي رسول الله(صلى الله عليه وآله) بين سحري ونحري! فقال ابن عباس: أتعقل! والله لتوفي رسول الله(صلى الله عليه وآله) وإنه لمستند الى صدر علي، وهو الذي غسله وأخي الفضل بن عباس، وأبى أبي أن يحضر وقال: إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) كان يأمرنا أن نستتر، فكان عند الستر(٩٥٩).

فنحن نجد هذه الروايات المتكاثرة التي جاءت عن عدد من الصحابة لتثبت أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد توفي في حجر علي بن أبي طالب، ولكن وسائل الإعلام الأموية، والتي كان عروة بن الزبير أحد أبواقها حرّفت هذه الحقيقة ونسبت الى

(٩٥٨) المستدرك ٣ : ١٣٩ وصححه ووافقه الذهبي .
(٩٥٩) الطبقات الكبرى ذكر من قال توفي رسول الله(ص) في حجر علي بن أبي طالب .

عائشة الادعاء بأنه مات في حجرها، وأنا لا أشك في أن عائشة لم تدع ذلك، بل المتهم في ذلك هو عروة دون سواه، مما جعل ابن عباس يستنكر على أبي غطفان تصديقه رواية عروة!

الولاية والخلافة

مرّ في حديث الوصاية لعلي بن أبي طالب ورود ألفاظ اُخرى، كقول النبي(صلى الله عليه وآله): «**وخليفتي من بعدي**» ولا يمكن لأحد أن يدّعي أن هذه العبارة قد اخترعها عبدالله بن سبأ - بعد أن ثبت عدم صحة نسبة القول بالوصية إليه- فلفظة الخليفة والولي قد تكررت على لسان النبي(صلى الله عليه وآله)، وكان المقصود بها علي ابن أبي طالب لا غيره، وقد اعترف حفّاظ الجمهور ومحدّثوهم بذلك، وأخرجوا أحاديث صحيحة - حسب متبنياتهم - في هذا الشأن، فقد أخرج أبو داود الطيالسي قال: حدثنا عوانة، عن أبي بلج، عن عمرو بن ميمون، عن ابن عباس; أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال لعلي : «**أنت ولي كل مؤمن من بعدي**»(٩٦٠).

وأخرج ابن عبدالبرّ هذا الحديث بنفس الإسناد وقال: هذا إسناد لا مطعن فيه لأحد لصحته وثقة نقلته(٩٦١).

وأخرج ابن أبي شيبة الحديث من طريق آخر، قال: حدثنا عفان، قال: حدثنا جعفر بن سليمان، قال: حدثني يزيد الرشك، عن مطرف، عن عمران ابن حصين، قال: بعث رسول الله(صلى الله عليه وآله) سرية، واستعمل عليهم علياً، فصنع علي شيئاً أنكروه، فتعاقد أربعة من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يعلموه، وكانوا إذا قدموا من سفر بدأوا برسول الله(صلى الله عليه وآله)، فسلموا عليه ونظروا إليه، ثم ينصرفون الى رحالهم. قال: فلما قدمت السرية سلّموا على رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فقام أحد الأربعة فقال: يا رسول الله، ألم تر أن علياً صنع كذا وكذا! فأقبل رسول الله(صلى الله عليه وآله)يُعرف في وجهه الغضب، فقال: «**ما تريدون من علي! ما تريدون من علي! علي مني وأنا من علي، وعلي ولي كل مؤمن بعدي**»(٩٦٢).

كما أخرجه أحمد بن حنبل بنفس الإسناد، وفيه : «**دعوا علياً، دعوا علياً، إن علياً مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي**»(٩٦٣).

(٩٦٠) مسند الطيالسي : ٣٦٠ رقم ٢٧٥٢
(٩٦١) الاستيعاب ٣ : ١٠٩١ .
(٩٦٢) المصنف ١٢ : ٨٠ .
(٩٦٣) المسند ٤ : ٤٣٨ ، ٥ : ٣٥٦ .

وأخرجه الترمذي، وقال : هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلاّ من حديث جعفر بن سليمان[٩٦٤].

وأخرجه النسائي بالإسناد نفسه[٩٦٥].

كما وأخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي[٩٦٦].

والطبري، كما في كنز العمال[٩٦٧].

وأخرجه إبن حبان[٩٦٨].

كما وأخرجه الطبراني[٩٦٩].

والحاكم في مستدركه[٩٧٠].

وأخرج الخطيب البغدادي الحديث بطريق آخر ولفظه، قال: أخبرنا أبو محمد عبدالله بن علي بن عياض بن أبي عقيل القاضي - بصور - أخبرنا محمد بن أحمد بن جميع الغساني، أخبرنا أبو عبدالله بن مخلد العطاء -ببغداد - حدثنا أحمد بن غالب بن الأجلح بن عبدالسلام - أبو العباس -، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس، حدثنا عيسى بن عبدالله بن عمر بن علي بن أبي طالب، حدثني أبي عبدالله بن عمر، عن أبيه، عن جده علي بن أبي طالب، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**سألت الله فيك خمساً، فأعطاني أربعاً ومنعني واحدة، سألته فأعطاني فيك. إنك أوّل من تنشق الأرض عنه يوم القيامة، وأنت معي معك لواء الحمد وأنت تحمله، وأعطاني أنك ولي المؤمنين من بعدي**»[٩٧١].

وأخرجه الحافظ ابن عساكر[٩٧٢].

والحافظ ابن الأثير[٩٧٣].

والمتقي الهندي، وفيه : «**علي مني وأنا من علي، وعلي ولي كل مؤمن بعدي**»[٩٧٤].

والملاحظ أن النبي(صلى الله عليه وآله) لم يستثن أحداً من ولاية علي بن أبي طالب عليه، حيث عبّر عن ذلك بقوله: «**وعلي ولي كل مؤمن بعدي**»، وهذا يستلزم دخول جميع الصحابة في ذلك بما فيهم الخلفاء السابقون له، إلاّ أن الجمهور قد تأوّل لفظة الولي،

(٩٦٤) جامع الترمذي ٥ : ٦٣٢.
(٩٦٥) الخصائص : ١٠٩ .
(٩٦٦) مسند أبي يعلى ١ : ٢٩٣ رقم ٣٥٥ ، وقال محققه : رجاله رجال الصحيح .
(٩٦٧) كنز العمال ١٣ : ٤٢ وقال (ش وابن جرير وصححه) .
(٩٦٨) الرياض النضرة للمحب الطبري ٣ : ١٢٩ .
(٩٦٩) المعجم الكبير ١٨ : ١٢٨ - ١٢٩ ، والأوسط ٥ : ٤٢٥.
(٩٧٠) المستدرك على الصحيحين ٣ : ١١٠ .
(٩٧١) تاريخ بغداد ٤ : ٣٣٩ .
(٩٧٢) تاريخ دمشق ٤٢ : ١٠٢ .
(٩٧٣) أسد الغابة ٣ : ٦٠٤ .
(٩٧٤) كنز العمال ١١ : ٦٠٨ وقال (ش عن عمران بن حصين ، صحيح).

كما سبق وعرضنا في الكلام على حديث الغدير، كما تأوّلوا لفظة الخليفة بأنها تعني الخلافة على الأهل.

الولاية مرة أخرى

إن مسألة التأويل للنصوص التي يصعب دفعها كانت إحدى الوسائل التي لجأ إليها الجمهور، للتخلص من التساؤلات التي تثيرها بعض الروايات الصحيحة التي لا يمكن الطعن في أسانيدها، إلاّ أن الأسلوب الذي لجأ إليه الوضّاعون في مقابلة النصوص بنصوص أُخرى تصرف الذهن عن المعاني الحقيقة لها، كانت هي الوسيلة الأقوى والأنجع لمعالجة هذا الإشكال ودفعه، وقد وجد بعض الحفّاظ والمحدّثين في الركون الى هذه النصوص الموضوعة خير وسيلة للتخلص من الحرج.

ومن الأمثلة التي نوردها على هذه المسألة، ما ذكره المفسّرون والحفّاظ والمحدثون في سبب نزول قوله تعالى : (**يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزلِ إليكَ مِنْ رَبِّكَ وَإنْ لَمْ تَفعَلْ فما بَلَّغْتَ رسالتهُ واللهُ يَعصِمكَ مِنَ النّاس**)[٩٧٥]، فقد تضاربت الأقوال فيها، بشكل يبعث على العجب عندما يُعرف السبب، فقد ربط ابن كثير سبب نزول هذه الآية، بآية الانذار المتقدم ذكرها، ولا أدري ما المناسبة في ربطهما؟! فان آية الانذار نزلت في السنة الثالثة من البعثة، بينما آية التبليغ هذه هي من سورة المائدة، والتي تذهب معظم الأقوال الى أنها آخر، أو من أواخر ما نزل من القرآن، في حجة الوداع أو بعدها. إلاّ أن ابن كثير - وبعد أن يروي- عن جابر بن عبدالله، قال: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) إذا خرج، بعث معه أبو طالب من يكلؤه، حتى نزلت (**والله يعصمك من الناس**) فذهب ليبعث معه، فقال: «**يا عم، إن الله قد عصمني، لا حاجة لي إلى من تبعث**». قال ابن كثير: وهذا حديث غريب، وفيه نكارة، فان هذه الآية مدنية، وهذا الحديث يقتضي أنها مكية... (ثم يروي عن عكرمة عن ابن عباس)، قال: كان رسول الله(صلى الله عليه وآله)يُحرس، فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه، حتى نزلت عليه هذه الآية : (**يا أيها الرسول بلّغ ...**)، قال: فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه، فقال : «**إن الله قد عصمني من الجن والانس ...**»، وهذا أيضاً حديث غريب، والصحيح أن هذه الآية مدنية، بل هي من أواخر ما نزل بها والله أعلم[٩٧٦]..

(٩٧٥) المائدة : ٦٧ .
(٩٧٦) تفسير القرآن العظيم ٢ : ٨١

ثم يورد ابن كثير عدداً آخر من الروايات، عن كعب القرظي، وجابر بن عبدالله، وأبي هريرة، وجعدة، وغيرهم في سبب نزول هذه الآية، ولكنه يعرض عن روايات اُخرى أخرجها الحفاظ والمفسّرون في سبب نزولها.

أما الفخر الرازي، فيقول: ذكر المفسّرون في سبب نزول الآية وجوهاً:

الأوّل : أنها نزلت في قصة الرجم والقصاص، على ما تقدّم في قصة اليهود.

الثاني : نزلت في عيب اليهود واستهزائهم بالدين، والنبي سكت عنه، فنزلت هذه الآية.

والثالث : لما نزلت آية التخيير، وهو قوله : (**يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لأزواجِكَ**)(٩٧٧). فلم يعرضها عليهن خوفاً من اختيارهن الدنيا، فنزلت.

الرابع : نزلت في أمر زيد وزينب بنت جحش. قالت عائشة(رض): من زعم أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) كتم شيئاً من الوحي، فقد أعظم الفرية على الله، والله تعالى يقول : (**يا أيها الرسول بلّغ**). ولو كتم رسول الله شيئاً من الوحي، لكتم قوله: (**وتَخفي في نفسكَ ما اللهُ مُبديهِ**)(٩٧٨).

الخامس : نزلت في الجهاد، فان المنافقين كانوا يكرهونه، فكان يمسك أحياناً عن حثّهم على الجهاد.

السادس : لما نزل قوله تعالى: (**وَلا تَسُبُّوا الذينَ يَدعونَ مِنْ دونِ اللهِ فيسبُّوا اللهَ عَدْواً بغيرِ عِلمٍ**)(٩٧٩)، سكت الرسول عن عيب آلهتهم، فنزلت الآية وقال: (**بلّغ**)، يعني معايب آلهتهم ولا تخفها عنهم، والله يعصمك منهم.

السابع : نزلت في حقوق المسلمين، وذلك لأنه قال في حجة الوداع ـلما بيّن الشرائع والمناسكـ «هل بلّغت»؟ قالوا: نعم. قال عليه الصلاة والسلام : «**اللهم فاشهد**»!

الثامن : روي أنه(صلى الله عليه وآله) نزل تحت شجرة في بعض أسفاره، وعلّق سيفه عليها، فأتاه أعرابي وهو نائم، فأخذ سيفه واخترطه وقال: يا محمّد، من يمنعك مني؟ فقال : «**الله**»، فرعدت يد الأعرابي، وسقط السيف من يده، وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله هذه الآية، وبيّن أنه يعصمه من الناس.

التاسع : كان يهاب قريشاً واليهود والنصارى، فأزال الله عن قلبه تلك الهيبة بهذه الآية!

(٩٧٧) الأحزاب : ٢٨ .
(٩٧٨) الأحزاب : ٣٧ .
(٩٧٩) الأنعام : ١٠٨ .

العاشر : نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب(عليه السلام)! ولما نزلت هذه الآية، أخذ بيده وقال : **«من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه»، فلقيه** عمر(رضي الله عنه) فقال: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وهو قول ابن عباس، والبراء بن عازب، ومحمد بن علي!

واعلم أن هذه الروايات وإن كثرت، إلاّ أن الأولى حملها على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره باظهار التبليغ من غير مبالاة بهم، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير، وما بعدها بكثير، لما كان كلاماً مع اليهود والنصارى، امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها![٩٨٠].

إن إعراض ابن كثير عن بعض الروايات، وإيراده الروايات التي قوبل بها النص الحقيقي في سبب نزول الآية أمر مفهوم، أما ترجيح الفخر الرازي للاحتمال الذي ذكره في سبب نزولها، فهو أمر يبعث على الاستغراب حقاً، فان الآية قد نزلت في العام الحادي عشر للهجرة، أي بعد أن قضى النبي(صلى الله عليه وآله)ثلاثاً وعشرين سنة في التبليغ والجهاد باللسان والسّنان، لا يخاف في الله لومة لائم، يعود بعد كل ذلك فينتابه القلق والخوف، وممن؟ من اليهود والنصارى، وبعد أن قضى على رجالهم وغنم أموالهم وطردهم من بلادهم، وقضى على شوكتهم نهائياً بعد خيبر، فهل يعقل أن يخشاهم النبي بعد كل ذلك؟! كما وأن هناك روايات تقول بأن النبي قد مات مسموماً من شاة قدّمتها له إمرأة يهودية، فأين العصمة من اليهود إذاً، إن صحّ ادعاء الرازي؟!.

السبب الحقيقي لنزول الآية

لا يخفى على الباحث المنصف، أن ذكر هذه الأسباب الكثيرة لنزول الآية، ماهو إلاّ عملية تمويه من أجل إخفاء السبب الحقيقي لذلك، وقد ذكره الأئمة الحفّاظ والمفسّرون في كتبهم، فقد قال الواحدي: قوله تعالى **(يا أيُّها الرّسولُ بلّغ ...)** الآية.

عن أبي سعيد الخدري قال : نزلت هذه الآية **(يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك)** يوم غدير خُم، في علي بن أبي طالب(رضي الله عنه)![٩٨١].

وعن ابن مسعود قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله) : **(يا أيُّها الرَّسولُ بلّغ ما أنزلَ إليكَ مِنْ ربّكَ** ـ أن علياً ولي المؤمنين- **وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فما بَلّغتَ رسالتهُ واللهُ يَعصمكَ مِنَ النّاس)**[٩٨٢].

(٩٨٠) التفسير الكبير ١٢ : ٤٩

(٩٨١) أسباب نزول القرآن : ٢٠٤ ، الدر المنثور ٣ : ١١٧ ، تاريخ دمشق ٤٢ : ٢٣٧ ، عمدة القاري ١٨ : ٢٠٦ ، فتح القدير للشوكاني ٢ : ٦٠

وقد كشفت الرواية التي أوردها الحاكم الحسكاني في تفسيره عن وجه المسألة، ودور بني اُمية في إخفاء السبب الحقيقي لنزول الآية، إذ روى عن زياد بن المنذر، قال: كنت عند أبي جعفر محمد بن علي، وهو يحدّث الناس، إذ قام إليه رجل من أهل البصرة يقال له: عثمان الأعشى ـ كان يروي عن الحسن البصري- فقال له: يابن رسول الله، جعلني الله فداك، إن الحسن يخبرنا أن هذه الآية نزلت بسبب رجل ولا يخبرنا من الرجل: (**يأيُّها الرَّسولُ بلّغ ...**)الآية. فقال: لو أراد أن يخبر به لأخبر به، ولكنه يخاف! إن جبرئيل هبط على النبي(صلى الله عليه وآله) فقال له: إن الله يأمرك أن تدل اُمتك على صلاتهم، فدلّهم عليها، ثم هبط فقال: إن الله يأمرك أن تدل اُمتك على وليّهم على مثل ما دللتهم عليه من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجهم، ليلزمهم الحجة من جميع ذلك، فقال رسول الله : «**يا رب إن قومي قريبو عهد بالجاهلية وفيهم تنافس وفخر، وما منهم رجل إلاّ وقد وتره وليّهم وإني أخاف. فأنزل الله تعالى : (يا أيُّها الرسول بلّغ ما أنزلَ إليْكَ من رَبّكَ وَإنْ لمْ تَفعلْ فما بلّغتَ رسالته)** -يريد فما بلغتها تامة- **والله يَعصمكَ منَ الناس)** فلما ضمن الله له بالعصمة وخوّفه، أخذ بيد علي بن أبي طالب، ثم قال : «**يا أيها الناس، من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه**».

كما وأورد الحسكاني روايات اُخرى عن أبي هريرة وابن عباس وعبدالله بن أبي أوفى في نفس المعنى(٩٨٣).

إن هذه النصوص، ونصوص اُخرى تدل على أن الاُمور قد سارت على غير الشاكلة التي تعودنا على مطالعتها منذ نعومة أظفارنا، فالقول بعدم وجود نص قد فقد مصداقيته تماماً، ولكن تبقى مسألة التأويل هي المشكلة، فالاعتراف بدلالة هذه النصوص أمر لا يقبله الجمهور، لأن في ذلك قلباً لكل الأحداث التي وقعت بعد وفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله)، واعترافاً بعدم شرعية كل ما درج الجمهور على تقديسه في شأن الخلافة، واتهاماً للصحابة بمخالفة النص النبوي، وفوق هذا وذاك، فكيف نفسّر الروايات التي يوردها الجمهور على لسان علي بن أبي طالب في تفضيل الشيخين عليه، وتهديده باقامة حدّ الافتراء على من يفضله عليهما! إن هذا يستدعي عودة الى الوراء قليلا...

(٩٨٢) الدر المنثور ٣ : ١١٧ ، فتح القدير ٢ : ٦٠ كلاهما عن ابن مردويه .
(٩٨٣) شواهد التنزيل ١ : ١٨٧ .

السقيفة

كانت أحداث سقيفة بني ساعدة وما جرى بعدها، أول مواجهة بين المسلمين والواقع الجديد الذي فرضه غياب النبي(صلى الله عليه وآله)، حيث كان وجوده بينهم بمثابة صمام الأمان للمشاكل التي كان يمكن أن تظهر لسبب أو لآخر، إلاّ أن غيابه المفاجئ قد جعلهم وجهاً لوجه أمام قضية هي أخطر وأهم القضايا التي واجهتها الأمة منذ وفاته(صلى الله عليه وآله) والى يومنا هذا، ألا وهي مسألة الخلافة والإمامة، وهي المسألة التي ظلت مدار الجدل بين المتكلمين من المسلمين على مرّ العصور، وكل فريق يدلي بحججه ومستنداته لدعم نظريته فيها، لذا كثر اللغط حول هذه القضية، وتضاربت الأخبار والروايات فيها، ومال الجمهور الى اعتماد الروايات التي تدعم نظريته، والتي توحي بأن شيئاً لم يقع سوى خلاف بسيط بين المهاجرين والأنصار، وأن الأنصار سرعان ما انصاعوا للمهاجرين بعد أن قرعهم المهاجرون بالحجة، وأما علي بن أبي طالب وبنو هاشم وعدد آخر من علية الصحابة، فقد بايعوا جميعاً دون تردد -حسب بعض تلك الروايات- أو بعد تردد بسيط حسب روايات أخرى، وانتهت المشكلة، وسارت الأمور على خير ما يرام، حيث يشير الى ما في معنى ذلك، القاضي ابن العربي الذي يلخص الأحداث بقوله: واضطربت الحال، ثم تدارك الله الإسلام ببيعة أبي بكر، فكان موت النبي(صلى الله عليه وآله) قاصمة الظهر، ومصيبة العمر، فأما علي فاستخفى في بيته مع فاطمة، وأما عثمان فسكت، وأما عمر فأهجر وقال: ما مات رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وإنما واعده ربه كما واعد موسى، وليرجعن رسول الله(صلى الله عليه وآله)فليقطعن أيدي ناس وأرجلهم.

وتعلق بال العباس وعلي بأمر أنفسهما في مرض النبي(صلى الله عليه وآله)، فقال العباس لعلي: إني أرى الموت في وجوه بني عبدالمطلب، فتعال حتى نسأل رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فان كان الأمر فينا علمناه!

وتعلق بال العباس وعلي بميراثهما فيما تركه النبي(صلى الله عليه وآله) من فدك وبني النضير وخيبر.

واضطرب أمر الأنصار يطلبون الأمر لأنفسهم، أو الشركة فيه مع المهاجرين، وانقطعت قلوب الجيش الذي كان قد برز مع أسامة بن زيد بالجرف. فتدارك الله الإسلام والأنام -وانجابت الغمة انجياب الغمام، ونفذ وعد الله باستئثار رسول الله، وإقامة دينه على التمام، وإن كان قد أصاب ما أصاب من الرزية الإسلام- بأبي بكر الصدّيق(رضي الله عنه)، فكشف عن وجهه، وأكب عليه يقبله وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، طبت حياً وميتاً، والله لا يجمع الله عليك الموتتين.

واجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة يتشاورون، ولا يدرون ما يفعلون، وبلغ ذلك المهاجرين فقالوا: نرسل إليهم يأتوننا، فقال أبو بكر: بل نمشي إليهم، فسار إليهم المهاجرون، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فتراجعوا الكلام، فقال بعض الأنصار: منا أمير ومنكم أمير.. فقال أبو بكر كلاماً كثيراً مصيباً، يكثر ويصيب، منه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**الأئمة من قريش**»، وقال «**أوصيكم بالأنصار خيراً، أن تقبلوا من محسنهم وتتجاوزوا عن مسيئهم**». إن الله سمّانا (الصادقين)، وسمّاكم (المفلحين)، وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنا، فقال: (**يا أيّها الذينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَكونُوا مَعَ الصادِقِينَ**)، إلى غير ذلك من الأقوال المصيبة والأدلة القوية، فتذكرت الأنصار ذلك، وانقادت إليه، وبايعوا أبا بكر الصدّيق(٩٨٤)(رضي الله عنه).

فالمسألة -حسب رأي ابن العربي- أن علياً قد اختفى في بيته مع فاطمة زوجته، ويبدو أن ابن العربي يعلل الأمر بأنه بدافع الحزن أو الصدمة لوقع المصيبة ليس إلاّ، ومع ذلك فعلي يبادر مع عمه العباس للاطمئنان على ميراثهما من رسول الله(صلى الله عليه وآله)، كأن ليس هناك أمر آخر يشغل بالهما، وأما الأنصار فتراجعوا جميعاً عن موقفهم بعد احتجاج أبي بكر عليهم، فليست هناك مشكلة حقيقية ولله الحمد.

أما ابن كثير، فيبدو أكثر عقلانية وموضوعية من ابن العربي، حيث يختار مجموعة من الروايات عن المحدثين في الغالب لدعم وجهة نظره التي يبينها فيما بعد، حيث أورد عن أبي سعيد الخدري، قال: قُبض رسول الله(صلى الله عليه وآله)واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة وفيهم أبو بكر وعمر. قال: فقام خطيب الأنصار فقال: أتعلمون أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) كان من المهاجرين، وخليفته من المهاجرين، ونحن كنّا أنصار رسول الله، ونحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره. قال: فقام عمر بن الخطاب فقال: صدق قائلكم، أما لو قلتم على غير هذا لم نبايعكم، وأخذ بيد أبي بكر

(٩٨٤) العواصم من القواصم : ٥٤

وقال: هذا صاحبكم فبايعوه، فبايعه عمر، وبايعه المهاجرون والأنصار. قال: فصعد أبو بكر المنبر، فنظر في وجوه القوم ولم ير الزبير، قال: فدعا بالزبير فجاء، فقال: قلت ابن عمة رسول الله(صلى الله عليه وآله)وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين! قال: لا تثريب يا خليفة رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فقام فبايعه، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير علياً، فدعا بعلي بن أبي طالب فجاء، فقال: قلت ابن عم رسول الله(صلى الله عليه وآله) وختنه على ابنته، أردت أن تشق عصا المسلمين! قال: لا تثريب يا خليفة رسول الله(صلى الله عليه وآله) فبايعه. هذا أو معناه.

وقال أبو علي الحافظ : سمعت محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول : جاءني مسلم بن الحجاج فسألني عن هذا الحديث، فكتبته له في رقعة وقرأته عليه، وهذا حديث يسوى بدنة، بل يسوى بدرة! وقد رواه البيهقي، عن الحاكم وأبي محمد بن حامد المقري، كلاهما، عن أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم، عن جعفر بن محمّد بن شاكر بن عفان بن سلم، عن وهيب به، ولكن ذكر أن الصدّيق هو القائل لخطيب الأنصار بدل عمر، وفيه: أن زيد بن ثابت أخذ بيد أبي بكر على المنبر، نظر في وجوه القوم فلم ير علياً. فسأل عنه، فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فذكر نحو ما تقدم، ثم ذكر قصة الزبير بعد علي. فالله أعلم.

وقد رواه علي بن عاصم عن الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري، فذكر نحو ما تقدم، وهذا إسناد صحيح محفوظ... وفيه فائدة جليلة وهي مبايعة علي بن أبي طالب إمّا في أول يوم، أو في اليوم الثاني من الوفاة. وهذا حق، فان علي بن أبي طالب لم يفارق الصدّيق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه.... ولكن لما حصل من فاطمة رضي الله عنها عتب على الصدّيق بسبب ما كانت متوهمة من أنها تستحق ميراث رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ولم تعلم بما أخبرها به الصدّيق(رضي الله عنه) أنه قال: «**لا نورث ما تركنا فهو صدقة**»، فحجبها وغيرها من أزواجه وعمه عن الميراث بهذا النص الصريح... فسألته أن ينظر علي في صدقة الأرض التي بخيبر وفدك، فلم يجبها إلى ذلك، لأنه رأى أن حقاً عليه أن يقوم في جميع ما كان يتولاه رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وهو الصادق البار الراشد التابع للحق(رضي الله عنه)، فحصل لها - وهي امرأة من البشر ليست براجية العصمة- عتب وتغضّب، ولم تكلّم الصدّيق حتى ماتت! واحتاج علي أن يراعي خاطرها بعض الشيء، فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها(صلى الله عليه وآله)، رأى علي أن يجدد

البيعة مع أبي بكر(رضي الله عنه) كما سنذكره من الصحيحين وغيرهما فيما بعد إن شاء الله تعالى، مما تقدم له من البيعة قبل دفن رسول الله(صلى الله عليه وآله).

ويزيد ذلك صحة، قول موسى بن عقبة في مغازيه، عن سعد بن إبراهيم، حدّثني أبي أن أباه عبدالرحمان بن عوف كان مع عمر، وأن محمد بن مسلمة كسر سيف الزبير، ثم خطب أبو بكر واعتذر الى الناس وقال: ما كنت حريصاً على الامارة يوماً ولا ليلة، ولا سألتها في سرّ ولا علانية، فقبل المهاجرون مقالته، وقال علي والزبير: ما غضبنا إلاّ لأنا أُخّرنا عن المشورة، وإنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها، وإنه لصاحب الغار، وإنا لنعرف شرفه وخبره، ولقد أمره رسول الله(صلى الله عليه وآله) أن يصلي بالناس وهو حي! إسناد جيد ولله الحمد والمنّة. ومن تأمل ما ذكرناه، ظهر له إجماع الصحابة -المهاجرين منهم والأنصار- على تقديم أبي بكر، وظهر برهان قوله(عليه السلام) : «**يأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر**»، وظهر له أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) لم ينص على الخلافة عيناً لأحد من الناس، لا لأبي بكر كما قد زعمه طائفة من أهل السنّة، ولا لعلي كما يقوله طائفة من الرافضة، ولكن أشار إشارة قوية يفهمها كل ذي لب وعقل الى الصدّيق كما قدّمنا...![٩٨٥]

رواية الطبري عن سيف

تكاد الروايات التي استعرضها ابن كثير حول موضوع الخلافة، تتطابق مع ما أخرجه الطبري عن سيف بن عمر الذي بدا أكثر حماساً لهذا الاتجاه، فقد أخرج عنه، قال: قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد: أشهدت وفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ قال: نعم. قال: فمتى بويع ابو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله(صلى الله عليه وآله)، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة! قال: فخالف عليه أحد؟ قال: لا، إلاّ مرتد، أو من قد كاد أن يرتد، لولا أن الله عزّوجل ينقذهم من الأنصار. قال: فهل قعد أحد من المهاجرين؟ قال: لا، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم.

وأخرج عنه أيضاً، قال : كان عليٌّ في بيته، إذ أُتي فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجلا كراهية أن يبطئ عنها حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث الى ثوبه فأتاه فتجلله، ولزم مجلسه![٩٨٦].

(٩٨٥) البداية والنهاية ٥ : ٢٤٥ وما بعدها .
(٩٨٦) تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٧ حوادث سنة ١١

ولكنهم قالوا : «لما أكثر في تخلف علي عن بيعة أبي بكر واشتد أبو بكر وعمر عليه في ذلك، خرجت أم مسطح بن أثاثة، فوقفت عند القبر وقالت:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة *** لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

إنّا فقدناك فقد الأرض وابلها *** واختلّ قومك فاشهدهم ولا تغب[٩٨٧] *** فما هي هذه الأمور وهذه الهنبثة التي ذكرتها أم مسطح وهي تشكو إلى القبر الشريف؟

الآراء المضادة

لقد كانت الآراء التي استعرضناها -والتي تناولها ابن كثير بشيء من التفصيل- تمثل وجهة نظر قسم من الجمهور في أمر السقيفة وما جرى فيها، وبقي لنا أن نتعرض للآراء الأخرى التي تمثل وجهة نظر مخالفي عامة الجمهور، وإن كانت في الحقيقة أمور يعترف بها الكثيرون ممن هم على مذهب الجمهور أيضاً.

لقد جمع ابن أبي الحديد الكثير من هذه الروايات واستقاها من مصادرها الرئيسة كتاريخ الطبري وكتاب السقيفة للجوهري إضافة لكتب المحدّثين الذين أوردوا مختلف الروايات فيها، حيث قال:

اختلفت الروايات في قصة السقيفة، فالذي تقوله الشيعة - وقد قال قوم من المحدّثين بعضه ورووا كثيراً منه- أن علياً(عليه السلام) امتنع من البيعة حتى أخرج كرهاً، وأن الزبير بن العوام امتنع من البيعة وقال: لا أبايع إلاّ علياً(عليه السلام)، وكذلك أبو سفيان بن حرب، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، والعباس بن عبد المطلب وبنوه، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وجميع بني هاشم. وقالوا: إن الزبير شهر سيفه، فلما جاء عمر ومعه جماعة من الأنصار وغيرهم، قال في جملة ما قال: خذوا سيف هذا فاضربوا به الحجر، ويقال إنه أخذ السيف من يد الزبير فضرب به حجراً فكسره، وساقهم كلهم بين يديه الى أبي بكر، فحملهم على بيعته، ولم يتخلف إلاّ علي(عليه السلام) وحده، فانه اعتصم ببيت فاطمة(عليها السلام)، فتحاموا إخراجه منه قسراً، وقامت فاطمة(عليها السلام) الى باب البيت، فأسمعت من جاء بطلبه، فتفرقوا عنه، وعلموا أنه بمفرده لا يضر شيئاً، فتركوه وقيل إنهم أخرجوه

(٩٨٧) شرح نهج البلاغة ٢ : ٥٠ عن الجوهري عن عمر بن شبة بسنده .

فيمن أخرج وحمل الى أبي بكر فبايعه، وقد روى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري كثيراً من هذا.

فأما حديث التحريق وما جرى من الأُمور الفظيعة، وقول من قال إنهم أخذوا علياً(عليه السلام) يُقاد بعمامته والناس حوله، فأمر بعيد، والشيعة تنفرد به، على أن جماعة من أهل الحديث قد رووا نحوه...![٩٨٨]

فيتبين من كلام المعتزلي، أن إسراع علي الى البيعة ـ كما ادعت بعض الروايات التي ذكرناها- تقابلها روايات اُخرى تقول بأنه ومعه عدد آخر من الناس قد امتنعوا عن البيعة، واعترف ابن أبي الحديد بأن المحدّثين قد أخرجوا ذلك أيضاً، ويبقى ادعاؤه حول الروايات الأُخرى في إخراج علي بن أبي طالب قسراً وإحراق بيت فاطمة ـ التي قال المعتزلي بتفرد الشيعة بروايتها أولا- لكنه يعود فيعترف بأن المحدّثين قد أخرجوا بعضاً منها، وسنحاول التعرض لها على الترتيب محاولين استشفاف الأحداث من مواقف أصحاب الشأن أنفسهم.

رواية عمر بن الخطاب

تعدّ رواية عمر بن الخطاب لبعض أحداث السقيفة من أهم الوثائق التي اُرّخت لهذه القضية، وقد أخرجها المؤرخون وأيدها المحدّثون، ولا يخلو مصدر مهم منها، وسوف أوردها بلفظ البخاري عن ابن عباس، قال: كنتُ أُقرئ رجالا من المهاجرين، منهم عبدالرحمان بن عوف، فبينما أنا في منزله بمنى وهو عند عمر بن الخطاب، في آخر جمعة حجّها، إذ رجع إليَّ عبدالرحمان فقال: لو رأيتَ رجلا أتى أمير المؤمنين اليوم فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر لقد بايعتُ فلاناً، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلاّ فلتةً فتمّت! فغضب عمر، ثم قال: إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذّرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغصبوهم اُمورهم. قال عبدالرحمان: فقلت يا أمير المؤمنين لا تفعل، فان الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم، فانهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وأنا أخشى أن تقوم فتقول مقالة يُطيّرها عنك كل مطيِّر، وأن لا يعوها وأن لا يضعوها على مواضعها، فأمهل حتى تقدم المدينة فانها دار الهجرة والسُّنة، فتخلص بأهل الفقه وأشراف الناس، فتقول ما قلت متمكناً، فيعي أهل العلم مقالتك ويضعونها على مواضعها. فقال عمر: أما والله إن شاء الله لأقومن بذلك أوّل مقام أقومه بالمدينة. قال

(٩٨٨) شرح نهج البلاغة ٢ : ٢١ .

ابن عباس: فقدمنا المدينة في عقب ذي الحجة، فلما كان يوم الجمعة عجّلنا الرواح حين زاغت الشمس حتى أجد سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل الى ركن المنبر فجلست حوله تمس ركبتي ركبته، فلم أنشب أن خرج عمر بن الخطاب، فلما رأيته مقبلا قلت لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ليقولن العشيّة مقالة لم يقلها منذ استخلف! فأنكر عليَّ وقال: ما عسيت أن يقول ما لم يقله قبله؟ فجلس عمر على المنبر، فلما سكت المؤذنون، قام فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فاني قائل لكم مقالة قد قُدّر لي أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدي أجلي، فمن عقلها ووعاها فليحدّث بها حيث انتهت به راحلته، ومن خشي أن لا يعقلها فلا اُحلّ لأحد أن يكذب عليَّ، إن الله بعث محمداً(صلى الله عليه وآله) بالحق وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله(صلى الله عليه وآله)ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البيّنة أو كان الحبل أو الاعتراف، ثم إنّا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو أن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم. ألا إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**لا تُطروني كما أُطري عيسى بن مريم، وقولوا عبدالله ورسوله**»، ثم إنه بلغني أن قائلا منكم يقول: والله لو مات عمر بايعتُ فلاناً، فلا يغترنّ امرؤ أن يقول إنما كانت بيعة أبي بكر فلتةً وتمّت، ألا إنها قد كانت كذلك، ولكن وقى الله شرّها، وليس منكم من تُقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، من بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين، فلا يبايَع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يُقتلا، وإنه قد كان من خبرنا حين توفى الله نبيه(صلى الله عليه وآله)، إلاّ أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنّا عليٌّ والزبير ومن معهما! واجتمع المهاجرون الى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر، انطلق بنا الى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم، لقينا منهم رجلان صالحان، فذكرا ما تمالى عليه القوم، فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم، فقلت: والله لنأتينّهم، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فاذا رجل مزمّل بين ظهرانيهم، فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة. فقلت: ماله؟ قالوا: يوعك. فلما جلسنا قليلا تشهّد خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفّت دافّة من قومكم، فاذا هم

يريدون أن يختزلونا من أصلنا وأن يحضنونا من الأمر. فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنتُ زوّرت مقالة أعجبتني أريد أن اقدّمها بين يدي ابي بكر، وكنت اُواري منه بعض الحد. فلما أردت أن أتكلم، قال أبو بكر: على رسلك، فكرهت أن اُغضبه، فتكلّم أبو بكر فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلاّ قال في بديهته مثلها أو أفضل منها حتى سكت، فقال ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يُعرف هذا الأمر إلاّ لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن اُقدّم فتضرب عنقي لا يقرّبني ذلك من إثم أحب إليَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلاّ أن تسوِّل إليّ نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن، فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكَّك، وعُذيقها المرجَّب، منّا أمير ومنكم أمير، يا معشر قريش، فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقتُ من الاختلاف، فقلت: اُبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعته الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، فقلت: قتل الله سعد بن عبادة. قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلا منهم بعدنا، فإمّا بايعناهم على ما لا نرضى، وإما نخالفهم فيكون فساد، فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين، فلا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرةً أن يُقتلا[٩٨٩].

وهذه الوثيقة التاريخية المهمة تحتاج الى تفصيل بعض فقراتها.

المعارضون للبيعة

وجدنا في الرواية اعترافاً من عمر بن الخطاب بأن علياً والزبير ونفراً آخرين لم يسمِّهم قد تخلفوا عن بيعة أبي بكر وأحداث السقيفة في بيت فاطمة. وقد نقل ابن أبي الحديد عن أبي بكر أحمد بن عبدالعزير الجوهري- بعد أن وصفه بأنه من رجال

(٩٨٩) صحيح البخاري ٨ : ٢٠٨ كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة ، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، مسند أحمد ١ : ٥٥ ، تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٣ ، البداية والنهاية ٥ : ٢٤٥ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي : ٥١ ، تاريخ الإسلام للذهبي عهد الخلفاء الراشدين صفحة ٦ وقال: متفق على صحته، سيرة ابن هشام ٤ : ٢٦١ ، أنساب الاشراف للبلاذري ١ : ٥٨٣ ، تاريخ اليعقوبى ٢ : ١٢٣ ، البدء والتاريخ للمقدسي ٥ : ٦٤ ، نهاية الأرب للنويري ١٩ : ٢٩ ، عيون التواريخ للكتبي ١ : ٤٨٥ ، مناقب عمر لابن الجوزي : ٥١ ، الكامل في التاريخ ٢ : ١٢٤ حوادث سنة ١١ هـ. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢٢ .

الحديث ومن الثقات المأمونين[٩٩٠]، وأن ما أورده متفق مع ما ذكره المحدّثون وأرباب السيرة- قال:

وكثر الناس على أبي بكر، فبايعه معظم المسلمين في ذلك اليوم، واجتمعت بنو هاشم الى بيت علي بن أبي طالب ومعهم الزبير -وكان يعدّ نفسه رجلا من بني هاشم، كان علي يقول: ما زال الزبير منّا أهل البيت، حتى نشأ بنوه فصرفوه عنا-، واجتمعت بنو اُمية الى عثمان بن عفان، واجتمعت بنو زهرة الى سعد وعبدالرحمان، فأقبل عمر إليهم وأبو عبيدة فقال: مالي أراكم متثاقلين؟ قوموا فبايعوا أبا بكر فقد بايع له الناس وبايعه الأنصار، فقام عثمان ومن معه، وقام سعد وعبدالرحمان ومن معهما، فبايعوا أبا بكر.

وذهب عمر ومعه عصابة الى بيت فاطمة، منهم اُسيد بن حضير، وسلمة بن أسلم، فقال لهم: انطلقوا فبايعوا، فأبوا عليه، وخرج إليهم الزبير بسيفه، فقال عمر: عليكم الكلب! فوثب عليه سلمة بن أسلم فأخذ السيف من يده فضرب به الجدار[٩٩١].

ثم انطلقوا به وبعلي ومعهما بنو هاشم، وعلي يقول: أنا عبدالله وأخو رسول الله(صلى الله عليه وآله)، حتى انتهوا به الى أبي بكر، فقيل له: بايع، فقال: أنا أحق بهذا الأمر منكم، لا اُبايعكم، وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله، فأعطوكم المقادة، وسلّموا إليكم الإمارة، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، فأنصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم، واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم، وإلاّ فبوؤوا بالظلم وأنتم تعلمون.

فقال عمر : إنك لست متروكاً حتى تبايع. فقال له علي: احلب يا عمر حلباً لك شطره! اشدد له اليوم أمره ليردّه عليك غداً! ألا والله لا أقبل قولك ولا اُبايعه! فقال له أبو بكر: فان لم تبايعني لم اُكرهك. فقال له أبو عبيدة: يا أبا الحسن، إنك حديث السن، وهؤلاء مشيخة قريش قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالاُمور، ولا أرى أبا بكر إلاّ أقوى على هذا الأمر منك، وأشدّ احتمالا له، واضطلاعاً به، فسلّم له هذا الأمر وارض به، فانك إن تعش ويُطل عمرك فأنت لهذا الأمر خليق وبه حقيق، في فضلك وقرابتك، وسابقتك وجهادك.

(٩٩٠) شرح نهج البلاغة ٢ : ٦٠

(٩٩١) في تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٢ قال : أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين ، فقال : والله لأحرقنّ عليكم أو لتخرجن إلى البيعة ، فخرج عليه الزبير مصلتاً بالسيف ، فعثر فسقط السيف من يده ، فوثبوا عليه فأخذوه .

فقال علي : يا معشر المهاجرين، الله الله! لا تُخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقّه، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أهل البيت أحق بهذا الأمر منكم، أما كان منّا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، العالم بالسنّة، المضطلع بأمر الرعية، والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى، فتزدادوا من الحق بعداً!

فقال بشير بن سعد : لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار يا علي قبل بيعتهم لأبي بكر، ما اختلف عليك اثنان، ولكنهم قد بايعوا.

وانصرف علي إلى منزله ولم يبايع، ولزم بيته حتى ماتت فاطمة فبايع(٩٩٢).

فادعاء ابن كثير بمبادرة علي الى بيعة أبي بكر، تناقضه هذه الأخبار، وأخبار أُخرى بروايات عن المحدّثين، فقد أخرج جمع من المحدّثين والمؤرخين أن علياً لم يبايع أبا بكر حتى توفيت فاطمة، قالوا -واللفظ للبخاري ضمن رواية سنوا فيك بتمامها فيما بعد-: وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن يبايع تلك الأشهر ... الخ(٩٩٣).

عليّ قبل البيعة وبعدها

إن السؤال المتبادر الى الذهن هو : ماذا كان يفعل علي بن أبي طالب طيلة هذه الأشهر التي سبقت البيعة؟ هل كان جالساً في بيته ساكتاً على ما يجري دون أن يحرك ساكناً، هل اقتنع بأنه قد دُفع عن الخلافة فغسل يده منها وكفّ عن المطالبة بها؟

قال ابن أبي الحديد نقلا عن الجوهري : إن علياً حمل فاطمة على حمار، وسار بها ليلا إلى بيوت الأنصار، يسألهم النصرة، وتسألهم فاطمة الانتصار له، فكانوا يقولون: يا بنت رسول الله، قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، لو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر ما عدلنا به. فقال علي: أكنت أترك رسول الله ميتاً في بيته لا أجهزه، وأخرج الى الناس أنازعهم في سلطانه!

(٩٩٢) شرح نهج البلاغة ٦ : ١١ ، الإمامة والسياسة ١ : ٢٨ .

(٩٩٣) صحيح البخاري ٥ : ١٧٨ كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر، صحيح مسلم ٣ : ١٣٨٠ كتاب الجهاد والسير ، تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٧ ـ ٢٠٨ وفيه : قال معمر : فقال رجل للزهري : أفلم يبايعه علي ستة أشهر؟ قال : لا ، ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي . البداية والنهاية ٥ : ٢٠١ باب بيان أنه (ع) قال : لا نورث .

وقالت فاطمة : ما صنع أبو حسن إلاّ ما كان ينبغي له، وصنعوا هم ما الله حسيبهم عليه(٩٩٤).

وقد تهكّم معاوية على علي بن أبي طالب في هذا الأمر، وقال له في كتاب بعثه إليه: وأعهدك أمس تحمل قعيدة بيتك ليلا على حمار، ويداك في يدي ابنيك الحسن والحسين، يوم بويع أبو بكر الصدّيق، فلم تدع أحداً من أهل بدر والسوابق إلاّ دعوتهم الى نفسك، ومشيت إليهم بامرأتك، وأدليت إليهم بابنيك، واستنصرتهم على صاحب رسول الله، فلم يجبك منهم إلاّ أربعة أو خمسة، ولعمري لو كنت محقاً لأجابوك، ولكنك ادعيت باطلا، وقلت ما لا تعرف، ورمت ما لايدرك، ومهما نسيت فلا أنسى قولك لأبي سفيان لما حرّكك وهيّجك: لو وجدتُ أربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم، فما يوم المسلمين منك بواحد، ولا بغيك على الخلفاء بطريف ولا مستبدع(٩٩٥). وكتاب معاوية هذا يثير قضية اُخرى، ويعطي لمحات لما جرى بعد السقيفة.

مواقف بعض الصحابة من السقيفة

قلنا إن كتاب معاوية لعلي قد أثار قضية; ألا وهي: موقف أبي سفيان من بيعة أبي بكر وعلي، وردّ علي عليه، ولقد أشار علي بن أبي طالب في جوابه على كتاب معاوية الى هذا الأمر فمما فيه :

وقد أتاني أبوك حين ولّى الناس أبا بكر، فقال : أنت أحق بمقام محمد، وأولى الناس بهذا الأمر، وأنا زعيم لك بذلك على من خالف، أبسط يدك اُبايعك، فلم أفعل، وأنت تعلم أن أباك قد قال ذلك وأراده حتى كنتُ أنا الذي أبيتُ، لقرب عهد الناس بالكفر، مخافة الفرقة بين أهل الإسلام، فأبوك كان أعرف بحقي منك، فإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرف تصب رشدك، وإن لم تفعل فسيغني الله عنك، والسلام(٩٩٦).

وقد أخرج الطبري عن هشام بسنده قال : لما اجتمع الناس على بيعة أبي بكر، أقبل أبو سفيان وهو يقول: والله إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلاّ دم! يا آل عبد مناف، فيم أبو بكر من اُموركم! أين المستضعفان، أين الأذلاّن علي والعباس؟ وقال: أبا حسن، أبسط يدك حتى اُبايعك، فأبى علي عليه، فجعل يتمثّل بشعر المتلمّس:

ولن يُقيم على خسف يُراد به *** إلاّ الأذلاّن عَيرُ الحي والوتد

هذا على الخسف معكوس برمته *** وذا يُشجّ فلا يبكي له أحد

(٩٩٤) شرح نهج البلاغة ٦ : ١٣ ، الامامة والسياسة ١ : ٢٩ ـ ٣٠

(٩٩٥) شرح نهج البلاغة ٦ : ٤٧ .

(٩٩٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥ : ٧٨

قال : فزجره علي وقال : إنك والله ما أردت بهذا إلاّ الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرّاً، لا حاجة لنا في نصيحتك(٩٩٧).

وأخرج عن محمد بن عثمان الثقفي بسنده قال : لما استخلف أبو بكر قال أبو سفيان: مالنا ولأبي فصيل! إنما هي بنو عبد مناف! قال: فقيل له: إنه قد ولّى إبنك، قال: وصلته رحم!(٩٩٨).

وأخرج أيضاً عن محمد بن عثمان بسند فيه مالك بن مغول، قال: قال أبو سفيان لعلي: ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش! والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا. قال: فقال علي: يا أبا سفيان، طالما عاديت الإسلام وأهله فلم تضره بذاك شيئاً، إنّا وجدنا أبا بكر لها أهلا!(٩٩٩).

إن هذه الرواية لا تتفق مع مواقف علي في رفض البيعة لأبي بكر طيلة ستة أشهر، مما ينفي قناعة علي بأهلية أبي بكر.

وروى ابن أبي الحديد عن الجوهري في كتابه (السقيفة) عن عمر بن شبة بسنده قال: كان النبي(صلى الله عليه وآله) قد بعث أبا سفيان ساعياً، فرجع من سعايته وقد مات رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فلقيه قوم فسألهم فقالوا: مات رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فقال: من ولي بعده؟ قيل: أبو بكر. قال: أبو فصيل! قالوا: نعم. قال: فما فعل المستضعفان : علي والعباس! أما والذي نفسي بيده لأرفعن لهما من أعضادهما.

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز : وذكر الراوي -وهو جعفر بن سليمان- أن أبا سفيان قال شيئاً آخر لم تحفظه الرواة، فلما قدم المدينة قال: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلاّ الدم! قال: فكلّم عمر أبا بكر فقال: إن أبا سفيان قد قدم، وإنّا لا نأمن شرّه، فدع له ما في يده، فتركه فرضي!(١٠٠٠).

أما ادعاء معاوية بأن علياً قال لأبي سفيان ما معناه إنه لو وجد أربعين رجلا ذوي عزم لناهض القوم، فيؤيده ما أخرجه اليعقوبي، قال: واجتمع جماعة الى علي بن أبي طالب يدعونه الى البيعة، فقال لهم: اغدوا عليّ محلّقين الرؤوس، فلم يغد عليه إلاّ ثلاثة نفر(١٠٠١).

(٩٩٧) تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٩ حوادث ١١ هـ.
(٩٩٨) المصدر السابق.
(٩٩٩) تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٩ حوادث ١١ هـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٤٥ .
(١٠٠٠) شرح نهج البلاغة ٢ : ٤٤ العقد الفريد لابن عبد ربه ٣ : ٦٢ ، تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٠٥
(١٠٠١) تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٠٥

وروى المعتزلي عن الجوهري بسنده : أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) لمّا مات وأبو ذر غائب، وقدم وقد ولّي أبو بكر، فقال: أصبتم قناعه وتركتم قرابه، لو جعلتم هذا الأمر في أهل بيت نبيكم لما اختلف عليكم اثنان(١٠٠٢).

ويبدو أن موقف أبي ذر قد استمر حتى بعد مبايعة عثمان بن عفان، إذ روى اليعقوبي أنه قال: وعلي بن أبي طالب وصيّ محمد ووارث علمه، أيتها الأمة المتحيّرة بعد نبيها، أما لو قدّمتم من قدّم الله، وأخّرتم من أخّر الله، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم، لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عال وليّ الله، ولا طاش سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله إلاّ وجدتم علم ذلك عندهم من كتاب الله وسنّة نبيّه، فأما إذا فعلتم ما فعلتم، فذوقوا وبال أمركم، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون(١٠٠٣).

وروى أبو بكر أحمد بن عبدالعزيز، عن حباب بن يزيد، عن جرير بن المغيرة، أن سلمان والزبير والأنصار كان هواهم أن يبايعوا علياً(عليه السلام) بعد النبي(صلى الله عليه وآله)، فلما بويع أبو بكر، قال سلمان: أصبتم الخبرة وأخطأتم المعدن.

قال أبو بكر (الجوهري) : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة، قال: حدّثنا علي ابن أبي هاشم، قال: حدثنا عمرو بن ثابت، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: قال سلمان يومئذ: أصبتم ذا السن منكم، واخطأتم أهل بيت نبيكم، لو جعلتموها فيهم ما اختلف عليكم اثنان، ولأكلتموها رغداً(١٠٠٤).

وروى أيضاً بسنده، قال : كان خالد بن سعيد بن العاص من عمال رسول الله(صلى الله عليه وآله) على اليمن، فلما قُبض رسول الله(صلى الله عليه وآله)، جاء المدينة وقد بايع الناس أبا بكر، فاحتبس عن أبي بكر فلم يبايعه أياماً وقد بايع الناس، وأتى بني هاشم فقال: أنتم الظهر والبطن والشعار دون الدثار، والعصا دون اللحا، فاذا رضيتم رضينا، وإذا سخطتم سخطنا، حدثوني إن كنتم قد بايعتم هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: على برد ورضا من جماعتكم؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أرضى وأُبايع إذا بايعتم. أما والله إنكم الطوّال الشجر، الطيّبو الثمر.

ثم إنه بايع أبا بكر، وبلغت أبا بكر فلم يحفل بها، واضطغنها عليه عمر، فلما ولاّه أبو بكر الجند الذي استنفر الى الشام، قال له عمر: أتولّي خالداً وقد حبس عليك بيعته وقال لبني هاشم ما قال! وقد جاء بورق من اليمن وعبيد وحُبشان ودروع ورماح! ما

(١٠٠٢) شرح نهج البلاغة ٦ : ١٣ .
(١٠٠٣) تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٢٠ .
(١٠٠٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٤٩

أرى أن توليه، ولا آمن خلافه. فانصرف عنه أبوبكر، وولى أبا عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة[١٠٠٥].

وفي تاريخ اليعقوبي أنه «أتى علياً فقال: هلم أُبايعك فوالله ما في الناس أحد أولى بمقام محمد منك»[١٠٠٦]

معارضة الأنصار

تعرفنا من رواية عمر بن الخطاب على مجريات الأمور في السقيفة بشكل مقتضب، وقد أورد المؤرخون الرواية بشكل أكثر تفصيلا وفيها يمكن التعرف على موقف الأنصار بصورة أفضل، وقد نقلها المؤرخون عن الطبري ومنهم ابن أبي الحديد -واللفظ له- بشيء من الاختصار، قال:

روى أبو جعفر في التاريخ، أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) لما قبض اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأخرجوا سعد بن عبادة ليولّوه الخلافة، وكان مريضاً، فخطبهم ودعاهم الى إعطائه الرياسة والخلافة فأجابوه، ثم ترادوا الكلام فقالوا: فان أبى المهاجرون وقالوا: نحن أولياؤه وعترته؟ فقال قوم من الأنصار: نقول: منا أمير ومنكم أمير. فقال سعد: فهذا أول الوهن!

وسمع عمر الخبر فأتى منزل رسول الله(صلى الله عليه وآله) وفيه أبو بكر، فأرسل إليه أن اخرج إليَّ، فأرسل: إني مشغول، فأرسل إليه عمر أن اخرج فقد حدث أمر لابد أن تحضره، فخرج فأعلمه الخبر، فمضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة، فتكلم أبو بكر، فذكر قرب المهاجرين من رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وأنهم أولياؤه وعترته، ثم قال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نفتات عليكم بمشورة، ولا نقضي دونكم الأمور.

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال: يا معشر الأنصار، املكوا عليكم أمركم فان الناس في ظلّكم، ولن يجترئ مجتري على خلافكم، ولا يصدر أحد إلاّ عن رأيكم، أنتم أهل العزّة والمنعة وأُولو العدد والكثرة، وذوو البأس والنجدة، وإنما ينظر الناس ما تصنعون، فلا تختلفوا فتفسد عليكم أُموركم، فإن أبى هؤلاء إلاّ ما سمعتم، فمنا أمير ومنهم أمير. فقال عمر: هيهات، لا يجتمع سيفان في غمد، والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيّها من غيركم، ولا تمتنع العرب أن تولي أمرها من كانت النبوة منهم، من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته!

(١٠٠٥) المصدر السابق ٢ : ٥٨ .
(١٠٠٦) تاريخ اليعقوبي ٢ : ١٠٥

فقال الحباب بن المنذر : يا معشر الأنصار، املكوا أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فان أبوا عليكم فأجلوهم من هذه البلاد، فأنتم أحق بهذا الأمر منهم، فانه بأسيافكم دان الناس بهذا الدين، أنا جُذيلها المحكّك، وعُذيقها المرجّب، أنا أبو شبل في عريسة الأسد، والله إن شئتم لنعيدنا جذعة!

فقال عمر : إذاً يقتلك الله. قال : بل إياك يقتل.

فقال أبو عبيدة : يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر!

فقام بشير بن سعد -والد النعمان بن بشير- فقال : يا معشر الأنصار، ألا إن محمداً من قريش، وقومه أولى به، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر.

فقال أبو بكر : هذا عمر وأبو عبيدة، بايعوا أيهما شئتم. فقالا: والله لا نتولى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين، وخليفة رسول الله صلى الله عليه في الصلاة -وهي أفضل الدين- أبسط يدك، فلما بسط يده ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر: يا بشير، عققتَ عقاق! أنفست على ابن عمك الإمارة! فقال أسيد بن حُضير رئيس الأوس لأصحابه: والله لئن لم تبايعوا ليكونن للخزرج عليكم الفضيلة أبداً. فقاموا فبايعوا أبا بكر.

فانكسر على سعد بن عبادة والخزرج ما اجتمعوا عليه، وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب، ثم حُمل سعد بن عبادة الى داره، فبقي أياماً، وأرسل إليه أبو بكر ليبايع، فقال: لا والله حتى أرميكم بما في كنانتي، وأُخضّب سنان رمحي، وأضرب بسيفي ما أطاعني، وأقاتلكم بأهل بيتي من تبعني، ولو اجتمع معكم الجن والانس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي.

فقال عمر : لا تدعه حتى يبايع، فقال بشير بن سعد: إنه قد لجّ، وليس بمبايعكم حتى يُقتل، وليس بمقتول حتى يُقتل معه أهله وطائفة من عشيرته، ولا يضركم تركه، إنما هو رجل واحد، فتركوه.

وجاءت أسلم فبايعت، فقوي بهم جانب أبي بكر، وبايعه الناس(١٠٠٧).

وفي تاريخ الطبري : فكان عمر يقول : ما هو إلاّ أن رأيت أسلم، فأيقنت بالنصر!

وفيه أيضاً : فكان سعد لا يصلّي بصلاتهم، ولا يجمع معهم، ويحج ولا يفيض معهم بافاضتهم، فلم يزل كذلك حتى هلك أبو بكر رحمه الله(١٠٠٨).

(١٠٠٧) شرح نهج البلاغة ٢ : ٣٧ .

يتبين مما سبق أن الأنصار قد عارضوا أن تكون الخلافة في قريش مطلقاً، ولكنهم اجتمعوا في السقيفة جميعاً وقلوبهم شتّى، فقد كانوا في البداية فريقين متنافسين في الباطن، وهما الأوس والخزرج، ثم انقسم الخزرج على أنفسهم أيضاً، حينما انشق بشير بن سعد على قومه فبادر الى مبايعة أبي بكر، فازداد ضعف موقف الأنصار الذي كان بالأصل ضعيفاً، ووصفه سعد بن عبادة بأنه أوّل الوهن حينما افترضوا منذ البداية معارضة قريش لهم ورضوا بالشركة. وأما المهاجرون، فانهم على قلة عددهم كانوا متحدين، وقد أفلجت حججهم على الأنصار، فراح أبو بكر يستشهد بالآيات القرآنية محتجاً عليهم، وعمر يحتج عليهم بالقرابة من النبي وزعامة قريش وانقياد الناس لها، بينما نجد خطيب الأنصار يدعو بدعوة الجاهلية ويتهدد باعادتها جذعة، فكانت حجة المهاجرين أقوى وأبلغ، وراح خطيب الأنصار يتشبث بقومه إذ أحس منهم الميل الى مقالة المهاجرين ولكن دون جدوى، فتمت البيعة لأبي بكر على وجه السرعة، وتراجع الأنصار عن موقفهم، ولم يثبت منهم على موقفه غير زعيمهم سعد بن عبادة الذي أبى أن يبايع لأبي بكر ومن بعده لعمر، وخرج الى الشام. «فقتل هناك سنة ١٥ هـ»[١٠٠٩].

وقال ابن سعد : إنه جلس يبول في نفق فاقتُتل فمات من ساعته ووجدوه قد اخضر جلده[١٠١٠].

وقال ابن عبد البر وابن الأثير : لم يبايع سعد أبا بكر ولا عمر، وسار الى الشام فأقام بحوارين الى أن مات سنة ١٥ هـ ، ولم يختلفوا في أنه وجد ميتاً على مغتسله وقد اخضر جلده، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلا يقول من بئر ولا يرون أحداً...[١٠١١]

وقال ابن عبد البر : رُمي سعد بن عبادة بسهم ، فوجد دفيناً في جسده فمات. فبكته الجنّ فقالت :

وقتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة *** ورضياه بسهمين فلم نُخطي فؤاده!![١٠١٢] *** ولا أدري ما سرّ العداء بينه وبين الجن حتى تقتله بسهم غادر، والأغرب من ذلك أن الجنّ ترثيه بعد قتله!

(١٠٠٨) تاريخ الطبري ٣ : ٢١٨ ـ ٢٢٣ شرح نهج البلاغة ٦ : ١٠
(١٠٠٩) مروج الذهب للمسعودي ١ : ٤١٤
(١٠١٠) الطبقات الكبرى ٣ : ٢ / ١٤٥
(١٠١١) أسد الغابة ٢ : ٢٨٥ ، الاستيعاب ٢ : ٣٧
(١٠١٢) العقد الفريد ٣ : ٦٤

لكن القصة الحقيقية التي أعرض بعض المؤرخين -كالطبري- عن ذكرها، هي ما ذكره البلاذري من أن عمر بعث رجلا وقال له: ادعه الى البيعة واحتل له، فان أبى فاستعن الله عليه! فقدم الرجل الشام فوجد سعداً في حائط بحوارين فدعاه الى البيعة، فقال: لا أُبايع قرشياً أبداً! قال: فاني أُقاتلك. قال: وإن قاتلتني. قال: أفخارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟ قال: أما من البيعة فاني خارج.

فرماه بسهم فقتله(١٠١٣).

لقد ذهب سعد بن عبادة ضحية لسياسة الوقت، وقُيّدت الجريمة ضد جنّيٍّ مجهول لا سبيل للوصول إليه والتحقيق معه، فأُغلق المحضر! ولسنا نقول ذلك جزافاً، فاننا عندما نتصفح صحيح البخاري نجده يصف سعد بن عبادة على لسان عائشة بقولها: وكان قبل ذلك رجلا صالحاً!(١٠١٤).

وفي حديث الإفك، قالت عائشة : فقام رجل من الخزرج، وكانت أم حسّان بنت عمه من فخذه، وهو سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، قالت: وكان قبل ذلك رجلا صالحاً، ولكن احتملته الحمية...(١٠١٥)

فيا للعجب من هذا الصحابي العظيم الذي أصبح فيما بعد رجلا غير صالح! ولا أدري كيف يتفق ذلك مع القول بفضل جميع الصحابة وصلاحهم وعدالتهم، وبأنهم جميعاً من أهل الجنة، ولكن سعد بن عبادة ينقلب برأي عائشة الى رجل غير صالح! ولماذا؟ لأن السياسة اقتضت ذلك، فلم يكف اغتياله سراً بسهم مسموم، بل تعدى الأمر الى تشويه صورته أيضاً!

كشف بيت فاطمة

ذكر أبو عبيد في كتاب الأموال أن أبا بكر قال قبيل وفاته : إني لا آسى على شيء من الدنيا إلاّ على ثلاث فعلتهن وددت أني تركتهن، وثلاث تركتهن وددت أني فعلتهن، وثلاث وددت أني سألت عنهن رسول الله: وددت أني لم أكن كذا وكذا لخلة ذكرها لا أُريد ذكرها!(١٠١٦).

(١٠١٣) أنساب الاشراف ١: ١٤١، العقد الفريد ٣ : ٦٤ .
(١٠١٤) صحيح البخاري ٥ : ٤٥ باب مناقب الأنصار . منقبة سعد بن عبادة.
(١٠١٥) المصدر السابق ٦ : ١٥١ باب حديث الافك
(١٠١٦) كتاب الأموال : ١٣١ .

ولكن المؤرخين ذكروا ذلك الشيء الذي فعله أبو بكر ثم ندم على فعله، حيث قال الطبري: قال أبو بكر(رضي الله عنه): أجل، إني لا آسى على شيء من الدنيا إلاّ على ثلاث فعلتهن وددت أني تركتهن، وثلاث تركتهن وددت أني فعلتهن، وثلاث وددت أني سألت عنهن رسول الله(صلى الله عليه وآله). فأما الثلاث اللاتي وددت أني تركتهن، فوددت أني لم أكشف بيت فاطمة عن شيء، وإن كانوا قد غلّقوه على الحرب...الخ(١٠١٧)

وذكره أيضاً مجموعة من المؤرخين والحفّاظ(١٠١٨).

وخلاصة الحادثة كما يرويها المؤرخون والمحدّثون، أن عمر بن الخطاب أتى منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين، فقال: والله لأحرقن عليكم أو لتخرجن الى البيعة! فخرج عليه الزبير مصلتاً بالسيف، فعثر فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه فأخذوه(١٠١٩).

وأخرج ابن أبي الحديد أيضاً عن الجوهري بسنده، قال : قال أبو بكر : يا عمر، أين خالد بن الوليد؟ قال: هو هذا، فقال: انطلقا إليهما -يعني علياً والزبير- فأتياني بهما، فانطلقا، فدخل عمر ووقف خالد على الباب من خارج، فقال عمر للزبير: ما هذا السيف؟ قال: أعددته لأبايع علياً. قال: وكان في البيت ناس كثير، منهم المقداد بن الأسود وجمهور الهاشميين، فاخترط عمر السيف فضرب به صخرة في البيت فكسره، ثم أخذ بيد الزبير، فأقامه ثم دفعه فأخرجه وقال: يا خالد، دونك هذا، فأمسكه خالد -وكان خارج البيت مع خالد جمع كثير من الناس، أرسلهم أبو بكر ردءاً لهما- ثم دخل عمر فقال لعلي: قم فبايع. فتلكأ واحتبس، فأخذ بيده وقال: قم. فأبى أن يقوم. فحمله ودفعه كما دفع الزبير، ثم أمسكهما خالد، وساقهما عمر ومن معه سوقاً عنيفاً، واجتمع الناس ينظرون، وامتلأت شوارع المدينة بالرجال، ورأت فاطمة ما صنع عمر، فصرخت وولولت، واجتمع معها نساء كثير من الهاشميات وغيرهن، فخرجت الى باب حجرتها ونادت: يا أبا بكر، ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله! والله لا أكلم عمر حتّى ألقى الله.

(١٠١٧) تاريخ الطبري ٣ : ٤٣٠ ذكر استخلافه عمر(رض) حوادث سنة ١٣ هـ

(١٠١٨) تاريخ اليعقوبي ٢ : ١١٥ ، الإمامة والسياسة ١ : ٣٦ وفيه : وليتني تركت بيت علي وإن كان اعلن علي الحرب، العقد الفريد ٣ : ٦٩ استخلاف أبي بكر لعمر، شرح نهج البلاغة ٢ : ٤٦ عن الكامل للمبرد ، تاريخ الإسلام للذهبي : عهد الخلفاء الراشدين ، صفحة ١١٧ ترجمة أبو بكر الصدّيق، الكامل للمبرد ١ : ٥ ، المعجم للطبراني ١ : ٦٢ رقم ٤٣ ، لسان الميزان ١ : ٣٨٨ ، كنز العمال ٣ : ١٣٥ ، منتخب كنز العمال ٢ : ١٧١ .

(١٠١٩) تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٢ حوادث سنة ١١ هـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد عن الجوهري ٦ : ٤٨

قال : فلما بايع علي والزبير، وهدأت الفورة، مشى إليها أبو بكر بعد ذلك، فشفع لعمر، وطلب إليها فرضيت عنه[١٠٢٠].

وفي رواية ابن قتيبة، أن عمر جاء فناداهم وهم في دار علي، فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده لتخرجن أو لأُحرقنها على من فيها! فقيل له : يا أبا حفص، إن فيها فاطمة! فقال: وإن[١٠٢١].

وأخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : حين بويع لأبي بكر بعد رسول الله، كان علي والزبير يدخلان على فاطمة بنت رسول الله، فيشاورونها ويرتجعون في أمرهم، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب، خرج حتى دخل على فاطمة فقال: يا بنت رسول الله، والله ما أحد أحب إلينا من أبيك، وما من أحد أحب إلينا بعد أبيك منك، وأيم الله ما ذاك بمانعي إن اجتمع هؤلاء النفر عندك أن أمرتهم أن يحرّق عليهم البيت[١٠٢٢].

وأخرج ابن عبد البر هذه الرواية بنفس السند، ولكنه ذكر أن عمر قال: ولأن يبلغني لأفعلن ولافعلن![١٠٢٣].

وفي رواية البلاذري : فجاء عمر ومعه فتيله، فتلقته فاطمة على الباب، فقالت فاطمة: يابن الخطاب، أتراك محرقاً عليّ بابي! قال: نعم، وذلك أقوى فيما جاء به أبوك[١٠٢٤].

وفي رواية ابن عبد ربه : فأقبل بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة فقالت: يابن الخطاب، أجئت لتحرق دارنا! قال: نعم، أو تدخلوا في ما دخلت فيه الأمة[١٠٢٥].

وفي تاريخ أبي الفداء : فأقبل عمر بشيء من نار على أن يضرم الدار[١٠٢٦].

موقف فاطمة

لم يكن الهجوم على بيت فاطمة في بداية خلافة أبي بكر هو الحادث الوحيد الذي تعرضت له فاطمة، فقد كانت قضية ميراث فاطمة فدكاً ورفض إعطاء أبي بكر إياها

(١٠٢٠) شرح نهج البلاغة ٦ : ٤٨ ، وقد ثبت فيما سبق أن علياً لم يبايع طيلة مدة حياة فاطمة !
(١٠٢١) الإمامة والسياسة ١ : ٣٠ .
(١٠٢٢) المصنّف ٧ : ٤٣٢
(١٠٢٣) الاستيعاب في معرفة الاصحاب ٣ : ٩٧٥
(١٠٢٤) أنساب الأشراف ١ : ٥٨٦ .
(١٠٢٥) العقد الفريد ٥ : ١٣
(١٠٢٦) المختصر في أخبار البشر ١ : ١٥٦ .

هي المواجهة الثانية بينها وبين الخليفة الأوّل، تلك القضية -إضافة لسابقتها- تركت آثاراً جسيمة على العلاقة بين أهل بيت النبي(صلى الله عليه وآله)وبينه، وأدت الى إثارة غضب فاطمة على كل من أبي بكر وعمر، والامتناع عن كلامهما، والوصاية بدفنها سراً دون استئذان منهما!

وقصة المهاجرة بين فاطمة وأبي بكر، كما أخرجها المحدّثون والمؤرّخون -واللفظ فيها للبخاري- عن عائشة: أن فاطمة(عليها السلام) بنت النبي(صلى الله عليه وآله)أرسلت الى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله(صلى الله عليه وآله) مِمّا أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: «**لا نورث ما تركنا صدقة**»، إنما يأكل آل محمد(صلى الله عليه وآله) من هذا المال، وإني والله لا أُغيّر شيئاً من صدقة رسول الله(صلى الله عليه وآله) عن حالها التي كان عليها في عهد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فأبى أبو بكر أن يدفع الى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي(صلى الله عليه وآله)ستة أشهر، فلما توفّيت دفنها زوجها علي ليلا ولم يؤذن بها أبا بكر، وصلى عليها، وكان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت، استنكر علي وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته، ولم يكن يبايع تلك الأشهر، فأرسل الى أبي بكر أن ائتنا ولا يأتنا أحد معك، كراهية لمحضر عمر... الخ(١٠٢٧)

وملخص قضية فدك، أنه لما نزلت الآية (**وَآتِ ذا القُربى حَقَّهُ**)(١٠٢٨) دعا رسول الله(صلى الله عليه وآله) فاطمة فأعطاها فدكاً(١٠٢٩).

ولكن رواية البخاري وغيره تدل على أن أبا بكر قد منع فاطمة من فدك، قال ابن حجر الهيتمي المكي: إن أبا بكر انتزع من فاطمة فدكاً(١٠٣٠). وكان ذلك السبب على ما يبدو في مقاطعة فاطمة لأبي بكر. إلاّ أن البعض قد أطالوا الكلام في ذلك والتمسوا تبرير عمل أبي بكر مستشهدين ببعض النصوص، منها ما ذكره ابن كثير الدمشقي

(١٠٢٧) صحيح البخاري ٥ : ١٧٨ كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر، صحيح مسلم ٣ : ١٣٨ كتاب الجهاد والسير ، وباب قول رسول الله «نحن لا نورث ، ما تركنا صدقة» ، مسند أحمد ١ : ٩ ، السنن الكبرى للبيهقي ٦ : ٣٠٠، صحيح ابن حبان ١١ : ١٥٣ ، ١٤ : ٥٧٣ ، مسند الشاميين للطبراني ٤ : ١٩٨ ، سير أعلام النبلاء ٢ : ١٢١ ، تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٧ ، الكامل لابن الاثير حوادث سنة ١١ ، البداية والنهاية ٥ : ٢٠١ ، مجمع الزوائد ٩ : ٢١١ ، العقد الفريد ٣ : ٦٤ ، ومروج الذهب ٢ : ٤١٤ ، الصواعق المحرقة ١ : ١٢ ، تاريخ الخميس ١ : ١٩٣، الاستيعاب ٢ : ٢٤٤ ، أسد الغابة ٣ : ٢٢٢ وغيرها من المصادر .

(١٠٢٨) الاسراء : ٢٦ .

(١٠٢٩) الدر المنثور للسيوطي ٤ : ١٧٧ عن البزّار وأبي يعلى وابن أبي حاتم وإبن مردويه بالاسناد الى أبي سعيد الخدري .

(١٠٣٠) الصواعق المحرقة : ٣١

في القضية، فبعد أن أورد عدداً من الروايات التي تدل على أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد قال بعدم وراثة أحد له، قال ابن كثير: وأما تغضب فاطمة رضي الله عنها وأرضاها على أبي بكر(رضي الله عنه) وأرضاه، فما أدري ما وجهه، فان كان لمنعه إياها ما سألته من الميراث، فقد اعتذر إليها بعذر يجب قبوله، وهو ما رواه عن أبيها رسول الله(صلى الله عليه وآله) أنه قال : «**لا نورث ما تركنا صدقة**»، وهي ممن تنقاد لنص الشارع الذي خفي عليها قبل سؤالها الميراث، كما خفي على أزواج النبي(صلى الله عليه وآله) حين أخبرتهن عائشة بذلك! ووافقنها عليه، وليس يظن بفاطمة رضي الله عنها أنها اتهمت الصدّيق(رضي الله عنه) فيما أخبرها به، حاشاه وحاشاه من ذلك، كيف وقد وافقه على رواية هذا الحديث عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبدالمطلب، وعبدالرحمان بن عوف، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وأبو هريرة، وعائشة رضي الله عنهم أجمعين كما سنبينه قريباً، ولو تفرد بروايته الصدّيق(رضي الله عنه)، لوجب على جميع أهل الأرض قبول روايته والانقياد له في ذلك، وإن كان غضبها لأجل ما سألت الصدّيق إذ كانت هذه الأراضي صدقة لا ميراثاً أن يكون زوجها ينظر فيها، فقد اعتذر بما حاصله: أنه لما كان خليفة رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فهو يرى فرضاً عليه أن يعمل بما كان يعمله رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ويلي ما كان يليه رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ولهذا قال: وإني والله لا أدع أمراً كان يصنعه فيه رسول الله(صلى الله عليه وآله) إلاّ صنعته، قال: فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت، وهذا الهجران والحالة هذه، فتح على فرقة الرافضة شراً عريضاً وجهلا طويلا، وأدخلوا أنفسهم بسببه فيما لا يعنيهم، ولو تفهموا الأمور على ما هي عليه لعرفوا للصديق فضله، وقبلوا منه عذره الذي يجب على كل أحد قبوله، ولكنهم طائفة مخذولة، وفرقة مرذولة، يتمسكون بالمتشابه، ويتركون الأمور المحكمة المقدرة عند أئمة الاسلام...(١٠٣١)

وقضية حديث «**لا نورث**» مرتبطة بحديث آخر كنّا قد أجّلنا الكلام عنه في وقته وبيان دلالته، وذلك عند الكلام عن الأحاديث التي وضعت أو التي زيد في ألفاظها واختلاق قصص لها في ذم علي بن أبي طالب، وذكرنا يومها قصة خطبة علي بن أبي طالب لبنت أبي جهل، وقول النبي(صلى الله عليه وآله) : «**فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني**»، وقد جاء هذا الحديث بألفاظ مختلفة، وخرّجها المحدّثون بألفاظ منها : «**فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها، ويغضبني ما أغضبها**»، و «**فاطمة بضعة مني يغضبني ما**

(١٠٣١) البداية والنهاية ٥ : ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

يغضبها ويبسطني ما يبسطها»، و «**فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها»**. وفي لفظ «**يسعفني ما يسعفها»**، أو «**فاطمة شجنة مني يبسطني ما يبسطها ويقبضني ما يقبضها»** و «**فاطمة مضغة مني فمن آذاها فقد آذاني»** أو «**يسرني ما يسرها»**[١٠٣٢].

وكذلك قول النبي(صلى الله عليه وآله) : «**إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها»**، وقوله لفاطمة : «**إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»**[١٠٣٣].

فغضب فاطمة كان موجهاً الى أبي بكر وعمر، بعد حادثتي كشف بيتها وحرمانها من فدك، فكان الأمر يتطلب أولا وضع حديث ينسب غضب فاطمة الى علي بن أبي طالب أولا لصرف الأذهان عن قضية غضبها على أبي بكر، ومن ثم افتعال حديث آخر يبرر تصرف أبي بكر ويكسبه الشرعية اللازمة، فكان حديث «**لا نورث**» هو الذي يفي بالغرض، ولعل القارئ يستغرب مني القول بوضع هذا الحديث المشهور، إلاّ أنني في الحقيقة لست أوّل قائل بذلك، فان الحافظ إبن خراش، كما ينقل عنه الحافظ إبن عدي، قال: سمعت عبدان يقول: قلت لابن خراش: حديث ما تركنا صدقة؟ قال: باطل، اتهم مالك بن أوس بالكذب[١٠٣٤].

ولهذا السبب تحامل الذهبي على إبن خراش وقال : جهلة الرافضة لم يدروا الحديث ولا السيرة ولا كيف ثم، فأما أنت أيها الحافظ البارع الذي شربت بولك إن صدقت في الترحال، فما عذرك عند الله؟ مع خبرتك بالأمور، فأنت زنديق معاند للحق، فلا رضي الله عنك..![١٠٣٥]

ولا أدري ما سبب هذه الثورة على إبن خراش لردّه هذا الحديث، فان الواقع يؤيد ذلك، وقد اعترف بذلك الفخر الرازي، فقال: إن المحتاج الى معرفة هذه المسألة ما كان إلاّ فاطمة وعلي والعباس، وهؤلاء كانوا من أكابر الزهّاد والعلماء وأهل الدين، وأما أبا بكر فانه ما كان محتاجاً الى معرفة هذه المسألة، لأنه ما كان ممن يخطر

(١٠٣٢) صحيح البخاري ٥ : ٢٦ باب مناقب قرابة رسول الله(ص) ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي(ص) ، ٥: ٣٦ باب مناقب فاطمة عليها السلام، صحيح مسلم ٥ : ٥٣ ح ٩٣ ، ٩٤ كتاب فضائل الصحابة، سنن أبي داود ٢ : ٢٢٦ ح ٢٠٧١ ، سنن إبن ماجة ١ : ٦٤٣ ح ١٩٩٨ ، سنن الترمذي ٥ : ٦٥٥ ح ٣٨٦٧ مشكاة المصابيح ٣ : ٣٦٩ ح ٦١٣٩ ، مصابيح السنة ٤ : ١٨٥ ح ٤٧٩٩ ، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١ : ١٥٦، مختصر تاريخ دمشق ٢ : ٢٦٩ ، صفة الصفوة ٢ : ١٣ ، اسد الغابة ٧ : ٢٢٢ رقم ٧١٧٥ ، تذكرة الخواص : ٣١٠ ، المواهب اللدنية للقسطلاني ٢ : ٦٥ ، تاريخ الخميس ١ : ٤١٢ ، الصواعق المحرقة : ١٨٨ ، كنوز الدقائق ٢ : ٢٤ ، أعلام النساء لعمر رضا كحالة ٤ : ١١٢ .

(١٠٣٣) المستدرك ٣ : ١٥٤ وصححه ، المعجم الكبير للطبراني ١ : ١٠٨ ح ١٨٢ ، تذكرة الخواص : ٣١٠ ، ميزان الاعتدال : ج ٥٣٥ ، تهذيب التهذيب ١٢ : ٤٦٩ ، كنز العمال ١٣ : ٦٧٤ ح ٣٧٧٢٥ كنوز الدقائق ١ : ٧٥ ، الإصابة ٤ : ٣٧٨ رقم ٨٣٠ ، الصواعق المحرقة : ١٧٥ ، شرح المواهب للزرقاني ٣ : ٢٠٢ ، مجمع الزوائد ٩ : ٢٠٣ وقال أخرجه الطبراني واسناده حسن .

(١٠٣٤) الكامل في الضعفاء ٥ : ٥١٨

(١٠٣٥) تذكرة الحفاظ ٢ : ٦٨٤ ، ميزان الاعتدال ٢ : ٦٠٠ ، سير اعلام النبلاء ١٣ : ٥٠٨

بباله أنه يورّث من الرسول، فكيف يليق بالرسول أن يبلغ هذه المسألة إلى من لا حاجة له إليها، ولا يبلغها الى من له الى معرفتها أشد الحاجة!![١٠٣٦].

مواقف قريش

لقد مرّ فيما سبق إنكار البعض لقول علي بن أبي طالب : إن مما عهد إلي النبي(صلى الله عليه وآله) : إن الأمة ستغدر بي بعده[١٠٣٧].

ولست أرى وجهاً للانكار بعد أن أكّد الحاكم صحة الحديث وأقره الذهبي على ذلك، كما أن الأحداث تثبت الأحقاد التي كانت تكنها قريش لعلي بن أبي طالب وبني هاشم جميعاً، كما سوف يأتي.

إن موقف الأنصار، ومبادرتهم السريعة لعقد ذلك الاجتماع العاجل في سقيفة بني ساعدة بمجرد سماعهم بوفاة النبي(صلى الله عليه وآله)، ليدل على أنهم كانوا قد استشفوا بعض ما كانت قريش تدبّره في الخفاء من أجل إزاحة بني هاشم عن الخلافة -لأنهم كرهوا أن تجتمع فيهم الخلافة والنبوة كما اعترف عمر بن الخطاب- فبادر الأنصار لأخذ زمام المبادرة بهدف الاستيلاء على السلطة، فتكون لهم السيادة على قريش فيأمنوا جانبهم، حتى عبّر خطيبهم عن هذا الرأي صراحة، وهو الحباب بن المنذر فقال: منّا أمير ومنكم أمير، إنا والله ما ننفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط، ولكنا نخاف أن يليه بعدكم من قتلنا أبناءهم وآباءهم واخوانهم، فقال عمر بن الخطاب: إذا كان ذلك، قمت إن استطعت[١٠٣٨].

وعبّر البراء بن عازب عن شعوره بما كان يحدث حوله، قال: لم أزل لبني هاشم محباً، فلما قبض رسول الله(صلى الله عليه وآله) خفتُ أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عنهم، فأخذني ما يأخذ الوالهة العجول، مع ما في نفسي من الحزن لوفاة رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فكنت أتردد الى بني هاشم وهم عند النبي(صلى الله عليه وآله) في الحجرة، وأتفقد وجوه قريش، فاني كذلك إذ فقدت أبا بكر وعمر، وإذا قائل يقول: القوم في سقيفة بني ساعدة، وإذا قائل آخر يقول: قد بويع أبو بكر، فلم ألبث وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة وهم محتجزون بالأزر الصنعانية، لا يمرّون بأحد إلاّ خبطوه وقدّموه فمدّوا يده فمسحوها على يد أبي بكر يبايعه، شاء ذلك أو أبى، فأنكرت عقلي وخرجت أشتد حتى انتهيت الى بني

(١٠٣٦) التفسير الكبير ٩ : ٢١٠
(١٠٣٧) المستدرك ٣ : ١٤٠ وصححه ، ووافقه الذهبي .
(١٠٣٨) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٥٣

هاشم والباب مغلق، فضربت عليهم ضرباً عنيفاً، وقلت: قد بايع الناس لأبي بكر بن قحافة! فقال العباس: تربت أيديكم إلى آخر الدهر...[١٠٣٩]

والحوادث التي سبقت وفاة النبي(صلى الله عليه وآله) بقليل تثبت أن قريشاً كانت تعد العدّة للاستيلاء على منصب الخلافة رغم قناعة الجميع بأن علياً كان الأولى بها، وقد روى الجوهري عن ابن عباس، قال: تفرّق الناس ليلة الجابية عن عمر، فسار كل واحد مع إلفه، ثم صادفت عمر تلك الليلة في مسيرنا فحادثته، فشكا إليَّ تخلّف عليّ عنه، فقلت: ألم يعتذر إليك؟ قال: بلى، فقلت: هو ما اعتذر به. قال: يابن عباس، إن أول من ريّثكم عن هذا الأمر أبو بكر، إن قومكم كرهوا أن يجمعوا لكم الخلافة والنبوة. قلت: لم ذاك يا أمير المؤمنين؟ ألم نُنلهم خيراً! قال: بلى، ولكنهم لو فعلوا لكنتم عليهم جحفاً جحفاً![١٠٤٠].

فقريش كانت قد تعودت منذ الجاهلية على حب الفخر والسيادة والشرف على الآخرين، وكان بنو هاشم هم الأعظم سيادة، لا ينازعهم فيها إلاّ بنو اُمية وبنو مخزوم، ولكن بنو اُمية ومخزوم قد تخلّفوا عن الإسلام، وسبقتهم إليه أحياء أضعف وأقل شأناً منهم، كتيم قبيلة أبي بكر، وعدي قبيلة عمر، وكانت فرصة الوثوب مؤاتية مع انشغال بني هاشم بجهاز رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وكان الأمر يحتاج الى مبادرة سريعة ومباغتة تحسم الموقف منذ البداية، فكان ما كان.

الضغائن

لم يكن الفخر وحب الرئاسة هو المحرّك الوحيد للجانب القرشي للمبادرة بأخذ الخلافة من بني هاشم، فقد كانت النفوس منطوية على ضغائن سببتها الحروب التي خاضها النبي(صلى الله عليه وآله) ضد قريش، وسقط فيها جملة من صناديدها، وكانت لبني هاشم ـ وبخاصة علي- اليد الطولى في ذلك، حيث قتل علي جملة من سادات قريش وأقرانها، ومن العبث الاعتقاد بأن النفوس التي جُبلت على طلب الثأر، قد تغيّرت بسرعة، وأصبحت مستعدة للتنازل عن ذحولها وثاراتها، وقد جاء ذلك كله موثّقاً بروايات أخرجها المحدثون، فقد أخبر النبي(صلى الله عليه وآله) علياً بغدر الأمة به من بعده كما مرّ سابقاً، وروى علي بن أبي طالب، قال : بينا رسول الله(صلى الله عليه وآله) آخذ بيدي ونحن نمشي في بعض سكك المدينة، إذ أتينا على حديقة، فقلت: يا رسول

(١٠٣٩) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٥١ و ٢١٩ عن أبي سعيد الخدري .

(١٠٤٠) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٥٧ ـ ٥٨

الله، ما أحسنها من حديقة! فقال: إن لك في الجنة أحسن منها (إلى أن قال): فلما خلا لي الطريق، اعتنقني ثم أجهش باكياً! قلت: يا رسول الله، ما يبكيك؟ قال: «**ضغائن في صدور أقوام لا يبدونها لك إلاّ من بعدي**»، قال: قلت: يا رسول الله، في سلامة من ديني؟ قال: «**في سلامة من دينك**»(١٠٤١).

ولقد اعترف قوم من الصحابة ببغضهم علياً، فعن سعد بن أبي وقاص قال: كنت جالساً في المسجد، أنا ورجلين معي، فنلنا من علي، فأقبل رسول الله(صلى الله عليه وآله)غضبان يُعرف في وجهه الغضب، فتعوذت بالله من غضبه، فقال : «**مالكم ومالي؟ من آذى علياً فقد آذاني**»(١٠٤٢).

وعن بريدة قال : بعث رسول الله(صلى الله عليه وآله) علياً أميراً على اليمن، وبعث خالد ابن الوليد على الجبل، فقال: «**إن اجتمعتما فعليٌّ على الناس**»، فالتقوا وأصابوا من الغنائم مالم يصيبوا مثله، وأخذ علي جارية من الخمس(١٠٤٣)، فدعا خالد بن الوليد بريدة، فقال: اغتنمها! فأخبر النبي(صلى الله عليه وآله) بما صنع، فقدمت المدينة ودخلت المسجد ورسول الله(صلى الله عليه وآله) في منزله، وناس من أصحابه على بابه، فقالوا: ما الخبر يا بريدة؟ فقلت: خيراً، فتح الله على المسلمين، فقالوا: ما أقدمك؟ قال : جارية أخذها علي من الخمس، فجئت لأخبر النبي(صلى الله عليه وآله). فقالوا: فأخبر النبي(صلى الله عليه وآله) فانه يسقط من عيني رسول الله(صلى الله عليه وآله)! ورسول الله(صلى الله عليه وآله) يسمع الكلام، فخرج مغضباً وقال : «**ما بال أقوام ينتقصون علياً! من ينتقص علياً فقد انتقصني، ومن فارق علياً فقد فارقني، إن علياً مني وأنا منه، خُلق من طينتي، وخُلقتُ من طينة إبراهيم، وأنا افضل من إبراهيم، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم**»، وقال : «**يا بريدة، أما علمت أن لعلي أكثر من الجارية التي أخذ، وأنه وليكم بعدي**»؟ فقلت: يا رسول الله، ما بالصحبة إلاّ بسطت يدك حتى أُبايعك على الإسلام جديداً! قال: فما فارقته حتى بايعته على الإسلام(١٠٤٤).

وفي رواية إبن عساكر، قال بريدة : فرأيت رسول الله(صلى الله عليه وآله) قد غضب غضباً لم أره غضب مثله قط إلاّ يوم قريضة والنضير، فنظر إلي فقال : «**يا بريدة، إن علياً وليكم بعدي، فأحب علياً فانه يفعل ما يؤمر**»!

(١٠٤١) مجمع الزوائد ٩ : ١١٨ وقال : رواه أبو يعلى والبزار ، وفيه الفضل بن عميرة ، وثقه إبن حبان وضعفه غيره . وبقية رجاله ثقات .

(١٠٤٢) المصدر السابق ٩ : ١٢٦ وقال : رواه أبو يعلى والبزار باختصار ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير محمود بن خداش وقنان وهما ثقتان .

(١٠٤٣) هذا يثبت عدم صحة الادعاء بغضب فاطمة على علي غيرة من زواجه بأخرى !

(١٠٤٤) المعجم الأوسط للطبراني ٦ : ٢٣٢ ، وهذا يثبت أن بغض علي مخرج من الاسلام كما فهمه بريدة .

وقال عبد الله بن عطاء : حدثت أبا حرب بن سويد بن غفلة فقال: كتمك عبدالله بعض الحديث، إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال له : «**أنافقتَ بعدي يا بريدة**»؟!![1045]

وحدث مثل ذلك لعمرو بن شأس الأسلمي -وكان من أصحاب الحديبية- قال: خرجت مع علي(عليه السلام) الى اليمن، فجفاني في سفري ذلك حتى وجدتُ في نفسي عليه، فلما قدمت المدينة أظهرت شكايته في المسجد، حتى سمع بذلك رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فدخلت المسجد ذات غداة ورسول الله(صلى الله عليه وآله)جالس في ناس من أصحابه، فلما رآني أبدا لي عينيه - يقول حدّد النظر إلي- حتى إذا جلست قال: «**يا عمرو، والله لقد آذيتني**». قلت: أعوذ بالله من أذاك يا رسول الله! قال: «**بلى ، من آذى علياً فقد آذاني**»[1046].

ولم تقتصر كراهة قريش على علي بن أبي طالب، بل تعدته الى بني هاشم كلهم، فقد روى إبن عدي، عن أبي سفيان، أنه قال: مثل محمد في بني هاشم مثل ريحانة وسط نتن! فانطلق بعض الناس الى النبي(صلى الله عليه وآله) فأخبروا النبي فجاء(صلى الله عليه وآله) يُعرف في وجهه الغضب، حتى قام فقال: «**ما بال أقوال تبلغني عن أقوام**»[1047].

وعن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، قال : أتى ناس من الأنصار النبي(صلى الله عليه وآله) فقالوا: إنا نسمع من قومك حتى يقول القائل منهم: إنما مثل محمد، نخلة نبتت في الكبا - قال حسين، الكبا: الكناسة-[1048].

وعنه أيضاً قال : إن العباس بن عبد المطلب دخل على رسول الله(صلى الله عليه وآله)مغضباً وأنا عنده، فقال : «**ما أغضبك**»؟ قال: يا رسول الله، مالنا ولقريش، إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مبشرة، وإذا لقونا لقونا بغير ذلك! قال: فغضب رسول الله(صلى الله عليه وآله) حتى احمر وجهه، ثم قال : «**والذي نفسي بيده، لا يدخل قلب رجل الايمان حتى يحبكم لله ولرسوله**»[1049].

فهذه مجموعة من الروايات القوية التي تؤكد ما كانت تكنُّه قريش من بغضاء لبني هاشم عامة ولعلي بن أبي طالب خاصة، فكيف نتوقع تسليم الخلافة إليه بعد كل هذا؟!

(١٠٤٥) تاريخ دمشق ٤٢ : ١٩١
(١٠٤٦) مجمع الزوائد ٩ : ١٢٩ وقال : رواه أحمد والطبراني باختصار ، والبزار أخصر منه ، ورجال أحمد ثقات .
(١٠٤٧) الكامل في الضعفاء ٣ : ٢٨ ، مجمع الزوائد ٨ : ٢١٥ وفيه : (فقال رجل من القوم) بدلا من ذكر أبي سفيان، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه حماد بن واقد وهو ضعيف يعتبر به ، وبقية رجاله وثقوا .
(١٠٤٨) مجمع الزوائد ٨ : ٢١٥ وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .
(١٠٤٩) سنن الترمذي ٥ : ٦٥٢ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، المستدرك ٣ : ٣٣٣ ، مسند أحمد ٤ : ١٦٥ ، مصابيح السنة ٤ : ١٩١

التدابير القرشية

إن الفترة التي سبقت وفاة النبي(صلى الله عليه وآله) بقليل تعطي للباحث فيها بدقة فكرة واضحة على أن قريشاً كانت قد بدأت تعدّ العدّة لتنفيذ أهدافها في الخلافة، وأهم حادثتين وقعتا قبيل وفاة النبي(صلى الله عليه وآله)، هما بعثة اُسامة بن زيد، وقضية الكتاب الذي أراد النبي كتابته، والذي سبق وأن أشرنا إليه في كلام ابن كثير عنه، وسوف نناقش هذين الأمرين.

بعثة اُسامة بن زيد

أورد المحدّثون والمؤرّخون نبأ سرية اُسامة باختلاف في بعض الألفاظ فيها، ويمكن استشفاف بعض الاُمور من بين تلك الاختلافات في بعض الألفاظ، وقد أورد ابن أبي الحديد رواية كاملة عن الجوهري بسنده، قال: إن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، في مرض موته أمّر اُسامة بن زيد بن حارثة على جيش فيه جلّة المهاجرين والأنصار، منهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبدالرحمان بن عوف، وطلحة والزبير، وأمره أن يغير على مؤتة حيث قُتل أبوه زيد، وأن يغزو وادي فلسطين، فتثاقل اُسامة وتثاقل الجيش بتثاقله، وجعل رسول الله(صلى الله عليه وآله) في مرضه يثقل ويخف، ويؤكد القول في تنفيذ ذلك البعث، حتى قال له اُسامة: بأبي أنت واُمي، أتأذن لي أن أمكث أياماً حتى يشفيك الله تعالى؟ فقال : «**أخرج وسر على بركة الله**». فقال: يا رسول الله، إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال، خرجتُ وفي قلبي قرحة منك، فقال: «**سِر على النصر والعافية**». فقال: يا رسول الله، إني أكره أن أسأل عنك الركبان، فقال: «**انفذ لما أمرتك به**»، ثم اُغمي على رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وقام اُسامة فتجهز للخروج، فلما أفاق رسول الله(صلى الله عليه وآله)، سأل عن اُسامة والبعث، فاُخبر أنهم يتجهزون، فجعل يقول: «**انفذوا بعث اُسامة، لعن الله من تخلف عنه**»! وكرر ذلك، فخرج اُسامة واللواء على رأسه، والصحابة بين يديه، حتى إذا كان بالجرف، نزل معه أبو بكر وعمر وأكثر المهاجرين، ومن الأنصار: اُسيد بن حضير، وبشير بن سعد، وغيرهم من الوجوه، فجاءه رسول اُم أيمن يقول له: ادخل فان رسول الله يموت. فقام من فوره فدخل المدينة واللواء معه، فجاء به حتى ركزه بباب رسول الله،

ورسول الله قد مات في تلك الساعة. قال: فما كان أبو بكر وعمر يخاطبان اُسامة الى أن ماتا إلاّ بالأمير[١٠٥٠].

وهناك اُمور ينبغي الالتفات إليها، منها: أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد أمّر اُسامة بن زيد وهو شاب دون العشرين على جيش فيه جلة المهاجرين القرشيين، وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، وفي رواية الطبري: وأوعب مع اُسامة المهاجرون الأولون[١٠٥١]، وعند ابن الأثير: منهم أبو بكر وعمر[١٠٥٢]، وفي رواية ابن سعد : فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلاّ انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبو بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم بن حريش[١٠٥٣].

وعند الذهبي : فلم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلاّ انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة..[١٠٥٤]

ويبدو من الروايات التي ذكرت ذلك، أن البعض قد تذمروا من تأمير اُسامة عليهم، وطعنوا في إمارته، رغم أن النبي(صلى الله عليه وآله) هو الذي أمّره بنفسه!

أما سيف بن عمر، فقد أورد له الطبري روايتين، قال في احداهما: فقال المنافقون في ذلك. وقال في الأخرى: وقد أكثر المنافقون في تأمير اُسامة[١٠٥٥].

أما عند المؤرخين الآخرين، فقد قال بعضهم : فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين![١٠٥٦].

فسيف بن عمر ينسب الطعن في إمارة اُسامة الى المنافقين، بينما تجمع المصادر الاخرى على أن تلك المقالة قد صدرت عن قوم أو ناس، دون تحديد هوياتهم، إلاّ أن في صحيح البخاري رواية توضح الأمر بشكل جلي، فقد أخرج عن ابن عمر قال: أمّر رسول الله(صلى الله عليه وآله) اُسامة على قوم فطعنوا في إمارته، فقال: «**إن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وأيم الله لقد كان خليقاً للإمارة، وإن كان من أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إليَّ بعده**»[١٠٥٧].

(١٠٥٠) شرح نهج البلاغة ٦ : ٥٢
(١٠٥١) تاريخ الطبري ٢ : ١٨٤
(١٠٥٢) الكامل ٢ : ٢١٧ حوادث سنة ١١ هـ
(١٠٥٣) الطبقات الكبرى ٢ : ١٣٦ سرية اُسامة بن زيد بن حارثة .
(١٠٥٤) تاريخ الاسلام : الغزوات : ص ٧١٣
(١٠٥٥) الطبري ٢ : ١٨٤
(١٠٥٦) طبقات ابن سعد ٢ : ١٣٦ ، تاريخ الإسلام للذهبي الغزوات : ٧١٣ وفيه أيضاً عن ابن عمر : فطعن الناس في إمارته ، ومثله في صحيح البخاري ٦ : ١٩ باب بعث النبي(ص) اُسامة بن زيد.
(١٠٥٧) صحيح البخاري ٥ : ١٧٦ المغازي : باب غزوة زيد بن حارثة .

فهذه الرواية توضح أن الطاعنين على أسامة وعلى أبيه من قبله، هم نفس القوم الذين أُمّر عليهم أسامة، وهم جلّة المهاجرين الأولين، وبالخصوص القرشيين الذين ذُكرت أسماؤهم من قبل، مما يدل على وجود النعرة القبلية وحبّ الفخر حتى عند كبار الصحابة منهم ممن كانوا ينظرون باحتقار ليس إلى أسامة بسبب صغر سنه - كما قد يتوهم البعض- بل وعلى أبيه -الذي لم يكن صغيراً حتماً- وإنما كان مولى لرسول الله(صلى الله عليه وآله)، ولم يكن قرشياً، رغم كونه من أوائل السباقين الى الإسلام، وفي بعض الروايات أنه كان أسبق من أبي بكر!

والأمر الآخر الذي يلفت الانتباه، هو أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد جهّز هذه السرية في هذا الوقت بالذات، وأرسلها الى حدود الروم الجنوبية في فلسطين دونما ظهور أية بادرة عن وجود حشود عسكرية رومية، أو خطر من تلك الجهة البعيدة عن عاصمة الإسلام، وتوضح رواية ابن سعد ذلك، إذ قال: فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة، خرج أسامة فسار إلى أهل أبنى عشرين ليلة! فشنّ عليهم الغارة، وكان شعارهم (يا منصور أمِتْ) ،فقتل من أشرف له، وسبى من قدر عليه، وحرّق في طوائفها بالنار، وحرّق منازلهم وحروثم ونخلهم، فصارت أعاصير من الدخاخين، وأجال الخيل في عرصاتهم، وأقاموا يومهم ذلك في تعبئة ما أصابوا من الغنائم.. وبلغ هرقل وهو بحمص ما صنع أسامة، فبعث رابطة يكونون بالبلقاء، فلم تزل هناك حتى قدمت البعوث الى الشام في خلافة أبي بكر وعمر(١٠٥٨).

فيتبيّن من ذلك، أن النبي(صلى الله عليه وآله)، قد أراد أن يتخذ التدابير الكافية لاستخلاف علي بن أبي طالب قبيل وفاته بقليل، فأنفذ هذا البعث الى تلك البلاد البعيدة في الوقت الذي كان بعض المرتدين يشكّلون خطراً أكبر على المدينة! وأوعب في ذلك البعث رجالات قريش الذين يتوقع منهم منافسة علي على الأمر، وأمّر عليهم شاباً صغيراً ليس من قريش، ولا ممن تهمه أهداف قريش ومطامعها، حتى يكونوا تحت امرته بعد عودتهم الى المدينة، فلا يقدروا على تغيير شيء أو القيام بما يسمى في الاصطلاح الحديث بانقلاب عسكري للإطاحة بحكومة علي، وشدّد النبي على انفاذ البعث، ولعن المتخلفين عنه(١٠٥٩)، ولكن تدابيره لم تنفع في استنهاض الهمم، فأسامة كان لا يعرف مرمى النبي من ذلك، وجرفته عاطفته وحبّه للنبي إلى التثاقل على أمل أن يجده بارئاً، ولاقى ذلك هوىً في نفوس القوم الذين كانوا يحرصون على التأخير، بعد أن فهموا غرض النبي من كل ذلك!

(١٠٥٨) الطبقات الكبرى ٢ : ١٣٦
(١٠٥٩) الملل والنحل للشهرستاني ١ : ٢٣

يوم الخميس الحزين

أحسّ النبي(صلى الله عليه وآله) بأن وصاياه باستخلاف علي -بين تصريح وتلويح- لم تجد نفعاً في إقناع كبار الصحابة القرشيين بالانصياع لأوامره، فكان التدبير اللاحق العملي هو إبعادهم عن المدينة بتجنيدهم في سرية أسامة، ولكن البعث كان متثاقلا، وخشي النبي(صلى الله عليه وآله) أن تفوت الفرصة بموته قبل انفاذ البعث، فقرر عند ذلك أن يتخذ إجراءً عملياً يقطع الطريق على محاولات الاحباط القرشية، وتدوين الوصية كتابة بحيث لا يبقى مجال للتشكيك والطعن -كما في إمارة أسامة- فانتهز النبي(صلى الله عليه وآله) وجود كبار الصحابة في بيته لعيادته في مرضه، فدعا بصحيفة ليكتب فيها ما أراد، ولكن المعارضة الشديدة ظهرت بعد أن أحس أولئك النفر بمرمى النبي من كتابة ذلك الكتاب، وقصة الكتاب ذكرها المؤرخون والمحدّثون، واتفقوا على رواية القصة بتصرف في ألفاظها وإسقاط بعضها -لظروف خاصة- ويمكن الخروج بنتيجة الأمر من خلال المقارنة وتحليل بعض الفاظها. ولنبدأ برواية ابن أبي الحديد المعتزلي عن الجوهري بسنده، قال:

لما حضرت رسول الله(صلى الله عليه وآله) الوفاة، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلّون بعدي**»، فقال عمر كلمة معناها أن الوجع قد غلب على رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ثم قال: عندنا القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف من في البيت واختصموا، فمن قائل يقول: القول ما قال رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ومن قائل يقول: القول ما قال عمر! فلما أكثروا اللغط واللغو والاختلاف، غضب رسول الله، فقال : «**قوموا، إنه لا ينبغي لنبيّ أن يُختلف عنده هكذا**»، فقاموا، فمات رسول الله(صلى الله عليه وآله) في ذلك اليوم، فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله(صلى الله عليه وآله)-يعني الاختلاف واللغط- .

قال ابن أبي الحديد : هذا الحديث قد خرّجه الشيخان محمّد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج القشيري في صحيحهما، واتفق المحدّثون كافة على روايته(١٠٦٠).

نستدل من هذه الرواية على أن عمر بن الخطاب هو الذي اعترض على النبي في كتابة ذلك الكتاب، وانه قد قال كلمة معناها أن النبي قد غلبه الوجع، وهذا يعني انه قد تفوّه بكلمة نُقلت بالمعنى ولم تورد الكلمة بلفظها.

(١٠٦٠) شرح نهج البلاغة ٦ : ٥١

أما البخاري فقد أورد الرواية في عدّة مواضع من صحيحه باختلاف بعض ألفاظها، ففي إحداها: فقال بعضهم إن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله...(١٠٦١)

وفي رواية اُخرى : قال عمر : إن النبي(صلى الله عليه وآله) غلبه الوجع...(١٠٦٢)

وفي رواية اُخرى : قال عمر : إن النبي(صلى الله عليه وآله) غلبه الوجع ، وعندكم القرآن، فحسبنا كتاب الله...(١٠٦٣)

لكن البخاري صرّح بالكلمة التي أبدلت بغلبه الوجع في روايات اُخرى، منها :

فقالوا : ما شأنه، أهجر؟ استفهموه، فذهبوا يردون عليه(١٠٦٤).

وعند الطبري، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: يوم الخميس وما يوم الخميس! قال: ثم نظرت إلى دموعه تسيل على خديه كأنها نظام اللؤلؤ، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**ائتوني باللوح والدواة -أو بالكتف والدواة- أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده**»، قال: فقالوا: إن رسول الله يهجر!(١٠٦٥).

فيتبيّن من مقارنة هذه الروايات أن عمر بن الخطاب قد اعترض على النبي(صلى الله عليه وآله) وقال إنه يهجر، أي يهذي! مما أغضب النبي(صلى الله عليه وآله) فطردهم من مجلسه.

أما الأمر الآخر في هذه الروايات، فهو حذف بعض ما جاء فيها، ففي بعضها: وأوصى بثلاث، قال: «**اُخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم**»، وسكت عن الثالثة عمداً، أو قال : **فنسيتها!**(١٠٦٦).

وفي رواية : والثالثة خير، إما أن سكت عنها، وإما أن قالها فنسيتها(١٠٦٧).

فالراوي -وهو سعيد بن جبير- يدّعي أنه إما أن يكون ابن عباس قد سكت عن الوصية الثالثة، أو يكون قد ذكرها ولكن سعيداً نسيها! ولا يمكن تصوّر وتصديق هذا العذر، بل إن الحقيقة تدل على أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد أوصى بشيء مهم وخطير، ولكن ظروف السياسة استدعت اخفاء تلك الوصية لأنها حتماً ستقلب الأوضاع رأساً على عقب، ولا يمكن تخيّل وصية النبي(صلى الله عليه وآله) إلاّ باستخلاف علي بن أبي

(١٠٦١) صحيح البخاري ٦ : ١٢ باب مرض النبي(ص) ووفاته ، ٤ : ٨٤ باب فضل الجهاد والسير ، باب جوائز الوفد .
(١٠٦٢) المصدر السابق ١ : ٢٩ كتاب العلم ، باب كتابة العلم، والملل والنحل للشهرستاني ١ : ٢٢ من المقدمة الرابعة .
(١٠٦٣) صحيح البخاري ٩ : ١٣٧ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة ، باب كراهية الخلاف .
(١٠٦٤) صحيح البخاري ٦ : ١١ ، ٤ : ١٢٠ باب الجزية والموادعة مع أهل الحرب ، الكامل في التاريخ ٢ : ٣٢٠ حوادث سنة ١١ هـ.
(١٠٦٥) تاريخ الطبري ٣ : ١٩٢ حوادث ١١ هـ.
(١٠٦٦) صحيح البخاري ٦ : ١١
(١٠٦٧) المصدر السابق ٤ : ١٢٠

طالب، ويمكن التحقق من ذلك بملاحظة قول النبي(صلى الله عليه وآله) : «**أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده**»، وبين قوله يوم الغدير : «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لا تضلون أبداً، كتاب الله وعترتي أهل بيتي**»، فأرشد النبي أصحابه إلى أن التمسك بالثقلين، وهما كتاب الله وعترة النبي(صلى الله عليه وآله)، وعميدهم علي بن أبي طالب قطعاً، هو الطريق للنجاة من الضلال، ولكن عمر بن الخطاب أدرك عرض النبي، فرفض الثقل الثاني، ودعا الى التمسك بالثقل الأول وحده!! وقد حاول بعض علماء الجمهور الاعتذار لعمل عمر بن الخطاب، فقالوا: وإنما أراد عمر التخفيف عن النبي(صلى الله عليه وآله) حين رآه شديد الوجع، لعلمه أن الله قد أكمل ديننا، ولو كان ذلك الكتاب واجباً لكتبه النبي(صلى الله عليه وآله) لهم، ولما أخلّ به[١٠٦٨].

ولكن من حقّنا أن نتساءل : هل كان النبي يجهل أن الله قد أكمل دينه، وفطن عمر بن الخطاب وحده لذلك؟

وهل كان ثمّة ضرر من كتابة ذلك الكتاب بعد أن أخبر النبي(صلى الله عليه وآله)، إنه سوف يعصم الأمة من الضلال؟

وهل يستلزم التخفيف عن النبي إتهامه بالهذيان؟

وإذا كان الهدف هو التخفيف عن النبي، فلماذا غضب هذا الغضب الشديد وطرد الحاضرين من بيته؟!

بقي أمر أخير ، وهو التنبيه على الخطأ الذي ورد في رواية الجوهري، من أن النبي قد توفي في ذلك اليوم وهو الخميس، لأن معظم المصادر تؤرخ وفاته يوم الاثنين.

(١٠٦٨) تاريخ الإسلام للذهبي : السيرة النبويّة : ٥٥٢

حديث الثقلين

لقد مرّ بنا فيما تقدّم عند الكلام على حادثة الغدير، طرف من حديث الثقلين برواية زيد بن أرقم كما أورده الحافظ ابن كثير الدمشقي، ونقل اعتراف الذهبي بصحته. وقد أخرج هذا الحديث جمع كبير من الحفّاظ والمحدّثين والمؤرّخين وغيرهم، واعترف بعضهم بصحته وتواتره، وقد أخرجوه بألفاظ متعددة متقاربة، منها :

«إني تارك فيكم الثقلين ...»

«إني تارك فيكم أمرين ...»

«إني تارك فيكم خليفتين ...»[١٠٦٩].

ولكننا تعودنا منذ نعومة أظفارنا على ترديد الحديث الذي قيل إنَّ النبي(صلى الله عليه وآله) قد قاله في حجة الوداع، وهو قوله(صلى الله عليه وآله) : **«... كتاب الله وسنّتي»** والذي تمسّك به البعض مفسراً قول النبي بالحث على التمسك بالقرآن والسنّة النبوية والتي يقصد بها كتب الحديث المعروفة المتداولة عند الجمهور، لكن حديث **«وسنّتي»** ذكره مالك بن أنس في الموطأ بغير إسناد فلا يمكن تقبله، وكذلك أورده ابن هشام في سيرته بدون إسناد أيضاً، وهما أقدم المصادر التي ذكرته، وقد حاول البعض من المتأخرين أن يورده مسنداً، ولكن تلك الأسانيد ضعيفة وفي بعضها وضاعون، منهم سيف بن عمر![١٠٧٠].

وقد خرج الحافظ ابن حجر المكي برأي أقرب الى الصواب حين قال:- بعد ايراد حديث الثقلين-: وفي رواية **«كتاب الله وسنتي»**، وهي المراد من الأحاديث المقتصرة

(١٠٦٩) انظر : صحيح مسلم ٢ : ٢٣٧ ، المستدرك ٣ : ١٤٨ وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، مصنف ابن أبى شيبة ١١ : ٤٥٢ ، ١٠ : ٥٠٥ ، سنن الترمذي ٥ : ٦٦٢ ، ٦٦٣ باب مناقب اهل بيت النبي (ص)، سنن الدارمي ٢ : ٣٤٢ ، مسند أحمد ٣ : ١٤ ، ١٧ ، ٤ : ٣٧١ ، ٥ : ١٨٢ ـ ١٨٩ ، مجمع الزوائد ٩ : ١٦٢ ، ١٦٣ ، السنن الكبرى للبيهقي ٢ : ١٤٨ ، مسند الطيالسي ١ : ١٣١ ، ١٣٥ كنز العمال ح ٨٧٢ ، ٩٤٧ ، ٩٤٢ ، ٨٧٣ ، ٩٤٣ ، ٩٤٥ ، المشكاة ح ٦١٤٤ ، مشكل الآثار ٤ : ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، تفسير الطبري ٥ : ١٩٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ صحيح ابن خزيمة ح ٢٣٥٧

(١٠٧٠) سوف يأتي المزيد من التوضيح لهذا الحديث فيما بعد .

على الكتاب، لأن السنّة مبينة له، فاغنى ذكره عن ذكرها، والحاصل أن الحث وقع على التمسك بالكتاب وبالسنّة وبالعلماء بهما من أهل البيت، ويستفاد من مجموع ذلك بقاء الأمور الثلاثة إلى قيام الساعة، ثمّ اعلم أن لحديث التمسّك بذلك طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً.. وفي بعض تلك الطرق أنه قال ذلك بحجة الوداع بعرفة، وفي اُخرى أنه قاله بالمدينة في مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفي اُخرى أنه قال ذلك بغدير خم، وفي اُخرى أنه قال لما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف.. ولا تنافي، إذ لا مانع من أنه كرر عليهم ذلك في تلك المواطن وغيرها اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة...

وقال (تنبيه) : سمى رسول الله(صلى الله عليه وآله) القرآن وعترته -وهي بالمثناة الفوقية الاهل والنسل والرهط الأدنون- (ثقلين)، لأن الثَّقَل: كل نفيس خطير مصون، وهذان كذلك، إذ كل منهما معدن للعلوم اللدنية والأسرار والحكم العلية والأحكام الشرعية، ولذا حث(صلى الله عليه وآله) على الاقتداء والتمسّك بهم والتعلم منهم، وقال: **«الحمد لله الذي جعل فينا الحكمة أهل البيت»**، وقيل: سميّا ثقلين لثقل وجوب رعاية حقوقهما، ثم الذين وقع الحث عليهم منهم إنما هم العارفون بكتاب الله وسنّة رسوله، إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلى الحوض، ويؤيده الخبر السابق:

«ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم»، وتميزوا بذلك عن بقية العلماء لأن الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وشرّفهم بالكرامات الباهرة والمزايا المتكاثرة، وقد مرّ بعضها، وسيأتي الخبر الذي في قريش وتعلّموا منهم فانهم أعلم منكم، فاذا ثبت هذا العموم لقريش فأهل البيت أولى منهم بذلك، لأنهم امتازوا عنهم بخصوصيات لا يشاركهم فيها بقية قريش، وفي أحاديث الحثّ على التمسّك بأهل البيت إشارة الى عدم انقطاع متأهل منهم للتمسّك به إلى يوم القيامة، كما أن الكتاب العزيز كذلك، ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض كما يأتي، ويشهد لذلك الخبر السابق : **«في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي...الخ»**، ثم احق من يتمسك به منهم إمامهم وعالمهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، لما قدّمناه من مزيد علمه ودقائق مستنبطاته..[١٠٧١]

في الحقيقة أن التمعّن في دلالة حديث الثقلين يثبت الوصية لعلي بن أبي طالب وأهل بيته، ومهما حاول البعض التملص من دلالة الحديث واختراع التأويلات له، فإنّ تصرف النبي(صلى الله عليه وآله) في يوم الغدير ينسف كل تلك التمحلات، فان النبي(صلى الله عليه وآله) قد ألبس علي بن أبي طالب -بعد ذكر الحديث- عمامة للدلالة

(١٠٧١) الصواعق المحرقة، الباب الحادي عشر: في فضائل أهل البيت النبوي: الفصل الأول: ٢٣٠ وما بعدها.

على تتويجه، قال الزبيدي: ومن المجاز: (عُمّمَ): أي سُوِّدَ، لأن تيجان العرب العمائم، فكلما قيل في العجم: تُوّجَ من التاج، قيل في العرب: عُمِّمَ. قال: وفيهم إذا عُمم المعمّم.

وكانوا إذا سوّدوا رجلا عمموه عمامة حمراء، وكانت الفرس تُتوّج ملوكها، فيقال له: المتوّج(١٠٧٢).

وقد جاء عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**العمائم تيجان العرب**»(١٠٧٣).

وعن علي بن أبي طالب قال : عمّمني رسول الله(صلى الله عليه وآله) يوم غدير خم بعمامة، فسدلها خلفي.

وفي رواية : فسدل طرفها على منكبي، ثم قال : «**إنّ الله أمدّني يوم بدر وحنين بملائكة يتعممون هذه العمّة**»(١٠٧٤).

وعن عبد الرحمان بن عدي البحراني، عن أخيه عبدالأعلى بن عدي : أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) دعا علي بن أبي طالب، فعمّمه وأرخى عذبة العمامة من خلفه(١٠٧٥).

وعن ابن عباس، قال : لما عمّم رسول الله(صلى الله عليه وآله) علياً بالسحاب، قال له : «**يا علي العمائم تيجان العرب**»(١٠٧٦).

وقال الحلبي : كان له (صلى الله عليه وآله) عمامة تسمى (السحاب)، كساها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فكان ربما طلع عليه علي كرم الله وجهه، فيقول(صلى الله عليه وآله) : «**أتاكم علي في السحاب، يعني عمامته التي وهبها له**(صلى الله عليه وآله)»(١٠٧٧).

دفع الألباني لدلالة الحديث

أورد الشيخ ناصر الدين الألباني طرق حديث الثقلين وأثبت صحته، ونعى على البعض من غير المطلعين ـ من حملة شهادة الدكتوراه ـ تضعيفهم للحديث لعدم استيعابهم طرقه، ووصفهم بالناشئين الذين ليست لهم قدم راسخة في العلم، إلاّ أنه بعد ذلك يعود ليقع في خطأ لا يقل عن أخطائهم، حيث يقول: واعلم أيها القارئ الكريم،

(١٠٧٢) تاج العروس ٢ : ١٢

(١٠٧٣) الجامع الصغير للسيوطي ٢ : ١٩٣ ح ٥٧٢٣ وصححه ، النهاية لابن الاثير ١ : ١٩٩

(١٠٧٤) مسند الطيالسي : ٢٣ ح ١٥٤ .

(١٠٧٥) كنز العمال ١٥ : ٤٨٣ ح ٤١٩١١ ، معرفة الصحابة لابي نعيم ١ : ٣٠١ ، الرياض النضرة للمحب الطبري ٣ : ١٧٠ ، شرح المواهب اللدنية للزرقاني ٥ : ١٠ .

(١٠٧٦) الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي ٣ : ٨٧ ح ٤٢٤٦

(١٠٧٧) السيرة الحلبية ٣ : ٣٤١

أن من المعروف أن الحديث مما يحتج به الشيعة، ويلهجون بذلك كثيراً، حتى يتوهم بعض أهل السنّة أنهم مصيبون في ذلك، وهم جميعاً واهمون في ذلك. وبيانه من وجهين :

الأوّل : أن المراد من الحديث في قوله(صلى الله عليه وآله) : «**عترتي**» أكثر مما يريده الشيعة، ولا يردّه أهل السنّة، بل هم مستمسكون به، ألا وهو أن العترة فيه هم أهل بيته(صلى الله عليه وآله)، وقد جاء ذلك موضحاً في بعض طرقه كحديث الترجمة «**وعترتي أهل بيتي**»، وأهل بيته في الأصل هم نساؤه(صلى الله عليه وآله)، وفيهن الصدّيقة عائشة رضي الله عنهم جميعاً، كما هو صريح في قوله تعالى في (الأحزاب) : (**إنَّما يُريدُ اللهُ ليُذهِبَ عَنكُم الرِّجسَ أهلَ البيتِ وَيُطهّركم تَطهيراً**)[١٠٧٨] بدليل الآية التي قبلها والتي بعدها : (**يا نِساءَ النبيِّ لستُنَّ كأحد مِنَ النساءِ إنْ اتقيتُنَّ ...) الاية .**

وتخصيص الشيعة (أهل البيت) في الآية بعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم دون نسائه(صلى الله عليه وآله) من تحريفهم لآيات الله تعالى انتصاراً لأهوائهم... الخ.

والوجه الآخر : أن المقصود من أهل البيت إنما هم العلماء الصالحون منهم، والمتمسكون بالكتاب والسنّة.. الخ[١٠٧٩]

إن من العجب أن يتهم الألباني غيره باتباع الهوى وينسى نفسه، فان مقالته هذه لا ينبغي أن تصدر عمن يدعي العلم والتبحر في علم الحديث، وعتابه لأولئك الذين يفتون بغير علم، ينطبق عليه بصورة أكبر، لأنه يعلم ولكنه يحرّف الحقائق من باب التعصب ليس إلاّ، إذ أن ما يدعيه من شمول نساء النبي(صلى الله عليه وآله) بأهل البيت ترده الروايات الصحيحة، ولم يقل بمقالة الألباني إلاّ بعض المتَّهمين بمناصبة أهل البيت، لذا أجد لزاماً علي أن استعرض الروايات التي جاءت بهذا الخصوص وأترك الحكم فيها للقارئ.

أهل البيت

لقد تبيّن من الفصول السابقة، أن الحديث النبوي الشريف قد تعرّض لعملية تزييف كبيرة، بأمر من معاوية وبني اُمية حتى انتهاء دولتهم، ثم استمر بعد ذلك عدة قرون، وكانت إحدى أساليب التزييف هي وضع أحاديث في مقابل الأحاديث الصحيحة انتقاصاً من علي وأهل البيت عامة، بصرف فضائلهم الى غيرهم من الصحابة، وبخاصة الخلفاء الثلاثة الأوَل، أو الى بعض زوجاته، ولعلك تلاحظ معي

(١٠٧٨) الأحزاب : ٣٣ .

(١٠٧٩) سلسلة الأحاديث الصحيحة : المجلد الرابع : ح ١٧٦١

أن الألباني عندما يذكر زوجات النبي(صلى الله عليه وآله) في أهل البيت، فانه يخص عائشة بالذكر دون سواها، وكان للسياسة الإعلامية الأموية اليد الطولى في اختلاق الفضائل لعائشة، لا لسبب إلاّ لأنها زوجة النبي الوحيدة التي حاربت علي بن أبي طالب. وقد كان الهدف من إدخال زوجات النبي في أهل البيت، هو إضفاء الشرعية على عمل عائشة لاعتبارها تمثل هي الأخرى الثقل الثاني الذي أمر النبي(صلى الله عليه وآله) بالتمسك به كالتمسك بالثقل الأول الذي هو كتاب الله، وبالتالي تصبح عائشة حجة في مسائل الدين والشريعة، ويصبح عملها بالتأليب على عثمان والدعوة لقتله، واشعال الفتنة بين المسلمين، ومن ثم ضرب بعضهم ببعض في حرب ضروس سقط فيها الألوف منهم، عملا مشروعاً، وتدور الدائرة على علي بن أبي طالب، ويصبح عمله عملا تهوّرياً، ويكون هو المسؤول الأول عما حدث في حرب الجمل وما تبعها.

فنلاحظ من ذلك أن إدخال أزواج النبي(صلى الله عليه وآله) في جملة أهل البيت الذين أمر النبي بالتمسك بهم كان لهذه الأهداف، إلاّ أن الواقع يكذب ما يدعيه الألباني من المعاصرين، وعكرمة وعروة وغيرهما من القدامى الذين كانوا يقولون بذلك، وإليك مقارنة بين الروايات التي جاءت في ذلك:

١ ـ عن أم سلمة(رض) أن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال لفاطمة(رض) : «**ائتني بزوجك وابنيه**»، فجاءت بهم، فألقى رسول الله(صلى الله عليه وآله) عليهم كساء فدكياً، ثم وضع يده عليهم، ثم قال : «**اللهم هؤلاء أهل محمد ـوفي لفظ آل محمدـ فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد**». قالت أم سلمة(رض): فرفعت الكساء لأدخل معهم، فجذبه من يدي وقال: «**إنك على خير**»![١٠٨٠].

٢ ـ عن أبي سعيد الخدري(رضي الله عنه) قال : لما دخل علي(رضي الله عنه) بفاطمة(رض)، جاء النبي(صلى الله عليه وآله) أربعين صباحاً الى بابها يقول : «**السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، الصلاة رحمكم الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا، أنا حرب لمن حاربتم، أنا سلم لمن سالمتم**».

٣ ـ قال السيوطي : وأخرج إبن مردويه عن أم سلمة قالت : نزلت هذه الآية في بيتي (**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**)، وفي البيت سبعة: جبريل، وميكائيل(عليهما السلام)، وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، وأنا

(١٠٨٠) مسند احمد ٦ : ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، المستدرك ٣ : ١٤٦ وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص ، تفسير الطبري ٢٢ : ٦ ، مجمع الزوائد ٩ : ١٦٦ ، سنن الترمذي ٥ : ٦١ كتاب المناقب ، باب فضل فاطمة بنت محمد (ص).

على باب البيت، قلت: يا رسول الله، ألست من أهل البيت؟ قال: «**إنك إلى خير، إنك من أزواج النبي**»[١٠٨١].

٤ ـ قالت عائشة : خرج النبي(صلى الله عليه وآله) غداة وعليه مرط مرجّل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: «**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**»[١٠٨٢].

٥ ـ عن سعد بن أبي وقاص، قال : أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله(صلى الله عليه وآله)فلن أسبّه، لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول له وقد خلّفه في بعض مغازيه، فقال له علي : يا رسول الله، خلفتني مع النساء والصبيان! فقال له رسول الله(صلى الله عليه وآله) : «**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنه لا نبوة بعدي**»، وسمعته يقول يوم خيبر : «**لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»، قال: فتطاولنا لها فقال: «**ادعوا لي علياً**»، فأُتي به أرمد، فبصق في عينه ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه. ولما نزلت هذه الآية (**فقُل تَعالَوا نَدعُ أبناءَنا وأبناءكُمْ**) دعا رسول الله(صلى الله عليه وآله) علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «**اللهم هؤلاء أهلي**»[١٠٨٣].

٦ ـ عن واثلة بن الأسقع (رض) قال : جاء رسول الله(صلى الله عليه وآله) الى فاطمة ومعه حسن وحسين وعلي حتى دخل، فأدنى علياً وفاطمة فأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً، كل واحد منهما على فخذه، ثم لف عليهم ثوبه وأنا مستدبرهم، ثم تلا هذه الآية (**إنما يريد الله ...**)[١٠٨٤]

٧ ـ عن ابن عباس(رضي الله عنه) قال : شهدنا رسول الله(صلى الله عليه وآله) تسعة أشهر، يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب(رضي الله عنه)، عند وقت كل صلاة فيقول : «**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت، (إنما يريد الله ...)، الصلاة يرحمكم الله**» كل يوم خمس مرات![١٠٨٥].

(١٠٨١) الدر المنثور ٥: ١٩٨ تفسير سورة الأحزاب .
(١٠٨٢) صحيح مسلم ٤ : ١٨٨٣ ، المستدرك ٣ : ١٤٧ ، السنن الكبرى للبيهقي ٢ : ١٤٦
(١٠٨٣) صحيح مسلم ٤ : ١٨٧١ كتاب فضائل الصحابة . المستدرك ٣ : ١٥٠
(١٠٨٤) المستدرك ٣ : ١٤٧ ، ٢ : ٤١٦ ، وصححه مسند أحمد ٤ : ١٠٧ ، مجمع الزوائد ٩ : ١٦٦ ، تفسير الطبري ٢٢ : ٦
(١٠٨٥) المستدرك ٣ : ١٣٢

والروايات في ذلك أكثر مما ذكرت، ولكنني سأورد الآن الروايات المقابلة لها، والتي جمعها السيوطي في تفسيره ، قال :

أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق عكرمة(رضي الله عنه) عن ابن عباس(رضي الله عنه) في قوله: **(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت)** قال : نزلت في نساء النبي(صلى الله عليه وآله)خاصة، وقال عكرمة(رضي الله عنه): من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي(صلى الله عليه وآله)!

وأخرج ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير(رضي الله عنه) عن ابن عباس(رضي الله عنه)قال: نزلت في نساء النبي(صلى الله عليه وآله).

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن عكرمة(رضي الله عنه) في قوله: **(إنما يريد ...)** قال : ليس بالذي تذهبون إليه، إنما هو نساء النبي(صلى الله عليه وآله).

وأخرج ابن سعد عن عروة(رضي الله عنه) : **(إنما يريد ...)** قال: يعني أزواج النبي(صلى الله عليه وآله)، نزلت في بيت عائشة(رض)[١٠٨٦].

إن نتيجة المقارنة تبدو واضحة تماماً. فادعاء عروة أنها نزلت في نساء النبي(صلى الله عليه وآله) في بيت عائشة، تكذبه الروايات الصحيحة بأنها نزلت في بيت أُم سلمة، وأن تصرف النبي(صلى الله عليه وآله) بمنع أُم سلمة عن الدخول معهم تحت الكساء ليدل على استثناء نساء النبي منهم، كما أن عائشة التي شهدت إحدى الوقائع وروتها كما في صحيح مسلم لم تدع أنها نزلت في نساء النبي قط، وفضلا عن هذا وذاك فان عروة معروف بمواقفه من علي وأهل البيت ومناصبته العداء لهم كما ثبت فيما سبق.

وأما عكرمة، فترجمته تؤكد أنه كان من الخوارج الصفرية، لهذا كان مالك يدلّسه، والخوارج أعداء علي بن أبي طالب، بل ويكفرونه، فلا يستغرب أن يدعي عكرمة على ابن عباس ما يدّعيه.

فلا يعتد باقوال هؤلاء، ولا يمكن قبول رواياتهم أمام هذا الجمع من الروايات الصحيحة التي تثبت عكس مقالاتهم.

وعلى ذكر نزول آية المباهلة، والتي أجمع فيها المفسرون على أن النبي(صلى الله عليه وآله)قد أخذ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً لمباهلة نصارى نجران، إلاّ أن وسائل الإعلام الأُموية لم تدع هذه الحادثة أيضاً دون تزييف، حيث وضع رواية في مقابلها، فقد أخرج إبن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه في هذه الآية **(تعالوا ندع أبناءنا ...)**

(١٠٨٦) الدر المنثور ٥ : ١٩٨ .

الآية. قال: فجاء بأبي بكر وولده، وبعمر وولده، وبعثمان وولده، وبعلي وولده![١٠٨٧]
والعجب أن تنسب هذه الرواية الى جعفر بن محمد الصادق!

استدراك آخر

نقلنا فيما مضى كلام ناصر الدين الألباني في تأويل حديث الثقلين ومعنى أهل البيت، وننقل الآن ما تبقى من كلامه في محاولته ربط حديث الثقلين بحديث كتاب الله وسنّة رسوله، قال:

فتبيّن أن المراد بأهل البيت، المتمسكين منهم بسنّته(صلى الله عليه وآله)، فتكون هي المقصود بالذات في الحديث، ولذلك جعلها أحد الثقلين في حديث زيد بن أرقم المقابل للثقل الاول وهو القرآن، والحاصل أن ذكر أهل البيت في مقابل القرآن في هذا الحديث، كذكر سنّة الخلفاء الراشدين مع سنّته(صلى الله عليه وآله) في قوله : «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ...**»

قال الشيخ القاري : «فانهم لم يعملوا إلاّ بسنّتي»، فالاضافة إليهم إما لعلمهم بها، أو لاستنباطهم واختيارها إياها.

إذا عرفت ما تقدّم، فالحديث شاهد قوي لحديث الموطأ بلفظ «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنّة رسوله**»، وقد خفي وجه هذا الشاهد على بعض من سوّد صفحات من اخواننا الناشئين اليوم في تضعيف حديث الموطأ![١٠٨٨].

الحقيقة إن حال الشيخ الالباني أسوأ من حال أُولئك الذين ينتقدهم، فانهـ وهو المحدّث الكبيرـ يلجأ إلى أساليب التأويل غير المنطقي لأجل تصحيح حديث متهافت لا اسناد له، وهو قد وضع في مقابل «**وعترتي أهل بيتي**» دون شك، أما احتجاجه بحديث «**عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين...**»، فإننا مع افتراضنا صحة الحديث، فإنه يخالف المدّعى منه، فالحديث عن العرباض بن سارية قال: قام فينا رسول الله(صلى الله عليه وآله) ذات يوم، فوعظنا موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقيل: يا رسول الله، وعظتنا موعظة مودع، فاعهد إلينا بعهد، فقال: «**عليكم بتقوى الله،**

(١٠٨٧) الدر المنثور ٢ : ٤٠ .
(١٠٨٨) سلسلة الأحاديث الصحيحة : المجلد الرابع : ص ٣٦٠

والسمع والطاعة، وإن عبداً حبشياً، وسترون من بعدي اختلافاً شديداً، فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأُمور المحدثات، فانّ كل بدعة ضلالة»(١٠٨٩).

الاثنا عشر خليفة

تقدّم فيما مضى أن لفظة الخليفة والخلفاء قد جاءت على لسان النبي(صلى الله عليه وآله)، وكان تارة يعني بها علي بن أبي طالب، وتارة ينسبها إلى رواة حديثه من بعده، وقد تبيّن أن هذه اللفظة لا تنطبق على من دأب الجمهور بتسميتهم الخلفاء الراشدين، لأن أُولئك لم يرووا حديث النبي(صلى الله عليه وآله)، بل وقفوا حائلا دون روايته وانتشاره، وبقي الآن أن نتناول حديثاً آخر للنبي(صلى الله عليه وآله)، وردت فيه لفظة (الخليفة)، وهو الحديث الذي تحيّر فيه علماء الجمهور، ولم يعرفوا له مخرجاً يتفق مع عقيدة الجمهور السائدة، ألا وهو حديث الاثنا عشر خليفة من قريش، وسوف أُورد الحديث بألفاظه من مصادره، ثمّ استعرض باختصار آراء علماء الجمهور فيه، وبيان تخبطهم في تفسير معناه.

فعن جابر بن سمرة قال : سمعت النبي(صلى الله عليه وآله) يقول : «**يكون اثنا عشر أميراً**»، فقال كلمة لم أسمعها; فقال أبي إنه قال : «**كلهم من قريش**»(١٠٩٠).

وفي لفظ مسلم عن جابر بن سمرة قال : دخلت مع أبي على النبي(صلى الله عليه وآله)فسمعته يقول : «**إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة**»، قال: ثمّ تكلّم بكلام خفي عليّ، قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «**كلهم من قريش**».

وفي رواية أُخرى عند مسلم : «**لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلا**»...(١٠٩١)

وفي لفظ الترمذي : «**يكون من بعدي اثنا عشر أميراً**»(١٠٩٢).

وعند أبي داود قريب من ذلك أيضاً(١٠٩٣).

وفي لفظ الطبراني : «**يكون لهذه الأمة اثنا عشر قيّماً لا يضرهم من خذلهم**»(١٠٩٤).

(١٠٨٩) المستدرك ١ : ٩٥ ـ ٩٩ وصحّحه ووافقه الذهبي، جامع الترمذي ح ٢٦٧٦ ، أبو داود ح ٤٦٠٧ ، شرح السنّة للبغوي ح ١٠٢ ، ابن ماجة ١ : ١٥ من المقدمة باب اتباع سنّة الخلفاء الراشدين المهديين ، مسند أحمد ٤ : ١٢٦ المعجم الكبير للطبراني ح ٦١٧ .

(١٠٩٠) صحيح البخاري ٩ : ١٠١ كتاب الأحكام : باب الاستخلاف .

(١٠٩١) صحيح مسلم ٣ : ١٤٥٢ ـ ١٤٥٣ .

(١٠٩٢) سنن الترمذي ٤ : ٥٠١ .

(١٠٩٣) سنن أبي داود ٤ : ١٠٦ .

(١٠٩٤) المعجم الكبير ٢ : ١٩٦ .

وقد تحيّر علماء الجمهور في من هم المقصودون بهذا الحديث، أما ابن كثير فيقول: وليسوا بالاثني عشر الذين يدّعون إمامتهم الرافضة.. بل هؤلاء من الائمة الاثني عشر المخبر عنهم في الحديث : الأئمة الأربعة، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي(رضي الله عنهم)، ومنهم عمر بن عبدالعزيز بلا خلاف بين الأئمة على كلا القولين لأهل السنة في تفسير الاثني عشر كما سنذكره بعد إيراد الحديث... (وبعد أن يورد ابن كثير الروايات في هذا الخصوص، ينقل عن البيهقي قوله): ففي الرواية الأولى بيان العدد، وفي الثانية بيان المراد بالعدد، وفي الثالثة بيان وقوع الهرج، وهو القتل بعدهم، وقد وجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلى وقت الوليد بن يزيد بن عبدالملك، ثم وقع الهرج والفتنة العظيمة، كما أخبر في هذه الرواية، ثم ظهر ملك العباسية.. وإنما يزيدون على العدد المذكور في الخبر، إذا تركت الصفة المذكورة فيه، أو عدد منهم من كان بعد الهرج المذكور فيه!

ثمّ ينقل ابن كثير حديث «الخلافة في قريش»، و «الخلافة بعدي ثلاثون سنة» محاولا التوفيق بين النصوص، ثم يعدد أسماء الاثني عشر -كما يظنهم- ابتداءً بالخلفاء الأربعة وانتهاء بهشام بن عبدالملك، ويقول: فهؤلاء خمسة عشر! ثم الوليد بن يزيد بن عبدالملك، فإن اعتبرنا ولاية الزبير قبل عبدالملك، صاروا ستة عشر!! وعلى كل تقدير فهم اثنا عشر قبل عمر بن عبدالعزيز، فهذا الذي سلكه على هذا التقدير يدخل في الاثني عشر يزيد بن معاوية، ويخرج منهم عمر بن عبدالعزيز...!

ثمّ قال : فإن قال : أنا لا أعتبر إلاّ من اجتمعت الأمة عليه، لزمه على القول أن لا يعدّ علي بن أبي طالب ولا ابنه، لأن الناس لم يجتمعوا عليهما!

ويظل ابن كثير يدور في حلقة مفرغة وهو يحاول تعريف هؤلاء الاثنا عشر دون جدوى، فالعدد عنده لا يستقيم، ثم يميل إلى رواية أبي الجلد ويرجحها لأنه كان ينظر في شيء من الكتب المتقدّمة، والتي مفادها: أن في التوراة التي بأيدي أهل الكتاب ما معناه: إن الله تعالى بشّر إبراهيم بإسماعيل، وأنه ينمّيه ويكثّره ويجعل من ذريته اثني عشر عظيماً![١٠٩٥].

ثم قال ابن كثير : قال شيخنا العلامة أبو العباس بن تيمية : وهؤلاء المبشّر بهم في حديث جابر بن سمرة - وقرر أنهم يكونون مفرّقين في الأمة- ولا تقوم الساعة

(١٠٩٥) العهد القديم : سفر التكوين : ١ صحاح ١٧ ، آية ٢٠

حتى يوجدوا، وغلط كثير ممّن تشرّف بالإسلام من اليهود، فظنوا أنهم الذين تدعو إليهم فرقة الرافضة فاتبعوهم!!(١٠٩٦).

أما ابن بطّال، فيروي عن المهلب إنه لم يلق أحداً يقطع في هذا الحديث بشيء معين.

أما القاضي عياض فيحاول الجمع بين هذا الحديث وحديث «الخلافة ثلاثون سنة» ثم يقول: وقد مضى منهم الخلفاء الأربعة، ولابدّ من تمام العدة قبل قيام الساعة!

أما ابن الجوزي فيقول في كشف المشكل: قد أطلت البحث عن معنى هذا الحديث وتطلبت مضانه وسألت عنه، فلم أقع على المقصود به، لأن ألفاظه مختلفة ولا أشك أن التخليط من الرواة.

وقال ابن المنادي : يحتمل في معنى حديث «يكون اثنا عشر خليفة» أن يكون هذا بعد المهدي الذي يخرج في آخر الزمان!

وأما ابن حجر العسقلاني، فيورد الآراء المتقدّمة دون أن يعطي نتيجة حاسمة يُقطع بها(١٠٩٧).

أما السيوطي فيقول : وقد وجد من الاثني عشر : الخلفاء الأربعة، والحسن، ومعاوية، وابن الزبير، وعمر بن عبدالعزيز، هؤلاء ثمانية، ويحتمل أن يضم إليهم المهدي العباسي لأنه في العباسيين كعمر بن عبدالعزيز في الأمويين، والظاهر العباسي أيضاً لما أُوتيه من العدل، ويبقى الاثنان المنتظران، أحدهما المهدي من أهل البيت!(١٠٩٨).

لكن الخلافة الإسلامية اُلغيت وسقطت ولما يظهر الخليفة الحادي عشر الذي يسبق المهدي، فمتى يظهر؟!

أما إدعاء ابن تيمية بأنهم يظهرون مفرّقين في الأمة، فليس لديه شاهد عليه، وليس في أي من الفاظ الحديث ما يدل على ذلك.

إن الحقيقة التي يحاول الجمهور التهرّب منها بأي ثمن هي : أن هؤلاء الاثنا عشر لا يمكن إلاّ أن يكونوا علماء أهل البيت الذين رووا الحديث النبوي الشريف أباً عن جد، وورثوا علم النبوة، والفهم بكتاب الله، حتى جعلهم النبي(صلى الله عليه وآله)

(١٠٩٦) البداية والنهاية ٦ : ٢٤٨ في ذكر الأخبار عن الائمة الاثني عشر الذين كلهم من قريش ، تاريخ أبي الفدا ١ : ١٧ باختصار ، تفسير ابن كثير ٢ : ٣٤ باختصار أيضاً .

(١٠٩٧) فتح الباري ١٣ : ١٧٩ ـ ١٨٣

(١٠٩٨) تاريخ الخلفاء : ١٠

أعدالا للكتاب لا ينفصلون عنه، ولم يظهر في الأمة غير أولئك الذين تقول بهم الإمامية، فلا يمكن أن يكون غيرهم!

إنّ المشكلة التي حيّرت الجمهور، هي لفظة (خليفة) التي وردت في بعض ألفاظ الحديث، فتوهم الجمهور أن المقصود بذلك هم الخلفاء الذين جلسوا على منصة الخلافة فعلا، مع أن لفظة خليفة لا تعني الحكم بالضرورة، وإلاّ فهل كان آدم خليفة في الأرض بهذا المعنى؟

إن إحدى الألفاظ التي جاءت في حديث الثقلين المتواتر تعطينا صورة واضحة وحلاً أمثل لكل هذه الاشكالات، فقد جاء في بعض ألفاظه: «**إني تارك فيكم الخليفتين من بعدي ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض**»(١٠٩٩).

فقد أخبر النبي(صلى الله عليه وآله) بأن سنّة أولئك الخلفاء هي سنّته، فهذا يستلزم ألاّ يكون هناك خلاف في ذلك. كما ينقل الألباني عن الشيخ القاري «فإنهم لم يعملوا إلاّ بسنّتي» ، ولكننا عندما نستعرض سيرة اولئك الخلفاء، نجد أنهم قد خالفوا النبي(صلى الله عليه وآله) في عشرات الموارد، أولها في قضية النص على الخلافة، فالجمهور يدّعي أن النبي لم ينص على خلافة أحد، وأن المسلمين هم الذين اختاروا أبا بكر لها، ولكن أبا بكر قد خالف النبي(صلى الله عليه وآله) فاستخلف عمر بن الخطاب رغم أنف بعض كبار الصحابة الذين اعترضوا عليه وقالوا: كيف تولّي علينا فضّاً غليظاً! وقد فعل عمر ما خالف به النبي أيضاً في قضية الشورى، ولربما لو أتيح لعثمان أن يستخلف لاستخلف هو الآخر، والكلام حول مخالفة هؤلاء للسنّة النبوية المتواترة. يستلزم الكثير من الوقت، ويكفي ما أثبتناه من مخالفة عثمان بن عفان للسنّة النبوية في تقصير صلاة السفر، واعتراض الصحابة عليه، وغيرها كثير لا يسعنا تتبعها .

ما الذي حدث

لقد تبيّن من كل ما سبق أن النبي(صلى الله عليه وآله) قد نصّ بالخلافة لعلي بن أبي طالب وأوصى إليه، ولكن قريشاً كانت تميل الى الاعتقاد بأن دور النبي(صلى الله عليه وآله)يتلخص في تبليغ القرآن، وليس له دخل في تولية أحد على المسلمين، وقد عبّر الخليفة عمر بن الخطاب عن هذا الاتجاه بقوله لعبد الله بن عباس: يابن عباس، أتدري ما منع قومكم منهم -أي من بني هاشم- بعد محمد؟ (قال ابن عباس): فكرهت أن

(١٠٩٩) مسند احمد ٥ : ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، وكتاب السنّة لابن أبي عاصم : ٣٣٧ ، ٦٢٩ وقد صححه الألباني في (ظلال الجنة) المطبوع مع الكتاب ، حديث ٧٥٤ ، مجمع الزوائد ٩ : ١٦٢، كنز العمال ح ٨٧٢ ، ٩٤٧ ، الدر المنثور ٢ : ٦٠

أجيبه، فقلت: إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يُدريني، فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة، فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووُفّقت، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن تأذن لي في الكلام، وتُمط عني الغضب تكلمت. فقال: تكلم يابن عباس، فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين: اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت، فلو أن قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله عزّوجل لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود، وأما قولك: إنهم كرهوا أن تكون لنا النبوة والخلافة، فإن الله عزّوجل وصف قوماً بالكراهية فقال: (**ذلكَ بِأَنَّهمْ كرِهُوا ما أنزلَ اللهُ فأحبط أعمالهُمْ**)(١١٠٠).

فقال عمر : هيهات والله يابن عباس! قد كانت تبلغني عنك أشياء كنت أكره أن أفُرّك عنها، فتزيل منزلتك عندي، فقلت: ما هي يا أمير المؤمنين؟ فإن كانت حقاً فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك، وإن كانت باطلا، فمثلي أماط الباطل عن نفسه، فقال عمر: بلغني أنك تقول: إنما صرفوها عنا حسداً وظلماً! فقلت: أما قولك يا أمير المؤمنين: ظلماً، فقد تبيّن للجاهل والحليم! وأما قولك: حسداً، فان إبليس حسد آدم، فنحن ولده المحسودون. فقال عمر: هيهات، أبَتْ والله قلوبكم يا بني هاشم إلاّ حسداً ما يحول، وضغناً وغشاً ما يزول. فقلت: مهلا يا أمير المؤمنين، لا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً بالحسد والغش، فان قلب رسول الله(صلى الله عليه وآله) من قلوب بني هاشم! فقال عمر: إليك عني يابن عباس...(١١٠١)

ونص آخر عن عمر، يبدو أكثر جلاءً، إذ قال لابن عباس يوماً: يا عبدالله، عليك دماء البُدن إن كتمتها: هل بقي في نفس علي شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم. قال: أيزعم أن رسول الله نصّ عليه؟ قلت: نعم، وأزيدك، سألت أبي عمّا يدّعيه، فقال: صدق! فقال عمر: لقد كان في رسول الله من أمره ذروٌ من قول لا يثبت حجة ولا يقطع عذراً، ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه، فمنعتُ من ذلك إشفاقاً وحيطة على الإسلام! وربّ هذه البنية، لا تجتمع عليه قريش أبداً! فعلم رسول الله أني علمت ما في نفسه فأمسك!!(١١٠٢).

نعم، لقد اختارت قريش لنفسها دون ما اختاره الله ورسوله لها، واحتجت في ذلك بحجج كثيرة، منها كراهتها اجتماع النبوة والخلافة في بني هاشم، ومنها استصغارهم لعلي بن أبي طالب، وجاء ذلك على لسان عمر أيضاً في حوار آخر مع ابن عباس،

(١١٠٠) سورة محمد : ٩
(١١٠١) تاريخ الطبري ٤: ٢٢٣ ـ ٢٢٤
(١١٠٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢ : ٢١

حيث قال له: يابن عباس، ما أظن صاحبك إلاّ مظلوماً! فقلت في نفسي: والله لا يسبقني بها، فقلت: يا أمير المؤمنين، فاردد إليه ظلامته، فانتزع يده من يدي، ثم مرّ يهمهم ساعة ثم وقف. فلحقته فقال لي: يابن عباس، ما أظن القوم منعهم من صاحبك إلاّ أنهم استصغروه، فقلت في نفسي: هذه شرّ من الأولى، فقلت: والله ما استصغره الله حين أمره أن يأخذ سورة براءة من أبي بكر!(١١٠٣).

واحتج تارة اُخرى ببغض العرب لعلي بن أبي طالب لأنه قتل آباءهم وإخوانهم وأبناءهم في حروب النبي(صلى الله عليه وآله)، واحتج بذلك عثمان على علي بقوله له: ما أصنع إن كانت قريش لا تحبكم، وقد قتلتم منهم يوم بدر سبعين، كأن وجوههم شنوف الذهب، تصرع أنفهم قبل شفاههم!(١١٠٤).

فكان التبرير هو الخوف من انتقاض العرب على علي إذا تولى الخلافة، لكن ما حدث هو أن العرب انتقضت رغم عدم تولي علي للخلافة، ونشبت حروب طاحنة عُرفت باسم حروب الردة، ويقيناً أن الخوف لم يكن من انتقاض العرب على علي، بل من انتقاض قريش عليه، وفي النفوس ما فيها.

فمخالفة النص أمر واقع لا يمكن إنكاره، وليست تلك بأول مخالفة لأوامر رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فقد كانت المخالفات تترى طيلة مدة حياته(صلى الله عليه وآله).

مخالفة النبي

إن تتبع مخالفة الصحابة للنبي(صلى الله عليه وآله) يدل على أنهم -كما قلنا- لم يكونوا يرون أوامره ونواهيه ملزمة إلى درجة التعبّد بها، وكانوا يجدون مسوغاً لمخالفته في كل حين، حتى في مقام الروع وساعات الخطر، فهاهم الرماة الذين أمرهم النبي(صلى الله عليه وآله) بعدم مغادرة مواقعهم على جبل اُحد مهما كلّف الأمر، سرعان ما يضربون بهذا الأمر عرض الحائط ويتركون مواقعهم لتدور الدائرة على المسلمين، وخالفه بعضهم في الخروج إلى تبوك، وإذا كان الخوف أو الخطأ في التقدير عذراً في تلك المخالفات، فإن هناك اُموراً تتعلق بمناسك الشريعة كانت أيضاً مدعاة للعصيان

(١١٠٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦ : ٤٥ والقصة باختصار : أن النبي صلى الله عليه وآله بعث ببراءة الى أهل مكة مع أبي بكر، ثم اتبعه بعلي فقال له : «خذ الكتاب فامض الى أهل مكة» ، فلحقه فأخذ الكتاب منه ، فانصرف أبو بكر وهو كئيب ، فقال لرسول الله(ص): أنزل فيّ شي؟ قال: «لا ، إلاّ أني اُمرتُ أن اُبلّغه أنا أو رجل من أهل بيتي».
انظر في ذلك : سنن النسائي ٥ : ١٢٨ ح ٨٤٦١ ، الخصائص للنسائي : ٩٢ ح ٧٦ ، مسند أحمد ١ : ١٥١ ، ١ : ٣ ، جامع الترمذي ٥ : ٢٥٧ ح ٣٠٩١ ، المستدرك ٢ : ٦١ ، السنن الكبرى للبيهقي ٩ : ٢٢٤ ، فتح الباري ٨ : ٣١٨ ، تفسير الطبري مج ٦ ج ١٠ : ٦٤ ، مختصر تاريخ دمشق ١٨ : ٦ ، البداية والنهاية ٧ : ٣٩٤ حوادث سنة ٤٠ ، الرياض النضرة ٣ : ١١٩ ، الدر المنثور ٤ : ١٢٥ ، كنز العمال ٢ : ٤٢٢ ح ٤٤٠١ وغيرها .

(١١٠٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩ : ٢٣

والمخالفة، فعن البرّاء بن عازب، قال: خرج رسول الله(صلى الله عليه وآله) وأصحابه فأحرمنا بالحج، فلما قدمنا مكة قال: «**اجعلوا حجكم عمرة**»، فقال الناس: يا رسول الله، قد أُحرمنا بالحج فكيف نجعلها عمرة! قال : «**انظروا ما آمركم به فافعلوا**»، فرددوا عليه القول، فغضب فانطلق ثم دخل على عائشة غضبان، فرأت الغضب في وجهه فقالت: من أغضبك أغضبه الله. قال: «**ومالي لا أغضب وأنا آمر أمراً فلا أُتبع**».

وفي رواية : قالت عائشة : من أغضبك يا رسول الله، أدخله الله النار، فقال : «**أوما شعرت إني أمرت الناس بأمر فاذا هم يترددون**»(١١٠٥).

أما عظماء الصحابة القرشيون، فكانوا من أكثر الناس مخالفة للنبي(صلى الله عليه وآله)، فعن ابن أبي مليكة قال: كاد الخيّران أن يهلكا; أبا بكر وعمر!! رفعا أصواتهما عند النبي(صلى الله عليه وآله) حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر... فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلاّ خلافي! قال: ما أردتُ خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله : (**يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تَرفعُوا أصواتَكُمْ ...**) الآية . قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمع رسول الله(صلى الله عليه وآله) بعد هذه الآية حتى يستفهمه. ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر!(١١٠٦).

وقد كان لهذين الصحابيين الكبيرين دور في تثبيط عزيمة النبي(صلى الله عليه وآله)قبل معركة بدر، فقد روى الواقدي، قال: وخرج رسول الله(صلى الله عليه وآله) فصام يوماً أو يومين، ثم رجع ونادى مناديه: يا معشر العصاة، إني مفطرٌ فأفطروا! وذلك أنه قد كان قال لهم قبل ذل «**أفطروا**»، فلم يفعلوا! ومضى رسول الله(صلى الله عليه وآله) حتى إذا كان دُوَين بدر، أتاه الخبر بمسير قريش، فأخبرهم رسول الله(صلى الله عليه وآله)بمسيرهم، واستشار رسول الله(صلى الله عليه وآله) الناس، فقام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قال: يا رسول الله، إنها والله قريش وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزّها أبداً، ولتقاتلنّك، فاتّهب لذلك أهبته وأعدّ لذلك عدّته(١١٠٧).

(١١٠٥) صحيح مسلم باب بيان وجوه الاحرام ح ١٣٠ ، سنن ابن ماجة ٩٩٣ باب فسخ الحج ، مسند أحمد ٤ : ٢٨٦ ، مجمع الزوائد ٣ : ٢٣٣ ، سنن البيهقي ٥ : ١٩ ، زاد المعاد ١ : ٢٤٧ .

(١١٠٦) صحيح البخاري ٦ : ١٧١ سنن النسائي ٨ : ٢٢٦ كتاب آداب القضاء ، سنن الترمذي ٥ : ٣٨٧ ح ٣٢٦٦ ، اسباب النزول للواحدي : ٢١٥ ، التقول في أسباب النزول للسيوطي : ١٩٤ ، الدر المنثور ٧ : ٥٤٦ ، تفسير الطبري ٢٦ : ٧٦ ، جامع الاصول ٢ : ٤٣١

(١١٠٧) المغازي ١ : ٤٧ ـ ٤٨

ولكن الطبري وابن هشام في سيرته لم يذكرا مقالة عمر المثبطة، واكتفيا بالقول: فقال وأحسن[(١١٠٨)].

ولكن ما جاء في صحيح مسلم، يثبت أن مقالة عمر لم تترك أثراً حسناً في نفس النبي(صلى الله عليه وآله)، لأنه قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلّم عمر فأعرض عنه...[(١١٠٩)]

فلو كان أبو بكر وعمر قد أحسنا لما أعرض عنهما النبي!

ويشبه هذا الموقف من الشيخين، موقفاً آخر لهما، فعن علي قال: جاء النبي(صلى الله عليه وآله) أناس من قريش فقالوا: يا محمد، إنّا جيرانك وحلفاؤك، وإن أناساً من عبيدنا قد أتوك ليس بهم رغبة في الدين ولا رغبة في الفقه، وإنما فرّوا من ضياعنا وأموالنا فارددهم إلينا. فقال لأبي بكر : «**ما تقول**»؟ قال: صدقوا، إنهم لجيرانك وأحلافك! فتغيّر وجه رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ثم قال لعمر : «**ما تقول**»؟ قال: صدقوا، إنهم لجيرانك وحلفاؤك! فتغيّر وجه رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فقال : «**يا معشر قريش، والله ليبعثن الله عليكم رجلا قد امتحن الله قلبه بالإيمان، فيضربكم على الدين، أو يضرب بعضكم**»، فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله؟ قال: «**لا**». قال عمر: أنا يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولكنه الذي يخصف النعل**»! وكان قد أعطى علياً نعلا يخصفها[(١١١٠)].

هذا، إضافة الى موقف عمر بن الخطاب في صلح الحديبية وفي غيرها ومواقف غيره من الصحابة في كثير من المواطن.

حديث المغفرة

من الأمور التي أصبح متسالماً عليها عند الجمهور هو حديث المغفرة لأهل بدر، وأصحاب الشجرة والعقبيين وما الى ذلك، ويروون في ذلك أحاديث وروايات. منها ما ورد في قصة حاطب بن أبي بلتعة، والتي ملخصها أنه بعث امرأة لتخبر قريشاً عن مسير النبي(صلى الله عليه وآله) لفتح مكة، فأعلمه الله بذلك فأرسل علياً والزبير فأخذا المرأة واسترجعا كتاب حاطب منها، فاتهم عمر حاطباً بالنفاق وحرّض النبي على قتله، فقال له النبي(صلى الله عليه وآله) ضمن حديث: «لعل الله اطّلع الى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، وقد غفرت لكم ...»[(١١١١)].

(١١٠٨) سيرة ابن هشام ٢ : ٢٥٣ ، الطبري ٢ : ٤٣٤ ، وقال الذهبي : فاستشار الناس فقالوا خيراً، تاريخ الاسلام : المغازي : ٥١

(١١٠٩) صحيح مسلم ٣ : ١٤٠٣ كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة بدر .

(١١١٠) كنز العمال ١٣ : ١٢٧ ح ٣٦٤٠٢ وقال : (حم ، وابن جرير وصححه ، و ص) .

(١١١١) صحيح البخاري كتاب المغازي : باب فضل من شهد بدراً .

وعن جابر : أن غلام حاطب بن أبي بلتعة قال : يا رسول الله، والله ليدخلن حاطب النار، فقال النبي(صلى الله عليه وآله) : «**كذبت، إنه شهد بدراً والحديبية**»[١١١٢].

إن هذا يستلزم أن يكون أهل بدر مغفوراً لهم، وأن يكونوا جميعاً من أهل الجنة مهما فعلوا، ولا يخفى على الباحث المحقق ما يرمي إليه ذلك، فان عدداً من كبار الصحابة، أو بالأحرى معظمهم -ممن تلبسوا بالفتن بعد ذلك- هم من البدريين، فجاءت هذه الأحاديث المفتعلة لتبرئ ساحتهم وتوحي بعفو الله عنهم حتى لو ارتكبوا كل تلك الأعمال الفظيعة. إلاّ أن الواقع يثبت عدم صحة مثل تلك الأحاديث التي اختلقتها يد السياسة، ففي ترجمة الصحابي ثعلبة بن حاطب، قال ابن عبد البر : شهد بدراً وأُحداً، وهو مانع الصدقة فيما قال قتادة وسعيد بن جبير، وفيه نزلت (**وَمِنهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتانَا مِنْ فَضلهِ لنصَّدَّقنَّ وَلنكونَنَّ مِنَ الصالِحينَ * فلمّا آتاهُمْ مِنْ فَضلهِ بَخِلوُا بهِ وَتولَّوا وَهُم مُعرضُونَ * فأعقبَهُمْ نِفاقاً في قُلوبهِمْ إلى يَومَ يَلقونَهُ بما أخلفُوا اللهَ ما وَعدُوه وَما كانُوا يَكذبونَ**)[١١١٣].

قال الفخر الرازي : والمشهور في سبب نزول هذه الآية أن ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول الله، اُدع الله أن يرزقني مالا، فقال (عليه السلام): «**يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه**»، فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالا لأُعطين كل ذي حق حقه، فدعا له، فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدود، حتى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً بها، فجعل يصلي الظهر والعصر ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلاّ الجمعة، ثم ترك الجمعة، وطفق يتلقى الركبان يسأل عن الأخبار وسأل رسول الله(صلى الله عليه وآله) عنه، فأُخبر بخبره، فقال: «**يا ويح ثعلبة**»، فنزل قوله (**خُذْ مِنْ أموالِهِمْ صَدَقة**)، فبعث إليه رجلين وقال: «**مُرا بثعلبة فخذا صدقاته**»، فعند ذلك قال لهما: ما هذه إلاّ جزية، أو اُخت الجزية، فلم يدفع الصدقة، فأنزل الله تعالى (**وَمنهمْ منْ عاهدَ الله**)فقيل له: قد اُنزل فيك كذا وكذا، فأتى الرسول(عليه السلام) وسأله أن يقبل صدقته، فقال: «**إن الله منعني من قبول ذلك**»، فجعل يحثي التراب على رأسه، فقال عليه الصلاة والسلام: «**قد قلت لك فما أطعتني**»، فرجع إلى منزله، وقُبض رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ثم أتى أبا بكر بصدقته، فلم يقبلها اقتداء بالرسول(صلى الله عليه وآله)، ثم لم يقبلها عمر اقتداء بأبي بكر، ثم لم يقبلها عثمان، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان[١١١٤].

(١١١٢) صحيح مسلم ٤ : ١٩٤٢ كتاب فضائل الصحابة : باب من فضائل أهل بدر .
(١١١٣) الاستيعاب ١ : ٢١٠ والآيات هي : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ من سورة التوبة .
(١١١٤) التفسير الكبير ١٦ : ١٣٨

أخرج هذه القصة معظم المفسّرين، وتحيّر القرطبي في الأمر، فقال: وجاء فيمن شاهد بدراً يعارضه قوله تعالى في الآية: (**فأعقبهمُ نِفاقاً في قلوبهم**)[١١١٥].

فهذا الصحابي، وإن كان بدرياً أحدياً، إلاّ أن الله طبع على قلبه وأورثه نفاقاً، لخيانته ما عاهد الله ورسوله عليه!

وفي ترجمة معتب بن قشير، قال ابن حجر : ذكروه فيمن شهد العقبة، وقيل إنّه كان منافقاً، وأنه الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا! وقيل إنّه تاب، وقد ذكره إبن إسحاق فيمن شهد بدراً[١١١٦].

فهذا أيضاً صحابي بدري أحدي عقبي يقول مقالة ينزل فيها قرآن يُتلى ذماً له. قال السيوطي: أخرج ابن أبي حاتم عن السدي، قال: حفر رسول الله(صلى الله عليه وآله)الخندق واجتمعت قريش وكنانة وغطفان، فاستأجرهم أبو سفيان بلطيمة قريش، فأقبلوا حتى نزلوا بفنائه، فنزلت قريش أسفل الوادي، ونزلت غطفان عن يمين ذلك، وطليحة الاسدي في بني أسد يسار ذلك، وظاهرهم بنو قريظة من اليهود على قتال النبي(صلى الله عليه وآله)، فلما نزلوا بالنبي(صلى الله عليه وآله)، تحصّن بالمدينة، وحفر النبي(صلى الله عليه وآله) الخندق، فبينما هو يضرب فيه بمعوله إذ وقع المعول في صفا، فطارت منه كهيئة الشهاب من النار في السماء، وضرب الثاني فخرج مثل ذلك، فرأى ذلك سلمان(رضي الله عنه) فقال: يا رسول الله، قد رأيت يخرج من كل ضربة كهيئة الشهاب فسطع الى السماء، فقال: «**لقد رأيت ذلك**»؟ فقال: نعم يا رسول الله. قال: «**تفتح لكم أبواب المدائن، وقصور الروم، ومدائن اليمن!**» ففشا ذلك في أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله)، فتحدثوا به، فقال رجل من الأنصار يدعى قشير بن معتب[١١١٧]، أيعدنا محمد أن يفتح لنا مدائن اليمن، وبيض المدائن، وقصور الروم، وأحدنا لا يستطيع أن يقضي حاجته إلاّ قُتل، هذا والله الغرور! فأنزل الله تعالى في هذا (**وَإذْ يقولُ المُنافِقونَ والّذينَ في قلوبهمْ مرضٌ ما وَعَدنا اللهُ وَرسُولُه إلاّ غُروراً**)[١١١٨].

وفي معركة أُحد إنهزم معظم الصحابة وتركوا النبي في مواجهة العدو، ولما ذاع في الناس أن النبي قد قُتل، قالت فرقة منهم «نلقي إليهم بأيدينا فانهم قومنا وبنو عمنا، وهذا يدل على أن هذه الفرقة ليست من الأنصار، بل من المهاجرين»[١١١٩].

(١١١٥) الجامع لأحكام القرآن ٨ : ٢٠٩
(١١١٦) الاصابة ٣ : ٤٤٣
(١١١٧) الصحيح معتب بن قشير .
(١١١٨) سورة الأحزاب : ١٣ ، الدر المنثور ٥ : ٣٥٨
(١١١٩) السيرة الحلبية ٢ : ٢٢٧

واستعراض كل ذلك يستغرق وقتاً، ولكننا نريد أن نخلص الى المبحث القادم، لكيما نعرف الأسباب التي دفعت بالجمهور الى القول بعدالة الصحابة أجمعين، وطيّ صفحتهم وعدم التعرض لذكر الخلاف بينهم.

المواقف من الصحابة

لقد درج الجمهور على القول بعدالة الصحابة أجمعين، مستدلين على ذلك بمجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وقد لخص ابن حجر هذه النظرية بقوله: اتفق أهل السنّة على أن الجميع عدول، ولم يخالف في ذلك إلاّ شذوذ من المبتدعة، وقد ذكر الخطيب في الكفاية فصلا نفيساً في ذلك، فقال: عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم وإخباره عن طهارتهم، واختياره لهم، فمن ذلك، قوله تعالى : (**كُنتُم خَيرَ أمّة أخرجَتْ لِلنّاس**)، وقوله : (**كذلِكَ جَعَلناكُمْ أمّة وَسطاً**)، وقوله : (**لقدْ رَضيَ اللهُ عَنِ المؤمنينَ إذْ يُبايعُونَكَ تَحتَ الشَّجرةِ فَعلِمَ مَا فِي قُلوبِهِمْ**)، وقوله : (**والسّابقونَ الأوّلونَ مِنَ المُهاجِرينَ والأنصارِ وَالذينَ اتَّبعوهُمْ بإحسان رَضيَ اللهُ عَنهُمْ وَرَضْوا عَنهُ**) وقوله : (**يَا أيُّها النَّبيُّ حَسبُكَ اللهُ وَمَنْ اتّبَعكَ منَ المؤمنينَ**)... في آيات كثيرة يطول ذكرها وأحاديث شهيرة يكثر تعدادها، وجميع ذلك يقتضي القطع بتعديلهم، ولا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله له إلى تعديل أحد من الخلق...[١١٢٠]

إن المستشهدين بهذه الآيات قد فاتهم أمور منها: إن الآيات التي تمتدح الصحابة، يقابلها آيات عديدة وردت في ذم عدد منهم حتى إن بعض الصحابة كانوا يسمون سورة التوبة (الفاضحة) وأنهم كانوا يوجسون خيفة من أن يذكرهم الله بأسمائهم في مقام الذم، كما أن الآيات التي تمتدح الصحابة ليست على إطلاقها، بل معظمها يقيد ذلك الرضوان من الله بالمؤمنين منهم، وهم الذين استمروا على هذا الخط ولم يبدّلوا أو يغيّروا، ومن الآيات التي تثبت ذلك آية طالما يستشهد بها الجمهور على عدالة الصحابة، في قوله تعالى : (**مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ وَالّذينَ مَعَهُ أشِدّاءُ عَلى الكُفّارِ رُحَماءُ بَينَهُمْ تَراهُمْ رُكّعاً سُجّداً يَبتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللهِ وَرِضواناً سِيماهُمْ في وجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجودِ ذلكَ مَثلهُم فِي التَّوراةِ وَمَثَلُهمْ فِي الانجيلِ كَزَرْعٍ أخرَجَ شَطأهُ فآزرَهُ فاستَغلظ فاستَوى عَلى سُوقِهِ يُعجِبُ الزُّرّاعَ لِيغيظ بهم الكُفّارَ وَعَدَ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالحاتِ مِنْهُم مَغفِرَةً وَأجراً عَظيماً**)[١١٢١].

(١١٢٠) مقدمة كتاب الاصابة في تمييز الصحابة .
(١١٢١) سورة الفتح : ٢٩

ومعظم المفسرين يتجاهلون الجزء الأخير من الآية لورود لفظة (منهم) فيها، أو يتصرفون في معناها اللغوي، مع أن اللفظة واضحة تماماً وهي تدل على التبعيض، حيث شرط الله سبحانه وتعالى رضوانه بالمؤمنين الذين يعملون الصالحات من بينهم دون غيرهم، وفي ذلك يقول الرازي: وقوله تعالى (**منهم ...**) لبيان الجنس لا للتبعيض، ويحتمل أن يقال هو للتبعيض![(١١٢٢)].

ومما يشهد بصحة ذلك، قوله تعالى : (**إنَّ الذينَ يُبايعونَكَ إنَّما يُبايعونَ اللهَ يَدُ اللهِ فوقَ أيديهِمْ فمنْ نَكثَ فإنَّما ينكثُ على نفسهِ ومَنْ أوفى بما عاهَدَ عَلَيْه اللهَ فَسَيُؤتيهِ أجراً عَظيماً**)[(١١٢٣)].

قال إبن كثير : أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث..[(١١٢٤)]

فالله سبحانه وتعالى قد ذكر إحتمال نكث اُولئك المبايعين بيعتهم وتوعدهم على ذلك ومن ناحية اُخرى فان إطلاق الرضوان غير ممكن بالأخذ بظواهر الآيات، وإلاّ فما نقول في قوله تعالى : (**يا بَني إسرائيلَ اذكُروا نِعمتيَ التي أنعَمتُ عَليكُمْ وَأنّي فَضّلْتُكمْ عَلى العالمينَ**)[(١١٢٥)]. فلو أطلق اللفظ فيها لاستلزم تفضيل بني إسرائيل على العالمين أبد الدهر، وهو أمر لا يقرّه مسلم، وإنما يدعيه اليهود، وذلك يستلزم تفضلهم حتى على الصحابة! إن الجمهور بتبنّيه نظرية عدالة الصحابة قد اصطدم بتكذيب الواقع لها، ومن الغريب أن الصحابة أنفسهم لم يكونوا يرون لأنفسهم هذه القدسية، ولا ادعوا بأنهم جميعاً من أهل الجنة، بل كان معظمهم خائفين مرتقبين، وقد اعترفوا بأنهم قد خالفوا النبي(صلى الله عليه وآله)، فعن العلاء بن المسيب عن أبيه، قال: لقيتُ البراء بن عازب(رضي الله عنه)فقلت: طوبى لك، صحبت النبي(صلى الله عليه وآله) وبايعته تحت الشجرة. فقال: يا ابن أخي، إنك لا تدري ما أحدثنا بعده![(١١٢٦)].

وعن أبي البختري، قال : جاء الأشعث بن قيس وجرير بن عبدالله البجلي إلى سلمان(رضي الله عنه) فدخلا عليه في خُصّ في ناحية المدائن، فأتياه فسلّما عليه وحيّاه ثم قالا: أنت سلمان الفارسي؟ قال: نعم. قالا: أنت صاحب رسول الله(صلى الله عليه وآله)؟ قال: لا أدري! فارتابا وقالا: لعله ليس الذي نريد. فقال لهما: أنا صاحبكما الذي تريدان، قد رأيت رسول الله(صلى الله عليه وآله) وجالسته، وإنما صاحبه من دخل معه الجنة![(١١٢٧)].

(١١٢٢) التفسير الكبير ٢٨ : ١٠٩
(١١٢٣) سورة الفتح : ١٠
(١١٢٤) تفسير القرآن العظيم ٤ : ١٩٩
(١١٢٥) البقرة : ٤٧ .
(١١٢٦) صحيح البخاري ٥ : ١٥٩
(١١٢٧) حلية الأولياء ١ : ٢٠١ ، تهذيب تاريخ دمشق ٦ : ٢٠٩

وعن ابن عباس قال : يقول أحدهم : أبي صحب رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وكان مع رسول الله(صلى الله عليه وآله)، ولنعلٌ خَلَق خير من أبيه!![1128].

فسلمان الفارسي على صحبته وفضله، حتى كرّمه النبي(صلى الله عليه وآله) وقال : **«سلمان منّا أهل البيت»**، لا يعتقد بقدسية صحبته للنبي ولا يراها كافية للنجاة، أما ابن عباس فيكفي أن يصف أحد الصحابة بأنه لا يساوي نعلا قديماً ممزقاً!

والأحاديث النبوية الواردة في فضل الصحابة، تقابلها أحاديث كثيرة متواترة عن مآل جمع كبير من الصحابة الذين يحدثون بعد النبي(صلى الله عليه وآله)، كما مر بنا في الكلام على حديث الحوض، وقد شهد النبي(صلى الله عليه وآله) للصحابة الذين مضوا في حياته ولم يحدثوا، فعن معمر قال: أخبرني من سمع الحسن يقول: قال النبي(صلى الله عليه وآله) للشهداء يوم أحد : **«إنّ هؤلاء قد مضوا، وقد شهدتُ عليهم، ولم يأكلوا من أُجورهم شيئاً، ولكنكم تأكلون من أُجوركم، ولا أدري ما تحدثون بعدي»**[1129].

وفي رواية : فقال أبو بكر : ألسنا إخوانهم، أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا؟! قال: **«بلى ، ولكن هؤلاء لم يأكلوا من أُجورهم شيئاً، ولا أدري ما تحدثون بعدي»**، فبكى أبو بكر وقال: إنّا لكائنون بعدك![1130].

وسأل أبو عبيدة : يا رسول الله، أأحد خير منا، أسلمنا معك وجاهدنا معك! قال : **«قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني»**[1131].

وقد أخبرني النبي(صلى الله عليه وآله) ثلاثة من أصحابه بأن آخرهم موتاً في النار، وكان سمرة بن جندب ذلك الثالث، وقد اخترعوا لموته قصة، فقالوا بأنه سقط في قدر مملوءة ماءً حاراً، فكان ذلك تصديقاً لقول النبي(صلى الله عليه وآله).

قال ابن حجر : وقد جاء في سبب موته غير ما ذُكر![1132].

والحقيقة فان هذا الموقف المتشدد في تعديل الصحابة لم يكن مألوفاً في البداية ولا أقرّه الصحابة، «وقد كان التجريح بالصحابة شيئاً مألوفاً في العصر الأول للهجرة، وقبل أن يتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، وكان فضل هذا الخليفة الصالح أنه منع التجريح بالصحابة، وفرض على أئمة المساجد الدعاء لهم على المنابر، فظهر اجماع على القول بعدالة جميع الصحابة وطهارتهم مستندين إلى آيات القرآن التي مرّ

(١١٢٨) مجمع الزوائد ١ : ١١٣ وقال : رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .
(١١٢٩) مصنف عبد الرزاق ٣ : ٥٤١ ، ٥ : ٢٧٣ باب الصلاة على الشهيد وغسله .
(١١٣٠) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٥ : ٣٨
(١١٣١) مسند أحمد ٤ : ١٠٦ ، سنن الدارمي ٢ : ٣٠٨ ، المعجم الكبير للطبراني ٤ : ٢٢ ، الاستيعاب ١ : ٨
(١١٣٢) تهذيب التهذيب ٤ : ٢٠٧ ترجمة سمرة بن جندب ، والصحابيان الآخران هما : أبو هريرة وأبو محذورة ، وانظر الاصابة ٢ : ٧٨ ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ : ٧٨ ، الاستيعاب ٢ : ٢١٣

ذكرها، وبالاستناد الى هذه الآيات، أسبغ العلماء والفقهاء على الصحابة طابعاً من القدسية، وصاروا لا يذكرونهم إلاّ بالدعاء لهم والرضوان عليهم من الله تعالى، وظهر منذ بداية القرن الثاني للهجرة رجال دين من أصحاب النوايا الحسنة صاروا يثقون بفضل الصحابة عامة، ويكفرون من يذمهم أو يقدح بأحد منهم... وقد ساهم هذا النفر من أصحاب النوايا الحسنة بوضع الأحاديث الكاذبة عن رسول الله، لتدعيم حججهم في فضل الصحابة»(١١٣٣).

وهكذا بدأت تفشو المقالة بعدالة الصحابة، لكن الجمهور كان يصطدم بالحقائق التي تثبت عكس ذلك من سيرة الصحابة، وكان ذلك متداولا على الألسن، فقرر أن يتخذ موقفاً صارماً لمنع الخوض في سيرة الصحابة مما لا يرضاه الجمهور ويفنّد نظريته، فصارت أصابع الاتهام بالزندقة والالحاد والكفر والرفض وما إلى ذلك تشير إلى كل من يكشف عن تلك الأسرار، «يقول أبو زرعة : إذا رأيت رجلا ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله، فاعلم أنه زنديق، ولم يقل أبو زرعة هذا القول في اُولئك الذين ظلوا أربعين سنة يشتمون علي بن أبي طالب على المنابر، وبينهم عدد من الصحابة أمثال المغيرة بن شعبة»!(١١٣٤).

والعجيب أن هذا الموقف من عدالة الصحابة يبدو أكثر تشدّداً تجاه الصحابة الذين سنّوا سبّ الصحابة على المنابر، ففي ترجمة إبراهيم بن الحكم ابن زهير الكوفي: قال أبو حاتم: روى في مثالب معاوية، فمزقنا ما كتبنا عنه!(١١٣٥).

إلاّ أن الجمهور لم يعدم رجالا يعرفون الحقيقة ويقولونها، ومن بينهم عدد من المحدّثين الكبار، ففي ترجمة ابن أبي دارم المتوفى سنة (٣٥٢ هـ) : كان موصوفاً بالحفظ والمعرفة، إلاّ أنه يترفض، قد ألّف في الحط على بعض الصحابة(١١٣٦).

قال محمد بن أحمد بن حمّاد الكوفي الحافظ : كان مستقيم الأمر عامة دهره، ثمّ في آخر أيامه كان أكثر ما يُقرأ عليه المثالب، حضرته ورجل يقرأ عليه : إن عمر رفس فاطمة حتى أسقطت بمحسن!!(١١٣٧).

وقال أحمد (بن حنبل) : كان أبو عوانة وضع كتاباً فيه معايب أصحاب رسول الله، وفيه بلايا! فجاء سلاّم بن أبي مطيع، فقال: يا أبا عوانة، أعطني ذلك الكتاب، فأعطاه، فأخذه سلاّم فأحرقه!(١١٣٨).

(١١٣٣) إبراهيم فوزي . تدوين السنة : ٩٥

(١١٣٤) المصدر السابق : ٢٠٩ ، والصحيح أن الشتم استمر ستين سنة !

(١١٣٥) ميزان الاعتدال ١ : ٢٧

(١١٣٦) سير اعلام النبلاء ١٥ : ٥٧٦

(١١٣٧) ميزان الاعتدال ١ : ١٣٩

وروى أحمد بن حنبل عن عبد الرحمان بن مهدي قال : فنظرت في كتاب أبي عوانة وأنا استغفر الله![1139].

وفي ترجمة عبد الرحمان بن يوسف بن خراش : سمعت عبدان يقول : وحمل ابن خراش إلى بندار جزأين صنّفهما في مثالب الشيخين (يعني أبو بكر وعمر)، فأجازه بألفي درهم، فأما الحديث، فأرجو أنه لا يتعمد الكذب[1140].

وفي ترجمة عبد الرزاق بن همّام الصنعاني -صاحب المصنف- قال ابن عدي : لعبد الرزاق بن همام أصناف حديث كثير، وقد رحل إليه ثقات المسلمين وأئمتهم وكتبوا عنه، ولم يروا بحديثه بأساً، إلاّ أنهم نسبوه الى التشيّع، وقد روى أحاديث في الفضائل مما لا يوافقه عليها أحد من الثقات، فهذا أعظم ما رموه به من روايته لهذه الأحاديث، ولما رواه في مثالب غيرهم مما لم أذكره في كتابي هذا! وأما في باب الصدق، فأرجو أنه لا بأس به، إلاّ أنه قد سبق عنه أحاديث في فضائل أهل البيت، ومثالب آخرين مناكير![1141].

وفي ترجمة الحسين بن الحسن الاشقر : أن أحمد بن حنبل حدّث عنه وقال: لم يكن عندي ممن يكذب. فقيل له: إنه يحدّث في أبي بكر وعمر، وأنه صنّف باباً في معايبهما! فقال : ليس هذا بأهل أن يُحدِّث عنه![1142].

لماذا عدالة الصحابة

بعد أن استعرضنا الآراء حول موضوع الوصية، وأوردنا الأدلة النقلية على ثبوتها، وتبيّن منها وجود نص جلي من النبي(صلى الله عليه وآله) على علي بن أبي طالب، ومحاولة الجمهور ردّ هذه الأدلة لكونها تناقض عقيدة الجمهور في مسألة الخلافة، وهو معذور في ردّها إذ أن تصديقها يستلزم إعادة النظر في كل المتبنيات التي قامت عليها نظرية الجمهور.

لقد أثبت النبي(صلى الله عليه وآله) الولاية لأهل بيته وعميدهم علي بن أبي طالب على المسلمين، وأكد أن طريق الأمة الذي يتكفل بعصمتها من الضلال هو التمسك بالثقلين، وهما: كتاب الله وعترته أهل بيته، وأكّد على استحالة تفرّقهما حتى يوم الورود على الحوض، وبما أن الكتاب هو المصدر الأول للتشريع -وهو الثقل الأكبر

(١١٣٨) كتاب العلل والرجال ١ : ٦٠ .
(١١٣٩) المصدر السابق ٣ : ٩٢ .
(١١٤٠) الكامل في ضعفاء الرجال : ٥١٩ .
(١١٤١) المصدر السابق ٦ : ٥٤٥
(١١٤٢) تهذيب التهذيب ٢ : ٢٩١

كما في بعض ألفاظ الحديث- والسنّة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني لها، وهي الموضّحة والمبيّنة له، كما في قوله تعالى : (**وَأَنزَلْنَا إِلَيكَ الذِّكرَ لِتُبيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِمْ**)[1143]، فإن ربط النبي(صلى الله عليه وآله) بين الكتاب وأهل بيته، يعني بالضرورة ربط سنّته بأهل بيته، فهم القيّمون عليها، والحافظون لها في كل الأحوال. لكن ما حدث هو أن قريشاً اختارت ثقلا واحداً هو كتاب الله، ورفضت الثقل الثاني الذي هو في الحقيقة مستودع العلم النبوي وحافظ سنّته، فكانت النتيجة أن الأجيال التي جاءت بعد جيل الصحابة قد وجدت نفسها مقطوعة عن السنّة النبوية الحقيقية المتمثلة بأهل البيت، وبما أن الثقل الأول ليس فيه تفصيل التشريع بكل دقائقه، بل هو مُجمل، فقد وجدت هذه الأجيال نفسها محتاجة إلى المصدر الثاني للتشريع، لكن هذا المصدر كان قد تمّ إقصاؤه عن الساحة، فراحت هذه الأجيال تبحث عن البديل، فلجأت إلى الصحابة على اعتبار أنهم كانوا على إتصال بالنبي(صلى الله عليه وآله)، فهم ينبغي أن يكونوا مطّلعين على هذا المصدر الثاني المكمّل للمصدر الأول، فراحوا يلتمسون ضالتهم عندهم، وكان ذلك بداية السير في الطريق الخاطئ!

يقول الشيخ أبو زهرة : كان عمل الصحابة على قسمين : احدهما، ما يتفقون عليه... وهذا يكون إجماعاً، وهو حجة في ذاته، وبهذا قال جمهور الفقهاء... وإذا لم يجتمعوا، فإن التابعين كانوا لا يخرجون عن أقوال الصحابة، وإن كان كل تابعي يختار رأي شيخه غالباً، أو يختار رأي غيره من الصحابة نادراً... وأن التابعين كانوا يأخذون رأي الصحابي - سواء كان مجمعاً عليه أم كان غير مجمع عليه- على أنه سنّة، لا على أنه مجرد رأي، فأقوال الصحابة سنّة عندهم يجب اتباعها ولو كان أساسها الظاهري الاستنباط المجرد، وكذلك جاء من بعدهم الفقهاء المجتهدون، فاعتبر أكثرهم رأي الصحابي حجة يجب الأخذ بها..[1144]

إن الخطأ الذي وقع فيه التابعون ومن بعدهم الفقهاء المذهبيون هو اعتبار قول الصحابي حجّة أو سنّة، لأن الصحابة كانوا يتفاوتون في علومهم، و «كانوا يغيبون عن مجلس النبي(صلى الله عليه وآله)، فكانوا يجتهدون فيما لم يحضروه من الأحكام، ولعدم تساوي هؤلاء المجتهدين في العلوم والادراكات وسائر القوى والملكات، فتختلف الآراء والاجتهادات، ثم تزايدت تلك الاختلافات بعد عصر الصحابة»[1145].

(١١٤٣) النحل : ٤٤ .
(١١٤٤) تاريخ المذاهب الإسلامية : ٢٦٢ .
(١١٤٥) تاريخ حصر الاجتهاد : ٩٠ ، ٩٢ ، الخطط ٢ : ٣٣٢

ولكن الجمهور وجد نفسه مضطراً إلى القول بعدالة الصحابة جميعاً، لأنهم أصبحوا المصدر الذي يستقي منه الجمهور عقيدته، فإذا وقع الشك في عدالتهم، فعند ذلك يصبح المصدر الذي يأخذ منه الجمهور عقيدته وشريعته في محل اتهام، وبذلك يمكن التشكيك في صحة اعتقادات الجمهور، وقد اعترف علماء الجمهور بذلك، فقال أبو زرعة: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله)، فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنّة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة[١١٤٦].

ولكن أبا زرعة قد فاته أن مصدر أخذ الكتاب والسنّة هم الثقل الثاني المتمثل بأهل بيت النبي(صلى الله عليه وآله)، كما أخبر بذلك النبي في حديث الثقلين المتواتر.

والخلاف بين الصحابة في الفتوى كثير جداً، فأبو هريرة هو أكثر الصحابة المحدّثين عن النبي(صلى الله عليه وآله)، فقد صحب رسول الله نحواً من ثلاث سنين، وأكثر الرواية عنه وعُمّر بعده نحواً من خمسين سنة، فلما أتى من الرواية عنه ما لم يأت بمثله من صحبه من جلة أصحابه السابقين الأولين، اتهموه وأنكروا عليه وقالوا: كيف سمعت هذا وحدك! ومن سمعه معك؟ وكانت عائشة(رض) أشدهم إنكاراً عليه[١١٤٧].

وأفتى ابن مسعود رجلا في الكوفة بجواز أن يتزوج اُم زوجته التي طلقها قبل الدخول، ففعل ذلك، وبعد أن ولدت له اُم زوجته ثلاثة أولاد، وأتى ابن مسعود الى المدينة وسأل عن هذه المسألة، فأخبروه بعدم جواز ذلك، فعاد الى الكوفة وأمر الرجل بفراق تلك المرأة![١١٤٨].

كما أن ابن مسعود لم يكن يدري أن صرف الفضة بالفضة لا يصلح إلاّ مثلا بمثل[١١٤٩].

ولم يعرف ابن عمر كيفية تطليق زوجته، إذ طلقها وهي حائض، فأتى النبي(صلى الله عليه وآله) فسأله، فأمره النبي أن يراجعها ثم يطلقها فتستقبل عدتها[١١٥٠].

(١١٤٦) مقدمة كتاب الاصابة لابن حجر : ١٠ .
(١١٤٧) تأويل مختلف الحديث : ٤١ .
(١١٤٨) مصنف عبد الرزاق ٦ : ٢٧٣ ، البيهقي ٧ : ١٥٩ .
(١١٤٩) مصنف عبد الرزاق ٨ : ١٢٣ ، البيهقي ٥ : ٢٨٢ ، مجمع الزوائد ٤ : ١١٦ .
(١١٥٠) صحيح البخاري كتاب العدّة : مراجعة الحائض ، صحيح مسلم ، مسند أحمد ٢ : ٥١ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ١٢٨ ، ١٤٥ ، فتح الباري ٧ : ٥٤

وأفتى ابن عمر وعبد الله بن عمرو وأبو هريرة، وتابعهم سعيد بن المسيب بأن ماء البحر لا يجزئ من وضوء ولا جنابة(١١٥١).

ولما وقع الطاعون بالشام، خطب عمرو بن العاص فقال : إن هذا الطاعون رجس فتفرّقوا عنه في هذه الشعاب وفي هذه الأودية، فبلغ ذلك شرحبيل بن حسنة، فغضب، فجاء وهو يجرّ ثوبه معلّق نعله بيده فقال: صحبت رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وعمرو أضل من حمار أهله..(١١٥٢)

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، وبذلك يتبين أن الصحابة لم يكونوا هم المصدر الذي أراده الله ونبيه لحمل أعباء تبليغ الشريعة، بل هم أهل البيت.

الصحابة والنص

لقد كان الصحابة متفاوتين ـ ليس في ملكاتهم وعلومهم فحسب- بل وفي درجة قربهم من النبي(صلى الله عليه وآله)، نعم لقد كان بعض الصحابة قريبين من النبي ولكنهم لم يكونوا مقرّبين إليه، ولا كانوا ممن يُفضي إليهم بأسرار النبوة والقضايا الخطيرة، وقد ذهب الجمهور إلى عكس الواقع، يقول ابن تيمية: فأبو بكر وعمر كان اختصاصهما بالنبي(صلى الله عليه وآله) فوق اختصاص غيرهما وأبو بكر كان أكثر اختصاصاً، فإنه كان يسمر عنده عامة الليل ويحدّثه في العلم والدين ومصالح المسلمين..(١١٥٣)

لكننا عندما نستعرض سيرة الصحابة وموقف النبي من كل منهم، نجد أن كلام ابن تيمية لا صحة له، لقد كان أبو بكر وعمر قريبين من النبي(صلى الله عليه وآله)، ولكنهما لم يكونا مقرّبين إلى درجة أهليتهما لحمل أسرار علم النبي، وقد ذكرنا بعض الشواهد على قصور علم عمر، ولو طال الزمن بأبي بكر في خلافته، لتبين لنا كثرة أخطائه، ولكن الفترة القصيرة التي تولى فيها الخلافة، قد كشفت هي الأخرى عن قصوره في العلم، فهو لم يعرف مثلا قضية ميراث الجدة حتى أرشده بعض الصحابة إليها، وغير ذلك من المسائل.

(١١٥١) تحفة الاحوذي ١ : ٢٣١ ، نيل الاوطار ١ : ٢٠ ، المحلى لابن حزم ١ : ٢٢١
(١١٥٢) مسند أحمد ٤ : ١٩٥ ـ ١٩٦
(١١٥٣) مجموعة فتاوى إبن تيمية ٤ : ٣٩١

لقد أعطى النبي(صلى الله عليه وآله) اشارات واضحة يهتدي بها المسلمون من بعده، فيعرفون الموارد التي ينهلون منها، فحمّل حذيفة بن اليمان أسراراً خاصة، «وهو معروف في الصحابة بصاحب سرّ رسول الله(صلى الله عليه وآله)»(١١٥٤).

فكان النبي(صلى الله عليه وآله) قد أخبره بأنباء الفتن والملاحم التي تقع بعده، كما أطلعه على أسماء المنافقين، وعلمنا من خلاله أسماء بعض المشتركين في التآمر على اغتيال النبي يوم العقبة، وأعطى النبي اشارات واضحة يفهمها اللبيب، فقال: **«أمرني الله بحب أربعة : علي وأبي ذر وسلمان والمقداد»**(١١٥٥).

فأثبت النبي المحبة لهؤلاء من أجل أن يعلم أصحابه ذلك، فيميزوا بين أحباء النبي وغيرهم. كما وأرشد اُمته الى عمار بن ياسر وقت الاختلاف بين الفئة المحقة والفئة الباغية، وأخبر بأن عماراً ما خُيّر بين أمرين إلاّ اختار أرشدهما. وقال أبو ذر الغفاري: سألت رسول الله(صلى الله عليه وآله) عن كل شيء، حتى سألته عن مسّ الحصى، فقال: **«واحدةً أو دَعْ»**(١١٥٦).

وسئل علي بن أبي طالب عن أبي ذر فقال : وعى علماً عُجز فيه، وكان شحيحاً حريصاً على دينه، حريصاً على العلم، وكان يكثر السؤال فيُعطى ويُمنع، اما أن قد ملئ له في وعائه حتى امتلأ(١١٥٧).

وقال ابن عبد البر في ترجمته : روى عنه جماعة من الصحابة، وكان من أوعية العلم المبرّزين في الزهد والورع والقول بالحق، سُئل علي عن أبي ذر فقال: ذلك رجل وعى علماً عجز عنه الناس، ثم أوكأ فيه فلم يخرج شيئاً منه(١١٥٨).

وكان سلمان الفارسي من اُولئك المقرّبين أيضاً، فعن علي أنه سُئل عن سلمان فقال : علم العلم الأول والآخر، بحر لا ينزف...

(١١٥٤) الاستيعاب ١ : ٣٩٤ ، الاصابة ٢ : ٢٦٢ ، طبقات ابن سعد ٦ : ١٥ ، ٧ : ٣١٧ ، حلية الأولياء ١ : ٢٠٧ ، تاريخ دمشق ٤ : ١٤٥ ، تهذيب التهذيب ٢ : ٢١٩ ، شذرات الذهب ١ : ٣٢ ، ٤٤ ، تهذيب تاريخ دمشق ٤ : ٩٦ .

(١١٥٥) مسند أحمد ٥ : ٣٥١ ، الجامع الكبير للسيوطي ح ١٣٧٣ ، الترمذي ٥ : ٥٩٤ ح ٣٧١٨ ، سنن ابن ماجة ح ١٤٩ ، المستدرك ٣ : ١٣٠ وقال : على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(١١٥٦) مسند أحمد ٥ : ١٦٣ ، حلية الأولياء ١ : ١٥٦ وقال : كان أبو ذر(رض) للرسول(ص) ملازماً وأنيساً، وعلى مسائلته والاقتباس منه حريصاً.

(١١٥٧) الطبقات الكبرى ٥ : ١٧٠

(١١٥٨) الاستيعاب ١ : ٣٢١ أسد الغابة ٥ : ١٨٦ ، شرح الجامع الصغير للمناوي ٥ : ٤٢٣ ، الاصابة٤: ٦٣ وقال :أخرجه أبو داود بسند جيد .

قال ابن عبد البر : وروينا عن عائشة أم المؤمنين (رض) قالت : كان لسلمان مجلس من رسول الله(صلى الله عليه وآله) ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله(صلى الله عليه وآله)(١١٥٩).

وكان علي بن أبي طالب هو المقدّم على الجميع دون شك، سُئل قثم بن العباس كيف ورث علي رسول الله(صلى الله عليه وآله) دونكم؟! قال: لأنه كان أولنا به لحوقاً، وأشدّنا به لزوقاً(١١٦٠).

وعن أم سلمة (رض) أن النبي(صلى الله عليه وآله) إذا غضب لم يجترئ أحد منّا يكلمه غير علي بن أبي طالب(١١٦١)(رضي الله عنه).

وقد لخّص علي بن أبي طالب، حين سأله بعضهم عن بعض الصحابة، قال: أيُّهم؟ قالوا: عبد الله بن مسعود، قال: علمَ السنّة، وقرأ القرآن، وكفى به علماً ثم ختم به عنده... قالوا: فحذيفة؟ قال: علم أسماء المنافقين، وسأل عن المعضلات حتى عقل عنها، فإن سألتموه عنها تجدوه بها عالماً، قالوا: فأبو ذر؟ قال: وعى علماً، وكان شحيحاً حريصاً على دينه حريصاً على العلم، وكان يُكثر السؤال فيعطى ويمنع، أما إنه قد ملئ له في وعائه حتى امتلأ، قالوا: فسلمان؟ قال: امرؤ منّا أهل البيت، ومن لكم بمثل لقمان الحكيم؟ علمَ العلم الأول وأدرك العلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول، وقرأ الكتاب الآخر، وكان بحراً لا ينزف. قالوا: فعمار بن ياسر؟ قال: ذاك امرؤ خلط الله الإيمان بلحمه ودمه وعظمه وشعره وبشره، لا يفارق الحق ساعة، حيث زال زال معه، لا ينبغي للنار أن تأكل منه شيئاً. قالوا: فحدثنا عنك يا أمير المؤمنين! قال: مهلا، نهى الله عن التزكية. فقال قائل: فإن الله عزّوجل يقول: (**وَأمّا بنعمةِ رَبِّكَ فحدِّثْ**)قال: فإني اُحدثكم بنعمة ربي، كنت إذا سألتُ اُعطيتُ، وإذا سكتُ ابتدئتُ، فبين الجوانح مني مُلئ علماً جمّاً...(١١٦٢)

وعن علي بن أبي طالب قال : كانت لي منزلة من رسول الله(صلى الله عليه وآله) لم تكن لأحد من الخلائق، فكنت آتيه كلّ سحر فأقول: السلام عليك يا نبي الله، فإن تنحنح انصرفت إلى أهلي وإلاّ دخلت عليه(١١٦٣).

(١١٥٩) الاستيعاب ٢ : ١٩٦ ، الاصابة (٣٣٦٩) ، أسد الغابة (٢١٥٠) ، الطبقات الكبرى ٤ : ٥٤ ، حلية الأولياء ١ : ٧١٥ ، تاريخ بغداد ١ : ١٦٣ ، تهذيب الكمال (٥٢٣) ، تهذيب التهذيب ٤ : ١٣٧ ، تاريخ دمشق ٦ : ١٩٠ ، ٢١١

(١١٦٠) المستدرك ٣ : ١٢٥ وصححه ووافقه الذهبي، كنز العمال ١٣ : ١٤٣ ح ٣٦٤٤٧

(١١٦١) المستدرك ٣ : ١٣٠

(١١٦٢) كنز العمال ١٣ : ١٥٩ ح ٣٦٤٩٢

(١١٦٣) سنن النسائي ٣ : ١٢ باب : التنحنح في الصلاة .

وكان أُبي بن كعب من المقربين أيضاً، وهو الذي قال لعمر: والله يا عمر، إنك لتعلم إني كنت أحضر وتغيبون، وأُدنى وتُحجبون، ويصنع بي ويصنع...(١١٦٤)

فهؤلاء الصحابة كانوا هم المقرّبين حقاً الى النبي(صلى الله عليه وآله) والمطلعين على أسراره، وعندما نستعرض سيرة اولئك الصحابة، نجدهم هم الذين كانوا متمسكين بولاية علي بن أبي طالب والداعين له، وقد اعتصم بعضهم - ممن كان حاضراً- في داره عندما أراد عمر أن يحرقها عليهم!.

المستمسكون بالنص

بعد أن استعرضنا مسألة وجود نص نبوي جلي في قضية الخلافة على علي ابن أبي طالب، وسقنا الشواهد الدامغة على وجوده، وبعد أن تعرضنا لمحاولات التزييف التي تعرض لها هذا النص بسبب مخالفته لعقيدة الجمهور في مسألة الخلافة التي كانت من أهم مصادر الخلاف بين المسلمين على مرّ الزمن، وتحققنا من أن عدداً من الصحابة من السابقين الأولين من المهاجرين وعدداً من الأنصار كانوا يثبتون مسألة النص على علي بن أبي طالب، وهم الذين نقلوا ذلك إلى غيرهم، فظهر جيل من التابعين القائلين بوجود النص والمؤمنين به، وأُولئك هم الذين التفّوا حول علي بن أبي طالب بعد توليه الخلافة، وتحملوا أعباء الدفاع عن الشرعية ضد الطامعين في سحبها مرة أُخرى من تحت أصحابها المستحقين لها، إلاّ أن دولة الباطل عادت لتنتزع الحق من أصحابه مرة أُخرى بعد أن لجأت الى كل ما في استطاعتها من أساليب المكر والخداع وشراء الذمم بالأموال، فعاد النص مرة أُخرى الى الظل، وبدأت أبواق الإعلام المضاد تروّج للخط الذي تولى قيادة المجتمع الاسلامي بعد وفاة النبي(صلى الله عليه وآله)مباشرة، وهو يعلم علم اليقين بأنه يناهض الشرعية بباطله، ولكن كان له ما يعتذر به عن ذلك، بأنه لم يكن أول من تجرأ على ذلك، فقد سبقه آخرون إليه، ويتضح ذلك من جواب معاوية على كتاب محمد بن أبي بكر الذي ذكرنا مقطعاً منه في باب الاستشهاد على وجود الوصية، وتتلخص سياسة هذا الخط في جواب معاوية الذي قال في بعض أجزائه مخاطباً محمد ابن أبي بكر:

من معاوية بن أبي سفيان، الى الزّاري على أبيه محمد بن أبي بكر... ذكرت حق ابن أبي طالب وقديم سابقته وقرابته من نبي الله ونصرته له، ومواساته إياه في كل

(١١٦٤) كنز العمال ١٣ : ٢٦٤ ح ٣٦٧٧٤ عن أبي داود في المصاحف وابن عساكر .

خوف وهول، واحتجاجك عليَّ وفخرك بفضل غيرك لا بفضلك، فأحمد إلهاً صرف ذلك الفضل عنك وجعله لغيرك، فقد كنّا وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب وحقّه لازماً لنا مبروراً علينا، فلما اختار الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ما عنده، وأتمّ له ما وعده وأظهر دعوته وأبلج حجّته، وقبضه الله إليه صلوات الله عليه، كان أبوك وفاروقه أول من ابتزّه حقّه وخالفه على أمره، على ذلك اتفقا واتّسقا... (إلى أن قال): فإن يكُ ما نحن فيه صواباً، فأبوك أوّله، وإن يك جوراً فأبوك اُسُّه ونحن شركاؤه، فبهديه أخذنا، وبفعله اقتدينا، رأينا أباك فعل ما فعل، فاحتذينا مثاله، واقتدينا بفعاله فعب أباك بما بدا لك أودَعْ...(١١٦٥)

وفي مقابل هذا التيار الجارف، ظهر تيار معارض متمسك بالوصية، يراها واجبة لعلي وأبنائه من بعده، فصار هذا التيار هو المعارض للسلطة التي يقتدي بها الجمهور، بعد أن انخدع بوسائل إعلامها، وكانت حجة المتمسكين بالنص، ما جاءهم من أحاديث نبوية متكاثرة تلهج بها ألسن مئات الصحابة الذين سمعوها ورووها، ولأن هذه الأحاديث كانت متواترة لا يمكن دفعها، فقد ادعى الجمهور بأنه متمسك بها، ولكن بعد تأويلها، ومن الأمثلة على ذلك، ما ذكره ابن حجر المكي، فبعد أن أورد الروايات التي تحث على التمسك بأهل البيت باعتبارها الثقل الثاني بعد القرآن، وأنهم سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق، وأن مثلهم مثل باب حطة في بني إسرائيل، من دخله غفر له، يعود ابن حجر ليقول: ولا تتوهم الرافضة والشيعة قبّحهم الله من هذه الأحاديث إنهم يحبون أهل البيت، لأنهم أفرطوا في محبتهم حتى جرّهم ذلك إلى تكفير الصحابة وتضليل الأمة.. وشيعته هم أهل السنة، لأنهم الذين أحبّوهم كما أمر الله ورسوله، وأما غيرهم فأعداؤه في الحقيقة!(١١٦٦).

يقول ابن حجر هذا في صواعقه التي يذيّلها بكتاب يسميه (تطهير الجنان واللسان)، يقول في أول صفحة منه : فهذه ورقات ألّفتها في فضل سيّدنا أبي عبد الرحمان أمير المؤمنين معاوية بن صخر أبي سفيان...!

إن ادعاء ابن حجر بأن الجمهور هو المتمسك بأهل البيت، يكذبه قول ابن خلدون -بكل صراحة-: وشذّ أهل البيت بمذاهب ابتدعوها، وفقه انفردوا به، وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح، وعلى قولهم بعصمة الأئمة، ورفع الخلاف عن أقوالهم، وهي كلها اُصول واهية، وشذّ بمثل ذلك الخوارج، ولم يحتفل الجمهور

(١١٦٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ : ١٨٩ ، وقعة صفين : ١٣٥
(١١٦٦) الصواعق المحرقة : ٣٥١

بمذاهبهم، بل أوسعوها جانب الانكار والقدح، فلا نعرف شيئاً من مذاهبهم، ولا نروي كتبهم، ولا أثر لشيء منها إلاّ في مواطنهم، فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة...[(١١٦٧)]

هذه هي حقيقة مذهب الجمهور، وليس كما يدعي ابن حجر، فأهل البيت في رأيهم ليسوا إلاّ شذاذاً مبتدعين، ولا يختلفون عن الخوارج، ولعمري ما الخطأ في تمسك الشيعة بأقوال أئمتهم من أهل البيت إلى درجة رفع الخلاف عن أقوالهم والقول بعصمتهم، وقد أثبت النبي(صلى الله عليه وآله) لهم ذلك، حين قرنهم بالقرآن الكريم الذي هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، وأنهم لا يفترقون عن هذا الكتاب المعصوم الى يوم الورود على الحوض، وأين قول الجمهور باعتبار عمل الصحابة حجة لا تُرد، حتى «وجدنا مالكاً يأخذ بفتواهم على أنها من السنّة، ويوازن بينها وبين الأخبار المروية إن تعارض الخبر مع فتوى صحابي، وهذا ينسحب على كل حديث عنه(صلى الله عليه وآله)حتى ولو كان صحيحاً»[(١١٦٨)].

ولكن موقف مالك هذا لا ينطبق على جميع الصحابة، «فأحمد بن حنبل وكثير من العلماء يتبعون علياً فيما سنّه، كما يتبعون عمر وعثمان فيما سنّاه، وآخرون من العلماء ـكمالك وغيره ـ لا يتبعون علياً فيما سنه! وكلهم متفقون على أتباع عمر وعثمان فيما سنّاه»[(١١٦٩)].

إن علينا أن ننوّه الى مسألة مهمة هي أن علي بن أبي طالب لم تكن له سنّة متفردة كبقية الخلفاء، بل كان يتبع سنة النبي(صلى الله عليه وآله)، ولم يقتصر الاجتهاد بالرأي في مقابل النصوص النبويّة على الصحابة وحدهم، بل تعداه الى التابعين أيضاً، وفي ذلك يقول أبو زهرة في معرض حديثه عن فقهاء المدينة: ويلاحظ أن هؤلاء الفقهاء السبعة كان أكثرهم ممن يجمع بين دقة الرواية وصدقها، والتخريج والافتاء بالرأي... وكذلك كان يكثر التخريج والافتاء بالرأي: القاسم بن محمد، وعبيد الله بن عبد الله بن مسعود، وسليمان بن يسار، وخارجة... ولقد نقل علم هؤلاء وغيرهم اثنان هما : ابن شهاب الزهري ـ الذي كان يعدّ من صغار التابعين ـ وربيعة الرأي، وكلاهما تتلمذ له الامام مالك...[(١١٧٠)]

(١١٦٧) المقدمة ; الفصل السابع : في علم الفقه : ص ٣٣٩ .
(١١٦٨) أبو زهرة : مالك : ص ٢٩٠ .
(١١٦٩) منهاج السنة لابن تيمية ٣ : ٢٠٥ .
(١١٧٠) تاريخ المذاهب الاسلامية : ٤٦٢ .

وكانت نتيجة هذا الاتباع، تكوّن هذه المذاهب والخلاف بينها، حتى اضطر الجمهور في نهاية الأمر الى غلق باب الاجتهاد تضييقاً لدائرة الخلاف، بينما نجد الشيعة قد تمسكوا منذ البداية بالخط الذي رسمه النبي(صلى الله عليه وآله)، وفي ذلك يقول أبو زهرة: والشيعة الإمامية يقررون أن الاجتهاد أبوابه مفتوحة عندهم، وعند النظر في اجتهادهم، نجد أنهم يقررون أن بناء الفقه عندهم على كتاب الله، والسنّة المرويّة بطريقهم... ويعدّون أقوال أئمتهم من السنّة، ولا إمامة عندهم لأحد غير الائمة الذين أقروا لهم بالخضوع، وهم اثنا عشر، فقول الإمام جعفر الصادق حجة في الأُصول والفروع معاً، وليس لهم أن يغيروا فيه، وكذلك أقوال أبيه وأجداده، وأقوال أبنائه وأحفاده من بعدهم، إلى آخر الذين اعترفوا لهم بالإمامة... وإننا لو نظرنا الى الأمر بمنطقهم -وهو اعتبار أقوال الأئمة من السنّة، وليسوا كأئمة المذاهب الأُخرى، كمذهب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد - فان الاجتهاد الذي فتحوه يكون مطلقاً، أما إذا نظرنا الى ائمتهم كما ينظر الجمهور الى أئمة المذاهب، فإن اجتهادهم لا يكون مطلقاً، بل إنه لا يتجاوز أنه تخريج على أقوال الأئمة - وخصوصاً الإمام الصادق- فليس اجتهادهم على هذا إلاّ تخريجاً، لأنهم لا يخالفون الأئمة في أُصول ولا فروع...[(١١٧١)]

فالشيعة إذاً هم المستمسكون بالخط الأصيل الذي رسمه النبي(صلى الله عليه وآله)، ولذلك يمكننا أن نعرف السبب الذي دفع الزنادقة كسيف بن عمر الى نسبة الشيعة لعبد الله بن سبأ، ولماذا تتكاتف جهود الأُمويين والزنادقة والمستشرقين الحاقدين على الإسلام على تشويه صورة الشيعة في أذهان الناس لكي تبقى حقيقة الإسلام خافية على المسلمين إلى الأبد، وتبقى أسباب الفرقة والشحناء تؤجج نيران التعصب المذهبي بينهم، وبذلك يستطيع سيف ابن عمر وأمثاله أن يناموا قريري العين.

وهذا ما سوف نتناوله في كتابنا القادم «حقيقة التشيع» إن شاء الله تعالى .

(وَأَنَّ هذا صِراطي مُستَقيماً فا تَّبعُوهُ وَلا تَتَّبعُوا السُّبُلَ فَتفَرَّقَ بكُمْ عَنْ سَبيلهِ ذٰلِكُمْ وَصّاكُمْ بهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[(١١٧٢)] .

انتهى بحمد الله

(١١٧١) المصدر السابق : ٣٣٣

(١١٧٢) الأنعام : ١٥٣ .

فهرس المصادر

فهرس المصادر

ـ أ ـ

المصدر المؤلف

١ ـ أئمة الفقه التسعة عبدالرحمن الشرقاي

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ)

٣ ـ الإجابة نور الدين الزركشي المتوفى (٧٤٩ هـ)

٤ ـ الأحكام السلطانية أبوالحسن علي بن محمد بن حبيب المصري البغدادي الشهير بالماوردي المتوفى (٤٥٠ هـ)

٥ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي المتوفى (٣٧٥ هـ)

٦ ـ الأدب المفرد محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى (٢٥٦ هـ)

٧ ـ الاختلاف في اللفظ أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة المتوفى (٢٧٦ هـ)

٨ ـ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري شهاب الدين أبوالعباس أحمد بن محمد بن أبي بكربن عبدالملك القسطلاني المتوفى (٩٢٣ هـ)

٩ ـ أُسد الغابة في معرفة الصحابة علي بن محمد بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير المتوفى (٦٣٠ هـ)

١٠ ـ أسباب ردّ الحديث د. محمد محمود البكار

المصدر المؤلف

١١ ـ أسباب النزول أبوالحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري المتوفى (٤٦٨ هـ)

١٢ ـ الاستيعاب يوسف بن عبدالله بن محمدبن عبدالبر المتوفى(٤٦٣ هـ)

١٣ ـ الأسرار المروعة في الأخبار الموضوعة ملا علي القاري المتوفى (١٠١٤ هـ)

١٤ ـ أسماء الصحابة الرواة أبومحمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى (٤٥٦ هـ)

١٥ ـ أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب(عليه السلام) محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري الشافعي المتوفى (٨٣٣ هـ)

١٦ ـ الإصابة في تمييز الصحابة أحمد بن علي بن محمد بن حجر الكناني العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ)

١٧ ـ أضوء على السنّة النبوية محمود أبو ريّه

١٨ ـ أعلام النساء عمر رضا كحالة المتوفى (١٤٠٨ هـ)
١٩ ـ الأغاني علي بن الحسين بن محمد المعروف أبي الفرج الأصفهاني المتوفى (٤٥٧ هـ)
٢٠ ـ الإمامة والسياسة ابن قتيبة المتوفى (٢٧٦ هـ)
٢١ ـ الأمّ أبوعبدالله محمد بن أدريس الشافعي المتوفى (٢٠٤ هـ)
٢٢ ـ الأموال أبوعبيد قاسم بن سلام البغدادي المتوفى (٢٢٤ هـ)
٢٣ ـ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء ابن عبدالبر المتوفى (٤٦٣ هـ)
٢٤ ـ أنساب الأشراف أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري المتوفى (٢٧٩ هـ)

- ب -

٢٥ ـ البدء والتاريخ أبوزيد أحمد بن سهل البلخي المتوفى (٣٤٠ هـ)
٢٦ ـ الباعث الحثيث أبوالفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المصدر المؤلف
المعروف بابن كثير المتوفى (٧٧٤هـ)
٢٧ ـ بحوث في تاريخ السنّة المشرفةأكرم ضياء العمري
٢٨ ـ البداية والنهاية ابن كثير المتوفى (٧٧٤ هـ)
٢٩ ـ بلاغات النساء أبومحمد أحمد بن طيفور البغدادي المتوفى (٢٨٠ هـ)
٣٠ ـ بيعة علي بن أبي طالب حسن بن فرحان المالكي

- ت -

٣١ ـ تاج العروس من جواهر القاموس محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي المتوفى (١٢٠٥ هـ)
٣٢ ـ تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري) أبوجعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى (٣١٠ هـ)
٣٣ ـ تاريخ الإسلام جواد علي
٣٤ ـ تاريخ الإسلام أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز
شمس الدين الذهبي الدمشقي الشافعي المتوفى(٦٧٣ هـ)
٣٥ ـ تاريخ بغداد أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣ هـ)
٣٦ ـ تاريخ التراث العربيفؤاد سزكين
٣٧ ـ تاريخ خليفة بن خياط خليفة بن خياط العصفري البصري المتوفى (٣٤٠ هـ)
٣٨ ـ تاريخ الدارمي عثمان بن سعيد بن خالد الشافعي الدارمي المتوفى (٢٨٠ هـ)
٣٩ ـ تاريخ الدوري أبوالفضل عباس بن محمد بن حاتم بن واقد الدوري المتوفى (٢٧١ هـ)
٤٠ ـ التاريخ الصغير محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى (٢٥٦ هـ)
المصدر المؤلف

٤١ ـ التاريخ العربي والمؤرخون شاكر مصطفى
٤٢ ـ التاريخ الكبير محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى (٢٥٦ هـ)
٤٣ ـ تاريخ المدينة (أخبار مدينة الرسول) أبوزيد عمر بن شبه النميري البصري المتوفى (٢٦٢ هـ)
٤٤ ـ تاريخ ابن شحنة عبدالغني بن أحمد بن شحنة الحنفي المتوفى (٨١٥ هـ)
٤٥ ـ تاريخ دمشق أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر المتوفى (٥٧١ هـ)
٤٦ ـ تاريخ الخلفاء جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ)
٤٧ ـ تاريخ ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي المتوفى (٨٠٨ هـ)
٤٨ ـ تاريخ الخيمس في أحوال نفس النفيس حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري المتوفى (٩٦٦ هـ)
٤٩ ـ تاريخ الدول العربية ثابت إسماعيل الراوي
٥٠ ـ تاريخ عمر أبوالفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي الجوزي القرشي التميمي المتوفى (٥٩٧ هـ)
٥١ ـ تاريخ أبي الفداء أبوالفداء إسماعيل بن علي بن محمود الأيوبي المتوفى (٧٣٢ هـ)
٥٢ ـ تاريخ المذاهب الإسلامية محمد أبو زهرة (١٩٧٤ م)
٥٣ ـ تاريخ اليعقوبي أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي المتوفى (٢٨٤ هـ)
٥٤ ـ تأويل مختلف الحديث ابن قتيبة المتوفى (٢٧٦ هـ)
٥٥ ـ تحفة الأشراف يوسف بن عبدالرحمن بن يوسف الكلبي المزي المتوفى (٧٤٢ هـ)
المصدر المؤلف
٥٦ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي أبوالعلاء محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري المتوفى (١٣٥٣ هـ)
٥٧ ـ تحقيق موقف الصحابة في الفتنة محمد الحزون
٥٨ ـ تدريب الراوي جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ)
٥٩ ـ تدوين السنّة إبراهيم فوزي
٦٠ ـ تذكرة الحفّاظ شمس الدين الذهبي المتوفى (٦٧٣ هـ)
٦١ ـ تذكرة الخواص أبوالمظفر يوسف بن قزعلي بن عبدالله سبط ابن الجوزي المتوفى (٦٥٤ هـ)
٦٢ ـ التذكرة في أحوال الموتى محمد بن أحمد بن أبي بكر فرج الأنصاري أبوعبدالله القرطبي المالكي المتوفى (٦٧١ هـ)
٦٣ ـ تطهير الجنان أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري المتوفى (٩٧٤ هـ)
٦٤ ـ التفسير الكبير محمد بن عمر الرازي فخر الدين الرازي المتوفى (٦٠٦ هـ)
٦٥ ـ تفسير القرآن الكريم ابن كثير المتوفى (٧٤٧ هـ)
٦٦ ـ تفسير الخازن علاء الدين البغدادي الخازن المتوفى (٧٢٥ هـ)

٦٧ ـ تفسير النسفي أبوإسحاق إبراهيم بن معقل بن الحجاج النسفي المتوفى (٢٩٥ هـ)

٦٨ ـ تقريب التهذيب ابن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ)

٦٩ ـ تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل أبوبكر محمد بن الطيب بن محمد القاسم البصري الباقلاني المتوفى (٤٠٣ هـ)

٧٠ ـ تنزيه السنّة والشريعة أبوالحسن على بن محمد بن عراق الكناني المتوفى (٩٦٣ هـ)

المصدر المؤلف

٧١ ـ تنوير الحوالك جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ)

٧٢ ـ تهذيب التهذيب ابن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ)

٧٣ ـ تهذيب الكمال يوسف بن عبدالرحمن المزي المتوفى (٧٤٢ هـ)

ـ ث ـ

٧٤ ـ الثقات محمد بن حبان بن أحمد بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي المتوفى (٩٥٤ هـ)

ـ ج ـ

٧٥ ـ جامع الأصول مبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري الشافعي المتوفى (٦٠٦ هـ)

٧٦ ـ جامع بيان العلم يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري المتوفى (٤٦٣ هـ)

٧٧ ـ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله الأنصاري القرطبي المتوفى (٦٧١هـ)

٧٨ ـ جامع البيان في تأويل القرآن أبي جعفر محمد بن جرير بن زيد الطبري المتوفى (٣١٠ هـ)

٧٩ ـ الجامع الترمذي (سنن الترمذي) أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتوفى (٢٧٩ هـ)

٨٠ ـ الجامع الصغير جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ)

٨١ ـ الجامع لأخلاق الراوي الخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣ هـ)

٨٢ ـ الجرح والتعديل أبي محمد عبدالرحمن أبي حاتم محمد بن إدريس التميمي الرازي المتوفى (٣٢٧ هـ)

٨٣ ـ جمع الجوامع جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ)

ـ ح ـ

المصدر المؤلف

٨٤ ـ الحديث والمحدثون محمد أبوزهرة المتوفى (١٣٩٤ هـ)

٨٥ ـ حلية الأولياءأبونعيم أحمد بن عبدالله الاصبهاني المتوفى (٤٣٠ هـ)

٨٦ ـ حياة الحيوانمحمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري المتوفى (٨٠٨هـ)

٨٧ ـ حياة الصحابة   محمد يوسف الكاندهلوي المتوفى (١٣٨٤ هـ)

- خ -

٨٨ ـ خصائص أميرالمؤمنين(عليه السلام) أحمد بن شعيب النسائي المتوفى (٣٠٣ هـ)
٨٩ ـ الخطط   أحمد بن علي بن عبدالقادر الحسيني   العبيدي تقي الدين المقريزي المتوفى (٨٤٥ هـ)
٩٠ ـ الخلافة ونشأة الأحزاب السياسية   محمد عمارة
٩١ ـ الخلفاء الراشدون   طه حسين المتوفى (١٣٩٣ هـ)

- د -

٩٢ ـ دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي عمر ماهر حماده
٩٣ ـ الدر المنثور جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ)
٩٤ ـ دلائل النبوة إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الاصبهاني   المتوفى (٥٣٥هـ)
٩٥ ـ دلائل النبوة أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيقهي   المتوفى (٤٥٨ هـ)
٩٦ ـ دول الإسلام شمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٦ هـ)
٩٧ ـ الدولة الأموية   يوسف بن رشيد العش المتوفى (١٣٨٧ هـ)

- ر -

المصدر   المؤلف
٩٨ ـ الرد على الرافضة   المقدسي
٩٩ ـ روح البيان الآلوسي المتوفى (١٢٧٠ هـ)
١٠٠ ـ الروض الآنف أبوالقاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي   المتوفى (٥٨١ هـ)
١٠١ ـ الرياض النضرة   محمد الدين الطبري المتوفى (٦٩٤ هـ)

- س -

١٠٢ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة   محمد ناصر الألباني
١٠٣ ـ السنن الكبرى أحمد بن شعيب النسائي المتوفى (٣٠٣ هـ)
١٠٤ ـ سنن ابن ماجة أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة   المتوفى (٢٧٣ هـ)
١٠٥ ـ السنن الكبرى أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى (٤٥٨ هـ)
١٠٦ ـ سنن الدارمي عثمان بن سمية بن خالد الدارمي المتوفى (٢٨٠ هـ)
١٠٧ ـ سنن أبي داود أبوداود سليمان بن الأشعث السجستاني   المتوفى (٢٧٥٠ هـ)
١٠٨ ـ سؤالات الآجري   أبوداود سليمان بن الأشعث السجستاني   المتوفى (٢٧٥ هـ)
١٠٩ ـ سير أعلام النبلاء شمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٦ هـ)
١١٠ ـ السيرة الحلبية علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي المتوفى (١٠٤٤ هـ)
١١١ ـ السيرة النبوية والآثار المحمدية السيد أحمد زيني دحلان المتوفى ١٣٠٤ هـ)

١١٢ ـ السيرة النبوية لابن هشام أبو محمد عبدالملك بن هشام المعافري المتوفى (٢١٣ هـ)
١١٣ ـ السيرة النبوية أبي الفداء إسماعيل بن كثير المتوفى (٧٧٤ هـ)

ـ ش ـ

المصدر المؤلف

١١٤ ـ شح نهج البلاغة لابن أبي الحديد أبوحامد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين ابن أبي الحديد المدائني المتوفى (٦٥٦ هـ)
١١٥ ـ شرح الموطأ محمد بن عبدالباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني
١١٦ ـ شرح صحيح مسلميحيى بن شرف بن مري بن حسن النووي المتوفى (٦٧٦ هـ)
١١٧ ـ شرح المقاصد سعدالدين التفتازاني المتوفى (٧٩٣ هـ)
١١٨ ـ شرح أصحاب الحديث الخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣ هـ)
١١٩ ـ شعب الإيمان البيهقي المتوفى (٢٧٣ هـ)

ـ ص ـ

١٢٠ ـ صحيح البخاري محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى (٢٥٦ هـ)
١٢١ ـ صحيح مسلم مسلم بن الحجاب القشيري المتوفى (٢٦١ هـ)
١٢٢ ـ صفة الصفوة أبي الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي المتوفى(٥٩٧هـ)
١٢٣ ـ صحيح ابن حبان محمد بن حبان المتوفى (٩٥٤ هـ)
١٢٤ ـ الصواعق المحرقةابن حجر الهيثمي المتوفى (٩٧٤ هـ)
١٢٥ ـ صبح الأعشى أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي المتوفى (٨٢١ هـ)
١٢٦ ـ صحيح ابن خزيمة أبوبكر محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري المتوفى (٣١١ هـ)

ـ ض ـ

١٢٧ ـ الضعفاء والمتروكين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي المتوفى (٥٩٧ هـ)
المصدر المؤلف
١٢٨ ـ الضعفاء والمتروكين أحمد بن شعيب النسائي المتوفى (٣٠٣ هـ)
١٢٩ ـ الضعفاء أبونعيم الأصبهاني المتوفى (٤٣٠ هـ)

ـ ط ـ

١٣٠ ـ الطبقات الكبرى ابن سعد محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري المتوفى (٢٣٠ هـ)
١٣١ ـ طبقات الحنابلةمحمد ابن أبي يعلى المتوفى (٥٢٦ هـ)

- ع -

١٣٢ ـ العواصم من القواصم أبو بكر محمد بن عبدالله المعافري المالكي ابن العربي المتوفى (٤٥٣ هـ)

١٣٣ ـ العِقد الفريد أحمد بن محمد عبدربّه الأندلسي المتوفى (٣٢٨ هـ)

١٣٤ ـ عون المعبود أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي المتوفى (١٣٢٣ هـ)

١٣٥ ـ عمدة القاري بدرالدين أبي محمد محمود أحمد العيني المتوفى (٨٥٥ هـ)

١٣٦ ـ عيون التواريخ محمد بن شاكر الكتبي المتوفى (٧٦٤ هـ)

١٣٧ ـ العلل أحمد بن حنبل المتوفى (٢٤١ هـ)

١٣٨ ـ عيون الأثر أبوالفتح محمد بن محمد المعروف بابن سيّدالناس المتوفى (٧٣٤ هـ)

- ف -

١٣٩ ـ الفهرست ابن النديم أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب ابن إسحاق النديم المعروف بالوراق المتوفى (٣٨٥ هـ)

المصدر المؤلف

١٤٠ ـ الفتنة الكبرى طه حسين المتوفى (١٣٩٣ هـ)

١٤١ ـ فجر الإسلام أحمد أمين المتوفى (١٣٧٣ هـ)

١٤٢ ـ فتوح البلدان أحمد بن عيسى بن جابر البلاذري المتوفى (٢٧٩ هـ)

١٤٣ ـ الفائق في غريب الحديث جادالله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى (٥٢٨ هـ)

١٤٤ ـ فتح القدير محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى (١٢٥ هـ)

١٤٥ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري ابن حزم المتوفى (٤٥٦ هـ)

١٤٦ ـ الفضائل أحمد بن حنبل المتوفى (٢٤١ هـ)

١٤٧ ـ فيض القدير محمد عبدالرؤوف المناوي المتوفى (١٠٣١ هـ)

١٤٨ ـ فتح الباري ابن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ)

١٤٩ ـ الفتح والملاحم أبونعيم الاصبهاني المتوفى (٤٣٠ هـ)

١٥٠ ـ فردوس المأثور شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمي المتوفى (٥٠٩ هـ)

- ق -

١٥١ ـ قواعد التحديث جمال الدين القاسمي المتوفى (١٢٨٤ هـ)

- ك -

١٥٢ ـ كيف نكتب التاريخ محمد قطب

١٥٣ ـ الكفاية في علم الدراية أبوبكر الخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣ هـ)

١٥٤ ـ الكامل في الضعفاء أبوأحمد بن عبدالله بن عدي الجرجاني (ابن عدي) المتوفى (٣٦٥ هـ)
١٥٥ ـ الكنى أبو بشر محمد بن أحمد الرازي الدولابي المتوفى (٣١٠ هـ)
المصدر المؤلف
١٥٦ ـ كنز العمال علي المتقي بن حسام الدين الهندي المتوفى (٩٧٥ هـ)
١٥٧ ـ الكشّاف جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى (٥٢٨ هـ)
١٥٨ ـ الكامل في التاريخ أبي الحسن ابن أبي الكرم ابن الأثير المتوفى (٦٣٠ هـ)
١٥٩ ـ كتاب السنّةابن أبي عاصم
١٦٠ ـ كنوز الدقائق محمد عبدالرؤوف المناوي المتوفى (١٠٣١ هـ)
١٦١ ـ الكامل أبوالعباس محمد بن يزيد الأزدي البصري المبرد المتوفى ٢٨٥هـ)

- ل -

١٦٢ ـ لسان الميزان ابن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ)
١٦٣ ـ لسان العرب أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور المتوفى (٧١١ هـ)
١٦٤ ـ اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة جلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١ هـ)

- م -

١٦٥ ـ معالم التنزيل أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي المتوفى (٥١٦ هـ)
١٦٦ ـ المحاسن والمساوئ أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي المتوفى (٤٥٨ هـ)
١٦٧ ـ المختصر في أخبار البشر إسماعيل بن علي أبوالفداء المتوفى (٧٣٢ هـ)
١٦٨ ـ مسند الشاميينأبي القاسم سليمان بن أيوب اللخمي الطبراني المتوفى (٣٦٠هـ)
١٦٩ ـ المواهب اللدنية شهاب الدين أحمد القسطلاني
١٧٠ ـ الملل والنحل محمد بن عبدالكريم الشهرستاني المتوفى (٥٤٨ هـ)
المصدر المؤلف
١٧١ ـ مجموعة فتاوى ابن تيمية تقي الدين الحراني ابن تيمية المتوفى (٧٢٨ هـ)
١٧٢ ـ مقدمة ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد بن خلدون المتوفى (٨٠٨ هـ)
١٧٣ ـ مالك بن أنس محمد أبوزهرة
١٧٤ ـ المنتظمابن الجوزي المتوفى (٥٩٧ هـ)
١٧٥ ـ المحبّر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي المتوفى (٢٤٥ هـ)
١٧٦ ـ مسند أبي عوانة يعقوب بن إسحاق النيسابوري الاسفراييني المتوفى (٣١٦ هـ)
١٧٧ ـ المنار محمد رشيد رضا
١٧٨ ـ مشكل الآثار أبوجعفر محمد بن أحمد الأزدي الطحاوي المتوفى (٣٢٢ هـ)
١٧٩ ـ معجم البلدان ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي المتوفى (٦٢٦ هـ)
١٨٠ ـ مشكاة المصابيح ابن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ)

١٨١ ـ المحدث الفاصل الحسن بن عبدالرحمن خلاد الرامهرمزي الفارسي المتوفى (٣٦٠هـ)

١٨٢ ـ الموفقيات الزبير بن بكار الأسدي المتوفى (٢٥٦ هـ)

١٨٣ ـ الموطأ مالك بن أنس المتوفى (١٧٩ هـ)

١٨٤ ـ المبسوط محمد بن أحمد السرخسي الحنفي المتوفى (٤٨٣ هـ)

١٨٥ ـ المغني عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المتوفى (٦٢٠ هـ)

١٨٦ ـ المجموع في شرح المهذب يحيى بن شرف النووي المتوفى (٦٧٦ هـ)

١٨٧ ـ المحلّى محمد بن علي بن حزم المتوفى (٤٥٦ هـ)

١٨٨ ـ الموضوعات ابن الجوزي المتوفى (٥٩٧ هـ)

١٨٩ ـ مسند الطيالسي أبويزيد همام بن عبدالملك الطيالسي المتوفى(٢٢٧ هـ)

١٩٠ ـ مسند الحميدي أبوبكرعبدالله بن الزبير الحميدي المتوفى (٢١٩ هـ)

١٩١ ـ مسند أبي يعلى أحمد بن علي المثنى أبويعلى الموصلي المتوفى (٣٠٧ هـ)

المصدر المؤلف

١٩٢ ـ موسوعة المستشرقين عبدالرحمن البدوي

١٩٣ ـ مختصر تاريخ دمشق محمدبن مكرم المعروف بابن منظورالمتوفى (٧١١ هـ)

١٩٤ ـ المعارف ابن قتيبة المتوفى (٢٧٦ هـ)

١٩٥ ـ مرآة الجنان أبي السعادات عبدالله بن أسعد المتوفى (٧٧١ هـ)

١٩٦ ـ محاضرات الراغب الراغب الاصفهاني المتوفى (٤٢٥ هـ)

١٩٧ ـ مصابيح السنّة الحسين بن مسعود أبي محمد البغوي المتوفى (٥١٦ هـ)

١٩٨ ـ من دولة عمر الى دولة عبدالملك إبراهيم بيضون

١٩٩ ـ المغازي محمد بن عمر بن واقد الواقدي المتوفى (٢٠٧ هـ)

٢٠٠ ـ المنتقى ابن تيمية المتوفى (٧٢٨ هـ)

٢٠١ ـ محاضرات في التاريخ الإسلامي الخضري بك المتوفى (١٣٤٥ هـ)

٢٠٢ ـ منهاج السنّة النبوية ابن تيمية المتوفى (٧٢٨ هـ)

٢٠٣ ـ مسند أحمد أبي عبدالله الشيباني أحمد بن حنبل المتوفى (٢٤١ هـ)

٢٠٤ ـ مجمع الزوائد نور الدين بن أبي بكر الهيثمي المتوفى (٨٠٧ هـ)

٢٠٥ ـ المستدرك على الصحيحين أبي عبدالله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري المتوفى(٤٠٥هـ)

٢٠٦ ـ المصنّف عبدالله بن محمد ابن أبي شيبة المتوفى (٢٣٥ هـ)

٢٠٧ ـ المصنّف أبوبكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني المتوفى (٢١١ هـ)

٢٠٨ ـ المعجم الكبير أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى (٣٦٠ هـ)

٢٠٩ ـ المعجم الأوسط أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى (٣٦٠ هـ)

٢١٠ ـ المعجم الصغير أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني المتوفى(٣٦٠ هـ)

٢١١ ـ معرفة علوم الحديث الحاكم النيسابوري المتوفى (٤٠٥ هـ)

٢١٢ ـ ميزان الاعتدالشمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٨ هـ)

المصدر المؤلف

٢١٣ ـ معجم الأُدباء ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي المتوفى (٦٢٦ هـ)

٢١٤ ـ محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية محمد الخضري بك المتوفى (١٣٤٥ هـ)

٢١٥ ـ مقدمة في تاريخ صدرالإسلام عبدالعزيز الدوري

٢١٦ ـ مقدمة ابن صلاح أبي عمرو عثمان بن عبدالرحمن الشهرزدي المتوفى (٦٤٣ هـ)

٢١٧ ـ المنهل الروي محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي المتوفى (٧٣٣ هـ)

٢١٨ ـ مروج الذهب أبي الحسن علي بن محمد المسعودي المتوفى (٣٤٦ هـ)

- ن -

٢١٩ ـ النظريات السياسية في الإسلام محمد عمارة

٢٢٠ ـ النزاع والتخاصم أبوالعباس أحمد بن علي المقريزي المتوفى (٨٤٥ هـ)

٢٢١ ـ نيل الأوطار محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى (١٢٥٠ هـ)

٢٢٢ ـ النجوم الزاهرةأبوالمحاسن يوسف بن تغري الحنفي المتوفى (٨٧٤ هـ)

٢٢٣ ـ نهاية الإرب أحمدبن عبدالوهاب النويري الكندي المتوفى(٧٣٢ هـ)

٢٢٤ ـ النصائح الكافية محمد بن عقيل المتوفى (١٣٢٨ هـ)

- و -

٢٢٥ ـ وفاء الوفاء علي بن عبدالله الشافعي السمهودي المتوفى (٩١١ هـ)

٢٢٦ ـ وقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري المتوفى (٢١٢ هـ)

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

كلمة المجمع ... ٥
المقدمة ...٧

الفصل الأوّل: المنعطف ...١١
مع المذاهب ...١٥
مع الصوفية ...١٨
أفكار جديدة ...٢٠
الدعوة ...٢٢
الانفصام ...٢٣
العواصم من القواصم ...٢٤

الفصل الثاني: التاريخ الإسلامي...٣١
أهمية علم التاريخ ...٣٣
نظرتان مختلفتان للتاريخ ...٣٥
مصاعب البحث ...٣٨
مراحل التدوين ...٤٢
المواقف من المؤرخين...٥٠
روافد الطبري...٥٦

الفصل الثالث: الفتنة ...٧٣
مقدمات الفتنة ...٧٥
عثمان وابن مسعود ...٨١
عثمان وأبو ذر الغفاري ...٨٥

عثمان وعمار بن ياسر ...٩٨
عثمان وولاته وعمّاله ...١٠٩
الوليد بن عقبة...١١١
حقيقة الوليد بن عقبة ...١١٩
التشبث بقشة الغريق...١٢٤
مروان بن الحكم ...١٢٦
مروان وطلحة...١٣١
سعد بن عبد الله بن أبي سرح...١٣٥
حوادث اُخرى...١٣٨
ردّ الحَكم ...١٣٨
الحمــى ...١٤٣
حادثة الهرمزان ...١٤٦
إتمام الصلاة ...١٥٤

الفصل الرابع: تصاعد الأحداث ...١٦١
يوم الجرعة ...١٨٢
المسير الى المدينة ...١٩٠
كُتب أهل المدينة الى الامصار ...١٩٧
دور مروان ...٢٠١
الكتاب المشؤوم ...٢٠٧
موقف عثمان من الخلافة ...٢١١
بداية النهاية ...٢١٧
تزييف الوقائع...٢٢١
الموقف من قتلة عثمان...٢٢٣
دفن عثمان ...٢٣٢

الفصل الخامس: أصحاب الجمل ...٢٤١
حوادث ما قبل الخروج...٢٤٤

بدء النقمة ...٢٤٥
بدء التمرد ...٢٤٨
عائشة والتحالف ...٢٥٠
المسير الى البصرة ...٢٥٣
الحوأب ...٢٥٥
يوم الجمل الأصغر ...٢٥٧
حقيقة الأمر ...٢٦١
التفاوض ...٢٦٣
الدوافع الحقيقية للخروج ...٢٦٧
بدء المعركة ...٢٧٦
وقعة الجمل الأكبر ...٢٨٥
تناقض الرواية وتهافت المؤلفين...٢٨٩
المعركة على حقيقتها ...٢٩٣
نكث البيعة ...٢٩٦
سوابق أصحاب الجمل ...٢٩٨
إخبار النبي عن الصحابة ...٣٠٠
ادعاءات فارغة ...٣٠٥

الفصل السادس: الأهداف المشتركة للتزييف ...٣١٣
الخطوات الأولى للتزييف ...٣١٥
الزهري والسيرة النبوية ...٣١٩
المستشرقون والتزييف ...٣٢٣
موقف الجمهور ...٣٢٨
بين الزنادقة والأمويين ...٣٣١

الفصل السابع: معاوية وعلي ...٣٣٧
البغاة ...٣٤٣
الموقف من عمّار ...٣٦٠
القاسطون ...٣٦٤

البدريون والرضوانيون ...٣٦٩
قضية التحكيم ...٣٧٥
سوابق لأبي موسى الأشعري...٣٨٤
عمرو بن العاص...٣٨٧

الفصل الثامن: معاوية بن أبي سفيان...٤٠٣
١ ـ لبس الحرير وجلود السباع ...٤٠٦
٢ ـ الاستئثار بمال الفيء ...٤٠٧
٣ ـ اسقاط الحد ...٤١٠
٤ ـ إستلحاق زياد ...٤١١
٥ ـ أكل الربا ...٤١٧
٦ ـ بيع الأصنام ...٤٢١
٧ ـ شرب الخمر ...٤٢٣
معاوية وشرائع الإسلام ...٤٣١
١ ـ الأذان في العيدين ...٤٣٢
٢ ـ ترك البسملة والتكبير ...٤٣٤
٣ ـ ترك التلبية ...٤٣٥
٤ ـ قتل الصحابة...٤٣٧
معاوية وحجر بن عدي...٤٤٠
العباسيون ومعاوية ...٤٤٦
تغيّر موقف العباسيين من معاوية ...٤٤٩
العباسيون والعلويين...٤٥٠
كتاب المعتضد في معاوية...٤٥٤
أبو سفيان ...٤٦٣
هند بنت عتبة ...٤٦٧
مناقب معاوية ومثالبه ...٤٦٨
لعن النبي(صلى الله عليه وآله) لمعاوية والحكم ...٤٧١
دعاء النبي على معاوية وعمرو...٤٧٦
معاوية على المنبر ...٤٨٠

الفصل التاسع: النصوص على الخلافة ...٤٩٥
حادثة الغدير وحديثها ...٥٠١
الكتاب العاصم ...٥٠٣
كتاب لأبي بكر ...٥٠٥
خطبة النبي(صلى الله عليه وآله) في أبي بكر ...٥٠٦
صلاة أبي بكر...٥٠٧

الفصل العاشر: دور الحديث النبوي ...٥١١
محاولات الجمع والتوفيق ...٥١٣
رأي ابن حجر العسقلاني ...٥١٤
رأي ابن كثير ...٥١٥
القول الفصل ...٥١٦
المرأة المجهولة ...٥١٩

أموال أبي بكر...٥٢٠
حديث الخلّة ...٥٢٦
محاولات الدفع ...٥٣١
إمامة أبي بكر للمصلّين ...٥٤١
صلاة القاعد ...٥٥١
شروط إمامة الصلاة ...٥٥٦
الأكبر سنّاً ...٥٦٠
الأوّل إسلاماً ...٥٦٠
إمامة الصلاة وإمامة الأمّة ...٥٦٤

الفصل الحادي عشر: تزييف الحديث النبوي ...٥٧١
تزييف المثالب ...٥٧٦
مناقب عثمان ...٥٨١
مناقب الصحابة ...٥٨٦

الفصل الثاني عشر: حبيب النبيّ(صلى الله عليه وآله) ...٥٩٣
حديث الطير ...٥٩٥
مناقب عمر...٥٩٩
موافقات عمر ...٦٠٥
قرين الحق ...٦٠٩
العشرة المبشرة بالجنة ...٦١١

الفصل الثالث عشر: تدوين الحديث ...٦١٧
السلطة والحديث ...٦٢١
الموقف من علي ...٦٢٣
المتوكل العباسي وعلي...٦٢٦
موقف المحدّثين من الرواة: ...٦٢٨
مواقف المحدثين من أهل البدع ...٦٣١
١ - الموقف من النواصب : ...٦٣٣
٢ - الموقف من الشيعة...٦٤١
دوافع الوضع في الحديث ...٦٥١

الفصل الرابع عشر: الوصيّة ...٦٦١
الإشارة الأولى للوصيّة...٦٦٤
من القائل بالوصية ؟ ...٦٧٠
تزييف النصّ ...٦٧٢
الولاية والخلافة ...٦٧٨
الولاية مرة أخرى ...٦٨١
السبب الحقيقي لنزول الآية ...٦٨٤

الفصل الخامس عشر: السقيفة...٦٨٩
رواية الطبري عن سيف ...٦٩٤
الآراء المضادة ...٦٩٥

رواية عمر بن الخطاب ...٦٩٦
المعارضون للبيعة ...٧٠٠
عليّ قبل البيعة وبعدها ...٧٠٢
مواقف بعض الصحابة من السقيفة ...٧٠٣
معارضة الأنصار ...٧٠٧
كشف بيت فاطمة...٧١٢
موقف فاطمة ...٧١٥
مواقف قريش ...٧٢٠
الضغائن...٧٢٢
التدابير القرشية ...٧٢٥
بعثة أسامة بن زيد ...٧٢٦
يوم الخميس الحزين...٧٣٠

الفصل السادس عشر: حديث الثقلين ...٧٣٧
دفع الألباني لدلالة الحديث...٧٤١
أهل البيت ...٧٤٢
استدراك آخر ...٧٤٧
الاثنا عشر خليفة ...٧٤٨
ما الذي حدث ...٧٥٣
مخالفة النبي ...٧٥٦
حديث المغفرة...٧٥٩
المواقف من الصحابة ...٧٦٢
لماذا عدالة الصحابة...٧٦٩
الصحابة والنص ...٧٧٣
المستمسكون بالنص...٧٧٧
فهرس المصادر ...٧٨٣
محتويات الكتاب ... ٧٩٩